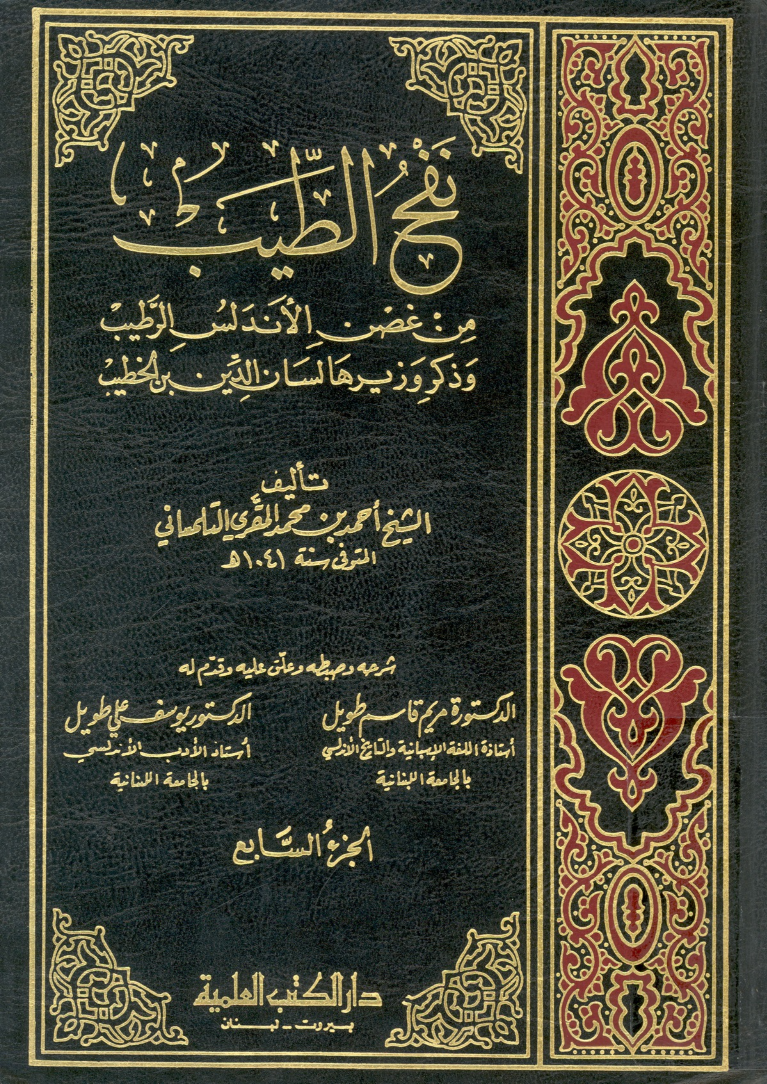

نفح الطيب
من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب
تأليف
الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني
المتوفى سنة ١٠٤١هـ
شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له
الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية
الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية
الجزء السابع
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني
المتوفى سنة ١٠٤١هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء السابع

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الكتب العلمية
Dar al-Kotob al-Ilmiyah

بيروت - رمل الظريف - شارع البحتري - ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت
هاتف و فاكس: (١-٩٦١) ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨

Beirut, Ramel al-Zarif, Bohtory St - P O Box : 11-9424 Beirut
Tel. & Fax : (961-1) 602133 - 868051 - 366135 - 364398

بيروت - لبنان
Beirut - lebanon

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثاني

في التعريف بلسان الدين بن الخطيب، وذكر أنبائه التي يَرُوق سماعُها ويتأرج نَفْحُها ويطيب، وما يناسبها من أحوال العلماء الأفراد، والأعلام الذي اقتضى ذكرَهُم شجونُ الكلام والاستطراد، وفيه أيضًا من الأبواب ثمانية، موصِّلة إلى جناتِ أدبٍ قُطوفُها دانية، وكل غُصْن منها رطيب.



الباب الأول

في أولية لسان الدين وذكر أسلافه

في أوّلية لسان الدين وذكر أسلافه، الذين وَرِثَ عنهم المجدَ وارتضع دَرَّ أخلافِهِ[1]، وما يناسب ذلك مِمَّا لا يَعْدِلُ المنصفُ إلى خلافه.

أقول: هو الوزير، الشهير الكبير، لسان الدين الطائر الصِّيت في المغرب والمشرق المُزْرِي عَرْفُ الثناء عليه بالعَنْبر والعَبير، المثَلُ المضروب في الكتابة والشعر والطبِّ ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها، ومُصَنَّفاتُهُ تُخْبِرُ عن ذلك ولا ينبئك مثل خبير، عَلَمُ الرؤساء الأعلام، الوزير الشهير الذي خَدَمَتْه السيوفُ والأقلام، وغَنِيَ بمشهور ذكره عن مسطور التعريف والإعلام، واعترف له بالفضل أصحابُ العقول الراجحة والأحلام.

قال سليل السلاطين الأمير العلامة إسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر الله محمد بن الأحمر نزيل فاس رحمه الله في كتابه المسمّى بـ «فرائد الجمان، فيمن نَظَمني وإياه الزمان» في حقّ المذكور ما نصُّه[2]: ذو الوزارتين، الفقيه الكاتب أبو عبد الله[3] محمد الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلده لَوْشَةَ عبد الله ابن الفقيه الكاتب[4] القائد سعيد

---

(١) الدَّرُّ، بفتح الدال: اللبن. الأخلاف: جمع خِلْف وهو حلمة ضرع الناقة؛ يقال: رضع فلان دَرَّ المجد: وهذا القول كناية عن أنه نشأ على المجد من صغره. محيط المحيط (درر) و (خلف).

(٢) النص أيضًا في كتابه نثير فرائد الجمان (ص ٢٤٢)، وهو كذلك في أزهار الرياض (ج ١ ص ١٨٦).

(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٧): وطبعه عبد الحميد (ج ٧ ص ٧): «أبو عبد الله بن محمد..». وأثبتنا ما في نثير فرائد الجمان.

(٤) في نثير فرائد الجمان: «القائد الكاتب».

بن عبد اللّه، ابن الفقيه[1] الصالح ولي اللّه الخطيب سعيد[2]، السَّلْماني، اللَّوشي، المعروف بابن الخطيب.

وقال القاضي ابن خلدون المغربي المالكي رحمه اللّه في تاريخه الكبير، عندما أجرى ذكر لسان الدين، ما نصُّه[3]: أصل هذا الرجل من لَوْشَةَ، على مرحلة من غَرْنَاطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها، المسمَّى بالمرج، وعلى وادي شنجيل[4]. ويقال شنيل. المخترق في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال، كان له بها سلك[5] معدود في وزرائها، وانتقل أبوه عبد اللّه إلى غَرْنَاطة، واستخدم لملوك بني الأحمر، واسْتُعْمِلَ على مخازن الطعام؛ انتهى.

وقال غيره[6]: إنَّ بيتهم يُعْرف قديمًا ببني الوزير، وحديثًا ببني الخطيب، وسعيدٌ جَدُّه الأعلى أوّل من تلقَّب بالخطيب، وكان من أهل العلم والدين والخير، وكذلك سعيد جدّه الأقرب كان على خلاف حميدة من خطّ وتلاوة وفقه وحساب وأدب، خَيِّرًا صَدْرًا[7]، توفي عام ثلاثة وثمانين وستمائة، وأبوه عبد اللّه كان من[8] العلماء بالأدب والطبّ، وقرأ على أبي الحسن البلوطي وأبي جعفر ابن الوزير وغيرهما وأجازه طائفة من أهل المشرق، وتوفي بطريف عام أحد وأربعين وسبعمائة شهيدًا يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى من العام المذكور مفقودًا ثابت الجأش، شكر اللّهِ فِعْلَه!.

قلت: وما ذكره هؤلاء أكثره مأخوذٌ من كلامه عند تعريفه رحمه اللّه بنفسه آخِرَ «الإحاطة»، ولنذكر ملخّصه إذ صاحبُ البيت أدرى بالذي فيه، مع ما فيه من الزيادة على ما سبق، وهي تُتم للطالب أمَلَهُ وتوفِّيه.

قال رحمه اللّه[9]: يقول مؤلف هذا الديوان تغمّد اللّه خَطَله في ساعاتِ أضاعها،

---

(١) في نثير فرائد الجمان: «الفقيه القائد الكاتب سعيد بن عبد اللّه بن الفقيه الصالح..».

(٢) في نثير فرائد الجمان: «سعيد بن أحمد السلماني..».

(٣) العبر (م ٧ ص ٦٨٩).

(٤) مرّ التعريف بنهر شنجيل في الجزء الأول (ص ١٤٤).

(٥) في العبر: «سلف».

(٦) انظر أزهار الرياض (ج ١ ص ١٨٦).

(٧) الصَّدْرُ: السّيّد والمتصدّر بين أقرانه. لسان العرب (صدر).

(٨) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٨): «من أهل العلم بالأدب..».

(٩) الإحاطة (ج ٤ ص ٤٣٨ ـ ٤٤٢).

وشهوة من شهوات اللسان أطاعها، وأوقات للاشتغال بما لا يَعْنِيه استبدل بها اللهوَ لما باعها: أمَّا بعدَ حمدِ اللّه الذي يغفر الخَطِيَّة، ويَحُثُّ من النفس اللَّجوجِ المطيّة، فتحرّك ركائبها البَطِيّة[1]، والصلاةِ والسلام على سيدنا ومولانا محمد مُيَسِّر سبلِ الخير الوطيّة[2] والرضا عن آله وصحبه ومنتهى الفضل ومُنَاخ الطِّيَّة[3]، فإنني لَمّا فرغت من تأليف هذا الكتاب الذي حمل عليه فضلُ النشاط، مع الالتزام لمراعاة السياسة السلطانية والارتباط، والتفتُّ إليه فراقني منه صِوان دُرر، ومَطْلَع غُرَر، قد تخلّدت مآثرهم مع ذهاب أعيانهم، وانتشرت مفاخرهم بعد[4] انطواء زمانهم، نافَسْتُهُم في اقتحام تلك الأبواب، ولباس تلك الأثواب، وقنعتُ باجتماع الشمل بهم ولو في الكتاب، وحرصت على أن أنال منهم منهم قُرْبًا، وأخذت[5] أعقابهم أدبًا وحبًّا، وكما قيل[6]: ساقي القوم آخرُهم شُرْبًا، فأجريت نفسي مجراهم في التعريف، وحَذَوتُ بها حَذْوَهم في بابي النسب والتصريف، بقصد التشريف، واللّه سبحانه لا يعدمني وإيّاهم واقفًا يترحَّم، وركابَ الاستغفار بمنكبه يَزْحَم، عندما ارتفعت وظائف الأعمال، وانقطعت من التّكسّبات حبال الآمال، ولم يبق إلاّ رحمة اللّه التي تنتاش[7] النفوسَ وتخلّصُها، وتعينها بمِيْسَم السعادة وتخصّصها، جعلنا اللّه مِمَّن حَسُنَ ذكره، ووقف على التماس ما لديه فكره، بمنّه.

محمد بن عبد اللّه بن سعيد بن عبد اللّه بن سعيد بن علي بن أحمد السَّلْماني، قرطبي الأصل، ثم طُلَيطليّه، ثم لَوْشيّه، ثم غَرْناطيّه، يكنى أبا عبد اللّه، ويلقَّب من الألقاب المَشْرِقِية بلسان الدين. (أوَّلِيَّتِي) يُعْرَفُ بيتُنا في القديم بوزير[8]، ثم حديثًا بلَوْشة ببني الخطيب. انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كيحيىٰ الليثي وأمثاله، عند وقعة الرَّبَض[9]

---

(1) في الإحاطة: «فيحرك ركابها البطيّة». والبطيّة: أصلها: «البطيئة» فسهّل الهمزة بقلبها ياء، ثم أدغم الياء في الياء.

(2) في الإحاطة: «الخير القاصدة الوطيّة». والوطيّة: الممهّدة الميسّرة، وأصلها: «الوطيئة».

(3) في الإحاطة: «منتهى القصد ومناح الطِّيَّة». والطِّيَّة: النيّة والقصد. محيد المحيط (طوى).

(4) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٩): «مع انطواء...».

(5) في الإحاطة: «وأخذت من أعقابهم».

(6) في الإحاطة: «وكمال قال».

(7) تنتاش: تُنقذ. لسان العرب (نوش).

(8) في الإحاطة (ص ٤٣٩): «ببني وزير».

(9) وقعة الربض تطلق على الثورة التي قام بها أهل قرطبة بتحريض من الفقهاء ضدَّ الحكم بن هشام، بقصد خلعه، وذلك في رمضان سنة ٢٠٢ هـ. وقد بدأت في الربض الجنوبي لقرطبة في الناحية =

الشهيرة، إلى طليطلة، ثم تسرّبوا محوّمين على وَطَنهم قبل استيلاء الطاغية عليه[1]، فاستقرَّ منهم بالموسطة الأندلسية جملة من النبهاء تضمّن منهم ذكر خلق[2]، كعبد الرحمن قاضي كورة باغة، وسعيد المستوطن بِلَوْشَةَ الخطيب بها، المقرون اسمه بالتَّسويد عند أهلها، جاريًا مجرى التسمية بالمركّب في[3] تاريخ الغافقي وغيره، وسكن[4] عَقِبهم بها، وسكن بعضهم منتقرير[5] مملكين إياها مختطين جبل[6] التحصن والمنعة فنُسِبوا إليها.

وكان سعيد هذا من أهل العلم والخير والصلاح والدِّين والفضل وذكاء الفطنة[7]، أوقفني الوزيرُ أبو الحكم بن محمد المنتقريري[8]. وهو بقية هذا البيت وإخباريه. على جدار برج ببعض رُبى أملاكنا بلوشة، تطأه الطريق المارة من غَرْنَاطة[9] إلى إشبيلية، وقال: كان جدُّك يذيع بهذا المكان فصولاً من العلم[10]، ويَجْهر بتلاوة[11] القرآن، فيستوقف الرفاق[12] المدلجة الحنينُ إلى نغمته، والخشوع إلى صدقه، فتعرِّسُ رحالها لصْقَ جداره، وتُريح ظهرها مَوْهِنا، إلى أن يأتي على وِرْده. وتوفي وقد أُصيب بأهله وحرمه عندما تغلّب العدوّ على بلده عَنْوة في خبر طويل. وقفت على مكتوبات من المتوكل على اللّه، محمد

المسماة «شَقُنْدة»، وكان الربض متّصلاً بقصر الحكم. وقد استطاع الحكم سحق الثورة ومطاردة الثوار، وصلب الكثير منهم على شاطىء النهر وهدم ديارهم ومساجدهم. وفرَّ الكثير من أعيان قرطبة وتفرّقوا في مختلف القواعد، وسارت طائفة كبيرة منهم إلى المشرق. ولذلك سمّي الحكم بالحكم الربضي. جذوة المقتبس (ص ١٠) وبغية الملتمس (ص ١٤). وسيتحدث المقري بعد قليل عن هذه الوقعة (ص ١٣).

(١) في الإحاطة: «عليها».

(٢) في الإحاطة: «خلف».

(٣) في الإحاطة: «بالمركب، تضمّن ذلك تاريخ..».

(٤) في الإحاطة: «وتناسل».

(٥) في الإحاطة: «بمنتفريو»، وهكذا أصوب؛ لأن ذلك يدخل في عداد الأسماء الإسبانية Montefrio، ومعناه: الجبل البارد.

(٦) في الإحاطة: «مختطين قبل التحصين».

(٧) في الإحاطة (ص ٤٤٠): «وزكاء الطعمة، وقفني الشيخ المسنُّ الوزير..».

(٨) في الإحاطة: «المنتفريدي».

(٩) في الإحاطة: «إغرناطة».

(١٠) في الإحاطة: «كان جدّك يربع... فصولاً من العام..».

(١١) في الإحاطة: «ويجهر بقراءة..».

(١٢) في الإحاطة: «الرِّفق».

بن يوسف بن هُود أمير المسلمين بالأندلس، في غرض إعانته والشفاعة إلى الملكة زوج سلطان قَشْتَالة بما يدلُّ على نباهته[١] قديمًا ويفيد إثارة عِبْرة، واستقالة عثرة.

وتخلَّف ولده عبد الله جاريًا مجراه في التجلّد[٢] والتمعش من حُرِّ النَّشَب، والتزيِّي بالانقباض، والتحلِّي بالنزاهة، إلى أن توفي وتخلّف[٣] ولده سعيدًا جدَّنا الأقرب، وكان صدرًا خيّرًا مستوليًا على خلال حميدة، من خطّ وتلاوة وفقه وحساب وأدب، نافس جيرته بني الطَّنجالي الهاشميين، وتحوَّل إلى غَرْنَاطة عندما شعر بعملهم على الثورة، واستطلاعهم إلى النَّزْوَة التي خَضَدت الشوكة، واستأصلت منهم الشَّأفة، وصاهر بها الأعيان من بني أضحى بن عبد اللطيف الهمداني، أشراف جُنْد حمص، الداخلين إلى الجزيرة في طليعة[٤] بلج بن بِشْر القشيري، ولحقه من جرّاء مُنَافسيه لما جاهروا السلطان بالخُلْعان اعتقالٌ أعتبه السلطان بعده، وأحظاه على تفئته، وولاّه الأعمال النَّبيهة والخُطط الرفيعة.

حدّثني من أثق به[٥] قال: عزم السلطان أن يُقْعد جَدَّك أستاذًا لولده، فأنِفتْ من ذلك أمُّ الولد إشفاقًا عليه من فظاظة كانت فيه. ثم صاهر القواد من بني الجعدالة على أمِّ أبي، ومَتَّتْ[٦] إلى زوج السلطان ببنوّة الخؤولة، فنُبه القدر، وانفسحت الحُظْوة، وانثال[٧] على البيت الرؤساء والقرابة، وكان ـ على قوة شكيمته وصلابة مَكْسره ـ مُؤْثرًا للخمول، محبًّا في الخير. حدّثني أبي عن أُمّه قالت: قلّما تَهَنَّأنا نحن وأبوك طعامًا حافلاً لإيثاره به مَنْ كان يَكْمِن بمسجد جِواره من أهل الحاجة وأحلاف الضرورة، يهجم علينا منهم بكل وارد[٨]، ويجعل يده مع يده، ويُشركه في أكيلته، ملتذًّا بموقعها من فؤاده. وتوفي في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة، صَهَرته الشمس مستسقيًا في بعض المُحول، وقد استغرق في ضَرَاعته، فدلَّت الحتف على نفسه.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٠): «على نباهة قديم يفيد..». وفي الإحاطة: «على نباهة قديم ويفيد..».

(٢) في الإحاطة: «في التجلّة».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «وخلف».

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١١): «طلعة بلج بن بشير..».

(٥) في الإحاطة (ص ٤٤١): «أثقه».

(٦) في الإحاطة: «وتَمُتُّ».

(٧) في الإحاطة: «وانتاب البيت».

(٨) في الإحاطة: «بكل وارش يجعل يده ثُنى يده..».

وتخلّف والدي نابتًا في الترف نَبْت العُلَّيْق، يكنفه رَغْيُ أُمٍّ[١] تجر ذيل نعمة وتحنو منه على واحد تحذر[٢] عليه النسيم إذا سرى، ففاته لتَرَفه حظّ كبير من الاجتهاد، وعلى ذلك فقرأ على الخطيب أبي الحسن البلوطي والمقرىء أبي عبد اللّه بن سمغور[٣] وأبي جعفر بن الزبير خاتمة الجلة، وكان يفضّله. وانتقل إلى لوشة بلد سَلَفه مخصوصًا بلقب الوزارة إلى أن قصدها السلطان أبو الوليد متخطّيًا إلى الحضرة هاويًا إلى مُلْك البيضة، فعضّد أمره، وأدخله بلده، لدَوَاعٍ يطول استقصاؤها. ولمّا تَمَّ له الأمر صحب[٤] ركابه إلى دار ملكه، مستأثرًا بِشِقْصٍ[٥] عريض من دُنياه. وكان من رجال الكمال، طَلْقَ الوجه، مع الظرف، وتضمّن كتاب «التاج المحلّى» و «الإحاطة» رائقًا[٦] من شعره، وفُقِد في الكائنة العظمى بطريف يوم الاثنين سابع جمادى الأولى سنة إحدى[٧] وأربعين وسبعمائة، ثابت الجأش، غير جَزُوعٍ ولا هيَّابة. حدّثني[٨] الخطيب بالمسجد الجامع من غرناطة، الفقيه أبو عبد اللّه بن اللوشي قال: كبا بأخيك الطِّرْفُ[٩]، وقد غشى العدو، وجَنَحْتُ إلى إردافه، فانحدر إليه والدُك، وصَرَفني، وقال: أنا أَوْلَى به، فكان آخر العهد بهما؛ انتهى.

ومِمّا رثي به والدُ لسان الدين وأخوه ما ذكره في «الإحاطة» في ترجمة أبي محمد عبد اللّه الأزدي[١٠] إذ قال ما نصُّه: ومِمّا كتب إليَّ فيما أصابني بطريف: [الكامل]

خطبٌ أَلَمَّ فأذهَبَ الأخَ والأبا ... رغمًا لأنف شاء ذلك أو أبى
قَدَرٌ جرى في الخلق لا يجدُ امرؤٌ ... عمّا به جَرَتِ المقادرُ[١١] مَهْرَبا

(١) في الإحاطة: «رعي أيِّم».
(٢) في الإحاطة: (ص ٤٤٢) «تحذر عليه الحولىٰ من ولد الذر، ففاته..».
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١١): «بن سمعون». وفي الإحاطة: «بن مستقور».
(٤) في الإحاطة: «صحبه إلى دار..».
(٥) الشِّقْص، بكسر الشين وسكون القاف: النصيب. القاموس المحيط (شقص).
(٦) في الإحاطة: «جزءًا رائعًا من شعره».
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٢): «واحد».
(٨) في الإحاطة: «حدّث».
(٩) الطِّرْف، بكسر الطاء وسكون الراء: الكريم من الخيل. لسان العرب (طرف).
(١٠) هو أبو محمد عبد اللّه بن إبراهيم بن عبد اللّه الأزدي، ويعرف بابن المرابع. من أهل بلّش، ومن نبهاء الأدباء، توفي سنة ٧٥٠ هـ. الإحاطة (جـ ٣ ص ٤٢١).
(١١) المقادر: جمع مقدار، وأصل الجمع: «المقادير»، وقد حذف الياء للضرورة الشعرية. لسان العرب (قدر).

إمَّا جزعتُ له فَعُذْرٌ بيِّنٌ ... قضتِ الدواهي أن تُحَلَّ له الْحبَا
لا كان يومهما الكريهُ فكمْ وكمْ ... فيه المجلِّي والمصلِّي قد كَبَا[1]
يومٌ لَوى لَيَّانَهُ لم يَبْقَ للـ ... إسلام حَدُّ مُهَنَّد إلاَّ نَبَا
وَتَجَمَّعَتْ فيه الضلالُ فقابلتْ ... فيه الهدى فَتَفَرَّقَتْ أيدي سَبَا
آهًا لِعِزِّ المختدين صَرَامَةً ... لأَذَلَّ عِزَّ المُهْتَدين وأذهبا
دَهَمَ المصابُ فَعَمَّ إلاَّ أنه ... فيما يخصُّك ما أَمَرَّ وأصعبا
يا ابن الخطيبِ خطابَ مكترثٍ لما ... قد ألزمَ البثَّ الألَدَّ وأوجبا
قاسمْتُكَ الشَّجْوَ المقاسمةَ التي ... صارتْ بخالصِ ما محضتُك مذهبا
لِمْ لا وأنتَ لَدَيَّ سابقُ حَلْبَةٍ ... تُزهى بمنْ في السابقينَ تأدَّبا
لا عادَ يومٌ نالَ منكَ ولا أتتْ ... سنةٌ به ما الليلُ أبدى كوكبا
يهني الشهيدينِ الشهادةُ إنها ... سببٌ يزيدُ من الإلٰه تقرُّبا
وردا على دار النعيمِ وحُورِها ... كَلَفًا ببِرّهما يَزِدْنَ ترحُّبَا
فاستغنِ بالرحمنِ عمَّن قد ثَوَى ... من حزب خير من ارتضى ومن اجتبى

فأجبته بقولي: [الكامل]

أهلاً بمقدمكَ السنيِّ ومرحبًا ... فَلَقد حَبَاني اللَّهُ منك بما حَبَا
وافَيْتَ والدنيا عليَّ كأنها ... سَمُّ[2] الخِياطِ وطِرْفُ صبري قد كبا
والدهرُ قد كشفَ القناعَ ولم يدعْ ... لي عُدَّةً للروعِ إلاَّ أذهبا
صَرَفَ العِنانَ إليَّ غيرَ مدافِعٍ ... عني، وأثبت دون نصرتي الشَّبَا[3]
خَطْبٌ تأوّبني يضيقُ لهوله ... رحبُ الفضا وتَهِي[4] لموقعه الرُّبا
لو كان بالوُرْقِ الصوادح في الدُّجى ... ما بي لَعاقَ الوُرْقَ عن أن تندبا
فأنَرْتَ من ظَلْماء هَمّي ما دَجَا ... وقَدَحْتَ من زند اصطباري ما خبا

---

(١) المجلّي: الذي جاء أولاً في السباق. المصلّي: الذي جاء ثانيًا. لسان العرب (جلى) و (صلى).

(٢) السَّمُّ: الثقب كثقب الإبرة. الخياط، بكسر الخاء: الإبرة. وسَمُّ الخِياط: يضرب مثلاً في الضيق لسان العرب (سمم) و (خيط).

(٣) الشَّبَا، بالفتح: جمع شباة وهي حَدُّ السنان وغيره. لسان العرب (شبا).

(٤) تهي: تضعف. لسان العرب (وهى).

فكأنني لَعِبَ الهجيرُ بمهجتي وبَعَثَتَ لي من نفحها نفس الصَّبَا
لا كان يومكِ يا طريفُ فطالما أَطْلَعْتِ للآمالِ برقًا خُلَّبَا[1]
ورميتِ دينَ اللَّهِ منكِ بفادحٍ عَمَّ البسيطَ مُشَرَّقًا ومُغَرَّبا
وخصصتِني بالرُّزءِ والثُّكْلِ الذي[2] أوهى القوى مني وهَدَّ المنكبا
لا حُسْنَ للدنيا لديَّ ولا أرى للعيش بعدَ أبي وصنوي[3] مأربا
لولا التعلُّلُ بالرحيلِ وأننا نُنْضي من الأعمار فيها مركبا
فإذا ركضنا للشبيبة أدهَمًا حالَ المشيبُ به فأصبح أشهبا
والملتقى كَثَبٌ وفي وِرِدِ الرَّدَى نَهَلَ الورى من شاء ذلك أو أبىٰ
لجريتُ طوعَ الحزنِ دون نهايةٍ وذهبتُ من خَلْعِ التصبّر مذهبا
والصبرُ أولى ما استكان له الفتى رغمًا، وحَقُّ العَبْدِ أنْ يتأدَّبا
وإذا اعتمدتَ اللَّهَ يومًا مَفْزَعًا لم تُلْفِ منه سوى إليه المَهْرَبا

وواقعة طريف هذه اسْتُشْهد فيها جماعةٌ من الأكابر وغيرهم، وكان سببها أنَّ سلطان فاس أميرَ المسلمين أبا الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المَرِيني أجاز البحر إلى جزيرة الأندلس برَسْم الجهاد ونُصْرة أهلها على عدوّهم، حسبما جرتْ بذلك عادة سلفه وغيرهم من ملوك العُدْوة، وشمَّر عن ساعد الاجتهاد، وجرَّ من الجيوش الإسلامية نحو ستين ألفًا، وجاء إليه أهلُ الأندلس بقصد الإمداد، وسلطانُهم ابن الأحمر ومن معه من الأجناد، فقضى اللَّه الذي لا مردَّ لما قَدَّره، أن صارتْ تلك الجموع مُكَسَّرة، ورَجَعَ السلطانُ أبو الحسن مفلولاً[4]، وأضحى حُسام الهزيمة عليه وعلى مَنْ معه مسلولاً، ونجا برأسِ طِمِرَّةٍ ولجام[5]، ولا تسل كيف، وقُتل جَمْعٌ من أهل الإسلام، ولُمّة وافرة من

---

(١) البَرْقُ الخُلَّبُ: المُطْمِعُ المُخْلِفُ. محيط المحيط (خلب).

(٢) الرُّزْء، بضمّ الراء وسكون الزاي: المصيبة. الثُّكْلُ، بضمّ الثاء وسكون الكاف: الفقد. لسان العرب (رزأ) و (ثكل).

(٣) أراد بالصنو هنا: الأخ.

(٤) مفلولاً: منهزمًا. لسان العرب (فلل).

(٥) أخذه من قول حسان بن ثابت: [الكامل]

ترك الأَحِبَّةَ أن يقاتل دونهمْ ونجا برأس طِمِرَّةٍ ولِجامِ

الأغاني (ج ٤ ص ١٧٤). والطِّمِرَّةُ: الفرس الجواد الشديد العَدْو. لسان العرب (طمر).

الأعلام، وأمضى فيهم حكمه السيف، وأُسر ابن السلطان وحريمه وخدمه، ونهبت ذخائره، واستولت على الجميع أيدي الكفر والحيف[1]، واشرأبَّ العدوّ الكافر لأخذ ما بقي من الجزيرة ذاتِ الظلّ الوريف، وثبتت قدمه إذ ذاك في بلد طريف، وبالجملة فهذه الواقعة من الدواهي المُعْضِلة الداء، والأرزاء التي تَضَعضع لها ركن الدين بالمغرب، وقَرَّتْ بذلك عيون الأعداء، ولولا خشية الخروج عن المقصود لأوردتُ قصّتها الطويلة، وسردتُ منها ما يحقّ لسامعه أن يكثر بكاءه وعَويله، وقد ألَمَّ بها الولي قاضي القضاة ابن خلدون المغربي في كتاب «العبر، وديوان المبتدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»[2] فليراجعه من أراده في المجلد الثامن من هذا التاريخ الجامع، فإنه ذكر حين ساق هذه الكائنة ما يخرس الألسن ويصم المسامع، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وقول لسان الدين رحمه الله في أوّليّة سلفه «إنهم انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية. إلى آخره» أشار بذلك إلى واقعة الرَّبَض الشهيرة[3] التي ذكرها ابنُ حَيَّان في تاريخه الكبير المسمّى بـ «المقتبس، في تاريخ الأندلس» وقصّ أمْرَها غيرُ واحد كابن الفَرَضي وابن خلدون، وملخَّصها أنَّ أهل رَبَض قرطبة ثاروا على الأمير الحكَم الأموي، وفيهم علماء أكابر مثل يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي صاحب إمامنا مالك رضي الله عنه وغيره، فكانت النصرة للحكم، فلمّا ظفر وقتل من شاء أجْلىٰ مَن بقي إلى البلاد، وبعضهم إلى جزيرة إقريطش ببحر الإسكندرية، وفي قصتهم طول، وليس هذا محلُّها.

وقال لسان الدين رحمه الله أيضًا في حقّ والده ما حاصله[4]: عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السَّلْماني، أبو محمد، غرناطي الولادة والاستيطان، لَوْشيّ الأصل، طليطليّه قرطبيّه.

---

(١) الحَيفُ: الجور والظلم. لسان العرب (حيف).

(٢) العبر (م ٧ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٧). وقد نشبت معركة طريف في سنة ٧٤١ هـ بين القشتاليين والمسلمين أندلسيين ومغاربة، هزم فيها المسلمون هزيمة فادحة.

(٣) تقدّم الحديث عن واقعة الربض في هذا الجزء (ص ٧، حاشية ٩).

(٤) ترجمة والد لسان الدين في الإحاطة (جـ ٣ ص ٣٨٦).

وقال في الإكليل[(١)]: إن طال الكلام، وجمحت الأقلام، كنت كما قيل: مادحُ نفسه يُقرئك السلام، وإن أحجمتُ[(٢)]، فما أسديتُ في الثناء ولا ألْحَمْتُ، وأضعتُ الحقوق، وخِفْتُ ومَعَاذ اللّه العقوق. هذا ولو أني زَجَرْتُ طَيْرَ البيان من أوكاره، وجئت بعُونِ[(٣)] الإحسان وأبكاره، لما قضيتُ حقَّه بعد، ولا قلتُ إلاَّ بالتي علمت سَعْد[(٤)]، فقد كان رحمه اللّه ذَمِرَ[(٥)] عزم، ورَجُلَ رخاء وأزم، تروق أنوار خِلاله الباهرة، وتُضيء مجالس الملوك من صُورَتَيهِ البَاطنة والظاهرة، ذكاءٌ يتوقَّد، وطلاقةٌ يحسد نورها الفَرْقد. وكانت[(٦)] له في الأدب فريضة، وفي النادرة العذبة مَنادِح[(٧)] عريضة، تكلّمت يومًا بين يديه في مسائل من الطب، وأنشدته أبياتًا من شعري[(٨)] ورقاعًا من إنشائي فتهلّل، وما برح أن ارتجل: [مخلع البسيط[

الطبُ والشعرُ والكتابَهْ	سِمَاتنا في بني النَّجابهْ
هنَّ ثلاثٌ مُبَلِّغاتٌ	مراتبًا بعضُها الحجابهْ

ووقَّع لي يومًا بخطِّه على ظهر أبيات بعثتُها إليه أعرض عليه نمطها: [الكامل]

وَرَدتْ كما صَدَرَ النسيمُ بسحرةٍ[(٩)]	عن روضةٍ جادَ الغمامُ رباهْا
وكأنّما[(١٠)] هاروتُ أودعَ سِحْرَهُ	فيها وآثرها به وحَباهَا
مصقولةُ الألفاظ يبهرُ حسنها	فبمثلها افتخر البليغُ وباهىٰ

---

(١) الإحاطة (جـ ٣ ص ٣٨٩ ـ ٣٩١).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٦): «وإن أَجْحَمْتُ، فما سَدَّيْتُ».
(٣) في الإحاطة: «وجيته بعيون الإحسان». والعُون من النساء: جمع عوان وهي المتوسطة في السن. لسان العرب (عون).
(٤) أخذه من قول الحطيئة: [الطويل]
وتعذلني أفناء سعدٍ عليهمُ ... ولا قلت إلاَّ بالتي علمتْ سعدُ
ديوان الحطيئة (ص ٣٢٩).
(٥) الذَّمِرُ، بفتح الذال وكسر الميم: الشجاع والداهية. لسان العرب (ذمر).
(٦) في الإحاطة (ص ٣٩٠): «وكان له..».
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٦): «منادم».
(٨) في الإحاطة: «شعري، وقرأت عليه رقاعًا من إنشائي، فسُرَّ وتهلَّل، وعبَّر عمّا أمل، وما برح..».
(٩) في الإحاطة: «كما وَرَدُ النسيم بسحره».
(١٠) في الإحاطة: «فكأنما».

فقررتُ عينًا عند رؤية حُسْنها إني أبوك، وكنتَ أنتَ أباها

ومن نظمه[1] قوله: [الوافر]

وقالوا قد دنا[2] فاصبرْ سَتُشْفَى فَتِرْياقُ الهوى بُعْدُ الدِّيارِ
فقلت هِبوا بأنَّ الحقَّ هذا بقلبي يَمَّمُوا فَبِمَ اصطباري[3]

وقال[4]: [السريع]

عليكَ بالصمتِ فكم ناطقٍ كلامُهُ أدّى إلى كَلْمِهِ[5]
إنَّ لسانَ المرءِ أهدى إلى غِرَّتِهِ واللَّه مِنْ خَصْمِهِ
يُرَى صغيرَ الجِرْمِ مُسْتَضْعَفًا وجُرْمُهُ أكبرُ من جِرْمِهِ

وقال[6]: [الخفيف]

أنا بالدَّهر يا بنيَّ خبيرٌ فإذا شئتَ عِلْمَهُ فتعالا
كم مليكٍ قَدِ ارتعى منه روضًا لم يدافعْ عنه الردى ما ارتَعْى لا[7]
كلُّ شيء تراهُ يَفْنَى، ويَبْقَى ربُّنا اللَّه ذو الجلال تعالى

مولده بغرناطة في جمادى الأولى عام اثنتين وسبعين وستمائة، وفُقد يوم[8] الوقيعة الكبرى بظاهر طريف، يوم الاثنين سابع جمادى الأولى عام واحد وأربعين وسبعمائة.
ورثيته بقصيدة أولها: [الطويل]

سِهَامُ المنايا لا تطيشُ ولا تُخْطِي وللدهْرِ كَفٌّ تستردُّ الذي تُعْطِي
وإنّا وإن كنّا على ثَبَجِ الدُّنا فلا بُدَّ يومًا أن نحلَّ على الشَّطِّ

---

(١) في الإحاطة: «ومن شعره قوله».
(٢) في الإحاطة: «قد نأوا».
(٣) في الإحاطة: «فيم اصطبار».
(٤) في الإحاطة: «ومن قوله ممّا يجري مجرى الحكم والأمثال».
(٥) الكَلْمُ، بفتح الكاف وسكون اللام: الجرح. القاموس المحيط (كلم).
(٦) في الإحاطة (ص ٣٩١): «وقال وهو من المستحسن في التجنيس».
(٧) في الإحاطة: «قد ارتغى منه... عنه الرحمن ما ارتغى لا».
(٨) في الإحاطة: «بعد يوم الوقيعة...».

تساوى على وِرْدِ الرَّدى كلُّ واردٍ فلم يُغْنِ ربُّ السيف عن ربَّةِ القُرْط[1]
وسِيَّانِ ذلُّ الفقرِ أو عزَّةُ الغِنى ومن أسرع السَّيْرَ الحثيثَ ومن يبطي[2]

وهي طويلة.

قال: ورثاه شيخنا أبو زكريا بن هذيل بقصيدة يقول فيها[3]: [الطويل]

إذا أنا لم أرْثِ الصديقَ فما عُذْري إذا قلتُ أبياتًا حِسانًا من الشعرِ
ولو كان شعري لم يكن غيرَ نُدْبةٍ وأجريتُ دمعي لليراع[4] عن الحِبْرِ
لما كنتُ أقضي حقَّ صُحْبتِهِ التي تَوَخَّيْتُها عَوْنًا على نُوَبِ الدهر
رماني عبدُ اللَّهِ يومَ وَداعِهِ بداهيةٍ دَهْياءَ[5] قاصمةِ الظَّهْرِ
قطعتُ رجائي حين صَحَّ حديثُهُ فإن يوفِ لي دمعي فقد خانني صبري
وهل مؤنسٌ كابن الخطيبِ لوَحْشتي أبثُّ له هَمِّي وأُوْدِعُه سِرِّي

ومنها[6]:

تولَّى وأخبارُ الجلالةِ بعده مُؤَرَّجَةُ الأنباءِ طيِّبةُ النَّشْرِ
رضينا بترك الصبرِ من بَعْدِ بُعْده على قدرِ ما في الصبر من عِظم الأجرِ
أتى بفَتِيتِ المسكِ فوق جبينهِ نجيعًا يفوق المسك في موقف الحشر[7]
لقد لقي الكفارَ منه بعزمةٍ لها لقيْتُه الحورُ بالبرّ والبشر
تجلَّتْ عروسًا جنّةُ الخلد في الوغى تقول لأهل الفوز: لا يُغْلِكم مهري
فكان من القوم الذين تبادروا إلى العالم الأعلى مع الرفقة الغُرّ
تعالوا بنا نسقي الأباطح والرُّبا بقطرِ دموعٍ غالباتٍ على القطر
ألاَ لا تَلُمْ عيني لسكب دموعِها فما سُكبتْ إلاّ على الماجد الحرّ

(١) ترتيب هذا البيت في الإحاطة بعد البيت التالي.
(٢) في الإحاطة: «ومن يُبطِ».
(٣) الأبيات في الإحاطة (ج ٣ ص ٣٩١ . ٣٩٢).
(٤) اليراع: القصب، والمراد القلم. محيط المحيط (يرع).
(٥) الدهياء: الشديدة القاسية. لسان العرب (دها).
(٦) الأبيات التالية غير واردة في الإحاطة.
(٧) النجيع: الدم. يقول: إنَّ ريح دمه الذي أريق في المعركة كريح المسك.

ومنها:

أإخواننا، جِدُّوا فكم جَدَّ غيركم وسيروا على خفّ من الحوب[1] والوزرِ
على سَفَرٍ أنتم لدارٍ تأخّرتْ وما الفوز في الأخرى سوى خفّةِ الظهر
وما العيشُ إلاّ يقظةٌ مثل نومةٍ وما العمرُ إلاّ كالخيال الذي يَسْرِي
على الحقّ أنتم قادمون فشمِّروا فليس لمخذولٍ هنالك من عذرِ

وهي طويلة، تجاوز اللّه عنّا وعنهم أجمعين! انتهى ما لخّصْتُه من كلام لسان الدين رحمه اللّه.

قلت: على منوال كلامه في تحلية أبيه النبيه نَسَجَ الوزيرُ الكاتب الشهير القاضي أبو يحيىٰ بن عاصم القيسي الأندلسي رحمه اللّه في وصف أبيه القاضي أبي بكر بن عاصم[2] صاحب «التحفة في علم القضاء»، وهو محمد بن محمد بن محمد بن عاصم الأندلسي الغرناطي، قاضي الجماعة، الرئيس أبو بكر، ونصّ المحتاج إليه في هذا المحلّ من كلام ولده قوله رحمه اللّه: إن بسطت القول، أو عددت الطَّوْل[3]، وأحكمت الأوصاف، وتوخّيْتُ الإنصاف، أنفدت الطروس[4]، وكنت كما يقول الناس في المثل من مدح العروس[5]، وإن أضربْتُ عن ذلك صفحًا فلبئسما صنعت، ولشرّ ما أمسكت المعروف ومنعت، ولَكَمْ من حقوق الأبوة أضعت، ومن ثَدْي للمعَقَّةِ[6] رَضَعْت، ومن شيطان لغَمْصَة الحقِّ[7] أطعت، ولم أُرد إلاّ الإصلاح ما استطعت، وإن توسّطت واقتصرت، وأوجزت واختصرت، فلا الحقَّ نصرت، ولا أفنانَ البلاغة هصرت، ولا سبيلَ الرشد أبصرت، ولا عن هوى الحَسَدَة أقصرت، هذا ولو أني أجهدت ألسنة البلاغة فجهدت،

---

(١) الحُوبُ: الإثم. مختار الصحاح (حوب).

(٢) كان أبو بكر بن عاصم من كبار فقهاء غرناطة تولّى قضاء غرناطة عام ٨٨٨ هـ. ترجمته في أزهار الرياض (جـ ١ ص ١٤٥).

(٣) الطَّوْلُ، بفتح الطاء وسكون الواو: الفضل. لسان العرب (طول).

(٤) الطروس: جمع طرس وهو الصحيفة. لسان العرب (طرس).

(٥) المثل هو: «مَنْ يَمْدَحُ العروسَ إلاّ أَهْلُها؟». ويضرب في اعتقاد الأقارب بعضهم ببعض وعجبهم بأنفسهم. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٣١١).

(٦) المَعَقَّةُ: العقوق وهو ضدّ البرّ. لسان العرب (عقق).

(٧) غمصة الحقّ: كفران النعمة. لسان العرب (غمص).

وأيقظت عيون الإجادة فسهدت، واستعرت مواقفَ عُكاظ على ما عهدت، لما قررت من الفضل إلاً ما به الأعداءُ قد شهدت، ولا استقصيت من المجد إلاً ما أوصت به الفئة الشانئة لخلفها الأبتر وعهدت، فقد كان. رحمه اللَّه! . علم الكمال، ورجل الحقيقة، وقارًا لا يخف راسيه، ولا يَعْرَى كاسيه، وسكونًا لا يطرق جانبه، ولا يرهب غالبه، وحلمًا لا تزلُّ حَصَاته[١]، ولا تهمل وَصَاته، وانقباضًا لا يتعدّى رَسْمُه، ولا يتجاوز حكمه، ونزاهة لا ترخص قيمتها، ولا تلين عزيمتها، وديانة لا تحسر أذيالها، ولا يَشِفّ[٢] سِرْبَالها، وإدراكًا لا يُفلُّ نَصْله، ولا يدرك خَصْله، وذهنًا لا يَخْبو نوره، ولا ينبو مَطْروره[٣]، وفهمًا لا يخفى فلقه، ولا يهزم فيلقه، ولا يلحق بحره، ولا يعطل نحره، وتحصيلاً لا يفلت قنيصه، ولا يسام حريصه، بل لا يحلّ عقاله، ولا يَصْدَأ صِقاله، وطلبًا لا تتّحد فنونه، ولا تتعيّن عيونه، بل لا تحصر معارفه، ولا تقصر مصارفه، يقوم أتمّ قيام على النحو على طريقة متأخري النحاة، جمعًا بين القياس والسماع، وتَوْجيه الأقوال البصرية، واستحضار الشواهد الشعرية، واستظهار اللغات والأغرِبة، واستبصار[٤] في مذاهب المعربة، مُحَلِّيًا أجياد تلك الأعاريب، من علمي البديع والبيان بجواهر أسلاك، ومُجَلِّيًا في آفاق تلك الأساليب، من فوائد هذين الفنين زواهر أفلاك، إلى ما يتعلّق بذلك من قافية للعروض وميزان، وما للشعر من بحور وأوزان، تضلع بالقراءات أكمل اضطلاع، مع التحقيق والاطلاع، فيقنع ابنُ الباذش من إقناعه، ويشرح لابن شريح ما أشكل من أوضاعه، ويقصر عن رتبته الداني، ويُحْرز صدر المنصّة من حرز الأماني، ويشارك في المنطق وأصول الفقه والعَدَد[٥] والفرائض والأحكام مشاركةً حسنة، ويتقدّم في الأدب نظمًا ونثرًا وكتبًا وشعرًا، إلى براعة الخطّ، وإحكام الرسم، وإتقان بعض الصنائع العملية، كتفسير الكتب، وتنزيل الذهب، وغيرهما. نشأ بالحضرة العليّة لا يغيب عن حلقات المشيخة ولا يَرِيمُ[٦] عن مظان الاستفادة، ولا يفتر[٧] عن المطالعة والتقييد، ولا يسأم من المناظرة والتحصيل، مع المحافظة التي لا

---

(١) الحَصاة، بالفتح: العقل. محيط المحيط (حصا).
(٢) شَفّ السربالَ: بَيَّنَ ما تحته. لسان العرب (شفف).
(٣) المطرور: المحدّد. لسان العرب (طرر).
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٠): «واستبصارًا».
(٥) العَدَدُ: الحساب.
(٦) يريم: يفارق. لسان العرب (ريم).
(٧) يفتر: يضعف. لسان العرب (فتر).

تنخرم ولا تنكسر، والمُفَاوضة في الأدب ونظم القريض والفكاهة التي لا تقدح في وقار؛ انتهى ملخّصًا.

وقد أطال في تعريفه بأوراق عدة، ثم قال: مولده في الربع الثالث من يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى من عام ستين وسبعمائة كما نقلته من خطّ ابنه، ثم قال: وله مسائل متعدّدة في فنون شتّى ضمَّنها كلّ سديد من البحث وصحيح النظر، وأمّا كتبه فالدُّرُ النفيس، والياقوت الثمين، والرَّوْض الأُنُفُ، والزهر النضير، نصاعَةَ لفظٍ، وإصابة[1] غرض، وسهولة تركيب، ومتانة أسلوب؛ انتهى.

ثم ذكر مشيخته وأطال، ثم سرد تآليفه: الأرجوزة المسماة بـ «تحفة الحكام»، والأرجوزة المسماة بـ «مَهْيَع الوصول في علم الأصول» أصول الفقه، والأرجوزة الصغرى المسماة بـ «مرتقى الوصول للأصول» كذلك، والأرجوزة المسماة بـ «نيل المنى في اختصار الموافقات»، والقصيدة المسماة بـ «إيضاح المعاني في القراءات الثماني»، والقصيدة المسمّاة بـ «الأمل المرقوب في قراءة يعقوب»، والقصيدة المسمّاة بـ «كنز المفاوض في علم الفرائض»، والأرجوزة المسماة بـ «الموجز في النحو»، حاذى بها رَجَزَ ابن مالك في غرض البسط له والمحاذاة لقصده، والكتاب المسمَّى بـ «الحدائق في أغراض شتّى من الآداب والحكايات».

توفي بين العصر والمغرب يوم الخميس حادي عشر شوال عام تسعة وعشرين وثمانمائة، انتهى كلام الوزير ابن عاصم، وإنما ذكرته؛ لأنَّ أهل الأندلس يقولون[2] في حقّه: إنه ابن الخطيب الثاني، ولولا خوف الإطالة لذكرت بعض إنشائه ونظمه، فإنه في الذِّرْوَة العليا، وقد ذكرت جملة من ذلك في «أزهار الرياض، في أخبار عياض، وما يناسبها مِمّا يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض».

ولنرجع إلى الترجمة المقصودة فنقول: والسلْمَاني نسبة سَلْمان. بإسكان اللام على الصحِيح. قال ابن الأثير: والمحدّثون يفتحون اللام، وسلْمَان: حي من مُرَاد من عرب اليمن القحطانيين، دخل الأندلس منهم جماعة من الشأم، وسلفُ لسان الدين رحمه اللّه تعالى ينتسبون إليهم كما سبق في كلامه، وهو مشهور إلى الآن بالمغرب بابن الخطيب

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢١): «وأصالة غرض».

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٢): «يتمولون».

السلْمَاني، ولذلك خاطبه شيخُه شيخ الكُتّاب الرئيس أبو الحسن بن الجيّاب[1] حين حلّ مالقة بقوله[2]: [البسيط]

أيا كتابي، إذا ما جِئتَ مالقةً دارَ المكارمِ من مَثْنَى ووُحْدَانِ
فلا تُسَلِّمْ على رَبْعٍ لذي سَلَمٍ بها وسلِّمْ على رَبْعٍ لسَلْمَانِ

فأجابه لسانُ الدين رحم اللّه تعالى الجميع بقوله: [البسيط]

يا ليتَ شعريَ هل يُقْضَى تألُّفنا ويَثْنِيَ الشوقَ عن غاياته الثاني
أو هل يحنُّ على نفسي مُعَذِّبها أو هل يرقّ لقلبي قلبيَ الثاني

وعلى ذكر نسبة ابن الخطيب لسلْمَان فقد تذكّرت هنا بيتًا أنشدنيه لنفسه صاحبُنا الوزيرُ الشهير الكبير البليغ صاحب القلم الأعلى سيدي أبو فارس عبد العزيز الفَشْتَالي[3]. صَبَّ اللّه تعالى عليه شآبيبَ[4] رحماه! . من قصيدة نونية مدح بها سيد الوجود، صلّى اللّه عليه وسلّم! وتخلّص إلى مدح مولانا السلطان المنصور باللّه أبي العباس أحمد الحسني أمير المؤمنين صاحب المغرب رحمه اللّه تعالى، وهو: [الطويل]

أولئك فَخْرِي إن فَخَرْتُ على الوَرَى ونافَسَ بيتي في الولا بَيْتَ سَلْمَانِ

وأراد . كما أخبرني . ببيت سلمان القبيلة التي منها لسان الملّة والدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى! أشار إلى ولاء الكتابة للخلافة، كما كان لسان الدين السلماني رحمه اللّه تعالى كذلك، وفيه مع ذلك تورية بسَلْمَان الفارسي رضي اللّه عنه وأرضاه.

وقد رأيت أن أسردَ هنا هذه القصيْدة الفريدة، لبلاغتها التي بَذَّتْ شعر «اليتيمة» و «الخريدة»[5]، ولأنّ شجون الحديث الذي جَرَّ إليها، شوقتني إلى معاهدي المغربية التي أُكْثِرُ البكاءَ عليها، بحضرة المنصور باللّه الإمام، سقى اللّه تعالى عِهَادها صَوْبَ الغمام،

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «الحباب».
(٢) أزهار الرياض (ج ١ ص ٣١٣).
(٣) هو عبد العزيز بن محمد الفشتالي، كاتب أسرار الدولة المنصورية. وقد ترجم له المقري في كتابه روضة الآس (ص ١١٢ . ١٦٣).
(٤) الشآبيب: جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر. لسان العرب (شأب).
(٥) اليتيمة: هي كتاب يتيمة الدهر للثعالبي. الخريدة: هي كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للأصفهاني.

حيث الشبابُ غضٌّ يانع، والمؤمَّلُ لم يحجبْه مانع، والسلطانُ عارفٌ بالحقوق، والزمانُ وهو أبو الورى لم يُشَبْ بِرُّه بالعقوق، والليالي مسالمة غير رامية من البين بنبال، والغربة الجالبة للكربة لم تخطر ببال، ورؤساء الدولة الحسنية السنية ساعُونَ فيما يوافق الغرض ويلائم، والأيام ثغورُهَا بواسم، وأوقاتها أعياد ومَوَاسم، وأفراح وولائم، فللّه فيها عيش ما نسيناه، وعزّ طالما اقتبسْنا نور الهدى من طورسيناه[١]: [الطويل]

مَضَى ما مَضَى من حُلو عَيْشٍ ومُرّه ... كأنْ لم يكنْ إلاّ كأضغاثِ أحْلامِ

وهذا نص القصيدة[٢] [الطويل]

هُمُ سَلَبُوني الصبرَ والصَبْرُ من شاني ... وهُمْ حَرَمُوا من لذّة الغَمْضِ أجْفَاني
وهم أخفروا في مهجتي ذِمَمَ الهوى[٣] ... فلم يثنهمْ عن سفكها حبيَ الجاني
لئن أترعوا من قهوة البين أكؤسي ... فشوقُهُمُ أضحى سميري وندماني
وإن غـادَرَتْـنـي بـالـعـراء حُـمـولـهـم ... لَقًى إنَّ قلبي جاهدٌ إثرَ أظعاني[٤]
قِفِ العِيسَ واسألْ ربعهم أيَّةً مضوا ... أللجزعِ ساروا مدلجين أم البانِ
وهل باكروا بالسفح من جانب اللوى ... مَـلاَعِـبَ آرامٍ هـنـاك وغـزلانِ
وأين استقلُّوا: هل بهضبِ تهامةٍ ... أناخوا المطايا أم على كُثْبِ نَعْمانِ
وهل سال في بطن المسيلِ تشوُّقًا ... نفوسٌ ترامتْ للحمى قبل جثمان
وإذ زجَرُوها بالعشيّ فهل ثَنَى ... أزِمَّتَهَا الحادي إلى شِعْبِ بَوَّانِ
وهل عَرَّسوا في دير عبدونَ أم سَرَوْا ... يؤمُّ بهم رهبانُهُمْ دير نجران
سَرَوْا والدُّجى صبغ المطارفِ فانثنى ... بأحداجهم شتى صفاتٍ وألوان
وأدلج في الأسحار بيضُ قبابِهِمْ ... فَلُحْنَ نجومًا في معارج كثبان
لك اللّهُ من ركبٍ يرى الأرضَ خطوةً ... إذا زَمَّهَا بُدنًا نواعمَ أبدانِ
أرِحْهَا مطايا قد تمشّى بها الهوى ... تمشّي الحُمَيَّا في مفاصلِ نَشْوانِ

---

(١) تقدم هذا البيت في الجزء الأول.
(٢) القصيدة في روضة الآس (ص ١٢٠ وما بعدها).
(٣) أخفروا في مهجتي ذِمَم الهوى: نقضوا عهوده.
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٤): «أضعانِ». ولَقًى: مُلقًى.

ويَمِّمْ بها الوادي المقدَّسَ بالحمى ... به الماء صَدًّا والكلا نَبْتُ سَعْدَانِ[1]
وأَهْدِ حلولَ الحجرِ منه تحيّةً ... تفاوح عَرْفًا ذاكيَ الرَّنْد والبان
لقد نفحتْ من شيخِ يثربَ نفحةٌ ... فهاجَتْ مع الأسحارِ شوقي وأشجاني
وفَتَّتَ منها الشرقُ في الغربِ مِسكةً ... سحبتُ بها في أرضِ دارينَ أرداني
وأذكرني نجدًا وطيبَ عَرَارِهِ ... نسيم الصَّبا من نحو طَيْبَةَ حيّاني
أحنُّ إلى تلك المعاهدِ، إنها ... معاهدُ راحاتي ورَوْحِي وريحاني
وأهفو مع الأشواقِ للوَطَنِ الذي ... به صحَّ لي أُنسي الهنيُّ وسُلْواني
وأصبو إلى أعلامِ مكةَ شائقًا[2] ... إذا لاح برقٌ من شمام وثهلانِ
أُهَيْلَ الحمى ديني على الدهر زورةٌ ... أحثُّ بها شوقًا لكمْ عزمي الواني
متى يشتفي جَفْنِي القريحُ بلحظةٍ ... تُزَجُّ بها في نوركم عَينُ إنساني
ومن لي بأن يدنو لقاكم تعطُّفًا ... ودهرِيَ عني دائمًا عِطْفَه ثاني
سقى عهدهم بالخيفِ عَهْدٌ تمدّه ... سوافحُ دمعٍ من شؤونيَ هتَّانِ[3]
وأنعمَ في شطِّ العقيقِ أراكةً ... بأفيائها ظلُّ المنى والهوى داني
وحَيَّا ربوعًا بين مروةَ والصَّفا ... تحيّةَ مُشْتاقٍ بها[4] الدهرَ حَيْرَانِ
ربوعًا بها تتلو الملائكةُ العلا ... أفانينَ وحي بين ذكر وقرآن
وأول أرضٍ باكَرَتْ عَرَصَاتِهَا ... وطَرَّزت البطحا سحائبُ إيمان
وعَرَّسَ فيها للنبوَّةِ موكبٌ ... هو البحرُ طام[5] فوق هضبٍ وغيطان
وأدّى بها الروحُ[6] الأمينُ رسالةً ... أفادت بها البشرى مدائحَ عنوان

---

(١) أخذ عجز البيت من المثل: «ماءٌ ولا كصدّاء»، وصدّاء: بئر لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٢٧٧). وأخذه أيضًا من المثل: «مَرْعًى ولا كالسَّعْدان»؛ يضرب للشيء يَفضُل على أقرانه وأشكاله. فالعرب تقول: أطيب الإبل لبنًا ما أكل السَّعدان، والسعدان: نبت ذو شوك من أطيب مراعي الإبل ما دام رطبًا. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٢٧٥).

(٢) في روضة الآس: «شيقا».

(٣) في روضة الآس: «سقى عهدكم». والشؤون: جمع شأن وهو مجرى الدمع. مختار الصحاح (شأن).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٥): «لها».

(٥) في روضة الآس: «سال».

(٦) الروح الأمين: جبريل عليه السلام، الذي نزل بالوحي على الرسول ﷺ.

هنالك فضَّ ختمها[1] أشرفُ الورى	وفخرُ نزار من معدّ بنِ عدنان
محمدُ خيرُ العالمين بأسرها	وسيدُ أهلِ الأرضِ م الإنس والجان
ومَنْ بَشَّرَتْ في بعثه قبل كونه	نوامسُ كهّانٍ وأخبارُ رهبان
وحكمة[2] هذا الكونِ لولاه ما سَمَتْ	سماءٌ ولا غاضتْ طوافحُ طوفان
ولا زخرفتْ من جنّةِ الخلدِ أربُعٌ	تسبّحُ فيها الحور مع جمع وِلْدَانِ[3]
ولا طلعتْ شمسُ الهدى غبَّ دَجْيةٍ	تجهّم من ديجورها ليلُ كفرانِ
ولا أحدقتْ بالمذنبين شَفاعَةٌ	يذودُ بها عَنهُمْ زَبَانِيَ[4] نيرانِ
له معجزاتٌ أخرستْ كلَّ جاحدٍ	وسَلَّتْ على المرتابِ صارمَ برهان
له انشقَّ قرصُ البدرِ شقَّين وارتوى	بماءٍ هَمَى من كَفِّه كلُّ ظمآن
وأُنطِقَت الأصنامُ نطقًا تبرّأتْ	إلى اللّه فيه من زخارف مَيَّانِ[5]
دعا سرحةً عَجْمًا فَلَبَّتْ وأقبلتْ	تجرُّ ذيولَ الزَّهْرِ ما بين أفنانِ
وضاءتْ قصورُ الشأم من نوره الذي	على كلِّ أُفقٍ نازحِ القطرِ أو داني
وقد بهج الأنوا بدعوته التي	كَسَتْ أَوْجُهَ الغبراء بهجةَ نَيْسَان
وإنّ كتابَ اللّهِ أعظمُ آيةٍ	بها افتضح المرتابُ وابتأس الشاني[6]
وعدَّى على شأوِ البليغ بيانُهُ	فهيهات منه سَجْعُ قُسٍّ وسَحْبَانِ
نبيُّ الهدى مَنْ أطلع الحقَّ أنجمًا	محا نورُها أسدافَ إفْكٍ وبهْتان
لعزّتها ذَلَّ الأكاسرةُ الأُلى	هُمُ سَلَبُوا تيجانها آلَ ساسانِ
وأحرزَ للدينِ الحنيفيّ بالظُّبَا	تراثَ الملوكِ الصِّيدِ من عهد يونانِ[7]

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٦): «ختمه».

(٢) في روضة الآس: «وعلّة».

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٥): «فيها أُدمُ حُورٍ وولْدانِ».

(٤) الزباني: المَلاك الغليظ الشديد، والجمع الزبانية. وقد يكون أصل القول: «زبانية نيران»، وجاء بها هكذا للضرورة الشعرية. والزبانية: الملائكة الغلاظ الشداد. محيط المحيط (زبن).

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٦): «وأُنْطِقَتِ الأوثانُ..». والميّان: الكذّاب. لسان العرب (مين).

(٦) في روضة الآس: «بها افتضح الميّان..». والشاني: أصلها الشانيء وهو المبغض الكاره. لسان العرب (شنأ).

(٧) في روضة الآس: «من ولد يونان».

ونقَّع من سُمْرِ القنا السمّ قيصرًا[١] فـجـرَّعـه مـنـه مُـجـاجَـةَ ثـعـبـانِ
وأضحتْ ربوعُ الكفر والشكّ[٢] بَلْقَعًا يناغي الصدى فيهنّ هاتفُ شيطان
وأصبحتِ السَّمْحَا[٣] تَرِفُّ نضارة ووجه الهدى بادي الصباحة للرائي
أيا خَيْرَ أهلِ الأرضِ بيتًا ومحتدًا[٤] وأكرمَ كلِّ الخلق: عُجْمٍ وعربانِ
فمن للقوافي أن تحيط بوصفكم ولو ساجَلَتْ سَبْقًا مدائحَ حسّانِ[٥]
إلـيـكَ بـعـثْـنـاهـا أمـانـيَّ أَجْـدَبَـتْ لِتُسْقَى بمزنٍ من أياديك هتّانِ
أَجِرْني إذا أبدى الحسابُ جرائمي وأثـقـلـتِ الأوزارُ كـفّـةَ مـيـزانـي
فـأنـتَ الـذي لـولا وسـائـلُ عِـزِّهِ لـما فُـتِـحَتْ أبوابُ عفوٍ وغفران
عليكَ سلامُ اللّه ما هَبَّتِ الصَّبا وماستْ على كثبانها مُلْدُ قضبانِ
وحمّل في جيب الجنوب تحيّةً يـفـوحُ بـمـسـراهـا شـذا كـلِّ تَـوْقـانِ
إلى الـعـمريـنِ صاحبيكَ كـلـيـهـمـا وتلوِهما في الفضل صهرك عثمانِ
وحَـيَّـا عـلـيًّـا عَـرْفُـهـا وأريـجُـهـا ووالى على سبطيك أوفرَ رضوان
إليكَ رسولَ اللّهِ صَمَّمْتُ عزمةً إذا أَزْمَعَتْ فالشَّحطُ[٦] والقربُ سيّانِ
وخاطبْتُ مني القَلْبَ وهو مُقَلَّبٌ على جمرةِ الأشواقِ فيك فلَبَّاني
فيا ليتَ شعري هل أزمُّ قلائصي إلـيـك بِـدارًا أو أُقـلـقـلُ كـيـرانـي[٧]
وأطوي أديمَ الأرض نحوكَ راحلاً نواجي المَهَارى في صحاصح قيعان
يرنِّحُها فَرْطُ الحنينِ إلى الحمى إذا غَـرَّدَ الـحـادي بـهـنّ وغـنّـانـي
وهل تَمْحَونَ عنّي خطايا اقترفتها خُطًا ليَ في تلك البقاعِ وأوطانِ
وماذا عسى يَثْني عِناني وإنَّ لي بآلكَ جاهًا صهوةَ العزِّ أمطاني[٨]

---

(١) في روضة الآس: «سم قيصر».
(٢) في روضة الآس: «والشرك».
(٣) السمحا: أصلها: «السمحاء»، وأراد بها الملة الإسلامية.
(٤) المحتد: الأصل. لسان العرب (حتد).
(٥) حسان: هو حسان بن ثابت، شاعر الرسول ﷺ.
(٦) الشَّحط: البعد. لسان العرب (شحط).
(٧) القلائص: جمع قلوص وهي الناقة الفتيّة القوية. الكيران: جمع كُور وهو الرَّحْلُ. لسان العرب (قلص) و (كور).
(٨) أمطاني: أركبني مطاه أي ظهره. لسان العرب (مطا).

إذا ندَّ عن زوّارك البأسُ والعنا ... فجودُ ابنكَ المنصورِ أحمدَ أغناني
عمادي الذي أوطا السّماكين أخمصًا ... وأوفى على السبع الطباق فأدناني
مُتَوَّجُ أملاكِ الزمانِ وإن سطا ... أَحَلَّ سيوفًا(١) في معاقد تيجان
وقاري أُسودِ الغابِ بالصَّيدِ مثلها ... إذا اضطرب الخطِّيُّ من فوق جدران
هِزَبْرٌ إذا زار البلادَ زئيرُهُ ... تضاءل في أخياسها(٢) أُسدُ خفَّانِ
وإن أطلعتْ غيمَ القتامِ جيوشُهُ ... وأرزم في مَرْكومِهِ رعْدُ نيران
صَبَبْنَ على أرضِ العُداةِ صواعقًا ... أَسَلْنَ عليهم بحرَ خَسْفٍ ورجفان
كتائبُ لو يعلونَ رَضْوَى لَصَدَّعَتْ ... صَفاهُ الجيادُ الجُرْدُ تعدو بعقبان
عديدَ الحصا من كلِّ أروعَ مُغْلَمٍ ... وكلّ كميٍّ بالرُّدَيْنِيِّ طَعَّانِ
إذا جنَّ ليلُ الحربِ عنهم طُلَى العدا ... هدتهم إلى أوداجها شُهْبُ خرصان
من اللاء جَرَّعْنَ العدا غُصَصَ الردى ... وعَفَّرْنَ في وجه(٣) الثرى وَجْهَ بستان
وفَتَّحْنَ أقطارَ البلادِ فأصبحتْ ... تؤدي الخراجَ الجزلَ أملاكُ سودانِ
إمامُ البرايا من عليّ نجارُهُ ... ومن عِتْرَةٍ سادوا الورى، آل زيدانِ
دعائمُ إيمانٍ وأركانُ سؤددٍ ... ذَوُو هِمَمٍ قد عَرَّسَتْ(٤) فوق كيوانِ
هُمُ العلويون الذين وجوهُهُمْ ... بُدورٌ إذا ما أحلكتْ شُهْبُ أزمانِ
وهُمْ آلُ بيتٍ شيَّدَ اللَّهُ سمكه ... على هضبةِ العلياءِ ثابتَ أركانِ
وفيهم فشا الذكرُ الحكيمُ وصَرَّحَتْ ... بفضلهمُ آياتُ(٥) ذكرٍ وفُرْقانِ
فروعُ ابنِ عَمّ المصطفى ووصيِّه ... فناهيكَ من فخرين: قُرْبىً وقربان
ودوحةُ مجدٍ مُعْشبِ الروضِ بالعلا ... يجودُ بأمواهِ الرسالةِ ريّان
بمجدهُم الأعلى الصريحِ تَشَرَّفَتْ ... مَعَدٌّ على العرباء عادٍ وقحطان
أولئك فخري إن فخرتُ على الورى ... ونافَسَ بَيْتي في الولا بَيْتَ سَلْمان
إذا اقتسمَ المدّاحُ فضلَ فخارهِمْ ... فقسميَ بالمنصور ظاهرُ رحجان

---

(١) في روضة الآس: «السيوف».
(٢) الأخياس: جمع خِيس وهو موضع الأسد. لسان العرب (خيس).
(٣) في روضة الآس: «في عفر الثرى».
(٤) عَرَّسَتْ: نزلت وأقامت. لسان العرب (عرس).
(٥) في روضة الآس: «آي الكتاب».

إمامٌ له في جبهة الدهرِ ميسمٌ ... ومن عزِّهِ في مَفرِقِ الملكِ تاجان
سما فوقَ هاماتِ النجومِ بهمّةٍ ... يحومُ بها فَوقَ السموات نسران
وأطلعَ في أُفقِ المعالي خلافَةً ... عليها وشاحٌ من علاهُ وسِمْطَانِ
إذا ما احتبى فوق الأسرَّةِ وارتدى ... على كبرياء الملكِ نخوةَ سلطان
توسَّمْتَ لقمانَ الحِجا وهو ناطقٌ ... وشاهذْتَ كسرى العدل في صدر إيوانِ
وإنْ هَزَّه حرُّ الثناء تَدَفَّقَتْ ... أناملُهُ عَرْفًا تدفُّقَ خلجان
أيا ناظرَ الإسلام شِمْ[1] بارقَ المنى ... وباكر لروضٍ في ذرا المجدِ فَيْنَانِ
قضى اللّهُ في علياكَ أن تملكَ الدُّنَا ... وتفتحها ما بين سوسٍ وسودان
وأنكَ تطوي الأرضَ غير مُدافَعٍ ... فمن أرضِ سودان إلى أرضِ بغدان[2]
وتملؤها عدلاً يرفُّ لواؤه ... على الهرمينِ أو على رأسِ غمدان
فكم هنَّأتْ أرضَ العراقِ بك العلا ... ووافتْ بك البشرى لأطرافِ عمّان
فلو شَارَفَتْ شرقَ البلادِ سيوفُكُمْ ... أتاكَ استلابًا تاجُ كسرى وخاقانِ
ولو نَشَرَ الأملاكَ[3] دَهْرُكَ أصبحتْ ... عِيَالاً على علياكَ أبناءُ مروانِ
وشايعكَ السفّاحُ[4] يقتادُ طائعًا ... برايته السوداء أهلَ خراسان
فما المجدُ إلاَّ ما رَفَعْتَ سماكَهُ ... على عُمدَيْ مُسْرِ الطوال ومُرَّانِ
وهاتيكَ أبكارُ القوافي جليتها ... تغازلهن الحُورُ في دارِ رضوان[5]
أتتكَ أميرَ المؤمنينَ كأنها ... لطائمُ[6] مسكٍ أو خمائلُ بستانِ
تعاظمنَ حُسْنًا أن يقالَ شبيهها ... فرائدُ دُرّ أو قلائدُ عِقيان
فلا زلتَ للدنيا تحوطُ جهاتها ... وللدينِ تحميه بملكِ سليمان
ولا زلتَ بالنصرِ العزيز مؤزّرًا ... تُقادُ لك الأملاكُ في زيّ عبْدَان

---

(١) يقال: شام فلانٌ البرقَ إذا نظر إليه ليعرف أين يمطر. لسان العرب (شيم).

(٢) بغدان: لغة في بغداد.

(٣) الأملاك: جمع مَلِك، ونشر الأملاك: أعادهم إلى الوجود. لسان العرب (نشر) و (ملك).

(٤) السفّاح: لقب أول الخلفاء العباسيين.

(٥) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٩): «جليتها تغار لهنّ..». وفي روضة الآس: «القوافي جلوتها» ودار الرضوان: الجنة.

(٦) اللطائم: جمع لطيمة وهي وعاء المسك. لسان العرب (لطم).

انتهت القصيدة التي في تغزّلها شرح الحال، وأعرب عمّا في ضمير الغربة والارتحال، ولنُعَزِّزْهَا بأختها في البحر والروي، قصيدة القاضي الشهير الذكر، الأديب الذي سلبت النُّهى كواعبُ شِعْره إذ أبرزها من خُدُور الفِكر، الشيخ الإمام سيدي أبو الفتح محمد بن عبد السلام، المغربي التونسي نزيل دمشق الشام، صَبَّ اللَّه على ضريحه سِجَالَ الرحمة والإنعام! فإنها نفث مصدور غريب، وبثّ مَغْدور أديب[1]، فارق مثلي أوطانه وما سَلاَهَا، وقرأ آيات الشجو وتَلاَهَا، وتمنّى أن يجودَ له الدهرُ برؤية مُجْتَلاَها، وهي قوله رحمه اللَّه وأنشأها بدمشق عام واحد وخمسين وتسعمائة: [الطويل]

سلوا البارق النجديَّ عن سُحْبِ أجفاني ... وعَمّا بقلبي من لواعج نيرانِ
ولا تسألوا غير الصَّبا عن صبابتي ... وشدَّةِ أشواقي إليكمْ وأشجاني
فما لي سواها من رسولٍ إليكمُ ... سريعِ السُّرَى في سيره ليس بالواني
فيا طال بالأسحار ما قد تكفلت[2] ... بإنعاش محزون وإيقاظ وسنان
وتنفيسِ كربٍ عن كئيبٍ متيَّمٍ ... يحنُّ إلى أهلٍ ويصبو لأوطان
فللَّه ما أذكى شَذَا نَسْمةِ الصَّبَا ... صباحًا إذا مَرَّتْ على الرَّنْد والبان
وسارتْ مسيرَ الشمسِ وَهْنًا فأصبحتْ ... من الشرق نحو الغرب تجري بحسبان
وقد وقفتْ بالشام وِقْفَةَ حاملٍ ... نوافجَ[3] مِسْكٍ من ظباء خراسان
لترتاضَ في تلك الرياضِ هنيئةً ... وتَزْدادَ من أزهارها طيبَ أردانِ[4]
وما غربتْ حتى تضاعفَ نَشْرُهَا ... بواسطَتَيْ رَوْحٍ هناك وريحان
فكم نحوكمْ حَمَّلْتُها من رسالةٍ ... مدوَّنَةٍ في شرحِ حالي ووجداني
وناشَدْتُها باللَّه إلاَّ تَفَضَّلَتْ ... بتبليغِ أحبابي السلامَ وجيراني
تحيّةَ مشتاقٍ إلى ذلك الحمى ... وسكّانه والنازحينَ بأظعانِ
سقى اللَّهُ هاتيكَ الديارَ وأهلَها ... سحائبَ تحكي صَوْبَ مدمعيَ القاني
وحَيَّا ربوعَ الحيِّ من خيرِ بلدةٍ ... تَخَيَّرَها قِدمًا أفاضلُ يونان
هي الحضرةُ العليا مدينةُ تونسٍ ... أنيسةُ إنسانٍ رآها بإنسانِ

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٩): «أريب».
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٠): «تكلفت».
(٣) النوافج: جمع نافجة وهي الوعاء.
(٤) الأردان: جمع رُدْن وهو أصل الكم. لسان العرب (ردن).

لها الفخرُ والفضلُ المبينُ بما حَوَتْ من الإنسِ والحُسْنِ المنوطِ بإحسان
لقد حَلَّ منها آلُ حفصٍ ملوكها مراتبَ تسمو فوق هامة كيوان
وسادوا بها كلَّ الملوك وشيّدوا بها من مباني العِزِّ أفخرَ بنيان
وكان لهمْ فيها بهاءٌ وبهجةٌ وحُسْنُ نظامٍ لا يُعابُ بنقصان
وكان لهم فيها عساكرُ جَمَّةٌ تصولُ بأسيافٍ وتسطو بمُرَّانِ[1]
جيوشٌ وفرسانٌ يضيقُ بها الفَضَا وتُخجِم[2] عنها الفُرسُ من آلِ ساسان
وكان لأهليها المفاخِرُ والعُلا وكان بها حصنا أمانٍ وإيمَان
وكان على الدنيا جَمالٌ بحسنها وحُسْنِ بنيها من ملوكٍ وأعيان
وكانت لطلاّبِ المعارفِ قِبْلَةً لما في حِماها من أئمّةِ عرفان
وكان لأهلِ العلمِ فيها وجاهَةٌ وجاهٌ وعزٌّ مجدُهُ ليس بالفاني
وكان بواديها المقدَّسِ فِتْيَةٌ تُقَدِّسُ باريها بذكرٍ وقرآن
ومن أدباء النظم والنثر معشرٌ تفوقُ بناديها بلاغةَ سَحْبَانِ[3]
وكانت على الأعداء في حَوْمَة الوغى تطولُ بأبطالٍ، وتسطو بشجعان
وما بَرِحَتْ فيها محاسنُ جَمَّةٌ وفي كلِّ نوعٍ أهلُ حِذْقٍ وإتقان
إلى أن رَمَتْها الحادثاتُ بأسْهُم وسَلَّتْ عليها سَيفَ بَغْيٍ وعُدْوَانِ
فما لبثت تلك المحاسنُ أن عَفَتْ وأقفرَ ربعُ الأُنْس من بعد سكان
وشُتِّتَ ذاكَ الشملُ من بعد جَمْعِهِ كما انتثرتْ يومًا قلائدُ[4] عقيان
فأعْظِمْ برُزْءٍ خَصَّ خيرَ مدينةٍ وخيرَ أُناسٍ بين عُجْمٍ وعُرْبَانِ
لعمري لقد كادتْ عليها قلوبُنا تَضَرَّمُ من خطبٍ عراها بنيرانِ
وقد عَمَّنا غَمٌّ بعظم مُصابها وإنْ خَصَّنِي منه المضرُّ بجثماني
وما بقيتْ فيما عَلِمْناه بلدةٌ من الشرق إلاّ أُلبِسَتْ ثوبَ أحزان
فصبرًا أخي صبرًا على المحنة التي رَمَتْكَ بها الأقدارُ ما بين إخوان

---

(١) المُرّان: شجر تتّخذ منه الرماح، والمراد الرماح. لسان العرب (مرن).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٠): «ويحجم».
(٣) سَحْبان: هو سَحْبان وائل، أشهر خطباء العرب، يضرب به المثل في البيان فيقال: «أخطب من سحبان» و «أفصح من سحبان». توفي سنة ٥٤ هـ. الأعلام (جـ ٣ ص ٧٩ ومصادر حاشيته).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٢): «قلائل».

فما الدَّهرُ إلاَّ هٰكَذَا فاصطبرْ له:	رزيَّـةُ مـالٍ أو تـفـرُّقُ خـلاَّنِ
أأحبابنا إن فَرَّقَ الدَّهرُ بيننا	وطال مغيبي عنكمُ منذ أزمانِ
فإني على حفظِ الودادِ وحقِّكمْ	مقيمٌ، وما هَجْرُ الأحبّةِ من شاني
ووالله والله العظيمِ أليَّةً[1]	على صدقها قامتْ شواهدُ برهان
لقد زاد وجدي واشتياقي إليكُمُ	وبَرَّحَ بي طولُ البعادِ وأضناني
فلا تحسبوا أني تَسَلَّيْتُ بَعْدَكُمْ	بشيء من الدنيا وزُخْرُفها الفاني
ولا أنني يومًا تناسيتُ عهدكمْ	بحالٍ، ولا أنَّ التكاثُرَ ألهاني
ولا راقني روضٌ، ولا هَشَّ مسمعي	لنغمةِ أطيارٍ ورنَّةِ عِيدان
ولا حَلَّ في فكري سواكمْ بخلوةٍ	ولا جَلوةٍ ما بين حُورٍ ووِلْدَان
ولا اختلجتْ يومًا ضمائرُ مهجتي	لغيركُم في سرِّ سرِّي وإعلاني
ولو لم أُسَلِّ النفس بالقُرْبِ واللقا	لأدرج جسمي في مقاطع أكفاني
فما أنا في[2] عَوْدِي إليكمْ بآيسٍ	فما اليأسُ إلاَّ من علامةِ كفران
عليكمْ سلامُ اللَّهِ في كلِّ ساعةٍ	تحيَّةَ صَبٍّ لا يدينُ بسُلْوانِ
مدى الدهرِ ما ناحتْ مُطَوَّقَةٌ وما	تعاقب بين الخافقين الجَديدان[3]

ولصاحب الترجمة لسان الدين ابن الخطيب قصيدة طنّانة بهذا الوزن والقافية، مدح بها السلطانَ أبا سالم المَرِيني حين فتح تلمسان، وقد رأيت إيرادها في هذا الباب، لما اشتمل عليه آخرها من شرح أمر الأعراب، الذي حيّر الألباب، وللمناسبة أسباب، لا تخفى على من له فكر مصيب، وكلُّ غريبٍ للغريب نسيب[4]، وهي[5]: [الطويل]

أطاعَ لساني في مديحك إحساني	وقد لَهَجَتْ نفسي بفتح تِلِمْسَانِ
فأطلعْتُها تفتُّر عن شَنَبِ المُنَى	وتُسْفِرُ عن وَجْهٍ من السعد حيّاني

(١) الأليّة، بفتح الهمزة وكسر اللام وتشديد الياء: اليمين والقسم. لسان العرب (ألي).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٣): «من».

(٣) المُطَوَّقَةُ: الحمامة. الجديدان: الليل والنهار. لسان العرب (طوق) و (جدد).

(٤) أخذه من قول امرىء القيس: [الطويل]

أجارتَنا، إنّا غريبان ها هنا	وكلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ

ديوان امرىء القيس (ص ٣٥٧).

(٥) مطلع هذه القصيدة فقط في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٨٦).

كما ابتسم النوّارُ عن أدمُعِ الحَيَا وجفَّ بخدِّ الوردِ عارضُ نيسان

كما صَفَّقَتْ ريحُ الشمالِ شمولها فبان ارتياحُ السكر في غُصُنِ البان

تُهَنِّيكَ بالفتحِ الذي معجزاتُهُ خوارقُ لم تُذْخَرْ سواكَ لإنسان

خَفَفْتَ إليها والجفونُ ثقيلةٌ كما خفَّ شَثْنُ[1] الكَفِّ من أُسدِ خفَّانِ

وقُدْتَ إلى الأعداء فيها مبادرًا ليوثَ رجالٍ في مناكبِ عقبان

تمدُّ بنودُ النصرِ منهم ظلالَها على كلِّ مطعامِ العشيّات مطعان

جحاجِحَةٌ[2] غُرُّ الوجوهِ كأنما عمائمُهُمْ فيها معاقِدُ تيجان

أمدَّكَ فيها اللَّهُ بالملإ العلا فجيشك، مهما حُقِّقَ الأمرُ، جَيْشَانِ

لقد جُلِيَتْ منكَ البلادُ لخاطبٍ لقد جُنِيَتْ منك الغصونُ إلى جاني

لقد كستِ الإسلامَ بيعتكَ الرضا وكانت على أهليه بيعةَ رضوان

وللَّه مِنْ مُلكٍ سعيدٍ ونَصْبَةٍ[3] قضى المشتري فيها بعزلة كيوانِ

وسجّل حكم العدلِ بين بيوتها وقوفًا مع المشهور من رأيِ يونان

فلم تَخْشَ سهمَ القوسِ صفحةُ بدرِها ولم تشكُ فيها الشمسُ من بخس ميزان

ولم يعترضْ مبتزَّها قطعُ قاطعٍ ولا نازعتْ نوبهرها كفُّ عدوان[4]

تولّى اختيارُ اللَّهِ حُسْنَ اختيارها فلم يحتجِ الفرغانُ فيها لِفُرْغان

ولا صرفتْ فيها دقائقُ نسبةٍ ولو خفقتْ فيها طوالعُ بلدان

وجوهُ القضايا في كمالكَ شأنها وجوبٌ إذا خَصَّتْ سواكَ بإمكان

ومَنْ قاسَ منكَ الجودَ بالبحر والحَيَا فقد قاس تمويهًا قياسَ سَفْسْطاني[5]

وطاعتُكَ العظمى بشارةُ رحمةٍ وعصيانُكَ المحذورُ نزغَةُ شيطانِ

وحُبُّكَ عنوانُ السعادةِ والرضا ويُعْرَفُ مقدارُ الكتابِ بعنوانِ

ودينُ الهدى جسمٌ وذاتُكَ روحُهُ وكم وُصْلَةٍ ما بين روح وجثمان

---

(١) شَثْنُ الكَفِّ: غليظها. محيط المحيط (شثن).

(٢) الجحاجحة: جمع جحجاح وهو السيّد، السمح الكريم. لسان العرب (جحجح).

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٤): «ونصبه».

(٤) المُبْتَزُّ: الكوكب الذي له حظوظ كثيرة. النوبهر: تاسع البروج.

(٥) السفسطاني: نسبة إلى السفسطة وهي قياس مركب من الوهميات، والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته. محيط المحيط (سفسط).

تضنُّ بكَ الدنيا ويَحْرُسُكَ العلا كأنك منها بين لَحْظٍ وأجفان
بَنَيْتَ على آساسِ أسلافِكَ العلا فلا هُدِمَ المَبْنَى ولا عُدِمَ الباني
وصاحتْ بكَ العليا فلم تكُ غافلاً ونادتْ بك الدنيا فلم تكُ بالواني
ولم تكُ في خَوْضِ البحارِ بهائبٍ ولم تكُ في نَيْلِ الفَخارِ بكسلان
لقد هَزَّ منكَ العَزْمُ لمَّا انتضيْتَهُ ذوائبَ رضوى أو مناكبَ ثَهْلاَنَ[1]
ولِلَّه عَيْنا مَنْ رآها محلّةً هي الحشرُ لا تحصى بعدّ وحسبان
وتَنُّورُ عزمٍ فار في إثر دعوةٍ يعمُّ الأقاصي والأداني بطوفان
عجائبُ أقطارٍ، ومَألَفُ شاردٍ وأفلاذُ آفاقٍ، وموعِدُ رُكبان
إذا ما سرحتَ اللحظَ في عَرَصَاتها تبلّد منكَ الذهن في العالم الثاني
جنىً حانَ والنصرُ العزيزُ اهتصاره إذا انتظمت بالقلب منها جناحان
فمن سُحُبٍ لاحتْ بها شُهبُ القنا ومن كُثبٍ بيضٍ بَدَتْ فوق كثبانِ[2]
مضاربُ في البَطْحاء بيضٌ قبابُها كما قلبتْ للعين أزهارُ سوسان
وما إن رأى الراءون في الدهر قبلها قَرارةُ عِزٍّ في مدينةِ كتّان
تفوتُ التفاتَ الطّرف حالَ اقتبالها كأنكَ قد سَخَّرْتَ جنَّ سليمان
فقد أطرقتْ من خوفها كلُّ بِيعَةٍ وطأطأ من إجلالها كلُّ إيوان
وقد ذُعِرَتْ خَوْلاَنُ بين بيوتها غداةَ بَدَتْ منها البيوتُ بخولان
فلو رُمِيتْ مصر بها وصعيدها لأضحت خلاء بلقعًا بعد عمران
ولو يَمَّمْتَ سيفَ بن ذي يَزَنٍ لما تقرّر ذاك السيفُ في غمدِ غمدان
تُراع بها الأوثانُ في أرض رومةٍ إذا خَيَّمَتْ شرقًا على طُرْقِ أوثان
وتجفِلُ إجفالَ النعام[3] ببرقَةٍ ليوثُ الشرى ما بين تُركٍ وعُرْبانِ
وعرضًا كيومِ العرضِ أذْهَلَ هولُهُ عياني، وأعياني تعدُّدُ أعيان
وجيشًا كقطعِ الليلِ للخيل تحته إذا صَهَلَتْ مفتَّنةً رَجْعُ ألحان
فَيُوْمِضُ من بيضِ الظُّبَا ببوارقٍ ويقذفُ من سُمْرِ الرماحِ بشهبان

(١) رضوى: جبل بالمدينة. معجم البلدان (جـ ٣ ص ٥١). ثهلان: جبل ضخم بالعالية، ويقال هو جبل في بلاد بني نمير به ماء ونخيل. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٨٨).
(٢) الكثبان: جمع كثيب وهو ما اجتمع من الرمل وتراكم. لسان العرب (كثب).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٤): «النعامى».

ويمطرُ من ودقِ السهام بحاصبٍ ... سحائبه من كلِّ عوجاء مِرْنَانِ[1]

وجُرْدًا إذا ما ضُمّرتْ يومَ غايةٍ ... تَعَجَّبْتَ من ريحٍ تُقاد بأرسانِ[2]

تُسَابِقُ ظلمَانَ الفلاةِ بمثلها ... وتذعرُ غزلانَ الرمالِ بغزلان

ودون مهبِّ العزم منكَ قواضبٌ ... أبى النصرُ يومًا أن تُلمَّ بأجفان

نظرتُ إليها والنجيعُ لباسُها ... فقلتُ: سيوفٌ أم شقائقُ نعمان

تَفَتَّحَ وردًا خدُّها حين جَرّدَتْ ... ولا ينكرُ الأقوامُ خجلةَ عُريان

كأنَّ الوغى نادتْ بها لوليمةٍ ... قد احتفلتْ أوضاعُها منذ أزمان

فإن طعمتْ بالنصر كان وضوءها ... نجيعًا ووافاها الغبارُ بأُشْنان

لقد خلصتْ للَّه منكَ سجيَّةٌ ... جزاكَ على الإحسان منكَ بإحسان

فسيفكَ للفتحِ المبينِ مصاحبٌ ... وعَزْمُكَ والنصرُ المُؤَزَّرُ إلفان

فَرُحْ واغْدُ للرحمنِ تحت كلاءةٍ ... وسِرْحان في غاب العِدا كلُّ سرحان

ودُمْ والمنى تدني إليك قطافها ... مُيَسَّرَ أوطارٍ مُمَهَّدَ أوطان

وكُنْ واثقًا باللَّه مستنصرًا به ... فسلطانُهُ يعلو على كلِّ سلطان

كفاكَ العِدا كافٍ لملككَ كافلٌ ... فضدّكَ نِضْوٌ مَيِّتٌ بين أكفان

رضا الوالد المولى أبيكَ عرفته ... وقد أُنكرَ المعروفُ من بعد عرفان

فكم دعوةٍ أولاكَ عند انتقاله ... إلى العالم الباقي من العالم الفاني

فَعُرِّفْتَ في السَّرّاء نعمةَ مُنْعِمٍ ... وألحفْتَ في الضرّاء رحمةَ رحمانِ

عجبتُ لمن يبغي الفَخارَ بدعوةٍ ... مجرَّدة من غيرِ تحقيقِ برهانِ

وسُنَّةُ إبراهيمَ في الفخر قد أتتْ ... بكلِّ صحيحٍ عن عليّ وعثمانِ

ومَنْ مثلُ إبراهيم في ثَبْتِ موقفٍ ... إذا ما التقى في موقفِ الحربِ صَفَّانِ

إذا هَمَّ لم يلفتْ بلحظةِ هائبٍ ... وإن مَنَّ لم يَنْفثْ بلفظةِ مَنَّانِ

فصاحةُ قُسّ في سماحةِ حاتمٍ ... وإقدامُ عمروٍ تحت حكمةِ لقمان

شمائلُ ميمونِ النقيبةِ أروعٍ[3] ... له قَصَباتُ السَّبْقِ في كلِّ ميدانِ

---

(١) الوَدْقُ: المطر. مَرْنان: ذات صوت. لسان العرب (ودق) و (مرن).

(٢) الجُرْدُ: جمع أَجرد وهو السبّاق. الأرسان: جمع رسن وهو ما تُقاد به الدابّة. محيط المحيط (جرد) و (رسن).

(٣) الأروع: الشهم. لسان العرب (روع).

مَحَبَّتُهُ فَرْضٌ على كلِّ مسلمٍ وطاعتُهُ في اللَّه عُقْدَةُ إيمان
هنيئًا أميرَ المسلمينَ بنعمةٍ حُبيتَ بها من مطلقِ الجودِ منّانِ
لَزَيَّنتَ أجيادَ المنابرِ بالتي أتاحَ لها الرحمٰنُ في آلِ زَيَّانِ
قلائدُ فتحٍ هنَّ لكنّ قدرها تَرَفَّعَ أن يُدْعى قلائدَ عقيان
أمولايَ، حُبِّي في علاكَ وسيلتي ولطفكَ بي دأبًا بمَدْحِكَ أغراني
أياديكَ لا أنسى على بُعْدِ المدى نعوذُ بك اللَّهُمَّ مِنْ شرِّ نسيان
فلا جَحْدُ ما خَوَّلْتَني من سجيّتي ولا كفرُ نعماكَ العميمةِ مِنْ شاني
ومهما تَعَجَّلْتَ الحقوقَ لأهلها فإنك مولاي الحقيقُ وسلطاني
وركني الذي لمّا نبا بيَ منزلي أجابَ ندائي بالقَبُولِ وآواني
وعالَجَ أيامي وكانت مريضةً بحكمةِ مَنْ لم ينتظرْ يومَ بُحْرانِ
فأَمَّنني الدهرَ الذي قد أخافني وجَدَّدَ لي السَّعْدَ الذي كان أبلاني
وخَوَّلَني الفضلَ الذي هو أهله وشيكًا وأعطاني فأفعَم أعطاني[1]
تَخَوَّنني صَرْفُ الحوادثِ فانْثَنى يُقَبِّلُ أرداني[2]، ومَنْ بَعْدُ أرداني
وأزعجني من منشئي ومُبَوِّئي ومعهد أحبابي ومألف جيراني
بلادي التي فيها عقدت تمائمي وجم بها وَفْرِي وجل بها شاني
تحدّثني عنها الشمالُ فتنثني وقد عرفتْ مني شمائل نَشْوَانِ
وآملُ أن لا أستفيقَ من الكَرَى إذا الحلم أوطاني[3] بها تُرْبَ أوطاني
تَلَوَّنَ إخواني عليَّ وقد جَنَتْ عليّ خطوبٌ جَمَّةٌ ذات ألوان
وما كنتُ أدري قبلَ أن يتنكّروا بأنَّ خِوَاني كان مجمعَ خُوَّانِي
وكانت، وقد حُمَّ القضاء، صنائعي عليَّ بما لا أرتضي شرَّ أعواني
فلولاكَ بَعْدَ اللَّهِ يا ملكَ العُلا وقد فتَّ ما أَلْفَيْتُ مَنْ يتلافاني
تداركتَ منِّي بالشفاعةِ منعمًا بريئًا رماه الدهرُ في موقف الجاني
فإنْ عرف الأقوامُ حَقَّكَ وُفِّقوا وإن جهلوا باءوا بصفقة خسران
وإن خلطوا عُرْفًا بنكرٍ وقصَّروا وزنتَ بقسطاسٍ قويمٍ وميزان

---

(١) الأعطان: جمع عطن وهو المسكن أو المساحة. لسان العرب (عطن).

(٢) الأردان: جمع رُدْن وهو أصل الكم. القاموس المحيط (ردن).

(٣) أوطاني: أصلها: أوطأني، فسهّل الهمزة بقلبها ألفًا وذلك للضرورة الشعرية.

وحرمةُ هذا اللحدِ يأبى كمالُها هضيمةَ رَدّ أو حطيطةَ نقصان
وقد نمتُ عن أمري ونَبَّهْتُ هِمّةً تحدِّقُ من علوٍ إلى صرحِ هامان
إذا دانتِ اللّهَ النفوسُ وأمَّلَتْ إقالةَ ذنبٍ أو إنالَةَ غفرانِ
فمولاكَ يا مولايَ قِبلةُ وجهتي وعهدةُ إسراري وحجّةُ إعلاني
وقفتُ على مَثْوَاهُ نفسيَ قائمًا بترديدِ ذكرٍ أو تلاوةِ قرآن
ولو كنتُ أدري فوقها مِنْ وسيلةٍ إلى ملكِكَ الأرضى لَشَمَّرْتُ أرداني
وأبلغتُ نفسي جهدها غير أنني طلابيَ ما بعد النهاية أعياني
قرأتُ كتاب الحمدِ فيكَ لعاصم فصحَّ أدائي واقتدائي وإتقاني
فدونكها من بحرِ فكريَ لؤلؤًا يُفَصَّلُ مِنْ حُسْنِ النظامِ بمرجان
وكان رسولُ اللّهِ بالشِّعْرِ يَعْتني وكم حُجَّةٍ في شِعْرِ كعبٍ وحَسّان
واللّه ما وَفَّيْتُ قدركَ حَقَّهُ ولكنه وُسْعِي وَمَبْلَغُ إمكاني

وكتب لسان الدين رحمه اللّه قبل هذه القصيدة نثرًا من إنشائه يخاطب به السلطان أبا سالم المذكور، وذلك أنه ورد على لسان الدين وهو بشالة سلا كتابُ السلطان المذكور بفتح تلمسان، وكان وروده يوم الخميس سابع عشر شعبان عام واحد وستين وسبعمائة، ونصّ ما كتب به لسان الدين: «مولاي فتاح الأقطار والأمصار، فائدة الأزمان والأعصار، أثير هبات اللّه الآمنة من الاعتصار، قدوة أولي الأيدي والأبصار، ناصر الحقّ عند قعود الأنصار، مُسْتَصْرَخ الملك الغريب من وراء البحار، مصداق دعاء الأب[1] المولى في الأصائل والأسحار، أبقاكم اللّه سبحانه لا تقف إيالتكم عند حدّ، ولا تُحْصَى فتوحاتُ اللّه تعالى عليكم بَعدّ، ولا تفيق أعداؤكم من كدّ، مُيسَّرًا على مقامكم ما عسر على كل أب كريم وجدّ، عَبْدُكم الذي خلص إبريز عبوديته لملك ملككم المنصور، المعترف لأدنى رحمة من رحماتكم بالعجز عن شكرها والقُصُور، الداعي إلى اللّه سبحانه أن يَقْصر عليكم سعادة العصور، ويذلِّلَ بعزّ طاعتكم أنف الأسَدِ الهَصُور[2]، ويبقي الملكَ في عقبكم وعقب عقبكم إلى يوم ينفخ في الصور، فلان من الضريح المقدس بشالة، وهو الذي تعدّدت على المسلمين حقوقه، وسطع نوره وتلألأ شروقه، وبلغ مجده السماء لما بسقت

(١) يريد أنه صدق فيه دعاء أبيه أبي الحسن، الذي سيرد اسمه في هذه الرسالة بعد قليل.
(٢) الأسد الهَصُور: الذي يكسر فريسته. لسان العرب (هصر).

فروعه ووَشجَتْ عُروقه، وعظم ببيوتكم فخره[1] فما فوق البسيطة فخر يفوقه، حيث الجلال قد رست هِضابه، والملك قد كسيت بأستار الكعبة الشريفة قِبابه، والبيت العتيق قد ألحفت الملاحف الإمامية أثوابه، والقرآن العزيز ترتل أحزابه، والعمل الصالح يرتفع إلى اللّه ثوابه، والمستخبر يخفي بالهيبة سؤاله فيجهر بنعرة العزّ جوابه، وقد تفيّأ من أوراق الذكر الحكيم حديقة، وخميلة أنيقة، وحط بجوديّ[2] الجود نفسًا في طوفان العِزّ[3] غريقة، والتَحَفَ رفرف الهيبة التي لا تهتدي النفسُ فيها إلاّ بهداية اللّه تعالى طريقة، واعتزّ بعزّة اللّه وقد توسّط جيش الحرمة المرينية حقيقة، إذ جعل المولى المقدّس المرحوم أبا الحسن مقدّمة وأباه وجدّه وثيقة[4]، يرى برّكم بهذا اللحد الكريم قد طنب عليه من الرضا فُسْطَاطًا، وأعلق به يَدَ العناية المرينية اهتمامًا واغتباطًا، [وحرّر له أحكام الحرمة نصًّا جليًّا واستنباطًا][5] وضمن له حسن العقبى التزامًا واشتراطًا، وقد عقد البصر بطريقة رحمتكم المنتظرة المرتقبة، ومدَّ اليد إلى لطائف شفاعتكم التي تتكفل بعتق المال كما تكفلت بعتق الرقبة، وشرع في المَراح بميدان نعمتكم بعد اقتحام هذه العَقَبَة، لما شنفت الأذنَ البشرى التي لم يبق طائر إلاّ سجع بها وصَدَح، ولا شهاب دُجُنَّة إلاّ اقْتَبَسَ من نورها واقتدح، ولا صدر إلاّ انشرح، ولا غصن عطف إلاّ سرح[6]، بشرى الفتح القريب، وخبر النصر الصحيح الحسن الغرِيب، فتح تلمسان الذي قلّد المنابر عقودَ الابتهاج، ووهب الإسلام منيحة النصر غَنِيَّةً عن الانتهاج، وألحف الخلق ظلاً ممدودًا، وفتح باب الحجّ وكان مسدودًا، وأقرَّ عيونَ أولياء اللّه الذين يذكرون اللّه قيامًا وقُعُودًا، وأضرع بسيف الحقّ جِبَاهًا أبيَّةً وخدودًا، وملككم حقّ أبيكم الذي أهان عليه الأموال، وخاض من دونه الأهوال، وأخلص فيه الضراعة والسؤال، من غير كدّ يغمز عِطْفَ المسرّة، ولا جهد يكدر صفو النعم الثرة، ولا حصر ينفضُ به المنجنيق ذؤابته، ويظهر بتكرار الركوع إنابته. فالحمد للّه الذي

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٩): «فخرًا».

(٢) الجودي: جبل بالجزيرة مذكور في القرآن، وله موسمان في العام. الروض المعطار (ص ١٨١). قال اللّه تعالى: ﴿وغِيضَ الماءُ وقُضيَ الأمرُ واستوتْ على الجُوْدِيّ ﴾. سورة هود ١١، الآية ٤٤.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «الضرّ».

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٨): «سيقة».

(٥) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٠).

(٦) في طبعة دار صادر: «مرح».

أقال العِثار، ونظم بدعوتكم الانتثار[١]، وجعل ملككم يجدّد الآثار، ويأخذ الثار، والعبد يهنىء مولاه، بما أنعم اللّه تعالى به عليه وأولاه، فإذا أجال العبيدُ قِدَاحَ السرور فللعبد المُعَلّى والرقيب[٢]، وإذا اسْتَهَمُوا حظوظ الجذل فلي القسم الوافر والنصيب، وإذا اقتسموا فريضة شكر اللّه فلي الحظّ والتعصيب، لتضاعف أسباب العبودية قِبَلي، وترادف النعم التي عجز عنها قولي وعَمَلي، وتقاصر في ابتغاء مكافأتها وجدي وإن تطاول أملي، فمقامكم المقام الذي نَفَّس الكُرْبَة، وآنس الغربة، ورعى الوسيلة والقربة، وأنعش الأرماق[٣]، وفكَّ الوَثَاق، وأدرَّ الأرزاق، وأخذ على الدهر بالاستقالة العهد والميثاق. وإن لم يباشر العبد اليد العالية بهذا الهناء، ويمثّل بين يدي الخلافة العظيمة السنا والسَّنَاء، ويمدّ بسبب اليد إلى تلك السماء، فقد باشر به اليد التي يحنّ مولاي لتذكر تقبيلها، ويكمل فروض المجد بتوفية حقوقها الأبوية وتكميلها، ووقفت بين يَدَي ملك الملوك الذي أجال عليها القداحَ، ووصل في طلب وصالها بالمساء الصباحَ، وكان فتحه إياها أبا عُذْرَة الافتتاح، وقلت: يهنيك يا مولاي رَدّ ضالّتك المنشودة، وجبر لقطعتك[٤] المعرفة المشهودة، ورد أمتك المودودة، فقد استحقّها وارثك الأرْضَى، وسيفك الأمْضَى، وقاضي دَيْنِك، وقرّة عينك، مستنقذ دارك من يد غاصبها، وراد رتبتك إلى مناصبها، وعامر المثوى الكريم، وساتر الأهل والحريم، مولاي، هذه تلسمان قد طاعت، وأخبار الفتح على ولدك الحبيب إليك قد شاعت، والأمم إلى هنائه قد تداعت، وعدوّك وعدوه قد شرّدته المخَافَةَ، وانضاف إلى عرب الصحراء فخفضته الإضافة، وعن قريب تتحكّم فيه يد احتكامه، وتسلّمه السلامة إلى حِمَامه، فلتطب يا مولاي نفسك، وليستبشر رَمْسك[٥]، فقد نَمَتْ بركتك وزكا غرسك، نسأل اللّه أن يورد على ضريحك من أنباء نصره ما تفتح له أبواب السماء قبولاً، ويترادف إليك مددًا موصولاً، وعددًا آخرته خير لك من الأولىٰ، ويعرفه بركة رضاك ظعنًا وحلولاً، ويُضْفِي عليك منه سترًا مسدولاً. ولم يقنع العبد بخدمة النثر، حتى أجهد القريحة التي ركضها الدهر

---

(١) الانتثار: التفرّق والتشتّت. لسان العرب (نثر).

(٢) المعلّى: سابع سهام الميسر. الرقيب: الثالث من قداح الميسر. محيط المحيط (علا) و (رقب).

(٣) الأرماق: جمع رمق وهو بقية النّفس في الجسم. لسان العرب (رمق).

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤١): «القطتك».

(٥) الرَّمْسُ: القبر. محيط المحيط (رمس).

فأنضاها[١]، واستشفَّهَا الحادث الجلل فتقضاها، فلفق من خدمة المنظوم ما يتغمد[٢] حلمكم تقصيرَه، ويكون إغضاءكم إذا لقي معرة العتب وليَّه ونصيره، وإحالة مولاي على اللَّه في نفسي جَبَرها، ووسيلة عَرَفَها مجده فما أنكرها، وحرمة بضريح مولاي والدِهِ شكرها، ويطلع العبد منه على كمال أمله، ونجح عَمَلِه، وتسويغ مقترحه وتتميم جذلهِ: [الطويل]

* أطاع لساني في مديحك إحساني *

إلى آخر القصيدة التي تقدّمت.

وحيث اقتضت المناسبة جَلْبَ هذه النونيات فلنضف إليها قصيدة أديب الأندلس الفقيه عمر صاحب الأزجال، إذ هو من فرسان هذا المَجَال، وقد وطَّأ لها بنثر، وجعل الجميع مقامة ساسانية، سماها «تسريح النصال، إلى مقاتل الفصال» ونصُّها[٣]: يا عماد السالكين، ومحطّ[٤] المستفيدين والمتبركين، وثمال الضعفاء والمساكين المتروكين، في طريقك يتنافس المتنافس، وعلى أعطافك تُزْهَى العباءات وتروق الدَّلاَفس[٥]، وبكتابك تحيا جوامد الأفهام، وبمذبتك تشرد ذئاب الأوهام، وفي زنبيلك[٦] يدسّ التالد والطارف، وبعَصَاك يُهشّ على بدائع المعارف، اللَّه اللَّه في سالك، ضاقت عليه المسالك، وشاد، رُمِيَ بإبعاد، أدركته متاعب الحرفة، وأقيم من صف أهل الصُّفَّة[٧]، فلا يجد نشاطًا، على ما يتعاطى، ولا يلقى[٨] اغتباطًا، إن حَلَّ زاوية أو نزل رِبَاطًا، أُقصي عن أهل القرب والتخصيص، وابتلي بمثل حالة برصيص[٩]، فأحيل عليك، وتوقفت إقالته على توبةٍ[١٠] بين يديك،

---

(١) أنضاها: أتعبها وأجهدها. لسان العرب (نضا).
(٢) يتغمد: يستر. لسان العرب (غمد).
(٣) أزهار الرياض (ج ١ ص ١١٧ وما بعدها).
(٤) في أزهار الرياض: «ومحط رحال».
(٥) الدلافس: جمع دلفاس وهو نوع من الثياب.
(٦) الزنبيل: الوعاء. محيط المحيط (زبل).
(٧) أهل الصُّفّة: جماعة من أصحاب النبيّ ﷺ كانوا يبيتون في مسجده. محيط المحيط (صفف).
(٨) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٢): «يلفى».
(٩) برصيص: من عباد بني إسرائيل ثم فتنه الشيطان.
(١٠) في طبعة عبد الحميد: «على ثوبه».

فكاتَبَكَ استدعاء، واستوهب منك هداية ودعاء، ليسير على ما سويت، ويتحمّل عنك أشتات ما رويت، فيلقى الأكفاء الظرفاء عزيزًا، ويباهي بك كلّ من خاطبك مستجيزًا، فاصرف إليَّ محيا الرضا، وعُدْ من إيناسك للعهد الذي مَضى، ولا تلقني معرِضًا ولا معرَّضًا، وأصِخْ لِي سمعك كما قدر الله تعالى وقَضَى: [الطويل]

تعالَ نُجَدِّدْها طريقةَ ساسانِ ... نَعَضُّ عليها ما توالى الجديدانِ[1]
ونَضرِفْ إليها من مثارِ عزائم ... ونحلفْ عليها من مؤكّد أيمان
ونعقدْ على حكم الوفاء هواءنا ... لنأمَنَ من أقوالِ زُورٍ وبهتان
ونقسمْ على أن لا نصدِّقَ واشيًا ... يروحُ ويغدو بين إثم وعدوان
يطوفُ حوالينا ليفسدَ بيننا ... بمنطقِ إنسانٍ وخدعةِ شيطانِ
على أنّنا من عالم كلّما بَدَا ... تَعَوَّذَ منه عالَمُ الإنس والجان
وحاشاك أن تُلْفَى عن الصلح مُعْرِضًا ... إلى الصلح آلتْ حربُ عبسٍ وذبيان
وإني أهمّتني شؤونٌ كثيرةٌ ... وصلحكَ أولى ما أُقَدِّمُ من شاني
فأنت إمامي إن كلفتُ بمذهبٍ ... وأنت دليلي إن صدعتُ ببرهان
سأرعاكَ في أهلِ العباءات كلّما ... رأيتك في أهل الطيالس ترعاني
ويا لابسي تلك العباءات إنها ... لباسُ إمامٍ في الطريقة دِهْقَانِ
تَفَرَّقَتِ الألوانُ منها إشارةً ... بأنك تأتي من حلاكَ بألوان
ويا بأبي الفضّال شيخِ طريقةٍ[2] ... خلوبٍ لألبابٍ لعوبٍ بأذهان
إذا جاء في الثوبِ المحبَّرِ خِلْتَهُ ... زنيبيرةً قد مُدَّ منها جناحان
فما تأمنُ الأبدانُ آفةَ لسعها ... وإن أقبلتْ في سابغاتٍ وأبدان
سأدعوك في حالات كيدي وكُديَتي ... بِشَيْخِي ساسانٍ وعَمِّيَ هامان
فإن كان في الأنساب منّا تباينٌ ... فما تنكرُ الآداب أنّا نسيبان
ألاَ فادْعُ لي في جنح ليلك دعوةً ... لِتُنْجِحَ آمالي ويرجحَ ميزاني
لك الطائرُ الميمونُ في كلِّ وجهة ... سريتَ إليها غيرِ نكْسٍ ولا واني

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «نقضّ عليها..». وطريقة ساسان: أي طريقة أهل الكدية. الجديدان: الليل والنهار.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٣): «طريقه».

فكم من فقيرٍ بائسٍ قد عرفته فرفَّتْ عليه نعمَّة ذات أفنان
وكم من رفيع الجاه واليتَ أُنْسَهُ فعاشَ قريرَ العينِ مرتفعَ الشان
فلو كنتَ للفتح ابن خاقانِ صاحبًا لما خانَهُ المقدورُ في ليلة الخان[1]
ولو كنتَ للصابي صديقًا ملاطفًا لما قُبِلَتْ فيه مقالَةُ بهتانِ[2]
ولو كنتَ من عبد الحميدِ مقرَّبًا لما هزم السفاحُ أشياعَ مروان[3]
ولو كنت قد أرسلتها دعوةً على أبي مسلمٍ[4] ما حاز أرض خُراسانِ
ولو كنتَ في يوم الغبيط مراسلاً لبسطامَ لم تهزمْ به آلُ شيبانِ[5]
ولو كنتَ في حربِ الأمين لطاهرٍ لما هام في يوم اللقاء ابن ماهان[6]
ولو كنت في مغزى أبي يوسفٍ لَمَا رماهُ بِغَدْرٍ عبده في تلمسان[7]
ولو أنّ كسرى يَزْدَجِرْدَ عرفته لما لاح مقتولاً على يدِ طحّانِ[8]
ولو أنَّ لذريقًا وطئتَ بِساطَهُ لما أثَّرَتْ فيه مكيدةُ إليان[9]
وفيما مضى في فاسَ أوضحُ شاهدٍ غنيّ لدينا عن بيانٍ وتبيان
ولمّا اعتنى منكَ السعيدُ بكاتبٍ رأى ما ابتغى عن عزٍّ ملك وسلطان
فلا تَنْسَنِي من أهل وِدّكَ إنني أخافُ الليالي أن تطولَ فتنساني
ولا خيرَ إنْ تجعلْ كفاء قصيدتي كفاء ابن دَرّاج على مدح خيرانِ[10]
فَجُدْ بدنانيرٍ ولا تَكُنِ التي ألمَّ بها الكنديُّ في شعبِ بوّانْ[11]

---

(١) الفتح بن خاقان: هو صاحب كتابي «قلائد العقيان» و «مطمح الأنفس».
(٢) الصابي: هو أبو إسحاق الصابي.
(٣) مروان: هو مروان بن محمد، آخر خلفاء الأمويين، وعبد الحميد هو كاتبه.
(٤) أبو مسلم: هو أبو مسلم الخراساني.
(٥) يوم الغبيط: يوم بين بني يربوع وبني مجاشع، وقد أسر فيه عتيبةُ بن الحارث بن شهاب اليربوعي بسطامَ بن قيس. معجم البلدان (ج ٤ ص ١٨٦) ومجمع الأمثال (ج ٢ ص ٤٣٦).
(٦) ابن ماهان: هو علي بن عيسى بن ماهان، قائد جيش الأمين.
(٧) يشير إلى يوسف بن يعقوب المريني، الذي غزا تلمسان وحاصرها، وقتله في أثناء ذلك عبدُه سعادة.
(٨) كسرى يَزْدَجَرْد: هو آخر ملوك الفرس، وقد هرب من وجه العرب إلى بلخ فقتله هناك طحّان.
(٩) إليان: هو يليان الذي كاد لِلُذَريق وحرّض العرب وساعدهم على دخول الأندلس.
(١٠) يشير إلى ابن دراج القسطلي الذي مدح خيران العامري صاحب ألمرية بقصيدة مطلعها: [الطويل]
لكَ الخيرُ، قد أوفى بعهدكَ خيرانُ وبشراكَ قد آواكَ عِزٌّ وسلطانُ
ديوان ابن دراج القسطلي (ص ٨٦). ويبدو أن خيران لم يجزل جائزته تلك القصيدة النونية.
(١١) يقول: جُدْ بدنانير حقيقية، لا كالتي ذكرها المتنبي حين وصف أشعة الشمس بين الشجر في شعب بوان وشبّهها بالدنانير.

فجودُكَ فينا الغيثُ في رمل عالجٍ وفضلُكَ فينا الخبزُ في دار عثمان[1]
وما زلتَ من قبل السؤال مقابلاً مرادي بإحسابٍ وقصدي بإحسان
ولا تَنْسَ أيامًا تَقَضَّتْ كريمةً بزاويةِ المحروقِ أو دار همدانِ[2]
وتأليفنا فيها لقبضِ إتاوةٍ وإغرامِ مسنونٍ وقسمةِ حُلوان
وقد جلس الطرقون[3] بالبعد مطرقًا يقولُ نصيبي أو أبوح بكتمانِ
عريفيَ يلحاني إذا ما أتيته ولم أنصرفْ عنكم بواجب ألحان
وقد جمعتْ تلك الطريقةُ عندنا أئمّةَ حُسَّابٍ وأعلامَ كهّان
إذا استنزلوا الأرواحَ باسمٍ تبادرتْ طوائفُ ميمونٍ وأشياع برقان[4]
وإن بخروا عند الحلول تأرَّجتْ مباخرهم عن زعفرانٍ ولوبان[5]
وإن فتحوا الداراتِ[6] في ردّ آبق ثَنَتْ عزمَهُ أوهامُ خوفٍ وخذلان
فيحسبُ أنَّ الأرضَ حيث ارتمتْ به ركائبه سَرعانُ رَجْلٍ وركبانِ
وقد عاشرتنا أسرةٌ كيمويّةٌ أقامتْ لدينا في مكانٍ وإمكانِ
فلله من أعيانِ قومٍ تألّفوا على عقدِ سحرٍ أو على قلب أعيان
ونحن على ما يغفرُ اللّه إنما نروحُ ونغدو من رباطٍ إلى خانِ[7]
مع الصبحِ نُضفيها عباءةَ صُفّةٍ وبالليل نلويها زنانيرَ رهبانِ
أتذكرُ في سفحِ العُقابِ مبيتكم ثمانينَ شخصًا من إناثٍ وذكران
لديكم من الألوانِ ما لم يجيء به طهور ابن ذنّون ولا عُرْسُ بُورَانِ[8]

---

(١) يشير إلى قول القاسم ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني في أخيه عثمان وقد زاره فاستسقاه ماء: [البسيط]

الماءُ في دارِ عثمانَ له ثمن والخبزُ فيها له شانٌ من الشانِ

المقتبس تحقيق مكي (ص ٢٠١) والحلة السيراء (ج ١ ص ١٢٧) وقد تقدم في الجزء الخامس.

(٢) زاوية المحروق ودار همدان: موضعان بفاس.

(٣) الطرقون: هو عند أهل المغرب من بيده قبضُ ضرائب اللهو والأعراس وما أشبه.

(٤) ميمون وبرقان: من الجنّ.

(٥) اللوبان: عند المغاربة هو ما يعرف عند المشارقة باللبّان.

(٦) الدارات: حلقات يعقدها شيوخ المشعوذين لكشف السّر عند حدوث سرقة أو نحو ذلك.

(٧) في أزهار الرياض: «حان» بالحاء المهملة.

(٨) يريد الإعذار الذي يقوم به المأمون بن ذي النون في طليطلة، وعرس بوران بنت الحسن بن سهل=

وكم شائقٍ منكمْ إلى عقدِ تكّةٍ ... وكم هائمٍ فيكم على حلّ هميانِ
فأطفأتَ قنديلَ المكانِ تعمّدًا ... وأومأتَ فانقضّوا كأمثالِ عقبانِ
وناديت في القومِ الركوبَ فأسرعوا ... فريقٌ لنسوان، وقومٌ لذكران
فأُقسم بالأيمان لولا تعفّفي ... عن السوء لانحلّتْ عقيدةُ إيماني
فَعُدْ للذي كنّا عليه فإنّ لي ... على الغير إن صاحبته حِقْدَ غيران
فمن يومِ إذ صيرتَ ودّيَ جانبًا ... وأعرضتَ عني ما تناطحَ عنزان
ولا روت الكُتّابُ بعد نفارنا ... محاورةً من ثعلبانٍ لسرحان
وما هو قصدي منك إلاّ إجازةٌ ... تخولني التفضيلَ ما بين خلاّني
وإنكَ إنْ سَخَّرْتَ لي وأجزتني ... لنعم وليّ صان ودّي وجازاني
ولَمْ لا تروّيني وأنتَ أجلُّ مَنْ ... سقانيَ من قبلُ الرحيقَ فروّاني

ألاَ فأجِزني يا إمامُ بكلِّ ما ... رويت لمدغليس أو لابن قزمان
ولا تَنْسَ للدبّاغِ نظمًا عرفته ... فإنكما في ذلك النظمِ سِيّانِ
ومزدوجاتٍ ينسبون نظامها ... إلى ابن شجاع في مديح ابن بطّان
وأَلْمِمْ بشيء من خرافاتِ عنترٍ ... وألمغ ببعضٍ من حكاياتِ سوسان
وإن كنتَ طالعتَ اليتيمة وَاسِنِي ... بلاميّةٍ في الفحش مِنْ نظم واساني[1]
أجزني بكشف الدك[2] أرضى وسيلةٍ ... وخيرِ جليس في بساطٍ ودكانِ
وناولنيَ المصباحَ فهو لغربتي ... ميسِّرُ أغراضي ورائدُ سلواني
وألحقْ به شمسَ المعارف[3] إنني ... أُسائلُ عن إسنادِهِ كلَّ إنسان
وقد كنتَ قبل اليوم عرَّفتني به ... ولكنني أُنسيتُهُ بعد عرفان

= التي تزوّجها المأمون العباسي، وكلاهما مضرب مثل في البذخ والإسراف.

(١) يشير إلى لامية أبي القاسم الحسين بن الحسين الواساني التي هجا بها منشا بن إبراهيم القزاز، وهي في يتيمة الدهر (جـ ١ ص ٣٤٩ . ٣٥٥). ومطلعها: [المنسرح]

يا أهل جيرون، هل لسامركم ... إذا استقلت كواكب الحملِ

(٢) الدّكّ: اسم كتاب لابن شهيد الأندلسي صاحب «التوابع والزوابع» واسم الكتاب: «كشف الدك وإيضاح الشكّ». وفيات الأعيان (جـ ١ ص ١١٦).

(٣) شمس المعارف: هو كتاب لأحمد بن علي بن يوسف البوني المتوفّى سنة ٦٢٢ هـ. كشف الظنون (ص ١٠٦٢) وهدية العارفين (جـ ١ ص ٩٠).

ولا بُدَّ يا أستاذُ من أن تجيزني | ببدّ ابن سبعين[1] وفصل ابن رضوان
وكتبِ ابن أحلى كيف كانت فإنها | لوزن رقيقِ[2] القولِ أكرمُ ميزان
ولا تَنْسَ ديوان الصبابة[3] والصفا | لإخوان صدقٍ في الصِّبا خير إخوان
وزهرَ رياضٍ في صنوفِ أضاحك | وجبذَ كساء في مكايدِ نسوان
كذاكَ فناولني كتابَ حبائبٍ | وزدنيَ تعريفًا بها وببرجان[4]
ولي أملٌ في أن أروّي رسالةً | مضمَّنَةً أخبارَ حيّ بن يقظان[5]
وحبّس عليّ الكوزَ والكاسَ والعصا | فإنكَ مثرٍ من عِصيٍّ وكيزان
وصيّر ليَ الدلفاسَ[6] أرفعَ لبسةٍ | فقد جَلَّ قدري عن حرير وكتّان
وقد رقَّ طبعي واعترتنيَ خشيةٌ | تكادُ بها روحي تفارقُ جثماني
وخَلِّ مفاتيحَ الطريقةِ في يدي | وسوّغ لهم حكمَيْ مزيدي ونقصاني
فإنيَ لم أخدمْكَ إلاّ بنيّةٍ | وإنيَ لم أتبعكَ إلاّ بإحسان
فكنْ ليَ بالأسرارِ أفْصَحَ معلنٍ | فإنيَ قد أخلصتُ سرّى وإعلاني

وليس قصدي ـ علم اللّه ـ بجلب هذه القصيدة ما فيها من المجون، بل ما فيها من التلميحات التي يرغب في مثلها أهل الأدب والحديثُ شجون[7]، على أنَّ أمثال هؤلاء الأعلام، لا يقصدون بمثل هذا الكلام، إلاّ مجرّد الإحماض، فينبغي أن ينظر كلامَهم الواقفُ عليه بعين الإغضاء عن النقد والإغماض، ولا يبادر بالاعتراض، من لم يعلم في

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٦): «ببدء ابن سبعين». والمراد هنا كتاب «بدّ العارف» لابن سبعين، وهو مطبوع، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٨.
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٥): «الوزن دقيق القوم».
(٣) ديوان الصبابة: هو كتاب لابن أبي حجلة التلمساني.
(٤) هكذا في أصول النفح، وفي الفهرست (ص ٣٧٦): «كتاب بردان وحباحب» لأبي حسان، وهما كتاب كبير وكتاب صغير، من الكتب المؤلفة في الباه.
(٥) حي بن يقظان: رسالة لابن طفيل، تتحدث عن الفلسفة والعلم الإلهي، وتمثل خلاصة الفلسفة العربية. راجع كتابنا مدخل إلى الأدب الأندلسي (ص ٢٢١ ـ ٢٢٦) ففيه دراسة مستفيضة عن هذه الرسالة.
(٦) الدلفاس: ضرب من الثياب.
(٧) أخذه من المثل: «الحديث ذو شجون» أي ذو فنون وأغراض. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ١٩٧) ولسان العرب (شجن).

الأصول برهان القطع والافتراض، واللَّه سبحانه المسؤول في التجاوز عن الزلاّت، والنجاة من الأمور المضلاّت، فعفوه سبحانه وراء جميع ذلك، واللَّه تعالى المطّلع على أسرار الضمائر، والخبير بما هنالك، لا ربّ غيره، ولا خير إلاّ خيره.

وحيث ذكرنا هذه القصائد النونية التي اتّفق فيها البحر والروي، وجرت من البلاغة على النهج السّوي، فلا بأس أن نعزّزها بقصيدة الرئيس الوزير أبي عبد اللَّه بن زمرك. سامحه اللَّه تعالى! . وهي قصيدة ميلادية أنشدها سلطان الأندلس عام خمسة وستين وسبعمائة، ونجعلها مكفرة لما مَرَّ في قصيدة الفقيه عمر من المجون، ومبلغة للناظرين في هذا التأليف ما يرجون، والحديث شجون، وهي قوله[1]: [الطويل]

لعلَّ الصَّبَا إنْ صافحتْ روضَ نَعمانِ	تُؤَدِّي أمانَ القلبِ عن ظَبْيَة البانِ
وماذا على الأرواحِ وهي طليقةٌ	لو احتملتْ أنفاسُها حاجةَ العاني[2]
وما حالُ من يستودعُ الريحَ سرَّهُ	ويطلبها، وهي النَّموم، بكتمان
وكالطيفِ أستقريه في سِنَةِ الكرى	وهل تَنْقَعُ الأحلامُ غلّةَ ظمآن[3]
أُسائلُ عن نجدٍ ومرمى صبابتي	ملاعبُ غزلانِ الصريمِ بِنَعْمانِ
وأُبدي إذا ريحُ الشمالِ تَنَفَّسَتْ	شمائلَ مرتاحِ المعاطفِ نشوانِ
عَرَفْتُ بهذا الحبِّ لم أَدْرِ سلوةً	وإني لمسلوبِ الفؤاد بِسُلْوان
فيا صاحِبَيْ نجوايَ والحبُّ غايةٌ	فمن سابقٍ جَلّى مداه ومن واني
وراء كما ما اللومُ يثني مَقادتي	فإنيَ عن شأنِ الملامة في شان
وإني وإن كنت الأبيَّ قيادُهُ	ليأمرني حُبُّ الحسانِ وينهاني
وما زلتُ أرعى العهدَ فيمن يُضيعه	وأذكرُ إلفي ما حييتُ وينساني
فلا تنكرا ما سامني مَضَضُ الهوى	فمن قبل ما أودى بقيسٍ وغيلان[4]
ليَ اللَّهُ إمّا أومض البرقُ في الدُّجى	أُقَلِّبُ تحت الليلِ مقلةَ[5] وَسْنانِ
وإن سُلَّ من غمدِ الغمامِ حُسامه	برى كبدي الشوقُ المِلمُّ وأضناني

(١) القصيدة في أزهار الرياض (ج ١ ص ٤٢).
(٢) العاني: المهموم. لسان العرب (عنا).
(٣) تنقع غلّة الظمآن: تزيل عطشه. لسان العرب (نقع).
(٤) قيس: هو قيس بن الملوح، المعروف بمجنون ليلى، أو هو قيس لبنى. غيلان: هو ذو الرمة.
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٨): «أجفان وسنانِ».

تراءى بأعلام الثنيّة باسمًا ... فأذكرني العهدَ القديمَ وأبكاني
أُسامرُ نجمَ الأفقِ حتى كأننا ... وقد سدلَ الليلُ الرواقَ حليفانِ
ومِمّا أناجي الأفقَ أُغديه بالجوى ... فأرعى له سَرْحَ النجومِ ويرعاني
ويرسلُ صوبَ القطرِ مِنْ فيضِ أدمعي ... ويقدحُ زَنْدَ البرقِ من نارِ أشجاني
وضاعف وجدي رسمُ دارٍ عهدتها ... مطالعَ شُهب أو مراتعَ غزلان
على حين شُرْبُ الوصلِ غير مُصَرَّدٍ[1] ... وصفوُ الليالي لم يكدَّرْ بهجران
لئن أنكرتْ عيني الطلولَ فإنها ... تمتُّ إلى قلبي بذكرٍ وعرفان
ولم أَرَ مثلَ الدمعِ في عَرَصاتها ... سقى تربها حين استهلَّ وأظماني
ومِمَّا شجاني أن سرى الركبُ مَوْهِنًا ... تقادُ به هوجُ الرياحِ بأرسانِ
غواربُ في بحرِ السرابِ تخالها ... وقد سَبَحَتْ فيه مواخِرَ غربان
على كلِّ نِضوٍ مِثْلِهِ فكأنما ... رمى منهما صَدْرَ المفازة سَهْمانِ
ومن زاجرٍ كَوْمَاءَ مُخْطَفَةَ الحَشَا ... توسَّدَ منها فوق عوجاءَ مِرْنَانِ
نَشَاوى غرامٍ يستميلُ رؤوسهم ... من النوم والشوق المبرّح سكْرانِ
أجابوا نداء البينِ طَوْعَ غرامهم ... وقد تبلغ الأوطار فرقة أوطانِ
يؤمّونَ مِنْ قبرِ الشفيعِ مَثَابةً ... تَطَلَّعُ منها جَنَّةٌ ذاتُ أفنان
إذا نَزَلُوا من طَيْبَةٍ بجوارِهِ ... فأكرمُ مولًى ضمَّ أكرم ضِيفان
بحيث عَلاَ الإيمانُ وامتدَّ ظلُّهُ ... وزان حلى التوحيدِ تعطيل أوثانِ
مطالعُ آياتٍ، مَثَابَةُ رحمةٍ ... معاهدُ أملاكٍ، مظاهرُ إيمان
هنالك تصفو للقَبُولِ مواردُ ... يُسَقَّوْنَ منها فضلَ عفوٍ وغفران
هناكَ تؤدّى للسلام أمانَةٌ ... يحيّيهمُ عنها برَوْحٍ وريحانِ
يناجون عن قربٍ شفيعَهُمُ الذي ... يؤمِّلُهُ القاصي من الخلقِ والداني
لئن بلغوا دوني وخُلِّفْتُ إنه ... قضاء جرى من مالكِ الأرض دَيَّانِ
وكم عزمةٍ مَلَّيْتُ نفسيَ صدقها ... وقد عرفتْ مني مواعدَ لَيَّانِ
إلى اللّه نشكوها نفوسًا أَبِيَّةً ... تحيدُ عن الباقي وتغترُّ بالفاني
أَلاَ ليت شعري هل تساعدني المنى ... فأتركَ أهلي في رضاهُ وجيراني

---

(١) صرّده: سقاه دون الريّ أو سقاه منقطعًا. لسان العرب (صرد).

وأقضي لُباناتِ[1] الفؤاد بأن أرى أُعَفِّرُ خَدّي في ثراه وأجفاني
إليكَ رسولَ اللّهِ دعوةَ نازحٍ خَفُوقِ الحشا رَهْنِ المطامع هَيْمانِ
غريبٍ بأقصى الغربِ قَيَّدَ خَطْوَهُ شبابٌ تَقَضَّى في مراحٍ وخسران
يجدُّ اشتياقًا للعقيقِ وبَانِهِ ويصبو إليها ما استجدَّ الجديدان
وإن أومضَ البرقُ الحجازيُّ مَوْهِنًا يرددُ في الظّلماءِ أنَّةَ لهفان
فيا مُوْلِيَ الرحْمٰى، ويا مُذْهِبَ العمى ويا مُنجيَ الغرقى، ويا منقذَ العاني
بسطت يَدَ المحتاج يا خيرَ راحم وذنبيَ ألجاني[2] إلى موقِفِ الجاني
وسيلتيَ العظمى شفاعَتُكَ التي يلوذُ بها عيسى وموسى بن عمران
فأنت حبيبُ اللّه خاتم رسلِهِ وأكرمُ مخصوصٍ بزُلْفَى ورضوان
وحسبكَ أنْ سمّاك أسماءه العُلا وذاك كمالٌ لا يشابُ بنقصان
وأنت لهذا الكونِ عِلَّةُ كونه ولولاك ما امتاز الوجودُ بأكوان
ولولاكَ للأفلاكِ لم تجلُ نَيِّرًا ولا قُلِّدَتْ لَبَّاتهنَّ بِشُهبان
خلاصةُ صفوِ المجدِ من آل هاشمٍ ونكتةُ سرِّ الفخرِ من آل عدنان
وسيدُ هذا الخلق مِنْ نسلِ آدمٍ وأكرمُ مبعوثٍ إلى الأنس والجانِ
وكم آيةٍ أطلعتَ في أُفُقِ الهدى يبينُ صباحُ الرُّشْدِ منها ليقظانِ
وما الشمسُ يجلوها النهارُ لمبصرٍ بأجلى ظهورٍ[3] أو بأوضحِ برهان
وأكرمْ بآياتٍ تَحَدَّيْتَنَا بها ولا مثل آياتٍ لمحكم فُرْقان
وماذا عسى يُثْني البليغُ وقد أتى ثناؤكَ في وحيٍ كريمٍ[4] وقرآن
فصلَّى عليكَ اللّهُ ما انسكبَ الْحَيَا وما سَجَعَتْ ورقاءُ[5] في غُصْنِ البان
وأَيَّدَ مولانا ابنَ نصرٍ فإنه لأشرفُ من يُنْمَى لملكٍ وسلطان
أقام كما يرضيكَ مولدك الذي به سَفَرَ الإسلامُ عن وَجْهِ جذلان
سميُّ رسولِ اللّهِ ناصرُ دينِهِ معظّمه في حالِ سِرٍّ وإعلان

---

(١) اللبانات: جمع لبانة وهي الحاجة. لسان العرب (لبن).
(٢) ألجاني: أصلها ألجأني، بمعنى أكرهني عليه واضطرني إليه، فسهّل الهمزة بقلبها ألفًا.
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٩): «ظهورًا».
(٤) في أزهار الرياض: «قديم وقرآن».
(٥) الورقاء: الحمامة. لسان العرب (ورق).

ووارثُ سِرِّ المجدِ من آل خزرجٍ وأكرمُ مَنْ تَنْمي قبائلُ قَحْطان
ومرسلها ملء الفضاء كتائبًا تدينُ لها غُلْبُ الملوكِ بإذعان
حدائقُ خضرٌ والدروعُ غدائرٌ وما أَنْبَتَتْ إلاَّ ذوابلَ مُرَّانِ[1]
تَجَاوَبُ فيها الصاهلاتُ وترتمي جوانبُها بالأسْدِ من فوق عقبان
فمن كلِّ خوّارِ العنانِ قد ارتمى به كلُّ مطعامِ العشيّاتِ مِطْعان
ومُورِدُها ظَمْأى الكعوبِ ذوابلاً ومُصْدِرُها من كلِّ أمْلَدَ ريّانِ
ولِلَّه منها والربوعُ مواحِلٌ غمامُ ندًى كَفَّتِ المحلَ كفّان
إذا أخلفَ الناسَ الغمامُ وأمحلوا فإنَّ نَدَاه والغَمامَ لَسِيَّانِ
إمامٌ أعادَ الملكَ بعد ذهابه إعادةَ لا نابي الحسام ولا واني
فغادرَ أطلالَ الضلال دوارسًا وجدَّد للإسلام أرفعَ بنيان
وشيَّدها، والمجدُ يشهدُ، دولةً محافلُها تُزْهَى بيُمْنٍ وإيمان
وراقَ مِنَ الثَّغْرِ الغريبِ ابتسامُهُ وهَزَّله الإسلامُ أعطافَ مردان[2]
لكَ الخيرُ ما أسنى شمائلكَ التي يقصِّرُ عن إدراكها كلُّ إنسان
ذكاءُ إياسٍ في سماحةِ حاتمٍ وإقدامُ عمروٍ في بلاغةِ سَحْبانِ
أمولايَ، ما أسنى مناقبكَ التي هي الشُّهْبُ لا تحصى بعدّ وحسبان
فلا زلتَ يا غوثَ البلادِ وأهلها مُبَلِّغَ أوطارٍ[3] مُمَهِّدَ أوطانِ

ولابن زمرك المذكور ترجمة نأتي بها في هذا التأليف، إن شاء اللّه تعالى، في محلّها، وهو من تلامذة لسان الدين، ومن عداد خدّامه، فحين نبا به الزمان، وتعوّض الخوف بعد الأمان، كان أَحَدَ الساعين في قتله كما سنذكره، وصرّح بذمّه وهجوه بعد أن كان مِمَّنْ يشكره، وهكذا عادةُ بني الدنيا يدورون معها حيث دارت، ويسيرون حيث سارت، ويشربون من الكأس التي أدارت، وقد تولّى المذكور الوزارة عوضًا عن ابن الخطيب، وصَدَحَ طيرُ عِزِّه بعده على فَنَن من الإقبال رطيب، ثم آل الأمر به إلى القتل، كما سعى في قتل لسان الدين، وكان الجزاء له من جنس عمله، والمرء يُدَان بما كان به يدين، وعفو اللّه

---

(١) المُرّان: شجر تصنع منه الرماح، والمراد بذوابل المُرّان: الرماح الليّنة. لسان العرب (مرن).
(٢) في طبعة دار صادر: «مزدان».
(٣) الأوطار: جمع وطر وهو الحاجة. محيط المحيط (وطر).

سبحانه مرجوّ للجميع في الآخرة، وهو سبحانه وتعالى المسؤول أن ينيلنا وإياهم المراتب الفاخرة، فإنه لا يتعاظمه ذنب، وليس للكلّ غيره من ربّ.

رجع إلى ما كنا بسبيله. وأمّا لوشة التي يُنسب إليها لسان الدين فقد تقدّم من كلام ابن خلدون أنها على مرحلة من حَضْرَة غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمّى بالمرج، وقد أجرى ذكرها لسان الدين في الإحاطة وقال: إنها بنت الحضرة، يعني غرناطة، وقال ذلك في ترجمة ابن مرج الكحل، ولنذكر الترجمة بكمالها تتميمًا للغرض فنقول:

قال رحمه اللّه ما نصُّه[1]: محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم، من أهل جزيرة شُقْر، يكنى أبا عبد اللّه، ويُعْرف بابن مرج الكُحْل. كان شاعرًا مُفْلِقًا غزلاً بارع التوليد، رقيق الغزل. وقال الأستاذ أبو جعفر: شاعرٌ[2] مطبوعٌ حسن الكتابة ذاكر للأدب متصرّف فيه. قال ابن عبد الملك: وكانت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها إجادته، وكان مبتذل اللباس، على هيئة أهل البادية، ويقال: إنه كان أُمّيًّا.

ومن أخذ عنه. رَوَى عنه أبو جعفر بن عثمان الورّاد، وأبو الربيع بن سالم، وأبو عبد اللّه بن الأبار، وابن عسكر، وابن أبي البقاء، وأبو محمد بن عبد الرحمن بن بَرْطلة، وأبو الحسن الرعيني.

شعره ودخوله غرناطة. قال في عُشَيَّةٍ بنهر الغُنْداق من خارج بلدنا لوشَةَ بنت الحضرة، والمحسوبِ مَنْ دخلها أنه دخل البيرة، وقد قيل: إنّ نهر[3] الغنداق من أحواز بَرْجَة، وهذا الخلاف داع لذكره[4]: [الكامل]

عَرِّجْ بِمُنْعَرَجِ الكَثيبِ الأعفر ... بين الفراتِ وبين شَطِّ الكوثرِ
وَلْتَغْتَبِقْها[5] قهوةً ذهبيّةً ... من راحَتَيْ أحوى المراشِفِ أحورِ

---

(١) الإحاطة (ج ٢ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٨).
(٢) في الإحاطة: «كان شاعرًا مطبوعًا حسن الكفاية، ذاكرًا للأدب. .».
(٣) في الإحاطة (ص ٣٤٤): «إنّ هذا النهر».
(٤) في الإحاطة: «إلى ذكره». والأبيات أيضًا في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٣١٥).
(٥) في الإحاطة: «ولنغتبقْها».

وعُشَيَّةٍ كم كنت[1] أرقبُ وقتها سَمَحَتْ بها الأيامُ بَعْدَ تَعَذُّر
فلنا بهذا ما لنا في روضة تُهدي لناشقها شميمَ العنبر[2]
والدهرُ من ندمٍ يُسَفِّهُ رأيه فيما مضى فيه بغيرِ تَكَدُّر
والوُرْقُ تشدو والأراكةُ تنثني والشمسُ تَرْفُلُ في قميصٍ أصفر
والروضُ بين مُفَضَّضٍ ومُذَهَّبٍ والزهرُ بين مُدَرْهَمٍ ومُدَنَّرِ
والنهرُ مرقومُ الأباطحِ والرُّبا بِمُصَنْدَلٍ مِنْ زهره ومُعَصْفَر
وكأنه وكأنَّ خضرةَ شَطِّه سيفٌ يُسَلُّ على بِساط أخضر
وكأنما ذاك الحَبابُ فِرِنْدُهُ مهما طفا في صفحةٍ كالجوهر
وكأنه، وجهاتُهُ محفوفَةٌ بالآس والنعمانِ، خَدٌّ مُعَذَّرِ
نهرٌ يهيمُ بحسنِهِ مَنْ لم يهم ويُجيدُ فيه الشِّعْرَ مَنْ لم يَشْعر
ما اصْفَرَّ وجهُ الشمسِ عند غروبها إلاَّ لفرقةِ حُسْنِ ذاك المنظرِ

ولا خفاء ببراعة هذا الشعر[3]. وقال منها:

أرأَتْ جفونُكَ مِثْلَهُ من مَنْظرٍ ظِلٌّ وشمسٌ مثلُ خدِّ مُعَذَّرِ[4]
وجداولٌ كأراقمٍ حصباؤها كبطونها وحبابها كالأَظْهُرِ[5]

وهذا تتميم عجيب لم يُسْبق إليه. ثم قال منها:

وقرارةٍ كالعَشْرِ بين خَميلةٍ سالتْ مَذَانبُها بها كالأَسْطُرِ
فكأنها مَشْكولَةٌ بِمُصَنْدَلٍ مِنْ يانعِ الأزهارِ أو بِمُعَصْفر
أَمَلٌ بَلَغْناهُ بهضبِ حديقةٍ قد طَرَّزَتْهُ يَدُ الغمامِ المُمْطر
فكأنه والزهرُ تاجُ فَوْقَهُ ملكٌ تجلَّى في بساطٍ أخضر
راقَ النواظرَ منه رائقُ مَنْظرٍ يصفُ النضارةَ عن جنانِ الكوثر
كم قادَ خاطر خاطرٍ مُسْتَوفزٍ وكم استفزَّ جمالُهُ مِنْ مُبْصر

---

(١) في الإحاطة: «قد كنت».
(٢) في الإحاطة: «نلْنا بها آمالنا في روضة.. بشقها شميم العنبر».
(٣) في الإحاطة: «هذا النظم».
(٤) المُعَذَّرُ: الذي نبت عذاره وهو شعر الخدّ. لسان العرب (عذر).
(٥) لم يرد هذا البيت في الإحاطة.

لو لاح لي فيما تقادم[1] لم أقلْ (عرِّج بمنعرجِ الكثيبِ الأعفرِ)

قال أبو الحسن الرعيني: وأنشدني لنفسه: [الكامل]

وعشيَّةٍ كانت قنيصةَ فِتْيَةٍ ألِفُوا من الأدبِ الصريحِ شيوخا
فكأنما العنقاءُ قد نصبوا لها مِنَ الانحناء إلى الوقوعِ فُخوخا
شَمَلَتْهُمُ آدابُهُمْ فتجاذبوا سرَّ السرورِ محدِّثًا ومصيخا
والوُرْقُ تقرأ سورة[2] الطربِ التي يُنْسيكَ منها ناسخٌ منسوخا
والنهر قد صَفِحَتْ به نارنجَةٌ فتيمَّمَتْ من كان فيه مُنِيخا
فتخالُهمْ خَلَلَ السماء كواكبًا قد قارنتْ بسعودها المرِّيخا
خرق العوائدَ في السرور نهارُهُمْ فَجَعَلْتُ أبياتي له تاريخا[3]

ومن أبياته في البديهة قوله: [الوافر]

وعندي من مَراشِفِها حديثٌ يُخَبِّرُ أنَّ رِيقَتَها مُدامُ
وفي أجفانها السَّكْرَى دليلٌ وما ذُقْنا ولا زَعَمَ الهُمام
تعالى اللّه ما أَجْرَى دموعي إذا عَنَّتْ لمقلتيَ الخيامُ
وأشجاني إذا لاحتْ بُروقٌ وأَطْرَبَني إذا غَنَّتْ حَمام

ومن قصيدة: [الطويل]

عذيري من الآمال خابتْ قُصُودُها ونالتْ جزيلَ الحظِّ منها الأخابثُ
وقالوا: ذُكِرْنا بالغِنَى، فأجبْتُهُمْ خمولاً وما ذكرٌ مع البخلِ ماكث
يهونُ علينا أن يبيدَ أثاثُنا وتبقى علينا المكرماتُ الأثائثُ[4]
وما ضَرَّ أصلاً طيِّبًا عدمُ الغِنَى إذا لم يغيِّرْه من الدهرِ حادثُ

وله يتشوّق إلى عمرو بن أبي غياث: [الوافر]

أيا عمروٌ، متى تقضي الليالي بلقياكُمْ وهُنَّ قَصَصْنَ ريشي
أبتْ نفسي هوًى إلاَّ شريشًا ويا بُعْدَ الجزيرة مِنْ شريشِ

---

(١) في الإحاطة (ص ٣٤٥): «فيما تقدّم».
(٢) في الإحاطة: «سيرة الطرب».
(٣) في الإحاطة (ص ٣٤٦): «لهم تاريخا».
(٤) في الإحاطة: «الأثابت».

وله من قصيدة: [الكامل]

طَفَلَ المساءُ وللنسيم تَضَوُّعُ والأنسُ يجمعُ[1] شَمْلَنا ويُجمِّعُ
والزهرُ يضحكُ من بكاءِ غمامةٍ رِيعتْ لِشَيْمِ سيوفِ برقٍ تلمعُ
والنهرُ من طَرَبٍ يصفِّق مَوْجُهُ والغصنُ يرقصُ والحمامةُ تَسْجع
فانعمْ أبا عمران والْهُ بروضةٍ حَسُنَ المصيفُ بها وطابَ المَرْبَعُ
يا شادنَ البانِ الذي دون النقا حيث التَقَى وادي الحمى والأجْرَعُ
الشمسُ يغربُ نورُها ولربما كُسِفَتْ ونورُكَ كلَّ حين يَسْطَعُ
إنْ غابَ نورُ الشمس لسنا[2] نتقي بِسَناكَ ليلَ تَفَرُّقٍ يتطلَّعُ
أفَلَتْ فنابَ سناكَ عن إشراقها وجلا من الظلْماء ما يتوقَّع
فأمنتُ يا موسى الغروبَ ولم أقلْ «فَوَدِدْتُ يا موسى لو أنك يوشعُ»[3]

وقال: [الطويل]

ألاَ بَشِّروا بالصبح من كان باكيًا أضَرَّ به الليلُ الطويلُ مع البكا
ففي الصبحِ للصَّبِّ المُتَيَّم راحةٌ إذا الليلُ أجرى دَمْعَهُ وإذا شكا
ولا عَجَبٌ أن يمسكَ الصبحُ عبرتي فلم يزلِ الكافورُ للدم مُمْسِكا

ومن بديع مقطوعاته قوله: [الرمل]

مَثَلُ الرِّزْقِ الذي تَطْلُبُهُ مَثَلَ الظِّلِّ الذي يمشي مَعَكْ
أنتَ لا تُدركه مُتَّبِعا وإذا وَلَّيْتَ عنه تَبِعَكْ[4]

وقال: [الطويل]

دخلتمْ فأفسدتمْ قلوبًا بملكها فأنتم على ما جاء في سورة النمل[5]

---

(١) في الإحاطة: «ينظم شملنا».
(٢) في الإحاطة (ص ٣٤٧): «بتْنا نتقي».
(٣) عجز هذا البيت للرصافي البلنسي، والبيت بتمامه هو:
سَقَطَتْ ولم تَمْلِكْ يمينُكَ ردّها فَوَدِدْتُ يا موسى لو آنك يُوشَعُ
ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٠٥). وسيرد هذا البيت بعد قليل.
(٤) في الإحاطة: «أتبعك».
(٥) في الإحاطة: «قلوبًا بملككم..». وهنا يشير إلى قول اللّه تعالى: ﴿إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً=

وبـالجـودِ والإحـسـانِ لـم تـتـخـلَّـقـوا فأنتم على ما جاء في سورة النحل[1]

وقال أبو بكر محمد بن محمد بن جَهْور: رأيت لابن مرج الكحل مَرْجًا أحمر قد أجهد نفسه في خدمته، فلم يُنْجِب، فقلت: [البسيط]

يا مَرْج كُحْلٍ ومَنْ هذي المروجِ له ما كان أحْوَجَ هذا المرجَ للكَحَلِ
ما حمرةُ[2] الأرضِ من طيبٍ ومن كَرَمٍ فلا تكنْ طَمِعًا في رزقها العَجِلِ
فـإنَّ مـن شـأنـهـا إخـلافَ آمِلِـهـا فـمـا تُـفـارقـهـا كـيـفـيّـةُ الـخَـجَـلِ

فقال مجيبًا[3]: [البسيط]

يا قائلاً إذ رأى مَرْجِي وحمرتَهُ ما كان أحوجَ هذا المرجَ للكَحَلِ
هـو احـمـرارُ دمـاء الـروم سَـيَّـلَـهـا بـالـبِيضِ مَنْ مَرَّ من آبائيَ الأول
أحببْتُهُ أنْ حكى من قد فُتِنْتُ به[4] في حـمـرةِ الـخَدِّ أو إخلافِهِ أملي

وفاته. توفي ببلدِهِ يومَ الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول عام[5] أربعة وثلاثين وستمائة، ودفن في اليوم بعده. انتهى ما في الإحاطة في شأن ابن مرج الكحل.

وكتب أبو الحسن علي بن لسان الدين على أوّل ترجمته ما نصُّه: شاعر جليل القدر، من مشايخ شعراء الأندلس، من أهل بَلَنْسية، وسكن جزيرة شقر.

وكتب على قوله «والنهر مرقوم الأباطح» ما صورته: لم يَصِفْ أحدٌ النهرَ بأرقَّ ديباجةً ولا أظرف من هذا الإمام، رحمة اللّه عليه؛ انتهى كلام ابن لسان الدين.

قلت: وما رأيت رائية تقرب من التي لابن مرج الكحل السابقة التي أولها «عرّج بمنعرج الكثيب الأعفر» إلاّ رائية شمس الدين بن الكوفي الواعظ، وهي قوله: [الكامل]

روحُ الزمانِ هو الربيعُ فَبَكِّر وانهضْ إلى اللّذّات غيرَ مُنَكِّرِ

= أفسدوها ﴾. سورة النمل ٢٧، الآية ٣٤.

(١) في الإحاطة (ص ٣٤٨): «وبالعدل والإحسان..». وهنا يشير إلى ما جاء في سورة النحل ١٦، الآية ٧٦: ﴿أينما يُوجِّهْهُ لا يأتِ بخير ﴾.

(٢) في الإحاطة: «يا حمرة».

(٣) في الإحاطة: «فقال مجيبًا بما نصُّه».

(٤) في الإحاطة: «أجبته إنَّ من فتنتُ به..».

(٥) في الإحاطة: «سنة أربع».

هذا الربيعُ يبيعُ مِنْ لذّاتِهِ أصنافَ ما تهوى، فأين المشتري
فافرَحْ به فلِفَرْحةٍ بقدومِهِ رَفَلَ الشقائقُ في القَبَاء الأحمرِ
والكونُ مبتهجٌ وخَفَّاقُ الصَّبا يحيي القلوبَ بنشره المتعطّر
والغيمُ يبكي، والأقاحي باسمٌ لِبُكائِهِ كَتَبَسُّمِ المُسْتبشر
والسروُ إن عبثَ النسيمُ فهزّ أعـ طاف الغصونِ يَميسُ مَيْسَ موقّر
وكأنما القدّاحُ فستقُ فضّةٍ يُهدي إليكَ أريجَ مسكٍ أذْفَر
وكأنما المنثورُ في أثوابِهِ ألوانُ ياقوتٍ أنيقِ المنظر
وترى البَهارَ كعاشق متخوّفٍ متشوّقٍ بادٍ بوَجْهِ أصفر
وكأنما النارنجُ في أوراقه الـ قنديلُ، والأوراقُ شبهُ مسحّر
وكأنما الخشخاشُ قومٌ جاءهم خَبَرٌ يَسُرُّهُم بطيبِ المخبر
فثنوا ملابسهم لفرطِ سرورهمْ كي يخلعوا فرحًا بقولِ المُخبر
فَتَعَلَّقَتْ أذيالها بأكفّهمْ وتَعَلَّقَتْ أزياقها[1] بالمنحر
والطّلُّ من فوقِ الرياضِ كأنه دُرَرٌ نُثِرْنَ على بساطٍ أخضرِ
وترى الرُّبى بالنَّوْرِ بين مُتَوَّجٍ ومدملجٍ ومخلخلٍ ومسوَّرِ
ورياضها بالزهر بين مُقَرْطَقٍ ومُطَوَّقٍ وممنطَقٍ ومُزَنَّرِ
والوردُ بين مُضَعَّفٍ ومُشَنَّفٍ ومُكَتَّفٍ ومُلَطَّفٍ لم يُهْصَرِ
والزهر بين مُفَضَّضٍ ومُذَهَّبٍ ومُرَصَّعٍ ومُدَرْهَمٍ ومُدَنَّرِ
والنشر بين مُطَيَّبٍ ومُمَسَّكٍ ومُعَطَّرٍ ومُصَنْدَلٍ ومُعَنْبَرِ
والوُرْقُ بين مُرَجِّعٍ ومُوَجِّعٍ ومُفَجِّعٍ ومسجّعٍ في مِنْبرِ
ومغرِّدٍ ومردِّدٍ ومعبِّدٍ ومُبَدِّدٍ في الخَدِّ ماءَ المحجرِ

ولكن قصيدة ابن مرج الكحل أعذب مَذاقًا، وكلّ منهما لم يقصّر، رحمهما اللّه تعالى! فلقد أجادا فيما قالاه إلى الغاية، وليس الخبر كالعيان.

ومن نظم ابن مرج الكحل قوله[2]: [الكامل]

(١) الأزياق: جمع زِيْق، والزِّيْقُ من القميص هو ما أحاط منه بالعنق. محيط المحيط (زيق).
(٢) تقدمت هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ٥٤) وأشرنا هناك إلى أنَّ عجز البيت الثالث هو للرصافي البلنسي.

الشمسُ يغربُ نورُها، ولربما كُسِفَتْ ونورُكَ كلَّ حين يَسْطَعُ
أَفَلَتْ فنابَ سَنَاكَ عن إشراقها وجلا من الظَلْماء ما يتوقَّعُ
فأمنتُ يا موسى الغروبَ ولم أقلْ «فوددتُ يا موسى لَوَ انَّكَ يوشعُ»

ولمّح بهذه الأبيات إلى قول الرصافي الأندلسي البَلَنسي يخاطب مَن اسمه مُوسىٰ بقصيدة أولها[1]: [الكامل]

ما مثلُ موضعكَ ابنَ رزقٍ موضعُ زهرٌ يرفُ وجَدْوَلٌ يتدفَعُ

ومنها:

وعشيّةٍ لبستْ ثيابَ شحوبها والجوُّ بالغيمِ الرقيقِ مُقَنَّعُ
بلغتْ بنا أَمَدَ السرورِ تألُّقًا والليلُ نحو فراقنا يتطلّع
فابللْ بها ريقَ الغَبُوقِ فقد أتى من دون قرص الشمسِ ما يُتَوَقَّع
سقطتْ ولم يملك نديمُكَ ردَّها فوددتُ يا موسى لو انّك يوشعُ

قلت: ومن نثر ابن مَرْج الكحل المذكور ما كتبه إلى أديب الأندلس أبي بحر صفوَان بن إدريس مُرَاجعًا له بعد نظم، ونصُّ الجميع: [البسيط]

يا مَنْ تبوّأ في العلياء منزلةً جَدَّاهُ قد أسّساها أيَّ تأسيسِ
لم يتركا في العلا حظًّا لملتمسٍ سِيّان هذا وهذاك ابنَ إدريسِ
وافى كتابُكُمْ فارتدَّ لي جَذَلي واعتضتُ من فرطِ أشواقي بتأنيس
وللنوى لَوْعَةٌ تَطْفو فيطفئها مسكُ المدادِ وكافورُ القراطيس

حرس اللّه سناءك وسناك! وأظفر يُمْنَاك بمُنَاك! وُدِّي الأسلم كما تعلم، وعهدي الأقدم، لم تزلَّ له قدم، وأنا دام عزّكم إن أتَّفِقْ معكم انتسابًا فلم أتّفق في شأو الأدب باعًا، ولا قاربتكم طباعًا وانطباعًا، بل بذلك الاتفاق تشرفت، وسموت إلى ذِرْوَة العلا واستشرفت، وأقررت بذلك الفضل واعترفت، وكرعت في مَنَاهله واغترفت، ولقد وافى كتابُكم فقلت وقد نثر الدرّ فيه من فيه، وبلغ نفسي مِمّا[2] كانت تنويه من التنويه: [الطويل]

حديث لَوَ أنّ الميت نودي ببعضِهِ لأصبح حَيًّا بعدما ضَمَّهُ القبرُ

---

(١) ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٠٥) وهي ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٥٨): «ما».

ولولا ما طالعني وجه من رضاكم وسيم، وسَقَاني مُزْن اهتبالكم ما أرْوَى به وأسيم[1]، وحيّاني منكم روض ونسيم، لما ساعدني الفكر بقسيم، لا زلتم في ظلّ من العيش وارف، مرتدين رداء المعارف، والسلام؛ انتهى.

وكانت مخاطبة صفوان له التي أجاب عنها بما نصُّه: [البسيط]

يا قاطعَ البِيدِ يطويها وينشرُها إلى الجزيرة يُنْضِي بُدَّنَ العيسِ[2]
الثم بها عن أخي حُبٍّ وذي كلفٍ يَدَ العلا والقوافي وابنَ إدريسِ

وأبلغها إليه تحيّة كالمسك صدرًا ووِرْدًا، وكالماء الزلال عذوبة وبَردًا، يسرى بها إلى دار ابن نسيم، ويسفر منها بجزيرة شقر وجه وسيم، وهي وإن كانت تذيب المسك خجلاً، وتستفز بصوتها وجلاً، فما هي إلاّ خائفة تترقّب، وسافرة تكاد تتنقّب، تمشي على استحياء، وتعثر من التقصير في ذَيل إعياء، هذا لأنها جلبت إلى هَجَر تَمْرا[3]، وإلى شبام وبيت رأس خمرًا، ولكن على المجد أن يبدي في قبول عذرها ويعيد، لعلمه أنه يتيمّم مَنْ لم يجد إلاّ الصعيد، فله الفضل أن لا يلفحها بنار النقد، ولا يعرضها على ما هنالك من الحلّ والعقد، واللّه يبقي ذكره في مقلة الأدب حَوَرًا، وفي قلب الحسود خَوَرًا، ويديمه والقوافي طوع قريحته، والأغراض الجميلة مِلْء تعريضته وتصريحته، وزُهر البيان تطلع في سماء جِنانه، وزَهر التبيان يونع في أنداء جَنانه، وعذرًا إليه فإني كتبت والحامل يمسك زمامه، ويلتفت في البيداء أمامه؛ والسلام.

ومن إنشاء صفوان خطبة نكاح نصُّها: الحمد للّه الذي تطوّل[4] بالإحسان من غير جزاء ولا ثواب، وألبس المخلوقات من فواضله سوابغ المطارف وكواسي الأثواب، وجاءوا على أقدام الرجاء إلى محالّ نوافله فوجدوها مُفَتَّحة لهم الأبواب، وسألوه كفاية المؤنة فكان الفعل بدل القول والإسعاف[5] بدل الجواب، خلق البرية من غير افتقار ولا اضطرار،

(١) أسيم: أطعم. لسان العرب (سام).
(٢) ينضي: يهزل. العيس: الإبل الضخمة. البُدَّنُ: الضخام. لسان العرب (نضا) و (عيس) و (بدن).
(٣) هجر: مدينة البحرين، مشهورة بالتمر وكثرته. الروض المعطار (ص ٥٩٢). وهنا يشير إلى المثل: «كمُبْضِعِ تمرٍ إلى هَجَر»، يضرب لمن يهدي الشيء إلى من لا يحتاجه. لسان العرب (هجر).
(٤) تطوّل: تفضّل. لسان العرب (طول).
(٥) الإسعاف: قضاء المأمول. لسان العرب (سعف).

ونَقَلهم من الطفولية إلى غيرها نقل البدر من التمام إلى السرار، وشرّف هذه الطبقة الإنسانية، فرزقها الإدراكات العقلية، والإبانات اللسانية، فضرب سرادق اعتنائه عليها، وأنشأها من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها، ومع صنعه الرفيق بهم اللطيف، وتنويهه الحافّ بأرجائهم المطيف، رزقهم أحسن الصور الحيوانية وأجملها، وأتاح لهم أتمّ أقسام الاعتناء وأكملها، وبعث إليهم الرسُلَ صلوات اللّه عليهم صنعًا منه جميلاً، وربًّا[1] للصنيعة لديهم وتكميلاً، فبشروا وأنذروا، وأمّنوا وحذروا، وباينوا بين الحرام والحلال، مباينة إدراك البصير بين الكدر والزلال، ودلوا على السمت الأهْدَى، ونصبوا أعلام التوفيق والهُدَى، ولم يدعوا شيئًا سُدَى، بل توازنت بهم مقادير الأقوال والأعمال، وكانت إشاراتهم ثمال الهداية وأيّ ثمال، فآب كلّ متسحب إلى الارتباط، وشدّ كل موفق على الاعتلاق بحالهم يَدَ الاغتباط، فصلوات اللّه الزاكية عليهم، ونوافح رحمته النامية تغدو وتروح إليهم، وأتمّ الصلاة والسلام، على عَلَم أولئك الأعلام، الداعي على بصيرة إلى دار السلام، السراج المنير، البشير النذير، محمد، صلّى اللّه عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تؤول بهم إلى فسيح رضوانه ورحبه، بعثه اللّه رحمة للعالمين عامة، وأرسله نعمة للناس موفورة تامة، فأخذ بِحُجَز مصدقيه عن التهافت في مَدَاحض[2] الأقدام، والتتابع في مَزَلاَّت الجرأة[3] على العصيان والإقدام، فأقام الحجّة، وأوضح المَحَجَّة[4]، ودلّ على المقامات التي تمحض الأولياء، وأفصح عن الكرامات التي تنقذ الأتقياء، وقال وأهلاً به من قائل: «تناكحوا فإني مكاثر بكم الأنبياء»، حرصًا منه صلوات اللّه عليه على الزيادة في أهل الإسلام والنَّماء، ودَفْعًا في صدر الباطل بواضح الحقّ الصادع غَيْهَب[5] الظلماء، وحضّ على ذات الدين الحَصَانِ[6]، وأغرى بالاعتصام والإحصان، ونصب أعلام النكاح مشيدة المباني، وجاء بها سنَّة عَذْبَة المَجَاني، وقال: «من تزوّج فقد كمل نصف دينه فليتّق اللّه في النصف الثاني»، وأمر بالنكاح الذي توافقت فيه الطبيعة والشريعة، وَلَّبته النفوس وهي

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٥٩): «ورباء».
(٢) المداحض: جمع مدحضة وهي المزلّة؛ ومداحض الأقدام: مزلاّتها. لسان العرب (دحض).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٦٠): «الجراءة».
(٤) المَحَجَّة: الطريقة. لسان العرب (حجج).
(٥) الغَيْهَبُ: الظلمة الشديدة. لسان العرب (غهب).
(٦) الحَصان، بالفتح: العفيفة. لسان العرب (حصن).

سريعة، وأخصبتْ به رَبْوَة التناسل فهي مَرُوضة مَريعة[1]، وسدّت به عن اتّباع الهوى وارتكاب المحارم الذريعة، وحفظت به الأنسال والأنساب، وفاض به نهر الالتئام السلسال المنساب، إذ لا سبيل لأن يستغني بذاته، مَنْ كان أسيرَ هواه ومأمور لذّاته، وإنما الانفراد والاستغنا، لمن له الكمال والغنى، ولا يجوز أن يتعاقب عليه الإِنَى[2]، لا إله إلاّ هو لَهُ السناء والسنا. وإنّ فلانًا لما ارتقت همّته إلى اتّباع الصالحات وسَمَتْ، ووسمته من أعلامها اللائحة بما وَسَمَتْ، رأى أنّ الاعتصام بالنكاح أولى ما حمى به دينه ووَقّاه، وأهمّ ما رفع إليه اعتناءه ورقاه، فخطب إلى فلان ابنتَه فلانة خِطْبَة تظافر فيها اليُمْن والقبول، ونفحت بها شمال من الجدّ المصمّم وقَبُول، وارتقى بها إلى اللوح المحفوظ والديوان المكنون عمل مقبول، فتلقّى فلانٌ خطبته بالإجابة، لما توسّم فيه من مخايل النجابة، حرصًا منه على المساعدة والعَوْنِ، واغتباطًا بمباشرة أهلِ الرشد والصَّوْن، وانعقد النكاحُ بينهما على بركة اللّه التي يتضاعف بها العدد القليل ويتزيّد، ويمنه الذي ينتهض به من اعتمده ويتأيّد، وحسن توفيقه الذي يرتبط به من أخلص ضميره ويتقيّد، على أن أصدقها[3] كذا، تزوّجها بكلمة اللّه التي علت الكلمات وبَهَرَتْها[4]، وعلى سنّة نبيّه التي أحيت الحنيفية وأظهرتها، وأنقت الملّة من أرجاس الجاهلية وطهّرتها، وهداية مَهْدِيه التي غلبت الأباطيل[5] وقهرتها، ولتكون عنده بأمانة اللّه التي هي جُنَّة[6] واعتصام، وعهدته للزوجات على أزواجهنّ التي ليس لعروتها انفصام، وعلى إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وتسلسل في ميدان التناصف وأرسان، وله عليها من حسن العشرة التي هي بحقيق الاتّفاق عائدة، مثل ذلك ودرجة زائدة، واللّه تعالى يُمَهِّدُ لهما مِهَادَ نعمته الوثير، ويخلف منهما الطيب الكثير، ويرزقهما التوفيق الباعث لطول المرافقة المثير، بمنّه ونعمته.

وله رحمه اللّه من رسالة عتاب: أدام اللّه سبحانه مدّة الأخ الذي أستديمُ إخاءه، وإن واجهتني زعازعه أرتقب رُخَاءه، وتجاوزت عن يومه لأمسه، وأغضيت عن ظلامه لشَمْسه،

---

(١) المروضة: المعشبة المنبتة. المَريعة: الزاكية النبت. لسان العرب (روض) و (ريع).

(٢) الإنى: الوقت، وجمعه الآناء. لسان العرب (أنى).

(٣) أصدقها: جعل صداقها.

(٤) بَهَرَتْها: أصابتها بالبهر وهو الإعياء.

(٥) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٦١): «الأباطل».

(٦) الجُنَّة، بضم الجيم: الدرع. لسان العرب (جنن).

إناء واعتناء[1]، وإنذارًا، وإعذارًا، ورحم اللَّه من اعتمد على الأفهام، وعصى أوامر الأوهام، ورأى الخليفة في المعقول، لا في المختلف المنقول. وبعد فإنه وصَلَ كلامُك بل ملامك، وكتابك بل عتابك، ورسالتك بل بَسَالتك، سُمْتَني[2] بألفاظك العِذاب، سوءَ العَذَاب، وأريتني لَمَعَانَ الحُسَام، من فِقَرك الوسام.

وقال صفوان رحمه اللَّه: اجتمعت مع ابن مرج الكحل يومًا، فاشتكى إليَّ ما يجد لفراقي، وأطال عتب الزمان في إشآمه وإعراقي، فقلت: إذا تفرّقنا والنفوس مجتمعة، فما يضرّ أنّ الجسوم للرحيل مزمعة؟ ثم قلت له: [مخلع البسيط]

أنتَ مع العينِ والفؤادِ دَنَوْتَ أو كنتَ ذا بِعادِ

فقال وهو من بارع الإجازة: [مخلع البسيط]

وأنت في القلب في السويدا وأنتَ في العين في السوادِ

وإذ جرى ذكر صفوان فلا حرج أن نترجمه، فنقول:

قال في «الإحاطة» ما ملخّصه[3]: صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس، التجيبي، المُرْسِي، أبو بحر، كان أديبًا حسيبًا، مُمْتِعًا من الظَّرْف، ريّان من الأدب، حافظًا سريع البديهة، تَرِفَ النشأة، على تَصَاوُن وعَفاف، جميلاً، سَرِيًّا، مِمَّنْ تساوى حظّه في النظم والنثر، على تباين الناس في ذلك. روى عن أبيه وخاله ابن[4] عمّ أبيه القاضي أبي القاسم بن إدريس، وأبي بكر بن مُغاور، وأبي رِجال بن غَلْبون، وأبي العباس بن مَضا، سمع عليه صحيح مسلم، وأبي القاسم بن حُبيش، وابن حَوْط اللَّه، وأبي الوليد بن رشد، وأجاز له ابن بَشْكُوَال. وروى عنه أبو إسحاق[5] اليابري، وأبو الربيع بن سالم[6]، وابن عيشون[7]، وله تواليف أدبية، منها «زاد المسافر»، وكتاب «الرحلة»،

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٦١): «إني واعتنا».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٦١): «أسمعتني».
(٣) الإحاطة (جـ ٣ ص ٣٤٩).
(٤) في طبعة دار صادر (ص ٦٢): «وخاله وابن عمّ..».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٦٢): «ابن اليابري».
(٦) في طبعة دار صادر: «وأبو الربيع ابن البني، وأبو عبد اللَّه بن أبي البقاء، وأبو عامر بن سالم..».
(٧) هو محمد بن محمد بن عيشون كما في الإحاطة.

وكتاب «العِجالة»، سفران يتضمّنان من نظمه ونثره أدبًا لا كفاء له. وانفرد من تأبين الحسين وبكاء أهل البيت بما ظهرت عليه بركتُه من حكايات كثيرة.

ثم سرد لسان الدين جملة من نظمه إلى أن قال[1]: وقال في غرض الرصافي من وصف بلده وذكر إخوانه[2] يُسَاجله في الغرض والروي عَقِبَ رسالة سمّاها «طِراد الجياد في الميدان، وتنازع اللّدات[3] والأخدان، في تقديم مُرْسِية على غيرها من البلدان»: [الطويل]

لعلّ[4] رسولَ البرقِ يغتنمُ الأَجْرَا ... فينشرَ عنّي ماءَ عَبْرَتِهِ نَثْرَا
معاملةً أربي[5] بها غيرَ مذنبٍ ... فأقْضيه دمعَ العينِ عن نقطةٍ بَحْرا
ليسقيَ[6] من تُدْمِيرَ قطرًا مُحَبَّبًا ... يَقِرُّ بعين القَطْر أن تشرب القطرا
ويَقْرِضُهُ[7] ذوب اللُّجين، وإنما ... تُوفِّيه عيني من مدامعها تِبْرا
وما ذاكَ تقصيرًا بها غير أنه ... سَجِيَّةُ ماءِ البحرِ أن يُذْوِيَ الزَّهرا
خليليَّ قُوما فاحبسا طُرُقَ الصَّبا ... مخافَةَ أن يحمى[8] بزفرتَي الحَرَّى
فإنَّ الصَّبا ريحٌ عليَّ كريمةٌ ... بآيةِ ما تَسْري من الجنّةِ الصُّغْرى
خليليّ أَغني أرضَ مُرْسِيةِ المنى ... ولولا توخّي الصدق سَمَّيْتُها الكبرى
محلّيَ بل جوّي الذي عقبتْ به ... نواسمُ آدابي مُعَطَّرةً نَشْرا
ووَكْرِي الذي منه دَرَجْتُ فليتني ... فُجِعْتُ بريش العَزم كي أَلْزَمَ الوَكْرا
وما روضةُ الخضراء قد مثلت[9] بها ... مَجَرَّتُها نهرًا وأنجُمُها زُهْرا
بأبْهَجَ منها والخليجُ مجرَّةٌ ... وقد فضحت أزهار ساحتها الزهرا

---

(١) الإحاطة (جـ ٣ ص ٣٥٤ـ ٣٥٧).
(٢) في الإحاطة: «إخوانه ومعاهده، مساجلاً في العروض والروي».
(٣) في الإحاطة: «وتنازع اللدان والإخوان، في تنفيق..».
(٤) في الإحاطة: «هل رسول».
(٥) في الإحاطة: «أربو».
(٦) في الإحاطة: «ليسقني».
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٦٢): «ويرضعه».
(٨) في الإحاطة: «تحمى».
(٩) في الإحاطة: «قد شَلَت».

وقد أسكرتْ أعطاف أغصانها الصَّبا — وما كنت أعتدُّ الصَّبا قَبْلَها خمرا[1]
هنالك بين الغُصْن والقَطْر والصَّبا — وزهرِ الرُّبى وَلَّدْتُ آدابيَ الغَرَّا
إذا نَظَم الغصنُ الحيا قال خاطري — تعلَّمْ نِظامَ النثرِ من ههنا شِعْرا
وإن نَثَرَتْ ريحُ الصَّبا زَهَرَ الرُّبا — تَعَلَّمْتُ حلَّ الشِّعر أُسْبِكُهُ نثرا
فوائد أسحارٍ هناك اقْتَبَسْتُها — ولم أرَ روضًا غيره يُقرِىء السِّحْرا
كأنَّ هزيزَ الريحِ يمدحُ رَوْضَها — فملأ فاها من أزاهره دُرّا[2]
أيا زَنْقاتِ[3] الحسنِ، هل فيك نظرةٌ — من الجُرُف الأعلى إلى السِّكة الغرّا
فأنظرَ من هذي لتلكَ كأنما — أُغَيِّرُ إذ غازَلْتُها أختَها الأخرى
هي الكاعبُ الحسناءُ تُمِّمَ حُسْنُها — وقَدَّتْ لها أوراقُها حُلَلاً خَضْرا
إذا خُطِبَتْ أعطتْ دراهم زَهْرِها — وما عادةُ الحَسْناء أن تَنْقُدَ المَهْرا
وقامتْ بِعُرْس الأنس قَينةُ أيكها[4] — أغاريدها تسترقص الغُصُنَ النَّضرا
فَقُلْ في خليج يلبس الحُوْت دِرْعَهُ — ولكنه لا يستطيعُ بها نصرا[5]
إذا ما بَدَا فيها الهلالُ رأيته — كصفحةِ سيفٍ وَسْمُها قُبعةٌ صفرا[6]
وإنْ لاح فيها البدرُ شَبَّهْتَ مَتْنَه — بشطٍّ[7] لجين ضَمَّ من ذهبٍ عشرا
وفي جُرْفَيْ روضٍ هناك تجافيا — بنهرٍ، يودُّ الأُفق لو زاره فَجْرا
كأنهما خِلاً صفاءٍ تَعاتبا — وقد بكيا من رقّةٍ ذلك النهرا
وكم لي بأبياتِ الحديد[8] عشيّةً — من الأُنْسِ ما فيه سوى أنه مَرَّا
عشايا كأنَّ الدهرَ غضٌّ بحسنها — فأجلت بساط البرق أفراسها شقرا[9]

---

(1) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٦٣): «وما كنت أعددت الصَّبا..». وفي الإحاطة: «أزهار أغصانها... أعتدُّ الصَّبا».
(2) في الإحاطة (ص ٣٥٥): «فتملأ فاه من أزاهرها دُرّا».
(3) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٦٤): «أيا رنقات». وزنقات الحسن: من متنزهات مرسية.
(4) في الإحاطة: «أيكة».
(5) في الإحاطة: «قصرًا».
(6) في الإحاطة: «صَفْرا».
(7) في الإحاطة: «بِسَطْرٍ».
(8) في الإحاطة: «بالباب الجديد».
(9) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٦٤): «عشيات.. غضًا بحسنها..». وفي الإحاطة (ص ٣٥٦):: «عشيات.. غُضٌّ بحسنها.. سياط البرق.. الشُّقْرا».

عليهنَّ أُجري خيلَ دمعي بوجنتي　　إذا رَكِبَتْ حُمْرًا ميادينها الصفرا
أعهديَ بالغَرْس المُنَعَّم دَوْحُه　　سَقَتْك دموعي إنها مُزْنة شَكْري[1]
فكم فيكِ مِنْ يوم أغرَّ مُحَجَّلٍ　　تَقَضَّتْ أمانيه فَخَلَّدْتُها ذِكْرا
على مُذْنَّب كالبحر من فرط حُسْنه　　تودُّ الثريَّا أن يكون لها نَحْرًا[2]
سقت أدمعي والقَطْرُ أيهما انبرى　　نقا الرّملة البيضاء فالنهرَ فالجسرا
وإخوان صِدْقٍ لو قضيت حقوقهم　　لما فارقَتْ عيني وجوههمُ الزَّهْرَا
ولو كنت أقضي حقَّ نفسي ولم أكن　　لما بِتُّ أستحلي فراقَهُمُ المُرّا
وما اخترتُ هذا البُعْدَ إلاَّ ضرورةً　　وهل تستجيز العينُ أن تفقد الشُّفرا [3]
قضى اللّه أن تنأى[4] بيَ الدارُ عنهمُ　　أراد بذاك اللّه أن أُعْتِبَ الدهرا
وواللّه لو نِلْتُ المُنَى ما حَمِدْتُها　　وما عادةُ المشغوف أن يُحْمِدَ الهَجْرا
أيأنسُ باللذّاتِ قلبي ودونهمْ　　مَرَامٍ يجدُّ الكربُ في طيِّها شهرا[5]
ويصحب هادي الليل راءً وحُرْفَةً　　وصادًا ونونًا قد تقدس واصفرّا[6]
فَدَيْتُهُم بانوا وضنّوا بكَتْبِهم　　فلا خَبَرًا منهمْ لقيتُ ولا خُبْرا
ولولا عُلا هِمّاتهم لَعَتَبْتُهُمْ　　ولكنْ عِرابُ[7] الخيل لا تحمل الزَّجْرا
ضربتُ غُبار البِيْدِ في مَهْرق السُّرى　　بحيثُ جعلتُ الليلَ في ضربه حِبرا
وحَقَّقْتُ ذاك الضَّرب جمعًا وعُدَّةً　　وطرحًا وتجميلاً فأخرج لي صفرا
كأنَّ زماني حاسبٌ مُتَعَسِّفٌ　　يُطارحني كَسْرًا وما يُحْسِنُ الجبرا
فكم عارفٍ بي وهو يحسن[8] رتبتي　　فيمدحني سِرًّا ويَشْتمني جَهْرا
لذلك ما أعطيتُ نفسيَ حقَّها　　وقلتُ لِسِرْب الشِّعْر لا تَرِمِ الذكرا[9]

(١) يقال: عَيْنُ شَكْرَى، أي ملأى من الدمع، ويقال: درَّةٌ شَكْرَى: أي ملأى من اللبن؛ والمزنة الشَّكْرى: الكثيرة المطر. محيط المحيط (شكر).
(٢) في الإحاطة: «كالنحر من فرط حسنه.. تكون لها نَحرا».
(٣) الشُّفْرُ، بضمّ الشين وسكون الفاء: أصل منبت الشعر في طرف العين. لسان العرب (شفر).
(٤) في الإحاطة: «ينأى بي الدهر..».
(٥) في الإحاطة: «أيانس.. يجدُّ الرّكب..».
(٦) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٦٥): «راء حروفه.. قد تقوّس واصفرّا». وفي الإحاطة: «تقوّس».
(٧) الخيل العراب: الأصيلة الكريمة السالمة من الهجنة. لسان العرب (عرب).
(٨) في الإحاطة (ص ٣٥٧): «يَحْسُبُ».
(٩) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٦٥): «الفكرا». وفي الإحاطة: «لا تهمّ الفكرا».

فما بَرِحَتْ فكري عَذارى قصائدي ... ومن خُلُقِ العذراء أن تألفَ الخِدرا
ولستُ وإن طاشتْ سهامي بآيسٍ ... فإنَّ مع العُسر[1] الذي يُتَّقى يُسْرا

وقال يراجع أبا الربيع بن سالم عن أبيات مثلها[2]: [الطويل]

سقى مضربَ الخيماتِ من عَلَمَيْ نجدِ ... أَسَحَّ غمامَيْ أدمعي والحَيَا الرغدِ
وقد كان في دمعي كفاء، وإنما ... يجفِّفها ما بالضلوعِ من الوَقْدِ
فإنْ فَتَرَتْ نارُ الضلوعِ هنيهةً ... فسوفَ ترى تفجيره للحَيَا العِدِّ
وإن ضنَّ صَوْبُ المزنِ يومًا فأدمعي ... تنوبُ كما نابَ الجميعُ عن الفَرْدِ
وإن هطلا يومًا بساحتها معًا ... فأرواهما ما صابَ من منتهى الودِّ
أرى زفرتي تذكى ودمعي ينهمي ... نقيضينِ قاما بالصلاء وبالوردِ
فهل بالذي أبصرتُمُ أو سمعتُمُ ... غمامٌ بلا أُفق وبرقٌ بلا رَعْدِ
ليَ اللّهُ كم أهذي بنجدٍ وأهلِها ... وما لي إلاَّ التوهُّمُ من عَهْدِ
وما بي إلى نجدٍ نزوعٌ ولا هَوًى ... خلا أنهمْ شنَّوا القوافي على نجدِ
وجاءوا بدعوى حَسَّنَ الشِّعْرُ زُورها ... فصارت لهم في مصحفِ الحبِّ كالحمد
شُغلنا بأبناء الزمان عن الهوى ... وللدرعِ وقتٌ ليس يحسُنُ للبُرْدِ
إلى اللّه أشكو ريبَ دهرٍ يغصُّ بي[3] ... نوائبُهُ قد ألجمتْ أَلْسُنَ العَدِّ
لقد صرفت حكمَ الفؤاد إلى الهوى ... كما فوّضت أمرَ الجفونِ إلى السهد
أما تتوقَّى ويحها أن أصيبها ... بدعوةِ مظلومٍ على جورها يُعْدي
أما راعها أنْ زحزحت عن أكارم ... فراقُهُمُ دلَّ القلوبَ على حَدِّي
أُعاتبُها فيهمْ فتزدادُ قسوةً ... أجِدَّكَ هل عاينتَ للحجر الصلدِ
أما علمتْ أنَّ القساوةَ نافرتْ ... طباعَ بني الآداب إلاَّ من الردِّ
إذا وعدتْ يومًا بتأليفِ شملنا ... فألمِمْ بعرقوب وما سَنَّ من وَعْدِ
وإن عاهَدَتْ أن لا تؤلِّفَ بيننا ... تذكّرتُ آثار السموأل في العَهْدِ
خليليَّ، أعني النظمَ والنثرَ، أَرْسِلا ... جيادَكما في حَلْبةِ الشكرِ والحمد

---

(١) في الإحاطة: «مع العذر».
(٢) لم ترد هذه القصيدة في الإحاطة.
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٦٦): «في».

قِفا ساعداني إنه حقٌّ صاحبٍ ... بريء جمامِ الكتمِ من كَدَرِ الحِقْد
بآيةِ ما قيَّدتما أَلْسُنَ الورى ... بذكري فيا ويح الكنانيِّ والكندي
فأين بياني أو فأين فصاحتي ... إذا لم أُعدْ ذكرَ الأكارمِ أو أُبْدي
فيا خاطري وَفِّ الثناء حقوقَهُ ... وصُغْهُ كما قالوا سوارٌ على زند
ولا تلزمنِّي بالتكاسل حُجَّةً ... تشبهها نارَ الحياء على خدِّي
ثكلتُ القوافي وهي أبناء خاطري ... وغَيَّبَها الإقحامُ عنِّيَ في لحد
لئن لم أَصُغْ زُهْرَ النجومِ قلادةً ... وآتِ ببدرِ التمِّ واسطةَ العقد
إلى أن يقولَ السامعون لرفقتي ... نعم طار ذاكَ السِّقطُ عن ذلك الزَّنْدِ
أُحَيِّي بِرَيَّاها جنابَ ابنِ سالمٍ ... فيقرعُ فيه البابَ في زمنِ الوردِ

وهي طويلة.

ومن مقطوعاته قوله[1]: [السريع]

يا قمرًا مَطْلَعُهُ أضلعي ... له سوادُ القلبِ فيها غَسَقْ
وربما استوقَدَ نارَ الهوى ... فنابَ فيها لونها عن شَفَقْ
مَلَّكْتَني في دولةٍ مِنْ صِبًا ... وصِدْتَني في شَرَكٍ مِنْ حَدَقْ
عنديَ مِنْ حبِّك[2] ما لو سَرَتْ ... في البحرِ منه شُعلة لاحترقْ

وقال: [الكامل]

قد كان لي قلبٌ فلمَّا فارقوا ... سَوَّى جَناحًا للغَرام وطارا
وجَرَتْ سَحابٌ للدموع[3] فأوقدتْ ... بين الجوانحِ لَوْعَةً وأُوَارَا
ومن العجائبِ أنَّ فَيْضَ مدامعي ... ماءٌ، ويُثْمِرُ في ضُلوعيَ نارا

وشعره الرمْلُ والقَطْرُ كثرة، فلنختمه[4] بقوله: [المنسرح]

قالوا وقد طالَ بي مَدَى خَطَئي ... ولم أزلْ في تَجَرُّمِي ساهي:

---

(١) هذه الأبيات والتي بعدها في الإحاطة (ج ٣ ص ٣٥٧).
(٢) في الإحاطة: «حُبيبك».
(٣) في الإحاطة: «بالدموع».
(٤) في الإحاطة: «فلنختم له المقطوعات بقوله». والبيتان بدون تعبير عمّا هنا.

أَعْدَدْتَ شيئًا ترجو النجاة به؟ فقلتُ: أعددتُ رحمةَ اللّهِ

وكتب[1] يهنىء قاضي الجماعة أبا القاسم بن بقيّ برسالة منها: لأن[2] محلّه دام عمرُه، وامتثُل نَهْيُه الشرعي وأمره، أعلى رتبةً وأكرم محلاً، من أن يتحلّى بخُطّة هي به تتحلّى، كيف يهنأ بالقعود لسماع دعاوى[3] الباطل، والمعاناة[4] لإنصاف المَمْطُول من الماطل، والتَّعب في المعادلة، بين ذوي المجادلة. أما لو عَلم المتشوّفون[5] إلى خطّة الأحكام، المستشرفون إلى ما لها من التبسّط والاحتكام، ما يجب لها من اللَّوَازم، والشروط الْجَوَازم، كَبَسْطِ الكَنَف، ورفع الجَنَفَ، والمساواة بين العدوّ ذي الذَّنْب، والصاحب بالجَنْب، وتقديم ابن السَّبيل، على ذي الرحم والقَبِيل، وإيثار الغريب، على القريب، والتوسّع في الأخلاق، حتى لِمَنْ ليس له من خَلاَق، إلى غير ذلك مِمّا عِلْمُ قاضي الجماعة أحصاه، واستعمل خُلقه[6] الفاضل أدناه وأقصاه، لَجَعَلُوا خُمُولهم، مأمولهم، وأضربوا عن ظهورهم[7]، فنبذوه وراء ظهورهم[8]، اللهمّ إلاَّ مَنْ أُوتي بَسْطَةً في العلم، ورسا طَوْدًا في ساحة الحِلْم، وتساوى ميزانه في الحرب والسِّلم، وكان كمولانا[9] في المماثلة بين أجناس الناس، فقُصاراه أن يتقلّد الأحكام للأجر، لا للتعنيف[10] والزَّجر، ويتولاّها للثواب، لا للغِلْظة في ردِّ الجواب، ويأخذها لِحُسْنِ الجزاء، لا لقبيح[11] الاستهزاء، ويلتزمها لجزيل الذُّخْر، لا للإزراء والسُّخر، فإذا كان كذلك، وسلك المتولّي هذه المسالك[12]، وكان قاضي[13] الجماعة ولا مِثْل له، ونفع الحقُّ به عِلله ونقع غُلله،

---

(١) النص في الإحاطة (ج ٣ ص ٣٥٨ . ٣٥٩).

(٢) في الإحاطة: «لان قدره..».

(٣) في الإحاطة: «دعوة».

(٤) في الإحاطة: «ولمعاناة الإنصاف».

(٥) في الإحاطة: «المتشوقون».

(٦) في الإحاطة: «الخلقه».

(٧) الظهور: مصدر ظهر أي بدا.

(٨) الظهور: جمع ظهر.

(٩) في الإحاطة: «كقاضي الجماعة».

(١٠) في الإحاطة: «لا للتعسّف».

(١١) في الإحاطة: «لا لِقُبْح».

(١٢) في الإحاطة: «السالك».

(١٣) في الإحاطة: «كقاضي».

فيومئذ تُهَنَّى به خُطةُ القضاء، وتعرف ما للّه تعالى عليه من اليد البيضاء.

ورحل إلى مراكش في جهاز بنْتٍ بَلَغَت التزويج، وقصد دار الإمارة[1] مادحًا، فما تيسّر له شيء من أمله، ففكّر في خيبة قصده، وقال: لو كنت أمَّلت[2] اللّه سبحانه ومدحتُ نبيَّه، ﷺ، وآل بيته الطاهرين لَبَلَغْتُ أملي، بمحمود عملي. ثم استغفر اللّه تعالى من اعتماده في توجّهه الأوّل، وعلم أن ليس على غير الثاني مُعَوَّل، فلم يَك إلاّ أن صوّب[3] نحو هذا المقصد سَهْمَه، وأمضى فيه عَزْمَه، وإذا به قد وَجَّه عنه[4] فأُدخل على الخليفة فسأله عن مقصده، فأخبره مفصحًا[5] به، فأنفذهُ وزاده عليه وأخبره أنَّ ذلك لرؤيا رسول اللّه ﷺ، في النوم يأمر[6] بقضاء حاجته، فانفصل مُوَفَّى الأغراض، واستمرَّ في مدح أهل البيت عليهم السلام، حتى اشتهر بذلك. وتوفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وسنُّه دون الأربعين، وصلّى عليه أبوه، فإنه كان بمكان من الفضل والدِّيْن، رحم اللّه تعالى الجميع! انتهى كلام ابن الخطيب في حقِّ المذكور ملخصًا.

ولا بأس أن نزيد عليه ما حضر، فنقول: قال ابن سعيد وغيره: ولد صَفْوان سنة ستين وخمسمائة، أو في التي بعدها، قال: وديوان شعره مشهور بالمغرب؛ انتهى.

ومن نظمه قوله: [مجزوء الرجز]

أومضْ ببرقِ الأضلعِ ... واسكبْ غمامَ الأَدْمُعِ
واحزنْ طويلاً واجزعْ ... فهو مكانُ الجَزَعِ
وانثرْ دماء المُقْلَتَينِ ... تألُّمًا على الحسينِ
وابكِ بدمعٍ دونَ عينٍ ... إن قلَّ فيضُ الأدْمُعِ

وهذا من قصيدة عارض بها الحريري في قوله [مجزوء الرمل] «خَلِّ ادِّكار الأرْبُعِ».

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٦٨): «الخلافة».
(٢) في الإحاطة (ص ٣٥٩): «تأمّلت».
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٦٩): «أن صرف.. المقصد همته.. عزمته..».
(٤) في طبعة دار صادر: «إليه».
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٦٨): «مفحصًا».
(٦) في الإحاطة: «يأمره».

وله أيضًا مطلع قصيدة فيه: [مخلع البسيط]

يا عينُ سُحّي ولا تَشِحّي ولو بدَمْعٍ بحَذْفِ عَيْنِ

وقال ابن الأبار: توفي صفوان بمُرْسِية ليلة الاثنين السادس عشر من شوّال سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وثكله أبوه، وصلّى عليه، وهو دون الأربعين، إذ مولوده سنة إحدى وستين وخمسمائة، وكان من جلّة الكتّاب البلغاء، ومَهَرَة الأدباء الشعراء، ناقدًا فصيحًا، مدركًا جليل القدر، متقدّمًا في النظم والنثر، مِمَّنْ جمع ذلك، وله رسائل بديعة، وقصائد جليلة، وخصوصًا في مراثي الحسين رضي اللّه تعالى عنه!.

وقد تذكّرْتُ هنا قول ناهض بن محمد الأندلسي الوادي آشي في رثاء الحسين رضي اللّه تعالى عنه: [الكامل]

أمُرِنَّةً سَجَعَتْ بعُودِ أراكِ قُولي مُوَلَّهةً: عَلامَ بُكَاكِ
أجَفاكِ إلْفُكِ أم بُلِيتِ بِفُرْقةٍ أم لاح بَرْقٌ بِالْحِمَى فشَجَاكِ
لو كان حَقًّا ما ادّعيتِ من الجوى يومًا لما طَرَقَ الجفونَ كراكِ
أو كان روَّعكِ الفراقُ إذًا لما ضَنَّتْ بماء جفونها عَيْناكِ
ولما ألفتِ الروضَ يأرجُ عَرْفُهُ وجَعَلْتِ بين فروعِهِ مَغْناك
ولما اتّخذتِ من الغصونِ مِنَصَّةً ولما بَدَتْ مخضوبَةً كَفَاكِ
ولما ارتديتِ الريشَ بُرْدًا مُعْلَمًا ونظمتِ من قُزَحٍ سلوكَ طلاك
لو كنتِ مثلي ما أفقتِ من البكا لا تحسبي شكوايَ من شكواك
إيهٍ حَمامَةُ خَبِّريني، إنني أبكي الحسينَ، وأنتِ ما أبكاكِ
أبكي قتيلَ الطَّفِّ فرعَ نبيِّنا أكرمْ بفرعٍ للنبوّة زاكي
ويلٌ لقومٍ غادروه مُضَرَّجًا بدمائِهِ نِضْوًا صريعَ شكاك
متعفّرًا قد مُزِّقَتْ أشلاؤه فَرْيًا بكلِّ مُهَنَّدٍ فتّاكِ
أيزيدُ لو راعيتَ حُرْمة جدِّه لم تقتنصْ ليثَ العرينِ الشاكي
أو كنتَ تُصْغي إذ نقرْتَ بثغره قَرَعَتْ صماخكَ أنّهُ المسواك
أتروم ويكَ شفاعةً من جدّه هيهات! لا، ومُدَبِّرِ الأفلاك
ولسوفَ تُنبذُ في جهنّم خالدًا ما اللّه شاء ولاتَ حين فكاك

وتوفي ناهض المذكور بوادي آش سنة ٦١٥.

رجع إلى أخبار صفوان بن إدريس ـ رحمه اللّه تعالى! ـ فنقول: ومن شعر صفوان قوله: [الكامل]

قلْنا وقد شامَ الحسامَ مخوّفًا رشأ بعاديةِ الضراغم عابثُ
هل سيفُهُ من طَرفِهِ أم طرفُهُ من سيفه أم ذاك طرفٌ ثالثُ

وقوله: [مجزوء الكامل]

غيري يروعُ بسيفِهِ رشأ تَشَاجعَ ساخرا
إنْ كَفَّ عنّي طَرْفَهُ فالسيفُ أضعفُ ناصرا

وقال صفوان المذكور رحمه اللّه تعالى: حَيَّيْتُ بعضَ أصحابنا بزهرة سوسن، فقال: [الكامل]

حَيّا بسوسنةٍ أبو بحرِ

فقلت مجيزًا:

نَضراء تفضحُ يانعَ الزهرِ

عجبا لها لم تُذْوِهَا يدُه من طولِ ما مكثت على الصدرِ

وقال أيضًا: ماشَيْتُ الوزيرَ الكاتبَ أبا محمد بن حامد يومًا، فاتّفق أن قال لأمر تذكّره: [الكامل]

بين الكثيبِ ومنبتِ السِّدْرِ ريمٌ غَدَا مثواهُ في صدري

فقلت: أُجيزه: [الكامل]

لِوشاحِهِ قَلَمٌ بلا ألم ولِقُرطِهِ خَفَقٌ بلا ذُعْرِ
لو كنتُ قد أنصفتُ مُقْلَتَهُ بَرّأتُ هاروتًا مِنَ السِّحْرِ
أو كنتُ أقضي حَقّ مَرْشَفِهِ أعرضتُ لا ورعًا عن الخمر

وناولته يومًا وردة مغلقة، فقال: [الطويل]

ومحمَّرةٍ تختالُ في ثوب سندسٍ كوَجْنَةِ محبوبٍ أطلَّ عذارُهُ

فقلت أُجيزه: [الطويل]

كتطريفِ كفّ قد أحاطتْ بنانها بقلبِ محبّ ليس يخبو أُوَارُهُ

وقال: رآني الوزير أبو إسحاق وأنا أقيّد أشعارًا من ظهر دفتر فقال: [مخلع البسيط]

ما الذي يكتبُ الوزيرُ

قلت:

بدائعٌ ما لها نظير

فقال:

دُرٌّ ولكنه نظيمٌ مِنْ خيرِ أسلاكه السطورُ

فقلت:

مِنْ أَظهُرِ الكتب أقتنيها وخَلِّ ما تحتوي البحورُ
بتلك تزهو النحورُ، لكن بهذه تزدهي الصدورُ

ولكن الإنصاف واجب، هو قال المعنى الأخير نثرًا وأنا سبكته نظمًا.

وقال: جلسنا بعضَ العشايا بالولجة خارج مُرْسية، والنسيم يهبُّ على النهر، فقال أبو محمد بن حامد: [البسيط]

هَبَّ النسيمُ وماءُ النهر يَطَّرِدُ

فقلت على جهة المداعبة، لا الإجازة:

ونارُ شوقي في الأحشاء تَتَّقِدُ

فقال أبو محمد: ما الذي يجمع بين هذا العجز وذاك الصدر؟ فقلت: أنا أجمع بينهما، ثم قلت:

فصاغ من مائه دِرْعًا مُفَضَّضَةً وزاد قلبيَ وَقْدًا للذي يجدُ
وإنما شَبَّ أحشائي لحاجتِهِ إذ ليس دون لهيبٍ يُصْنَعُ الزردُ

وخطرنا بلقنت[1] على ثمرة تهزّها الريح فقال أبو محمد: [مخلع البسيط]

وسَرْحةٍ كاللواء تهفو بعطفها هَبَّةُ الرياحِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٧٢): «بمقنت».

فقلت:

كـأنَّ أعـطـافَـهـا سَـقَـتْـهـا   كفُّ النُّعامى[1] كؤوس راحِ

فقال:

إذا انتحاها النسيمُ هَزَّتْ   أعطافها هِزَّةَ السماحِ

فقلت:

كـأنَّ أغـصـانَـهـا كِـرَامٌ   تقابلُ الضيفَ بارتياحِ

ولصفوان رحمه الله: [السريع]

تـحيّـةُ اللّـهِ وطـيـبُ السـلامْ   على رسولِ اللّهِ خيرِ الأنامْ
على الذي فَتَّحَ بابَ الهدى   وقال للناس: ادخلوا بالسلامْ
بدر الهدى، غيم الندى والسدى   وما عسى أن يتناهى الكلامْ
تـحـيّـةً تـهـزأ أنـفـاسُـهـا   بالمسك، لا أرضى بمسك الختامْ
تـخـصّـهُ منّـى ولا تَـنْـثَـنـي   عن أهله الصِّيد السراةِ الكرم
وقـدرهـم أرفـعُ لـكـنـنـي   لم أُلفِ أعلى لفظةً من كرامْ

وقال: [الطويل]

يقولون لي لمّا ركبتُ بطالتي   ركوبَ فتى جمّ الغواية معتدي
أعندكَ شيء ترتجي أن تنالَهُ؟   فقلت: نعم عندي شفاعةُ أحمدِ

صلّى اللّه عليه وسلم، وشرّف وكرّم، ومجّد وعظّم، وبارك وأنعم، ووالى وكمّل وأتمّ.

---

(١) النُّعامى، بضمّ النون: اسم لريح الجنوب. لسان العرب (نعم).

الباب الثاني

في نشأة لسان الدين وترقيه ووزارته

في نشأته، وترقِّيه ووزارته وسعادته، ومساعدة الدهر له، ثم قلبه له ظهر المِجَنّ على عادته في مصافاته، ومنافاته، وارتباكه، في شباكه، وما لقي من إحَنِ[1] الحاسد، ذي المذهب الفاسد، ومحن الكائد المستأسد وآفاته، وذكر قصوره وأمواله، وغير ذلك من أحواله في تقلّباته، عندما قابله الزمان بأهواله، في بَدْئِه وإعادته إلى وفاته.

أقول: كان مولد الوزير لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه، كما في الإحاطة[2] في الخامس والعشرين من شهر رجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة، وقال الرئيس الأمير أبو الوليد بن الأحمر رحمه اللّه[3]: نشأ لسان الدين بن الخطيب على حالة حسنة سالكًا سبيل[4] أسلافه، فقرأ القرآن على المكتِّب الصالح أبي عبد اللّه بن عبد المولى العوّاد تكتبًا، ثم حفظًا، ثم تجويدًا، ثم قرأ القرآن أيضًا على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي، وقرأ عليه العربية وهو أوّل من انتفع به، وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جُزَي، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد اللّه الفخار البيري شيخ النحويين لعهده، وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد اللّه بن بكر، وتأدّب بالرئيس أبي الحسن بن الجياب، ورَوَى عن كثير من الأعيان، وسرد ابنُ الأحمر المذكور هنا جملة أعلام من مشايخ لسان

---

(١) الإحن: جمع إحْنة وهي الحقد والضغينة. القاموس المحيط (أحن).

(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ٦٣٤).

(٣) أنظر أزهار الرياض (جـ ١ ص ١٨٧).

(٤) في أزهار الرياض: «سنن».

الدين سيأتي ذكرهم إن شاء اللّه تعالى، ثم قال: وأخذ الطب والتعاليم[١] وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا يحيى بن هُذَيل ولازمه؛ انتهى.

وقال بعضهم في حق لسان الدين: هو الوزير العلامة المتحلي بأجمل الشمائل وأفضل المناقب، المتميّز في الأندلس بأرفع المراقي[٢] وأعلى المراتب، عَلَم الأعلام، ورئيس أرباب السيوف والأقلام، جامع أشتات الفضائل، والمُرْبِي بحسن سياسته وعظيم رياسته على الأواخر والأوائل، حائز رتبة رياسة السيف والقلم، والقائم بتدبير الملك على أرسخ قدم، صاحب القلم الأعلى، الوارد من البراعة المنْهَلَ الأحلى، صاحب الأحاديث التي لا تُمَلُّ على كثرة ما تُتْلَى، والمحاسن التي صورها على منصّة التنويه تجلى؛ انتهى.

وقال لسان الدين في «الإحاطة» بعد ذكر سلفه رحمهم اللّه تعالى، ما ملخّصه[٣]: وخلفني ـ يعني أباه عبد اللّه ـ عالي الدرجة، شهير الخطّة، مشمولاً بالقبول، مكنوفًا بالعناية، فقلّدني السلطان سرّه[٤]، ولَمّا يستكمل الشباب ويجتمع السنّ، معزّزة بالقيادة ورسوم الوزارة، واستعملني في السّفارة إلى الملوك، واستنابني بدار ملكه، ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه، وائتمنني على صِوَان حضرته[٥]، وبيت ماله، وسجوف حُرَمه، ومعقل امتناعه، ولما هلك السلطان ضاعف ولدُه حُظْوتي، وأعلى مجلسي، وقَصَر المشورة على نُصحي، إلى أن كانت عليه الكائنة، فاقتدى فيَّ أخوة المتغلّب على الأمر به، فسجل الاختصاص، وعقد القلادة، ثم حمله أهل الشحناء من أهل أعوان ثورته على القبض عليَّ، فكان ذلك، وتقبّض[٦] عليّ، ونُكث ما أُبرم من أماني، واعتُقلت بحال ترفيه. وبعد أن كُبِسَت[٧] المنازلُ والدُّور، واسْتُكْثر من الحرس، وخُتم على الأعلاق[٨]، وأُبرد إلى ما ناء[٩]، واستُؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولا ربّات الأمثال، في تبحّر

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٧٧): «والتعليم».

(٢) المراقي: جمع مرقاة وهي الدرجة. لسان العرب (رقى).

(٣) الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٧).

(٤) في الإحاطة (ص ٤٤٣): «كتابة سرّه، ولمّا يجتمع الشباب. .».

(٥) في الإحاطة: «ذخيرته».

(٦) في الإحاطة: «وقُبِّض».

(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٧٦): «كسبت».

(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٧٨): «الأغلاق» بالغين المعجمة. والأغلاق: جمع غَلَق وهو ما يُغْلق به البابُ. محيط المحيط (غلق).

(٩) في الإحاطة: «نأى». وأبرد: أرسل البريد. ناء: أثقل الكاهل. لسان العرب (برد) و (ناء).

الغَلّة، وفَرَاهة الحيوان، وغبطة العقار، ونظافة الآلات، ورفعة الثياب، واستجادة العُدّة، ووفور الكُتب إلى الآنية والفرش[1] والماعون والزجاج والطِّيب والذخيرة والمضارب والأبنية[2]، واكْتُسحت السائمة وثِيران الحرث وظَهْر الحمولة[3] وقوام الفِلاَحة والخيل[4]، فأخذ ذلك البيع، وتناهَبَتْها الأسواق، وصاحبها البَخْس، ورزأتْها الخونة، وشمل الخاصّة والأقارب الطلب، واسْتُخلصت القُرى[5]، وأُعملت الحيل، وطُوّقت الذنوب، وأَمَدَّ[6] اللّه تعالى بالعون، وأنزل السكينة، وانصرف اللسان إلى ذكر اللّه تعالى، وتعلّقت الآمال به وطبقت نكبة مُصْحفية[7] مطلوبها الذات وسببها[8] المال حسبما قلت عند إقالة العثرة والخلاص من الهفوة: [الطويل]

تخلَّصْتُ منها نكبة مُصْحفيّة　　لفقْدَانيَ المنصورَ مِنْ آلِ عامرِ

ووصلت الشفاعة فيَّ مكتتبةً بخطّ ملك المغرب، وجعل خلاصي شرطًا في العُقْدة ومسالمة الدولة، فانتقلت صُحبة سلطاني المكفور الحقّ إلى المغرب، وبالغ ملكه في بِرّي منزلاً رحبًا، وعيشًا خفضًا، وإقطاعًا جمًا، وجراية ما وراءها مرمًى، وجعلني بمجلسه صَدْرًا، ثم أسعف قصدي في تهيؤ[9] الخلوة بمدينة سَلاَ، مُنَوّه الصكوك، مهنّأ القرار، مُتَفَقّدًا باللُّهَا والخِلَع، مُخَوّل العقار، موفور الحاشية، مُخلًّى بيني وبين إصلاح مَعَادي، إلى أنْ ردَّ اللّه تعالى على السلطان أمير المسلمين أبي عبد اللّه ابن أمير المسلمين أبي الحجاج مُلْكه، وصيَّر إليه حقَّه، فطالبني بوعدٍ ضربْتُه، وعملٍ[10] في القدوم عليه بولده أحكمْتُه، ولم يُوسعْني عُذْرًا، ولا فسح في التّرك مجالاً، فقدمتُ عليه بولده، وقد ساءه

---

(١) في الإحاطة: «الآنية والخرثى».
(٢) في الإحاطة: «والأقبية».
(٣) ظهر الحمولة: الدواب التي يحمل عليها.
(٤) في الإحاطة (ص ٤٤٤): «وأذواد الخيل».
(٥) في الإحاطة: «القرى والجنّات».
(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٧٩): «أمدّ». وفي الإحاطة: «وأمدّ اللّه بالصبر..».
(٧) مُصْحفية: نسبة إلى جعفر بن محمد، المصحفي، حاجب الحكم المستنصر، وقد نكبه المنصور محمد بن أبي عامر.
(٨) في الإحاطة: «وسبب إفاتتها المال».
(٩) في الإحاطة: «تهنيء».
(١٠) في الإحاطة: «وعهد».

بإمساكه رهينة ضدّه[1]، ونغّص مسرّة الفتح بعده، على كلّ حال من التقشّف والزهد فيما[2] بيده، وعزف عن الطمع في ملكه[3] وزهد في رِفْده، حسبما قلت من بعض المقطوعات: [الكامل]

قالوا لخدمته دعاكَ محمدٌ   فأنفتها[4] وزهدتُ في التنويهِ
فأجبتهم أنا والمهيمِنِ كارهٌ   في خدمة المولى محبٌّ فيهِ

عاهدت اللّه تعالى على ذلك، وشرحت صدري للوفاء به، وجنحتُ إلى الانفصال لبيت اللّه الحرام نشيدة أملي، ومَرْمَى نيّتي وعملي، فَعَلِقَ بي، وخرج لي عن الضرورة، وأراني أنَّ مؤازرته أبرُّ القُرَب[5]، وراكنني إلى عهدٍ بخطّه، فسح لعامين أمد الثّواء، واقتدى بِشُعَيْب صلوات اللّه عليه، في طلب[6] الزيادة على تلك النسبة، وأشهد مَنْ حضر من العِلْية. ثم رَمَى إليّ بعد ذلك بمقاليد رأيه، وحكم عقلي[7] في اختيارات عقله، وغطّى من[8] جفائي بِحِلْمه، وحثا في وجوه شهواته تراب زَجْري، ووقف القبولَ على وعظي، وصَرَف[9] هواي في التحول ثانيا[10] وقصدي، واعترف بقبول نصحي، فاستعنتُ اللّه تعالى، وعاملت وجهه فيه، من غير تلبس بجرايةٍ، ولا تشبّث بولاية، مقتصرًا على الكفاية، حذرًا من النقد، خامل المركب، معتمدًا على المنسأة[11]، مستمتعًا[12] بخَلَق

---

(١) في الإحاطة (ص ٤٤٥): «رهينة ظلّه».
(٢) في الإحاطة: «عمّا بيده».
(٣) في الإحاطة: «في الكسب وزهد في الرِّفْد».
(٤) في الإحاطة: «فَكَرِهْتُها».
(٥) في الإحاطة: «القربة».
(٦) في الإحاطة: «في خطب الزيادة». وهنا يشير إلى قصة شعيب وموسى عليهما السلام؛ إذ زوّج شعيب موسى ابنته على أن يكون أجيره سبع سنين، وقال له: ﴿فإن أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾، سورة القصص ٢٨، الآية ٢٧.
(٧) في الإحاطة: «عذلي».
(٨) في الإحاطة: «على جفائي».
(٩) في الإحاطة: «واستنزل».
(١٠) في الإحاطة: «نابيًا».
(١١) المنسأة: العصا. لسان العرب (نسأ).
(١٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٧٨): «مستمشيًا».

النعل، راضيًا بغير النبيه من الثوب، مشفقًا من موافقة الغرور، هاجر الزخرف[١]، صادعًا بالحقّ في أسواق الباطل، كافًا عن السِّخال[٢] براثِنَ السباع. ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة بكر الحسنات بهذه الخطّة، بل بالجزيرة، فيما سلف من المدة، فتأتى بمنّة اللّه تعالى من صلاح السلطان وعفاف الحاشية والأمن ورَوْم[٣] الثغور وتثمير الجباية وإنصاف الحُمَاة والمُقَاتلة ومُقَارعة الملوك المجاورة في إيثار المصلحة الدينية والصَّدْع فوق المنابر ضمانًا من السلطان بتِرْيَاق سم الثورة وإصلاح بواطن الخاصّة والعامّة ما اللّه تعالى المجازي عليه، والمعوض من سهر خلعته على أعطافه، وخطر اقتحمته من أجْلِهِ، لا للشريد الأعفر، ولا للجُرد تمرح في الأرسان، ولا للبِدَر تثقل للأكتاد[٤] ، فهو الذي لا يضيع عمل من عمل ذكر أو أنثى سبحانه وتعالى. ومع ذلك فلم أعدم الاستهداف للشرور، والاستغراض للمحذور، والنظر الشزر المنبعث من خُزْر العيون، شيمة من ابتلاه اللّه تعالى بسياسة الدهماء، ورعاية سخطة أرزاق السماء، وقَتَلَة الأنبياء، وعَبَدَة الأهواء، مِمَّنْ لا يجعل للّه تعالى إرادة نافذة، ولا مشيئة سابقة، ولا يقبل معذرة، ولا يُجْمِل في الطلب، ولا يتلبّس مع اللّه بأدب، ربّنا لا تسلّط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، والحال إلى هذا العهد. وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعمائة[٥] . على ما ذكرته، أداله اللّه بحال السلامة، وبفيأة العافية، والتمتّع بالعبادة، وربّك يخلق ما يشاء ويختار: [مجزوء الكامل]

وعَـلَـيَّ أن أسـعـى ولـيــ ـس عـلـيّ إدراك الـنـجـاحِ

وللّه سبحانه فينا علمٌ[٦] غيبٍ نحن صائرون إليه، ألْحَفَنا اللّه بلباس[٧] التَّقْوَى، وختم لنا بالسعادة، وجَعَلَنا في الآخرة من الفائزين، نَفَثْتُ عن بثّ، وتأوّهْتُ عن حُمًى، ليظهر[٨] بعد المُنْقَلَب قصدي، ويَدُلُّ مكتتبي على عِقْدي. انتهى، وجُلّه بلفظه.

---

(١) في طبعة دار صادر: «هاجرًا للزخرف».
(٢) السِّخال: جمع سَخْلة وهي ولد الشاة. محيط المحيط (سخل).
(٣) في طبعة دار صادر: «ورمّ الثغور».
(٤) الأكتاد: جمع كتد وهو مجتمع الكتفين. لسان العرب (كتد).
(٥) في الإحاطة (ص ٤٤٦): «عام أحد وسبعين وسبعمائة».
(٦) في الإحاطة (ص ٤٤٧): «سِرُّ غيب».
(٧) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٧٩): «الباس».
(٨) في الإحاطة: «لِيُعْلَمَ».

وكان ـ رحمه الله تعالى! ـ عارفًا بأحوال الملوك، سريع الجواب، حاضر الذهن، حادَّ النادرة.

ومن حكاياته في حضور الجواب ما حكاه عن نفسه قال[1]: حضرت يومًا بين يدي السلطان أبي عنَان في بعض وفاداتي عليه لغرض الرسالة، وجرى ذِكْرُ بعض أعدائه، فقلت ما أعتقده في إطراء ذلك العدوّ، وما عرفته من فضله، فأنكر عليَّ بعضُ الحاضرين مِمَّنْ لا يحطب إلاّ في حبل السلطان، فصرفت وجهي وقلت: أيّدكم الله! تحقير عدوّ السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء، بل غير ذلك أحقّ وأولى، فإن كان السلطان غالبَ عدوّه كان قد غَلَبَ غير حقير، وهو الأولى بفخره، وجلالة قدره، وإن غلبه العدو لم يغلبه حقير، فيكون أشدَّ للحسرة، وآكد للفضيحة، فوافق ـ رحمه الله تعالى! ـ على ذلك واستحسنه، وشكر عليه، وخجل المعترض؛ انتهى.

وكان ـ رحمه الله تعالى! ـ مبتلىً بداءِ الأرق، لا ينام من الليل إلاّ النزر اليسير جدًّا، وقد قال في كتابه «الوصول، لحفظ الصحة في الفصول»: العَجَبُ مني ـ مع تأليفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلَّف مثله في الطب، وعملي ذلك ـ لا أقدر على مُدَاواة داء الأرق الذي بي، أو كما قال، ولذا يقال له «ذو العُمْرَين»؛ لأنَّ الناس ينامون في الليل وهو ساهر فيه، ومؤلفاته ما كان يصنّف غالبها إلاّ بالليل، وقد سمعت بالمغرب بعضَ الرؤساء يقول: لسان الدين ذو الوزارتين، وذو العمرين، وذو الميتتين، وذو القبرين؛ انتهى. وسيأتي ما يُعلم منه معنى الأخيرين.

وقد عرّف ـ رحمه الله تعالى! ـ بالسلطان أبي الحجاج في «الإحاطة» فقال ما حاصله[2]: يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر، الأنصاري الخزرجي، أمير المسلمين بالأندلس، أبو الحجاج. تولّى الملك بعد أخيه بوادي السقائين من ظاهر الخضراء ضحوة يوم الأربعاء ثالث عشر ذي الحجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، وسنُّه[3] خمسة عشر عامًا وثمانية أشهر. أُمُه أمُ ولد[4] وكان له ثلاثة أولاد كبيرهم محمد

---

(١) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٨٧).

(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣١٨ ـ ٣٢٠)، والمقري ينقل بتصرّف. وانظر أيضًا اللمحة البدرية (ص ١٠٢).

(٣) في الإحاطة «وسنُّه إذ ذاك ...».

(٤) في الإحاطة (ص ٣١٩): «أُمُّه أم ولد تسمّى بهارًا».

أمير المسلمين من بعده، وتِلْوه أخوه إسماعيل محجوره، وثالثهم قيس شقيق إسماعيل. وذكر لسانُ الدين أنه وَزَرَ له بعد شيخه ابن الجياب[1]، وتولّى كتابة سرّه مضافة إلى الوزارة في أُخريات شوّال عام تسعة وأربعين وسبعمائة؛ انتهى. وقد عُلم أنه وزر بعده لابنه محمد كما تقدّم ويأتي، وأما إسماعيل بن أبي الحجاج فهو الذي تغلّب على الأمر، وانتهز الفرصة في ملك أخيه محمد كما تقدّم، وفيه وفي أخيه قيس حين قُتِلا يقول لسان الدين: [الوافر]

بإسماعيل ثم أخيه قيسٍ

البيتين.

وقد ذكر أيضًا[2] . رحمه اللّه تعالى! . حكاية وفاة السلطان أبي الحجاج ما محصُله أنه هجم عليه رجل من عداد الممرورين، وهو في الركعة الأخيرة من صلاة عيد الفطر عام خمسة وخمسين وسبعمائة، فطعنه بخنجر، وقُبِضَ عليه، واسْتُفْهِم فتكلّم بكلام مُخَلّط، واحتُمل إلى منزله على فَوْت[3] لم يستقرّ به إلاّ وقد قضى، وأُخرج قاتله إلى الناس فقُتل لحينه، وأُحرق بالنار، ودُفن عشية اليوم المذكور في مقبرة قصره[4]، ضجيع والده، وولي أمره ولدُه محمد، ورثيته في غرض ناء عن الجزالة مختار ولده[5]: [الكامل]

العمرُ نومٌ، والمُنى أحلامُ[6]	ماذا عسى أن يستمرّ مُقامُ
وإذا تحقّقنا لشيء[7] بَدْأةً	فله بما تَقْضِي العقولُ تمامُ
والنفسُ تجمحُ في مدى آمالها	ركضًا، وتأبى ذلك الأيام
من لم يُصَبْ في نفسه فمصابه	بحبيبه، نَفَذَتْ بذا الأحكام
بعد الشبيبة كَبْرَةٌ، ووراءها	هَرَمٌ[8]، ومن بعدِ الحياة حِمامُ

(١) هو أبو الحسن بن الجياب كما في الإحاطة (ص ٣٢٠).
(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٣٣).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٨٢): «على فور ولم يستقرّ..».
(٤) في الإحاطة: «قصره لصق والده».
(٥) المرثية في الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٣٦ . ٣٣٨).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٨٣): «وأحلام» وهكذا ينكسر الوزن. وفي الإحاطة: «العمرُ يوم..».
(٧) في الإحاطة: «الشيء».
(٨) في الإحاطة: «هوم».

ولحكمةٍ ما أشرقت شُهْبُ الدُّجى وتعاقبَ الإصباحُ والإظلامُ
دنياك يا هذا محلَّةُ نُقلةٍ ومُناخُ رَكْبٍ ما لديه مقام
هذا أميرُ المسلمين ومَنْ به وُجِدَ السّماحُ وأُعْدِمَ الإعدام[1]
سرُّ الأمانة والخلافةِ يوسفٌ غيثُ الملوك وليثُها الضِّرْغَامُ
قصدته عاديةُ الزمان فأَقْصدتْ والعِزُّ سامٍ والخميسُ لهامُ
فُجعتْ به الدنيا وكُدِّرَ شِربُها وشكا العراقُ مصابَهُ والشامُ
أسفًا على الخُلق الجميل كأنما بدرُ الدُّجُنَّة قد جلاه تمام
أسفًا على العمر الجديد كأنه زَهْوُ[2] الحديقة زَهْرُهُ بَسّام
أسفًا على الخلق الرّضيّ كأنه زهرُ الرياضِ هَمَا عليه غمام
أسفًا على الوجه الذي[3] مهما بدا طاشتْ لنورِ جماله الأفهام
يا ناصِرَ الثَّغْر الغريب وأهلِهِ والأرضُ ترجفُ والسماء قَتَامُ
يا صاحبَ الصدقات[4] في جُنْحِ الدجى والناسُ في فُرش النعيم نيام
يا حافظَ الحَرَم الذي بِظلالِهِ سُتِرَ الأراملُ واكْتَسَى الأيتام
مولاي، هل لك للقصور زيارةٌ بعد انتزاحِ الدارِ أو إلْمَام
مولايَ هل لكَ للعبيد تذكُّرٌ حاشاكَ أن يُنْسَى[5] لديك ذِمامُ
يا واحدَ الآحادِ والعَلَمُ الذي خَفَقَتْ بعزّة نصرِهِ[6] الأعلامُ
وافاك أمرُ اللّه حين تكامَلَتْ فيك النُّهَى والجودُ والإقدام
ورحلتَ عنّا الركْبَ خيرَ خليفةٍ أثنى عليكَ اللّهُ والإسلام
نعم الطريقُ سَلَكْتَ كان رفيقُهُ والزادُ فيه تهجُّدٌ وصيام
وكسفتَ يا شمسَ المحاسن ضحوةً فاليومُ ليلٌ[7]، والضياءُ ظلام

---

(١) الإعدام: الفقر. لسان العرب (عدم).
(٢) في الإحاطة (ص ٣٣٧): «غَضُّ الحديقة».
(٣) في الإحاطة: «الذي يهمي ندًى».
(٤) في الإحاطة: «الصدمات».
(٥) في الإحاطة: «أن تنسى».
(٦) في الإحاطة: «بعزِّه نُصْرَةً».
(٧) في الإحاطة: «كيلٌ».

وسقاك عيدُ الفطر كأسَ شهادةٍ فيها من الأجَلِ الوحيِّ مُدام[1]
وخَتَمْتَ عُمْرَكَ بالصلاة فحبَّذا عَمَلٌ كريمٌ سَعْيُهُ وختام[2]
مولاي، كم هذا الرقاد؟ إلى متى بين الصفائح والترابِ تَنام
أَعِدِ التحيّةَ واحْتَبِسْها قُرْبةً إن كان يمكنك الغداةَ كلامُ
تبكي عليكَ مصانعٌ شيّدتها[3] بيضٌ كما تبكي الهديلَ حَمَامُ
تبكي عليك مساجدُ عَمَّرْتها فالناسُ فيها سُجَّدٌ وقِيام
تبكى عليك خلائقٌ أمّنتَها بالسلم وهي كأنها أنعام
عاملتَ وجه اللّه فيما رُمْتَهُ منها فلم يَبْعَدْ عليكَ مَرام
لو كنتَ تُفْدَى أو تُجارُ من الرَّدى بُذِلَتْ نفوسٌ من لَدُنْكَ كرام
لو كنتَ تُمْنَعُ بالصوارم والْقَنَا ما كان ركنُكَ بالغِلاب يُرام
لكنه أمرُ الإلٰه، وما لنا إلاّ رضًا بالحكم واستسلام
واللّه قد كتب الفناء على الورى وقضاؤه جَفَّتْ به الأقلام
نَمْ في جوارِ اللّهِ مسرورًا بما قدَّمْتَ يومَ تزلزلُ الأقدام
واعلمْ بأنَّ سَلِيلَ ملكك قد غدا في مستقرِّ عُلاك وهو إمام
ستر[4] تكنّف منه من خلَّفته ظِلٌّ ظليلٌ فهو ليس يُضام
كنت الحسامَ وصرتَ في غمد الثرى ولنصرِ ملكك سُلَّ منه حُسامُ
خلَّفتَ أُمَّةَ أحمدٍ لمحمدٍ فقضت بسعد الأُمَّة الأحكام
فهو الخليفةُ للورى في عهده تُرْعَى العهودُ وتُوصَلُ الأرحام
أبقى رسومَكَ كلَّها محفوظَةً لم ينتثرْ منها عليك نظام
العدلُ والشِّيَمُ الكريمةُ والتُّقى والدارُ والألقابُ والخُدّامُ
حسبي بأن أغشى[5] ضريحَكَ لاثمًا وأقولَ والدمعُ السفوحُ سِجَامُ
يا مدفَن التقوى ويا مَثْوَى الهدى منّي عليك تحيّةٌ وسلام

---

(١) في الإحاطة: «الأجل الحرمى مدام». والأجل الوحيّ: الموت السريع. محيط المحيط (وحى.
(٢) يريد أن يقول: كريم سعيه وختامه».
(٣) في الإحاطة: «شهدتها».
(٤) في الإحاطة (ص ٣٣٨): «بستر»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٥) في الإحاطة: أخشى».

أخفيتُ من حزني عليك، وفي الحشا نارٌ لها بين الضلوع ضرام
ولو أنني أدَّيْتُ حقَّكَ لم يكنْ لي بعد فقدكَ في الوجودِ مُقام
وإذا الفتى أدّى الذي في وسعه وأتى بِجَهْدٍ، ما عليه ملام

قال لسان الدين: وكتبت في بعض معاهده[1]: [السريع]

غِبْتَ فلا عَيْنٌ ولا مخبرٌ ولا انتظارٌ منكَ مرقوبُ
يا يوسفُ، أنتَ لنا يوسفٌ وكلُّنا في الحزن يعقوبُ

انتهى[2]؛ ورحم اللّه تعالى الجميع بمنّه! وقد قدّمنا ما كتبه لسان الدين على لسان سلطانه إلى السلطان أبي عنان في شأن قتل السلطان أبي الحجاج في الباب الثامن من القسم الأول.

وقال لسان الدين في كتابه «اللمحة البدرية، في الدولة النصرية» في ذكر ما يتعلّق بخلع سلطانه وقيام أخيه عليه خلال ذلك، ما نصُّه[3]: كان السلطان أبو عبد اللّه عند تصير[4] الأمر إليه قد ألزم أخاه إسماعيل قصرًا من قصور أبيه بجوار داره[5] مُرَفَّهًا، متمّمة وظائفه له[6]، وأسكن معه أمّه وأخواته منها، وقد استأثرت يوم وفاة والده بمال جمّ من خزائنه الكائنة في بيتها، فوجدت السبيل إلى السعي لولدها، فجعلت تواصل زيارة ابنتها التي عقد لها الوالد مع ابن[7] عمّه الرئيس أبي عبد اللّه بن الرئيس أبي الوليد بن الرئيس أبي عبد اللّه المبايع له بأَنْدَرَش بن الرئيس أبي سعيد جدّهم الذي تجمعهم جرثومته. وشمَّر الصهر المذكور[8] عن ساعد عزمِه وجِدّه وهو على ما هو عليه[9] من الإقدام، ومداخلة

(١) الإحاطة (جـ ٤ ص ٣٣٨). وسيرد البيتان في الجزء التاسع (ص ٢٠١) حيث قالهما في رثاء أبي الحجاج ابن الأحمر.
(٢) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٨٥).
(٣) اللمحة البدرية (ص ١٢٠ . ١٢٦).
(٤) في طبعة عبد الحميد «قصير».
(٥) في اللمحة البدرية: «قصره».
(٦) كلمة «له» ساقطة من اللمحة البدرية.
(٧) في اللمحة البدرية: «مع ابن ابن عمّه. .».
(٨) في اللمحة البدرية: «المذكور وهو ما هو من الإقدام ومداخلة ذؤبان الرجال عن ساعد جدّه، وراش وبرى واستعان. .».
(٩) كلمة «عليه» غير واردة في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٨٤).

ذؤبان الرجال، واستعان بمن أَسَفَّتْه الدولة، وهفت[1] به الأطماع. فتألّف منهم زهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعةِ متسنّمين شَفًا[2] صعب المرتقى، واتّخذوا آلة تدرك ذروته لقعود بنيّة كانت به عن التمام، وكبسوا حَرَسِيًّا بأعلاه بما اقتضى صُماته، فاستووا به، ونزلوا إلى القلعة سَحَور[3] الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبعمائةٍ، فاستظهروا بالمشاعل والصراخ، وعالجوا دار الحاجب رضوان[4]، ففضوا أغلاقها ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده، وانتهبوا ما اشتملت عليه داره، وأسرعت طائفة مع الرئيس الصهر[5] فاستخرجت الأمير المعتقَل إسماعيل، وأركبته، وقرعت الطبول، ونودي بدعوته. وقد كان أخوه السلطان متحوّلاً بولده إلى سكنى الجنّة المنسوبة للعريف لصق داره، وهي المثل المضروب في الظل الممدود، والماء المسكوب، والنسيم البليل، يفصل بينها وبين معقل الملك السور المنيع والخندق المصنوع، فما راعه إلاّ النداء والعجيج وأصوات الطبول، وهبَّ إلى الدخول إلى القلعة[6] فألفاها قد أُخذت دونه شِعابُها كلّها ونقابها، وقذفته الحراب، ورشقته السهام، فرجع أدراجَهُ، وسدده اللّه تعالى في محلّ الحَيْرة، ودَسَّ له عرق الفحول من قومه، فامتطى صَهْوَة فرس كان مرتبطًا عنده، وصار[7] لوجهه فأعيا المتَّبع، وصبح مدينة وادي آش، ولم يشعر حافظ قصبتها إلاّ به، وقد تولج عليها [8]، فالتفّ[9] به أهلها وأعطوه صَفْقتهم بالذبِّ عنه، فكان أملك بها، وتجهّزت الحشود إلى منازلته، وقد جدّد أخوه المتغلّبُ على ملكه عقدَ السلم مع طاغية قَشْتَالة باحتياجه إلى سلم المسلمين لجرّاء فتنة بينه وبين البرجلونيين من أمته. واغتبط به أهلُ المدينة، فذبُّوا عنه، ورَضُوا بهلاك نعمتهم دونه، واستمرّت الحال إلى يوم عيد النحر[10] من عام التاريخ.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٨٦): «وهتفت».

(٢) متسنّمين: مرتفعين. الشُفا: حرف كلّ شيء وحدّه، والمراد هنا الجدار أو نحوه. محيط المحيط (شفى).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «سحر».

(٤) كلمة «رضوان» ساقطة من اللمحة البدرية (ص ١٢١).

(٥) كلمة «الصهر» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٨٦).

(٦) في اللمحة البدرية: «للقلعة».

(٧) في اللمحة البدرية: «وسار».

(٨) في اللمحة البدرية: «تولج عليه بابها».

(٩) في طبعة عبد الحميد: «فالتفّت».

(١٠) في اللمحة البدرية: «عيد الفطر».

ووصله رسولُ صاحب المغرب مستنزلاً عنها ومستدعيًا إلى حضرته، لما عجز عن إمساكها، وراسل ملك الروم فلم يجد عنده من مُعَوَّل، فانصرف ثاني يوم عيد النحر المذكور، وتبعه الجمعُ الوافر من أهل المدينة خيلاً ورَجْلاً إلى مربلّة من ساحل إجازته. وكان وصوله إلى مدينة فاس مصحوبًا[1] من البرّ والكرامة بما لا مزيد عليه في السادس من شهر محرّم فاتح عام أحد وستين وسبعمائة. وركب السلطان للقائه[2]، ونزل إليه عندما سلّم عليه، وبالغ في الحفاية به، وكنتُ قد ألحقت[3] به مُفْلتًا من شَرَك النكبة التي استأصلت المال، وأوهمت سوء الحال[4]، بشفاعة السلطان أبي سالم قدّس اللّه روحه. فقمت بين يديه في الحَفل المشهود يومئذ وأنشدته[5]: [الطويل]

سَلاَ هلْ لَدَيْها مِنْ مُخَبِّرَةٍ ذِكْرُ ... وهل أَعْشَبَ الوادي ونَمَّ به الزَّهْرُ
وهل باكَرَ الوَسْميُّ[6] دارًا على اللّوَى ... عَفَتْ آيَهَا إلاَّ التَّوَهُّمُ والذِّكْر
بلادي التي عاطيتُ مشمولَةَ الهوى ... بأكنافها والعيشُ فَيْنانُ مُخْضَرُّ
وجوّي الذي رَبَّى جناحي وكره ... فها أنا ذا ما لي جناحٌ ولا وكرُ
نَبَتْ بيَ لا عن جفوةٍ وملالةٍ ... ولا نَسَخَ الوصلَ الهنيءَ بها هجرُ
ولكنها الدنيا قليلٌ متاعُها ... ولذاتها دأبًا تزورُ وتَزْوَرُّ
فمن لي بقرب العهد منها ودوننا ... مَدًى طال حتى يومُه عندنا شهر
وللّه عينا من رآنا وللأسى ... ضرامٌ له في كلّ جانحة جمر
وقد بَدَّدَتْ درّ الدموع يَدُ النوى ... وللشوق[7] أشجانٌ يضيقُ لها الصدر
بكينا على النهر الشَّروب[8] عشيَّةً ... فعادَ أُجاجًا بعدنا ذلك النهر
أقولُ لأظعاني وقد غَالَهَا السُّرَى ... وآنَسَها الحادي وأوحَشَها الزجرُ

---

(١) في اللمحة البدرية (ص ١٢٢): «مُضْحَبًا من البرّ وكرامة القدوم».
(٢) في اللمحة البدرية: «إلى تلقّيه».
(٣) في اللمحة البدرية: «الحقت».
(٤) في اللمحة البدرية: «المآل».
(٥) هذه القصيدة أيضًا في العبر (م ٧ ص ٦٣٨ـ ٦٤٢) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ١٩٦).
(٦) الوسميّ: المطر أول الربيع. لسان العرب (وسم).
(٧) في العبر: «وللبين».
(٨) في العبر: «السرور».

رُوَيْدَكِ بعد العُسْرِ يسرٌ أن ٱبشري[1]   بإنجاز وَعْدِ اللّه، قد ذهبَ العُسْرُ

ولـلّـه فـيـنـا سـرُّ غـيـبٍ، وربـمـا   أتى النفعُ من حالٍ أُريد بها الضُّرُّ

وإن تَـخُـنِ الأيامُ لـم تـخـنِ الـنُّـهى   وإن يخذلِ الأقوامُ لم يخذلِ الصبرُ[2]

وإن عركَتْ مني الخطوبُ مجرّبًا   نقابًا[3] تساوى عنده الحلو والمُرُّ

فقد عَجَمَتْ عودًا صليبًا على الردى   وعَزمًا كما تمضي المهنّدة البُتْرُ[4]

إذا أنتَ بالبيضاء قررتَ منزلي[5]   فلا اللحمُ حِلٌّ ما حييتَ ولا الظهر

زَجَرْنا بإبراهيمَ بُرْءَ همومِنا   فلمّا رأينا وجهه صَدَقَ الزجْرُ

بمنتجبٍ من آل يعقوبَ كلّما   دجا الخطبُ لم يكذب لعزمته فجرُ[6]

تناقلتِ الركبانُ طيبَ حديثه   فلمّا رأته صَدَّقَ الخبَرَ الخُبْرُ

نَدًى لو حواه[7] البحرُ لذَّ مذاقُهُ   ولم يتعقّبْ مَدَّهُ أبدًا جزرُ

وبأسٌ غدا يرتاعُ من خوفه الردى   وتَرْفلُ في أثوابه الفتكةُ[8] البِكْرُ

أطاعته حتى العُصْمُ في قُنَن[9] الرُّبى   وهَشَّتْ إلى تأميله الأنجمُ الزُّهْرُ

قصدناك يا خيرَ[10] الملوكِ على النوى   لتنصفنا مِمّا جنى عبدُكَ الدهرُ

كففنا بكَ الأيامَ عن غُلَوائها   وقد رابنا منها التعسُّفُ والكِبْرُ

وعُذْنا بذاك المجد فانصرَمَ الرَّدى   ولُذْنا بذاكَ العزمِ فانهزمَ الذُّعْرُ

ولمّا أتينا البحرَ يُرْهَبُ موجُهُ   ذكرْنا نداكَ[11] الغمرَ فاحتُقر البحر

---

(١) في اللمحة البدرية: «يسرانِ أبشري». وفي العبر: «يسرٌ فأبشري».

(٢) في العبر: «وإن تَجْبُنِ الأيامُ لم يَجْبُنِ النُّهى، وإن تُخْذَل..».

(٣) في العبر (ص ٦٣٩): «نفاقًا».

(٤) في العبر: «صليبًا على النوى..». والمهنّدة: السيوف المصنوعة في الهند. البُتْرُ: القاطعة، واحدها باتر. لسان العرب (هند) و (بتر).

(٥) في العبر: «بالبيضاء قد زرت منزلي».

(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٨٦): «بمنتجب من آل..». وفي العبر: «العزمته فخر».

(٧) في اللمحة البدرية: (ص ١٢٣): «حواها».

(٨) في العبر: «البَتْكَةُ».

(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٨٨): «فنن».

(١٠) في العبر: «يا مولى».

(١١) في العبر: «ذكرنا بذاك الغَمْر..».

خلافتك العظمى ومَنْ لم يَدِنْ بها ... فـإيـمـانُـهُ لـغـوٌ وعِـرفـانُـهُ نُـكْـرُ
ووصفك يهدي المدحَ قصدَ صوابه [1] ... إذا ضلَّ في أوصافِ مَنْ دونك الشعرُ
دعتك قلوبُ المؤمنين[2] وأخلصتْ ... وقد طاب منها السرُّ للّه والجهر
ومَـدَّتْ إلـى الـلّـه الأكـفَّ ضَـرَاعَـةً ... فقال لهنّ اللّه: قد قُضِيَ الأمرُ
وألبسها النعمى ببيعتك التي ... لها الطائرُ الميمونُ والمحتِدُ[3] الحرُّ
فأصبح ثَغْرُ الثغرِ يبسمُ ضاحكًا ... وقد كان مِمّا نابَهُ ليس يَفْتَرُّ
وأَمَّـنْـتَ بـالـسـلـم الـبـلادَ وأهـلَـهَـا ... فلا ظُبَةٌ تَغْرَى[4] ولا روعةٌ تعرو
وقد كان مولانا أبوك مُصَرِّحًا ... بـأنـك فـي أبـنـائـه الـولـدُ الـبَـرُّ
وكنتَ حقيقًا بالخلافةِ[5] بعده ... على الفورِ، لكنْ كلُّ شيء له قَدْرُ

وأَوْحَشْتَ[6] من دار الخلافة هالةً ... أقامتْ زمانًا لا يلوح بها البدرُ
فردٌ[7] عليك اللّهُ حَقَّكَ إذ قضى ... بأن تشملَ النُّعمى وينسدلَ الستر
وقاد إليك المُلْكَ رفقًا بخلقه ... وقد عدموا ركنَ الإمامة[8] واضطرّوا
وزادكَ بالتمحيص[9] عزًّا ورفعةً ... وأَجْرًا، ولولا السَّبْكُ ما عُرف التبرُ
وأنتَ الذي تُدْعَى إذا دَهَمَ الرَّدى ... وأنت الذي تُرْجى إذا أَخْلَفَ القطر
وأنـت إذا جـارَ الـزمـانُ مـحـكَّـمٌ ... لك النقضُ والإبرامُ والنَّهْيُ والأمرُ
وهذا ابنُ نصر قد أتى وجناحُهُ ... مَهِيضٌ[10]، ومن علياك يُلْتَمَسُ الجبر
غريبٌ يرجّي منك ما أنتَ أَهْلُهُ ... فإن كنتَ تَبْغِي الفخرَ قد جاءك الفخرُ

---

(١) في اللمحة البدرية: «ثوابه».
(٢) في العبر: «المسلمين».
(٣) المحتد: الأصل والنسب. لسان العرب (حتد).
(٤) في العبر (ص ٦٤٠): «فلا ضَيْمَةٌ تعدو».
(٥) في اللمحة البدرية: «وكنت خليقًا بالإمارة».
(٦) في العبر: «فأوحشت».
(٧) في العبر: «ورَدَّ».
(٨) في العبر: «الأمانة».
(٩) التمحيص: الابتلاء والاختبار. لسان العرب (محص).
(١٠) في العبر: «كسير». والجناح المهيض: الضعيف؛ يقال: هاض فلانٌ العظمَ إذا كسره بعدما انجبر. لسان العرب (هيض).

فَفُزْ يا أميرَ المسلمين ببيعةٍ ... موثّقة قد حلَّ عروتَها الغدرُ[1]

ومِثْلُكَ من يرعى الدخيلَ ومن دعا ... بيا لَمَرِينٍ[2] جاءه العِزُّ والنصر

وخُذْ يا إمامَ الحقّ بالحقِّ[3] ثأرَهُ ... ففي ضِمْنِ ما تأتي به العِزُّ والأجر

وأنتَ لها يا ناصرَ الحقِّ فَلْتَقُمْ ... بحقّ فما زيدٌ يرجّى ولا عمرو

فإنْ قيل مالٌ، مالُكَ الدَّثْرُ وافرٌ ... وإن قيل جيش، عندك العسكرُ المَجْرُ[4]

يُكَفُّ بك العادي، ويحيا بك الهدى ... ويَبْنِي بك الإسلامُ ما هدم[5] الكفر

أعِدْهُ إلى أوطانه عنك راضيًا[6] ... وطوّقْهُ نُعْماك التي ما لها حَصْرُ

وعاجِلْ قلوبَ الناسِ فيه بِجَبْرِها ... فقد صَدَّهُمْ عنه التغلُّبُ والقَهْرُ

وهم يرقبونَ الفعلَ منكَ وصَفْقَةً ... تحاولها يمناكَ ما بعدها خُسْرُ

مَرَامُكَ سهلٌ لا يَؤُودُكَ كُلْفَةٌ[7] ... سوى عَرَضٍ ما إن له في العلا خَطْرُ

وما العمرُ إلاّ زينةٌ مستعارةٌ ... تُرَدُّ، ولكنَّ الثناءَ هو العمرُ

ومن باعَ ما يفنى بباقٍ مخلَّدٍ ... فقد أُنجح المسعى وقد رُبحَ التَّجْرُ

ومن دون ما تبغيه يا ملكَ الهدى[8] ... جيادُ المذَاكي والمحجَّلَةُ الغُرُّ

وِرَادٌ وشُقْرٌ واضحاتٌ شِياتُها[9] ... فأجسامُها تِبْرٌ وأرجلُها دُرُّ

وشُهْبٌ إذا ما ضُمِّرتْ يومَ غارةٍ ... مُطَهَّمَةٍ غارتْ بها الأنجمُ الزُّهْرُ

وأُسْدُ رجالٍ من مَرِينَ مُخيفةٌ[10] ... عمائمُها بيضٌ وآسالُها سُمْرُ

---

(١) في اللمحة البدرية (ص ١٢٤): «يا أمير المؤمنين». وفي العبر: «فَعُذْ يا أمير المسلمين لبيعةٍ.. حلَّ عقدتها..».

(٢) في العبر: «بآل مرينٍ».

(٣) في العبر: «للحقِّ».

(٤) العسكر المَجْرَ: الجيش الكثيف. القاموس المحيط (مجر).

(٥) في اللمحة البدرية: «ما هدي».

(٦) في العبر: «ثانيًا».

(٧) في اللمحة البدرية: «لا تؤودُك كلفةٌ». وفي العبر (ص ٦٤١): «لا يؤدك كَفْلُهُ». لا يؤودك: لا يثقل عليك.

(٨) في اللمحة البدرية (ص ١٢٥): «يا ملك العلى». وفي العبر: «ما يبغيه يا مالك العلا».

(٩) الوارد: جمع وِرد وهو الفرس الأحمر الضارب إلى الصفرة. الشُقْرُ: جمع أشقر وهو من الخيل ما كان لونه بين الذهبي والأحمر. لسان العرب (ورد) و (شقر).

(١٠) في العبر: «أَعِزَّةٌ».

عليها من الماذيّ كلُّ مُفَاضةٍ[1] ... تَدافَعُ في أعطافها اللُّجَجُ الخُضْرُ
هُمُ القومُ إن هبُّوا لكشفِ مُلِمَّةٍ ... فلا الملتقى صعبٌ ولا المرتقى وَعْرُ
إذا سئلوا أعطوا، وإن نوزعوا سَطَوْا ... وإن واعدوا وفوا، وإن عاهدوا برُّوا
وإن مُدِحوا اهتزّوا ارتياحًا كأنهم ... نشاوى تمشَّتْ في معاطفهم خمرُ
وإن سمعوا العوراء فروا بأنفسٍ ... حرامٌ على هاماتها[2] في الْوَغَى الْفَرُّ
وتَبْسِمُ ما بين الوشيج[3] ثغورُهُمْ ... وما بين قُضْبِ الدَّوْحِ يبتسم الزَّهر
أمولايَ، غاضت فكرتي، وتبلَّدَتْ ... طباعي، فلا طبعٌ يُعين ولا فِكْرُ
ولولا حنانٌ منك داركْتَني به ... وأَحْيَيْتني[4] لم تبق عينٌ ولا أَثْرُ
فأوجدْتَ مني فائتًا أيَّ فائت ... وأنشرتَ مَيْتًا ضمَّ أشلاءه قبرُ[5]
بدأتَ بفضلٍ لم أكنْ لعظيمه ... بأهلٍ، فجلَّ اللطفُ وانفرجَ الصدرُ[6]
وطَوَّقْتَني النعمى المضاعفةَ التي ... يقلُّ عليها منيَ الحمدُ والشكر
وأنت بتتميم الصنائع كافلٌ ... إلى أن يعودَ الجاهُ والعِزُّ والوَفْرُ[7]
جزاكَ الذي أسنى مقامك عصمةً ... يُفَكُّ بها عانٍ ويُنْعِشُ مضطرُّ[8]
إذا نحن أثنينا عليكَ بمدحةٍ ... فهيهات يُحْصَى الرملُ أو يُحْصَرُ القطر
ولكننا نأتي بما نستطيعُهُ ... ومن بذل المجهودَ حَقَّ له العُذْرُ

فلا تسأل عن امتعاض وانتفاض[9]، وسداد أنحاء في التأثر لنا وأغراض، والله غالب على أمره.

وفي صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال عام اثنين وستين وسبعمائة كان

---

(١) الماذيّ: كل سلاح من الحديد. المفاضة: الدرع. محيط المحيط (مذى) و (فيض).
(٢) في اللمحة البدرية وفي العبر: «هِمَّاتها».
(٣) الوشيج: شجر الرماح، والمراد الرماح. محيط المحيط (وشج).
(٤) في اللمحة البدرية: «وأحييتني».
(٥) في اللمحة البدرية: «القبر».
(٦) في اللمحة البدرية: «الحصر».
(٧) في اللمحة البدرية والعبر: «يعود العِزُّ والجاه والوَفْرُ».
(٨) في اللمحة البدرية: «سنَّى مقامك..». وفي العبر: «مقامك رحمة تَفُكُّ بها العاني..».
(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٩١): «وإنغاض».

انصرافه إلى الأندلس. وقد ألحَّ صاحب قشتالة في طلبه، وترجح الرأي على قصده[1]، فقعد السلطان بقية العرض من جنة المصارة، وبرز الناس وقد أسمعهم[2] البريح، واستحضرت البنود[3] والطبول والآلة، وأُلبس خلعة الملك، وقيّدت له مراكبه، فاستقلّ، وقد التفَّ عليه كلّ من جلا[4] عن الأندلس من لَدُن الكائنة في جملة كثيفة، ورأى[5] من رقة الناس وإجهاشهم وعلوّ أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد، إذ كان مظنّة ذلك سكونًا وعفافًا وقربًا قد ظلّله اللّه برواق الرحمة، وعطف عليه وشائج المحبّة، إلى كونه مظلوم العقد، منتزع الحقّ، فتبعته الحواطِ، وحميت عليه الأنفس، وانصرف لوجهته. وهو الآن برُنْدة[6] مستقلّ بها وبجهاتها [ومتعلّل بألقاب][7]، ومقتنع برسم سلطنتها[8]، وقد قام له برسم الوزارة الشيخ القائد أبو الحسن علي بن يوسف بن كماشة الحضرمي[9]، وبكتابته الفقيه أبو عبد اللّه بن زَمْرك، وقد استفاض عنه من الحزم والتدرّب والتيقّظ للأمور والمعرفة بوجوه المصالح ما لا ينكر، كان اللّه لنا وله بفضله! انتهى كلام لسان الدين بن الخطيب في «اللمحة البدرية».

وقد علمت أنه بعد هذا التاريخ عاد سلطانه إلى حضرة غرناطة، واستبدّ بملك الأندلس، وعاد لسان الدين إليه حسبما أحسن سياق ذلك لسان الدين رحمه اللّه تعالى في كتاب من إنشائه على لسان سلطانه الغني باللّه، وخاطب به ملك الحرمين ومصر والشام السلطان المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون، وقد ذكرنا منه ما يتعلّق بالأندلس في الباب الثاني من القسم الأول[10]، وقال بعد ذلك فيما يتعلّق بالخلع المذكور ما نصّه: ولمّا

---

(١) في اللمحة البدرية (ص ١٢٦): «على نصره».
(٢) في اللمحة البدرية: «وقد أخذهم».
(٣) في اللمحة البدرية: «الجنود».
(٤) في اللمحة البدرية: «انجلى».
(٥) في اللمحة البدرية: «وتلا من رنة الناس».
(٦) في اللمحة البدرية: «مستقلٌ برندة وجهاتها».
(٧) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.
(٨) كلمة «وسلطنتها» غير واردة في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٩٠) ولا واردة في اللمحة البدرية.
(٩) في اللمحة البدرية: «يوسف الحضرمي بن كماشة المستفيض عن تصرفاته عدم النجح أمرًا مطردًا، وبكتابته الفقيه أبو الحسن علي بن عبد اللّه بن الحسن الجذامي المالقي، وأبو عبد اللّه بن زمرك».
(١٠) تقدم ذلك في الجزء الأول (ص ٣٠٦ ـ ٣١٣) في رسالة لسان الدين إلى أحمد بن قلاوون.

صيّر اللّهُ إلينا تراثهم الهني، وأمرهم السني، وبناءهم العادي، وملكهم الجهادي، أجرانا. وله الطَّوْل[1]. على سننهم، ورفع أعلامنا في هضابهم المشرفة وقُنَنِهم، وحملنا فيهم خير حمل، ونظم بنا لهم أي شَمْل، وألبس أيامنا سلمًا فسح الدارة، وأحكم الإدارة، وهنأ الإمارة، ومكن العمارة، وأمن في البحر والبرّ السيارة والعبارة، لولا ما طرقهم فينا من تمحيص أجلى عن تخصيص، وتمحَّصَ تبره بعد تلخيص ومَرَام عَويص، نبثُّكم بَثَّه، ونوالي لديكم حثّه، ونجمع مُنْبَثَّه، فإنَّ في الحوادث ذكرًا، ومعروف الدهر لا يؤمن أن يعود نُكْرًا، وشرّ الوجود معاقَبٌ بخيره، والسعيد من اتّعظ بغيره، والحزم أفضل ما إليه يُنتسب، وعقل التجربة بالمرائة يُكتسب، وهو أنّ بعضًا مِمّن ينسب إلينا بوشائج الأعراق، لا بمكارم الأخلاق، ويمتُّ إلينا بالقرابة البعيدة، لا بالنصبة السعيدة، مِمَّنْ كفلناه يَتيمًا، وصُنّاه ذميمًا شتيما[2]، وبوّأناه مُبَوّأ كريمًا، بعد أن نشأ حرفوشًا دميمًا، وملعونًا لئيمًا، ونوّهناه من خموله بالولاية، ونسخنا حكم نسجه[3] بآية العناية، داخل إخاء[4] لنا كنّا ألزمناه الاقتصار على قَصْره، ولم نجعل أداة تدل على حَصْره، وسامحناه في كثير من أمره، ولم نرتب بزَيْدِه ولا عَمْره، واغتررنا برَمَاد علا على جَمْره، فاستدعى له من الصعاليك شيعة[5]، كلّ دَرِبٍ بفكّ الأغلاق، وتسرّب أنفاق النفاق، وخارق للإجماع والإصفاق، وخبير بمكان الخراب ومذاهب الفُسَّاق، وتسوّر بهم القلعة من ثلم شرع في سدّه، بعد هدّه، ولم تكمل الأقدار المميزة في ليلة آثرنا مبيتنا ببعض البساتين خارج قصورنا، واستنبنا من يضطلع بأمورنا، فاستتم الحيلة التي شرعها، واقتحم القلعة وافترَعها، وجدّل حَرَس النوبة وصَرَعَها، وكبس محلّ النائب عنّا وجَدَّله، ولم ينشب أن جدّ[6] له، واستخرج الأخ البائس فنصبه، وشدّ به تاج الولاية وعَصَبه، وابتزّ أمرنا وغصبه. وتوهّم الناسُ أنّ الحادثة على ذاتنا قد تمّتْ، والدائرة بنا قد ألمتْ ولقد همتْ، فخذل الناصر، وانقطعت الأواصر، وأقدم المتقاصر، واقتحمت الأبهاء والمقاصر، وتفرّقت الأجزاء وتحلّلت العناصر، وفقد

---

(١) الطَّوْلُ: الفضل. لسان العرب (طول).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٩٢): «شنيما».

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٩١): «تسخّبه».

(٤) في طبعة دار صادر: «أخًا».

(٥) في طبعة دار صادر: «شيعته».

(٦) في طبعة دار صادر: «عنّا وجدّ له.. أن جدّ له».

من عين الأعيان النور الباصر، فأعطوه طاعة معروفة، وأصبحت الوجوه إليه مصروفة، وركضنا وسَرَعَانُ الخيل تقفو أثر منجاتنا والظلام يخفيها، وتكفي علينا السماء والله يكفيها، إلى أن خلصنا إلى مدينة وادي آش خلوص القمر من السِّرار[1]، لا نملك إلاَّ نفسًا مُسَلِّمة لحكم الأقدار، ملقية الله مقَادة الاختيار، مسلوبة بموجب الاستقرار، وناصحنا أهل تلك المدينة فعملوا على الحصار، واستبصروا في الدفاع عنّا أتمّ الاستبصار، ورَضُوا لبيوتهم المُصْحِرة، وبساتينهم المستبحرة، بفساد الحديد وعياث النار، ولم يرضوا لجوارهم بالإخفار، ولا لنفوسهم بالعار، إلى أن كان الخروج عن الوطن بعد خطوب تسبح فيها الأقلام سبحًا طويلاً، وتوسعها الشجون شرحًا وتأويلاً، وتلقي القصص منها على الآذان قولاً ثقيلاً، وجُزنا البحر وضلوعُ مَوْجِهِ إشفاقًا علينا تخفق، وأكفُّ رياحه حسرةً تصفق، ونزلْنا من جناب سلطان بني مَرين على المَثْوى الذي رَحُب بنا ذَرْعُه، ودلّ على كرم الأصول فَرْعُه، والكريم الذي وهب فأجزل، ونزل لنا عن الصَّهْوة وتنزّل، وخير وحكم، وردَّ على الدهر الذي تهكم، واستعبر وتبسّم، وآلى وأقسم، وبَسْمَل وقدّم، واستركب لنا واستخدم. ولـمّا بدا لمن ورائنا سيئاتُ ما كسبوا، وحقّقوا ما حسبوا، وطفا الغُثَاء[2] ورَسَبوا، ولم ينشب الشقي الخزي أن قتل البائس الذي موّه بزيفه، وطوّفه بسيفه، ودل ركب المخافة على خيفه، إذ أمن المضعوف من كيده، وجعل ضرغامه بازيًا لصيده[3]، واستقلّ على أريكته، استقلال الظليم على تريكته، حاسر الهامة، متنفقًا بالشجاعة والشهامة، مستظهرًا بأول الجهالة والجهامة، وساءت في محاولة عدوّ الدين سيرته، ولـمّا حصحص الحقُّ انكشفت سريرتُه، وارتابت لجبنه المستور جِيرتُه، وفتح[4] عليه طاغية الروم فمه، فالتقمه[5]، ومدّ عليه الصليبُ ذراعه، فراعه، وشدّ الكفر عليه يده، فما عضده الله ولا أيَّدَه، وتخرّمت ثغورُ الإسلام بعد انتظامها، وشكت إليه باهتضامها، وغصت بأشلاء عباد الله وعظامها، ظهورُ أوضامها، ووكلت السنّة والجماعة، وانقطعت من النُّجح

---

(١) السِّرار: آخر ليلة من الشهر. لسان العرب (سرر).

(٢) الغُثاء: رغوة القِدْر، أو ما يجرفه السيل. لسان العرب (غثا).

(٣) أخذه من قول المتنبي: [الطويل]

وَمَنْ يجعل الضِّرْغامَ للصَّيْدِ بازَهُ ... تَصَيَّدَهُ الضِّرْغام فيما تَصَيَّدا

ديوان المتنبي (ص ٣٨٧).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٩٢): «وفغر».

(٥) التقمه: ابتلعه. لسان العرب (لقم).

الطَّمَاعة، واشتدّت المجاعة، وطَلَعَتْ شمسُ دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة، وركبنا[1] البحر تكاد جهتاه تتقاربان[2] تيسيرًا، ورياحُه لا تعرف في غير وجهتنا مَسيرًا، وكأنّ ماءه ذوب لقي إكسيرا[3]، ونهضنا يتقدَّمُنا الرعب ويَتَّقِدُ منّا الدعاء، وتجأجىء بنا الإشارة ويحفزنا الاستدعاء. وأقصر الطاغية عن البلاد بعد أن ترك ثغورها مهتومة[4]، والإخافة عليها محتومة، وطوابعها مفضوضة وكانت بنا مختومة، وأخذت الخائنَ الصيحة فاختبل، وظهر تهوّره الذي عليه جُبِل، فجمع أوباشه السِّفْلَة وأوشابه، وبَهْرَجه الذي غشّ به المحض وَشَابه، وعمد إلى الذخيرة التي صانتها الأغلاق الحريزة، والمعاقل العزيزة، فملأ بها المناطق، واستوعب الصامت والناطق والوُشُحَ والقراطق، واحتمل عُدَدَ الحرب والزينة، وخرج ليلاً عن المدينة، واقتضت آراؤه الفائلة[5]، ونعامته الشائلة، ودَوْلَةُ بغيه الزائلة، أن يقصد طاغية الروم بقَضِّه وقَضِيضه، وأوْجِهِ وحضيضه، وطويله وعريضه، من غير عهد اقتضى وثيقته، ولا أمر عرف حقيقته، إلاّ ما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة، واستئصال الأمة المسلمة، فلم يكن إلاّ أن تحصَّل في قَبْضته، ودنا من مضجع رَبْضَته، واستشار نصحاءه في أمره، وحكم الحيلة في جناية غدره، وشهره ببلده، وتولّى قتله بيده، وألحق به جميعَ مَن أمدّه في غيّه، وظاهره على سوء سَعْيه، وبعث إلينا برؤوسهم فنُصبت بمسور غدرها، وقلّدت لبة تلك البنية بشذرها، وأصبحت عبرة للمعتبرين، وآية للمستبصرين، وأحقّ اللّه الحقَّ بكلماته وقَطَع دابر الكافرين. وعُذنا إلى أريكة ملكنا كما رَجَعَ القمرُ إلى بيته، بعد كيته وكيته، أو العقد إلى جِيدِه، بعد انتثار فَريده، أو الطير إلى وَكْره، مُفْلتًا من غَوْل الشرك ومكره، ينظر الناس إلينا بعيون لم تروَ مذ غِبْنَا من مُحَيًا رحمة، ولا طَشَّتْ[6] عليها بعدنا غمامة رحمة، ولا باتت للسياسة في ذِمَّة، ولا ركنت لدين ولا همّة، فطوينا بساط العتاب طيَّ الكتاب، وعاجلنا سطور المؤاخذة بالاضطراب، وآنسنا نفوسَ أُولي الاقتراف[7] بالاقتراب، وسَهَّلنا الوصول إلينا، واستغفرنا

---

(١) في طبعة دار صادر: «وأجزنا».

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٩٤): «تتقارب».

(٣) الإكسير: ما يلقى على الفضة وغيرها فيحوّلها إلى ذهب خالص. محيط المحيط (كسر).

(٤) مهتومة: مكسورة. لسان العرب (هتم).

(٥) الفائلة: الضعيفة. محيط المحيط (فيل).

(٦) طَشَّتْ: أمطرت مطرًا ضعيفًا. لسان العرب (طشش).

(٧) أُولي الاقتراف: أصحاب الذنوب. لسان العرب (قرف).

اللّه لنفسنا ولمن جنى علينا، فلا تسألوا عمَّا أثار ذلك من استدراك نَدَم، ورسوخ قَدَم، واستمتاع بوجود بعد عدم، فسبحان الذي يُمَحِّص[١] ليثيب، ويأمر بالدعاء ليجيب، وينبّه من الغفلة ويهيب، ويجتبي إليه مَنْ يشاء ويَهْدي إليه من ينيب[٢]. ورأينا أن نطالع علومكم الشريفة بهذا الواقع تسبّبًا للمفاتحة المعتمدة، وتمهيدًا للموالاة المجدّدة، فأخبار الأقطار مِمّا تنفقه الملوك على أسمارها، وتَرْقُمُ ببدائعه هالات أقمارها، وتستفيد منه حُسْنَ السِّيَر، والأمان من الغِيَر، وتستعين على الدهر بالتجارب، وتستدلّ بالشاهد على الغائب، وبلادُكم ينبوعُ الخير وأهله، ورواقُ الإسلام الذي يأوي قريبه وبعيدُه إلى ظلّه، ومطلع نور الرسالة، وأُفق الرحمة المنثالة، منه تقدم علينا الكواكب تضرب آباط أفلاكها، وتتخلّل مداريها المذهبة غدائر أحلاكها، وتستعلي البدور، ثم يدعوها إلى المغرب الحدور، وتطلع الشمسُ منجردة من كمائم ليلها، متهادية في دركات ميلها، ثم تسحب إلى الغروب فَضْلَ ذيلها، ومن تلقائكم ورد العلم والعمل، وأرعي الهمل. فنحن نستوهب من مظانِّ الإجابة لديكم دعاء يقوم لنا مقام المدد، ويعدل منه الشيء بالمال والعدد، ففي دعاء المؤمن بِظَهْر الغَيْب ما فيه مِمّا ورد، وإياه سبحانه نسأل أن يدفع عنّا وعنكم دواعي الفتن، وغوائل المِحَن، ويحملنا على سَنَن السُّنَن، ويُلْبِسنا من تقواه أوقى الجُنَن[٣]، وهو سبحانه يصل لأبوّتكم ما تسقلّ لدى قاضي القضاة رسومُه، فَتُكْتَبُ حقوقه وتُكبت خصومُه، ولا تكلفه الأيام ولا تسومه، بفضل اللّه وعزّته، وكرمه ومنّته، والسلام الكريم الطيب المبارك بَدْءًا بعد عَوْد، وجَوْدًا[٤] إثر جَوْد، ورحمة اللّه تعالى وبركاته؛ انتهى.

وللسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه عن سلطانه المذكور كتاب آخر في هذه الكائنة إلى كبير الموحدين أبي محمد عبد الله بن تفراجين، ولعلّنا نذكره إن شاء اللّه تعالى في الباب الخامس من هذا القسم، عند تعرُّضنا لبعض نثر لسان الدين رحمه اللّه تعالى!.

وقد ساق هذه القضية قاضي القضاة الشهير الكبير ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي رحمه اللّه تعالى في تاريخه الكبير في ترجمة السلطان الشهير أبي سالم ابن

---

(١) يمحّص: يختبر. لسان العرب (محص).
(٢) ينيب: يرجع. لسان العرب (ناب).
(٣) الجُنَنُ: جمع جُنَّة وهي الدرع. لسان العرب (جنن).
(٤) الجَوْدُ، بفتح الجيم: المطر الغزير. لسان العرب (جود).

السلطان أبي الحسن المَريني صاحب المغرب مِمّا نصُّه[1]: الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومَقْتَل رضوان ومقدمه على السلطان: لمّا هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة ونُصِّبَ ابنُه محمد للأمر واستبدَّ عليه رضوان مولى أبيه، وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أُمّه من محبّته، فلمّا عدلوا بالأمر عنه حَجَبوه ببعض قصورهم، وكان له صهر من ابن عمّه محمد بن إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد[2]، فكان يدعوه سِرًّا إلى القيام بأمره، حتى أمكنته فرصة في الدولة بخروج[3] السلطان إلى بعض منتزهاته[4] برياضه، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين في أوشاب جَمَعَهم من الطَّغام[5] لثورته، وعمد إلى دار الحاجب رضوان، فاقتحم عليه الدار وقتله بين حُرَمه وبناته، وقربوا إلى إسماعيل فرسَه وركب[6]، فأدخلوه القصر وأعلنوا ببيعته[7]، وقرعوا طبولهم بسور الحمراء، وفرَّ السلطان من مكانه بمنتزهه[8]، فلحق بوادي آش. وغدا الخاصة والعامة على إسماعيل فبايعوه، واستبدّ عليه هذا الرئيس ابن عمّه، فخلعه[9] لأشهر من بيعته، واستقلّ بسلطان الأندلس. ولمّا لحق السلطان أبو عبد اللّه محمد[10] بوادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان، واتّصل الخبر بالمولى[11] السلطان أبي سالم، امتعض لمهلك رضوان وخَلْع السلطان رَعْيًا لما سلف له في جوارهم. وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدامه، فوصل إلى الأندلس، وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب، وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد اللّه بن الخطيب، كانوا اعتقلوه لأوّل أمرهم لما كان رديفًا للحاجب رضوان وركنًا لدولة المخلوع، فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه،

---

(١) العبر (م ٧ ص ٦٣٦ - ٦٣٨).

(٢) في العبر (ص ٦٣٧): «أبي سعيد في شقيقته».

(٣) في العبر: «فخرج».

(٤) في العبر: «متنزهاته».

(٥) الأوشاب: الأخلاط المتفرقة من الناس. الطَّغام: أرذال الناس. لسان العرب (وشب) و (طغم).

(٦) في العبر: «وركبه».

(٧) في طبعة صادر (جـ ٥ ص ٩٥): «بيعته».

(٨) في العبر «بمتنزهه».

(٩) في العبر: «ثم قتله لأشهر..».

(١٠) كلمة «محمد» غير واردة في العبر.

(١١) في العبر: «بالسلطان المولى».

فأطلقوه ولحق[1] مع الرسول أبي القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب، وأجاز لذي القعدة من سنته. وقدم[2] على السلطان بفاس، وأجلّ[3] قدومه، وركب للقائه، ودخل به إلى مجلس ملكه، وقد احتفل ترتيبه[4]، وغصّ بالمشيخة والعلية. ووقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه، ويستحثّه لمظاهرته على أمره، واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة، ثم سرد ابن خلدون القصيدة، وقد تقدّمت[5].

ثم قال بَعْدُ ما صورته[6]: ثم انفضّ المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نُزُله[7]، وقد فرشت له القصور، وقربت الجياد بالمراكب الذهبية، وبعث إليه بالكسا الفاخرة، ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من الصنائع، وحفظ[8] عليه رسم سلطانه في الراكب والراجل[9]، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلاّ الآلة أدبًا مع السلطان. واستقرَّ في جملته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس، وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين ما نحن نذكره؛ انتهى المقصود جَلْبه من كلام ابن خلدون في هذه الواقعة، وفيه بعض مخالفة لكلام لسان الدين السابق في اللمحة البدرية، إذ قال فيها: إن الثورة عليهم كانت ليلة ثمانٍ وعشرين من رمضان، وابن خلدون جعلها ليلة سبع وعشرين منه، والخطبُ سهل، وقال في «اللمحة» إنَّ انصراف السلطان من وادي آش كان ثاني يوم النحر، وقال ابن خلدون في ذي القعدة، ولعلّه غلطٌ من الكاتب حيث جعل مكان الحجة القعدة. ورائية ابن الخطيب التي ذكرها هي من حُرِّ كلامه وغُرَر شعره، على أنه كله غرر، إذ جمع فيها المطلوب في ذلك الوقت بأبدع لفظ وأحسن عبارة في ذلك المحفل العظيم، ولم نزل نسمع في المذاكرات بالمغرب أنه لمّا انتهى فيها إلى قوله «فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر» قال له بعض مَنْ حضر

---

(١) في العبر: «ولحق الرسول أبو القاسم بسلطانه المخلوع..».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٩٧): «وأقدم».
(٣) في العبر: «فأجلّ».
(٤) في العبر (ص ٦٣٨): «بزينته».
(٥) تقدمت في هذا الجزء.
(٦) العبر (م ٧ ص ٦٤٢).
(٧) النُّزُلُ، بالضم: المكان المُعَدُّ لإنزال الضيوف. لسان العرب (نزل).
(٨) في العبر: «وانحفظ».
(٩) في العبر: «في الموكب والرجل».

ولعلّه أراد الغضّ منه: أحسنت يا وزير فيما قلت، وفي وصف الحال والسلطان، غير أنه بقي عليك شيء، وهو ذكر قرابة السلطان موالينا بني مَرِين وهم مَنْ هم، ولا ينبغي السكوت عنهم، فارتجل ابنُ الخطيب حينئذ قوله «ومن دون ما تبغيه ـ إلى آخره» حتى تخلّص لمدح بني مَرِين أقارب السلطان بما لا مرمى وراءه، ثم قال بعد ذلك معتذرًا «أمولاي غاضت فكرتي ـ إلى آخره» وهذا إن صحّ أبلغ مِمّا وقع لأبي تمام في سينيته حيث قال «لا تنكروا ضَرْبي له ـ البيتين»[1] لأنّ أبا تمام ارتجل بيتين فقط، ولسان الدين ارتجل تسعة عشر بيتًا، مع ما هو عليه من الخروج عن الوطن وذهاب الجاه والمال، فأين الحال من الحال؟

وقد كرر ابن خلدون رحمه اللّه تعالى في تاريخه قضية اعتقال لسان الدين وخلع سلطانه في موضع آخر، ولنذكره وإن سبق بعضه لاشتماله على منشإ الوزير لسان الدين، وجملة من أحواله إلى قريب من مهلكه فنقول: قال رحمه اللّه تعالى بعد ذكره عبد اللّه والد لسان الدين أنه انتقل من لَوْشَة إلى غَرْناطة، واستخدم لملوك بني الأحمر، واسْتُعمل على مخازن الطعام، ما محصّله[2]: ونشأ ابنه محمد هذا، يعني لسان الدين بن الخطيب، بغرناطة، وقرأ[3] وتأدّب على مشيختها، واختصّ بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هُذَيْل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب، وانتحل الأدب، وأَخذ عن أشياخه، وامتلأ من حول[4] اللسان نظمه ونثره، مع انتقاء الجيد منه، ونبغ في الشعر والترسيل[5] بحيث لا يجارى فيهما، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره، وملأ الدنيا[6]

---

(١) بيتا أبي تمام هما: [الكامل]

لا تنكروا ضربي له مَنْ دُوْنَهُ ... مثلاً شرودًا في الندى والباسِ

فاللّه قد ضرب الأقلّ لنوره ... مثلاً من المشكاةِ والنبراسِ

وقبلهما هذا البيت في مدح ابن المعتصم:

إقدامُ عمروٍ في سماحة حاتمٍ ... في حلم أحنفَ في ذكاء إياسِ

ديوان أبي تمام (ص ١٥٣).

(٢) العبر (م ٧ ص ٦٨٩ ـ ٦٩٧).

(٣) كلمة «وقرأ» غير واردة في العبر.

(٤) في العبر: «خوض اللسان».

(٥) في العبر: «والترسّل».

(٦) في العبر: «الدولة».

بمدائحه، وانتشرت في الآفاق، فرقّاه السلطان إلى خدمته، وأثبته في ديوان الكتّاب ببابه مرؤوسًا بأبي الحسن ابن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية، وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سَلفه عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبدّ عليه[1]، فاستبدَّ ابنُ الخطيب برياسة الكتّاب ببابه مثنّاة بالوزارة ولقبه بها، فاستقلّ بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسيل[2] في مكاتبات جيرانهم من ملوك العُدْوة. ثم داخله السلطان في تولية العمال على يده بالمشارطات، فجمع له بها أموالاً، وبلغ به في المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد ممّن قبله، وسَفَر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مَرِين بالعُدْوة معزّيًا[3] بأبيه السلطان أبي الحسن، فجَلَّى في أغراض سفارته. ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة، عَدَا عليه بعضُ الزعانف[4] في سجوده للصلاة، وطعنه فأشْوَاه، وفاظ[5] لوقته، وتعاورت سيوفُ الموالي المعلوجي هذا القاتل، فمزّقوه أشلاء. وبويع ابنُه محمد لوقته، وقام[6] بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم، واستبدّ بالدولة، وأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه[7]، وجُعِل ابنُ الخطيب رديفًا لرضوان[8] في أمره، ومشاركًا في استبداده معه[9]، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة. ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرًا إلى السلطان أبي عنان مستمدّين[10] منه على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه. فلمّا قدم على السلطان ومثل بين يديه، تقدم الوفد الذي معه من وزراء

---

(١) في العبر: «المستبدّ عليه كما مرّ في أخبارهم. فاستبدَّ ابن الجياب برياسة الكتّاب من يومئذ، إلى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعماية، فولّى السلطان أبو الحجاج حينئذ محمد بن الخطيب هذا رياسة الكتّاب ببابه، مثنّاة بالوزارة، ولقبه بها، فاستقلّ بذلك».

(٢) في العبر (ص ٦٩٠): «الترسل».

(٣) في العبر: «مقرّيًا».

(٤) في العبر: «الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده».

(٥) في العبر: «وفاض».

(٦) في العبر: «وأقام».

(٧) في العبر: «لأبيه، واتخذ لكتابته غيره. وجعل..».

(٨) في العبر: «رديفًا له».

(٩) في العبر: «معنى».

(١٠) في العبر: «مستمدًا له على عدوهم».

الأندلس وفقهائها واستأذنه في إنشاد شعر قدمه بين يدي نَجْواه، فأذن له، وأنشد وهو قائم: [المنسرح]

خليفَةَ اللَّهِ ساعَدَ القَدَرُ	عُلاكَ ما لاحَ في الدُّجى قَمَرُ
ودافَعَتْ عنكَ كَفُّ قُدْرَتِهِ	ما لَيس يسطيعُ[١] دَفْعَهُ البَشَرُ
وَجْهُكَ في النائبات بَدْرُ دُجًى	لنا وفي المَحْلِ كفُّكَ المَطَرُ
والناسُ طُرًّا بأرضِ أندلسٍ	لولاكَ ما أُوْطِنوا ولا عَمُروا
وجملةُ الأمرِ أنه وطنٌ	في غير علياكَ ما له وَطَرُ
ومن به مذ وَصَلْتَ حَبْلَهُمُ	ما جحدوا نعمةً ولا كَفَرُوا
وقد أَهَمَّتْهُمُ بأنفسهم[٢]	فَوَجَّهوني إليكَ وانْتَظَرُوا

فاهتزّ السلطان لهذه الأبيات، وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلاّ بجميع طلباتهم، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان[٣]، وردّهم بجميع ما طلبوه. وقال شيختنا القاضي أبو القاسم الشريف، وكان معه في ذلك الوفد: لم نسمع[٤] بسفير قضى سفارته قبل أن يسلِّم على السلطان إلاّ هذا. ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين. ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عمّ السلطان، شركه في جدّه الرئيس أبي سعيد، وتحيّن خروج السلطان إلى منتزهه[٥] خارج الحمراء، وتسوّر دار الملك المعروفة بالحمراء، وكبس رضوان[٦] في بيته فقتله. ونصب للملك إسماعيل بن السلطان أبي الحجاج بما كان صهره على شقيقته، وكان معتقلاً بالحمراء، فأخرجه، وبايع له[٧]، وقام بأمره مستبدًا عليه. وأحسَّ السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان، فركب ناجيًا إلى وادي آش، وضبطها، وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب. وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس. واعتقل الرئيسُ القائم

---

(١) في العبر (ص ٦٩١): «يستطيع»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في العبر: «نفوسهم».
(٣) في العبر: «بإحسانه».
(٤) في العبر: «لم يسمع».
(٥) في العبر: «متنزّهه».
(٦) في العبر: «رضوانًا».
(٧) في العبر: «وبايعه».

بالدولة هذا الوزيرَ ابن الخطيب وضيَّق عليه في محبسه. وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودةٌ استحكمت[1] أيام مقامه بالأندلس. وكان غالبًا على هوى السلطان أبي سالم، فزيّن له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادي آش يعده زبونًا على أهل الأندلس، ويكف به عادية القرابة الموشحين هنالك متى طمحوا إلى ملك المغرب، فقبل ذلك منه. وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش إليه، وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التِّلِمْساني، وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب. وحلّ معتقله، فأُطْلق[2]، وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش، وسار في ركاب سلطانه، وقدموا على السلطان أبي سالم، فاهتزّ لقدوم ابن الأحمر، وركب في الموكب لتلقّيه، وأجلسه إزاء كرسيّه. وأنشد ابن الخطيب قصيدته يستصرخ السلطان لنصرته، فوعده، وكان يومًا مشهودًا، ثم أكرم مَثْوَاه، وأرغد نُزُلَه، ووَفَّر أرزاقَ القادمين مع ركابه[3]، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والأقطاع. ثم استيأس[4] واستأذن السلطان في التجوال[5] بجهات مراكش والوقوف على أعمال[6] الملك بها، فأذن له، وكتب إلى العمّال بإتحافه، فتباروا[7] في ذلك، وحصل منه على حظّ، وعندما مرَّ بسَلاَ إثر قُفُوله[8] من سفره دخل مقبرة الملوك بشالة، ووقف على قبر السلطان أبي الحسن، وأنشد قصيدة على روي الراء يرثيه ويستجير به في استرجاع ضياعه بغرناطة[9]، مطلعها: [الكامل]

إنْ بانَ منزِلُهُ وشَطَّتْ دارُهُ قامتْ مَقَامَ عِيانه أخبارُهُ
قَسَّمْ زمانَكَ عَبْرَةً أو عِبْرة هٰذِي تُراه وهٰذه آثارُهُ[10]

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة، فشفَّعوه، واستقرّ هو

---

(١) في العبر (ص ٦٩٢): «استحلمت».
(٢) في العبر: «فانطلق».
(٣) في العبر: «في ركابه وانتظر به».
(٤) في العبر: «استأنس».
(٥) في العبر: «التحوّل».
(٦) في العبر: «آثار».
(٧) في العبر: «فتبارزوا».
(٨) في العبر (ص ٦٩٣): «في قفوله».
(٩) في العبر: «بقرطبة».
(١٠) في العبر: «غِيَرَةً أو عِبْرَةً هذا ثراه..»

بسلا منتبذًا عن سلطانه طول مقامه بالعُدْوة. ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه[١] بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة. وبعث عن مخلَّفه بفاس من الأهل والولد، والقائمُ[٢] بالدولة يومئذ الوزير[٣] عمر بن عبد اللّه بن علي، فاستقدم ابن الخطيب من سلا، وبعثهم لنظره، فَسُرَّ[٤] السلطان لقدومه، وردَّه إلى منزلته كما كان مع رضوان كافله. وكان عثمان بن يحيىٰ بن عمر شيخ الغُزَاة وابن أشياخهم[٥]، قد لحق بالطاغية [ملك النصارى][٦] في ركاب أبيه عندما أحسّ بالشَّرِّ من الرئيس صاحب غَرْنَاطة. وأجاز يحيىٰ من هنالك إلى العُدْوة، وأقام عثمان بدار الحرب، فصحب السلطان في مَثْوى اغترابه هنالك، وتقلّب في مذاهب خدمته. وانحرفوا عن الطاغية عندما يئسوا من الفتح على يده[٧]، فتحوّلوا عنه إلى ثغور بلادهم[٨]، وخاطبوا الوزير[٩] عمر بن عبد اللّه في أن يمكنهم من بعض الثغور الغربية التي لطاعتهم بالأندلس يرتقبون منها الفتح. وخاطبني السلطان المخلوع في ذلك، وكانت بيني وبين عمر بن عبد اللّه ذمّة[١٠]مرعيّة، وخاصة[١١] متأكّدة، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد اللّه، وحملته على أن يردَّ عليه مدينة رُنْدَة إذ هي[١٢]من تراث سلفه، فقبل إشارتي في ذلك، وتسوّغها السلطان المخلوع، ونزل بها، وعثمانُ بن يحيىٰ في جملته، وهو المقدّم في بطانته. ثم غزوا منها مالقة، فكانت ركابًا للفتح، وملكها السلطان، واستولى بعدها[١٣]على دار ملكه بغَرْنَاطة، وعثمانُ بن يحيىٰ متقدّم القدم في الدولة، عريق[١٤] في المخالصة، وله على السلطان دالة واستبداد على

(١) في العبر: «مكانه».
(٢) في العبر: «القائم» أي بدون واو العطف..
(٣) كلمة «الوزير» غير واردة في العبر.
(٤) في العبر: «وسُرَّ... بقدومه..».
(٥) في العبر: «شيوخهم».
(٦) ما بين قوسين غير وارد في العبر.
(٧) في العبر: «على يديه».
(٨) في العبر: «بلاده».
(٩) كلمة «الوزير» غير واردة في العبر.
(١٠) في العبر (ص ٦٩٤): «أذمّة».
(١١) في العبر: «ومخالصة» وهو أقرب إلى الصواب.
(١٢) كلمة «من» غير واردة في العبر.
(١٣) في العبر: «بعده».
(١٤) في العبر: «غريق» بالغين المعجمة.

هَوَاه. فلمّا وصل ابنُ الخطيب بأهل السلطان وولده، وأعاده[1] إلى مكانه في الدولة من علوّ يده، وقبول إشارته، أدركته[2] الغيرة من عثمان، ونَكِرَ[3] على السلطان الاستكفاء[4] به، وأراه[5] التخوّف من هؤلاء الأعياص[6] على ملكه، فحذره السلطان، وأخذ في التدبير عليه، حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين وسبعمائة، وأودعهم المطبق[7]، ثم غرّبهم بعد ذلك؛ وخلا لابن الخطيب الجوّ، وغلب على هوى السلطان، ودفع إليه تدبير الدولة، وخلط بنيه[8] بندمائه وأهل خلوته. وانفرد ابنُ الخطيب بالحلِّ والعقد، وانصرفت إليه الوجوه، وعلقت به الآمال، وغشي بابَهُ الخاصةُ والكافّة، وغصَّتْ به بطانةُ السلطان وحاشيته، فتفنّنوا في السعايات فيه، وقد همَّ[9] السلطان عن قبولها. ونُمي الخبر بذلك إلى ابن الخطيب. فشمّر عن ساعده في التفويض[10]. واستخدم للسلطان عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن ملك العُدْوة يومئذ في القبض على ابن عمّه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي [ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق][11]،كانوا قد نصبوه شيخًا على الغُزاة بالأندلس، لما أجاز من العُدْوة، بعدما جاس خلالها لطلب الملك، وأضرم بها نار الفتنة في كلّ ناحية، وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله، القائم حينئذ بدولة بني مَرين، فاضطرّ إلى الإجازة إلى الأندلس، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماساي[12]، ونزلوا على السلطان المخلوع أعوام سبعة وستين وسبعمائة، فأكرم نُزلهم. وتوفي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة، فقدم عبد الرحمن مكانه. وكان السلطان عبد العزيز قد استبدَّ بملكه بعد مقتل الوزير عمر بن عبد

---

(١) في العبر: «وأعاده السلطان إلى..».
(٢) في العبر: «فأدركته».
(٣) نكر: أنكر. لسان العرب (نكر).
(٤) الاستكفاء: طلب الكفاية. لسان العرب (كفا).
(٥) في العبر: «به، والتخوف..».
(٦) الأعياص من قريش: أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر. محيط المحيط (عيص).
(٧) المطبق: السجن، لسان العرب (طبق).
(٨) في العبر: «بينه بندمانه».
(٩) في العبر (ص ٦٩٥): «صَمَّ».
(١٠) في العبر: «في التقويض عنهم..».
(١١) ما بين قوسين غير وارد في العبر.
(١٢) في العبر «ماسي».

اللّه، فغصّ بما فعله السلطان المخلوع من ذلك، وتوقّع انتقاض أمره منهم، ووقف على مخاطبات من عبد الرحمن يسرُّ بها في بني مَرين، فجزع لذلك. وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماساي وإراحة نفسه من شنغبهم، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه، فأجابه إلى ذلك، وكتب له العهد بخطّه، على يد سفيره إلى الأندلس[1]، وكاتبِهِ أبي يحيىٰ بن أبي مدين. وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن يفلوسن وابن ماساي، فقبض[2] عليهما واعتقلهما. وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية، وربما تخيَّل أنّ السلطان مال إلى قبولها، وأنهم قد أحفظوه عليه[3]، فأجمع التحوّل[4] عن الأندلس إلى المغرب. واستأذن السلطان في تفقّد الثغور[5]، وسار إليها في لُمَّة[6] من فرسانه، وكان[7] معه ابنه علي الذي كان خالصة للسلطان، وذهب لِطِيَّته[8] ، فلمّا حاذى جبل الفتح فُرْضَة المجاز إلى العُدْوة مال إليه، وسرح إذنه بين يديه، فخرج قائد الجبل لتلقّيه. وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك، وجهّز له الأسطول من حينه، فأجاز إلى سبتة، وتلقّاه وُلاَتها بأنواع التكرمة وامتثال المراسم[9]. ثم سار[10] لقصد السلطان، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمقامه[11] من تلمسان، فاهتزّت له الدولة. وأركب السلطان خاصّته لتلقّيه، وأحلّه من مجلسه بمحلّ الأمن والغبطة، ومن دولته بمكان التنويه[12] والعزّة. وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيىٰ بن أبي[13] مدين سفيرًا إلى صاحب الأندلس في طلب أهله وولده، فجاء بهم على

---

(١) في العبر: «إلى أندلس».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٠٣): «فقبض».
(٣) أحفظوه عليه: أثاروا حفيظته، والحفيظة: الغضب. لسان العرب (حفظ).
(٤) في العبر (ص ٦٩٦): «التحويل».
(٥) في العبر: «الثغور الغربية».
(٦) اللُّمَّةُ، بضم اللام وفتح الميم المشددة: الجماعة والفرقة. لسان العرب (لمم).
(٧) في العبر: «ومعه».
(٨) في العبر: «لطبنة». والطِّيّة: المقصد والنيّة، والجهة. محيط المحيط (طوى).
(٩) في العبر: «المراسيم».
(١٠) في العبر: «ثم سلك».
(١١) في العبر: «بمقامته».
(١٢) في العبر: «البنوّة».
(١٣) في العبر: «ابن مدين».

أكمل حالات الأمن والتكَرمة. ثم أكثر[1] المنافسون له في شأنه، وأغروا سلطانه[2] بتتبع عثراته، وإبداء[3] ما كان كامنًا في نفسه من سقطاته[4]، وإحصاءِ معايبه. وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحْصَوْها عليه ونسبوها[5] . ورفعت إلى قاضي الحضرة أبي الحسن بن الحسن[6] ، فاسترعاها[7] ، وسجل عليه بالزندقة. وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه، وبعث القاضي ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات، وإمضاء حكم الله فيه، فصمّ عن ذلك، وأنف لذمّته أن تخفر، ولجواره أن يردّ، وقال لهم: هلاّ انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه؟ وأمّا أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جِوَاري. ثم وفّر الجزاية والإقطاع له ولبنيه ولمن[8] جاء من أهل الأندلس في جملته. فلمّا هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمائة ورجع بنو مَرين إلى المغرب وتركوا تلمسان، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة، فنزل بفاس، واستكثر من شراء الضياع، وتأنّق في بناء المساكن واغتراس الجنان[9] . وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفّى، واتّصلت حاله على ذلك، إلى أن كان ما نذكره؛ انتهى.

وقال ابن خلدون في تاريخه ما صورته[10]: كان محمد بن الأحمر المخلوع[11] قد رجع من رندة إلى ملكه بغَرْناطة في جمادى سنة ثلاث وستين، وقَتَل له الطاغيةُ عدوَّه الرئيس المنتزي على ملكهم[12] حين هرب من غرناطة إليه وفاء

(١) في العبر: «ثم لغط».
(٢) في العبر: «السلطان».
(٣) في العبر: «وأبدى».
(٤) في العبر: «من سقطات دالته».
(٥) في العبر: «ونسبوها إليه».
(٦) فيّ العبر: «أبي الحسن بن أبي الحسن».
(٧) في العبر: «فاسترداها».
(٨) في العبر: «ومن جاء».
(٩) في العبر: «وأغراس الجنّات».
(١٠) العبر (م ٧ ص ٧٠٠ ـ ٧٠٢).
(١١) في العبر: «كان محمد المخلوع بن الأحمر».
(١٢) في العبر: «على ملكه».

بعهد المخلوع، واستوى على كرسيه، واستقلّ بملكه، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد ابن الخطيب، فاستخلصه[1]، وعقد له على وزارته، وفوّض إليه في القيام بملكه، فاستولى عليه، وملك هواه. وكانت عينه ممتدّة إلى المغرب وسكناه، إلى أن نزلت به آفة في رياسته، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه. وكان لأبناء السلطان أبي الحسن كلّهم غيرة من ولد عمّهم السلطان أبي علي، ويخشونهم على أمرهم. ولمّا لحق الأمير عبد الرحمن [بن أبي يفلوسن][2] بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب، واستخلصه لنجواه، ورفع في الدولة رتبته، وأعلى منزلته، وحمل السلطان على أن عقد له على الغُزَاة المجاهدين من زَنَاتة مكان بني عمّه من الأعياص، فكانت له آثار في الاضطلاع بها، ولما استبدَّ السلطان عبد العزيز بأمره واستقلّ بملكه، وكان ابن الخطيب ساعيًا في مرضاته عند سلطانه، فدسّ إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماساي. وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره، وحمل السلطان عليهما، إلى أن سطا بهما [ابنُ الأحمر][2]، واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز. وتغيّر الجوّ بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم، وتنكّر[3] له، فنزع عنه إلى عبد العزيز سلطان المغرب سنة ثنتين وسبعين وسبعمائة لما قدم من الوسائل، ومهّد من السوابق، فقبله[4] السلطان، وأحلّه من مجلسه محلّ الاصطفاء والقرب. وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده، فبعثهم إليه، واستقرَّ في جملة السلطان، ثم تأكّدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر، فرغَّبَ السلطان [عبد العزيز][2] في ملك الأندلس، وحمله عليه، وتواعدوا لذلك عند رجوعه[5] من تلمسان إلى المغرب. ونُمي ذلك[6] إلى ابن الأحمر، فبعث إلى السلطان [عبد العزيز][2] بهدية لم يُسمع بمثلها، انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه، وأوفد بها رسله يطلب إسْلاَمَ وزيره ابن الخطيب إليه، فأبى[7] السلطان من ذلك ونكره. ولمَّا هلك [السلطان][2] واستبدّ

(١) استخلصه: جعله من خلصائه؛ يقول الله تعالى: ﴿وقالَ المَلِكُ ٱئتُوني به أَسْتَخْلِصْه لنفسي﴾. سورة يوسف ١٢، الآية ٥٤، ولسان العرب (خلص).
(٢) ما بين قوسين غير وارد في العبر.
(٣) في العبر: «فتنكّر به».
(٤) في العبر: «فتقبله».
(٥) في العبر: «عند مرجعه».
(٦) نُمي ذلك إليه: بلغه. لسان العرب (نمى).
(٧) في العبر: «وأبى».

الوزير ابن غازي بالأمر تَحَيَّزَ إليه ابن الخطيب وداخله، وخاطبه ابن الأحمر بمثل ما خاطب به السلطان [عبد العزيز][(١)]، فلجَّ واستنكف عن ذلك، وأقبح الردّ. وانصرف رسوله إليه وقد رهب سطوته، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول، وقذف به إلى الساحل بطوية [ومعه الوزير مسعود بن ماساي][(١)]، ونهض ـ يعني ابن الأحمر ـ إلى جبل الفتح، فنازله[(٢)] بعساكره، ونزل عبد الرحمن ببطوية[(٣)].

ثم ذكر ابن خلدون كلامًا كثيرًا تركته لطوله، وملخصه[(٤)] أنَّ الوزير أبا بكر بن غازي الذي كان تحيّز إليه ابنُ الخطيب ولّى ابنَ عمِّه محمد بن عثمان مدينة سبتة خوفًا عليها من ابن الأحمر، ونهض هو ـ أعني الوزير ـ إلى منازلة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ببطوية إذ كانوا قد بايعوه، فامتنع عليه، وقاتله أيامًا ثم رجع إلى تازا، ثم إلى فاس، واستولى عبد الرحمن على تازا، وبينما الوزير أبو بكر بفاس يدبّر الرأي إذ وصله الخبر بأنّ ابن عمه محمد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبي سالم، وهو المعروف بذي الدولتين، وهذه هي دولته الأولى، وذلك أنّ ابنَ عمِّ الوزير وهو محمد بن عثمان لما تولّى سبتة كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتح، وأخذ بمُخَنَّقه وتكرّرت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان والعتاب، فاستعتب له، وقبح ما جاء به ابن عمِّه الوزير أبو بكر بن غازي من الاستغلاظ له في شأن ابن الخطيب وغيره، فوجد ابنُ الأحمر في ذلك السبيل إلى غرضه، وداخله في البيعة لابن السلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحوطة والرقبة، وأن يقيمه للمسلمين سلطانًا ولا يتركهم فوضى وهملاً تحت ولاية الصبي الذي لم يبلغ ولا تصبح[(٥)] ولايته شرعًا، وهو السعيد بن أبي فارس الذي بايعه الوزير أبو بكر بن غازي بتلمسان حين مات أبوه واستبدَّ عليه، واختصّ ابن الأحمر أحمد بن أبي سالم من بين أولئك الأبناء لما سبق بينه وبين أبيه أبي سالم من المواتّ[(٦)]، وكان ابن الأحمر اشترط على

---

(١) ما بين قوسين غير وارد في العبر.

(٢) في العبر: «ونازله».

(٣) في العبر (ص ٧٠٢): «ببطوية في ذي القعدة من سنة أربع وسبعين، ومعه وزيره مسعود بن ماساي..».

(٤) العبر (م ٧ ص ٧٠٢ ـ ٧٠٦).

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٠٦): «تصح».

(٦) المواتّ: جمع ماتّة وهي الوسيلة. محيط المحيط (متت).

محمد بن عثمان وحِزْبِهِ شروطًا؛ منها أن ينزلوا له عن جبل الفتح الذي هو محاصر له، وأن يبعثوا إليه جميع أبناء الملوك من بني مَرِين؛ ليكونوا تحت حَوْطته، وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدروا عليه، فانعقد أمرهم على ذلك، وتقبَّل محمد بن عثمان شروطه، وركب من سبتة إلى طنجة، واستدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله فبايعه، وحمل الناسَ على طاعته، واستقدم أهل سبتة للبيعة وكتابتها فقدموا وبايعوا، وخاطب أهل جبل الفتح فبايعوا، وأفرج ابن الأحمر عنهم، وبعث إليه محمد بن عثمان عن سلطانه بالنزول له عن جبل الفتح، وخاطب أهله بالرجوع إلى طاعته، فارتحل ابن الأحمر من مالَقَةَ إليه، ودخله، ومحا دولة بني مرين مِمّا وراء البحر، وأهدى للسلطان أبي العباس وأمدّه بعسكر من غزاة الأندلس، وحمل إليه مالاً للإعانة على أمره. ولمَّا وصل الخبر بهذا كلّه إلى الوزير أبي بكر بن غازي قامت عليه القيامة، وكان ابن عمِّه محمد بن عثمان كتب إليه يُمَوِّه بأنّ هذا عن أمره، فتبرأ من ذلك، ولاطف ابن عمّه أن ينقض ذلك الأمر، فاعتلَّ له بانعقاد البيعة لأبي العباس، وبينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمِّه إلى ما رامه منه بلغهُ الخبر بأنه أشخص الأبناء المعتقلين كلّهم للأندلس، وحصلوا تحت كفالة ابن الأحمر، فوجم وأعرض عن ابن عمّه، ونهض إلى تازا لمحاصرة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، فاهتبل في غيبته ابن عمّه محمد بن عثمان ملك المغرب ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشبة نحو ستمائة، وعسكر آخر من الغزاة، وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن عمِّه السلطان أحمد ومظاهرته واجتماعهما على ملك فاس، وعقد بينهما الاتفاق على أن يختصّ عبد الرحمن بملك سلفه، فتراضيا. وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس، وبلغ الخبر إلى الوزير أبي بكر بمكانه من تازا، فانفضَّ معسكره، ورجع إلى فاس، ونزل بكدية العرائس وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون، فصمد إليه الوزير بعساكره، فاختلّ مصافه، ورجع على عقبه مفلولاً، وانتهب عسكره، ودخل البلد الجديد، وجأجأ[1] بالعرب أولاد حسين فعسكروا بالزيتون ظاهر فاس، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازا بمن كان معه من العرب الأجلاف، وشرّدهم إلى الصحراء، وشارف السلطان أبو العباس أحمد بجموعه من العرب وزَنَاتة، وبعثوا إلى ولي دولتهم ونزمار بن عريف بمكانه من قصره الذي اختطّه بملوية، فجاءهم،

(١) جأجأ بالعرب: دعاهم؛ يقال: جأجأ بالإبل إذا دعاها للشرب، محيط المحيط (جأجأ).

وأطلعوه على كامن أسرارهم، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق، فاجتمعوا بوادي النجا، وتحالفوا ثم ارتحلوا إلى كدية العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وبرز إليهم الوزير بعساكره، فانهزمت جموعه، وأحيط به، وخلص إلى البلد الجديد بعد غصّ[1] الريق، واضطرب معسكر السلطان أبي العباس بكدية العرائس ونزل الأمير عبد الرحمن بإزائه، وضربوا على البلد الجديد سياجًا بالبناء للحصار، وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب. ووصلهم مَدَدُ السلطان ابن الأحمر، فأحكموا الحصار، وتحكّموا في ضياع الوزير ابن الخطيب بفاس، فهدموها وعاثوا فيها. ولمَّا كان فاتح سنة ست وسبعين داخل محمد بن عثمان ابنَ عمِّه الوزير أبا بكر في النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان، لكون الحصار قد اشتدَّ به ويئس وأعجزه المال، فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافي له عن أعمال مراكش بدل سجلماسة، فعقدوا له على كره، وطَوَوْا على المكر، وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان وبايعه، واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة، ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد الجديد سابع المحرم، وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش، واستولى عليها؛ انتهى.

وقال حفيد السلطان ابن الأحمر في تاريخه ما صورته: لما لحق الرئيس أبو عبد اللّٰه بن الخطيب بالمغرب عام اثنين وسبعين وسبعمائة، وكان من وفاة مجيره والمحامي عنه السلطان عبد العزيز ما ألمعنا بذكره، شَدَّ الوزير أبو بكر بن غازي يده على ابن الخطيب بانيًا على أشدّ الأشياء ألا يُسْلمه لمولانا جدّنا مع توقّع البغضاء، واقتدى هذا الوزير بالسلطان عبد العزيز في إعراضه عن العقود الموجهة من الأندلس بالمُقْذِع من مُوبِقات ابن الخطيب، ولج في الغُلَواء، وسجل موجبات الوفاء، والبواعث من مولانا جدّنا تتزايد، والأساطيل تتجهّز، والآراء بالقصد الخطير ينتقى منها الصواب ويتخيّر، حتى خيّم مولانا جدّنا بظاهر جبل الفتح، وكان إذ ذاك راجعًا إلى إيالة المغرب، فأناخ عليه كلكل الجيش، وأهمهم ثقل الوطأة ولم يبالِ مولانا جدّنا بما أرسلت آناء الليل وأطراف النهار من شآبيب الأنفاط، والجُؤَارُ[2] من باب الشطائين قريب، والخالصة من الثقات مستريب، والنجاة من تلك الأهوال من الأمر الغريب، ولم يبق بغَرْناطة مَنْ له خلوص، ولا من تترامى به همّة إلاَّ

---

(١) في العبر (ص ٧٠٦): «بعد عصب الريق».

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٠٨): «والجوار». والجؤار: رفع الصوت. محيط المحيط (جأر).

وأعمل السير الحثيث ولحق بمولانا جدّنا لحاق المحبّ بالحبيب، حتى أهلُ العلم، والرجاحة والحلم، ولا كالسيد الإمام الأستاذ أبي سعيد قطب الجملة، وعميد الملّة، وهو الذي بلغنا نظمه في هذه الوجهة، وعندما ألقى عصا التسيار في الجهة القريبة من أُولي العداوة، ومن ذلك قصيدته المشهورة التي أولها: [الطويل]

أيا جَبَلَ الفتحِ استَمَلْتَ نفوسنا فلا قلبَ إلاَّ نحو مَغْنَاك قد سَبَقْ
فأرسلتَ إذ جئناك فينا صواعقًا تخالُ بها جوَّ السماء قد انطبقْ

وقوله في إجابة السفهاء من الهاتفين بالسور موطئًا معجبًا رحمة اللّه تعالى عليه: [الطويل]

وذمُّوا وما يعنون إلاَّ مذمّمًا وأنت . بحمد اللّه . تدعى محمدا

وقول حامل اللواء الآتي ذكره في تضاعيف الأسماء: [الكامل]

أمَّا مَرَامك في عِراضِ البِيْدِ[1] فمبلِّغٌ ما شئتَ من مقصودِ
والهُجْرُ إنْ ألفته[2] ألسنةُ العِدا يأباه فضلُ مقامِكَ المحمودِ
سحقًا لهم سفهاءَ كلِّ قبيلةٍ شَذَّتْ مقالتهم عن المعهود
قد ضلَّتِ الأحلامُ منهم رشدها هذا، ومنك الحلمُ غيرُ بعيد
معْ عزمةٍ لو شئتَ هَدَّتْ كلَّ ما قد أحكموا من مُعْلَمٍ ومَشِيدِ

إلى أن قال: الخبر عن اجتماع الأميرين أبي العباس وأبي زيد متصاحبين ومترافقين على استخلاص مدينة فاس من يد الوزيرْ أبي بكر بن غازي بن الكاس: وكتب الرئيس أبو عبد الله بن زَمْرك في ملخص هذه الكائنة حثّ الوزير محمد بن عثمان السير في وسط عام خمسة وسبعين وسبعمائة، وتلاقى بسلطانه أبي العباس مع الأمير أبي زيد عبد الرحمن، واستقلاّ بالطائلة، وحصلا من التضييق على السعيد الطفل الصغير وعلى وزيره أبي بكر بن غازي في متّسع الخطّة ورحيب ذرع الخلافة، وتصالحا عن رضا وتسليم منهما ومن أشياعهما على تسليم السعيد إلى اللحاق بمن كان في طنجة من الأمراء، واتّصل السلطان عبد الرحمن بمراكش، فكان ملكها، وجابي أموالها، وتملّك السلطان أبو العباس مدينَةَ

---

(١) البِيْدُ: جمع بيداء وهي الصحراء. لسان العرب (بيد).
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٠٩): «ألقته».

فاس وما والى البلاد الساحلة وسواها مِمّا يحتوي عليه ملك المدينة البيضاء برًا وبحرًا.

وعبّر كاتب الدولة عن المدينة وعن الطفل متملّكها بقوله: وإلى هذا فقد ارتفع الالتباس، واطّرد القياس، وغيرُ خفيّ عن ذي عقل سليم، وذي تفويض للحقّ وتسليم، أن دار الملك المريني كمامة بلا زهر، ورياض بلا نهر، إن لم يقتعد كرسيها، ومن يزيّن جيدها ويجيد حليها، وآن أوان البشرى لمن يمتعض للدين، والآن قلادة التقوى مَنُوطة بقلم أعلام الملوك المهتدين، ثم ذكر ما يطول من فصول، وربما اشتملت على فضول، وملخّصه مثل ما ذكر ابن خلدون.

ثم ساق قاضي القضاة ابن خلدون - بعد ما تقدّم جَلْبه من تاريخه - الكلام على محنة لسان الدين بن الخطيب ووفاته مقتولاً رحمه اللّه تعالى فقال ما صورته[١]: ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتِحَ[٢] ستّ وسبعين استقلّ[٣] بسلطانه، والوزير محمد بن عثمان مستبدّ عليه، وسليمان بن داود بن أعراب كبير[٤] بني عسكر رديفه[٥]، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر - عندما بويع بطنجة - على نكبة الوزير[٦] ابن الخطيب وإسلامه إليه، لما نُمي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز بملك الأندلس. فلمّا زحف السلطان أبو العباس من طَنْجة ولقيه أبو بكر بن غازي بساحة البلد الجديد، فهزمه السلطان، ولازمه[٧] بالحصار، أوى معه ابنُ الخطيب إلى البلد الجديد خوفًا على نفسه. فلمّا[٨] استولى السلطان على البلد[٩] أقام أيّامًا، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض[١٠] على ابن الخطيب، فقبضوا عليه، وأودعوه السجن، وطيّروا بالخبر إلى

(١) العبر (م ٧ ص ٧٠٧ - ٧١٠).
(٢) في العبر (ص ٧٠٨): «فاتح سنة ست..».
(٣) في العبر: «واستقلّ».
(٤) كلمة «كبير» غير واردة في العبر.
(٥) في العبر: «رديف له».
(٦) كلمة «وزير» غير واردة في العبر.
(٧) في العبر: «ولاذ منه بالحصار».
(٨) في العبر: «ولمّا».
(٩) في العبر: «البلد الجديد».
(١٠) في العبر: «بالقبض عليه».

السلطان ابن الأحمر. وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما[1] كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغُزَاة بالأندلس متى أعاده اللَّه تعالى إلى ملكه، فلمّا استقرَّ إليه سلطانه أجاز إليه سليمان سفيرًا عن الوزير عمر بن عبد اللَّه ومقتضيًا عهده من السلطان، فصدّه الوزيرُ ابن الخطيب عن ذلك، محتجًّا[2] بأنَّ تلك الرياسة إنما[3] هي لأعياص الملك من بني عبد الحق؛ لأنهم يعسوب زَنَاتة، فرجع سليمان[4]، وأثار حقد ذلك لابن الخطيب. ثم[5] جاوز الأندلس لمحلّ إمارته من جبل الفتح، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفث[6] كلّ واحد منهما لصاحبه[7] بما يحفظه[8] مِمّا كمن في صدورهما. وحين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بَعْدَ ابن الخطيب، وهو أبو عبد اللَّه بن زَمْرَك، فقدم على السلطان أبي العباس، وأحضر ابن الخطيب بالمشور[9] في مجلس الخاصة[10]، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه[11] في المحبة، فعظم النكير فيها، فوبخ ونكل، وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ[12]، ثم قُلَّ[13] إلى محبسه. واشْتَوَرُوا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجّلة عليه، وأفتى بعض الفقهاء فيه، ودسّ سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله، فطرقوا السجن ليلاً، ومعهم زَعَانفة جاءوا في لفيف الخدم مع سُفَراء السلطان ابن الأحمر، وقتلوه خنقًا في محبسه، وأخرج شِلْوه من الغد، فدفن بمقبرة باب المحروق. ثم أصبح من الغد

(١) في العبر: «بما كان سليمان بن داود..».
(٢) كلمة «محتجًا» غير واردة في العبر.
(٣) في العبر: «الرياسة لأعياص الملك من آل عبد الحقّ».
(٤) في العبر: «سليمان يائسًا وحقد ذلك لابن الخطيب».
(٥) في العبر: «ثم جاور الأندلس بمحلّ..».
(٦) في العبر: «يتنفس».
(٧) في العبر: «بصاحبه».
(٨) يُحْفظه: يغضبه. لسان العرب (حفظ).
(٩) في العبر (ص ٧٠٩): «بالشورى». والمشور: القصر لأنه موضع الشورى.
(١٠) في العبر: «الخاصة وأهل الشورى، وعرض..».
(١١) في العبر: «في كتابته، فعظم عليه النكير..».
(١٢) في العبر: «الملأ من الناس..».
(١٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١١٢): «نقل».

على سافة[1] قبره طريحًا، وقد جُمعت له أعواد، وأُضرمت عليه نار[2]، فاحترق شعره، واسودَّ بشره، فأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته. وعجب الناس من هذه الشنعاء التي جاء بها سليمان، واعتدّوها من هَنَاته، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته، واللّه الفعال لما يريد.

وكان ـ عفا اللّه تعالى عنه! ـ أيام امتحانه بالسجن يتوقّع مصيبة الموت فتُجْهِش[3] هَوَاتِفُه بالشعر يبكي نفسه. ومِمّا قال في ذلك رحمه اللّه تعالى: [المتقارب]

بَعُدْنا وإن جاوَرَتْنا البُيوتْ وجئنا بوعظٍ[4] ونحن صُمُوتْ
وأنفاسُنا سَكَنَتْ دَفْعَةً كَجَهْرِ الصلاة تَلاهُ القُنُوتْ
وكُنَّا عِظامًا فَصُرْنَا عِظامًا[5] وكُنَّا نَقوتُ فها نحنُ قوتْ
وكُنَّا شُمُوسَ سماءِ العُلاَ غَرُبْنَ فناحَتْ[6] علينا السُّمُوتْ
فكم جَدَّلَتْ ذا الحُسامَ الظُّبا وذو البخت كم جَدَّلَتْهُ البُخُوتْ
وكم سيق للقبر في خِرْقَةٍ فتًى مُلِئَتْ من كُسَاه التُّخُوتْ
فقلْ للعِدا ذَهَبَ ابنُ الخطيبِ وفاتَ، ومَنْ[7] ذا الذي لا يَفُوتْ
ومن كان يَفْرَحُ منهمْ له فَقُلْ: يَفْرَحُ اليومَ من لا يموتْ

انتهى كلام ابن خلدون في «ديوان العبر».

وقال الحافظ ابن حجر في «أنباء الغمر» بعد أن ذكر ما قدمناه على سبيل الاختصار، ما نصُّه: واشتهر أنه ـ يعني لسان الدين ـ نظم حين قُدِّم للقتل الأبيات المشهورة التي يقول فيها: [المتقارب]

وقُلْ للعُداة مضى ابنُ الخطيب وفات فسبحان من لا يفوتْ

---

(١) في العبر: «شافة».
(٢) في العبر: «نارًا».
(٣) في العبر: «فتجيش هواتفه لشعر..».
(٤) في العبر: «لوعد».
(٥) العِظام الأولى: جمع عظيم. والعظام الثانية: جمع عظم.
(٦) في العبر: «فباحت».
(٧) في العبر: «فمن».

فمن كان يشمت منكم به فقلْ: يشمت اليوم من لا يموتْ

والصحيح في ذلك ما ذكره صديقه شيخنا ولي الدين ابن خلدون أنه نظم الأبيات المذكورة وهو في السجن، لما كان يستشعر من التشديد؛ انتهى.

ثم حكى ابن حجر عن بعض الأعيان أنّ ابن الأحمر وَجَّهه إلى ملك الإفرنج في رسالة، فلمّا أراد الرجوع أخرج له رسالة لابن الخطيب تشتمل على نظم ونثر، فلمّا قرأها قال له: مثل هذا كان ينبغي أن لا يُقتل، ثم بكى حتى بلّ ثيابه؛ انتهى كلام الحافظ، وبعضه بالمعنى.

فانظر ـ سدّدك اللّه تعالى! ـ بكاء العدوّ الكافر على هذا العَلاَّمة، وقَتْل إخوانه في الإسلام له على حظّ نفساني، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العلي العظيم، لا ربّ غيره.

قلت: ورأيت بحضرة فاس ـ حاطها اللّه تعالى! ـ تخميسًا لهذه الأبيات بديعًا منسوبًا إلى بعض بني الصباغ، وزاد في الأصل بعض أبيات على ما ذكره ابن خلدون من هذه القطعة، والمزيدُ يشبه نفسَ لسان الدين بن الخطيب، فلعلّ ابن خلدون اختصر منها، أو لم يقف على الزائد، ولنثبت جملته تتميمًا للمقصود، فنقول: قال رحمه اللّه تعالى[1]: [المتقارب]

أيا جاهلاً غَرَّه ما يفوتْ وألهاه حالٌ قليلُ الثبوتْ
تأمّلْ لمن بعد أُنسٍ يقوتْ[2] بَعُدْنا وإن جاورتنا البُيُوتْ
وجئنا بوعظٍ ونحنُ صموتْ

لقد نلتُ من دهرنا رفعةً تَقَضَّتْ كبرقٍ مضى سرعةً
فهيهات نرجو لها رجعةً وأصواتُنا سكنتْ دفعةً
كجهرِ الصلاةِ تلاه القُنُوتْ

بَدَا لي من العزِّ وجهُ شبابْ يُؤَمِّلُ سَيْبي[3] وبأسي يُهَابْ

(1) هذا التخميس في أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٣١).
(2) في أزهار الرياض: «يصوت».
(3) السَّيْبُ: العطاء. القاموس المحيط (سيب).

فسرعان مُزّقَ ذاك الإهابْ ومدّت وقد أنكرتنا الثيابْ

علينا نسائجَهَا العنكبوتْ

فآها لعزّ تَقَضّى مناما منحنا به الجاه قومًا[1] كراما
وَكُنّا نسوسُ أمورًا عظاما وكُنا عظامًا فصرْنا عظاما

وكنّا نقوتُ فها نحن قوتْ

وكُنّا لدى الملك حَلْيَ الطُّلى فآهًا عليه زمانًا خلا
نُعَوَّضُ من جِدَّةٍ بالبلى وكُنّا شموسَ سماءِ العُلاَ

غربنا فناحتْ علينا السُّمُوتْ

تَعَوَّدْتُ بالرغم صرف الليالي وحَمَّلْتُ نفسيَ فوقَ احتمالي
وأيقنتُ أن سوف يأتي ارتحالي ومَنْ كان منتظرًا للزوالِ

فكيف يؤمِّلُ منه الثبوتْ

هو الموتُ يا ما له من نَبا يجوزُ الحجابَ إلى مَنْ أبى
ويألفُ أخذَ سَنِيّ الْحُبَا فكم أسلمتْ ذا الحسام الظُّبا

وذا البخت كم جَدَّلَتْهُ البُخُوتْ

هو الموتُ أفْصَحَ عن عُجْمَةٍ وأيقظَ بالوعظِ من خفقةٍ
وسَلّى عَنِ الحزنِ ذا حرقةٍ وكم سيقَ للقبر في خرقةٍ

فتى مُلئت من كسَاه التخوتْ

تَقَضّى زماني بعيشٍ خصيبِ وعندي لذنبي انكسارُ المنيبِ
وها الموت قد صبتُ منه نصيبي فقلْ للعِدا ذَهَبَ ابنُ الخطيبِ

وفات ومن ذا الذي لا يفوتْ

مَضَى ابنُ الخطيب كمنْ قَبْلَهُ ومن بعده يقتفي سُبْلَهُ

---

(١) في أزهار الرياض: «دومًا».

وهـذا الـردى نـاثرٌ شَـمْـلَـهُ فمـن كـان يـفـرحُ مـنـهـم لـهُ

فقل: يفرح اليوم من لا يموتْ

هـو المـوتُ عَـمٌّ فـمـا لـلـعـدا يُسَرُّون بِي حين ذقتُ الردى
ومـن فـاتـه الـيـومَ يـأتـي غـدا (سيبلى الجديدُ إذا ما المدى

تَـتـابَـعَ آحـادُه والـسُّـبـوتْ

أُخَـيَّ تَـوَخَّ طـريـقَ الـنـجـاةِ وقَدِّمْ لنفسك قبلَ المماتِ
وشَـمِّـرْ بـجـدٍّ لـمـا هـو آتِ ولا تـغـتـرزْ بـسـرابِ الـحـيـاةِ

فـإنـك عـمَّـا قـريـبٍ تـمـوتْ

وقد ذكرني قوله رحمه اللّه تعالى «فمن كان يفرح منهم له . إلى آخره» قولَ بعض العلماء الشاميين: [الكامل]

يا ضاحكًا بمن استقلَّ غباره سيثور عن قدميك ذاك العِثْيَرُ[(١)]
لا فارس بجنودها مَنَعَتْ حمى كسرى، ولا للروم خُلِّدَ قيصرُ
جَدَدٌ مَضَتْ عادٌ عليه وجُرْهمٌ وتلاهُ كهلان وعَقَّبَ حِمْيَرُ[(٢)]
وسطا بغَسَّان الملوك وكِنْدَة فـلـهـا دمـاء عـنـده لا تُـثْـأَرُ
لعبت بهم فكأنهم لم يخلقوا ونُسُوا بها فكأنهم لم يُذْكروا

وما أحسن قول أبي الخطاب بن دَحْية، الحافظ بعد كلام ما صورته[(٣)]: وأخذت من طريق خوزستان إلى طريق حلوان، وقاسيت من الغربة أصناف الألوان، ومررت على مدائن كسرى أنوشروان، وزرت بها قبر صاحب النبيّ، ﷺ، الزاهد العابد المعمَّر سَلْمان، وأعملت منها السير والإغذاذ[(٤)]، إلى مدينة بغذاذ[(٥)]، فنظرت إليها معالم وربوعًا، وأقمت

(١) العِثْيَرُ: الغبار. لسان العرب (عثر).
(٢) الجَدَدُ، بالفتح: المستوي من الأرض. يقول: إن هذا الطريق سلكها عاد وجرهم وغيرها، أي أنه لا يتخلف أحد عن السير فيها. لسان العرب (جدد).
(٣) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس (ص ١٦٨).
(٤) الإغذاذ: الإسراع. لسان العرب (غذذ).
(٥) بغذاذ: لغة في بغداد.

بها مرة عامًا ومرة أسبوعًا وأسبوعًا، وأنا أُبدي في ندائهم وأُعيد، والترب قد علا على منازلهم والصعيد، وأسأل عن الخلفاء الماضين وأَنْشُدُ[1]، ولسان الحال يجاوبني ويُنْشِدُ:
[مخلع البسيط]

يا سائلَ الدارِ عن أناسٍ ... ليس لهمْ نحوها مَعَادُ
مَرَّتْ كما مَرَّت الليالي ... أين جَدِيسٌ وأين عادُ

بل أين أبو البشر آدم الذي خلقه بيده الكبيرُ المتعال؟ أين الأنبياء من ولده والأرسال؟ أهلُ النبوّة والرسالة، والوحي من اللَّه ذي الجلالة؟ أين سيدهم محمد الذي فضّله عليهم ذو العزّة والجلال، وجعله شفيعهم مع أُمّته والناسُ في شدائد الأهوال؟ أين القرون الماضية والأجيال؟ أين التبابعة والأقيال[2]؟ أين ملوك هَمْدان؟ أين أُولو الأبلق[3] الفرد أو غُمْدان؟ أين أُولو التيجان والأكاليل؟ أين الصِّيد والبهاليل؟ بل أين النماردة وأكبرهم نمروذ إبراهيم الخليل؟ أين الفراعنة ومَنْ هو بالسحر عليم، الذين منهم فرعون موسى الكليم؟ أين ملك الهدنانية هدد بن بدد الكردي، الذي لم يكن غدره بمفيد له ولا مُجْدي؟ وقد أخبر الحقُّ جلَّ جلاله عنه أنه كان يأخذ كل سفينة غَصْبًا، وزعم المؤرخون أنه كان أيضًا يملأ القلوب رُعْبًا، ويَسُوم أصحابه قتلاً وصَلْبًا، مع الطمع في المال، وعدم النظر في عقبى المآل. أين الفُرس وملوكها، وعدلها وعدولها؟ أين دارا بن دارا بن بهمان؟ أين إسكندر بن فلبس اليوناني الذي غلبه وملك بلاده في ذلك الزمان؟ وأطاعه جميع ملوك الأقاليم، وقدر اللَّه به امتحانَ الخلق ذلك تقدير العزيز العليم؟ أين كسرى وقيصر؟ غلبهما من الموت الأسد القَسْوَر، بعد أن أخرجهما من بلادهما أمير المؤمنين أبو حفص عُمَر، لما ظهرت الملّة الحنيفية كما ظهرت الشمس وبَدَا القمر، أين أولاد جَفْنَة وملوك غَسَّان؟ أين مماديح زياد وحسّان[4]؟ أين هَرِم بن سنان؟ أين المُلاَعب بالسِّنان[5]؟ أين أولاد مضر بن نزار بن معد بن عدنان؟ أين بنو عبد المَدَان؟ أين أرباب العواصم؟ أين قيس بن عاصم؟ أين العرب

---

(١) أَنْشُدُ: أطلب. لسان العرب (نشد).
(٢) الأقيال: جمع قيل وهو لقب لملوك اليمن. لسان العرب (قيل).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١١٦): «الأبرق».
(٤) زياد: هو النابغة الذبياني. حسّان: هو حسّان بن ثابت الأنصاري، شاعر النبيّ ﷺ.
(٥) مُلاعب الأسنّة أو السِّنان: هو لقب أبي براء عامر بن مالك بن جعفر.

العَرْباء الأمّة الفاضلة، والجماعة المناضلة؟ أين أُولو الباسِ والحِفاظ، وذوو الحميّة والإحفاظ؟ حيث الوفاء والعهد، والحِباء والرِّفد، إلى علوّ الهمم، والوفاء بالذِّمم، والعطاء الجَزْل، والضيف والنزل، وهبة الأقَال[1] والبُزْل، وإنها لا تدين عزًّا ولا تُقَاد، ولا ترام أَنَفَة ولا تفاد، أين قريش المغرورة في الجاهلية بالحي اللقاح، والشعب الْوَقاح؟ أين الماضون من ملوك بني أمية ذوو الألسن الذلُق، والأوجه الطلق؟ والحميّة؟ أين خلفاء بني العباس بن عبد المطلب، الذين شرفُهم بالأصالة وليس إليهم بالمنجلب؟ ذوو الشرف الشامخ، والفخر الباذخ، والخلافة السنيّة الرضية، والمملكة العامة المرضية. بلغتنا واللّه وفاتُهم، ولم يبق إلاّ ذكرهم وصفاتهم، قبض ملك الموت أرواحهم قبضًا، ولم يترك لهم حراكًا ولا نبضًا، ومزّق الدود لحومهم قددًا، ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربُّك أحدًا، إلاَّ ما كان من أجساد الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم، فإنَّ اللّه تعالى حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، وقد تكلمتُ على هذا الحديث وأثبتُّ أنه من الصحيح لا السقيم، وخرجت طرقه في كتابي «العلم المشهور»[2] بعون من العزيز الرحيم، فما أبعد المرء عن رشده وما أقصاه، كم وعظه الدهر وكم وصاه، يخلط الحقيقة بالمحال، والعاطل بالحال[3]، ولا توبة حتى يشيب الغراب، ويألف الدم التراب، فيا لهفي لبعد الدار، وانقضاض الجدار، وأنت هامةُ ليل أو نهار، وقاعد من عمرك على شَفَا[4] جُرُفٍ هار، تقرأ العلم وتدّعيه، ولا تفهمه ولا تعيه، فهو عليك لا لك، فأولى لك ثم أولى لك، أما آن لليل الغي أن تنجلي أحلاكه[5]، ولنظم البغي أن تنتثر أسلاكه، وأن يستفظع الجاني جَنّاه، ويأسف على ما اقترفه وَجنَاه، وأن يلبس عهاده بتًّا، ويطلق الدنيا بتًّا، ويفرّ منها فرار الأسد، ويتيقّن أنه لا بدّ من مفارقة الروح الجسد، نبهنا اللّه تعالى مِنْ سِنَات غفلاتنا، وحسن ما ساء من صنائعنا الذميمة وسلاتنا، وجعل التقوى أحصن عُددنا وأوثق آلاتنا، اللهمّ إليك المآب، وبيدك المتاب، قد واقعنا الخطايا، وركبنا الأجرام رواحل ومطايا، فَتُبْ علينا أجمعين، وأدخلْنا برحمتك في عبادك الصالحين الطائعين، وصلّى اللّه على سيد ولد آدم محمد شفيعنا يوم

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١١٧): «الأفال».

(٢) اسم الكتاب كاملاً هو: «العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور».

(٣) العاطل: الذي لا يلبس حليًا. الحالي: الذي يلبس الحلي. لسان العرب (عطل) و (حلا).

(٤) الشَّفا: حَرْفُ كلِّ شيء وحدُّه. محيط المحيط (شفا).

(٥) الأحلاك: جمع حلك وهو الظلمة. لسان العرب (حلك).

القيامة، وصاحب الحوض المورود والمقام المحمود والكرامة، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه أهل الرضوان المنتخبين، وسلام اللّه عليه وعليهم إلى يوم الدين؛ انتهى وهو آخر كتابه «النبراس، في تاريخ بني العباس» وذكرته بطوله لمناسبته.

قلت: وقد سلكت هذا المنحىٰ نظمًا في خطبة هذا الكتاب كما مَرَّ، وللسان الدين رحمه اللّه تعالى كلام قريب من هذا سيأتي في نثره إن شاء اللّه تعالى.

وأقول: إني قد تذكّرت هنا قول القائل[1]: [البسيط]

نطوي سُبُوتًا وآحادًا وننشرُها ... ونحن في الطَّيِّ بين السبت والأحدِ
فَعُدَّ ما شئتَ من سبتٍ ومن أحدِ ... لا بُدَّ أن يدخل المطويُّ في العَدَدِ

وقول الآخر: [الطويل]

ألم تَرَ أنَّ الدهرَ يومٌ وليلةٌ ... يَكرَّانِ من سبتٍ عليك إلى سبتِ
فقلْ لِجَدِيد العيش لا بُدَّ مِنْ بِلىً ... وقُلْ لاجتماع الشمل لا بُدَّ من شَتِّ[2]

واعلمْ أنَّ لسان الدين لما كانت الأيام له مسالمة، لم يقدر أحد أن يواجهه بما يدنّس معاليه أو يطمس معالمه، فلمّا قلبت الأيام له ظهر مِجَنِّها[3]، وعاملته بمنعها بعد منحها ومَنِّها، أكثر أعداؤه في شأنه الكلام، ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربقة الإسلام، بتنقّص النبيّ عليه أفضل الصلاة والسلام، والقول بالحلول والاتحاد، والانخراط في سلك أهل الإلحاد، وسلوك مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد، وغير ذلك مِمّا أثاره الحقدُ والعداوة والانتقاد، مقالات نسبوها إليه خارجة عن السنن السويِّ، وكلمات كدروا بها مَنْهَل علمه الرِّوِيّ، ولا يدين بها ويفوه إلاّ الضالُّ الغويّ، والظنُّ أنّ مقامه رحمه اللّه تعالى من لبسها بَرِي، وجنابه سامحه اللّه تعالى عن لبسها عَرِي. وكان الذي تولّى كبر محنته وقَتْله، تلميذه أبو عبد اللّه بن زَمْرَك الذي لم يزل مضمرًا لِخَتْلِهِ[4]، فلقد وقفت على خطّ ابن لسان الدين على أنه تسبّب في قتل لسان الدين أبيه، وسيأتي الإلماع والإلمام بابن زمرك المذكور في

---

(١) أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٣٤).
(٢) الشَّتُّ: التفرّق. لسان العرب (شتت).
(٣) المِجَنُّ: التُّرس، وقوله: «قلب له ظهر المجنّ»، أي تغيّر عليه، وهو مثل يُضرب لمن كان لصاحبه على مودّة ورعاية ثم حال عن العهد. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ١٠١) ومحيط المحيط (جنن).
(٤) الخَتْلُ: الخداع. لسان العرب (ختل).

تلامذة لسان الدين، مع أنه - أعني لسان الدين - حلاه في الإحاطة أحسن الحِلىٰ، وصدقه فيما انتحله من أوصاف العلا، وقد سبق في كلام ولي الدين ابن خلدون أنه قدم على السلطان أبي العباس أحمد المريني في شأن الوزير ابن الخطيب، وأخرج إلى مجلس الخاصة، وامْتُحن المجالسُ بالأعيان غاصّة، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه.

ومن أعدائه الذين باينوه بعد أن كانوا يسعون في مرضاته سَعْيَ العبيد، القاضي أبو الحسن بن الحسن النباهي، فكم قبَّل يده، ثم جاهره بعد انتقال الحال، وجَدَّ في أمره مع ابن زَمْرك حتى قتل لسان الدين، وانقضت دولته، فسبحان من لا يتحوّل ملكه ولا يبيد.

وقد سبق فيما جلبْناه من كلام ابن خلدون أن القاضي ابن الحسن قدم على السلطان عبد العزيز في شأن لسان الدين والانتقام منه بسبب تلك السجلات وإمضاء حكم اللّه فيه بمقتضاها، فأبى السلطان من ذلك، وقال: هلاً فعلتم أنتم ذلك حين كان عندكم؟ وامتنع لذمته أن يَخْفِرَهُ[1]، فلمّا أراد اللّه بنفوذ الأمر، وعدم نفع زيد وعمرو، توفي السلطان عبد العزيز، واختلّت الأحوال، واضطربتْ بالمغرب نيرانُ الأهوال، فقدم في شأنه الوزير الكاتب ابن زَمْرك خادمه الذي رباه وصنيعته، فكان ما كان مِمّا سبق به الإلمام.

وقد ذكرنا في الباب الأول قول لسان الدين رحمه اللّه تعالى في قصيدته النونية[2]:
[الطويل]

تَلَوّن إخواني عليَّ وقد جنتْ ... عليَّ خطوبٌ جَمَّةٌ ذاتُ ألوانِ
وما كنتُ أدري قبل أن يتنكّروا ... بأن خِوَاني كان مجمع خُوَّاني[3]
وكانت وقد حُمَّ القضاء صنائعي ... عليَّ بما لا أرتضي شَرَّ أعوانِ

ولقد صدق رحمه اللّه تعالى، على أنه قال هذه القصيدة في النكبة الأولى التي انتقل فيها مع سلطانه إلى المغرب، كما مَرَّ مفصَّلاً، وكأنه عبّر عن هذه المحنة الأخيرة التي ذهبت فيها نفسه على يد صنائعه الكاتب ابن زَمْرك والقاضي ابن الحسن، سامح اللّه الجميع!.

---

(١) يخفره: ينقض عهده. لسان العرب (خفر).
(٢) تقدمت هذه الأبيات، ضمن قصيدة نونية طويلة، في هذا الجزء.
(٣) الخِوان، بكسر الخاء: المائدة. الخُوّان، بضمّ الخاء وتشديد الواو: جمع خائن. لسان العرب (خون).

ويرحم اللّه أبا إسحاق التلمساني صاحب الرجز في الفرائض حيث يقول: [المنسرح]

الغدرُ في الناس شيمةٌ سَلَفَتْ قد طال بين الورى تَصَرُّفُها
ما كلُّ مَنْ قد سَرَتْ له نعمٌ منك يرى قدرها ويعرفُها
بل ربما أعقبَ الجزاء بها مضرةً عزَّ عنكَ مَصْرِفُها
أما ترى الشمس كيف تعطف بالنو ر على البَدْرِ وهو يكسفها

وقال لسان الدين، بعد ذكره أنَّ ملك النصارى دون جانجه بن دون ألفنش استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، ولاذ به، ورهن عنده تاجه ذخيرة النصارى، ولقيه بصخرة عباد من أحواز رُنْدة، فسلّم عليه، ويقال: إن أمير المسلمين لمّا فرغ من ذلك طلب بلسان زَنَاتة الماء ليغسل يده به من قُبْلة ألفنش أو مصافحته، ما نصُّه[1]: والشيء بالشيء يُذكر، فأُثْبِتُ حكايةً اتفقتْ لي بسبب ذلك، أَسْتَدْعي بها الدعاءَ ممَّن يَحْسُن عنده موقعُها، وهي أنَّ اليهوديَّ الحكيمَ ابن زَرْزار، على عهد ملك النصارى حفيد هذا ألفنش المذكور، وصل إلينا بغرناطة في بعض حوائجه[2]، ودخل إليَّ بدار سُكْناي مُجاوِرَ القصر السلطاني بحمراء غرناطة، وعندي القاضي اليومَ بغرناطة وغَيْرُهُ من أهل الدولة، وبيده كتابٌ من سلطان المغرب محمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان الكبير المولى أبي الحسن[3]، وكان محمدٌ هذا قد فَرَّ إلى صاحب قَشْتالة، واستدعي من قِبَلِهِ إلى[4] الملك، فسهّل له ذلك، وشرط عليه ما شاءَ، وربّما وَصَلَهُ خطابُه بما لم يقنعه في إطرائه، فقال لي: «مولاي السلطان دُنْ بطره يسلّم عليك، ويقول لك: انظرْ مخاطبةَ هذا الشخص، وكان بالأمس كَلْبًا من كلاب بابه، حتى ترى خسارة الكرامة فيه». فأخذتُ الكتابَ من يده وقرأتُه، وقلت له: «أبلغه عنّي أنَّ هذا الكلامَ ما جرَّك إليه إلاَّ خلوُّ بابك من الشيوخ الذين يعرِّفونك بالكلاب وبالأُسُود، وبمن تُغْسَلُ الأيدي منهم إذا قَبَّلُوها، فَتَعلم مَنِ الكلبُ الذي تُغْسَلُ اليدُ منه ومَنْ لا. وإنَّ جدَّ هذا الولد هو الذي قَبَّلَ جَدُّك يَدَهُ واستدعى

(١) أعمال الأعلام (القسم الثاني من ٣٣٣ ـ ٣٣٤).
(٢) في أعمال الأعلام: «وصل إلينا في حوائجه..».
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٢١): «أبي الحسين».
(٤) كلمة «إلى» غير واردة في أعمال الأعلام.

الماءَ لغسل يده منه بمحضر النصارى والمسلمين، ونسبةُ الجَدّ إلى الجدّ كنسبة الحفيد للحفيد[1]، وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعارٍ عليه، وأنت[2] مُعَرَّضٌ إلى اللَّجَإِ إليه فيكافئك بأضعاف ما عامَلْتَهُ به». فقام أبو الحسن المستقضي يبكي، ويقبِّل يدي، ويَصِفُني بوليّ اللّه، وكذلك مَنْ حضرني. وتوجّه إلى المغرب رسولاً، فقصَّ على بني مرين خبر ما شاهده مني وسمعه، وبالحضرة اليوم ممّن تلقّى منه ذلك كثيرٌ، جعل اللّه تعالى ذلك خالصًا لوجهه! انتهى.

وقد أثنى لسان الدين في «الإحاطة» على القاضي ابن الحسن[3] المذكور كما سيأتي، وقال في ترجمة السلطان ابن الأحمر ما نصُّه[4]: ثم قدّم للقضاء الفقيه الحسيب أبا الحسن، وهو عين الأعيان بمالَقَةَ، المخصوص برسم التجلّة والقيام بالعقد[5] والحلّ، فسدَّد وقارب، وحمل الكَلَّ[6]، وأحسن مصاحبة[7] الخطبة والخطة، وأكرم المَشْيخة مع النزاهة، ولم يقف في حسن التأني[8] على غاية، فاتّفق على رجاحته، ولم يقف في النصح عند غاية؛ انتهى.

وحين أظلم الجوُّ بينه وبين لسان الدين ذكره في «الكتيبة الكامنة»[9]، بما يباين ما سبق، ولقّبه بالجُعسوس[10]، ولم يقنعه ذلك حتى ألّف فيه «خلع الرسن في وصف القاضي ابن الحسن».

وقد وقفت بفاس المحروسة على كتاب مطوّل كتبه ابن الحسن للسان الدين بعد

---

(١) في أعمال الأعلام: «إلى الحفيد».
(٢) في أعمال الأعلام: «وإنّك».
(٣) هو أبو الحسن علي بن عبد اللّه بن الحسن الجذامي النباهي المالقي، وترجمته في الإحاطة (ج ٤ ص ٨٨ ـ ٩٠).
(٤) النص في الإحاطة (ج ٢ ص ٣٧).
(٥) في الإحاطة: «والقيام بوظيفة العَقْد..».
(٦) الكَلُّ، بفتح الكاف وتشديد اللام: الضعيف. لسان العرب (كلل).
(٧) في الإحاطة: «فصاحة».
(٨) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٢١): «التأتي».
(٩) انظر الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣).
(١٠) الجُعْسُوس: القصير الدميم، محيط المحيط (جعس).

تحوّله عن الأندلس، ونص ما تعلّق به الغرضُ هنا[1]: «فشرعتم في الشراء، وتشييد البناء، وتركتم الاستعداد لهاذم اللذات، هيهات هيهات، تبنون ما لا تسكنون، وتدَّخرون ما لا تأكلون، وتؤملون ما لا تدركون؟ ﴿أينما تكونُوا يُدْرِكُكُمُ الموتُ ولو كُنتُمْ في بروجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[2] فأين المهرب مِمّا هو كائن، ونحن إنما نتقلّب في قدرة الطالب، شرقتم أو غربتم، والأيام تتقاضى الدَّيْنَ، وتنادي بالنفس الفَرَّارة إلى اَين إلى أين، ونترك الكلام مع الناقد فيما ارتكبه من تزكية نفسه، وعَدِّ ما جلبه من مناقبه، ماعدا ما هدّد به من حديد لسانه، خشية اندراجه في نمط من قال فيه رسول اللّه ﷺ «إنَّ مِنْ شرِّ الناس من تَرَكَه الناسُ اتِّقاءَ فُحْشِهِ» ولا غيبة فيمن ألقى جلباب الحياء عن وجهه، وزخمه[3] على ما أبداه أو أهداه من العيوب التي نسبها لأخيه، واستراح على قوله بها فيه، ونذكره على طريقة نصيحة الدين بالحديث الثابت في الصحيح عن رسول اللّه ﷺ، وهو قوله «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إنَّ المفلس مِنْ أُمّتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيُعْطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم، فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار». ويعلم اللّه أنَّ معنى هذا الحديث الثابت عن النذير الصادق، هو الذي حملني على نصحكم، ومراجعتكم في كثير من الأمور: منها الإشارة عليك بإذهاب عين ما كتبتم به في التاريخ وأمثاله، فإنكم نفعتم بما وقعتم فيه من الغيبة المحرمة أحياء وأمواتًا لغير شيء حصل بيدكم وضررتم نفسكم بما رتبتم لهم من المطالبات بنصِّ الكتاب والسُّنَّة قِبَلَكم، والرضا بهذه الصفقة الخاسرة أمر بعيد من الدين والعقل. وقد قلت لكم غير مرة عن أطراسكم[4] المُسَوَّدة بما دعوتم إليه من البدعة والتلاعب بالشريعة إنَّ حقّها التخريق والتحريق، وإنّ من أطراها[5] لكم فقد خدع نفسه وخدعكم، واللّه الشهيد بأني نصحتكم وما غششتكم، وليس هذا القول وإن كان ثقيلاً عليكم بمخالف كلّ المخالفة

---

(1) كتاب ابن الحسن إلى لسان الدين في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢١٢ وما بعدها).

(2) سورة النساء ٤، الآية ٧٨.

(3) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٢٢): «ونرحمه». وزخمه: دفعه دفعًا شديدًا. لسان العرب (زخم).

(4) الأطراس: جمع طرس وهو الصحيفة. لسان العرب (طرس).

(5) أطراها: مدحها. لسان العرب (طرا).

لما ذنّبتم[1] به من تقدّم المواجهة بالملاطفة والمعاملة بالمكارمة، فليست المداراة بقادحة في الدين، بل هي محمودة في بعض الأحوال، مستحسنة على ما بيّنه العلماء، إذ هي مقاربة في الكلام أو مجاملة بأسباب الدنيا لصلاحها أو[2] إصلاح الدين، وإنما المذموم المداهنة، وهي بذل الدين لمجرد الدنيا، والمصانعة به لتحصيلها، ومن خالط للضرورة مثلكم، وزايله بأخلاقه ونصحه مخاطبة ومكاتبة، واستدلّ له بكتاب اللّه تعالى وسُنَّة رسول اللّه ﷺ، على صحّة مقالته، فقد سلم والحمد للّه من مداهنته، وقام للّه تعالى بما يجب عليه في حقكم من التحذير والإنكار مع الإشفاق والوجل[3]. وأكثرتم في كتابكم من المنّ[4] بما ذكرتم أنكم صنعتم. وعلى تقدير الموافقة لكم ليتكم ما فعلتم، فسلمنا من المعرة[5] وسلمتم، وجلّ القائل سبحانه: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ومَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يتْبَعُها أَذىً، واللّهُ غنيٌّ حَلِيمٌ﴾[6] وقلّما شاركتم أنتم في شيء إلاّ بأغراض حاصلة في يدكم، ولأغراض دنيوية خاصة بكم، فالملام إذن في الحقيقة إنما هو متوجّه إليكم، وأمّا ما أظهرتم بمقتضى حركاتكم وكلامكم من التندّم على فراق محلّكم، والتَّعَلُّل بأخبار قطركم وأهلكم، فتناقض منكم وإن كنتم فيه بغدركم: [الطويل]

أتبكي على ليلى وأنتَ تركْتَها ... فكنتَ كآتٍ غَيَّه وهو طائعُ
وما كُلُّ ما مَنَّتْك نفسُكَ مخليًا ... تُلاَقِي، ولا كلّ له أنتَ تابعُ
فلا تبكينْ في إثر شيء ندامةً ... إذا نَزَعَتْهُ من يديكَ النوازعُ

وعلى أن تأسفكم لما وقعتم فيه من الغدر لسلطانكم، والخروج لا لضرورة غالبة عن أوطانكم، من الواجب بكلّ اعتبار عليكم، سيما وقد مددتم إلى التمتّع بغيرها عينيكم، ولو لم يكن بهذه الجزيرة الفريدة من الفضيلة إلاّ ما خُصّت به من بركة الرباط ورحمة الجهاد لكفاها فخرًا على ما يجاورها من سائر البلاد، قال رسول اللّه ﷺ: «رباط يوم في سبيل اللّه خيرٌ من ألف يوم فيما سواه»، وقال عليه الصلاة والسلام «الرَّوْحَة يروحها العبد في سبيل

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٢٣): «زُننتم به». وزُنَّ به: اتّهم به. لسان العرب (زنن).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «وإصلاح».
(٣) الوجل: الخوف. لسان العرب (وجل).
(٤) المنُّ: تعداد النعم على المنعم عليه. لسان العرب (منن).
(٥) المعرّة: الإثم والأذى. محيط المحيط (عرر).
(٦) سورة البقرة ٢، الآية ٢٦٣.

اللّه والغدوة خير من الدنيا وما فيها» وعلى كلّ تقدير فإذا لم يكن يا أخي فراركم من الأندلس إلى اللّه وحده بالتوبة المكملة، والاستغفار مع الانقطاع في أحد المواطن المكرمة المعظمة بالإجماع، وهي طَيْبة أو مكة أو بيت المقدس، فقد خسرتم صفقة رحلتكم، وتبين أن لغير وجه اللّه العظيم كانت نيّة هجرتكم، اللهمّ إلاّ إن كنتم قد لاحظتم مسألة الرجل الذي قتل مائة نفس، وسأل أعلم أهل الأرض فأشار عليه بعد إزماع التوبة بمفارقة المواطن التي ارتكب فيها الذنوب، واكتسب بها العيوب، فأمر آخر، مع أنّ كلام العلماء في هذا الحديث معروف. ويقال لكم من الجواب الخاص بكم: فعليكم إذًا بترك القيل والقال، وكسر حربة الجدال والقتال، وقصر ما بقي من مدة العمر على الاشتغال بصالح الأعمال.

ووقعت في مكتوبكم كلمات أوردها النقد في قالب الاستهزاء والازدراء، والجهالة بمقادير الأشياء، ومنها «ريح صرصر» وهو لغة القرآن، و «قاع قَرْقر»[1] وهو لفظ سيد العرب والعجم محمد ﷺ، ثبت في الصحيح في باب التغليظ فيمن لا يؤدي زكاة ماله. قيل: يا رسول اللّه، والبقر والغنم؟ قال «ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقّها إلاّ إذا كان يوم القيامة بُطِح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئًا، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها. الحديث الشهير». قال صاحب المعلم: بُطح لها بقاع قرقر: أي أُلقي على وجهه، والقاع: المستوي من الأرض، والقرقر: كذلك، هذا ما حضر من الجواب، وبقي في مكتوبكم حشو كثير من كلام إقذاع وفحش بعيد من الحشمة والحياء رأيت من الصواب الإعراضَ عن ذكرهِ، وصَوْن اليد عن الاستعمال فيه، والظاهر أنه إنما صدر منكم وأنتم بحال مرض، فلا حرج فيه عليكم[2]، أنسأ اللّه تعالى أجلكم[3]، ومكّن أمنكم، وسكن وَجَلكم، ومنه جَلَّ اسمه نسأل لي ولكم حُسْنَ الخاتمة، والفوز بالسعادة الدائمة، والسلام الأتم يعتمدكم، والرحمات والبركات من كاتبه علي بن عبد اللّه بن الحسن وفّقه اللّه، وذلك بتاريخ أخريات جمادى الأولى من عام ثلاثة وسبعين وسبعمائة».

وقيّد رحمه اللّه تعالى في مدرج طي هذا الكتاب ما نصُّه: «يا أخي - أصلحني اللّه وإياكم! - بقي من الحديث شيء الصوابُ الخروجُ عنه لكم، إذ هذا أوانه، وتأخير البيان عن

---

(١) القرقر: المنخفض من الأرض. لسان العرب (قرقر).

(٢) يشير إلى قول اللّه تعالى: ﴿ليس على الأَعْمَى حَرَجٌ، ولا على الأَعْرَجِ حَرَجٌ، ولا على المريضِ حَرَجٌ﴾. سورة النور ٢٤، الآية ٦١.

(٣) أنسأ أجلكم: أجّل مدة بقائكم وأطال عمركم. لسان العرب (نسأ).

وقت الحاجة فيه ما فيه، وليكون البناء بعد أن كان على أصل صحيح بحول اللّه، وحاصله أنكم عددتم ما شاركتكم فيه بحسب الأوقات، وقطعتم بنسبة الأمور كلّها إلى أنفسكم، وأنها إنما صدرت عن أمركم وبإذنكم، من غير مشارك في شيء منها لكم، ثم مَنَنتم بها المنَّ القبيح المبطل لعمل برّكم على تقدير لتسليم في فعله لكم، ورميتم غيركم بالتقصير في حاله كلّه، طريقَةَ من يُبْصِرُ القذَى في عين أخيه ويدع الجِذْعَ في عينه، وأقصى ما تسنّى للمحبّ أيام كونكم بالأندلس تقلّد كلفة قضاء الجماعة، وما كان إلاّ أن وليتها بقضاء اللّه وقدره، فقد تبيّن لكلّ ذي عقل سليم أنه لا مُوجِدَ إلاّ اللّه، وأنه إذا كان كذلك كان الخير والشرُّ والطاعة والمعصية حاصلاً بإيجاده سبحانه وتخليقه وتكوينه من غير عاضد له على تحصيل مُراده ولا مُعين، ولكنه جلَّتْ قدرتُه وعد فاعل الخير بالثواب فضلاً منه، وأوعد[1] فاعل الشرّ بالعقاب عدلاً منه، وكأني بكم تضحكون من تقرير هذه المقدمة، وما أحوجكم إلى تأمّلها بعد اليقين، فكابدت أيام تلك الولاية النكدة من النكاية باستحقاركم للقضايا الشرعية، وتهاونكم بالأمور الدينية، ما يعظم اللّه به الأجر، وذلك في جملة مسائل: منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة بعد تقضي موجباته على كره منكم، ومنها مسألة ابن العيش المثقف في السجن على آرائه المُضِلَّة التي كان منها دخوله على زوجه إثر تطليقه إياها بالثلاث، وزعمه أنّ رسول اللّه ﷺ، أمره مشافهة بالاستمتاع بها، فحمّلتم أحد ناسكم تَنَاوَلَ إخراجه من الثقاف من غير مبالاة بأحد، ومنها أنّ أحد الفتيان المتعلقين بكم توجّهت عليه المطالبة بدم قتيل، وسيق المدعى عليه للذبح بغير سكين، فما وسعني بمقتضى الدين إلاّ حبسه على ما أحكمته السنَّة، فأنفتم لذلك، وسجنتم الطالب وَلِيَّ الدم، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور، إلى غير ذلك مِمّا لا يسع الوقت شرحه، ولا يجمل بي ولا بكم ذكره. والمسألة الأخرى أنتم توليتم كِبْرَهَا حتى جرى فيها القدر بما جرى به من الانفصال، والحمد للّه على كلّ حال، وأمّا الرمي بكذا وكذا مِمّا لا علم لنا بسببه، ولا عذر لكم من الحقّ في التكلّم به، فشيء قلّما يقع مثله من البهتان مِمَّن كان يرجو لقاء ربّه، وكلامكم في المدح والهجو، هو عندي من قبيل اللغو، الذي نَمُرُّ به كرامًا[2] والحمد للّه، فكثّروا أو قَلّلوا من أي نوع شئتم، أنتم وما ترضونه لنفسكم، وما فهت لكم بما فهت من الكلام، إلاّ

(١) أوعد: هدّد وأنذر. لسان العرب (وعد).

(٢) إشارة إلى قول اللّه تعالى: ﴿والذين لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وإذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِرامًا﴾. سورة الفرقان ٢٥، الآية ٧٢.

على جهة الإعلام، لا على جهة الانفعال، لما صدر أو يصدر عنكم من الأقوال والأفعال، فمذهبي غير مذهبكم، وعندي ما ليس عندكم. وكذلك رأيتكم تكثرون في مخاطباتكم من لفظ الرُّقْيَة في معرض الإنكار لوجود نفعها، والرمي بالمنقصة والحمق لمستعملها، ولو كنتم قد نظرتم في شيء من كتب السُّنَّة وسِيَرِ الأُمَّة المسلمة نظر مصدق لما وسعكم إنكار ما أنكرتم، وكتبه بخطّ يدكم، فهو قادح كبير في عقيدة دينكم، فقد ثبت بالإجماع في سورة الفلق أنها خطاب للنبي ﷺ، وأنه المراد بها هو وآحاد أُمّته، وفي أُمّهات الإسلام الخمس أنّ رسول اللّه ﷺ «كان إذا اشتكى رَقَّاه جبريل، فقال: بسم اللّه يُبْرِيك، ومِنْ كلّ داء يشفيك، ومِنْ شرّ حاسد إذا حسد، ومن شَرّ كلّ ذي عين». وفي الصحيح أيضًا أنَّ ناسًا من أصحاب رسول اللّه ﷺ، كانوا في سفر، فمرّوا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فلم يضيفوهم، فقالوا: هل فيكم راقٍ فإنَّ سيد الحي لديغ[1]، أو مصاب؟ فقال رجل من القوم: نعم، فأتاه فرَقَّاه بفاتحة الكتاب، فبرىء الرجل، فأعطى قطيعًا من غنم ـ الحديثَ الشهير، قال أهل العلم: فيه دليل على جواز أخذ الأجرة على الرقية والطب وتعليم القرآن، وهو قول مالك وأحمد والشافعي وأبي ثور وجماعة من السلف، وفيه جواز المقارضة، وإن كان ضدّ ذلك أحسن، وفي هذا القدر كفاية. وما رَقَيْتُ قطّ أحدًا على الوجه الذي ذكرتم، ولا استرقيت والحمد للّه، وما حملني على تبيين ما بيَّنْتُه الآن لكم في المسألة إلاّ إرادة الخير التام لجهتكم، والطمع في إصلاح باطنكم وظاهركم، فإني أخاف عليكم من الإفصاح بالطعن في الشريعة، ورمي علمائها بالمنقصة على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم منكر علم الجزئيات، القائل بعدم قدرة الربِّ جلّ اسمه على جميع الممكنات. وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناسٍ أعلامٍ قلّما تجوز عليهم ـ حفظهم اللّه! المغالطات، فتأسركم شهادة العدول التي لا مدفع لكم فيها، وتقع الفضيحة، والدين النصيحة ، أعاذنا اللّه من درك الشقاء، وشماتة الأعداء، وجَهْدِ البلاء. وكذلك حذّركم من الوقوع بما لا ينبغي في الجناب الرفيع، جناب سيد المرسَلين، وقائد الغُرّ المحجَّلين[2]، صلوات اللّه وسلامه عليه، فإنه نُقِل عنكم في هذا الباب أشياء منكرة، يكبر في النفوس التكلّم بها، أنتم تعلمونها، وهي التي زرعت في القلوب ما زرعت من بغضكم، وإيثار

---

(١) اللديغ: الملدوغ. لسان العرب (لدغ).

(٢) الغُرُّ: جمع أغرّ وهو الأبيض الوجه. المُحَجَّلُ: الفرس الذي في قوائمه بياض، وفي الحديث الشريف: «أنا قائد الغُرّ المحجّلين من أثر الوضوء يوم القيامة». لسان العرب (غرر) و (حجل).

بَعدكم، مع استشعار الشفقة والوَجَل من وجه آخر عليكم، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلّص ظلّ السلطنة عنكم لكانت الأُمّة المسلمة امتعاضًا لدينها ودنياها، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحقّ منكم، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدُّوَل ما صدر عنكم من العَيْث في الأبشار[1] والأموال، وهتك الأعراض، وإفشاء الأسرار، وكشف الأستار، واستعمال المكر، والحيل والغدر، في غالب الأحوال للشريف والمشروف، والخادم[2] والمخدوم، ولو لم يكن في الوجود من الدلائل على صحة ما رضيتم به لنفسكم من الاتّسام بسوء العهد والتجاوز المحض وكفران النعم والركون إلى ما تحصَّل من الحطام الزائل إلاّ عملكم مع سلطانكم مولاكم وابن مولاكم أيّده اللّه بنصره وما ثبت من مقالاتكم السيئة فيه وفي الكثير من أهل قطره لكفاكم وَصْمة لا يغسِلُ دَنَسَها البحرُ، ولا ينسى عارها الدهرُ، فإنكم تركتموه أولاً بالمغرب عند تلوّن الزمان، وذهبتم للكدية والأخذ بمقتضى المقامة الساسانية إلى أن استدعاه الملك، وتخلّصت له بعد الجهد الأندلس، فسقطتم عليه سقوط الذباب على الحلواء، وضربتم وجوه رجاله بعضًا ببعض، حتى خلا لكم الجوّ، وتمكّن الأمر والنهي، فهمزتم ولمزتم[3]، وجمعتم من المال ما جمعتم. ثم وريتم بتفقّد ثغر الجزيرة الخضراء، مكرًا منكم، فلمّا بلغتم أرض الجبل انحرفتم عن الجادة، وهربتم بأثقالكم الهروب الذي أنكره عليكم مَنْ[4] بلغه حديثكم أو يبلغه إلى آخر الدهر في العُدْوتين من مؤمن وكافر وبرّ وفاجر، فكيف يستقيم لكم بعد المعرفة بتصرّفاتكم حازم، أو يثق بكم في قول أو فعل صالح أو طالح؟ ولو كان قد بقي لكم من العقل ما تتفكّرون به في الكيفية التي ختمتم بها عملكم بالأندلس من الزيادة في المغرم وغير ذلك مما لكم وزره ووزر من عمل به بعدكم إلى يوم القيامة[5] حسبما ثبت في الصحيح لحملكم على مواصلة الحزن، وملازمة الأسف والندم على ما أوقعتم فيه نفسكم الأَمّارة من التورّط والتنشّب في أشطان الآمال ودسائس الشيطان، ونعوذ باللّه من شرور الأنفس وسيئات الأعمال.

«وأمّا قولكم عن فلان «إنه كان حشرة في قلوب اللوز» و «إنَّ فلانًا كان برغوثًا في تراب الخمول» فكلام سفساف، يقال لكم من الجواب عليه: وأنتم يا هذا، أين كنتم منذ

---

(1) الأبشار: جمع البشر وهو الإنسان والخلق. محيط المحيط (بشر).

(2) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٢٨): «والخديم».

(3) إشارة إلى قول اللّه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾. سورة الهُمَزة ١٠٤، الآية ١.

(4) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٢٨): «عليكم كل من بلغه».

(5) إشارة إلى الحديث الشريف: «من سَنّ سُنَّةً سيئةً فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة».

خمسين سنة مثلاً؟ خلق اللّه الخلق لا استظهارًا بهم ولا استكثارًا، وأنشأهم كما قدَّر أحوالاً وأطوارًا، واستخلفهم في الأرض بعد أُمّة أممًا وبعد عصر أعصارًا، وكلفهم شرائعه وأحكامه ولم يتركهم هَمَلاً، وأمرهم ونهاهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴿إنَّ أَكْرَمَكُمْ عندَ اللّهِ أَتْقاكُمْ﴾[1] وبكل اعتبار فلا نعلم في نمط الطلبة تدريجًا كان أسمج من تدريجكم، ونبدأ من كذا فإنه كان كذا وأكثر أهل زمانه تحمّلاً وتقلّلاً في نفسه بالنسبة إلى منصبه كان الشيخ أبو الحسن بن الجياب، ولكنه حين علم رحمه اللّه تعالى من نشأتكم وحالتكم ما علم نبذ مصاهرتكم وصرف عليكم صداقكم، وكذلك فعلت بنت جُزَيّ زوج الرهيصي معكم، حسبما هو مشهور في بلدكم، وذكرتم أنكم ما زلتم من أهل الغنى حيث نقرتم بذكر العرض. وهو بفتح العين والراء، حطام الدنيا على ما حكى أبو عبيد، وقال أبو زيد: هو بسكون الراء، المال الذي لا ذهب فيه ولا فِضّة. وأيّ مال خالص يعلم لكم أو لأبيكم بعد الخروج من الثقاف على ما كان قد تبقّى عنه من مَجْبى قرية مترايل؟ ثم من العدد الذي برز قبلكم أيام كانت أشغال الطعام بيدكم على ما شهد به الجمهور من أصحابكم. وأمّا الفلاحة التي أشرتم إليها فلا حقّ لكم فيها إذ هي في الحقيقة لبيت مال المسلمين، مع ما بيدكم على ما تقرّر في الفقهيات، والمعدوم شرعًا كالمعدوم حسًّا، ولو قبل من أهل المعرفة بكم بعض ما لديهم من سقطاتكم في القال والقيل، ولم يصرف إلى دفع مَعَرَّتها[2] عنكم وجه التأويل، لكانت مسألتكم ثانية لمسألة أبي الخير، بل أبي الشرّ، الحادثة أيام خلافة الحَكَم، المسطورة في نوازل أبي الأصبغ بن سهل، فاعلموا ذلك، ولا تهملوا إشارتي عليكم قديمًا وحديثًا بلزوم الصلوات، وحضور الجماعات، وفعل الخيرات، والعمل على التخلّص من التبعات ﴿إنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدنيا ولا يَغُرَّنَّكُم باللّهِ الغَرُورُ﴾[3].

«وقلتم في كتابكم «أين الخطط المتوارثة عن الآباء والأجداد؟» وقد أذهب اللّه عنّا ببركة الملّة المحمدية عَيْبَةَ[4] الجاهلية في التفاخر بالآباء، ولكني أقول لكم على جهة

(١) سورة الحجرات ٤٩، الآية ١٣.
(٢) المَعَرَّةُ: الإثم والأذى. محيط المحيط (عرر).
(٣) سورة لقمان ٣١، الآية ٣٣.
(٤) العيبة: العيب. لسان العرب (عيب).

المقابلة لكلامكم: إن كانت الإشارة إلى المجيب بهذا فمن المعلوم المتحقَّق عند أفاضل الناس أنه من حيث الأصالة أحد أماثل قطره، قال القاضي أبو عبد اللّه بن عسكر[1] وقد ذكر في كتابه من سلفي فلان بن فلان، ما نصُّه: وبيته بيت قضاء وعلم وجلالة لم يزالوا يرثون ذلك كابرًا عن كابر، استقضى جدَّه المنصورُ بن أبي عامر، وقاله غيره وغيره، وبيدي من عهود الخلفاء وصكوك الأمراء المكتتبة بخطوط أيديهم من لدن فتح جزيرة الأندلس وإلى[2] هذا العهد القريب ما تقوم به الحجّة القاطعة للسان الحاسد والجاحد، والمنّة للّه وحده. وإن كانت الإشارة للغير من الأصحاب في الوقت حفظهم اللّه فكلّ واحد منهم إذا نُظر إليه بعين الحقّ وُجِدَ أقربَ منكم نسبًا للخطط المعتبرة، وأولى بميراثها بالفرض والتعصيب أو مساويًا على فرض المسامحة لكم. قال رسول اللّه، ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، حرام دمه وماله وعِرْضه».

«ونرجع إلى طريقة أخرى فنقول: من كان يا فلان من قومكم في عمود نسبكم نبيهًا مشهورًا، أو كاتبًا قبلكم معروفًا، أو شاعرًا مطبوعًا، أو رجلاً نبيهًا مذكورًا؟ ولو كان يا لوشي[3] وكان، لكان من الواجب الرجوع إلى التناصف والتواصل والتواضع، وترك التحاسد والتباغض والتقاطع: «إنّ اللّه لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وكذلك العجب كلّ العجب، من تسميتكم الْخَرِبات التي شرعتم في بنائها بدار السلام، وهيهات هيهات، المعروف من الدنيا أنها دار بلاء وجلاء وعناء وفناء، ولو لم يكن من الموعظة الواقعة بتلك الدار في الوقت إلاّ موت سعيدكم عند دخولها، لأغناكم عن العلم اليقين بمآلها.

---

(١) هو أبو عبد اللّه محمد بن علي بن الخضر بن هارون الغساني، المعروف بابن عسكر؛ من أهل مالقة، أديب وعالم بالتاريخ والحديث. توفي سنة ٦٣٦ هـ. ترجمته في الإحاطة (جـ ٢ ص ١٧٢) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٢٣) واختصار القدح المعلى (ص ١٣٠) وفي هذا الأخير أن وفاته سنة ٦٣٨ هـ. وهنا يشير إلى كتاب له عن تاريخ مالقة، أغلب الظن أنه «الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمجالس الأعلام من أهل مالقة الكرام»، وله اسم آخر هو «مطلع الأنوار ونزهة الأبصار، فيما احتوت عليه مالقة من الرؤساء والأعلام والأخيار، وتقيّد من المناقب والآثار». هكذا جاء في الإحاطة (ص ١٧٤). وجاء اسم هذا الكتاب في تاريخ قضاة الأندلس: «التكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٣١): «إلى».

(٣) اللوشي: نسبة إلى لوشة، وهي المدينة التي أصل منبت لسان الدين وأجداده.

«وأظهرتم سرورًا كثيرًا بما قلتم أنكم نلتم، حيث أنتم، من الشهوات التي ذكرتم أنَّ منها الإكثار من الأكل والخِرَق والقعود بإزاء جارية الماء على نطع الجلد، والإمساك أولى بالجواب على هذا الفصل، فلا خفاء بما فيه من الخسة والخبائث والخبث، وبالجملة فسرور العاقل إنما ينبغي أن يكون بما يجمل تقدّمه من زاد التقوى للدار الباقية، فما العيش. كما قال رسول اللّه، ﷺ[1] . إلاَّ عيش الآخرة، فقدموا إن قبلتم وَصَاة الحبيب أو البغيض بعضًا عسى أن يكون لكم، ولا تخلفوا كلاًّ يكون عليكم، هذا الذي قلته لكم، وإن كان لدى من يقف عليه من نمطِهِ الكثير، فهو باعتبار المكان وما مرَّ من الزمان في حيز اليسير، وهو في نفسه قول حقّ وصدق، ومستندُ أكثرِه كتابُ اللّه وسُنَّة محمد رسول اللّه، ﷺ، وعلى سائر أنبيائه. فاحمدوا اللّه العليّ العظيم على تذكيركم به إذ هو جارٍ مجرى النصيحة الصريحة، يَسَّرني اللّه وإياكم لليسرى، وجعلنا مِمَّنْ ذكر فانتفع بالذكرى، والسلام». انتهى كلام القاضي ابن الحسن النباهي في كتابه الذي خاطب به لسان الدين رحمه اللّه تعالى.

وأين هذا الكلام الذي صدر من ابن الحسن في حقّه من إنشاء لسان الدين رحمه اللّه تعالى في تولي ابن الحسن المذكور القضاء، وهو: «هذا ظهير كريم أنتج مطلوب الاختيار قياسُه، ودلّ على ما يرضي اللّه عزّ وجلّ التماسُه، وأطْلع نور العناية الذي يجلو الظلامَ نبراسُه، واعتمد بمثابة العدل من عرف باقتراع هضبتها ناسُه، وألقى بيد المعتمد به زمامَ الاعتقاد الجميل تروق أنواعُه وأجناسُه، وشيّد مبنى العزّ الرفيع، في قبّة الحسب المنيع، وكيف لا واللّه بانيه، والمجد أساسُه، أمر به وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه أميرُ المسلمين عبد اللّه محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر. أيّد اللّه أوامره، وخلّد مفاخره! . لقاضي حضرته العلية، وخطيب حمرائه السنيّة، المخصوص لديه بترفيع المزيّة، المصروف إليه خطابُ القضاة بإيالته النصرية، قاضي الجماعة، ومُصَرِّف الأحكام الشرعية المطاعة، الشيخ الكذا أبي الحسن ابن الشيخ الكذا أبي محمد بن الحسن. وصل اللّه سعادته، وحرس مجادته، وسنّى من فضله إرادته! . عَصَبَ منه جبين المجد بتاج الولاية، وأجال قداح الاختيار حتى بلغ الغاية وتجاوز النهاية، ما ألقى منه بيمين عَرَابة الراية[2]، وأحلّه منه محلّ اللفظ من المعنى

---

(١) قول النبيّ ﷺ هو: «اللهمّ إنّ العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٣٣): «السراية». وهنا يشير إلى قول الشماخ بن ضرار في مدح=

والإعجاز من الآية، وحشر إلى مدعاة ترفيعه وجوه البرّ وأعيان العناية، وأنطق بتبجيله، ألسن أهل جيله، بين الإفصاح والكناية، ولما كان له الحسب الأصيل الذي شهدت به ورقات الدواوين، والأصالة التي قامت عليها صحاحُ البراهين، والآباء الذين اعتدّ بمَضَاء قضاتهم الدين، وطَبّق مفاصل الحكم بسيوفهم الحقّ المبين، وازدان بمجالسة وزرائهم السلاطين، فمن فارس حكم أو حكيم تدبير، وقاضٍ في الأمور الشرعية ووزير، أو جامع بينهما جمعَ سلامةٍ لا جمعَ تكسير، تعدّد ذلك واطّرد، ووجد مَشْرَع[1] المجد عذبًا فورد، وقصرت النظراء عن مَدَاه فانفرد، وفَرَى الْفَرِيَّ[2] في يد الشرع فأشبه السيف البرد، وجاء في أعقابهم مُحْيِيًا لما درس، بما حقّق ودرس، جانيًا لما بذر السلف المبارك واغترس، طاهر النشأة وقورها، محمود السجية مشكورها، متحلّيًا بالسكينة، حالاً من النزاهة بالمكانة المكينة، ساحبًا أذيالَ الصَّوْن، بعيدًا عن الاتصاف بالفساد من لدن الكون، فَخَطَبته الخطط العليّة، واغتبطت به المَجَادة الأوّلية، واستعملته دولته التي ترتاد أهل الفضائل للرتب، واستظهرت على المناصب بأبناء التُّقى والحسب، والفضل والمجد والأدب، مِمَّنْ يجمع بين الطارف والتالد والإرث والمكتسب، فكان معدودًا من عدول قضاتها، وصدور نبهائها، وأعيان وزرائها، وأُولي آرائها، فلمّا زان اللّه تعالى خلافته بالتمحيص المتحلى من التخصيص، وخلص ملكه الأصيل كالذهب الإبريز بعد التخليص، كان مِمَّنْ صحب ركابه الطالب للحقّ بسيف الحقّ، وسلك في مظاهرته أوضح الطرق، وجادل من حادّه بأمضى من الجِداد الذُّلَق، واشتهر خبر وفائه في الغرب والشرق، وصلّى به صلاة السفر والحضر، والأمن والحذر، وخطب به في الأماكن التي بَعُدَ بذكر اللّه عَهْدُها، وخاطب عنه - أيّده اللّه تعالى! - المخاطباتِ التي حُمِدَ قَصْدُها، حتى استقلّ ملكه فوق سريره، وابتهج منه الإسلام بأميره وابن أميره، ونزل الستر على العباد والبلاد ببركة إيالته ويُمْن تدبيره، وكان الجليس المقرب المحلّ، والْحَظِيّ المشاور في العقد والحلّ، والرسول المؤتمن على الأسرار، والأمين على الوظائف الكبار، مزين المجلس السلطاني بالوقار، ومتحف الملك بغريب

عَرابَة بن أوس الأنصاري: [الوافر]

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ ... تلقّاها عَرابَةُ باليمينِ

ديوان الشماخ (ص ٩٧) والشعر والشعراء (ص ٢٣٥).

(١) المَشْرَعُ: المورد. لسان العرب (شرع).

(٢) الفَرِيُّ: الشيء العجيب الغريب. لسان العرب (فري).

الأخبار، وخطيب منبره العالي في الجمعات، وقارىء الحديث لديه في المجتمعات. ثم رأى، أيّده اللّه تعالى، أن يشرك رعيّته في نفعه، ويصرف عوامل الحُظْوَة على مزيد رفعه، ويجلسه مجلس الشارع صلوات اللّه عليه لإيضاح شَرْعه، وأصله الوثيق وفرعه، وقدمه أعلى اللّه تعالى قدمه، وشكر آلاءه ونعمه، قاضيًا في الأمور الشرعية، وفاصلاً في القضايا الدينية، بحضرة غَرْنَاطة العليّة، تقديم الاختيار والانتقاء، وأبقى له فخر السلف على الخلف واللّه سبحانه يمتعه بطول البقاء، فليتولَّ ذلك عادلاً في الحكم، مهتديًا بنور العلم، مسويًا بين الخصوم حتى في لَحظِه والتفاته، متّصفًا من الحلم بأفضل صفاته، مهيبًا في الدين، رؤوفًا بالمؤمنين. جزلاً في الأحكام، مجتهدًا في الفصل بأمضى حُسام، مراقبًا للّه، عَزَّ وَجَلَّ، في النقض والإبرام. وأوصاه بالمشورة التي تقدح زناد التوفيق، والتثبّت حتى ينتج قياس التحقيق، بارًا بمشيخة أهل التوثيق، عادلاً إلى سعة الأقوال عند المضيق، سائرًا من مشورة المذهب على أهدى طريق، وصية أصدرها له مُصْدَرَ الذكرى التي تنفع[1]، ويُعْلي اللّهُ بها الدرجاتِ ويرفع، وإلاّ فهو عن الوصاة غني، وقصده قصد سني، واللّه عزّ وجلّ وليُّ إعانته، والحارس من التبعات أكناف ديانته، والكفيل بحفظه من الشبهات وصيانته. وأمر أيّده اللّه تعالى أن ينظر في الأحباس على اختلافها، والأوقاف على شتى أصنافها، واليتامى التي انسدلت كفالة القضاة على إضعافها، فيذود عنها طوارق الخلل، ويجري أمورها بما يتكفّل لها بالأمل، وليعلم أنّ اللّه عزَّ وجلَّ يراه، وأنّ فلتات الحكم تعاوده المراجعة في أُخراه، فيدّرع جنّة تقواه، وسبحانه من يقول: ﴿إنَّ الهُدَى هُدَى اللّهِ﴾[2]. فعلى من يقف عليه أن يعرف أمر هذا الإجلال، صائنًا منصبه من الإخلال، مبادرًا أمره الواجب بالامتثال، بحول اللّه، وكتب في الثالث من شهر اللّه المحرم، فاتح عام أربعة وستين وسبعمائة، عرف اللّه سبحانه فيه هذا المقام العلي عوارف النصر المبين والفتح القريب بمنّه وكرمه فهو المستعان لا ربّ غيره»؛ انتهى.

ونظير هذا ما أنشأه لسان الدين على لسان سلطانه للكاتب أبي عبد اللّه بن زَمْرك حين تولّى كتابة السّرّ، ونصُّه: «هذا ظهير كريم نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرفعه، وأفرد له متلو العزّ وجمعه، وأوتره وشفعه، وقربه في بساط الملك تقريبًا فتح له باب

---

(١) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿وذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المؤمنينَ﴾. سورة الذاريات ٥١، الآية ٥٥.
(٢) سورة آل عمران ٣، الآية ٧٣.

السعادة وشَرَعه، وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على مَنْ دون رتبته من أُولي صنعته أن يتبعه، ورعى له وسيلة السابقة عند استخلاص الملك لما ابتزّه اللّه من يد الغاصب وانتزعه، وحَسْبُك من زمام لا يحتاج إلى شيء معه، أمر به أمير المسلمين محمد للكذا الكذا فلان، وصل اللّه سعادته، وحرس مَجَادته، أطلع اللّه تعالى له وجه العناية أبهى من الصبح الوسيم، وأقطعه جناب الإنعام الجسيم، وأنشقه آراج الحظوة عاطرة النسيم، ونقله من كرسي التدريس والتعليم، إلى مَرْقى التنويه والتكريم، والرتبة التي لا يُلَقَّاها إلاَّ ذو حظّ عظيم، وجعل أقلامه جيادًا[1] لإجالة أمره العلي، وخطابه السني، في ميدان الأقاليم، ووضع في يده أمانة القلم الأعلى، جاريًا من الطريقة المُثْلىٰ، على المنهج القويم، واختصّه بمزية التفوّق[2] على كتاب بابه والتقديم، لما كان ناهض الفكر في طلبة حضرته زمن البداية، ولم تزل تظهر عليه لأولي التمييز مخايل هذه العناية، فإن حضر في حلق العلم جلَّى[3] في حَلْبة الحفاظ إلى الغاية، وإن نظم أو نثر أتى بالقصائد المصقولة، والمخاطبات المنقولة، فاشتهر في بلده وغير بلده، وصارت أزِمَّة العناية طوعَ يده، بما أوجب له المزية في يومه وغده. وحين ردّ اللّه عليه ملكه الذي جبر به جَنَاح الإسلام، وزيّن وجوه الليالي والأيام، وأدال الضياء من الظلام[4]، كان مِمَّنْ وسمه الوفاء وشهره، وعجم الملك عود خلوصه وخَبَرَه، فحمد أثره، وشكر ظاهره ومُضْمَره، واستصحب على ركابه الذي صَحِبَ اليُمن سفره، وأخلصت الحقيقة نفره، وكفل اللّه وِرْدَه وصَدَرَه، ميمون النقيبة، حسن الضريبة، صادقًا في الأحوال المريبة، ناطقًا عن مقامه بالمخاطبات العجيبة، واصلاً إلى المعاني البعيدة بالعبارة القريبة، مبرزًا في الخدم الغريبة، حتى استقام العماد، ونطق بصدق الطاعة الحي والجماد، ودخلت في دين اللّه أفواجًا العبادُ والبلاد، للّه الحمد على نعمه الثَّرَّة العِهَاد[5]، وآلائه المتوالية الترداد، رعى له أيّده اللّه هذه الوسائل وهو أحقّ من يرعاها، وشكر له الخدم المشكور مسعاها، فنص عليه الرتبة الشمّاء التي خطبها بوفائه، وألبسه أثواب اعتنائه، وفسح له مجال آلائه، وقدّمه، أعلى اللّه قدمه، كاتبَ السرّ، وأمين

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٣٥): «جياد الإجالة».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٣٥): «الشفوف».
(٣) جلَّى: سبق. لسان العرب (جلى).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٣٥): «الإظلام».
(٥) العِهاد: جمع عهد وهو المطر. لسان العرب (عهد).

النهي والأمر، تقديم الاختيار بعد الاختبار، والاغتباط بخدمته الحسنة الآثار، وتيمّن باستخدامه قبل الحلول بدار الملك والاستقرار، وغير ذلك من موجبات الإكبار. فليتولَّ ذلك عارفًا بمقداره، مقتفيًا لآثاره، مستعينًا بالكَتْم لأسراره، والاضطلاع بما يحمد من أمانته وعفافه ووقاره، مُعْطِيًا هذا الرسم حقّه من الرياسة، عارفًا بأنه أكبر أركان السياسة، حتى يتأكّد الاغتباط بتقريبه وإدنائه، وتتوفّر أسباب الزيادة في إعلائه، وهو إن شاء اللّه غني عن الوَصَاة[1] فهمًا ثاقبًا يهتدى بضيائه، وهو يعمل في ذلك أقصى العمل، المتكفّل ببلوغ الأمل. وعلى من يقف عليه من حَمَلة الأقلام، والكتّاب الأعلام، وغيرهم من الكافة والخدّام، أن يعرفوا قدر هذه العناية الواضحة الأحكام، والتقديم الراسخ الأقدام، ويوجبوا ما أوجب من البرّ والإكرام، والإجلال والإعظام، بحول اللّه. وكتب في كذا». انتهى.

فانظرْ، صانني اللّه وإياك من الأغيار، وكفانا شَرَّ مَنْ كفَر الصنيعة التي هي على النقص عنوان ومعيار، إلى حال الوزير لسان الدين بن الخطيب مع هذين الرجلين، القاضي ابن الحسن والوزير ابن زَمْرك اللذين تسبّبا في هلاكه حتى صار أثرًا بعد عين، مع تنويهه بهما في هذا الإنشاء وغيره، وتفيئهما. كما هو معلوم. ظلالَ خيره، فقابلاه بالغدر، وأظهرا عند الإمكان حِقْدَ القلب وغِلَّ الصدر، وسدّدا لقَتْلِهِ سهامًا وقِسِيًّا، وصَيَّرَا سبيل الوفاءِ نسيًا منسيًّا، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه.

ومن إنشاء لسان الدين في حقّ القاضي ابن الحسن أيضًا. حين أضيفت إليه الخطابة إلى القضاء. على لسان سلطانه: «هذا ظهير كريم أعلى رتبة الاحتفاء اختيارًا واختبارًا، وأظهر معاني الكرامة والتخصيص انتقاء واصطفاء وإيثارًا، ورفع لواء الجلالة على من اشتمل عليه حقيقة واعتبارًا، ورقى في درجات العزّ من طاولها على بهر أنوارًا، ودينًا كرم في الصالحات آثارًا، وزكا في الأصالة نِجَارا[2]، وخلوصًا إلى هذا المقام العلي السعيد الذي راق إظهارًا وإضمارًا، أمر به وأمضاه، وأنفذ حكمه ومقتضاه، أميرُ المسلمين عبد اللّه محمدٍ، إلى آخره، للشيخ الكذا القاضي العَدْل الأرضى قاضي الجماعة، وخطيب الحضرة العلية، المخصوص لدى المقام العلي بالْحُظْوة السنيّة، والمكانة الحفيّة، الموقر الفاضل، الحافل الكامل، المبرور أبي الحسن، ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجلّ، الأعزّ الماجد الأسنى

---

(١) الوَصاةُ، بالفتح: التوصية. لسان العرب (وصى).

(٢) النِّجار: الأصل. لسان العرب (نجر).

المرفع الأحفل، الأصلح المبارك الأكمل، الموقّر المبرور المرحوم أبي محمد بن الحسن، وصل اللّه عزّته! ووَالَى رفعته ومبرّته! ووهب له من صلة العناية الربانية أمله وبغيته! . لما أصبح في صدور القضاة العلماء مُشَارًا إلى جلاله، مستندًا إلى معرفته المخصوصة بكماله، مطرزًا على الإفادة العلمية والأدبية بمحاسنه البديعة وخِصاله، محفوفًا معقد الحكم النبوي ببركة عدالته وفضل خلاله، وحل في هذه الحضرة العليّة المحلّ الذي لا يرقاه إلاّ عين الأعيان، ولا يَثْوِي مهاده إلاّ مثله من أبناء المجد الثابت الأركان، وموئل العلم الواضح البرهان، والمبرزين بالمآثر العلية في الحسن والإحسان، وتصدر لقضاء الجماعة فصدرت عنه الأحكام الراجحة الميزان، والأنظار الحسنة الأثر والعِيان، والمقاصد التي وفت بالغاية التي لا تستطاع في هذا الميدان. فكم من قضية جلا بمعارفه مُشْكلها، ونازلة مبهمة فتح بإدراكه مقفلها، ومسألة عرف نكرتها وقرّر مهملها، حتى قرّت بعدالته وجزالته العيون، وصدقت فيه الآمال الناجحة والظنون، وكان في تصديره لهذه الولاية العظمى من الخير والخيرة ما عسى أن يكون، كان أحقّ بالتشفيع لولاياته وأولىٰ، وأجدر بمضاعفة النعم التي لا تزال تترادف على قدره الأعلى، فلذلك أصدر له أيّده اللّه هذا الظهير الكريم مشيدًا بالترفيع والتنويه، ومؤكدًا للاحتفاء الوجيه، وقدّمه، أعلى اللّه قدمه، وشكر نعمه! خطيبًا بالجامع الأعظم من حضرته، مضافًا ذلك إلى ولايته ورفيع منزلته، مرافقًا لمن بالجامع الأعظم - عمره اللّه بذكره - من عليّة الخطباء، وكبار العلماء، وخيار النبهاء الصلحاء. فليتداول ذلك في جمعاته، مظهرًا في الخطة أثر بركاته وحسناته، عاملاً على ما يقرّبه عند اللّه من مرضاته، ويظفره بجزيل مَثُوبَاته[1]، بحول اللّه وقوّته». انتهى.

فهذا ثناء لسان الدين المرحوم على القاضي ابن الحسن، وإشادته بذكره، وبإشارته وتدبيره وَلِيَ قضاءَ القضاة وخطابة الجامع الأعظم بغَرْنَاطة، وهذان المنصبان لم يكن في الأندلس في ذلك الزمان من المناصب الدينية أجلُّ منهما. ولمّا حصل للسان الدين، رحمه اللّه تعالى، ما حصل من النفرة عن الأندلس، وإعمال الحلية في الانفصال عنها؛ لعلمه أنّ سِعايات ابن زَمْرَك وابن الحسن ومَنْ يعضدهما تمكّنت فيه عند سلطانه، خلص منها على الوجه الذي قدّمْناه، وشمّر القاضي ابنُ الحسن عن ساعد أذايته، والتسجيل عليه بما يوجب

---

(١) المثوبات: جمع مَثُوبَة وهي الثواب، وقيل إنها تختصّ بالخير كالعقوبة بالشرّ. محيط المحيط (ثوب).

الزندقة، كما سبق جميعه مُفَصَّلاً، فحينئذ أطلق لسانُ الدين عنانَ قلمه في سَبِّ المذكور وثَلْبه[1]، وأورد في كتابه «الكتيبة الكامنة، في أبناء المائة الثامنة» مِنْ مَثَالبه[2] ما أنسى ما سطّره صاحبُ القلائد في ابن باجة المعروف بابن الصائغ ـ حسبما نقلنا ذلك، أعني كلام الفتح، في غير هذا الموضع ـ ولم يقتنع بذلك حتى ألّف الكتاب الذي سماه بـ «خلع الرَّسَن» كما ألمعنا به فيما سبق، واللّه سبحانه يتجاوز عن الجميع بمنّه وكرمه!.

واعلمْ أنّ للسان الدين ابن الخطيب، رحمه اللّه تعالى، الغاية في المدح والقَدْح، فتارة على طريق الترسّل، وطَوْرًا على غيرها، وقد أقذع وبالغ رحمه اللّه تعالى في هجو أعدائه بما لا تحتمله الجبال، وهو أشدّ من وقع النبال، ومنه ما وصف به الوزير، الذي كان استوزره السلطان إسماعيل بن الأحمر الثائر على سلطان ابن الخطيب، حسبما سبق الإلمام بذلك، والوزير هو إبراهيم بن أبي الفتح الأصلع الغوي، إذ قال في المذكور وفي ابن عمّه محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح العقرب الردي، بعد كلام، ما صورته: «وما ظنك برجل مجهول الجَدّ، موصوم الأبوّة؟ إلى أن قال: تنور خبز، وبِرْكة مرقة، وثعبان حَلْواء، وفاكهة مغي في شح النفس، متهالك في مسترذل الطبع [...][3] عليه العذيوط[4] الغبي ابن عمّه بسذاجة، زعموا، مع كونه قبيح الشكل، بشيع الطلعة، إلى أن قال: وفي العشر الأول من رمضان عام واحد وستين وسبعمائة تقبّض على الوزير المشؤوم، وابن عمّه الغوي الغَشُوم، وولد الغوي مرسل الظفيرة أبعد الناس في مهوى الاغترار يختال في السَّرَق[5] والحلية، سم من سم القوارير، وابتلاء من اللّه لذوي الغيرة، يروح نَشْوَان العشيات، يرقص بين يديه ومن خلفه عدد من الأخلاف[6]، يعاقرون النبيذ في السكك الغاصّة، وولد العقرب الردي بضده قَمَاءة[7] وتقطّبًا، تنبو عنهما العيون، ويبكى منهما الخز، كأنهما صمتا

---

(١) الثَّلْبُ: الذمّ وتعداد النقائص. لسان العرب (ثلب).

(٢) المثالب: جمع مثلبة وهي النقيصة. لسان العرب (ثلب).

(٣) ما بين قوسين في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٣٩) بياض بمقدار كلمة.

(٤) العذيوط: هو الذي يسلح حين ينزل أثناء المباشرة، أي ما يخرج من ريح أو غائط من بطنه. لسان العرب (عذيط).

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٣٩): «السرف». والسَّرَق: الحرير. لسان العرب (سرق).

(٦) الأخلاف: جمع خَلْف وهو الرديء الذي لا خير عنده. لسان العرب (خلف).

(٧) القماءة: القِصَرُ، والصِّغار والذّلّ. لسان العرب (قمأ).

عند المحاورة وأظلما[1] عند اللألاء، من أذلاء بني النضير، ومهتضمي خيبر، فثقفا مليًا، وبودِرَ بهما إلى ساحل المُنَكَّب. قال المخبر: فما رأيت منكوبين أقبح شكلاً، ولا أفقد صبرًا، من ذينك التيسين الحُبَقَين[2]، صلع الرؤوس، ضخام الكروش، مبهوري الأنفاس، متلجلجي الألسنة، قد ربت بمحل السيف من عنق كل جبّار منهما شحمة أُترجية كأنها سَنام الحُوَار[3]، لا يثيرون دمعًا، ولا يستنزلون رحمةً، ولا يمهدون عذرًا، ولا يتزوّدون من كتاب اللّه آية، قد طبع اللّه على قلوبهم[4]، وأخذهم ببغيهم، وعجل لهم سوء سعيهم. وللحين أركبوهم وجِرَاءهم[5] . يعني أولادهم . في جفن غزوي[6] تحفّ عنهم المساعير من الرجال، واقتفى بهم أثر قرقورة تحمل حاجًا إلى الإسكندرية توريةً بالقصد، فلمّا لججوا قذف بهم في لجّة بعد استخلاص ما ضبثوا به[7]، وتلكأ الأصلع الغوي فأثبت بجراحة أشعر بها هديه، واختلط العقرب الردي فنال من جناب اللّه سخطًا وضيقًا، تعالى اللّه عن نكيره، فكان فرعون هذا الزمان جبروتًا وعتوًا وميتة، عجّل اللّه لهم العذاب، وأغرقهم في اليم. فانظرْ كيف كان عاقبة الظالمين، فسبحان مَنْ لا تضيع الحقوق مع عَدْله، ولا تنفسخ الآماد مع منازعة رداء كبريائه، مرغم الأنوف، وقاطع دابر الكافرين، وفي ذلك أقول مستريحًا، وإن لم يكن . علم اللّه تعالى . شأني، ولا تكرّر في ديواني[8] : [الطويل]

وما كنتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قَلْبَهُ ... ولْكِنَّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُونَكِ يَعْشَقِ

ومن أمثالهم «مَنِ اسْتُغْضِبَ فلم يغضب فهو حمار» واللّه سبحانه يقول ومن أصدق من اللّه قيلاً ﴿وجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾[9] والعفو أقرب للتقوى، والقرب والبعد بيده

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٣٩): «وإظلامًا».
(٢) الحبق: الذي لا خيرَ فيه. لسان العرَب (حبق).
(٣) الحُوار، بضم الحاء: ولد الناقة. لسان العرب (حور).
(٤) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿وطَبَعَ اللّهُ على قُلُوبِهِمْ فهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾. سورة التوبة ٩، الآية ٩٣.
(٥) الجراء: جمع جَرْو وهو الصغير من أولاد الكلب.
الجراء: جمع جَرو وهو صغير كل شيء، وقد غلب على ولد الكلب والأسد. محيط المحيط (جرا).
(٦) الجفن الغزوي: نوع من السفن الحربية.
(٧) ضبثوا به: قبضوا عليه قبضًا شديدًا أو بأكفّهم. محيط المحيط (ضبث).
(٨) البيت للمتنبي وهو في ديوانه (ص ٣٥٨).
(٩) سورة الشورى ٤٢، الآية ٤٠.

سبحانه. وصدرت هذه الكلمة لحين تعرُّف إجلائهم في الجفن إلى الإسكندرية، وبعد ذلك صحّ هلاكهم: [المنسرح]

كُنْ مِنْ صروفِ الردى على حَذَرِ — لا يقبلُ الدهرُ عُذْرَ مُعْتَذِرِ
ولا تعوّلْ فيه على دَعَةٍ — فأنت في قُلْعَةٍ[1] وفي سفر
فكلُّ ريّ يُفضِي إلى ظمإ — وكلُّ أمنٍ يدعو إلى غَرَرِ
كم شامخِ الأنفِ ينثني فرحًا — بالَ عليه زمانُهُ وخَرِي
قل للوزيرِ البليدِ قد ركضتْ — في ربعكَ اليوم غارةُ الغِيَرِ
يا ابن أبي الفتح نسبةٌ عُكِسَتْ — فلا بفتحٍ أتتْ ولا ظفر
وزارةٌ لم يَجِدْ مُقَلِّدُها — عن شؤمها في الوجود مِنْ وَزَرِ[2]
في طالعِ النحس حُزْتَ رتبتَها — وكلُّ شيءٍ في قبضة القدر
أيُّ اختبارٍ لم تألُ[3] نَضْبَتَهُ — في جسدٍ للنحوس أو نظر
باتَ له المشتري على غِيَرٍ — وأحرقت فيه قرصة القمر
يا طللاً ما عليه من عملٍ — يا شجرًا ما لديه من ثمر
يا مُفرِطَ الجهلِ والغباوةِ لا — يُحْسَبُ إلاَّ من جملة البقر
يا دائمَ الحقدِ والفظاظةِ لا — يَفرِقُ ما بين ظالمٍ وبَرِي
يا كمدَ اللون ينطفي كمدًا — من حسدٍ يستطيرُ بالشَّرر
يا عِذْلَ سَرْجٍ يا دنّ مقتعدٍ — مَلآن من ريبة ومن قذر
يا واصلاً للجُشاء[4] ناشئةَ الليـ — ـل وربَّ الضُّراط في السَّحَر
من غير لُبّ ولا مراقبةٍ — للّه في موردٍ ولا صَدَرِ
يا خاملاً جاهُهُ الفروجُ يَرَى — صهرَ أُولي الجاه فخر مفتخر
كانوا نَبِيطًا في الأصل أو حبشًا — ما عنده عبرةٌ بمعتبر

---

(١) القُلْعة: الرحلة والارتحال. محيط المحيط (قلع).

(٢) الوَزَرُ، بالفتح: الملجأ. لسان العرب (وزر).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٤١): «لم نبال» وهكذا ينكسر الوزن.

(٤) في طبعة عبد الحميد: «للحشاء» بالحاء المهملة. والجُشاء، بضمّ الجيم: صوتٌ مع ريحٍ يخرج من الفم عند الشبع. محيط المحيط (جشأ).

يا ناقص الدين والمروءة والعقـ ـل ومجري اللسانِ بالهَذرِ[1]
يا ولد السَّخقِ غيرَ مكتتم حديثُهُ، يا ابن فاسدِ الدبرِ
يا بغلَ طاحونةٍ يدورُ بها مجتهدُ السيرِ مغمضُ البصر
في أشهرٍ عشرة طحنتهمُ فيا رَحَى الشؤم والبوار دُرِ
والله ما كنتَ يا مشومُ ولا أنتَ سوى غُرَّةٍ من الغُرَرِ
ومن أبو الفتح في الكلاب وهل لجاهلٍ في الأنام من خطر
قد سترَ الدهرُ منكَ عَوْرَتَهُ وكان لليومِ غيرَ مستتر
حانوت بزّ يمشي على قُرُضٍ وثورُ عرسٍ يختالُ في حِبَرِ
لا مِنَّةٌ تُتَّقَى لمعتَرَكٍ ولا لسانٌ يُبينَ عن خَبَرِ
ولا يَدٌ تنتمي إلى كَرَمٍ ولا صفاءٌ يريحُ من كدر
عهدي بذاك الجبين قد مُلئتْ غُضُونُه الغبرُ بالدم الهدر
عهدي بذاك القفا الغليظ وقد مُدَّ لوقع المُهَنَّدِ الذَّكرِ
أهدتكَ للبحر كفُّ منتقمٍ ألقتْك للحوت كفُّ مقتدر
يا يُتْمَ أولادِكَ الصغارِ ويا حيرتهم بعد ذاك في الكبر
يا ثكلَ تلك الصماء أمهمُ وظاعنُ الموت غيرُ منتظر
والله لا نالَ من تخلّفه من أمَلٍ بعدها ولا وَطَرِ
والله لا مَشْخُفانُ لا انتقلتْ رجلُكَ منها إلاَّ إلى سَقَرِ
ألحفك الله بالهوان ولا رعاكَ فيمن تركتَ من غُرَرِ
ما عوقبَ الليلُ بالصباح وما تقدّم البرقُ عارضَ المطر

انتهى[2]. وقال مورّيًا بدم الأخوين، في شأن سلطان تلك الدولة الذي أضحى أثرًا بعد عين[3]: [الوافر]

بإسماعيلَ ثم أخيه قَيْسٍ تأذَّنَ ليلُ هَمِّي بانبلاجِ
دِمُ الأخوين داوى جُرْحَ قلبي وعالجني، وحَسْبُكَ مِنْ علاجِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٤٢): «بالهدر» بالدال المهملة، والهَذَرُ: سقط الكلام. لسان العرب (هذر).

(٢) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٤٢).

(٣) البيتان في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٧٤).

وهذه تورية بديعة؛ لأنّ الأطباء يقولون: إنّ من خاصية دم الأخوين[1] النفع من الجراح.

وقال رحمه اللّه تعالى: قلت في رأس الغادر بالدولة حين عُرِضَ عليَّ: [السريع]

في غيرِ حفظِ اللّهِ من هامةٍ ... هامَ بها الشيطانُ في كلِّ واذ
ما تركتْ حمدًا ولا رحمةً ... في فم إنسانٍ ولا في فؤاذ

وقال أيضًا في تلك الدولة بعد كلام، ما نصُّه: «وانتدب قاضيهم الشيخ المتراخي الدبر[2] والفك المنحل العصب والعقدة، المعرق في العمومية، المشهور بقبول الرشوة، أبو فلان ابنِ فلان، الغريب الاسم والولاية، ومفتيهم معدن الرياء والهوادة، والبعد عن التخصّص والحشمة، والمثل في العماه، والطرف في التهالك على الحُطَام، فلان البنّاء، المسخر في بناء الحفيرة، المستخدم في دار ابنه أجيرًا، مختضبًا بالطين، مضايقًا في رمق العيشة، وحسبك[3] به دليلاً على الحياء وفضل البنوّة، فلفقوا من خيوط العناكب شبهات تقلّدوا بها حلّ العقد الموثق، ديدنهم في معارضة صُلب الملّة بالآراء الخبيثة، يتحكّم الوَقّاح منهم في الحكم الذي نزل به شديد القوى على الذي لا ينطق عن الهوى، بحسب شهوته، تحكمه في غزل أمه إيثارًا للعاجل، واسترابةً بالوعيد، ففسخوا النكاح، وحللوا محرم البضع للدائل، وقد تأذن اللّه بفسخه، وأَجرى دمه نقدًا قبل دفع فقده، سبحانه حكم الحكام، وقاهر الظُّلاَّم، وباء مشيخَةُ السوء بلعنة اللّه وسوء الأحدوثة، ومن يلعن اللّه فلن تجدْ له نصيرًا»؛ انتهى.

ومن كلامه في «نفاضة الجراب»، وقد ذكر وزير المغرب محمد بن علي بن مسعود ما ملخّصُه[4]: «وأنه مجنون، أحول العين، وَحْش[5] النظرة، يُظَنُّ به الغضب في حال

---

(١) دم الأخوين: العندم، ويقال له دم التنين ودم الثعبان. محيط المحيط (دمم).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٤٣): «المتراخي الدين... والعقيدة».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «وحبسك».
(٤) نفاضة الجراب (ص ١١٢ . ١١٣).
(٥) في نفاضة الجراب: «وحشي».

الرضا، يهيج به المرار[1] فيكمن[2] زمانًا خلف كَلَّة[3] مرقده، يُدْخَلُ إليه وعاء الحاجتين خوفًا من إصحاره إلى فضاء[4] منزله، وتوحّشه من أهله وولده، إلى أن تَضْعُفَ سورةُ[5] المِرَّة فيخفّ أمره، قد باين زوجه مع انسحاب رواق الشبيبة، وتوفُّر داعية الغبطة، لحلف جَرِّه الوسواس السوداوي، نستدفع[6] باللّه شرّ بلائه. فاستعان[7] مستوزره منه برأي الفضل بن سهل ويحيىٰ بن خالد وأمثالهما[8]، تدارك اللّه رمق الإسلام بلطفه»! انتهى.

ولـمَّا دخل لسان الدين رحمه اللّه تعالى مدينة مكناسة الزيتون تأخّر قاضيها الشيخُ الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن علي بن أبي رمانة عن لقائه يوم وصوله، فكتب إليه بما نصُّه: [الطويل]

جفا ابن أبي رمّانةٍ وَجْهَ مَقْدَمِي ... ونَكَّبَ عنِّي مُعْرِضًا وتحاماني
وحَجَّبَ عني حُبَّهُ غيرَ جاهلٍ ... بأنيَ ضَيفٌ[9] والمبرَّةُ من شاني
ولكن رآني مغربيًّا محققًا ... وأنّ طعامي لم يكن حبَّ رمّانِ

زيارة القاضي أصلحه اللّه لمثلي مِمَّنْ لا يخافه ولا يرجوه، تجبُ من وجوه: أولها كوني ضيفًا، مِمَّنْ لا يُعَدُّ على الاختبار زَيْفًا، ولا تجرُ مؤانسته حَيْفًا، فضلاً عن أن تَشرع[10] رمحًا أو تسلّ سيفًا، وثانيها أني أمتُّ إليه من الطلب بنسب، بين موروث ومكتسب، وقاعدة الفضل قد قرّرها الحقّ وأصّلها، والرحم كما علم تدعو لمن وَصَلَها، وثالثها المبدأ في هذا الغرض، ولكن الواو لا ترتب إلاّ بالعرض، وهو اقتفاء سنن المولى أيّده اللّه في تأنيسي، ووصفه إياي بمقربي وجليسي، ورابعها ـ وهو عدّة كيسي، وهزبْرُ

---

(١) المرار: جمع مِرّة وهي الصفراء أو السوداء. لسان العرب (مرر).
(٢) في نفاضة الجراب: «فيمكث».
(٣) الكَلَّةُ: الستر الرقيق يُتَوَقَّى به من البعوض. لسان العرب (كلل).
(٤) في نفاضة الجراب (ص ١١٣): «قضاء» بالقاف.
(٥) في نفاضة الجراب: «ثورة».
(٦) في نفاضة الجراب: «فنستدفع».
(٧) في نفاضة الجراب: «فاستعان منه برأي..».
(٨) يشبّهه بوزراء المشرق المشهورين، على سبيل التفكّه.
(٩) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٤٤): «ضعيف».
(١٠) تُشْرِعُ الرُمْحَ: ترفعه، والمراد تسديد الرمح في وجه العدو. لسان العرب (شرع).

خِيسي[١]، وقافية تجنيسي، ومقام تلويني وتلبيسي ـ مودة رئيس هذا الصنف العلمي ورئيسي، فليت شعري ما الذي عارض هذه الأصول الأربعة، ورجح مذاهبها المتّبعة، إلاّ أن يكون عَمَلُ أهلِ المدينة ينافيها، فهذا بحَسْبِ النفس ويكفيها، وإن تعذر لقاء أو استدعاء، وعدم طعام أو وعاء، ولم يقع نكاح ولا استرعاء، فلم يتعذّر عذر يقتضيه الكرم، والمنصب المحترم، فالجِلّة إلى التماس الحمد ذات استباق، والعُرْف بين اللّه والناس باق، والغَيْرَة على لسان مثله مفروضة، والأعمال معروضة، واللّه لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة[٢]، وإن كان لدى القاضي في ذلك عذر فَلْيُفِدْه، وأولى الأعذار به أنه لم يقصده، والسلام»؛ انتهى.

ويعني بالمولى السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني، وبرئيس هذا الصنف العلامة الخطيب أبا عبد الله بن مرزوق، رحم اللّه الجميع!.

ومن كلام لسان الدين ـ رحمه اللّه تعالى! ـ رسالة في أحوال خَدَمَة الدولة ومصائرهم، وتنبيههم على النظر في عواقب الرياسة بعيون بصائرهم، عبر فيها عن ذَوْق ووجدان، وليس الخبر كالعيان[٣]، وخاطب بها الإمام الخطيب عين الأعيان، سيدي أبا عبد اللّه بن مرزوق، وكأنه ـ أعني لسان الدين ـ أشار ببعض فصولها إلى نفسه، ونطق بالغيب في نكبته التي قادته إلى رَمْسِه، وكان ذلك منه عندما أراد التخلّي عن خدمة الملوك، والتحلي بزينة أهل التصوّف والسلوك، فلم يرد اللّه أن تكون مهجته نائية عن ساحة الظلمة خارجة، وأراد سَامحه اللّه وغفر له عَمْرًا وأراد اللّه خارجة[٤]، وصورة ما قال رحمه اللّه تعالى:

«وأحسست منه ـ يعني ابن مرزوق ـ في بعض كتبه الواردة إليّ صاغية إلى الدنيا وحنينًا لما بلاه من غرورها، فحملني الطور الذي ارتكبته في هذه الأيام، بتوفيق اللّه، على أن أخاطبه بهذه الرسالة، وحقّها أن يجعلها خَدَمَةُ الملوك مِمَّنْ ينسب إلى نبل، ويلمُّ بمعرفة،

---

(١) الخِيسُ: مسكن الأسد. لسان العرب (خيس).

(٢) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿إنَّ اللّهَ لا يَسْتَحي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بعوضةً فما فوقها﴾. سورة البقرة ٢، الآية ٢٦.

(٣) أخذه من المثل: «ليس الخبر كالمعاينة». مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ١٨٢).

(٤) عمرو: هو عمرو بن العاص. خارجة: هو خارجة بن سنان، وقد قتل في مصر غلطًا لظنّ القاتل أنه عمرو بن العاص، لأنه كان يشبه عمرًا في منظره. محيط المحيط (خرج).

مُصْحَفًا يَدْرُسه، وشعارًا يلتزمه، وهي: سيدي الذي يده البيضاء لم تذهب بشهرتها المكافآت[1]، ولم تختلف في مدحها الأفعال ولا تغايرت الصفات، ولا تزال تعترف بها العظام الرُّفات، أطلقك اللّه من أسْرِ كلّ الكون كما أطلقك من أسْرِ بعضه، وزَهَّدك في سمائه الفانية وفي أرضه، وحقر الحظَّ في عين بصيرتك بما يحملك على رَفْضِه، اتصل بي الخبرُ السارّ من تركك لشأنك، وإجناء اللّه تعالى إياك ثمرةَ إحسانك، وانجياب ظلام الشدّة الحالك، عن أُفق حالك، فكبرت، وفي الفرج من بعد الشدّة اعتبرت، لا بسوى ذلك من رضا مخلوق يؤمر فيأتمر، ويدعوه القضاء فيبتدر[2]، إنما هو فيء[3]، وظلٌّ ليس له من الأمر شيء، ونسأل[4] اللّه جلَّ وعلا أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا وبنيها، وأولَ معارج نفسك التي تقربها من الحقّ وتُدْنيها، وكأني واللّه أحسُّ بثقل هذه الدعوة على سمعك، ومضادتها ولا حول ولا قوة إلاَّ باللّه لطبعك، وأنا أُنافرك إلى العقل الذي هو قسطاس اللّه تعالى في عالم الإنسان، والآلة لبثّ العدل والإحسان، والملك الذي يبين عنه ترجمان اللسان، فأقول: ليت شعري ما الذي غبط سيدي بالدنيا، وإن بلغ من زبرجها[5] الرتبة العليا، ونفرض المثال بحال إقبالها، ووَصْل حبالها، وخشوع جبالها، وضراعة سبالها، أَلِتَوَقُّع المكروه صباحًا ومساء، وارتقاب الحوالة التي تديل من النعيم البأساء، ولزوم المنافسة التي تعادي الأشراف والرؤساء؟ أَلِتَرَتُّب العتب على التقصير في الكُتُب، وضغينة جارِ الجَنْب، وولوع الصديق بإحصاء الذنب؟ ألنسبة وقائع الدولة إليك وأنت بري ، وتطويقك الموبقات وأنت منها عري؟ ألاستهدافك للمضار التي تنتجها غيرة الفروج، والأحقاد التي تضبطها ركبة السروج، وسرحة المروج، ونجوم السماء ذات البروج؟ ألتقليدك التقصير فيما ضاقت عنه طاقتك، وصحت إليه فاقتك، من حاجة لا يقتضي قضاءها الوجود، ولا يكفيها الركوع للملك والسجود؟ ألقطع الزمان بين سلطان يُعْبَد، وسهام للغيوب تكبد، وعجاجة[6] شرّ تلبّد، وأقبوحة تخلّد وتؤبّد؟ ألوزير يُصَانَع ويُدَارَى،

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٤٥): «المكافاة».
(٢) يبتدر: يسرع.
(٣) الفيء: الظلّ.
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٤٥): «ونسأله جلّ..».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٤٦): «زبرجدها». والزِّبْرِجُ: الزينة من وشي أو جوهر ونحو ذلك. محيط المحيط (زبرج).
(٦) العَجاجَة: العجاج وهو الغبار. محيط المحيط (عجج).

وذي حجّة صحيحة يُجَادل في مرضاة السلطان ويُمَارَى، وعورة لا توارى؟ ألمباكرة كلِّ قرن حاسد، وعدوّ مستأسد، وسُوق للإنصاف والشفقة كاسد، وحال فاسد؟ ألوفود تتزاحم بسدّتك مكلفة لك غير ما في طَوْقك، فإن لم يقع الإسعاف قلبت عليك السماء من فوقك؟ ألجلساء ببابك، لا يقطعون زمان رجوعك وإيابك؟ إلاّ بقبيح اغتيابك، فالتصرُّفات تمقت، والقواطع توقت، والألاقي[1] تبثُّ، والسعايات تحثُّ، والمساجد يشتكى في حلقها البَثُّ، يعتقدون أنّ السلطان في يدك بمنزلة الحمار المدبور، واليتيم المحجور، والأسير المأمور، ليس له شهوة ولا غضب، ولا أمل في الملك ولا أرب، ولا مَوْجدة[2] لأحد كامنة، وللشرّ ضامنة، وليس في نفس عن رأي نفرة، ولا بإزاء ما لا يقبله نزوة ولا طفرة، إنما هو جارحة لصيدك، وعانٍ في قيدك، وآلة لتصرف كيدك، وأنك علّة حيفه، ومسلّط سيفه: الشِّرَار يَسْمُلون عيون الناس باسمك، ثم يمزقون بالغيبة مزق جسمك، قد تنخَّلهم الوجود أخبث ما فيه، واختارهم السفيه فالسفيه، إذ الخير يستره اللّٰه تعالى عن الدول ويخفيه، ويقنعه بالقليل فيكفيه، فهم يمتاحون بك ويولونك الملامة، ويفتحون عليك القول ويَسُدُّون طرق السلامة، وليس لك في أثناء هذه إلاّ ما لا يعوزك مع ارتفاعه، ولا يفوتك مع انقشاعه، وذهاب صُدَاعه، من غذاء يشبع، وثوب يقنع، وفراش ينيم، وخديم يقعد ويقيم، وما الفائدة في فُرُش تحتها جمر الغَضا، ومال من ورائه سُوء القَضَا، وجاه يحلق عليه سيف مُنْتَضَى؟ وإذا بلغت النفس إلى الالتذاذ بما لا تملك، واللجاج حول المسقط الذي تعلم أنها فيه تهلك، فكيف تنسب إلى نُبل، أو تسير من السعادة في سُبْل؟ وإن وجدت في الجلوس[3] بمجلس التحية، بعض الأريحية، فليت شعري أي شيء زادها، أو معنى أفادها؟ إلاّ مباكرة وجه الحاسد، وذي القلب الفاسد، ومواجهة العدوّ المستأسد، أو شعرت ببعض الإيناس، في الركوب بين الناس، ما ٱلتذّت إلاّ بحلم كاذب، أو جذبها غير الغرور جاذب، إنما راكبك من يُحَدّق إلى الحلية والبِزَّة، ويستطيل مدة العزّة، ويرتاب إذا حدثت بخبرك، ويتتبّع بالنقد والتجسّس مواقع نظرك، ويمنعك من مسايرة أنيسك، ويحتال على فراغ كيسك، ويضمر الشرّ لك ولرئيسك، وأي راحة لمن لا يباشر قصده، ويمشي إذا شاء وحده؟

---

(١) الألاقيُّ: الشدائد، واحدها ألقيّة. محيط المحيط (لقى).

(٢) الموجدة: الغضب. محيط المحيط (وجد).

(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٤٧): «في القعود».

«ولو صحّ في هذه الحال للّه تعالى حظّ وهبه زهيدًا، وعين[1] الرشد عملاً حميدًا، لساغ الصَّاب[2]، وخَفَّت الأوصاب[3]، وسَهُل المُصَاب، ولكن الوقت أشغل، والفكر أوغل، والزمن قد عمرته الحصص الوهمية، واستنفدت منه الكمية، أما ليله ففكر أو نوم، وعتب بجراء الضرائر ولوم، وأمّا يومه فتدبير، وقَبيل ودَبير، وأمور يَعْيَا بها ثَبير[4]، وبلاء مُبير[5]، ولغط لا يدخل فيه حكم كبير، وأنا بمثل ذلك خبير، ووالله[6] يا سيدي ومَنْ فلق الْحَبَّ، وأخرج الأبَّ[7]، وذرأ من مشى ومن دَبَّ، وسمَّى نفسه الربَّ، لو تعلّق المالُ الذي يجرّه هذا القِدح، ويوري سقيطه هذا القَدح، بأذيال الكواكب، وزاحمت البَذْرَ بِدرُهُ بالمناكب، لما ورثه عقب، ولا خلص به محتقب[8]، ولا فاز به سافر ولا منتقب، والشاهد الدول، والمشائيم الأول: فأين الرباع المُقْتَناة؟ وأين الديار المبتناة؟ وأين الحوائط المغترسات؟ وأين الذخائر المختلسات؟ وأين الودائع المؤمَّلة؟ وأين الأمانات المحمَّلة؟ تأذَّن اللَّهُ بتتبيرها، وإذنَاءِ نار التَّبار[9] من دنانيرها، فقلّما تلقى أعقابهم إلاّ أعراء الظهور، مترمقين لجريات الشهور، متعلّلين بالهَبَاء المنشور، يُطْرَدُونَ من الأبواب التي حُجب عنها آباؤهم، وعُرف منها إباؤهم، وشم من مقاصيرها عَنْبَرُهم وكَبَاؤهم، ولم تسامحهم الأيام إلاّ في إرث محرَّر، أو حلال مقرَّر، وربما مَحَقَه الحرام، وتَعَذَّر منه المَرَام. هذه - أعزّك اللّه! - حال قبولها مع الترفيه، ومالها المرغوب فيه، وعلى فرض أن يستوفي العمر في العزِّ مُسْتَوفيه، وأمّا ضدّه من عدوّ يتحكّم وينتقم، وحوت بَغْي يبتلع ويلتقم، ومُطْبق يحجب الهواء، ويطيل في التراب الثَّوَاء، وثعبان قيدٍ يعضّ الساق، وشؤبوب عذاب يمزق الأبشار الرِّقَاق، وغيلة يهديها الواقب[10] الغاسق، ويجرعها العدوّ الفاسق، فصرف السوق،

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٤٨): «أو عين».
(٢) الصاب: عصارة شجر مرّ. محيط المحيط (صوب).
(٣) الأوصاب: جمع وصب وهو المرض. محيط المحيط (وصب).
(٤) ثبير: أعلى جبال مكة وأعظمها. الروض المعطار (ص ١٤٩).
(٥) مُبير: مهلك. محيط المحيط (بار).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٤٨): «والله».
(٧) الأبُّ، بفتح الهمزة وتشديد الباء: الكلأ والمرعى. محيط المحيط (أبب).
(٨) محتقب: محتمل؛ يقال: احتقب الشيء إذا وضعه في حقيبته. لسان العرب (حقب).
(٩) التتبير: الإهلاك. التَّبار: الهلاك. محيط المحيط (تبر).
(١٠) يقال: وقب الرجل: أي دخل في الوَقْب، أي عند غياب الشمس. محيط المحيط (وقب).

وسلعته المعتادة الطروق، مع الأفول والشروق، فهل في شيء من هذا مُغْتَبَطٌ لنفس حرّة، أو ما يساوي جرعة حال مرّة؟ واحسرتا للأحلام ضلّت، وللأقدام زلّت، ويا لها مصيبة جلّت. ولسيدي أن يقول: حكمت باستثقال الموعظة واستجفائها، ومُرَاودة الدنيا بين خلاّنها وأكفائها، وتناسي عدم وفائها، فأقول: الطبيب بالعلل أدرى، والشفيق بسوء الظنّ مُغْرَى، وكيف لا وأنا أقف على السحاءات بخطّ يد سيدي من مَطَارح الاعتقال، ومثاقف النُّوَب الثقال، وخطوات[1] الاستعداد، للقاء الخطوب الشداد، ونَوْشى[2] الأسِنَّة الحِداد، وحيث يجمل بمثله أن لا يصرف في غير الخضوع للّه تعالى بنانًا، ولا يثني لمخلوق عنانًا، وأتعرّف أنها قد ملأت الجوّ والدوّ[3]، وقصدت الجماد والبوّ[4]، تقتحم أكفّ أُولي الشَّمَات، وحَفَظَة المذمَّات، وأعوان النُّوَب الملمّات، زيادةً في الشقاء، وقصدًا بريًّا من الاختيار والانتقاء، مشتملة من التجاوز على أغربَ من العَنْقَاء، ومن النفاق على أشهر من البلقاء، فهذا يوصف بالإمامة، وهذا يُجْعَل من أهل الكرامة، وهذا يكلف الدعاء وليس من أهله، وهذا يُطْلب منه لقاء الصالحين وليسوا من شكله، إلى ما أَحْفَظَني واللّه من البحث عن السموم، وكتب النجوم، والمذموم من العلوم، هلاّ كان مَنْ ينظر في ذلك قد قوطع بتاتًا، وأعتقد أنّ اللّه قد جعل لزمان الخير والشرّ ميقاتًا، وأنّا لا نملك موتًا ولا نشورًا ولا حياتًا، وأنّ اللوح قد حَصَرَ الأشياء مَحْوًا وإثباتًا، فكيف نرجو لما منع مَنَالاً أو نستطيع ممّا قدر إفلاتًا؟ أفيدونا ما يرجح العقيدة المتقرّرة فنتحوّل إليه، وبينوا لنا الحقّ نُعَوّل عليه. اللّه اللّه يا سيدي في النفس المرشحة، والذات المحلاة بالفضائل الموشّحة، والسلف الشهير الخير، والعمر المُشْرِف على الرحلة بعد حَثِّ السير؛ ودَعِ الدنيا لبنيها فما أوكس حظوظهم! وأخَسَّ لحوظهم! وأقلّ متاعهم! وأعجل إسراعهم! وأكثر عناءهم! وأقصر آناءهم! [مجزوء الكامل]

مَا ثَمَّ إلاَّ ما رأيـ ـتُ وربّما، تُغْنِي السلامَهْ
والناسُ إمّا جائرٌ أو حائرٌ يشكو ظُلاَمَهْ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٤٩): «وخلوات».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٤٩): «ونوش».
(٣) الدَّوُّ: المفازة. محيط المحيط (دوو).
(٤) البَوُّ: جلد الحُوار يُحشى تبنًا فَيُقَرَّب من أم الفصيل إذا فقدت ولدها فتعطف عليه فتدرُّ، أو ولد الناقة. محيط المحيط (بوو).

وإذا أردتَ العِـــزَّ لا ترزأ بني الدنيا قُلامَهْ
واللَّهِ ما احتقبَ الحريـ ـصُ سوى الذنوب أو الملامَهْ
هل ثَمَّ شكٌّ في المعا د الحقِّ أو يوم القيامَهْ
قولوا لنا ما عندكم أهلَ الخطابة والإمامَهْ

«وإن رَمَيْتَ بأحجاري، وأوجرتَ[1] المرَّ من أشجاري، فواللَّه ما تلبست اليوم منها بشيء قديم ولا حديث، ولا استأثرت بطَيِّبٍ فضلاً عن خَبيث، وما أنا إلاّ عابرُ سبيل، وهاجر مَرْعًى وَبيل، ومرتقب وَعْدًا قدر فيه الإنجاز، وعاكف على حقيقة لا تعرف المجاز، قد فررت من الدنيا كما يُفَرُّ من الأسد، وحاولت المقاطعة حتى بين روحي والجسد، وغسل اللَّه قلبي، وللَّه الحمد، من الطمع والحسد، فلم أُبق عادة إلاّ قطعتها، ولا جُنَّة للصبر إلاّ ادَّرَعْتُها، أما اللباس فالصوف، وأما الزهد فيما بأيدي الخلق فمعروف، وأمّا المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف، وواللَّه لو علمت أنَّ حالي هذه تتصل، وأن عُرَاها[2] لا تنفصل، وأن ترتيبي هذا يدوم، ولا يحيرني الوعد المحتوم، والوقت المعلوم، لمتُّ أسفًا، وحسبي اللَّه وكفى. ومع هذا يا سيدي فالموعظةُ تُتَلَقَّى من لسان الوجود، والحكمة ضالة المؤمن يطلبها ببذل المجهود، ويأخذها من غير اعتبار بمحلّها المذموم ولا المحمود. ولقد أعملت نظري فيما يكافىء عني بَعْضَ يَدِكَ، أو ينتهي في الفضل إلى أَمَدِك، فلم أَرَ لكَ الدنيا كفاء هذا لو كنت صاحب دنيا، وألفيت بذل النفس قليلاً لك من غير شرط ولا ثُنْيا[3]، فلمّا ألهمني اللَّه لمخاطبتك بهذه النصيحة المفرغة في قالب الجفا، لمن يثبت عين الصفا[4]، ولا يشيمُ بارقه[5] الوفا، ولا يعرف قاذورة الدنيا معرفة مثلي من المتدنّسين بها المنهمكين، وينظروا عُوَّارها القارحَ بعين اليقين، ويعلم أنها الموسة التي حُسْنُها زور، وعاشقها مغرور، وسرورها شرور، تبين لي أنني قد كافأت[6] صنيعتك المتقدمة، وخرجت

---

(١) أَوْجَرْتَ المُرَّ: صببته في الفم. لسان العرب (وجر).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٥٠): «وعراها».
(٣) الثُّنْيا، بضم الثاء وسكون النون: الاستثناء. لسان العرب (ثنا).
(٤) في طبعة دار صادر: «الجفاء... الصفاء».
(٥) يشيم: ينظر. البارقة: السحابة ذات البرق. لسان العرب (شام) و (برق).
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٥٠): «كافيت».

عن عهدتك الملتزمة، وأمْحَضْتُ[1] لك النصح الذي يُعِزُّ بعزِّ اللَّه ذَاتَك، ويطيب حياتك، ويحيي مَوَاتك، ويريح جوارحك من الوَصَب[2]، وقلبك من النَّصَب[3]، ويحقر الدنيا وأهلها في عينك إذا اعْتُبِرَتْ، ويلاشي عظائمها لديك إذا اختبرت. كلُّ مَنْ تقع عينك عليه فهو حقير قليل، وفقير ذليل، ولا يَفْضُلُكَ بشيء إلاَّ باقتفاء رشد أو ترك غي، أثوابه النبيهة يجرّدها الغاسل، وعُرْوة عزّه يقصلها القاصل[4]، وماله الحاضر الحاصل، يعبث فيه الحسام الفاصل، واللَّه ما تعين للخلف إلاّ ما تعين للسلف، ولا مصير المجموع إلاَّ إلى التلف، ولا صحَّ من الهِياط والمِياط[5]، والصياح والعياط[6]، وجمع القيراط إلى القيراط، والاستظهار بالوزَعَة والأشراط، والخبط والخباط، والاستكثار والاغتباط، والغلو والإشطاط، وبناء الصَّرْح وعمل السَّاباط، ورفع العُمُد وإدارة الفُسْطاط، إلاَّ أمل يذهب القوّة، ويُنْسي الآمالَ المَرْجُوَّة، ثم نَفَس يصعد، وسكرات تتردّد، وحسرات لفراق الدنيا تتجدّد، ولسان يثقل، وعين تبصر الفراق وتمقل ﴿قُلْ هُوَ نَبأٌ عظيمٌ أَنتمْ عنه مُعْرِضُونَ ﴾[7] ثم القبر وما بعده، واللَّه مُنجز وعيده ووعده، فالإضراب الإضراب، والتراب التراب. وإن اعتذر سيدي بقلَّة الجَلَد، لكثرة الولد، فهو ابن مرزوق لا ابن رزاق، وبيده من التسبّب ما يتكفّل بإمساك الأرماق، أين النَّسْخُ الذي يتبلغ الإنسان بأجرته[8]، في كن حجرته؟ لا بل السؤال الذي لا عار عند الحاجة بمعرته. السؤال واللَّه أقوم طريقًا، وأكرم رفيقًا، مِنْ يدٍ تمتدّ إلى حرام، لا يقوم بمَرَام، ولا يؤمن من ضِرام، أُخرِقَتْ فيه الحلل، وقُلِبَتْ الأديان والملل، وضُرِبت الأبشار، ونُحِرَت العِشار، ولم يصل منه على يدي واسطة السوء المعشار، ثم طلب عند الشدّة ففضح، وبان شؤمه ووَضَح، اللهمّ طَهِّرْ منها أيدينا وقلوبنا، وبلّغنا من الانصراف إليك مطلوبَنَا وعرّفنا بمن لا يعرف غيرك، ولا يسترفد إلاَّ خيرك، يا اللَّه.

---

(١) أَمْحَضْتُ: أخلصتُ. لسان العرب (محض).

(٢) الوَصَبُ، بالفتح: المرض. لسان العرب (وصب).

(٣) النَّصَبُ، بالفتح: التعب. لسان العرب (نصب).

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٥١): «يفصلها الفاصل». ويقصلها: يقطعها. محيط المحيط (قصل).

(٥) الهِياط: مصدر هاطَ يَهِيطُ، أي ضجَّ وأجلب. المِياط: الدفع والزجر، والمراد «من الهياط والمياط» أي في دنوّ وتباعد. محيط المحيط (هاط) و (ماط).

(٦) العياط: الصياح. محيط المحيط (عاط).

(٧) سورة ص، الآيتان ٦٧، ٦٨.

(٨) النَّسْخُ الذي يتبلّغ الإنسان بأجرته: أي نَسْخ الكتب وكتابتها.

«وحقيق على الفضلاء إنْ جَنَحَ سيدي منها إلى إشارة، أو أعمل في اجتلابها إضْبَارة[1]، أو لَبِسَ منها شارة، أو تشوّف لخدمة إمارة، أن لا يحسنوا ظنونهم بعدها بابن ناس، ولا يغتروا بسِمَةٍ ولا خلق ولا لباس، فما عدا عمّا بدا[2]؟ تَقَضَّى العمر في سجن وقَيد، وعمرو وزيد، وضرّ وكيد، وطراد صيد، وسعد وسُعَيْد، وعبد وعُبَيْد، فمتى تظهر الأفكار، ويقرّ القرار، وتلازم الأذكار، وتشام الأنوار، وتستجلى الأسرار؟ ثم يقع الشهود الذي يذهب معه الإخبار، ثم يحقّ الوصول الذي إليه من كلّ ما سواه الفِرار، وعليه المَدَار. وحَقّ الحقِّ الذي ما سواه فباطل، والفيضِ الرحماني الذي رَبَابه[3] الأبَدَ هاطل، ما شابت مخاطبتي لك شائبة تريب، ولقد مَحَضْتُ لك ما يمحضه الحبيب للحبيب، فتحمَّل جفائي الذي حَمَلَتْ عليه الغيرة، ولا تظنّ بي غيره، وإن لم تعذرني مكاشفة سيادتك بهذا النَّثّ[4]، في الأسلوب الرثّ، فالحقّ أقدم، وبناؤه لا يُهْدَم، وشأني معروف في مواجهة الجبابرة على حِينِ يَدِي إلى رِفْدِهم ممدودة، ونفسي في النفوس المتهافتة عليهم معدودة، وشبابي فاحم، وعلى الشهوات مزاحم، فكيف بي اليوم مع الشيب، ونُضح الْجَيْب، واستكشاف العَيْب؟ إنما أنا اليوم على كلّ من عرفني كَلٌّ ثقيل، وسيف العدل في كفي صقيل، أعذل أهل الْهَوَى، وليست النفوس في القبول سَوَا، ولا لكلّ مَرَض دَوَا، وقد شَفَيْتُ صدري، وإن جهلت قدري، فاحملني - حملك اللّه تعالى! - على الجادة الواضحة، وسحب عليك ستر الأبوّة الصالحة، والسلام». انتهت الرسالة البديعة في بابها، الآتية من الموعظة بلُبَابها، ذات النصيحة الصريحة التي يتعيّن على كلّ عاقل خصوصًا مَنْ يريد خدمة الملوك التمسّك بأسبابها.

قلت: وقد رأيت بخطّ الإمام العلامة الخطيب ابن مرزوق على هامش قول لسان الدين أوّل الكلام «وأحسست منه في بعض كتبه إلى آخره» ما صورته: تَوَهَّم ما لا يقع، بل لما تجلّت عني سحب النكبة والامتحان جزمت بالرحلة، وعزمت على النقلة، ونفرت عن خدمة السلطان، وملازمة الأوطان، قال ابن مرزوق: والعجب كلّ العجب أنَّ جميع ما

(١) الإضبارة: الحزمة من الصحف. محيط المحيط (ضبر).
(٢) أخذه من المثل: «ما عَدَا مِمّا بَدَا». أي ما مَنَعَك مما ظهر لك أولاً، مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٢٩٦).
(٣) الرَّباب، بالفتح: السحاب. لسان العرب (ربب).
(٤) النَّثُّ: النديّ الراشح من كل شيء. لسان العرب (نثث).

خاطبني به - أبقاه اللّه تعالى! - تحلّى به أجمع، وابتلى بما منه حَذَّر، فكأنه خاطب نفسه وأنذرها مما وقع له، فاللّه تعالى يحسن له الخاتمة والخلاص؛ انتهى.

وكتب تحت كلام ابن مرزوق هذا بخطّه ابنُ لسان الدين عليّ، ما صورته[1]: صدق واللّه سيدي أبو عبد اللّه بن مرزوق، كان اللّه تعالى له! قاله ولده ابن المؤلف؛ انتهى[2].

قلت: وهذا الذي قاله ابن مرزوق كان في حياة ابن الخطيب، ولذلك دعا له بالبقاء، وبحسن الخاتمة والخلاص، وقد أسفر الغيب عن محنته، ثم قَتْله على الوجه الذي وصفه أثناء هذه الرسالة، إذ قال: وأمّا ضدّه من عدوّ يتحكّم وينتقم، وحوت بغي يبتلع ويلتقم، ومُطْبق يحجب الهواء، ويطيل في التراب الثواء، وثعبان قيدٍ يعضّ الساق، وشؤبوب[3] عذاب يمزّق الأبشار الرقاق، وغيلة يهديها الواقب الغاسق[4]، ويُجَرعها العدو الفاسق، فصرف السوق، وسلعته المعتادة الطروق، مع الأفول والشروق، فإنه رحمه اللّه تعالى حصل له ما ذكر، ثم اغتاله ليلاً وخنقه في محبسه عدوه الفاسق سليمان بن داود، كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك، فاللّه تعالى يثيبه بهذه الشهادة!.

وقد تذكّرت هنا مرثية ابن صابر المنجنيقي، وهي: [الخفيف]

هل لمن يَرْتَجِي البقاءَ خلودُ ... وسوى اللّه كلُّ شيءٍ يبيدُ

والذي كان من ترابٍ وإن عا ... ش طويلاً إلى الترابِ يعودُ

فمصيرُ الأنام طُرًّا لما صا ... ر إليه آباؤهم والجُدُودُ

أين حوّا أم أين آدمُ إذ فا ... تهما الملك والثَّوَا[5] والخلودُ

أين هابيل أين قابيل؟ إذ هـ ... ـذا لهذا معاندٌ وحسود

أين نوحٌ ومن نجا معه بالـ ... ـفُلْك[6] والعالمون طُرًّا فقيد

---

(1) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٥٣): «ما نصُّه».

(2) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٥٣).

(3) شؤبوب عذاب: الدفعة من العذاب؛ والأصل أن الشؤبوب هو الدفعة من المطر. محيط المحيط (شأب).

(4) الواقب: الغائب؛ يقال وقبت الشمس إذا غابت. الغاسق: الشديد الظلمة. لسان العرب (وقب) و (غسق).

(5) الثّوا، بالفتح: أصلها: الثواء، فقصره للضرورة الشعرية. والثواء: الإقامة. لسان العرب (ثوى).

(6) الفُلْك، بضم الفاء وسكون اللام: السفينة. محيط المحيط (فلك).

أسلمتْه الأيامُ كالطفل للمو ت ولم يغن عمره الممدود
أين عادٌ بل أين جنّة عاد إرَمٌ، أين صالح وثمود
أين إبراهيم الذي شاد بيتَ الـ لّه فَهْوَ المعظّم المقصود
أين إسحاق أين يعقوبُ أم أيـ ن بنوه وعَدُّهم والعديد
حسدوا يوسفًا أخاهم فكادو ه ومات الحسّاد والمحسود
وسليمانُ في النبّوة والملـ كِ قضى مثلما قضى داود
ذهبا بعد ما أطاع لذا الخلـ قُ وهذا له أُلِينَ الحديدُ
وابن عمرانَ بعد آياته التسـ ع وشَقِّ الخضمِّ فهو صعيد[1]
والمسيحُ ابن مريمٍ وهو روحُ اللّه كادتْ تقضي عليه اليهود
وقضى سيدُ النبيين والها دي إلى الحقِّ أحمدُ المحمود
وبنوه وآله الطاهرون الـ زُهْرُ صلّى عليهمُ المعبود
ونجومُ السماءِ منتثراتٌ بعد حين وللهواء ركود
ولنار الدنيا التي توقدُ الصخـ رَ خمودٌ وللمياه جمود
وكذا للثرى غداةَ يقوم الـ ـناسُ منها تزلزلٌ وهمود
هذه الأمهاتُ نارٌ وتربٌ وهواءٌ رَطْبٌ وماءٌ بَرُودُ
سوف تفنى كما فنينا فلا يبـ قى من الخلقِ والدٌ ووليد
لا الشقيُّ الغويُّ من نُوَبِ الأيا م ينجو ولا السعيدُ الرشيدُ
ومتى سَلَّتِ المنايا سيوفًا فالموالي[2] حَصيدُها والعبيدُ

وأما قصيدة ابن عبدون الأندلسي التي رثى بها الأفطس وذكر فيها كثيرًا من الملوك الذين أبادهم الدهر وطحنهم بِرَحَاه وصيَّرهم أثرًا بعد عين ففيها ما يوقظ النوّام، وأولها[3]: [البسيط]

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بعد العَيْنِ بالأثَرِ فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّوَرِ

(١) ابن عمران: هو موسى كليم اللّه، عليه الصلاة. الخضمُّ: البحر. الصعيد: الأرض اليابسة. لسان العرب (خضم) و (صعد).
(٢) الموالي: جمع مولى وهو هنا بمعنى السّيّد. لسان العرب (ولي).
(٣) تقدم هذا البيت في الجزء الأول وفي الجزء السادس.

وبالجملة فالأمر كما قال ابن الهبّارية: [مجزوء الرجز]

الموتُ لا يُبْقي أَحَدْ	لا ولـدًا ولا وَلَـدْ
مات لبيدٌ ولُبَدْ	وخُلِّدَ الفَرْدُ الصَّمَدْ

﴿كُلُّ مَنْ عليها فانٍ، ويَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الجَلالِ والإكرامِ﴾[1] اللهمّ اختم لنا بالحسنى، وردّنا إليك ردًّا جميلاً.

وتذكّرت هنا أيضًا مرثية على روي مرثية المنجنيقي السابقة منها: [الخفيف]

أين أهلُ الديارِ من قومِ نوح	ثم عادٌ من بعدهم وثمودُ
بينما هم على الأسرَّة والأنـ	ـماط[2] أفضتْ إلى التراب الخدودُ
ثم لم يَنْقَضِ الحديثُ ولكنْ	بعد ذا الوَعْدُ كلّه والوعيدُ
وأطبّاء بعدهم لحقوهم	ضلَّ عنهم سَعُوطهم واللَّدُودُ[3]
وصحيحٌ أضحى يعودُ مريضًا	وهو أدنى للموت مِمَّنْ يعودُ

وما أحكم قول السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد الْمَرِينِي يخاطب أخاه السلطان أبا الحسن وقد حصره بِسِجِلْمَاسة حتى أخذه قَسْرًا: [البسيط]

فلا يغرّنْك الدهرُ الخؤون فكم	أبادَ مَنْ كان قبلي يا أبا الحسنِ
الدهرُ مذ كان لا يُبْقي على صفةٍ	لا بُدَّ من فرح فيه ومن حَزَنِ
أين الملوكُ التي كانتْ تهابهمُ	أُسدُ العرين ثَوَوْا في اللحد والكفنِ
بعد الأَسِرَّةِ والتيجان قد مُحِيَتْ	رسومُها وعفت عن كلِّ ذي حسنِ
فاعملْ لأخرى وكنْ بالله مؤتمرًا	واسْتَغْنِ بالله في سِرٍّ وفي عَلَنِ
واخترْ لنفسك أمرًا أنت آمره	كأنني لم أكنْ يومًا ولم تكنِ

ودخل السلطان أبو الحسن سِجِلْمَاسَةَ عَنْوَة على أخيه السلطان أبي علي عمر سنة

---

(١) سورة الرحمن ٥٥، الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٢) الأنماط: جمع نَمَط وهو ضرب من البُسُط. محيط المحيط (نمط).

(٣) السَّعُوط: الدواء الذي يصبُّ في الأنف. اللدود: الدواء الذي يصبّ في أحد شقّي الفم. محيط المحيط (سعط) و (لدد).

٧٣٤، وجاء به في الكَبْل[1] لفاس، ثم قتله بالفصد والخنق في ربيع الأول من السنة، وكان القبض عليه في المحرم، رحمه اللّه تعالى!.

ومِمّا وجد مكتوبًا على قصر بعض السلاطين: [البسيط]

قد كان صاحبُ هذا القصر مغتبطًا | في ظلِّ عيشٍ يخافُ الناسُ مِنْ باسِهْ
فبينما هو مسرورٌ بلذّته | في مجلسِ اللهوِ مغبوطٌ بجلاّسِهْ
إذ جاءهُ بغتةً ما لا مردَّ له | فخرَّ ميتًا وزال التاجُ عن راسِهْ

رجع إلى أخبار لسان الدين بن الخطيب. رحمه اللّه تعالى. قلت: وقد زرت قبره مرارًا رحمه اللّه تعالى بفاس المحروسة فوق باب المدينة الذي يقال له باب الشريعة، وهو يسمَّى الآن باب المحروق، وشاهدت موضع دفنه غير مستوٍ مع الأرض، بل يُنزل إليه بانحدار كثير، ويزعم الجلّ من عوام فاس أنّ الباب المذكور إنما سمي بباب المحروق لأجل ما وقع من حرق لسان الدين به حين أخرجه بعض أعدائه من حفرته كما مرَّ، وليس كذلك، وإنما سمي باب المحروق من دَوْلة الموحدين، قبل أن يوجد لسان الدين ولا أبوه، بسبب ثائر ثار على الدولة، فأُمسك وأُحرق في ذلك المحلّ، واللّه غالبٌ على أمره. وحصل لي من الخشوع والحزن عند زيارة قبره. رحمه اللّه تعالى! . ما لا مزيد عليه، جعل اللّه له تلك المحن كفّارة وطُهْرة، فإنه كان آية اللّه علمًا وجلالة وحكمة وشهرة.

وقد تذكّرت عند كتبي هذا المحلّ رسالة كتبها بعض أئمة المغرب في عزاءِ الوزير الشهير أبي جعفر بن جبير الأندلسي رحمه اللّه تعالى إلى بنيه، وهي مِمّا يصلح أن يوصف بمثلها لسان الدين رحمه اللّه تعالى، وفيها عزاء بمن مضى، ونصُّها: «عزاء يا كواكب الهدى، في بدركم الذي تَحَيَّفَه[2] الردى، وفُجع به الفضل والندى، فقل للشُّهب أن تنكدر على فراقه، وللصبح أن يخبو نور إشراقه، وللريح أن تمزّق صِدارًا، وللأهلّة أن لا تعرف إبدارًا، ولليل أن يشتمل خميصة الحزن، وللسماء أن تبكيه بأدمع المزن، وللرعد أن ينتحب لوفاته، وللبرق أن يحكي برجفاته أفئدة عُفَاته[3]، وللثريّا أن ينفصم سوارها، وللشمس أن

---

(١) الكَبْلُ: القيد. لسان العرب (كبل).
(٢) تحيّفه؛ تَنَقَّصَهُ من حِيَفِهِ أي من نواحيه. محيط المحيط (حاف).
(٣) العُفاة: جمع عافٍ وهو طالب المعروف. لسان العرب (عفا).

تنكسف أنوارها، وللنثرة أن تنثر كواكبها، وللجوزاء أن تنفض مناكبها، وللنيّرات أن ترفضّ مواكبها، وللرامح أن يبيت أعْزَلا، وللبدر أن لا يألف منزلا، وللمجرّة أن يفيض دمعًا نهرها، وللغُمَيْصَاء أن يطّرد بكاؤها وسهرها، وللروض أن يفارق إمراعه، وللأورق أن يهتف بما راعه، وللغصون أن تنهصر لهتفه، وتتقصف أسَفًا على حَتْفه. ولكن هو الحِمَام يختل ويختر، ولا يحفل بمن يَتِر، يعدم ما أوجده الكون، ويذيل مَنْ أكنفه الصون، وأين بنا عن مكافح لا نقاتله، ورام أرواحنا مَقَاتله، لا يدبه ناصرة، وعزمته قاصرة للقياصرة، ويمينه كاسرة للأكاسرة، لم يبق من رسم، لطَسْم، ولا من إحسان، لغسان، ولا من أياد، لإياد، ولا من سلطان، لقحطان، ولا من نجيب، لتُجِيب، ولا شرف ضخم، للَخْم، لم يكن له عن اليمنيين إقصار، ومنهم الأنصار، وهم أسماع للنبيّ وأبصار، وعمد إلى المصابيح من مضر يطفيها، وهذا والوحي يتنزل فيها، ولم يصخ في الصديق، إلى التصديق، وأصمى[1] الفاروق بِرَدَاه، وحكم فيه أبا لؤلؤ ومُدَاه، وأمكن صرف الأقدار، من شهيد الدار[2]، ولم يُرَعْ من عليّ بالبسالة، والذُّبَّلِ العسّالة[3]، ولا أبقى سبطيهِ وقد تفقّأت عنهما بيضة الرسالة، وأذهب الزبير حَوَارِي الرسول، وحنظلة وهو بأيدي الملائكة مغسول، وأفات ابن معاذ[4] ولم يحفل بفَوْته، على أنه اهتزّ العرش لموته، وأودى بحمزةٍ ومقعدُه من النبوّة، مقعد الأبوّة، وشفى من عَمَّار صدورَ الأَسَل، وأردى مالكًا بشربة من عَسَل، ولم يعبأ بمضاء عمرو، ولا بحلم معاوية ودهاء عمرو. فيا له من خطب، مُودٍ بكلّ يابس ورطب، يشربُ ماء الأعمار، ويجعل الأجداث[5] منازل الأقمار، ويلوك السوقة والأملاك، ولا يبالي أيةً لاك، ولا يقبل شفيعًا، ولا يغادر منحطًّا ولا رفيعًا، ها هو اعتمد نور عُلاً فكسفه، وطود حلم فنسفه، وأعلق المجد في حِباله، وأقصد الفضل بنباله، وفجع كنانة، بسهم لم ينثل مثله من كنانة[6]، فيا طارق الأعين لقد بؤت بأنفس الأعلاق، ويا ناعيةُ لقد

---

(١) أصماه: أصاب مقتله. لسان العرب (صما).

(٢) شهيد الدار: هو عثمان بن عفان.

(٣) الذُّبّل: جمع ذابل وهو الرمح، والعَسّالة: الشديدة الاهتزاز. لسان العرب (ذبل) و (عسل).

(٤) ابن معاذ: هو سعد بن معاذ بن النعمان، الذي اهتزّ عرش الرحمن - عزّ وجلّ - لموته، وهو من شهداء يوم الخندق. وأخوه عمرو بن معاذ من شهداء أُحُد. جمهرة أنساب العرب (ص ٣٣٩).

(٥) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٥٨): «الأحداث» بالحاء المهملة.

(٦) الكنانة: جعبة السهام. نثل السهام من الكنانة: أخرجها. لسان العرب (كنن) و (نثل).

نعيت باسق الأخلاق، رُوَيْدًا أُسائلك، عمّن لم تَضِعْ لديه وسائلك، أين سماحته[1] وطلاقته؟ أين كَلَفه بالحمد وعلاقته؟ ما الذي ثنى عِطْفه عن الارتياح؟ أم أين عافيهِ من ذلك الامتياح؟ أم من يؤلف أمنية كما ألفت السحب أيدي الرياح؟ فيا هبة الحمد، أطوي عَرْفَك فما تنشق، ويا ربّةَ المجد، أقصري طرفك فما تعشق، ويا معشر عُفَاته، كيف حييتم وقد علمتم بوفاته؟ ويا زُمَر أمَّاله، صفرت أيديكم من إجماله، ويا أخاير صِحابه، أين مواقع سحابه؟ ويا بني ولائه، مَنْ يتبوّأ مقام علائه؟ ويا منافسي شِيَمه، من يجود بمثل دِيمَه[2]؟ ويا منازعي كرمه، من يُطيف المعتفين بمثل حَرَمه؟ ويا حاسدي هممه، مَنْ له كحِفاظه وذممه؟ سيدي لقد أضاءت مساعيك وأشرقت، وأغصَّت الحاسدين طُرًّا وأشرقت، وحسبهم أن لم ينتبهوا إلاَّ إذا نمت، ولا نطقوا إلاَّ حين مت، ولْيَهْنِ مَلاَك وصَحْبك، أن أحيتك صنائعك وقد قضيت نَحْبك، وإن حُمَّ فَنَاؤك، فقد أبقى الحياة الخالدة ثناؤك[3]:

[الكامل]

رَدَّتْ صنائعُهُ عليه حياتَهُ	فكأنه من نشرها منشورُ
والناسُ مأتمهمْ عليه واحدٌ	فـي كـلِّ دارٍ أنّـةٌ وزفـيـرُ

«سيدي، أما تجيب صَرْخَة لَهْفان، أم عداك عن الجواب أنك فان؟ سيدي مَنْ لآملك، ببسط أناملك؟ من لِلْمُرْمِلات الضَّرَائك[4]، بإرشادك وآرائك؟ مَنْ لقرباتك، بصلتك وحبائك[5]؟ من لأخيك، بمواثق أواخيك؟ من لأبنائك، بلطف إحنائك؟ انفضَّ شملهم وكان جميعًا، ونادَوْك لو نادَوْا منك سميعًا، هذا كبيرهم يدعوك فلا تجيبه، وقد فَتَّ الأضلاعَ وجَيبُه، يبكي عند تلك الرِّجام، بأدمع سِجام، وقد ألهبت الزفرات حَشَاه، وألح الدمع بجفنه حتى أعشاه، والأصاغر ما لهم بعدك مفزع، ورضيعهم تسلب به الأنفس رحمة وتنزع، لا يدري ما جزع عليك فيجزع، لشدّ ما أذابتهم وَقْدَة الأوار، حين عدموا منك كرم النجوى والجوار، أُفٍّ لدهر رماهم بالأجوار، وتركهم أنجمًا مسلوبة الأنوار، لا

---

(١) في طبعة دار صادر: «سماحه».
(٢) الدِّيَمُ: جمع دِيْمة وهي السحابة الممطرة. لسان العرب (ديم).
(٣) البيتان لعبد الله بن أيوب التيمي، أحد شعراء الدولة العباسية، وقد توفي سنة ٢٠٩ هـ. ترجمته في تاريخ بغداد (جـ ٩ ص ٤١١). وبيتاه وردا في قطعة شعرية في شرح الحماسة للمرزوقي (ص ٩٥٠).
(٤) الضرائك: جمع ضريك وهو الفقير. محيط المحيط (ضرك).
(٥) الحِباء: العطاء. محيط المحيط (حبا).

جَرَمَ أن يحزنوا عليك ويكترثوا، فلقد تسلَّوا عنك ببعض ما ورثوا، وما ورثتهم غير الحزن والبثّ، وأمل في الحياة كالهَبَاء المنبثّ، كما تتلى محاسنك فاسمع، طفقت عليك شؤون[1] عيني تدمع، أيا ضريحَه، كيف وجدت ريحه؟ لقد أرِجَ بك ذلك المعفر، حتى ما ينافحه المسك الأذفر، وكما ظفرت بوجوده، فجد كلّ قبر بجوده، ففيه سماء ثَرَّةٌ وغمام، ونَوْر انضمّ عليه منك كمام، ولو علمْتَ بمن بين جنبيك راقد، لعلوت حتى تلوح في ذَرَاك الفراقد، ويا دافنيه كيف هلتم عليه الرَّغام[2]؟ أَوَ لم تنكروا على الشمس أن تغام؟ هيهات لقد سمحتم بإقبار، عفّ الشمائل طيب الأخبار، وإلحاد، من لا نِزَاعَ في فضله ولا إلحاد، أي نفس تخذتم له التراب مستودعًا، فأضحى عِرْنين المكارم مُجَدَّعًا[3]: [الطويل]

فتًى مثلُ نصلِ السيفِ من حيث جِئْتَهُ … لنائبةٍ نابَتْكَ فهو مُضاربُ
فتًى هَمُّهُ حمدٌ على النأي رابحٌ … وإن باتَ عنه مالُهُ وهو عازبُ

«أما وإن ازدحمت بمهلكه الأوصاب[4]، وفدح الرزء وجلّ المصاب، حتى لا نألف التاسا، فلقد سر الموت من حيث سا[5]، فلقد خلقنا بدهر ما فيه غير مصائب، ولا يبالي من أقصد سهمُه الصائب، فيا فقيد الندى ما كان أجدرك بالخلود وأخلقك، ويا جَوَاد عمره ما كان أقصر طلقك، ثَوَى، حين أستوى، وتوارى، إذ ملأ الأفق أنوارا، وكسف حين بلغ الكمال، فكان كالغصن عندما اعتدل مال، أو كالشهاب عندما استقام حار: [الكامل]

وكذاك عمرُ كواكبِ الأسحارِ[6]

«هذه الْيَراعة[7] التحفت بعده الضنى، والصحف تطوى على جهالة وتحنى، وعهدي به إن امتطى راحته اليراع، راع، أو دبَّجَ الأوراق، راق، أو استدرَّ طبعه السلسال، سال،

---

(١) الشؤون: جمع شأن وهو مجرى الدمع. محيط المحيط (شأن).
(٢) الرَّغام، بفتح الراء: التراب. محيط المحيط (رغم).
(٣) العِرْنينُ: الأنف. مجدَّع: مهشَّم. محيط المحيط (عرن) و (جدع).
(٤) الأوصاب: جمع وصب وهو المرض. محيط المحيط (وصب).
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٦٠): «نألف التأساء.. حيث ساء».
(٦) هو عجز بيت لأبي الحسن التهامي قاله من مرثية في ولده وقد مات صغيرًا، وصدره هو:
يا كوكبًا ما كان أقصر عمره
ديوان أبي الحسن التهامي (ص ٢٨).
(٧) اليراعة: جمع يَراع وهو القصب أي القلم. محيط المحيط (يرع).

وأي روض أراد، راد، ومتى أراغ الإنشاء، أحسن إن شاء، فحقّ للفؤاد أن يَسْتَعِرَ بوقده، وللمدامع أن تسيل دمًا على فقده، بَيْدَ أنه الموت لا بُدَّ أن نرد مَشْرَعه[1]، ونسيغ على شَرَق به جُرَعَه، فإنّا زرع يحصده الذي ازدرعه. وصَبْرًا يا ذوي أرحامه وبنيه، ومن مرّ في غُلَواء الوجد فالسلوان يثنيه، وشُحًا على أجركم لا يذهب به الجزع ويفنيه، والله يزلف الفقيد من رحمته ويدنيه، ويقطفه زهر رضوانه ويجنيه، وييسّر لكم العزاء الأجمل برحمته ويُسَنِّيه، والسلام». انتهت.

ويرحم الله القائل: [الخفيف]

كلُّ جمعٍ إلى الشتاتِ[2] يصيرُ ... أيّ صفوٍ ما شابَهُ تكديرُ
أنتَ في اللهو والأماني مقيمٌ ... والمنايا في كلِّ وقتٍ تسيرُ
والذي غرَّهُ بلوغُ الأماني ... بسرابٍ وخُلَّبٍ مغرورُ
ويكِ يا نَفْسُ أخلصي إنَّ ربِّي ... بالذي أخفَتِ الصدورُ بصيرُ

ولا خفاء على ذوي الأحلام، من الأعلام، أنَّ الدنيا أضغاث أحلام[3]: [الرمل]

يَنْدَمُ المرءُ على ما فاته ... مِنْ لُبانَاتٍ[4] إذا لم يَقْضِها
وتراه فَرِحًا مُسْتبشرًا ... بالتي أَمْضَى كأنْ لم يُمْضِها
إنها عندي كأحلامِ الكَرَى ... لَقَرِيْبٌ بَعْضُها مِنْ بعضها

وقال أبو منصور أسعد النحوي: [الخفيف]

يجمعُ المرءُ ثم يترك ما يجـ ... ـمع من كسبه لغير شَكُورِ
ليس يحظى إلاَّ بذكر جميلٍ ... أو بعلمٍ من بعده مأثورِ

وقال الإمام الشهير أبو الفرج بن الجوزي[5]: [مجزوء الكامل]

يا ساكن الدنيا تأهـ ... ـبْ وانتظر يوم الفراقِ

---

(١) المشرع: المورد. لسان العرب (شرع).

(٢) الشَّتات، بالفتح: التفرّق. لسان العرب (شتت).

(٣) الأبيات لعمران بن حِطّان الشيباني المتوفّى سنة ٨٤ هـ، وهي في شعر الخوارج (ص ١٩)، وقد تقدمت في الجزء الأول ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) اللُّبانات: جمع لُبانة وهي الحاجة. مختار الصحاح (لبن).

(٥) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، وترجمته في وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ١٤٠)، وهذه المقطوعة الشعرية والتي تليها في ذيل الروضتين لأبي شامة (ص ٢١).

وأعِـدَّ زادا لـلـرحـيـل فسوف يُحْدى بالرفاق
وابْـكِ الـذنـوبَ بـأدمُـعٍ تنهلُّ من سُحُبِ المآقِ
يـا مَـنْ أضـاعَ زمـانـه أرَضِيتَ ما يَفْنى بباقِ

وكان ابن الجوزي المذكور آية اللَّه في كثرة التأليف والكتابة والوعظ والحفظ، وأقلّ من كان يحضر مجلسه عشرة آلاف، وربما حضر عنده مائة ألف، وقال في آخر عمره على المنبر: كتبت بأصبعيَّ هاتين ألفي مجلّدة، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألف يهودي ونصراني، وأسمع رحمه اللَّه تعالى الناسَ أكثر من أربعين سنة، وحدّث بمصنّفاته مرارًا.

وقال الحافظ الذهبي في حقّه: الحافظ الكبير، الواعظ، المفتن، صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في العلوم المتعدّدة، وعظ من صغره، وفاق فيه الأقران ونظم الشعر المليح، وكتب بخطّه ما لا يوصف، ورأى من القبول والاحترام ما لا مزيد عليه، وحُزِر[١] مجلسه غير مرة بمائة ألف، وحضر مجلسه المستضيء مرارًا من وراء الستر؛ انتهى.

ومن كلامه في بعض مجالسه: واللَّه ما اجتمع لأحد أمله، إلاّ وسعى في تفريقه أجله، وعقارب المنايا تلسع الناس، وخدران جسم الأمل يمنع الإحساس.

وقال في قوله ﷺ «أعمار أُمّتي من الستين إلى السبعين» إنما طالت أعمار القدماء لطول البادية، فلمّا شارف الركبُ بَلَد الإقامة قيل: حثّوا المطي.

وقال في الذين عبدوا العجل: لو أنَّ اللَّه خار لهم، ما خار لهم[٢].

وقال يومًا وقد طرب أهل المجلس: فهمتم فهمتم[٣].

وقال في خلافة أبي بكر، رضي اللَّه عنه، بعد أن ذكر أحاديث تدلّ على خلافته كقوله ﷺ «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس» وغيره، ما صورته: فهذه أحاديث تجري مجرى النصّ، فهمها الخصوص، غير أنَّ الرافضة في إخفائها كاللصوص، فقال السائل: لما قال «أقيلوني» ما سمعنا مثل جواب علي رضي اللَّه عنه «واللَّه لا أقلْناك» فقال: لمّا غاب علي

(١) حُزر مجلسه. . : أي قُدِّر عدد من حضره. لسان العرب (حزر).
(٢) «خار» الأولى: اختار، و «خار» الثانية: صاح، وهو خاصّ بالبقر. محيط المحيط (خور).
(٣) «فهمتم» الأولى: من الفَهْم، و «فهمتم» الثانية: من الهيام.

عن البيعة في الأول، أخلف ما فات بالمدح في المستقبل، ليعلم السامع والرائي أنَّ بيعة أبي بكر وإن كانت من ورائي، فهي رائي، ومثل ذلك الصَّدْر لا يرائي.

وقال في قول فرعون ﴿أَلَيْسَ لي مُلْكُ مِصْرَ﴾[1]: يفتخر بما أجراه، ما أجراه[2].

وتواجَدَ رجل في مجلسه فقال: عجبًا! كُلنا في إنشاد الضالة سَوَا، فلم وجدت وَخدَك ألم الجَوَى؟ وأنشد: [الرمل]

قد كتمتُ الحُبَّ حتى شَفَّني ... وإذا ما كُتِمَ الداءُ قَتَلْ
بَيْنَ عينيك عُلالاتُ الكَرَى ... فَدَعِ النومَ لربّات الحِجَلْ[3]

ونظر يومًا إلى أقوام يبكون في مجلسه ويتواجدونَ فأنشد[4]: [الطويل]

ولو لم يَهِجْني الظاعنونَ لهاجَني ... حمائمُ وُرْقٌ في الديار وُقُوْعُ
تداعينَ فاستبكينَ من كان ذا هوى ... نوائحُ لم تقطرْ[5] لهنّ دموعُ
وكيف أُطيقُ العاذلين وذكرهم ... يؤرّقني والعاذلون هجوعُ

وقام رجل وتواجد فأنشد: [الطويل]

وما زالَ يشكو الشوقَ حتى كأنما ... تَنَفَّسَ مِنْ أحشائِهِ وتكلَّما
ويبكي فأبكي رحمةً لبكائه ... إذا ما بكى دمعًا بكيتُ له دما

وأعجبه يومًا كلامه فأنشد: [الرجز]

تزدحمُ الألفاظُ والمعاني ، على فؤادي وعلى لساني
تجري بيَ الأفكارُ في ميدانِ ... أُزاحمُ النَّجْمَ على مكانِ

ووعظ المستضيء يومًا فقال: يا أمير المؤمنين، إن تكلَّمْتُ خفتُ منك، وإن سكتُّ خفت عليك، فأنا أقدم خوفي عليك، على خوفي منك، لمحبتي لدوام أيامك، إنَّ قول

---

(١) سورة الزخرف ٤٣، الآية ٥١.
(٢) ما أجراه: أصل الكلام: ما أجرأه، وقد خفّف الهمزة مراعاة للسجع.
(٣) ربّات الحِجال: النساء. لسان العرب (ربب) و (حجل).
(٤) الأبيات لذي الرمة، وهي في ديوانه (ص ٣٥٢). وقد تقدم البيتان الأول والثاني في الجزء الرابع ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٦٢): «يقطر».

القائل «اتّق اللّه» خير من قول القائل: أنتم أهل بيت مغفور لكم. وقال الحسن البصري: لأن تصحب أقوامًا يخوّفوك حتى تبلغ المأمن خير لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى تبلغ المخاوف. وكان عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يقول: إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعيّة ولم أغيره فأنا الظالم. يا أمير المؤمنين، كان يوسف، عليه السلام، لا يشبع في زمان القحط؛ لئلاً ينسى الجياع، وكان عمر، رضي اللّه عنه، يصرّ بطنه عام الرَّمادة فيقول: قرقري إن شئت أو لا تقرقري، فواللّه لا شَبِعْتِ والمسلمون جياع. فتصدّق الخليفَةُ المستضيء بصدقات كثيرة، وأطلق مَنْ في السجن.

وقال رحمه اللّه تعالى لبعض الولاة: اذكر عدل اللّه فيك، وعند العقوبة قدرةَ اللّه عليك، وإياك أن تشفي غيظك بسَقَم دينك.

وقال: الطاعة تبسط اللسان، والمعاصي تذلّ الإنسان.

وقال له قائل: ما نمت البارحة من شوقي إلى المجلس، فقال: نعم؛ لأنك تريد أن تتفرّج، وإنما ينبغي أن لا تنام الليلة لأجل ما سمعت فيه.

وقيل له: إنَّ فلانًا أوصى عند الموت، فقال: طيَّن سطوحه في كانون.

وقال له قائل: أُسَبِّحُ أم أستغفر؟ فقال: الثياب الوسخة أحوج إلى الصابون من البخور.

وسأله سائل: ما الذي وَقر في قلب أبي بكر، رضي اللّه عنه؟ فقال: قوله ليلة المعراج «إن كان قال فلقد صَدَقَ» فله السبق.

ولمّا قال له بعضهم «سيفُ عليّ نزل من السماء فسَعَفة أبي بكر أين؟» أجابه بقوله: إنَّ سَعَفةً هَزَّتْ يوم الردّة فأثمرت سَبْيًا جاء منه مثلُ ابن الحنفية لأمضى من سيوف الهند، ثم قال: يا عجبًا للروافض، إذا مات لهم ميت تركوا معه سَعَفة، مِنْ أين ذا المصطلح؟.

وسئل عن معنى قوله ﷺ «مَنْ أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر» فقال: الميت يقسم ماله ويكفن، وأبو بكر أخرج ماله كلَّه وتخلّل بالعباء.

وقال في قوله تعالى ﴿ونَزَعْنا ما في صُدُورِهِم مِنْ غِلّ إخوانًا ﴾[1] قال علي: إني

(١) سورة الحجر ١٥، الآية ٤٧.

واللّه لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، ثم قال أبو الفرج: إذا اصطلح أهلُ الحرب فما بال النظارة؟.

وقال: قال جبريل لرسول اللّه ﷺ: سلّم على عائشة، ولم يواجهها بالخطاب احترامًا لزوجها، وواجه مريم لأنها لم يكن لها زوج، فمن يحترمها جبريل كيف يجوز في حقّها الأباطيل؟

قال أبو شامة: وكان ابن الجوزي ـ رحمه اللّه تعالى! ـ مُبْتَلًى بالكلام في مثل هذه الأشياء، لكثرة الروافض ببغداد وتعنتهم بالسؤالات فيها، فكان بصيرًا بالخروج منها لحسن إشارته.

وانقطع القراء يومًا عن مجلسه فأنشد: [الطويل]

وما الحَلْي إلاَّ زينةٌ لنقيصة يُتَمِّمُ مِنْ حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قَصَّرَا
وأمّا إذا كان الجمالُ مُوَفَّرًا كحسنك لم يحتجْ إلى أن يُزَوَّرا

وقيل له: لم تعلّل موسى عليه السلام بسوف تراني؟ فأنشد: [الكامل]

إن لم يكن وَصْلٌ لديك لنا يشفي الصبابة فليكن وَعْدُ

ولما ذكر أنَّ بلالاً ـ رضي اللّه عنه! ـ لما منع الطواف بالبيت كان يقف من بعيد وينظر إليه ويبكي أنشد: [الوافر]

أمرُّ على منازلهمْ وإني بمن أضحى بها صَبٌّ مَشُوقُ
وأُومِي بالتحيَّةِ مِنْ بعيدٍ كما يومي بأصبعه الغريقُ

ومن شعر أبي الفرج رحمه اللّه تعالى: [المتقارب]

لَعِبْتَ ومِثْلُكَ لا يلعَبُ وقد ذَهَبَ الأطيبُ الأطيبُ
وقد كنتَ في ظلمات الشبابِ فلمّا أضاء انجلى الغيهبُ[1]
ألاَ أين أقرانك الراحلون؟ لقد لاح، إذ ذهبوا، المذهبُ[2]

---

(١) الغيهب: الظلمة. لسان العرب (غيهب).
(٢) المذهب: المكان الذي تذهب إليه. لسان العرب (ذهب).

ولنقتصر على هذا المقدار، ونرجع إلى أحوال لسان الدين، رحمه اللّه تعالى، وارتحاله، والاعتبار بحاله، فنقول:

ومِمّا يناسب أن نذكره في هذا المحلّ ونثبته فيه ما حكاه العالم العلامة بلدينا سيدي أبو الفضل ابن الإمام التلمساني رحمه اللّه تعالى عن جدّي الإمام قاضي القضاة سيدي أبي عبد اللّه المَقَّري التلمساني رحمه اللّه تعالى، وهو أحد أشياخ لسان الدين كما يأتي إن شاء اللّه ذلك في محلّه، قال: كنت مع ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب في جامع إلبيرة من الأندلس إذ مَرَّ بنا الاعتبار، في تلك الآثار، فأنشد ابن الخطيب ارتجالاً[1]: [الوافر]

أَقَمْنا برهةً ثم ارتحلْنا	كذلك الدهرُ حالٌ بعد حالِ
وكلُّ بدايةٍ فإلى انتهاءٍ	وكلُّ إقامةٍ فإلى ارتحالِ
ومن سامَ الزمانَ دَوَامَ حالٍ[2]	فقد وقَفَ الرجاءَ على المحالِ

انتهى[3].

وحكى لسان الدين في «الإحاطة»[4] عن نفسه أنه خطّط هذه الأبيات في مرحلة نزلها رحمه اللّه تعالى حسبما يأتي ذلك في شعره.

وما أحسن قوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

لبِسْنا فلم نُبْلِ الزمانَ وأَبْلانا	يتابع أخْرَانا على الغيِّ أولانا
ونغترُّ بالآمالِ والعمرُ ينقضي	فما كان بالرُّجْعَى إلى اللّه أولانا
وماذا عسى أن يُنْظِرَ الدهرُ من عسا	فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانا
جزينا صنيع اللّه شرَّ جزائه	فلم نرعَ ما مِنْ سابقِ الفضل أولانا
فيا ربِّ عامِلْنا بما أنتَ أهلُهُ	من العفو واجبر صَدْعنا أنت مولانا

وقد حكى غيرُ واحدٍ أنه رحمه اللّه تعالى رِيء[5] بعد موته في المنام، فقال له

---

(١) الأبيات في الإحاطة (جـ ٤ ص ٥٢٥) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٧١). وسترد في الجزء التاسع (ص ٢٠١) وجاء هناك: «أمر» بدل «حال» في البيت الثالث.

(٢) في الإحاطة: «الزمان بعام أمرٍ».

(٣) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٦٦).

(٤) قال في الإحاطة إنه كتب الأبيات في بعض الحيطان لمّا اجتاز على مدينة سبتة.

(٥) ريء: رئي.

الرائي: ما فعل اللّه بك؟ فقال: غفر لي ببيتين قلتهما، وهما[1]: [الكامل]

يا مصطفى من قبل نشأةِ آدمٍ والكونُ لم تُفْتَحْ له أغلاقُ
أيرومُ مخلوقٌ ثناءَكَ بعدما أثنى على أخلاقكَ الخلاقُ[2]

وقد كرر، رحمه اللّه تعالى، هذا المعنى في قصيدة في حقّه ﷺ، وشرف وكرم، ومجد وعظم، وبارك وأنعم، وهو قوله: [الكامل]

مَدَحَتْكَ آياتُ الكتابِ فما عَسَى يُثْني على علياك نظمُ مديحي
وإذا كتابُ اللّه أثنى مُفْصِحًا كان القصورُ قُصارَ[3] كلِّ فصيحِ

وستأتي هذه القصيدة في نظمه إن شاء اللّه تعالى.

وقد رأيت بالمغرب تخميسًا للبيتين الأوّلين منسوبًا للأديب الشهير الذكر بالمغرب أبي عبد اللّه محمد بن جابر الغساني المكناسي، رحمه اللّه تعالى، ولا بأس أن نورده هنا، وهو قوله رحمه اللّه تعالى[4]: [الكامل[

يا سائلاً لضريحِ خيرِ العالمِ يُنْهي إليه مقامَ صَبٍّ هائمِ
باللّه نادِ وقُلْ مقالةَ عالمِ يا مصطفى من قبل نشأةِ آدمِ
والكونُ لَم تُفْتَحْ له أغلاقُ
بِثَنَاكَ قد شهدتْ ملائكةُ السما واللّهُ قد صلّى عليك وسلّما
يا مُجْتَبَى ومُعَظَّمًا ومُكَرَّما أيرومُ مخلوقٌ ثناءكَ بعدما
أثنى على أخلاقكَ الخلاقُ

وما أحْسَنَ قولَ لسان الدين. رحمه اللّه تعالى! . بعد ما عرّف بنفسه وسلفه: وكأني[5] بالحي مِمَّنْ ذكر قد التحق بالميت، وبالقبر قد استبدل بالبيت.

---

(١) البيتان في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣١٩).
(٢) يشير إلى قول اللّه تعالى في النبي ﷺ: ﴿وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ﴾. سورة القلم ٦٨، الآية ٤.
(٣) القُصار والقصارى: الجهد والغاية. لسان العرب (قصر).
(٤) هذا التخميس في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣١٩).
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٦٧): «وكأن».

وقال رحمه اللّه تعالى بعد إيراد جملة من نظمه ما صورته: وقلت والبقاء للّه وحده، وبه يختم الهَذَر[1]: [مجزوء الرمل]

عَـدِّ عـن كـيـتٍ وكـيـتِ ما عـلـيـهـا غـيـرُ مـيـتِ
كـيف تُرْجَى حـالة البُقْـ يَـا[2] لـمـصـبـاحٍ وزيـتِ

وسيأتي ذلك.

ولقد صدق، رحمه اللّه تعالى، ورقى درجته في الجنّة!.

وأما البيتان الشائعان على ألسنة أهل المشرق والمغرب وأنهما قيلا في لسان الدين رحمه اللّه تعالى، وبعضهم ينسبهما له نفسه، فالصحيح خلاف ذلك كما سيأتي، وهما: [السريع]

قِفْ كي ترى مغربَ شمسِ الضُّحَى بـيـن صـلاةِ الـعـصـرِ والـمـغـربِ
واسـتـرحـمِ الـلّـهَ قَـتـيـلاً بـهـا كـان إمامَ الـعـصـرِ في الـمـغـربِ

وشرح بعضهم البيتين فقال: إن قوله «قتيلاً بها» من باب الاستخدام: أي قتيلاً بشمس الضحى التي هي المتغزل فيها.

وقد رأيت وأنا بالمغرب بخطّ الشيخ الأغصاوي أنهما لم يَعْنِ بهما قائلُهما لسانَ الدين بن الخطيب، وإنما هما مقولان في غيره، ونسبهما، ونَسيت الآن ذلك لطول العهد، واللّه أعلم.

ويدلُّ على ذلك أنه ـ رحمه اللّه تعالى! ـ لم يُقْتل بين صلاة العصر والمغرب وإنما قُتل في جوف الليل كما عُلم في محلّه، على أنه يمكن بتكلّف تأويل ذلك بأنه قامت لقائلهما قرينة على أنه بصدد الموت في ذلك الوقت، وهذا لو ثبت أنهما قيلا فيه، وقد علمت أنَّ الأغصاوي نَفَى ذلك، فاللّه أعلم بحقيقة الأمر في ذلك.

ثم رأيت في كتاب إسماعيل بن الأحمر في ترجمة بعض العلماء ما نصُّه: فمن قوله

---

(١) البيتان في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣١٣)، وسيردان في الجزء التاسع وفيه: «ترجو» بدل «ترجى» في البيت الثاني.
(٢) البُقْيا: البقاء.

يرثي الأمراء بالمغرب، وقد حلّ رمسه بين صلاة العصر والمغرب: [السريع]

قِفْ كي ترى مغربَ شمسِ العُلاَ بين صلاةِ العصرِ والمغربِ
واسترحم اللّه دفينًا به كان مليكَ العصرِ في المغربِ

وهذا مِمّا يبعد أنهما في لسان الدين من وجوه لا تخفى على المتأمّل: منها قوله «كان مليك العصر» فإنّ لسان الدين لم يكن كذلك، وقد تقدّم آنفًا «كان إمام العصر في المغرب» وهو أحسن؛ لما فيه من التورية البديعة، واللّه أعلم.

رجع إلى إخبار لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى. وقد عرض عدوّه الرئيس ابن زَمْرَك في بعض قصائده التي مدح بها سلطانه الغني باللّه أبا عبد اللّه بن نصر بما تسنّى له من الظفر بابن الخطيب، ومن حماه منه، وهو الوزير ابن الكاس[1]، على يد من عَيَّنه لملك الغرب، وأعانه بجنده وعضده، كما تقدّم، وهو السلطان أحمد المريني، فقال من قصيدة عيدية: [البسيط]

يَهْنِي زمانَكَ أعيادٌ مُجَدَّدَةٌ مِنَ الفُتُوح مَعَ الأيام تَغْشَاهُ
غَضِبتَ للدين والدنيا بحقّهما يا حبّذا غضبٌ في اللّه أرضاه
فَوَّقْتَ للغرب سَهْمًا راشه قَدَرٌ وسدَّد اللّهُ للأعداء مرماه
«سَهْمٌ أصابَ وراميه بذي سَلَم»[2] لقد رمى الغرضَ الأقصى فأصماه
من كان بَنْدُكَ[3] يا مولاي يَقْدُمُهُ فليس يَخْلفه فتحٌ ترجّاه
من كان جندك جندُ اللّه ينصره أناله اللّهُ ما يرجو وسَنّاه
ملّكت غَرْبًا به خَلَّدْتَ من ملكٍ للشرق والغرب منه ما تمنّاه[4]
وسام أعداءك الأشقَيْنَ ما كسبوا ومن تردَّى رداءَ الغَدْرِ أرداه
قل للذي رمِدَتْ جهلاً بصيرتُهُ فلم تر الشمسَ، شمسَ الهدى، عيناه

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٦٨): «ابن الكاسي».

(٢) صدر هذا البيت هو صدر بيت للشريف الرضي، والبيت بتمامه هو:
سَهْمٌ أصابَ وراميه بذي سَلَمٍ من بالعراق لقد أبعدت مرماك
ديوان الشريف الرضي (ج ٢ ص ٦٢).

(٣) البَنْدُ: العلم الكبير. لسان العرب (بند).

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٧٠): «ملكته غربه خلدت... للغرب والشرق منه..».

غَطَّى الهوى عَقْلَهُ حتى إذا ظهرتْ — لـه الـمـراشـدُ أعـشـاه وأعـمـاه
هل عنده وذنوب الغدر تُوبِقُهُ[1] — أنَّ الذي قد كساه العِزَّ أعراه
لو كان يشكُر ما أوليتَ مِنْ نعم — ما زلت ملجأه الأحمى ومنجاه
سُلَّ السعودَ وخَلِّ البِيْضَ مغمدةً — فالسيفُ مهما مضى فالسعدُ أقصاه
واشرعْ من البرق نَصْلاً راعَ مُصْلِتُهُ — وارفعْ من الصبح بَنْدًا راق مجلاه
فالعُدْوتان لنا قد ضمَّ ملكُهما — أنصارُ ملكِكَ، صان اللّه عَلْيَاه
لا أوحشَ اللّه قطرًا أنتَ مالكه — وآنس الـلّـه بـالألـطـاف مـغـنـاه
لا أظلـم الـلّـه أُفقًا أنتَ نَيِّرُه — لا أهملَ اللّه سَرْحًا أنت ترعاه
واهنأ بشهر صيام جاء زائرُهُ — مستنزلاً من إله العرشِ رحماه
أهلَّ بالسعد فانهلَّتْ به مِنَنٌ — وأوسعَ الصنعَ إجمالاً ووفَّاهُ
أَمَا ترى بركاتِ الأرض شاملةً — وأنْعُمَ اللّه قد عَمَّتْ براياه[2]
وعادكَ العيد تُسْتَحْلى موارده — ويجزلُ الأجرَ والرحمى مصلاّه
جَهَّزْتَ جيشَ دعاءٍ فيه ترفعه — لذي المعارج والإخلاص رقّاهُ
أَفَضْتَ فيه من النعماءِ أجْزَلَهَا — وأشرف البرّ بالإحسان زكّاه
واليتَ للخلق ما أُوليتَ من نعم — والى لك اللّه ما أولى ووالاه

وأول هذه القصيدة:

هـذي الـعـوالـمُ لـفـظٌ أنْـتَ مَـعْـنَـاهُ — كـلٌّ يـقـولُ إذا استـنـطـقـتـه الـلّـهُ
بحرُ الوجودِ وفُلكُ[3] الكون جاريةٌ — وبـاسـمـك الـلّـه مَـجْـرَاه ومُـرْسَـاه
مِنْ نورِ وجهك ضاء الكونُ أجمعُهُ — حـتـى تَـشَـيَّـدَ بـالأفـلاك مَـبْـنـاه
عـرشٌ وفـرشٌ وأمـلاكٌ مـسـخَّـرةٌ — وكـلّـهـا سـاجـدٌ لـلّـه مـولاه
سبحان مَنْ أوجد الأشياء من عدم — وأوسَع الكونَ قبل الكونِ نعماه
من ينسب النورَ للأفلاك قلت له: — مـن أيـن أُطـلـعـتِ الأنـوارُ لـولاه
مولايَ مولايَ بحرُ الجود أغرقني — والخلقُ أجمعُ. في ذا البحرِ قد تاهوا

---

(١) تُوبِقه: تُهْلكه. لسان العرب (وبق).
(٢) البرايا: جمع برية وهي الخلق أي الناس. محيط المحيط (برى).
(٣) الفُلكُ: السفينة. لسان العرب (فلك).

فالفُلكُ تجري كما الأفلاك جاريةٌ بحرُ السماء وبحرُ الأرض أشباه
وكلّهم نعمٌ للخلقِ جاريةٌ[1] تبارك اللّه لا تحصى عطاياه
يا فاتق الرَّتْقِ[2] من هذا الوجودِ كما في سابق العلم قد خُطَّتْ قضاياه
كنْ لي كما كنتَ لي إذ كنتُ لا عملٌ أرجو، ولا ذنبَ قد أذنبت أخشاه
وأنت في حضرات القدس تنقلني حتى استقرَّ بهذا الكون مَثْواه
ما أقبحَ العبدَ أن ينسى وتذكره وأنت باللطف والإحسان ترعاه
غُفْرَانَكَ اللّهُ من جهلٍ بُليتُ به فمن أفاد وجودي كيف أنساه
مِنّي عليَّ حجابٌ لست أرفعُهُ إلاّ بتوفيق هَذي منكَ ترضاه
فَعُدْ عليَّ بما عوَّدْتَ من كرم فأنتَ أكرمُ مَنْ أمّلْتُ رحماه
ثم الصلاةُ صلاةُ اللّه دائمةٌ على الذي باسمه في الذكر سمّاه
المجتبى[3] وزنادُ النور ما قُدِحَتْ ولاذَ كَا من نسيم الروض مَسْرَاه
والمصطفى وكِمَامُ[4] الكونِ ما فُتِقَتْ عن زهرِ زهرٍ يروق العينَ مرآه
ولا تفجَّر نهرٌ للنهار على دُرِّ الدراري فغطّاه وأخفاه
يا فاتَح الرُّسْلِ أو يا خَتْمَها شرفًا واللّه قدَّسَ في الحالين معناه
لم أدَّخرْ غيرَ حبٍّ فيك أرفعُهُ وسيلَةً لكريمٍ يومَ ألقاه
صلّى عليك إلٰهٌ أنت صَفْوته ما طيبت بلذيذ الذكر أفواه
وعمَّ بالرَّوْحِ والرَّيحان صحبته وجادهم[5] من نميرِ العفو أصفاه
وخصَّ أنصاره الأعلَيْنَ صفوته وأُسكنوا من جوار اللّه أعلاه
أنصارُ مصلتهِ أعلامُ بيعته مناقبٌ شرفت أثنى بها اللّه
وأيَّدَ اللّهُ مَنْ أحيا جهادهُم وواصل الفخرُ أُخْراه بأولاه
المنتقى من صميم الفخرِ جوهره ما بينَ نَضْرِ وأنصارِ تهاداه

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٧١): «شاملة».

(٢) قوله: «يا فاتق الرَّتْق» أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿أنَّ السَّمٰوَاتِ والأرضَ كانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾. سورة الأنبياء ٢١، الآية ٣٠.

(٣) المجتبى: المختار، المصطفى. لسان العرب (جبا).

(٤) الكِمام في الأصل: كِمام الزهر وهو الغلاف الذي ينشقّ عن الثمر. لسان العرب (كم).

(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٧١): «وجاءهم».

العلمُ والحلمُ والإفضالُ شيمتُهُ والبأسُ والجودُ بعضٌ من سجاياه

وهي طويلة، ولنقتصر منها على ما ذكر.

وقد صرّح ابنُ زَمْرك المذكور في قصيدة أخرى مدح بها سلطانه الغني بالله، وهنّأه بفتح المغرب على يد السلطان أحمد، وذكر فيها ظفره بالوزير ابن الكاس، وهو - أعني ابن الكاس - كان القائم بنصرة لسان الدين، والمانع له، والمجير له منهم حين طلبوه منه، فلمَّا لم يخفر ذمّته[1] تمكّنت - كما سبق - أسبابُ العداوة، وجرّ ذلك أن أغرى السلطان أحمد على تملّك فاس، واشترطوا عليه كما مَرَّ القَبْض على لسان الدين وإرساله إليهم، وقد نقلت[2] هذه القصيدة من تأليف لحفيد السلطان الغني بالله ونصُّ محلّ الحاجة منه: ومن ذلك أيضًا قوله - يعني ابن زَمْرَك - هناءً لمولانا الجدّ رحمه الله تعالى بالفتح المغربي للسلطان أبي العباس ابن السلطان أبي سالم الْمَرِيني[3]: [الكامل]

هي نفحةٌ هَبَّتْ من الأنصارِ أهدتك فتحَ ممالكِ الأمصارِ

في بشرها وبشارةِ الدنيا بها مُسْتَمْتَعُ الأسماعِ والأبصارِ

هَبَّتْ على قطرِ الجياد فروَّضَتْ أرجاءه بالنفحةِ المِعْطَارِ

وسَرَتْ وأمرُ اللّه طيَّ بُرودها يهدي البرية صنع لطف الباري

مَرَّتْ بأدواح المنابر فانبرتْ خُطَباؤها مُفْتَنَّةَ الأطيار

حَنَّتْ معارجها إلى أعشارها لمّا سمعنَ بها حنينَ عِشارِ

لو أنصفتك لكلّلتْ أدواحها تلك البشائرُ يانعَ الأزهار

فتحُ الفتوح أتاكَ في حُلَلِ الرضا بعجائبِ الأزمانِ والأعصار

فتحُ الفتوحِ جنيتَ مِنْ أفنانه ما شئتَ من نصرٍ ومن أنصار

كم آيةٍ لكَ في السعود جليّةٍ خَلَّدْتَ منها عبرةَ استبصار

كم حكمةٍ لك في النفوس خفيّةٍ خَفِيَتْ مداركها عن الأفكار

كم من أميرٍ أمَّ بابَك فانثنى يُدْعَى الخليفةَ دعوة الإكبارِ

---

(1) خفر ذمّته: نقض عهده. لسان العرب (خفر).

(2) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٧٢): «نقلت أنا هذه».

(3) القصيدة في أزهار الرياض (جـ ٢ ص ٢٨ - ٣٤).

أعطيت أحمدَ رايةً منصورةً ... بركاتها تسري[1] من الأنصار

أركبته في المنشآتِ[2] كأنما ... جَهَّزْتَهُ في وجهةٍ لمزار

من كلِّ خافقةِ الشِّراع مصفقٍ ... منها الجناحُ تطيرُ كلَّ مَطَار

ألقت بأيدي الريح فضلَ عنانها ... فتكادُ تسبقُ لمحةَ الأبصار

مثلَ الجيادِ تدافعتْ وتسابقتْ ... من طافحِ الأمواج في مضمار

للَّه منها في المَجَاز سوابحٌ ... وَقَفَتْ عليكَ الفخرَ وهي جواري

لمَّا قَصَدْتَ بها مراسيَ سبتةٍ ... عطفتْ على الأسوار عطفَ سِوَار[3]

لمّا رأتْ مِنْ صُبْحِ عزمكَ غِرَّةً ... محفوفةً بأشعّةِ الأنوار

ورأت جبينًا دونه شمسُ الضُّحَى ... لَبَّتك بالإجلال والإكبار

فأفضتَ فيها مِنْ نَدَاكَ مواهبًا ... حَسُنَتْ مواقعُها على التكرارِ

وأريتَ أهلَ الغربِ عَزْمَ مغرِّبٍ ... ساعدته غرائبُ الأقدار

وخطبتَ من فاسَ الجديدِ عقيلةً ... لَبَّتْكَ طَوْعَ تسرُّعٍ وبِدَارِ

ما صدّقوا متنَ الحديثِ بفتحها ... حتى رأوه في متون شِفَارِ[4]

وتسمَّعوا الأخبار باستفتاحها ... والخُبْرُ قد يغني[5] عن الأخبار

قولوا لقردٍ في الوزارة غَرَّه ... حلمٌ مننتَ به على مقدار

أسكنته من فاسَ جنَّةَ ملكها ... متنعمًا منها بدار قَرَار

حتى إذا كفر الصنيعةَ وازدرى ... بحقوقها أَلْحَقْتَهُ بالنار

جَرَّعت نجل الكاس كأسًا مُرَّةً ... دَسَّتْ إليه الحتفَ في الإسكار

كفر الذي أوليته من نعمةٍ ... لا تأنسُ النعماءُ بالكفّار

فطرحته طَرْحَ النواة فلم يَفُزْ ... من عزِّ مغربِه بغير فرار

لم يتّفقْ لخليفةٍ مثلُ الذي ... أعطى الإله خليفةَ الأنصار

لم أَدرِ والأيامُ ذاتُ عجائبٍ ... تردادها يحلو على التذكار

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٧٢): «تروي عن الأنصار».

(٢) المنشآت: السفن.

(٣) عطفتْ عطفَ سِوار: يريد أنها حاصرتها وضيّقت الخناق عليها.

(٤) الشِّفار: جمع شفرة وهي هنا بمعنى السيف. لسان العرب (شفر).

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٧): «أغنى».

ألـواءُ صبـحٍ فـي ثـنيَّـةِ مشـرقٍ أم رايـةٌ فـي جَـحْـفـلٍ جَـرَّار
وشـهـابُ أُفـقٍ أم سـنـانٌ لامـعٌ ينقضُّ نجمًا في سماء غبار
ومناقبُ المولى الإمامِ محمدٍ قد أشرقتْ أم هنَّ زُهْرُ دَرَارِي[1]
فـاقَ الـمـلـوكَ بـهـمَّـةٍ عـلـويـةٍ من دونها نجمُ السماء الساري
لو صافح الكَفَّ الخضيبَ بكفِّه فخرتْ بنهرٍ للمجرّة جاري
والشُّهبُ تطمعُ في مطالع أفقها لـو أحـرزتْ مـنـه منيـعَ جِوار
سَلْ بالمشارق صبحَها عن وَجْهِهِ يـفـتـرُّ مـنـه عـن جـبـيـن نـهـار
سَلْ بالغمائم صَوْبَها عن كَفِّه[2] تـنـبـيك عـن بـحـرٍ بـهـا زَخَّـار
سَلْ بالبروق صفاحَها عن عزمه تُخْبِرْكَ عن أمضى شَبًا وغِرارِ[3]
قد أحرز الشيَمَ الخطيرةَ عندما أمطى[4] العزائمَ صهوةَ الأخطار
إن يلقَ ذو الإجرام صفحةَ صَفْحِهِ فَسَحَ القبولُ له خُطا الأعمار
يا من إذا هَبَّتْ نواسمُ حَمْدِهِ أزرتْ بعَرْفِ الروضة المِعْطار
يا مَنْ إذا افترَّتْ مباسمُ بشرِهِ وَهَبَ النفوسَ وعاثَ في الإقتار
يا من إذا طلعتْ شموسُ سعوده تُغْشِي أشعتُها قوى الأبصار
قَسَمًا بوجهك في الضياء فإنه شـمـسٌ تـمـدُّ الـشـمـسَ بـالأنـوار
قَسَمًا بعزمك في المَضَاء فإنه سـيـفٌ تـجـرِّده يَـدُ الأقـدار
لَسَمَاحُ كفِّك كلّما استوهَبْتَهُ يُزرِي بغيث الديمة المِدرار[5]
لله حضرتُكَ العليّةُ لم تزلْ يلقي الغريبُ بها عَصَا التسيار
كم من طريدٍ نازح قَذَفَتْ به أيدي النوى في القفر رَهْنَ سفار
بَـلَّـغْـتَـه مـا شـاء مـن آمـالـه فـسـلا عـن الأوطـان بـالأوطـار
صَـيَّـرْتَ بـالإحـسـان دارَك دارَهُ مُتِّعْتَ بالحسنى وعقبى الدار
والخلقُ تعلم أنك الغوثُ الذي يُـضْـفـي عـلـيـهـا وافِـيَ الأستـار

---

(١) الدراريّ: الكواكب. محيط المحيط (درأ).

(٢) الغمائم: جمع غمامة وهي السحابة. الصَّوب: المطر. لسان العرب (غمم) و (صوب).

(٣) الشَّبا: جمع شباة وهي حَدُّ السَّيف. الغِرار: حَدُّ السيف. محيط المحيط (شبا) و (غرر).

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٧٤): «أمضى».

(٥) المدرار: الغزير. لسان العرب (درر).

كم دعوةٍ لك في[1] المُحُول مجابةٍ — أغرتْ جفونَ المُزْنِ باستعبار
جادتْ مجاري الدمع مِنْ قَطر الندى — فرعى الربيعُ لها حقوقَ الجار
فأعاد وجه الأرضِ طلقًا مشرقًا — مُتضاحكا بمباسِم النَّوَّارِ
يا مَنْ مآثرُه وفضلُ جهاده — تُحدَى القِطارُ بها إلى الأقطار
حُطْتَ البلادَ ومن حوته ثغورها — وكفى بسعدكَ حاميًا لِذمَارِ
فلربَّ بِكْرٍ للفتوح خطبتها — بالمشرفية والقَنَا الخطّار
وعقيلةٍ للكفر لمّا رُعتَهَا — أخرستَ مِنْ ناقوسها المهذار
أَذْهَبْتَ من صفح الوجودِ كيانَها — ومَحَوْتَها إلاَّ من التذكارِ
عمروا بها جنّاتِ عَدْنٍ زُخْرِفَتْ — ثم انثنوا عنها ديار بَوَار[2]
صَبَّحْتَ منها روضةً مطلولةً — فأعدتها للحين موقدَ نار
واَسودَّ وجهُ الكُفرِ من خزيٍ متى — ما اَحمرَّ وجهُ الأبيض البتّار[3]
ولربَّ روضٍ للقنا[4] متأوّد — نابَ الصهيلُ به عن الأطيار
مهما حكتْ زُهرُ الأَسِنَّةِ زَهْرَهُ — حَكَتِ السيوفُ معاطفَ الأنهار
مُتَوَقِّدٌ لهبُ الحديدِ بجوِّهِ — تصلى به الأعداء لفح أُوار
فبكلِّ ملتفتٍ صقالٌ مشهرٌ — قَدّاح زندٍ للحفيظة واري
في كَفِّ أروعَ فوق نَهْدٍ سابحٍ — متموّجِ الأعطافِ في الإحضار[5]
مِنْ كلِّ منخفرٍ بلمحةِ بارقٍ — حَمَلَ السلاحَ به على طيّارِ
من أشهبٍ كالصبح يطلعُ غُرّةً — في مُسْتَهَلِّ العسكرِ الجرّار
أو أدهمٍ كالليل إلاَّ أنه — لم يَرْضَ بالجوزاء حَلْيَ عِذار
أو أحمرٍ كالجمر يذكي شعلةً — وقد اَرتمى من بأسه بشرار
أو أشقرٍ حَلَّى الجمالُ أديمَهُ — وكساهُ من زهوٍ جِلالَ نُضَار
أو أشعلٍ راقَ العيونَ كأنه — غَلَسٌ يخالطُ سُدفةً بنهار

(١) كلمة «في» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٧٤).
(٢) البَوار، بالفتح: الهلاك. محيط المحيط (بار).
(٣) الأبيض البتّار: السيف القاطع. لسان العرب (بيض) و (بتر).
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٧٥): «للغنى».
(٥) الإحضار: السير السريع. لسان العرب (حضر).

شُهبٌ وشُقرٌ في الطِّرادِ كأنها روضٌ تفتَّحَ عن شقيقِ بَهَار
عَوّدتها أن ليس تقربُ منهلاً حتى يخالَطَ بالدم المَوّار
يا أيها الملك الذي أيامُهُ غررٌ تلوحُ بأوجه الأعصار
يَهْنِي لواءَكَ أنَّ جَدَّكَ زاحفٌ بلواء خيرِ الخلقِ للكفّار
لا غَرْوَ أن فُقْتَ الملوكَ سيادةً إذ كان جدّك سيّدَ الأنصار
السابقون الأوّلون إلى الهدى والمصطَفَوْنَ لنصرةِ المختار
متهلّلون إذا النزيلُ عراهُم سَفَرُوا له عن أوجُهِ الأقمار[1]
من كلِّ وضّاح الجبين إذا احتبى تلقاه معصوبًا بتاجِ فخار
قد لاث صُبْحًا فوق بدرٍ بعدما لبسَ المكارمَ وارتدى بوقار
فاسأل ببدرٍ عن مواقفِ بأسهم فهمُ تلافَوْا أمره ببدار
لهم العَوَالي عن معالي فخرها نقلَ الرواةُ عواليَ الأخبار
وإذا كتابُ اللّه يتلو حمدهم أودى القصورُ بمنَّة الأشعار
يا ابنَ الذين إذا تُذُوكر فخرهم فخروا بطيبِ أرومةٍ ونِجَارِ[2]
حقًّا لقد أوضحتَ من آثارهم لما أخذتَ لدينهم بالثار
أصبحتَ وارثَ مجدهم وفخارهم ومشرِّفَ الأعصارِ والأمصار
يا صادرًا في الفتح عن وِرْدِ المنى رِدْ ناجحَ الإيرادِ والإصدار
واهنأْ بفتحٍ جاء يشتملُ الرضا جَذْلانَ يرفلُ في حلى استبشار
وإليكها ملءَ العيونِ وسامةً حَيَّتْكَ بالأبكار من أفكاري
تُجري حُدَاةُ العِيسِ طِيبَ حديثها يتعلّلون به على الأكوار[3]
إنْ مَسَّهمْ لفحُ الهجير أبلَّهم منه نسيمُ ثنائك المِعْطَار
وتُميلُ من أصغى لها فكأنني عاطيته منها كؤوسَ عُقَار
قذفتْ بحورُ الفكرِ منها جوهرًا لمَّا وصفتُ أناملاً ببحار
لا زلتَ للإسلام سترًا كلّما أَمَّ الحجيجُ البيتَ ذا الأستار
وبقيتَ يا بدرَ الهدى تجري بما شاءتْ عُلاك سوابقُ الأقدار

---

(١) عراهم: نزل بهم. سفروا عن وجوههم: أزالوا الغطاء عنها. لسان العرب (عرا) و (سفر).
(٢) الأرومة: الأصل. النجار: الأصل أيضًا. لسان العرب (أرم) و (نجر).
(٣) الأكوار: جمع كُور وهو الرَّحْل ومحيط المحيط (كور).

انتهت[1].

ولابن زَمْرَك السابق قصيدة أخرى قالها بعد موت لسان الدين بن الخطيب وخلع السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم الذي قتل ابن الخطيب في دولته، وكان سلطان الأندلس مَوْئلاً للسلطان أحمد المذكور، ولذلك امتعض لردّه لملكه، فقال ابن زَمْرَك وزير صاحب الأندلس بعد ابن الخطيب هذه القصيدة يمدح بها سلطانه أثناء وجهته لتجديد الدولة الأحمدية المذكورة صَدْرَ عام تسعة وثمانين وسبعمائة[2]: [الكامل]

هَبَّ النسيمُ على الرياضِ مع السَّحَرْ ... فاستقيظتْ في الدَّوْحِ أجفانُ الزَّهَرْ
ورمى القضيبُ دراهمًا مِنْ نَوْرِهِ ... فاعتاضَ من طَلِّ الغمام بها دُرَرْ
نثر الأزاهرَ بعدما نَظَم النَّدى ... يا حُسْنَ ما نَظَمَ النسيمُ وما نَثَرْ
قُمْ هاتها والجوُّ أَزْهَرُ باسمٌ ... شمسًا تحلُّ من الزجاجة في قمر
إن شَجَّها[3] بالماء كَفُّ مديرها ... ترميه من شُهُبِ الْحَبَاب بها شرز
نـاريـةٌ نـوريـةٌ مـن ضـوئـهـا ... يقد[4] السراجُ لنا إذا الليلُ اعتكر
لم يُبْقِ منها الدهرُ إلاَّ صبغة ... قد أرعشتْ في الكأس من ضعف الكبَرْ
من عهدِ كسرى لم يُفَضَّ ختامُها ... إذ كان يَدْخَرُ كنزها فيما دخرْ
كانتْ مُذابَ التبر فيما قد مضى ... فأحالها ذوبَ اللجين لمن نظر
جَدِّدْ بها عرسَ الصَّبوح فإنها ... بِكْرٌ تحيِّيها الكرام مع البُكَرْ[5]
وابللْ بها رَمَقَ الأصيلِ عشيّةً ... والشمسُ من وعدِ الغروبِ على خطرْ
محمّرةً مصفرّةً قد أظهرتْ ... خجلَ المريبِ يشوبه وَجَلُ الحذرْ
مِنْ كَفِّ شفّافٍ تجسَّدَ نوره ... من جوهرٍ لألاءُ بهجتِه بَهَرْ
تهوى البدورُ كماله وتودُّ أن ... لو أُوتيَتْ منه المحاسنَ والغُرَرْ
قد خطّ نورَ عذاره في خدِّه ... قلمان من آسٍ هناك ومن شَعَرْ

---

(١) كلمة «انتهت» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٧٦).

(٢) القصيدة في أزهار الرياض (جـ ٢ ص ٣٥ . ٣٨).

(٣) شجُّها: خلطها. لسان العرب (شجج).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٧٧): «قدح».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «تحبيها الكرام». والبُكَرُ: جمع بُكرة وهي أول النهار. لسان العرب (بكر).

والى عليك بها الكؤوسَ، وربما يسقيك من كأس الفتور إذا فترْ
سُكْرُ الندامى من يديه ولحظِهِ متعاقبٌ مهما سقى وإذا نظر
حيثُ الهديلُ مع الهدير تناغَيَا فالطيرُ تشدو[1] في الغصون بلا وتر
والقُضبُ مالتْ للعناق كأنها وفدُ الأحبّةِ قادمين من السفر
متلاعِبات في الحُليّ يَنوبُ في وجناتهنّ الوَرْدُ حسنًا عن خَفَرْ
والنرجسُ المطلولُ يرنو نحوها بلواحظِ دمعُ الندى منها انهمرْ
والنهرُ مصقولُ الحسام متى يَرِدْ درعُ الغديرِ مصفقًا فيه صدرْ
يجري على الحصباء وَهْيَ جواهر متكسرًا من فوقها مهما عثر
هل هذه أم روضةُ البشرى التي فيها لأرباب البصائر مُعْتَبَرْ

لم أدرِ مِنْ شَغَفٍ بها وبهذه مَنْ منهما فَتَنَ القلوبَ ومن سَحَرْ
جاءت بها الأجفانُ ملءَ ضُلُوعها ملءَ الخواطرِ والمسامع والبصر
ومسافرٍ في البحر ملء عَنانِهِ وافى مَعَ الفتحِ المُبينِ على قَدَرْ
قادته نحوك بالخطام كأنه جَمَلٌ يُساقُ إلى القياد وقد نفر
وأراه دينُ اللّـهِ عزَّةَ أهلِهِ بكَ يا أعفَّ القادرين إذا قدر
يا فخرَ أندلسٍ وعصمةَ أهلها للناس سرٌّ في اختصاصك قد ظهر
كم معضلٍ من دائها عالَجْتَهُ فشفيتَ منه بالبِدار وبالبِدَرْ[2]
ماذا عسى يصف البليغُ خليفةً واللّـهِ ما أيامه إلاّ غُرَرْ
وُرِّثْتَ هذا الفخرَ يا ملكَ الهدى من كلِّ مَنْ آوى النبيَّ ومَنْ نَصَرْ
من شاء يعرفُ فخرهم وكمالهم فَلْيَتْلُ وحيَ اللّه فيهم والسِّيَرْ
أبناؤهم أبناء نصرٍ بعدهم بسيوفهم دينُ الإلٰه قد انتصر
مولاي سعدُكَ والصباحُ تشابها وكلاهما في الخافقين قد اشتهر
هذا وزيرُ الغرب عبدٌ آبقٌ لم يلفِ غيرك في الشدائد من وَزَرْ
كَفَرَ الذي أوليته من نعمةٍ واللّه قد حَتَمَ العذابَ لمن كفر
إن لم يمتْ بالسيف مات بغيظه وصَلَى سعيرًا للتأسّف والفِكَرْ

---

(١) هكذا في أزهار الرياض، وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٧٨): «تنشد».
(٢) البِدَرُ: جمع بَدرة، وهي كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم. محيط المحيط (بدر).

ركب الفرارَ مطيَّةً ينجو بها فجرتْ به حتى استقرَّ على سَقَر[1]
وكذا أبوه وكان منه جِمامهُ قد حُمَّ وهو من الحياة على غَرَرْ
بلغته واللّهُ أكبرُ شاهدٍ ما شاء من وطنٍ يعزُّ ومن وطر
حتى إذا جحدَ الذي أوليته لم تُبْقِ منه الحادثاتُ ولم تَذَرْ
في حاله واللّهِ أعْظَمُ عبرةٍ للّه عبدٌ في القضاء قد اعتبر
فاصبرْ تَنَلْ أمثالها في مثله إنَّ العواقبَ في الأمور لمن صبر
رِدْ حيث شئتَ مسوَّغًا وِرْدَ المنى فاللّه حسبك في الورود وفي الصَّدَرْ
لا زلتَ محروسًا بعين كَلاَءة ما دام عين الشمس تُعشي مَنْ نَظَرْ

ومنها وقد أضاف إليه من التغزّل طوع بداره، وحجّة اقتداره، فقال:

والعُودُ في كَفِّ النديم بِسِرِّ ما تُلْقِي لنا منه الأناملُ قد جَهَرْ
غنَّى عليه الطيرُ وهو بدَوْحِهِ والآن غنَّى فوقه ظبيٌ أغرّ
عودٌ ثوى حِجْرَ القضيبِ، رعى له أيام كانا في الرياض مع الشجر
لا سيّما لمّا رأى من ثغره زهرًا، وأين الزهرُ من تلك الدرر
ويظنُّ أنَّ عِذاره من آسه ويظنُّ تفاحَ الخدود من الثمر
يَسْبي القلوبَ بلفظه وبلحظه وافِتْنَتي بين التكلّم والنظر
قد قَيَّدَتْهُ لأنسنا أوتاره كالظبي قُيِّدَ في الكِناس[2] إذا نفر
لم يُبْلَ قلبي قَبْلَ سمعِ غنائه بمعذَّرٍ سلبَ العقولَ وما اعتذر
جسَّ القلوبَ بجسّه أوتارَهُ حتى كأنَّ قلوبنا بين الوتر
نَمَّتْ لنا ألحانُه بجميعِ ما قد أُودِعَتْ فيه القلوب من الفكر[3]
يا صامتًا والعودُ تحت بنانه يغنيك نطقُ الخُبْرِ فيه عن الخبرْ
أغنى غناؤك عن مُدامك، يا ترى هل من لحاظك أم بنانك ذا السُّكَرْ
باحَتْ أناملك اللدانُ بكلِّ ما كان المتيَّمُ في هواه قد ستر
ومُقاتلٍ ما سَلَّ غيرَ لحاظه والرمحَ هَزَّ من القوام إذا خَطَرْ
دانتْ له منّا القلوب بطاعةٍ والسيفُ يملك رَبَّهُ مهما قَهَرْ

---

(١) سَقَرُ: جهنّم.

(٢) الكِناس: بيت الظبي. لسان العرب (كنس).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٧٩): «فيه من القلوب الفِكَرْ»، وهكذا ينكسر الوزن.

وسَنُلِمُّ إن شاء اللّه تعالى بترجمة ابن زَمْرَك هذا في باب التلامذة، ونشير هناك إلى كثير من أحواله، وكيفية قتله، مع أولاده وخدمه بمرأى ومسمع من أهله، فكان الجزاء من جنس العمل، وخاب منه الأمل، إذ لسان الدين قُتل غيلةً بليل غاسق[1]، على يد مختلس في السجن فاسق، وأمّا ابن زَمْرَك فَقُتل بالسيف جهارًا، وتناوشَتْه سيوف مخدومِه بين بناته إبداءً للتشفّي وإظهارًا، وقُتل معه من وجد من خدمه وأبناه، وأبعده الدهر وطالما أدناه. وهكذا الحال في خُدّام الدول وذوي الملك، أنهم أقرب شيء من الهُلْك، ويرحم اللّه من قال: إياك وخدمة الملوك فإنهم يستقلّون في العقاب، ضرب الرقاب، ويستكثرون في الثواب، رَدَّ الجواب؛ انتهى[2].

رَجْعٌ إلى ما كُنّا فيه من أحوال لسان الدين بن الخطيب: وكان رحمه اللّه تعالى قبيل موته. لمّا توفي السلطانُ أبو فارس عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن المَرِيني بتلمسان وتغلّب على الأمر الوزير أبو بكر بن غازي بن الكاس مُبَايِعًا لابن صغير السنّ من أولاد السلطان عبد العزيز. ألّف كتابه المسمّى بـ «أعمال[3] الأعلام، بمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام» ومرادُه بذلك تثبيت دولة الوزير الذي أبى أن يَخْفُرَ عهده وذمّته، وامتنع أن يمَكِّن منه أهل الأندلس، فأكثروا القَالَة في الوزير بسبب مبايعته للصبي، وبنوا ظاهر الأمر على أنّ ذلك لا يجوز بالشرع، وأبدأوا وأعادوا في ذلك، وأسرُّوا ما كان من أمرهم حَسْوًا في ارتغاء[4]. ومن جملة كلام لسان الدين بن الخطيب في ذلك الكتاب قوله: فمتى نَبَسَ[5] أهل الأندلس بإنكار بيعة صبي صغير، أو نيابة صاحب أو وزير، فقد عَمُوا وصَمُّوا، وخطروا بربع الإنصاف فأعرضوا وما ألَمُّوا[6]، وبما سنوه لغيرهم ذمّوا؛ انتهى.

وكان رحمه اللّه تعالى ألّف للسلطان عبد العزيز حين انحيازه إليه «المباخر الطيبية، في المفاخر الخطيبية»: يذكر فيه نباهة سلفه، وما لهم من المجد، وقصده الردُّ على أهل

---

(١) غاسق: مظلم. لسان العرب (غسق).

(٢) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٨٠).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٨٠): «بإعلام الأعلام..».

(٤) أخذه من المثل: «يُسِرُّ حَسْوًا في ارتغاء». الارتغاء: شرب الرّغْوة. ويضرب هذا المثل لمن يريك أنه يُعينك، وهو يجرُّ النّفْعَ إلى نفسه. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٤١٧).

(٥) نَبَسَ: نطق. لسان العرب (نبس).

(٦) أَلَمَّ بالقوم: أتاهم فنزل بهم وزارهم زيارة غير طويلة. محيط المحيط (لمم).

الأندلس المجاهرين له بالعداوة، القادحين في فخر سلفه. ثم ألف للسلطان المذكور كتاب «خلع الرسن، في التعريف بأحوال ابن الحسن» لكونه تولّى كبر الحطّ منه، والسعي في هلاكه كما مرّ، وقال في حقّ هذا الكتاب: إنه لا شيء فوقه في الظرف والاستطراف، يُسْلي الثّكالى، ونستغفر اللّه تعالى؛ انتهى.

ومع هذا كلّه لما أنشبت المنيّةُ أظفارها لم تنفعه مِمّا كتب تميمة[1]، ونال ما أمّله[2] فيه أهل السعاية والنميمة، وسجّلوا عليه المقالات الذميمة، وقد صار الجميع إلى حكم عدل قادر يحيي من العظم رميمه[3]، وينصف المظلوم من الظالم، ويجازي الجاهل والعالم، ويساوي بين المأمور والآمر، والشريف والمشروف، والعزيز والحقير، والمنكر والمعروف، وعفوه سبحانه مؤمل بعد، وهو لا يخلف الوعد، ومن سبقت له العناية، لم تضره الجناية. وقد كان لسان الدين بن الخطيب ـ رحمه اللّه تعالى! ـ محبًّا في العفو حتى إنه كان إذا جرى لديه ذكر عقوبة الملوك لأتباعهم تشمئزُّ نفسه من ذلك ويقول ما معناه: ما ضرّهم لو عفوا، ورأيت له ـ رحمه اللّه تعالى! ـ في بعض مؤلّفاته وقد أجرى ذكر استعطاف ذي الوزارتين أبي بكر بن عمار للسلطان المعتمد بن عباد حين قبض عليه بقوله[4]: [الطويل]

سجاياكَ إن عافَيْتَ أنْدَى وأسْمَحُ ... وعُذْرُكَ إن عاقبتَ أولى[5] وأوضحُ

وإن كان بين الخُطَّتَينِ مَزِيَّةٌ ... فأنتَ من الأدنى إلى اللّه أجنحُ[6]

وماذا عسى الأعداءُ أن يتزيدوا ... سوى أنَّ ذنبي ثابتٌ ومصحَّح[7]

---

(١) التميمة: خرزة أو نحوها تعلّق في العنق دفعًا للعين. لسان العرب (تمم). وقد أخذ المعنى من قول أبي ذؤيب الهذلي: [الكامل]

وإذا المنيّة أنْشَبَتْ أظفارها ... ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنفَعُ

ديوان الهذليين (جـ ١ ص ٤) ووفيات الأعيان (جـ ٦ ص ١٥٥).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ١٨١): «أملّ فيه».

(٣) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿وضَرَبَ لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قال مَنْ يُحْيي العِظامَ وهِيَ رَمِيمٌ﴾. سورة يس ٣٦، الآية ٧٨.

(٤) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٤٢٠ . ٤٢١) والحلة السيراء (جـ ٢ ص ١٥٣) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٦١ . ١٦٢).

(٥) في أعمال الأعلام: «أجلى».

(٦) في أعمال الأعلام: «من اللّه تجنحُ».

(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٨١): «أن يتزايدوا. .». وفي أعمال الأعلام: «ثابتٌ مُتَصَحّحُ».

وإنَّ رجائي أنَّ عندك غيرَ ما	يخوضُ عدوّى اليومَ فيه ويمرح
أقِلْني[1] بما بيني وبينك من رضًا	له نحوَ رَوْحِ اللَّه بابٌ مفتَّحُ
ولا تَلْتَفِتْ قولَ الوُشاةِ وزورهم	فكلُّ إناءٍ بالذي فيه يرشحُ[2]
وقالوا: سيجزيه فلانٌ بذنبه	فقلتُ: وقد يعفو فلان ويَصْفَحُ
ألاَ إنَّ بطشًا للمؤيد يرتمي	ولكنَّ حلمًا للمؤيد يرجَحُ
وبين ضُلوعي من هَواهُ تميمةٌ	ستشفعُ لو أنَّ الحِمامَ يجلِّحُ[3]
سلامٌ عليه كيف دار به الهوى	إليَّ فيدنو أو عليَّ فينزح
ويهنيه إن رمتُ السلوَّ فإنني	أموتُ ولي شوقٌ إليه مبرِّح[4]

ما نصه[5]: ولابن عمار[6] كلمات شهيرة تُعَالَجُ بمراهمها[7] جراحُ القلوب، ونُعَفِّي على هضبات الذنوب، لولا ما فرغ عنه من القَدَر المكتوب، والأجل المحسوب، إلى أن قال[8]: وما كان أجملَ المعتمد أن يُبْقي على جانٍ من عبيده، قد مكَّنه اللَّه من عُنُقه، لا يؤمِّل الحصول على أمره[9]، ولا يحذر تعصُّبَ قبيله، ولا يزيده العفوُ عنه إلاَّ ترفُّعًا وعزَّةً[10] وجلالة وهِمّة، وذكرًا جميلاً وأجرًا جزيلاً، فلا شيء أمحى للسيئة من الحسنة، ولا أقتل للشَّرِّ من الخير، ورحم اللَّه الشاعر إذ يقول[11]: [الكامل]

وطَعَنْتُهُمْ بالمَكْرُمات وباللُّهَا[12]	في حيثُ لو طَعَنَ القَنا لَتَكَسَّرا

---

(١) أَقِلْني: أنهضني من عثرتي. لسان العرب (قيل).

(٢) عجز البيت تضمين للمثل: «كلُّ إناءٍ يرشح بما فيه»، ويروى: «كلُّ إناء ينضح بما فيه»، أي يتحلّب؛ يقال: رَشَحَ الإناء إذا تحلّب منه الماء. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ١٦٢).

(٣) في أعمال الأعلام: «مُجَلِّحُ».

(٤) في أعمال الأعلام: «لِيَهْنِئْه إنْ متُّ السلوّ... وبي شوقٌ..».

(٥) أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٦١).

(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٨٢): «ولابن عمر»، وهو خطأ.

(٧) في أعمال الأعلام: «بمرامها».

(٨) أعمال الأعلام (ص ١٦٢).

(٩) في أعمال الأعلام: «على أمده».

(١٠) في أعمال الأعلام: «وعِزًّا».

(١١) هكذا ورد البيت في أعمال الأعلام، دون تغيير عمّا هنا.

(١٢) اللُّها: جمع لُهوة وهي أفضل العطايا. محيط المحيط (لها).

وقد تذكرت هنا قول الأديب أبي عبد اللّه محمد بن أحمد التجاني رحمه اللّه تعالى ورضي عنه: [الطويل]

أتعجبُ أن حَطَّتْ يَدُ الدهر فاضلاً عن الرتبةِ العليا فأصبحَ تَحْتَها
أما هذه الأشجار تحملُ أُكلها وتُسْقِطُ منه كلَّ ما طابَ وانتهى

وحكى غير واحد من مؤرخي الأندلس أنَّ الكاتب الشهير الوزير أبا جعفر بن عطية القُضَاعي لَمَّا تغيّر له عبدُ المؤمن وتذاكر مع بعض من أهل العلم أبيات ابن عمار السابقة، قال: ما كان المعتمد إلاّ قاسي القلب حيث لم تعطفه هذه الأبيات إلى العفو، ووقع لابن عطية المذكور مثل قضية ابن عمار، واستعطف فما نفع ذلك وقُتل رحمه اللّه تعالى، ولنلمّ بذلك فنقول[1]:

كان أبو جعفر هذا من أهل مراكش، وأصله القديم من طُرْطُوشة، ثم بعد من دَانِيَةَ وهو مِمّن كتب عن علي بن يوسف بن تاشفين أمير لَمْتُونة، وعن ابنيه تاشفين وإسحاق[2]، ثم استخلصه لنفسه سالبُ ملكهم[3] عبدُ المؤمن بن علي، وأسند إليه وزارته، فنهض بأعبائها، وتحبب إلى الناس بإجمال السعي والإحسان، فعمت صنائعه[4]، وفشا معروفه، وكان محمودَ السيرة، مبخَّت[5] المحاوَلاَت، ناجح المساعي، سعيد المآخذ، مُيَسَّر المآرب، وكانت وزارته زَيْنًا للوقت، وكمالاً للدولة. وفي أيام توجّهه للأندلس وجد حسّادُه السبيلَ إلى التدبير عليه والسعي به، حتى أوغروا صدر الخليفة عبد المؤمن عليه، فاستوزر عبد السلام[6] بن محمد الكومي، وانبرى لمطالبة ابن عطية، وجَدَّ في التماس عَوْرَاته، وتشنيع سَقَطَاته، وطُرحت بمجلس السلطان أبيات منها[7]: [البسيط]

---

(١) ترجمة أبي جعفر بن عطية ينقلها المقري عن الإحاطة (جـ ١ ص ٢٦٣ ـ ٢٧٠). وانظر أيضًا المعجب (ص ٢٦٧) وإعتاب الكتاب (ص ٢٢٥).
(٢) في الإحاطة: «وعن ابنه تاشفين، وعن أبي إسحاق..».
(٣) أي سالب ملك لمتونة المرابطين.
(٤) الصنائع: جمع صنيعة وهي المعروف. لسان العرب (صنع).
(٥) في الإحاطة (ص ٢٦٤): «مُنْجح المحاولات».
(٦) في الإحاطة (ص ٢٦٥): «فاستوزر عبد المؤمن ابن عبد السلام بن محمد..».
(٧) هكذا وردت الأبيات في الإحاطة (ص ٢٦٦) دون تغيير عمّا هنا.

قُلْ للإمام أطالَ اللَّه مُدَّتَهُ	قولاً تَبِينُ لذي لُبّ حقائقُهُ
إنَّ الزراجينَ قومٌ قد وَتَرْتَهُمْ	وطالبِ الثأر لم تُؤمَنْ بوائقُهُ[1]
ولـلـوزيـر إلـى آرائـهـمْ مَـيـلٌ	لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادِرِ الحزمَ في إطفاء نارهُم	فربما عاقَ عن أمرٍ عوائقه
هُمُ العدوُّ ومَنْ والاهُمُ كَهُمُ	فاحذرْ عدوَّكَ واحذرْ مَنْ يصادقه
اللَّه يَعْلَمُ أني ناصحٌ لكُم	والحقُّ أبلجُ لا تَخْفَى طرائقه

قالوا: ولما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وَغِر صدرُه على وزيره[2] أبي جعفر، وأسرَّ له في نفسه تغيُّرًا، فكان من أقوى أسباب نكبته.

وقيل: أفضى إليه بسرّ فأفشاه، وانتهى ذلك كلّه إلى أبي جعفر وهو بالأندلس، فَقَلِق وعَجَّلَ الانصراف[3] إلى مراكش، فَحُجِبَ عند قدومه، ثم قيد إلى المسجد في اليوم[4] بعده حاسِرَ العمامة، واسْتُحْضِرَ الناسُ على طبقاتهم، وقُرروا على[5] ما يعلمون من أمره، وما صار إليه منهم، فأجاب كلٌّ بما اقتضاه هواه، وأمر[6] بسجنه، ولفَّ معه أخوه أبو عقيل عطية، وتوجّه[7] في إثر ذلك عبدُ المؤمن إلى زيارة تربة المهدي محمد بن تُوْمَرْتَ، فاستصحبهما منكوبين[8] بحال ثِقاف. وصدرت عن أبي جعفر في هذه الحركة، من لطائف الأدب، نظمًا ونثرًا في سبيل التوسّل بتُرْبة إمامهم المهدي[9] عجائبُ لم تُجْدِ شيئًا[10] مع نفوذ قَدَر اللَّه تعالى فيه. ولما انصرف من وُجْهته أعادهما معه، قافلاً إلى مراكش، فلمّا

---

(١) الزراجين: كلمة أطلقها المهدي بن تومرت على المرابطين، ومفردها زرجان، وهو طائر أسود البطن، أبيض الريش، شبّه المهدي المرابطين به؛ لأنهم بيض الثياب سود القلوب. نظم الجمان (ص ٨٥).
البوائق: جمع بائقة وهي الداهية. محيط المحيط (بوق).

(٢) في الإحاطة: «وزيره الفاضل أبي جعفر».

(٣) في الإحاطة: «وعَجَّل بالانصراف».

(٤) في الإحاطة: «في اليوم الثاني بعده».

(٥) كلمة «على» ساقطة من الإحاطة.

(٦) في الإحاطة: «فأمر».

(٧) في الإحاطة: «وتوجّه عبد المؤمن في إثر ذلك زايرًا إلى تربة المهدي. فاستصحبهما..».

(٨) كلمة «منكوبين» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٨٤).

(٩) كلمة «المهدي» ساقطة من الإحاطة.

(١٠) كلمة «شيئًا» ساقطة من الإحاطة (ص ٢٦٧).

حاذى تاقْمَرت، أنفذ الأمر بقتلهما بالشُّعْراء المتّصلة بالحصن على مقربة من الملاحة هنالك، فمضيا لسبيلهما، رحمهما اللّه تعالى!

ومِمّا خاطب به الخليفةَ عبدَ المؤمن مستعطفًا له من رسالةٍ تغالى فيه فغالته المنيّة، ولم ينل الأمنية، وهذه سنّة اللّه تعالى فيمن لم يحترم جناب الألوهية، ولم يحرس لسانَه من الوقوع فيما يخدش في وجه فضل الأنبياء على غيرهم وعصمتهم، قولُه سامحه اللّه: تاللّه لو أحاطت بي كلّ خطيئة، ولم تنفكّ نفسي عن الخيرات بطيئة، حق سخرتُ بمن في الوجود، وأَنِفْتُ لآدم من السجود، وقلت: إنّ اللّه تعالى لم يُوح، في الفُلك لنوح[1]، وبَرَيْتُ لقَدَارِ[2] ثمودِ نَبْلاً، وأَبْرَمْتُ لِحَطَب نار الخليل حَبْلاً، وحَطَطْتُ عن يونس شجرة اليَقْطين، وأوقدتُ مع هامان على الطين، وقبضتُ قَبْضة[3] من أثر الرسول فنبذْتُها، وافتريْتُ على العَذْرَاء البتول[4] فقذفْتُها، وكتبتُ صحيفة[5] القطيعة بدَار النَّدْوة، وظاهرتُ الأحزاب بالقُصوَى من العُدْوَة، وذَمَمْتُ كلَّ قرشي، وأكرمْتُ لأجل وَحْشي[6] كلَّ حبشي، وقلتُ: إنّ بيعة السقيفة، لا توجب إمامة[7] الخليفة، وشحذتُ شَفْرَة غلام[8] المغيرة بن شُعْبَة، واعتلقت[9] من حِصَار الدار وقَتْل أشمطها[10] بشعبة، [وقلت: تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر[11]، وَسَفكُوا الدماء على الثريد الأعفر][12]،وغادرت الوَجْه من الهامة خَضِيبًا، وناولتُ من قَرَعَ سِنَّ الحُسَيْن[13] قضيبًا، ثم أتيت حضرة المعلوم[14] لائذًا،

(١) في الإحاطة: «إلى الفُلك إلى نوح».
(٢) في الإحاطة: «القرار». وقدار ثمود: هو عاقر ناقة صالح.
(٣) في الإحاطة: «قبضة من الطير من أثر..».
(٤) العذراء البتول: هي مريم أمّ عيسى عليهما السلام.
(٥) هي صحيفة القطيعة التي كتبتها قريش وعلّقتها في الكعبة لمقاطعة بني هاشم رهط النبيّ ﷺ.
(٦) وحشي: هو قاتل حمزة عمّ الرسول ﷺ في غزوة أحد. وقد أسلم فيما بعد، وقتل مسيلمة الكذاب.
(٧) في الإحاطة: «لإمام خليفة».
(٨) غلام المغيرة: هو أبو لؤلؤة، قاتلُ عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه.
(٩) في الإحاطة: «واعتقلت».
(١٠) أراد بأشمط الدار عثمانَ بن عفان رضي اللّه عنه.
(١١) يريد ما كان بين علي بن أبي طالب عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان.
(١٢) ما بين قوسين غير وارد في الإحاطة (ص ٢٦٨).
(١٣) في الإحاطة: «سنّ الخمسين». ويريد أنّ الذي قرع سنّ الحسين هو يزيد بن معاوية.
(١٤) في الإحاطة: «المعصوم».

وبقَبْرِ الإمام المهديِّ عائذًا، لقد آن لمقالتي أن تُسْمع، وتُغْفر[1] لي هذه الخطيئات أجمع، [مع أني مقترف، وبالذنب معترف][2]: [الطويل]

فعفوًا أميرَ المؤمنين فَمَنْ لَنَا ... بِرَدٍّ[3] قلوبٍ هَدَّها الخَفقَانُ

وكتب مع ابن له صغير آخرة: [البسيط]

عطفًا علينا أمير المؤمنين، فقد ... بَانَ العَزَاءُ لفَرْط البَثِّ وَٱلْحَزَنِ
قد أَغْرَقَتْنا ذنوبٌ كلُّها لُجَجٌ ... وعطفةٌ منكُم أنجى من السفن
وصادفَتْنا سهامٌ كلُّها غَرَضٌ ... ورحمةٌ[4] منكُم أوقى من الجُنَنِ
هيهات للخَطبِ أن تسطو حوادثه ... بمن أجارَتْهُ رحماكمْ من المِحن
مَنْ جاء عندكُم يَسْعى على ثقةٍ ... بِنَصْره لم يَخَفْ بطشًا من الزمن
فالثوبُ يَطْهُرُ عند الغسل من دَرَنٍ ... والطِّرْفُ ينهضُ بعد الركض منَ وَسَنٍ[5]
أنتمْ بذلتمْ حياة الخَلْقِ كلِّهمُ ... من دون مَنّ عليهمْ لا ولا ثمن
ونحن من بعضِ من أَحْيَتْ مكارمُكُم ... كلتا الحياتَينِ من نَفْسٍ ومن بَدَن
وصِبْيَةٍ كفراخ الوُرْقِ من صِغَرٍ ... لم يألفوا النَّوْحَ في فَرْعٍ ولاَ فَنَنِ
قد أَوْجَدَتْهُمْ أيادٍ منكَ سابقةٌ[6] ... والكلُّ لولاك لم يُوجدْ ولم يكن

فوقّع عبد المؤمن على هذه القصيدة ﴿الآنَ وقد عَصَيْتَ قَبْلُ وكنتَ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾[7].

ومِمَّا كتب به من السجن: [الطويل]

أنوحُ على نفسي أَمَ ٱنْتَظِرُ الصفحا؟ ... فقد آن أن تُنسى الذنوب وأن تُمْحَى
فها أنا في ليلٍ من السخط حائرٌ ... ولا أهتدي حتى أرى للرضا صبحا

---

(١) في الإحاطة: «وأن تغفر».
(٢) ما بين قوسين غير وارد في الإحاطة.
(٣) في الإحاطة: «بِحَمْلِ».
(٤) في الإحاطة: «لها ورحمتكم أوقى..».
(٥) في أصول النفح: «في سنن»، وأثبتنا ما في الإحاطة. والطِّرْف: الجواد. لسان العرب (طرف).
(٦) في الإحاطة: «سابغة».
(٧) سورة يونس ١٠، الآية ٩١.

وامتحن عبد المؤمن الشعراء بهَجْو ابن عطية، فلمّا أسمعوه ما قالوا، أعرض عنهم، وقال: ذهب ابن عطية، وذهب الأدب معه.

وكان لأبي جعفر أخ اسمه عطية قُتل معه، ولعطية هذا ابنٌ أديب كاتب، وهو أبو طالب عقيل بن عطية، ومن نظمه في رجل تعشّق قَيْنة كانت ورثت من مولاها مالاً فكانت تنفق عليه منه، فلمّا فرغ المالُ ملَّها: [السريع]

لا تَلْحَهُ أن مَلَّ من حُبّها ... فلم يكن ذلك من وُدِّ

لمّا رآها قد صَفَا مالها ... قال: صفا الوَجْد[1] مع الوُجْدِ

وكان أبو جعفر بن عطية من أبلغ أهل زمانه، وقد حكي أنه مَرَّ مع الخليفة عبد المؤمن ببعض طرق مراكش، فأطلت من شباكٍ جاريةٌ بارعة الجمال، فقال عبد المؤمن: [البسيط]

قدّتْ فؤادي من الشّباك إذ نَظَرَتْ

فقال الوزير ابن عطية مجيزًا له:

حَوْرَاءُ تَرْنُو إلى العُشّاق بالمُقَلِ

فقال عبد المؤمن:

كأنما لَحْظُها في قلب عاشقها

فقال ابن عطية:

سيفُ المؤيّدِ عبدِ المؤمنِ بن علي

ولا خفاء أنَّ هذه طبقة عالية.

ومن فصول رسالته التي كتب بها عن أبي حَفص، وهي التي أورثته الرتبة العليّة السنيّة، والوزارة الموحّديّة المؤمنية، قوله[2]: «كتابُنَا[3] هذا من وادي ماسة بعد ما تجدّد[4]

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٨٦): «الوجه».
(٢) الرسالة أيضًا في إعتاب الكتاب (ص ٢٢٧).
(٣) في الإحاطة (ص ٢٦٩): «كتبنا».
(٤) في الإحاطة: «بعد ما تزحزح أمر..».

من أمر اللّه الكريم، ونصر اللّه تعالى المعهود المعلوم ﴿وما النَّصْرُ إلاّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ العزيزِ الحَكِيم﴾[1] فتحٌ بَهَرَ الأنوار إشراقًا[2]، وأحْدَقَ بنفوس المؤمنين إحداقًا، ونَبَّه للأماني النائمة جُفُونًا وأحداقًا، واستغرق غاية الشكر استغراقًا، فلا تطيق الألسن لِكُنْهِ[3] وَصْفِهِ إدراكًا ولا لحاقًا، جمع أشتات الطلب[4] والأرَب، وتقلّب في النعم أكرم مُنقَلب، وملأ دِلاء الأمل إلى عَقْد الكَرَب[5]: [البسيط]

فَتْحٌ تُفَتَّحُ أبوابُ السماء له وتَبْرُزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ

وتقدّمت بشارتنا به جملة، حين لم تعط الحال بشرحه مُهْلةً، كان أولئك الضالون المرتدُّون[6] قد بَطِروا عدوانًا وظلمًا، واقتطعوا الكُفر مَعْنًى وَاسْمًا، وأملى لهم اللّه تعالى ليزدادوا إثمًا، وكان مُقَدَّمهم الشقي قد استمال النفوس بِخُزَعْبلاته، واستهوى القلوب بِمَهُولاته، ونصب له الشيطان من حِبَالاته، فأتَتْه المخاطبات من بُعْد وكَثَب، ونَسَلَتْ إليه الرسلُ من كلّ حَدَب، واعتقدته الخواطر أَعْجَبَ عَجَب، وكان الذي قادهم إلى ذلك، وأَوْرَدَهُم تلك المهالك، وُصُولُ من كان[7] بتلك السواحل، مِمَّن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام، واشتغَل على زَغْمِهِ[8] بالقيام والصيام، آناء الليالي والأيام، لبسوا الناموس أثوابًا، وتَدَرَّعوا الرياء جِلْبابًا، فلم يفتح اللّه تعالى لهم بالتوفيق بابا».

ومنها من ذكر صاحبهم الماسي[9] المدّعي للهداية: «فَصُرِعَ بحمد[10] اللّه تعالى لحينه، وبادرتْ إليه بوادرُ مَنونه، وأتته وَافداتُ الخطيئات عن يَسَاره ويمينه، وقد[11] كان

---

(١) سورة آل عمران ٣، الآية ١٢٦.
(٢) في الإحاطة: «فَتْحٌ بمسرى الأنوار إشراقًا».
(٣) في الإحاطة: «كُنْه».
(٤) في الإحاطة: «الطّبّ».
(٥) البيت لأبي تمام وهو في ديوانه (ص ١٤).
(٦) كلمة «المرتدّون» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٨٧).
(٧) كلمة «كان» غير واردة في الإحاطة.
(٨) في الإحاطة: «على رغمه بالصيام والقيام».
(٩) هو الثائر محمد بن عبد اللّه بن هود، الملقّب بالهادي، وقد ظهر في رباط ماسة بمنطقة السوس، وكثر أتباعه، ثم قضى عليه أبو حفص عمر إينتي عام ٥٤١ هـ. وجاء في الإحاطة: «ومنها في ذكر صاحبهم» أي لم يرد «الماسي المدعي للهداية».
(١٠) في الإحاطة: «فصرع والحمد للّه..».
(١١) في الإحاطة: «وكان يدعي أن المنيّة..».

يدّعي أنه بُشِّرَ بأنَّ المنيّة في هذه الأعوام لا تصيبه، والنوائب لا تَنُوبه، ويقول في سواه [١] قولاً كثيرًا، ويختلق على اللّه تعالى إفْكًا وزورًا، فلمّا رأوا[٢] هيئة اضطجاعه، وما خطته الأَسِنَّة في أعضائه وأضلاعه[٣]، ونفذ فيه من أمر اللّه تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه، هُزِم من كان لهم من الأحزاب، وتساقطوا على وجوههم تساقُطَ الذباب، وأعطوا عن بَكْرة أبيهم صَفَحَاتِ[٤] الرقاب، ولم تقطر كلومهم إلاَّ على الأعقاب[٥]، فامتلأت تلك الجهات بأجسادهم، وآذنت[٦] الآجال بانقراض آمادهم[٧]، وأخذهم اللّه تعالى بكفرهم وفسادهم، فلم يُعايَن منهم إلاَّ مَنْ خَرَّ صريعًا، وسقى الأرض نَجيعا[٨]، ولقي من أمر الهنديات[٩] فظيعًا، ودعت الضرورة باقيهم إلي الترامي في الوادي، ممن كان يؤمل الفرار ويرتجيه، ويسبح طامعًا في الخروج إلى ما يُنْجِيه، اختطفته الأسِنَّة اختطافًا، وأذاقته موتًا ذُعَافا[١٠]، ومَنْ لَجَّ في الترامي على لُجَجه، ورام البقاء في ثَبَجه[١١]، قضى عليه شَرَقُه، وألوى بذقنه[١٢] غَرَقُه. ودخل الموحِّدون إلى البقية[١٣] الكائنة فيه يتناولون قتالهم طعنًا وضربًا[١٤]، ويلقونهم بأمر اللّه تعالى هَولاً[١٥] عظيمًا وكَرْبًا، حتى انبسطت مراقات[١٦]

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٨٧): «سواء».
(٢) في الإحاطة (ص ٢٧٠): «فلمّا عاينوا. . ورأوا ما خطَّتْهُ. .».
(٣) كلمة «وأضلاعه» غير واردة في الإحاطة.
(٤) في الإحاطة: «صفحة».
(٥) كناية عن جبنهم وفرارهم، وقد أخذ هذا من قول الشاعر: [الطويل]
فلسْنا على الأعقاب تَدْمَى كُلُومُنا ... ولكنْ على أعناقنا يَقْطُرُ الدِّما
لسان العرب (دمي).
(٦) في الإحاطة: «وأَذِنَتْ».
(٧) في الإحاطة: «آمالهم».
(٨) النجيع: الدم. لسان العرب (نجع).
(٩) في الإحاطة: «ولقي من وقع الهنديّات أمرًا فظيعًا». والهنديّات: السيوف المنسوبة إلى الهند. لسان العرب (هند).
(١٠) يقال: السمُّ الذعاف، أي القاتل لحينه، لسان العرب (ذعف).
(١١) في الإحاطة: «في ثبُجه». والثَّبج: معظم موج البحر. لسان العرب (ثبج).
(١٢) في الإحاطة: «وألوى فرقته».
(١٣) في الإحاطة: «الباقية».
(١٤) في الإحاطة: «وحربًا».
(١٥) في الإحاطة: «هَوْنًا».
(١٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٨٨): «مراقأة الداء». وفي الإحاطة: «حتى سطت مراقات. .».

الداء، على صفحات الماء، وحكت حمرتها على زرقته حمرة الشَّفَق على زرقة[1] السماء، وجرت[2] العبرة للمعتبر، في جري ذلك الدم جَزْيَ الأبحر».

وبالجملة، فالرجل كان نسيجَ وَحْدِهِ رحمه اللّه تعالى وسامحه، وقصة[3] لسان الدين تشبه قصته، وكلاهما قد ذاق من الذلّ بعد العزّ غُصَّته، وبَدّل الدهْرُ نصيبَه من الوزارة وحِصَّتَه، بعد أن اقتعد ذِرْوَةَ الأمر ومِنَصَّته، رحم اللّه تعالى الجميع، إنه مجيب سميع!.

---

(١) في الإحاطة: «على زرقه.. على زرق السماء».
(٢) في الإحاطة: «وظهرت العبرة.. جري الدماء..».
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٨٨): «وقضية.. تشبه قضيّته».

الباب الثالث

في ذكر مشايخ لسان الدين الجلة

هداة الناس ونجوم الملة

في ذكر مشايخه الجِلَّةِ، هُدَاة الناس ونجوم المِلّة، وما يتعلّق بذلك من الأخبار الشافية من العِلّة، والمواعظ المنجية من الأهواء المُضِلّة، والمناسبات الواضحة البراهين والأدلّة.

أقول: لا خفاء أنَّ الشيخ لسان الدين، رحمه اللّه تعالى، أخذ عن جماعة من أهل العُدْوة والأندلس عدة فنون، وحدّث عنهم بما يصدق الأقوال ويحقّق الظنون.

فمن أشياخه، رحمه اللّه تعالى، الفقيهُ الجليل الشريف النبيه الشهير، رئيس العلوم اللسانية بالأندلس، قاضي الجماعة أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسني السَّبْتي[1]، رحمه اللّه تعالى! كان هذا الشريف آية اللّه الباهرة في العربية والبيان والأدب، ويكفيه فضلاً أنه شرح الخزرجية[2]، وافترع هضاب[3] مشكلاتها بفهمه، من غير أن يسبقه أحد إلى استخراج كنوزها، وإيضاح رموزها، وشرح مقصورة أديب المغرب الإمام أبي الحسن حازم بن محمد القرطاجَنّي الأندلسي التي مَدَحَ بها أميرَ المؤمنين المستنصرَ باللّه أبا عبد اللّه محمدًا الحَفْصي، وسمّى هذا الشرح بـ «رفع[4] الحجب المستورَة، عن محاسن

---

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ حسنيّ النسبة سبتيّ النشأة، قُلّد الكتابة والقضاء والخطابة بالحاضرة غرناطة عام ٧٣٧ هـ. توفي بغرناطة سنة ٧٦٠ هـ. ترجمته في الإحاطة (ج ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٧) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧١ ـ ١٧٧).

(٢) الخزرجية: هي قصيدة للخزرجي في العَرُوض.

(٣) افترع هضاب مشكلاتها: حلّ مشكلاتها.

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٩١): «بفتح الحجب..».

المقصورَة» وهذا الشرح في مجلّدين كبيرين، وفيه من الفوائد ما لا مزيد عليه، رأيته بالمغرب، واستفدت منه كثيرًا.

ومن فوائد الشريف المذكور أنه قال فيما جاء من الحديث في صفة وُضُوء رسول اللّه، ﷺ «فأقبل بهما وأدبر»: إنَّ أحسن الوجوه في تأويله أن يكون قدَّم الإقبال تفاؤلاً، ثم فسرّ بعد ذلك على معنى أدبر وأقبل، قال: والعرب تقدّم في كلامها ألفاظًا على ألفاظٍ أخرى، وتلتزمه في بعض المواضع، كقولهم: قام وقعد، ولا تقول: قعد وقام، وكذلك أكل وشرب، ودخل وخرج، وعلى هذا النمط كلام العرب، فتكون هذه المسألة من هذا، قال: ويؤيد ما قلناه. وهو موضع النكتة. تفسيره لأقبل وأدبر في باقي الحديث على معنى أدبر ثم أقبل، ولو كان اللفظ على ظاهره لم يحتج إلى تفسير؛ انتهى.

وحدّث، رحمه اللّه تعالى، عن جَدِّه لأُمِّه قال: كنت بالمشرق، فدخلت على بعض القرائين، فألفيت الطلبة يعربون عليه قولَ امرىء القيس: [الطويل]

كأنَّ أبَانًا في أفانِينِ وَدْقِهِ كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ[1]

فأنشد ولا أدري هل هي له أو لغيره: [الطويل]

إذا ما الليالي جاوَرَتْكَ بساقط وقَدْرُكَ مرفوعٌ فعنهُ ترحَّلِ
ألم تَرَ ما لا قاه في جَنْبِ جارِهِ (كبيرُ أُناسٍ في بجادٍ مُزَمَّلِ)[2]

وكان بعض الناس ينشد في هذا المقصد قول الآخر: [الطويل]

عليكَ بأربابِ الصدورِ، فمن غدا مضافًا لأربابِ الصدورِ تَصَدَّرا
وإياكَ أن ترضى بصحبةِ ساقطٍ فتنحطَّ قَدْرًا من عُلاكَ وتحقرا
فَرَفْعُ أبو من ثم خفضُ مزمَّلٍ يبيِّن قولي مُغْريًا ومحذِّرا

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس (ص ٢٥). وهنا يشبّه الجبل «أبانًا»، وقد غَشِيَهُ المطر وعمّه الخِصْب، بشيخ ضعيف في بجاد، والبجاد هو كساء مخطّط، وخصَّ الشيخ لأنه متدثّر أبدًا متزمّل في ثيابه. وقد خفض «مزمّل» على الجوار، وحقّه أن يكون نعتًا لـ «كبير». والوَدْقُ: المطر. لسان العرب (ودق).

(٢) مزمّلٌ بثوبه: ملفّف به. ويجب أن يكون محل «مزمّل» الرفع؛ لأنه صفة لـ «كبير» كما أسلفنا، لكنه جاء مجرورًا لمجاورته المجرور، وهذا ما يشير إليه الشاعر.

وهذا معنى قول الشاعر: [الطويل]

إذا كنتَ في قومٍ فصاحِبْ خيارهمْ ولا تصحبِ الأردى فتردى مع الردي

وما أحسن قول أبي بحر صفوان بن إدريس المرسي رحمه اللّه تعالى: [مخلع البسيط]

إنّا إلى اللّه من أُناس قد خَلَعوا لبسة الوقارِ

جاورتهم فانخفضت هُونًا يا رُبَّ خَفْضٍ على الجوار

ومن نظم الشريف رحمه اللّه تعالى: [الوافر]

وأَحْوَرَ زانَ خَدَّيهِ عِذارٌ سبى الألبابَ منظرُهُ العُجابُ

أقولُ لهمْ وقد عابوا غرامي به إذ لاحَ للدمعِ انسكابُ

أَبَعْدَ كتابِ عارضِهِ يُرجَّى خلاصٌ لي وقد سبقَ الكتابُ

ومن الغريب في توارد الخواطر ما وجد بخطّ الأديب البارع المحدّث الكاتب أبي عبد اللّه محمد بن الشيخ الكبير أبي القاسم بن جُزَي الكلبي، رحمهما اللّه تعالى. وسيأتيان. ما معناه: قلت هذه القطعة: [الوافر]

ومعسولِ اللَّمى عادتْ عَذَابًا على قلبي ثناياهُ العِذَابُ

وقد كتبَ العذارُ بِوَجْنَتَيهِ كتابًا خَطُّ قارئه اكتئابُ

وقالوا لو سلوتَ فقلت خيرًا وأنّى لي وقد سبق الكتاب

ثم عرضتها على شيخنا القاضي أبي القاسم الشريف بعد نظمها بمدة يسيرة فقال لي: قد نظمتُ هذا[١] المعنى بالعروض والقافية في هذه الأيام اليسيرة، وأنشدني:

* وأحْورَ زانَ خديه عِذارٌ *

الأبيات السابقة.

وهذا يقع كثيرًا، ومنه ما وقع لابن الرقام حيث قال: من شعر عمي قوله:

جُلْ في البلاد تَنَلْ عِزًّا وتكرمةً في أي أرض فكنْ تبلُغْ مُنَاك بها

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٩٣): «هذه».

جلُّ الفوائدِ بالأسفارِ مُكْتَسَبٌ والله قد قال ﴿فَٱمْشُوا في مَناكِبِها﴾[1]

فقال له الفقيه ابن حذلم: مثل هذا وقع لأبي حيان إذ قال: [البسيط]

يا نَفْسُ ما لكِ تهوِيْنَ الإقامةَ في أرضٍ تعذَّرُ كُلُّ مَنْ مَناكِ بها
أَمَا تلوتِ وعَجْزُ المرءِ منقصةٌ في محكم الوحي ﴿فامشوا في مناكبها﴾[1]

فحصل العجب من هذا الاتفاق الغريب.

ونقلتُ مِمَّنْ نقل من خطّ الفقيه محمد بن علي بن الصباغ العقيلي ما صورته: كان الشريف الغرناطي - رحمه الله تعالى! - آية زمانه، وأزِمَّةُ البيان طوع بنانه، له شرح المقصورة القرطاجنية أغرب ما تتحلّى به الآذان، وأبدع ما ينشرح له الجَنان[2]، إلى العقل الذي لا يُدْرك، والفضل الذي حُمد منه المسلك. حدّثني بنادرة جَرَتْ بينه وبين مولاي الوالد مَنْ أثق به من طلبة الأندلس وأعلامها، قال دخل والدك يومًا لأداء الشهادة عنده، فوجد بين يديه جماعة من الغُزَاة يؤدّون شهادة، فسمع القاضي منهم، وقال لهم: هل ثَمَّ من يعرفكم؟ فقالوا: نعم، يعرفنا علي الصباغ، فقال القاضي: أتعرفهم يا أبا الحسن؟ فقال له: نعم يا سيدي، معرفة محمد بن[3] يزيد، فما أنكر عليه شيئًا بل قال لهم: عرف الفقيه أبو الحسن ما عنده، فانظروا مَنْ يعرف معه رسم حالكم، فانصرفوا راضين، ولم يرتهن والدي في شيء من حالهم، ولا كشف القاضي لهم ستر القضية.

قال محمد بن علي بن الصباغ: أمّا قول والدي «معرفة محمد بن يزيد» فإشارة إلى قول الشاعر[4]: [الوافر]

أُسائلُ عن ثُمالةَ كلّ حيّ فكلُّهُمُ يقولُ وما ثُمالَهْ
فقلت محمد بن يزيد منهم فقالوا الآن زدت بهم جهالَهْ

---

(١) سورة الملك ٦٧، الآية ١٥.

(٢) الجَنان، بالفتح: القلب. محيط المحيط (جنن).

(٣) محمد بن يزيد: هو أبو العباس المبرد، صاحب كتاب الكامل في اللغة والأدب.

(٤) البيتان للمبرد، وقيل لعبد الصمد بن المعذل، وهما في وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٣١٦، ٣٢٠) وفي نور المقتبس المختصر من المقتبس (ص ٣٣١) وثمالة: هو عوف بن أسلم، وهو بطن من الأزد. وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٣٢٠).

فتفطّن القاضي، رحمه اللّه تعالى، لجودة ذكائه إلى أنه لم يرتهن في شيء من معرفتهم، ممتنعًا من إظهار ذلك بلفظه الصريح، فكنى واكتفى بذكاء القاضي الصحيح، رحمهما اللّه تعالى! انتهى.

ومن فوائد الشريف ما حكاه عنه تلميذه الإمام النُّظّار أبو إسحاق الشاطبي رحمه اللّه تعالى! ونصُّه: قال لي الشيخ القاضي الكبير الشهير أبو القاسم الحسني يومًا وقد جرى ذكر «حتى» التي للابتداء، وأنّ معناها التي يقع بعدها الكلام سواء كان متعلّقًا بما قبلها لم يتمّ دونه أو لا، بل لا يكون الأمر إلاّ كذلك، قال: وقد حدّثني بعض الأصحاب أنه سمع رجلاً يصلي أشفَاع رمضان، فقرأ من سورة الكهف إلى قوله تعالى ﴿ثم أَتْبَعَ سببًا ﴾[1] فوقف هنالك، وركع وسجد، قال: فظننتُ أنه نسي ما بعد، ثمّ ركع وسجد حتى يتذكّر بعد ذلك ويعيد أول الكلام، فلمّا قام من السجود ابتدأ القراءة بقوله ﴿حتى إذا بَلَغَ ﴾[2] فلما أتمّ الصلاة قلت له في ذلك، فقال: أليست حتى الابتدائية؟ قال القاضي الشريف المذكور: فيجب أن يفهم أنّ الاصطلاح في «حتى» وفي غيرها من حروف الابتداءِ ما ذكر؛ انتهى.

وقال الشاطبي: أنشدني أبو محمد بن حذلم لنفسه: [البسيط]

شأنُ المحبين في أشجانهمْ عَجَبٌ ... وحالتي بينهم في الحبِّ أعجبُها
قد كنتُ أبعثُ من ريح الصَّبا رُسُلاً ... تأتي فتطفىءُ أشواقي فتذهبها
والآنَ أُرسلُ دمعي إثرها دِيَمًا ... فتلتظي نارُ وجدي حين أسكبُها
فأعجبْ لنارِ اشتياقٍ في الحشا وقفتْ ... ألريح تذهبها[3] والماءُ يلهبها

ثم قال الشاطبي ما نصُّه: أخذ هذا المعنى فتمّمه، من قطعة أنشدناها شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف، رحمه اللّه تعالى، عليه! أذكر الآن آخر بيت منها وهو: [البسيط]

يا مَنْ رأى النارَ إن تُطفأ مخالفةً ... فبالرياحِ، وإن توقد فبالماءِ

وأخذ عن الشريف المذكور، رحمه اللّه تعالى، جماعة غير لسان الدين، من أشهرهم

---

(١) سورة الكهف ١٨، الآية ٩٢.
(٢) سورة الكهف ١٨، الآية ٩٠.
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ١٩٥): «يذهبها».

العلاّمة النظّار أبو إسحاق الشاطبي، والوزير الكاتب أبو عبد اللّه بن زمرك. قال حفيد السلطان الغني باللّه بن الأحمر، رحمه اللّه تعالى، في حقّ ابن زمرك: إنه كان يتردّد الأعوام العديدة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف، فأحسن الإصغاء، وبَذَّ الأئمّة البلغاء، بما أوجب أن رثاه عند الوقوف على قبره بالقصيدة الفريدة التي أولها: [الكامل]

أغرى سَرَاةَ الحيّ بالإطراقِ

وقال في موضع آخر: ومِمّا بَذَّ به - يعني ابن زمرك - سبقًا وتبريزًا، وعرضه على نَقَدة البيان، فرأت[1] منه كلّ مذهبة خلصت إبريزًا، مرثيته للقاضي المعظم الشريف أبي القاسم الحسني من شيوخه، وهي[2]:

أغرى سَراةَ[3] الحيّ بالإطراقِ	نَبَأٌ أصمَّ مسامعَ الآفاقِ
أمسى به ليلُ الحوادث داجيًا	والصبحُ أصبحَ كاسفَ الإشراقِ
فُجِعَ الجميعُ بواحدٍ جُمِعَتْ له	شتّى العلا ومكارمِ الأخلاق
هبّوا لحكمكُمُ الرصينِ فإنه	صرفُ القضاء فما له من واق
نَقَشَ[4] الزمانُ بصرفه في صفحةٍ	كلُّ اجتماعٍ مؤذنٌ بفراق
ماذا ترجّي من زمانك بعدما	عَلِقَ الفناءُ بأنفسِ الأعلاق
من تحسدُ السبعُ الطباقُ علاءَهُ	عالَوْا عليه من الثرى بطباق
إنَّ المنايا للبرايا غايةٌ	سَبَقَ الكرامُ لِخَصْلها بسباق[5]
لمّا حسبنا أنْ تُحَوَّلَ أبؤسًا	كشفتْ عَوَانُ[6] حروبها عن ساق
ما كان إلاّ البدرَ طالَ سِرارُهُ	حتى رَمَتْهُ يَدُ الردى بمحاق
أَنِفَ المقامَ مَعَ الفناء نَزاهَةً	فنوى الرحيلَ إلى مقامٍ باق
عدمَ الموافقَ في مرافقه الدنا	فنضى[7] الركابَ إلى الرفيق الباقي

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «فرأيتُ».
(٢) هذه المرثية في أزهار الرياض (جـ ٢ ص ١٦٠ وما بعدها).
(٣) السَّراة، بالفتح: السادة. لسان العرب (سرا).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٩٦): «نفس».
(٥) خَصْلُ السباق: الخَطَرُ الذي يُخاطر عليه. محيط المحيط (خصل).
(٦) الحرب العَوان: الشديدة التي قُوتل فيها مرّة بعد أخرى. محيط المحيط (عون).
(٧) في أزهار الرياض: «فثنى».

أَسَفًا على ذاك الجَلالِ تَقَلَّصَتْ أفـيـاؤه وعُـهِـدْنَ خـيـرَ رواق
يا آمري بالصبر، عِيلَ تصبّري دعـنـي عَـذَتْـكَ لـواعـجُ الأشـواق
وذَرِ اليراعَ تشي بدمعٍ مدادها وَشْيَ القريضِ يروقُ في الأوراق
واحَسْرتا للعلم أقفر رَبْعُهُ والـعـدلُ جُـرِّدَ أجـمـلَ الأطـواق
ركدت رياحُ المعلوات لفقدها كَـسَـدَتْ بـه الآدابُ بـعـد نَـفـاق
كم من غوامضَ قد صَدَعْتَ بفهمها خَفِيَتْ مداركُها على الحذّاق
كم قاعدٍ في البِيدِ بَعْدَ[1] قعوده قَـعَـدَتْ بـه الآمـالُ دون لـحـاق
لِمَن الركائبُ بعد بُعْدك تُنْتَضى مـا بـيـن شـامٍ تـرتـمـي وعـراق
تَفْلي[2] الفَلاَ بمناسمٍ مَفْلُولَةٍ تَسِمُ الحصى بنجيعها الرقراق
كانت إذا اشتكتِ الوجى وتوقَّفَتْ يـهـفـو نـسـيـمُ ثـنـائـك الـخـفّـاقِ
فـإذا تَـنَـسَّـمَـتِ الـثـنـاء أمـامـهـا مَدَّتْ لها الأعناقَ في الإعناق
يا مُزجِيَ البُدْنِ القلاصِ خوافقًا[3] رفقًا بها فالسعي في إخفاق
مات الذي ورث العلا عن معشر ورثوا تراثَ المجد باستحقاق
رُفِعَتْ لهمْ راياتُ كلِّ جلالةٍ فـتـمـيّـزوا فـي حَـلـبـةِ الـسُّـبَّـاقِ
عَلَمُ الهداة وقطبُ أعلامِ النُّهى[4] حَرَمُ الـعُـفَـاةِ الـمـجـتـنـى الأرزاق
رَقَّتْ سجاياهُ وراقَتْ مجتلَى كالشمسِ في بُعْدٍ وفي إشراق
كالزَّهْرِ في لألائِهِ، والبَدْرِ في عـلـيـائِـهِ، والـزَّهْـرِ فـي الإيـراق
مهما مَدَحْتُ سواه قَيَّدَ وَصْفَهُ وصـفـاتِـهِ حَـمْـدٌ عـلـى الإطـلاق
يـا وارثًـا نـسـبَ الـنـبـوَّةِ جـامـعًـا فـي الـعـلـم والأخـلاقِ والأعـراق
يا ابنَ الرسولِ وإنها لوسيلةٌ يَرْقَى بها أوْجَ المصاعدِ راقي
وردَ الكتابُ بفضلكم وكمالكمْ فـكـفـى[5] ثـنـاء الـواحـدِ الـخـلاّق

---

(١) في أزهار الرياض: «فوق».
(٢) تفلي الفلا: تقطعها، والفلا: جمع فلاة وهي الصحراء. لسان العرب (فلا).
(٣) المزجي: السائق. البُدْن: جمع بَدَنَة، والبَدَنَة من الإبل والبقر كالأُضحية من الغنم تُهْدى إلى مكة فتُنحر بها. القِلاص: جمع قلوص وهي الناقة الفتيّة. محيط المحيط (زجى) و (بدن) و (قلص).
(٤) في أزهار الرياض: «الورى».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ١٩٧): «وكفى».

مولايَ إني في عُلاكَ مقصِّرٌ قد ضاقَ عن حصرِ النجومِ نطاقي
ومن الذي يُحْصي مناقبَ مجدكمْ[1] عَدُّ الحصى والرملِ غيرُ مطاق
يهني قبورًا زرتها فلقد ثَوَتْ منّا مصونَ جوانحٍ وحداقِ
خَطَّ الردى منها سطورًا نَصُّها: لا بُدَّ أنك للفناء مُلاَقِ
ولحقتَ ترجمةَ الكتابِ وصَدْرَهُ وفوائدُ المكتوب في الإلحاق
كم مِنْ سَراةٍ في القبور كأنهمْ في بطنها درٌّ ثوى بحقاق
قُلْ للسحاب اسحبْ ذيولَكَ نحوه والْعَبْ بصارمِ بَرْقِكَ الخفّاق
أودى الذي غَيْثُ العبادِ بكفِّه يُزْري بواكف غيثكَ الغَيْدَاقِ[2]
إن كان صَوْبُكَ بالمياه فَدَرُّها درٌّ يُروِّضُ ماحلَ الإملاق
بَشَرٌ كثيرٌ قد نُعوا لمّا نُعي قاضي القضاة وغاب في الأطباق
أَلْبَسْتَهُمْ ثوبَ الكرامةِ ضافيًا وأَرَحْتَ مِنْ كدٍّ ومِنْ إرهاق
يَتَفَيَّؤنَ ظلالَ جاهكَ كلّما لَفَحَتْ سَمُومُ[3] الخطب بالإحراق
عدموا المرافقَ في فراقكَ وانطوى عنهمْ بساطُ الرفق والإرفاق
رفعوا سريركَ خافضينَ رؤوسهم ما منهمُ إلاَّ حليفُ سِياق[4]
لكنْ مصيرُكَ للنعيم مخلّدًا كان الذي أبقى على الأرماق[5]
ومن العجائبِ أن يُرَى بحرُ الندى طودُ الهدى يَسْرِي على الأعناق
إن يحملوكَ على الكواهلِ طالما قد كنتَ محمولاً على الأحداق
أو يرفعوكَ على العَواتِقِ طالما رُفِّعتَ ظَهْرَ منابرٍ وعِتاقِ
ولئن رَحَلْتَ إلى الجنان فإننا نَصْلَى بنارِ الوَجْدِ والأشواق
لو كنتَ تَشْهَدُ حزنَ مَنْ خَلَّفْتَهُ لَثَنَى عنانكَ كثرةُ الإشفاق
إن جَنَّ ليلٌ جُنَّ من فَرْطِ الأسى وسوى كلامكَ ما له من راقِ
فابعثْ خيالكَ في الكرى يُبْعَثْ به ميتُ السرور لشاكلٍ مُشْتاق

---

(١) في أزهار الرياض: «فضلكم».
(٢) الغَيْداق: الكريم. محيط المحيط (غيدق).
(٣) السَّمُوم، بفتح السين وضمّ الميم: الريح الحارّة. محيط المحيط (سمم).
(٤) السِّياق: نزع الروح. محيط المحيط (سوق).
(٥) الأرماق: جمع رمق وهو بقية الروح في البدن. لسان العرب (رمق).

أَغْلَيْتَ يا رزءُ التصبُّرَ مثلما ... أرخصتَ درَّ الدمع في الآماق
إن يخلفِ الأرضَ الغمامُ فإنني ... أسقي الضريحَ بدمعيَ المُهْرَاقِ

وكانت وفاة الشريف المذكور سنة إحدى وستين وسبعمائة.

قال ابن الخطيب القسمطيني[1] في وَفَياته: وفي هذه السنة. يعني سنة ٧٦١. توفي شيخنا قاضي الجماعة بغَرْنَاطة، حرسها اللّه تعالى، أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسني، وكتب له بالإجازة العامة بعد التمتّع بمجلسه، وله شعر مدوّن سَمَّاه «جهد المقلّ»[2] وله الشرح على الخزرجية في العروض، وأقدم عليها بعد أن عجز الناسُ عن فكِّها، وكان إمامًا في الحديث والفقه والنحو، وهو على الجملة مِمَّنْ يحصل الفخر بلقائه، ولم يكن أحد بعده مِثْلُه بالأندلس؛ انتهى.

وقال في «الإحاطة»[3] إنَّ مولد الشريف كان سنة سبع وتسعين وستمائة، وإنّ وفاته سنة ستين وسبعمائة. وفي وفاته مخالفة لِمَا تقدّم، واللّه أعلم.

وما أحسن قول الشريف أبي القاسم المترجم به: [الوافر]

حدائقُ أنبتتْ فيها الغوادي[4] ... ضروبَ النَّوْر رائقةَ البهاءِ
فما يبدو بها النُّعمانُ إلاّ ... نَسَبْناه إلى ماءِ السماء[5]

وكان للشريف أبي القاسم المذكور ابنان نجيبان: أحدهما قاضي الجماعة أبو المعالي، والآخر أبو العباس أحمد[6]، قال الراعي في كتابه «الفتح المنير، في بعض ما يحتاج إليه الفقير» ما نصُّه: حكاية تتعلّق بالانقطاع، نسأل اللّه تعالى العافية: وقع للسيد الشريف قاضي الجماعة بغَرْنَاطة أبي المعالي ابن السيد الشريف أبي القاسم الحسني شارح

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن حسن الشهير بابن الخطيب، ويعرف أيضًا بابن قنفذ. توفي سنة ٨١٠ هـ. نيل الابتهاج (ص ٥٧).

(٢) قال لسان الدين عند الحديث عن شعر الشريف السبتي: «وأنا أثبت منه جزءًا خصّني به، سمّاه جهد المقل». الإحاطة (جـ ٢ ص ١٨٦).

(٣) الإحاطة (جـ ٢ ص ١٨٦ ـ ١٨٧). وهكذا في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٧).

(٤) الغوادي: جمع غادية وهي السحابة التي تمطر وقت الغداة. لسان العرب (غدا).

(٥) النعمان: شقائق النعمان. ماء السماء: المطر. وفي البيت تورية.

(٦) ترجمة أبي العباس أحمد بن الشريف السبتي في نيل الابتهاج (ص ٥٨) والكتيبة الكامنة (ص ٣٠١).

الخزرجية ومقصورة حازم نفع اللّه تعالى بسلفهم الكريم، وكانت أم السيد أبي المعالي حُسَينية، فكان شريفًا من الجهتين، أنه كان قد ترك كبار الوظائف والرياسات، وتجرّد للعبادة، ولبس المُرَقَّعة، وسلك طريق القوم، وكان من الدين والعلم والتعظيم في قلوب أهل الدنيا وأهل الآخرة على جانب عظيم، يشار إليه بالأصابع، وكان أخوه شيخي وأستاذي أبو العباس أحمد قاضيًا بشرقي الأندلس فكان أخوه أبو المعالي المذكور لا يأكل في بيت شقيقه شيئًا لأجل ذلك، ولعيشه من خدم السلطان، وكان إذا احتاج إلى الطعام وهو في بيت أخيه أعطاني درهمًا من عنده أشتري له به ما يأكل، وأقام على هذه الحالة الحسنة سنين كثيرة، ثم إنه دخل يومًا على الفقراء بزاوية المحروق من ظاهر غَرْنَاطة، وكان شيخُ الفقراء بها في ذلك الوقت الشيخَ أبا جعفر أحمد المحدود، فقال لهم: يا سادتي، إنه كان معي قنديل أستضيء به، ففقدته[1] في هذه الأيام، وما بقيت أُبصر شيئًا، فقال له شيخهم المذكور: يا شريف، أولُ رجل يدخل علينا في هذا المجلس يجيبك عن مسألتك، فدخل عليهم رجل من خيارهم من أهل البادية، فسلّم وجلس، فقال له الشيخ: إنّ الشريف يسأل الجماعة، فقلت له: أول رجل يدخل علينا يجيبك، فوفقت أنت، فأجبه عن مسألته، فقال له: ما سؤالك يا شريف؟ فقال: إنه كان لي قنديل أستضيء به ففقدته، وما بقيت أُبصر شيئًا، فقال له الفقير: هذا لا يصدر إلاّ عن سوء أدب، أخبرنا بما وقع منك، فقال له الشريف: ما أعلم أنه وقع منه شيء، غير أنّ المباشر فلانًا طلبه السلطانُ للمصادرة، فاستخفى منه، فممرت ببابه يومًا، فناداني من شقّة الباب: يا سيدي، اجعلْ خاطرك معي للّه تعالى، فقلتُ له: اذكر الذكر الفلاني، قلت: وأنا أظنُّ أنه أمره بذكر اسمه تعالى اللطيف فإنه سريع الإجابة في تفريج الشدائد والكرب، نصّ عليه البوني في منتخبه، وهو مجرّب في ذلك، وقد رَوَاه لي عن بعض مشايخه السيد الشريف أحمد أخوه، فقال له الفقير: هل كان أذن لك في تلقينه؟ قال: لا، قال له الفقير: لا يعود إليك نورك أبدًا؛ لأنك قد أسأت الأدب، فكان كما قال، فانقطع وولي بعده قضاء الجماعة، وعزل عن سخط، وخَدَمَ الملوك، وأكل طعامهم، وحالته أوّلاً وآخرًا معروفة بغَرْنَاطة، نسأل اللّه تعالى أن لا يجعلنا من المطرودين عن باب رحمته بمنّه وكرمه! انتهى كلام الراعي رحمه اللّه تعالى.

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ١٩٩): «فقدته».

رجع إلى مشايخ لسان الدين، رحمه اللّه تعالى ورضي عنه وسامحه! فنقول:

ومن مشايخ لسان الدين الإمام الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي[1]؛ ولد بتونس، وهو محمد بن الإمام المحدّث مُعِين الدين جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد القَيْسي، شيخ ممتع نبيل رَحَّال متقن.

قال الخطيب ابن مرزوق: وعاشرته كثيرًا سفرًا وحضرًا، وسمعت بقراءته، وسمع بقراءتي، وقرأت عليه الكثير، وقيّدت من فوائده، وأنشدني الكثير، فأول ما قرأت عليه بالقاهرة بمسجد [. . . . .][2]، وقرأت عليه بمدينة فاس، وبظاهر قسنطينة، وبمدينة بجَايَةَ، وبظاهر المَهْدية، وبمنزلي من تلمسان، وقرأت عليه أحاديث عوالي من تخريج الدمياطي، وفيها الحديث المسلسل بالأوّلية، وسلسلته عنه من غير رواية الدمياطي بشرطه، ثم قرأت عليه أكثر كتاب «الموطإ» رواية يحيىٰ، وأعجله السفر فأتممته عليه في غير القاهرة، وحدّثني به عن جماعة، معَوّله على الشيخين قاضي القضاة أبي العباس بن الغماز الخزرجي وهو أحمد بن محمد بن حسن والشيخ أبي محمد بن هارون وهو عبد اللّه بن محمد القرْطبي الطائي الكاتب المُعمَّر الأديب، بحقّ سماعه لأكثره على الأول وقراءته بأجمعه على الثاني، قال الأول: أخبرنا أبو الربيع بن سالم بجميع طرقه فيه منها عن ابن مرزوق وأبي عبد اللّه بن أبي عبد اللّه الخَوْلاني عن أبي عمرو عثمان بن أحمد المَعافري[3] عن أبي عيسى بسنده، وقال الثاني: أخبرنا أبو القاسم بن بقي بقرطبة، أخبرنا أبو عبد اللّه محمد بن عبد الحقّ عن محمد بن فرج مولى الطلاع عن يونس بتمام سنده.

قال شيخنا: وفي هذا السَّنَد غريبتان: إحداهما أنه ليس فيه إجازة، والثانية أنَّ شيوخه كلّهم قرطبيون.

قال ابن مرزوق: قلت ولا غرابة في اتصال سماع الموطإ وقراءته، فقد وقع لي على قلّة التحصيل متصلاً من طرق وللّه الحمد، وقد رويته عن قرطبي، وهو أبو العباس بن العشاء. ثم قرأت عليه كتاب «الشفاء» لعياض، وحدّثني به عن أبي القاسم عن أبي عبد اللّه

(١) ترجمة ابن جابر الوادي آشي في الديباج المذهب (ص ٣١١) والتعريف بابن خلدون (ص ١٨).
(٢) «بمسجد [. . .]» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٠١): «المغافري» بالغين المعجمة.

بن القاسم الأنصاري المالقي نزيل سبتة ويُعرف بها بابن حكم وبابن أخت أبي صالح، عن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الخزرجي، عن أبي جعفر أحمد بن حكم، عن المؤلف، وحدّثني به أيضًا عن قاضي الجماعة ابن أبي الربيع بن سالم عن أبي جعفر بن حكم.

ثم قال ابن مرزوق بعد كلام ما صورته: رويت[1] عنه وأنشدني لأبي محمد بن هارون: [الكامل]

لا تَطْمَعَنْ في نفع آلك إنه ... ضررٌ، وقَلَّ النفعُ عند الآلِ[2]
أقصرْ، رُوَيْدَكَ إنَّ ما أَعْلَقْتَهُ ... بالآلِ من أهلٍ كمثلِ الآل[3]

ولابن هارون المذكور: [مجزوء الوافر]

أقِلَّ زيارةَ الأحبا ... بِ تَزْدَدْ عندهمْ قُربا
فإنَّ المصطفى قد قا ... ل «زُرْ غِبًّا تزد حُبّا»

ولابن هارون أيضًا: [مجزوء الوافر]

رماني بالنوى زَمَني ... فشَمْلُ الأنسِ مفترقُ
وليلي كلُّه فِكَرٌ ... فقلبي منه محترق
وللآدابِ أبناءٌ ... ببحرِ الفقرِ قد غرقوا
وكلٌّ منهمُ وَجِلٌ ... بما يلقاه أو فَرِقُ[4]
يَغَصُّ بريقه منه ... كما في[5] النطق أو شرِقُ
وقد صَفِرَتْ أكفُّهُمُ ... فلا وَرَقٌ ولا ورِق
ولطفُ اللّه مرتَقَبٌ ... به العاداتُ تنخرق

قال ابن مرزوق: وشعره الفائق لا يحصر، وهو عندي في مجلّد كبير، وولد ابن جابر سنة ٦٧، وسمع بمصر على جماعة، وكتب بخطّه كثيرًا، وله معرفة بالحديث والنحو

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٠٢): «ورويت».
(٢) الآل: الأهل.
(٣) الآل: السراب.
(٤) الفَرِقُ: الشديد الخوف. لسان العرب (فرق).
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٠٢): «وفي النطق».

واللغة والشعر، وله نظم حسن، وتوفي بتونس سنة ٧٧٩، وأخذ القراءات عن ابن الزيات وغيره، وترجمة الحافظ بن جابر، رحمه اللّٰه تعالى، واسعة مشهورة، وقد ذكرْناه في غير هذا الكتاب بما جمعناه.

ومِمّا أنشده لسان الدين، رحمه اللّٰه تعالى، لبعض المتصوفة من شيوخه ولم يُسَمِّه قوله: [الكامل]

هل تعلمونَ مصارعَ العُشّاقِ ... عند الوَدَاعِ بِلَوعَةِ الأشواقِ
والبينُ يكتبُ من نجيعِ دمائهمْ ... إنَّ الشهيدَ لَمَنْ تَوَى[1] بفراقِ
لو كنتَ شاهِدَ حالهمْ يوم النوى ... لرأيتَ ما يلقون غير مطاق
منهمْ كئيبٌ لا يملُّ بكاءه ... قد أحرَقَتْهُ مدامعُ الآماق
ومحرَّقُ الأحشاء أشعلَ نارَها ... طولُ الوجيبِ[2] بقلبه الخفّاق
ومُوَلَّهٌ لا يستطيعُ كلامَهُ ... ممّا يقاسي في الهوى ويلاقي
خَرِسُ اللسانِ فما يطيقُ عبارةً ... ألمٌ ألَمَّ وما له من راقِ
ما للمُحِبِّ من المنونِ وقايةٌ ... إن لم يَجُدْ محبوبُهُ بتلاق
مولاي، عبدكَ ذاهبٌ بغرامِهِ ... أدركْ بفضلك من ذَمَاه[3] الباقي
إني إليكَ بذلَّتي متوسِّلٌ ... فاعطفْ بلطفٍ منك أو إشفاقِ

وهذه الأبيات أوردها، رحمه اللّٰه تعالى، في «الروضة» في العشق، بعد أنْ حَدَّهُ وتكلّم عليه، ثم أورد عدة مقطوعات، ثم ذكر بعدها هذه الأبيات كما ذكر.

وأنشد لسان الدين، رحمه اللّٰه تعالى، لبعض أشياخه، وسمّاه، وأُنسيته أنا الآن: [الكامل]

بما بيننا من خلوةٍ مَعنويةٍ ... أرقَّ من النجوى وأحلى من السَّلْوَى
قفي ساعَةً في ساحةِ الدارِ وانظري ... إلى عاشقٍ لا يستفيقُ من البلوى
وكم قد سألْتُ الريحَ شوقًا إليكُمُ ... فما حَنَّ مسراها عليَّ ولا ألْوَى

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٠٢): «بكم توى..».
(٢) الوجيب: الخفقان. محيط المحيط (وجب).
(٣) ذماه: أصلها: من ذمائه، والذماء: بقية الروح. لسان العرب (ذمى).

وقوله[1]: [الوافر]

أنستُ بوحدتي حتى لو أني | أتاني الأنسُ لاستوحشتُ مِنهُ
ولم تَدَعِ التجاربُ لي صديقًا | أميلُ إليه إلاَّ مِلْتُ عنه

وقوله رحمه اللّه تعالى: [السريع]

عليكَ بالعزلة إنَّ الفتى | مَنْ طابَ بالقلّةِ في العُزْلَةِ
لا يرتجي عَزلَةَ والٍ، ولا | يخشى من الذلّةِ في العَزْلَةِ

ومن أكابر شيوخ ابن الخطيب، رحمه اللّه تعالى، جدي الإمامُ العلامة قاضي القضاة بحضرة الخلافة فاس المحروسة أبو عبد اللّه[2].

قال في «الإحاطة»[3]: محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المَقَّرِي، يكنى أبا عبد اللّه، قاضي الجماعة بفاس، تلمساني.

أوليّته. نقلت من خطّه قال: وكان الذي اتّخذها من سلفنا قرارًا، بعد أن كانت لمن قبله مزارًا[4]، عبدُ الرحمن بن أبي بكر بن علي المقَّري، صاحب الشيخ أبي مَدْيَن، الذي دعا له ولذرّيته بما ظهر فيهم قَبوله[5] وتبيّن. وهو أبي الخامس فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيىٰ بن عبد الرحمن، وكان هذا الشيخ عُرْوي[6] الصلاة، حتى إنه ربما امْتُحن بغير شيء فلم يؤنس منه التفات، ولا اسْتُشْعر منه شعور. ويقال: إنّ هذا الحضور مِمّا أدركه من مقامات شيخه أبي مدين؛ انتهى.

وكتب بعضُ المغاربة على هامش هذا المحلّ من «الإحاطة» ما صورته: القرشي وَهَمٌ؛ انتهى.

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٠٣): «وقوله أيضًا».
(٢) ترجمة جَدِّ المقري في الإحاطة (ج ٢ ص ١٩١) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٩) وسلوة الأنفاس (ج ٣ ص ٢٧١) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٦٩) والتعريف بابن خلدون (ص ٥٩).
(٣) الإحاطة (ج ٢ ص ١٩١ ـ ١٩٢).
(٤) في الإحاطة «مرارًا».
(٥) في الإحاطة: «من قبول».
(٦) أغلب الظن أنه ينسبه إلى عروة بن الزبير، الذي كان يطيل الصلاة ويكثر من الدعاء.

فكتب تحته الشيخُ الإمام أبو الفضل ابن الإمام التلمساني، رحمه الله تعالى، ما نصُّه: بل صحيح، نطقت به الألسنُ والمكاتبات والإجازات، وأعربت عنه الخلال الكريمة، إلاَّ أنَّ البَلَدِية يا سيدي أبا عبد الله والمنافسة تجعل القرشية في إمام المغرب أبي عبد الله المَقَّري وَهَمًا، والحمد لله؛ انتهى.

قلت: ومِمَّنْ صرّح بالقرشية في حقِّ الجدِّ المذكور ابنُ خلدون في تاريخه، وابنُ الأحمر في «نثر الجمان» وفي شرح البردة عند قوله: [البسيط]

لَعَلَّ رحمةَ ربي حين ينشرُها

والشيخُ ابن غازي، والولي الصالح سيدي أحمد زروق، والشيخُ علامة زمانه سيدي أحمد الوانشريسي، وغيرُ واحد، وكفى بلسان الدين شاهدًا مُزكّى.

وقد ألّف عالم الدنيا ابن مرزوق تأليفًا استوفى فيه التعريف بمولاي الجدّ سمّاه «النُّور البَدْري، في التعريف بالفقيه المَقْري» وهذا بناء منه على مذهبه أنه. بفتح الميم وسكون القاف. كما صرّح بذلك في شرح الألفية عند قوله: [الرجز]

ووضعوا لبعض الأجناس علم

وضبطه غيرُهم[1]، وهم الأكثرون، بفتح الميم وتشديد القاف، وعلى ذلك عوّل أكثر المتأخرين، وهما لغتان في البلدة التي نُسِبَ إليها، وهي مَقَّرة من قرى زاب إفريقية، وانتقل منها جدّه إلى تلمسان صحبة شيخه ولي الله سيدي أبي مَدْين رضي الله عنه!.

رَجْع إلى تكملة كلام مولاي الجدّ في حقّ أوّليّته[2]:

قال، رحمه تعالى، بعد الكلام السابق في حقّ جدّه عبد الرحمن، ما صورتُه: ثم اشتهرت ذرّيّته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهّدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التُّجار، واتّخذوا طَبْلا للرحيل[3]، ورايةً تقدم عند المسير. وكان ولدُ يحيىٰ الذين[4] أحدهم أبو بكر خمسَةَ رجالٍ، فعقدوا الشركة بينهم في جميع[5] ما ملكوه أو يملكونه على

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٠٥): «غيره».

(٢) الإحاطة (جـ ٢ ص ١٩٢ ـ ١٩٤).

(٣) في الإحاطة: «طبل الرحيل وراية التقدم».

(٤) في الإحاطة: «الذي كان أحدهم».

(٥) في الإحاطة: «فيما ملكوه وفيما يملكونه».

السواء بينهم والاعتدال، فكان أبو بكر ومحمد وهما أرومتا نَسَبي من جميع جهات أمي وأبي بتلمسان، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بِسِجِلْمَاسة، وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهم الصغيران بإيوالاتن[١]، فاتخذوا بهذه[٢] الأقطار الحوائط[٣] والديار، وتزوّجوا النساء، واستولدوا الإماء. وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يُرسم له من السلع، ويبعث إليه الصحراوي بالجِلْد والعاج والجوز والتِّبْر، والسِّلجماسي كلسان الميزان يعرِّفهما بقدر الخسران والرجحان[٤]، ويكاتبهما بأحوال التّجار، وأخبار البلدان، حتى اتّسعت أموالهم، وارتفعت في الضخامة[٥] أحوالهم، ولما افتتح التَّكْرور كورة إيوالاتن وأعمالها أُصيبت أموالهم فيما أُصيب من أموالها، بعد أن جَمَعَ من كان فيها[٦] منهم إلى نفسه الرجال، ونصب دونها[٧] ودون مالهم القتال. ثم اتصل بملكهم فأكرم مَثْوَاه، ومكّنه من التجارة بجميع بلاده، وخاطبه بالصديق الأحبّ، والخلاصة الأقرب. ثم صار يكاتب من بتلمسان، يستقضي منهم مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، وعندي من كُتُبه وكُتُب ملوك المغرب ما ينبىء عن ذلك، فلمّا استوثقوا من الملوك، تذلّلت لهم الأرض للسلوك، فخرجت أموالهم عن الحدّ، وكادت تفوت[٨] الحصر والعَدّ: لأنّ بلاد الصحراء، قبل أن يدخلها أهل مصر، كان[٩] يجلب إليها من المغرب ما لا بالَ[١٠] له من السلع، فتعاوض[١١] عنه بما له بالٌ من الثمن. أيّ مدبّر دنيا ضمّ جنبا أبي حمو[١٢] وشمل ثوباه، كان يقول: لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجرًا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السِّلع،

---

(١) في الإحاطة: «بأي والاتُن». وهو موضع بالصحراء.
(٢) في الإحاطة: «هذه».
(٣) الحوائط: جمع حائط وهو البستان.
(٤) في الإحاطة: «بقدر الرجحان والخُسْران».
(٥) في الإحاطة: «الفخامة».
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٠٥): «بها منهم».
(٧) في الإحاطة: «دون ماله القتال».
(٨) في الإحاطة (ص ١٩٣): «تفوق».
(٩) في الإحاطة: «كانت تجلب لها..».
(١٠) ما لا بال له: أي ما ليس بذي شأن.
(١١) في الإحاطة: «فيعاوض».
(١٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٠٦): «حم». وأبو حمو هو موسى بن عثمان بن يَغْمراسن بن زيان، كما في الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٢٦).

ويأتون بالتِّبر الذي كلُّ أمرِ الدنيا له تَبَع، ومَنْ سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب، ومنه ما يغيّر من العوائد، ويجرُّ السفهاء إلى المفاسد. ولمّا دَرَجَ[1] هؤلاء الأشياخ جعل أبناؤهم ينفقون ممّا تركوا لهم، ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم، وصادفوا توالي الفتن، ولم يسلموا من جور السلاطين[2]، فلم يزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمن، فها أنا ذا لم أُدرِك من ذلك إلاّ أثر نعمة اتخذنا فُصُوله عيشًا، وأصوله حرمة. ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطلب، فتفرَّغْتُ بحول اللّه، عزَّ وجلَّ، للقراءة، فاستوعبتُ أهل البلد لقاءً، وأخذت عن بعضهم عَرْضًا وإلقاءً، سواء المقيم القاطن، والوارد والظاعن. انتهى كلامه في أوليته، وقد نقله لسان الدين في «الإحاطة».

وقال مولاي الجَدُّ، رحمه اللّه تعالى[3]: كان مولدي بتلمسان أيام أبي حوّ[4] موسى بن عثمان بن يَغمُرَاسن بن زيان. وقد وقفت على تاريخ ذلك، ولكني[5] رأيت الصفح عنه؛ لأنّ أبا الحسن بن مؤمن سأل أبا طاهر السِّلَفي عن سِنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت أبا الفتح بن زيان[6] عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت علي[7] بن محمد اللبان عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت[8] حمزة بن يوسف السهمي عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت أبا بكر محمد[9] بن عدي المنقري عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت أبا إسماعيل الترمذي عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت بعض أصحاب الشافعي عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت الشافعي عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألتُ مالك بن أنس عن سنّه فقال: أقبل على شأنك،

---

(١) في الإحاطة: «هلك». ودَرَجَ: مات. لسان العرب (درج).
(٢) في الإحاطة (ص ١٩٤): «السلطان، فلم تزل حالهم..».
(٣) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٢٦).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٠٧): «حم».
(٥) في الإحاطة: «ورأيت».
(٦) في الإحاطة: «أبا الفتح بن زيان بن مسعدة عن سنّه..».
(٧) في الإحاطة: «سألت محمد بن علي بن محمد اللبان..».
(٨) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٠٧): «سألت أبا القاسم حمزة..».
(٩) في الإحاطة: «محمد بن علي النفزي».

ليس من المروءة[1] للرجل أن يخبر بسنّه، انتهى.

قلت: ولمّا تذاكرتُ مع مولاي العمّ الإمام ـ صبّ اللّه تعالى على مضجعه من الرحمة الغمام ـ هذا المعنى الذي ساقه مولاي الجدّ رحمه اللّه تعالى أنشدني لبعضهم[2]: [الكامل]

إخفظْ لسانك لا تَبُحْ بثلاثةٍ ... سِنّ ومالٍ ما استطعتَ ومذهبِ
فَعَلَى الثلاثةِ تُبْتَلَى بثلاثةٍ ... بمكفِّرٍ وبحاسدٍ ومكذِّبِ[3]

قال الونشريسي[4] في حقّ الجدّ ما نصُّه: القاضي الشهير الإمام العالم أبو عبد اللّه محمد بن محمد المقَّري، التلمساني المولد والمنشأ، الفاسي المسكن، كان رحمه اللّه تعالى عالمًا عاملاً ظريفًا نبيهًا ذكيًا نبيلاً فهمًا متيقّظًا جزلاً محصّلاً؛ انتهى.

وقد وقفت له بالمغرب على مؤلَّف عرّف فيه بمولاي الجد، وذكر جملة من أحواله، وذلك أنه طلبه بعض أهل عصره في تأليف أخبار الجَدّ، فألّف فيه ما ذكر.

وقال في «الإحاطة» في ترجمة مولاي الجَدِّ بعد ذكره أوليته ما صورته[5]: حاله[6] حال هذا الرجل مشارٌ إليه بالعُدْوة الغربية اجتهادًا ودُؤوبًا وحفظًا وعناية واطلاعًا ونقلاً ونزاهةً؛ سليمُ الصدر، قريب الغَوْر، صادق القول، مسلوب التصنّع، كثير الهَشَّة، مفرط الخفّة، طاهر السذاجة، ذاهبٌ أقصى مذاهب التخلّق، محافظٌ على العمل، مثابر على الانقطاع، حريص على العبادة، مضايق في العقد والتوجّه، يكابد من تحصيل النيّة بالوجه واليدين مشقّة، ثم يغافص[7] الوقت فيها ويوقعها دُفعةً متبعًا إياها زَعْقَةَ التكبير برجفة ينبو عنها سمعُ من لم[8] تؤنسه بها العادة، بما هو دليل على حُسْن المعاملة، وإرسال السجيّة، قديم النعمة، متّصل الخيريّة، مُكِبٌّ على النظر والدرس والقراءة، معلوم الصِّيانة والعدالة،

---

(١) في الإحاطة: «ليس من المروءة إخبار الرجل عن سنّه».
(٢) البيتان في صيد الخاطر (ص ٣٤٦) من إنشاد محمد بن عبد الباقي البزار.
(٣) في صيد الخاطر: «بمموّه ومحرّف».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٠٧): «الوانشريسي».
(٥) الإحاطة (جـ ٢ ص ١٩٤ . ١٩٥).
(٦) كلمة «حاله» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٠٨).
(٧) في الإحاطة: «يغافض». ويغافص الوقت: يفاجئه. لسان العرب (غفص).
(٨) في الإحاطة: «من لم يكن تأنّس بها عادة».

منصفٌ في المذاكرة، حاسرٌ للذراع[1] عند المُبَاحثة، راحبٌ عن الصدر في وطيس المناقشة، غير مختار للقَرْن، ولا ضانّ[2] بالفائدة، كثير الالتفات، متقلّب الحدقة، جهير بالحُجّة، بعيد عن المُراء والمباهتة، قائل بفضل أُولي الفضل من الطلبة، يقوم أتمّ القيام على العربية والفقه والتفسير، ويحفظ الحديث، ويتهجّر بحفظ التاريخ[3] والأخبار والآداب، ويشارك مشاركة فاضلة في الأصلين والجَدل والمنطق، ويكتب ويشعر مصيبًا[4] غَرَضَ الإجادة، ويتكلّم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال، ويعتني بالتدوين فيها. شرّق وحجَّ ولقي جِلّةً، واضطبن[5] رحلة مفيدة، ثم عاد إلى بلده فأقْرَأَ به، وانقطع إلى خدمة العلم. فلمّا ولي ملك المغرب السلطان، محالفُ الصُّنع ونشيدة الملك وأثير اللّه من بين القرابة والأخوة أميرُ المؤمنين أبو عنان[6] اجتذبه، وخلطه بنفسه، واشتمل عليه، وولاّه قضاء الجماعة بمدينة فاس، فاستقلّ بذلك أعظم الاستقلال، وأنفذ الحق[7] ، وألانَ الكلمة، وآثر التسديد، وحمل الكَلَّ[8] ، وخفض الجناح، فحسُنَتْ عنه القالة[9]، وأحبَّتْه الخاصّة والعامة. حضرتُ بعض مجالسه للحكم، فرأيت من صبره على اللّدَدَ[10] وتأنّيه للحجج ورِفْقه بالخصوم ما قضيتُ منه العجب.

دخوله غرناطة[11] ثم لَمّا أُخّر عن القضاء اسْتُعمل بعد لأي في الرسالة، فوصل الأندلس أوائل جمادى الثانية من عام سبعة وخمسين وسبعمائة[12]. فلمّا قضى غرض رسالته[13]، وأبرم عَقْد وجهته، واحتلّ مالَقَةَ في منصرفه، بدا له في نَبْذ الكُلْفة، واطّراح

(١) في الإحاطة: «حاسر الذراع».

(٢) ضانّ: اسم فاعل من ضنَّ أي بخل. لسان العرب (ضنن).

(٣) في الإحاطة (ص ١٩٥): «يحفظ الأخبار والتاريخ والآداب».

(٤) في الإحاطة: «مصيبًا في ذلك غرض..».

(٥) اضطبن الرحلة: اعتزمها.

(٦) في الإحاطة: «أبو عنان فارس..».

(٧) في الإحاطة: «وأنفذ الحكم».

(٨) الكَلُّ: اليتيم. محيط المحيط (كلل).

(٩) حسنتْ عنه القالة: حسن قول الناس فيه.

(١٠) اللّدَدُ: الخصومة الشديدة. لسان العرب (لدد).

(١١) الإحاطة (ج ٢ ص ١٩٦ ـ ١٩٧).

(١٢) في الإحاطة: «من عام ست وخمسين وسبعمائة».

(١٣) في الإحاطة: «غرض الرسالة».

وظيفة الخدمة، وحلّ التقيّد، إلى ملازمه الإمْرة، فتقاعد، وشهر غرضه وبَتّ في الانتقال، طمَعَ من كان صحبته، وأقبل على شأنه، فَخُلّي بينه وبين هَمّه. وتُرك وما انتحله من الانقطاع إلى ربّه، وطار الخبر إلى مُرْسِله، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة والعدول عنها بقصد التخلّي والعبادة، وأنكر ما حقه[1] الإنكار من إبطال عمل الرسالة، والانقباض قبل الخروج عن العُهْدة، فوغر صدرُه على صاحب الأمر، ولم يبعد حمله على الظنة والمواطأة على النفرة، وتجهّزت جملة من الخدّام المجلّين في مأزق الشبهة المضطلعين بإقامة الحجة، مولين خطّة الملام، مخيرين بين سحائب عادٍ من الإسلام[2]، مظنة إعلاق النقمة[3]، وإيقاع العقوبة[4]، أو الإشادة بسبب إجارته بالقطيعة والمنابذة. وقد كان المترجم به لحق بغرناطة فتذمّم بمسجدها، وجأر بالانقطاع إلى اللّه، وتوعّد من يجبره بنكير من يُجِير ولا يجار عليه سبحانه، فأهمّ أمره، وشغلت القلوب آبدتُهُ، وأمسك الرسل بخلال ما صدرت شفاعة اقتضى[5] له فيها رفع التَّبِعة وتركه إلى تلك الوجهة. ولَمَّا تحصّل ما تيسّر من ذلك انصرف محفوفًا بعالِمَي القطر قاضي الجماعة أبي القاسم الحَسَني المذكور[6] قبله، والشيخ الخطيب أبي البركات بن الحاج، مسلمين[7] لوروده، مُشافهين بالشفاعة في غرضه، فانقشعت الغُمّة، وتنفّست الكُرْبة. واستصحبا من المخاطبة السلطانية في أمره من إملائي ما يُذكر حسبما ثبت في الكتاب المسمى بـ «كناسة الدكان، بعد انتقال السكان» المجموع بسَلاً ما صورته[8]:

المقامُ الذي يُحبُّ الشفاعة ويَرْعَى الوسيلة، ويُنْجز العِدَة ويتمّم الفضيلة، ويُضْفي مجده المنَنَ الجزيلة، ويعيي حمدُه الممادح العريضة الطويلة، مقامُ محلّ والدنا الذي كرم مجده، ووضح سعده، وصحّ في اللّه تعالى عقده، وخلص في الأعمال الصالحة قَصْدُه، وأعجز الألسنة حَمْدُه، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه اللّه

---

(١) في الإحاطة: «وأنكر ما نحله غاية الإنكار».
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٠٩): «من إسلامه».
(٣) في الإحاطة: «النعمة».
(٤) في الإحاطة: «وإيقاع المُثْلة، والإساءة بسبب القطيعة..».
(٥) في الإحاطة (ص ١٩٧): «اقتضت».
(٦) في الإحاطة: «المترجم به قبله».
(٧) في الإحاطة: «مستهلين».
(٨) الإحاطة (ج ٢ ص ١٩٧ ٢٠٠).

سبحانه لوسيلة يَرْعَاها، وشفاعة يُكْرِمُ مَسْعَاها، وأخلاق جميلة تجيب دَعْوَةَ الطَّبع الكريم إذا دعاها، معظِّمُ سلطانه الكبير، وممجّد مقامه الشهير، المتشيّع لأبوّته الرفيعة قولاً باللسان واعتقادًا بالضمير، المعتمدُ منه بعد اللَّه على الملجإ الأحمى والولي النصير، فلان.

سلام كريم، طيب بَرٌّ عميمٌ، يخصّ مقامكم الأعلى، وأبوّتكم الفضلى، ورحمة اللَّه وبركاته.

«أما بعدَ حمدِ اللَّه الذي جعل الخُلُق الحميدة دليلاً على عنايته بمن حَلاَّه حُلاَهَا، وميَّز بها النفوس النفيسة التي اختصّها بكرامتها وتولاّها، حمدًا يكون كُفؤا للنعم التي أولاها، وأعادها ووالاها، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله المترقِّي من درجات الاختصاص أرفَعَها وأعلاها، الممتاز من أنوار الهداية بأوضحها وأجلاها، مَطْلع آيات السعادة يَرُوق مُجْتَلاها، والرضا عن آله وصحبه الذين خَبَرَ صدق ضمائرهم لمّا ابتلاها، وعَسَل ذكرهم[1] في الأفواه فما أعذب أوصافهم على الألسن وأحلاها، والدعاء لمقام أبوّتكم حرس اللَّه تعالى عُلاَهَا، بالسعادة التي يقول الفتح أنا طلاّع الثنايا وابنُ جَلاَهَا[2]، والصنائع التي تخترق المَفَاوِزَ بركائبها المبشّرات فَتَفْلي فَلاها، فإنا كتبنا إليكم. كَتَبَ اللَّه تعالى لكم عزّةً مشيّدة البناء، وحشد على أعلام صنائعكم الكرام جُيُوشَ الثناء، وقلّدكم من قلائد مكارم الأخلاق ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء! . من حمراء غَرْناطة حرسها اللَّه والودُّ باهر السنا، [ظاهر السناء[3]]، مُجَدَّد[4] على الآناء، والتشيّع رَحْبَ الدسيعة والفِناء[5] وإلى هذا. وصل اللَّه تعالى سعدكم، وحرس مجدكم! . فإننا خاطبنا مقامَكم الكريم في شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبي عبد اللَّه المَقَّري خار اللَّه تعالى لنا وله، وبلغ الجميع من فضله العميم أمله، جوابًا عمّا صدر عن مَثَابكم فيه من الإشارة

---

(١) عَسَلَ ذكرُهم في الأفواه: أصبح حلوًا كالعسل، وهو كناية عن استعذاب الحديث عنهم. لسان العرب (عسل).

(٢) أخذه من قول سُحيم بن وثيل الرياحي: [الوافر]

أنا ابنُ جَلا وطلاّعُ الثنايا ... متى أَضَعِ العمامةَ تعرفوني

الشعر والشعراء (ص ٥٣٨).

(٣) ما بين قوسين غير وارد في الإحاطة (ص ١٩٨).

(٤) في الإحاطة: «مُجِدٌّ».

(٥) الدسيعة: الخُلُقُ؛ ورحب الدسيعة: طيب الخُلُق والطباع. محيط المحيط (دسع).

الممتثلة، والمآرب المُعْمَلة، والقضايا غير المهملة، نُصَادركم بالشفاعة التي مِثْلُها بأبوابكم لا يُرَدُّ، وظمآها عن مَنْهل قبولكم لا تحلأ[1] ولا تُصَدّ، حسبما سنّه الأب الكريم والجَدّ، والقَبيل الذي وَضُح منه في المكارم الرسم والحدّ. ولم نُصْدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدق المخيّلة، وتبلّج صبح الزهادة والفضيلة، وجُود النفس الشحيحة. بالعَرَضِ الأدنى. البخيلة، وظهر تخلّيه عن هذه الدار، واختلاطه باللفيف والغُمار، وإقباله على ما يعني مثله من صلة الأوراد ومداومة الاستغفار. وكُنّا لما تعرّفنا إقامته بمالَقَةَ لهذا الغرض الذي شَهَرَه، والفضل الذي أبرزه للعِيَانِ وأظْهَرَه، أَمَرْنا أن يُعْتَنَى بأحواله، ويُعان على فراغ باله، ويُجْرَى عليه سَيْبٌ من ديوان الأعشار الشرعية وصريح ماله، وقلنا أما[2] أتاك من غير مسألة مستندٌ صحيح لاستدلاله، ففرَّ من مالَقَةَ على ما تعرّفنا لهذا السبب، وقعد بحضرتنا مستور المُنْتَمَى والمُنْتَسَب، وسكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدّة لسكنى المُتَّسِمين بالخير والمحترفين ببضاعة الطلب، بحيث لم يُتَعَرَّف وروده ووصوله إلاّ مِمَّنْ لا يُؤْبَهُ بتعريفه، ولم تتحقّق زوائده وأصوله لقلّة تصريفه. ثم تلاحق إرسالكم الجِلَّة فوجبت حينئذ الشفاعة، وعُرضت على سوق الحلم والفضل من الاستلطاف والاستعطاف البضاعة، وقررنا ما تحققناه من أمره، وانقباضه عن زَيْدِ الخلق وعَمْرِه، واستقباله الوجهَةَ التي من ولَّى وجهه شَطْرها فقد آثر أثيرًا، ومَنِ ابتاعها بمتاع الدنيا فقد نال فضلاً كبيرًا وخيرًا كثيرًا، وسألنا منكم أن تبيحوه[3] ذلك الغَرَضَ الذي رماه بعزمه، وقَصَرَ عليه أقصى همِّه، فما أَخْلَقَ مقامكم أن يفوز منه طالبُ الدنيا بسهمه، ويحصل منه طالب الآخرة على حظّه الباقي وقَسْمِه، ويتوسّل الزاهد بزهده والعالمُ بعلمه، ويعوِّل البريء على فضله ويثق المذنِبُ بحلمه. فوصل الجوابُ الكريم بمجرّد الأمان وهو أَرَبٌ من آراب[4]، وفائدة من جِراب، ووجه من وجوه إعراب، فرأينا أن المَطْل بعد جفاء، والإعادة ليس يثقلها خَفاء، ولمجدكم بما ضمَّنا عنه وفاء، وبادرنا الآن إلى العزم عليه في ارتحاله، وأن يكون الانتقالُ عن رضًا منه من صفة حاله، وأن يقتضي له ثمرة المقصد، ويبلغ طِيّة الإسعاف في الطريق إن

(١) في الإحاطة (ص ١٩٩): «لا تجلى».
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢١١): «ما».
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢١٢): «تبيحوا له ذلك».
(٤) الآراب: جمع أرب وهو البغية والمطلب. لسان العرب (أرب).

قصد[1]، إذ كان الأمان لمثله مِمَّن تعلّق بجناب اللَّه من مثلكم حاصلاً، والدين المتين بين نفسه وبين المخافة فاصلاً، وطالب كيمياء السعادة بإعانتكم واصلاً. ولمَّا مُدَّت اليدُ في تسويغ حالةِ هَذْيُكُمْ عليها أبدًا يُحَرِّضُ، وعلمُكُمْ يصرِّحُ بمزيتها ولا يُعَرِّضُ، فكمّلوا أبقاكم اللَّه ما لم تَسَعْنا فيه مشاحةُ الكتاب، وألحقوا بالأصل حديثَ هذه الإباحة فهو أصحُّ حديث في الباب، ووفُّوا غرضنا من مجدكم، وخلُّوا بينه وبين مراده من ترك الأسباب، وقَصْد غافر الذنوب وقابل التَّوْب بإخلاص المَتَاب، والتشمير ليوم العَرْض، وموقف الحساب، وأَظْهروا عليه عناية الجناب، الذي تعلَّق به أعلق اللَّه به يدكم من جَناب، ومَعَاذ اللَّه أن تعود شفاعتُنا من لدنكم غير مكملة الآراب. وقد بعثنا مَنْ ينوب عنّا في مشافهتكم بها أحْمَدَ المَناب، ويقتضي خلاصها بالرغبة لا بالغِلاب، وهما فلان وفلان. ولولا الأعذار لكان في هذا الغرض إعمالُ الرِّكاب، يسبق[2] أعلام الكِتاب، وأنتم تُولُون هذا القصد من مكارمكم ما يوفّر الثناء الجميل، ويُرْبِي على التأميل، ويكتب على الودّ الصريح العقد وثيقة التسجيل. وهو سبحانه يُبْقيكم لتأييد المجد الأثيل، وإنالة الرِّفْدِ الجزيل. والسلام الكريم يخصّ مقامكم الأعلى، ومَثَابتكم الفُضْلَى، ورحمة اللَّه تعالى وبركاته. في الحادي والعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعمائة». انتهى كلام ابن الخطيب في «الإحاطة».

وذكر في الريحانة أنه كتب في هذا الغرض ما نصُّه: «وإلى هذا فإننا وقفنا على كتابكم الكريم في شأن الشيخ الصالح الفقيه الفاضل أبي عبد اللَّه المقري. وفقنا اللَّه وإياه لما يُزْلِف[3] لديه، وهدانا لما يقرب إليه. وما بلغكم بتقاعده بمالَقَةَ، وما أشرتم به في أمره، فاستوفينا جميع ما قررتم، واستوعبنا ما أجملتم في ذلك وفسّرتم، واعلموا يا محلَّ والدنا. أمتعنا اللَّه ببقائكم الذي في ضمنه اتّصال السعادة، وتعرُّف النعم المُعَادَة! . أننا لمّا انصرف عن بابنا هو ومن رافقه عن انشراح صدور وتكييف جَذَل بما تفضلتم به وسرور، تعرّفنا أنه تقاعد بمالَقَةَ عن صَحْبه، وأظهر الاشتغال بما يخلصه عند ربِّه، وصرف الوجه إلى التخلّي مشفقًا من ذنبه، واحتجَّ بأنَّ قصده ليس له سبب، ولا تعين له في الدنيا أرَب،

---

(١) في طبعة دار صادر: «الطريق الأقصد».

(٢) في الإحاطة (ص ٢٠٠): «يسبق».

(٣) يزلف: يقرّب. لسان العرب (زلف).

وأنه عرض عليكم أن تسمحوا له فيما ذهب إليه، وتُقِرُّوه عليه، فيعجل البِدار، ويمهّد تحت إيالتكم القَرَار، فلمَّا بلغنا هذا الخبر، لم يخلق اللَّه عندنا به مبالاة تُعْتبر، ولا أعددناه فيما يُذكر، فكيف فيما يُنكر، وقطعنا أنَّ الأمر فيه هَيْن، وأنَّ مثل هذا الغرض لا تلتفت إليه عَيْن، فإنَّ بابكم غنيّ من طبقات أُولي الكمال، مليٌّ[1] بتسويغ الآمال[2]، موفور الرجال، معمور بالفقهاء العارفين بأحكام الحرام والحلال، والصلحاء أُولي المقامات والأحوال، والأدباء فُرْسَان الرَّوِيَّة والارتجال، ولم ينقص بفقدان الحصى أعدادُ الرمال، ولا يستكثر بالقطرة جيشُ العارض[3] المنثال، مع ما علم من إعانتكم على مثل هذه الأعمال، واستمساككم بإسعاف غرض من صَرَف وَجْهه إلى ذي الجَلاَل، ولو علمنا أنَّ شيئًا يهجس في الخاطر من أمر مقامه، لقابلناه بعلاج سَقَامه. ثم لم ينشب[4] أن تلاحق بحضرتنا بارزًا في طَوْر التقلّل والتخفيف، خالطًا نفسه باللفيف، قد صار نكرة بعد العلمية والتعريف، وسكن بعض مواضع المدرسة منقبضًا عن الناس لا يظهر إلاَّ لصلاة يَشْهَدُ جماعتها، ودعوة للعباد يخاف إضاعتها، ثم تلاحق إرسالُكم الجِلَّةَ، الذين تحقّ لمثلهم التَّجِلَّة، فحضروا لدَيْنَا، وأدّوا المخاطبة الكريمة كما ذكر إلينا، وتكلَّمْنا معهم في القضية، وتنحَّلْنا في الوجوه المرضية، فلم نجدْ وجهًا أخلص من هذا الغرض، ولا علاجًا يتكفّل ببُرْء المرض، من أن كلفناهم الإقامة التي يتبرّك بيُمْن جِوارها، ويعمل على إيثارها، بخلاف ما نخاطب مقامكم بهذا الكتاب الذي مضمونُه[5] شفاعةٌ يضمن حباؤكم احتسابَهَا، ويَرْعَى انتماءَهَا إلى الخلوص وانتسابَهَا، ويعيدها قد أعملت الحظوة أثوابها، ونقصدكم ومثلكم مَنْ يُقْصد في المُهِمَّة، فأنتم المثل الذائع في عموم الحلم وعلّو الهمة، في أن تصدّروا له مكتوبًا مكمل الفصول، مقرّر الأصول، يُذهب الوَجَل، ويرفع الخجل، ويسوّغ من مآربه لديكم الأمل، ويخلص النيّة ويرتِّبُ العمل، حتى يظهر ما لنا عند أبوّتكم من تكميل المقاصد، جريًا على ما بذلتم من جميل العوائد، وإذا تحصّل ذلك كان بفضل اللَّه إيابه، وأناخت بعَقْوَة[6]

---

(١) مليٌّ: مليءٌ.

(٢) تسويغ الآمال: إجازة المطالب. لسان العرب (ساغ).

(٣) العارض: السحاب المعترض في الأفق. المنثال: الممطر مطرًا متتابعًا. لسان العرب (عرض) و (ثول).

(٤) لم ينشب: لم يلبث.

(٥) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢١٤): «مُضَمّنه».

(٦) العقوة: ساحة الدار. محيط المحيط (عقا).

وعدكم الوفي ركابه، ويحصل لمقامكم عزّه ومجده وثوابه، وأنتم مِمَّن يرعى أمور المجد حقَّ الرعاية، ويجري في معاملة اللّه تعالى على ما أسس من فضل[١] البداية، وتحقّق الظنون فيما لديه من المدافعة عن حَوْزَة الإسلام والحماية، هذا ما عندنا أعجلنا به الإعلام، وأعملنا فيه الأقلام، بعد أن أجهدنا الاختيار وتَنَخَّلنا[٢] الكلام، وجوابكم بالخير كفيل، ونَظَرُكم لنا وللمسلمين جميل، واللّه تعالى يصل سعدكم، ويحرس مجدكم، والسلام». انتهى.

قلت: هذه[٣] آفة مخالطة الملوك، فإنَّ مولاي الجدّ المذكور كان نزل عن القضاء وغيره، فلمّا أراد التخلّي إلى ربّه لم يتركه السلطان أبو عنان كما رأيت.

وقد ذكر لسان الدين رحمه اللّه تعالى في «الإحاطة» شيوخَ مولانا الجدّ، فلنذكرهم في جزء الجدّ الذي سمّاه «نظم اللآلي، في سلوك الأمالي» ومنه اختصر لسانُ الدين ما في «الإحاطة» في ترجمة مشيخته فنقول[٤]: قال مولاي الجدّ رحمه اللّه تعالى: فمن أخذتُ عنه، واستفدتُ منه، عَلمَاها ـ يعني تلمسان ـ الشامخان، وعالماها الراسخان: أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد اللّه بن الإمام[٥]، وكانا قد رحلا في شبابهما من بلدهما بَرِشْك[٦] إلى تونس فأخذا بها عن ابن جماعة وابن العطار واليفرني[٧] وتلك الحَلْبة، وأدركا المرجانيَّ وطبقته من أعجاز المائة السابعة، ثم وردا في أوّل المائة الثامنة تلمسان على أمير المسلمين أبي يعقوب وهو محاصر لها، وفقيهُ حضرته يومئذ أبو الحسن علي بن يخلف التنسي، وكان قد خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم يَعُدْ، وارتفع شأنه عند أبي يعقوب، حتى إنه شهد جنازته، ولم يشهد جنازة أحد قبله، وقام على قبره، وقال: نعم الصاحب فقدنا اليوم، حدّثني الحاج الشيخ بعباد تلمسان أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي أنَّ أبا يعقوب طلع إلى جنازة التنسي في

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢١٤): «فضله».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «وتنحّلنا» بالحاء المهملة. وتنخُّل الكلام: انتقاه. لسان العرب (نخل).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢١٥): «وهذه».

(٤) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١) والمقري ينقل بتصرّف.

(٥) ترجمة ابني محمد بن عبد اللّه ابن الإمام في التعريف بابن خلدون (ص ٢٨) والديباج المذهب (ص ١٥٢) ونيل الابتهاج (ص ١٣٩).

(٦) في نيل الابتهاج: «تلمسان».

(٧) في نيل الابتهاج: «والبطرني».

الخيل حوالي روضة الشيخ أبي مدين فقال: كيف تتركون الخيل تصل إلى ضريح الشيخ؟ هلاّ عرضتم هنالك. وأشار إلى حيث المعراض الآن. خشبة؟ ففعلنا، فلما قُتل أبو يعقوب وخرج المحصوران أنكرا ذلك، فأخبرتهما، فأما أبو زيان. وكان السلطان يومئذ. فنزل وطأطأ رأسه ودخل، وأما أبو حَمّو. وكان أميرًا. فوثب وخلّفها، ولـمّا رجع الملك إلى هذين الرجلين اختصّا ابني الإمام، وكان أبو حَمّو أشدَّ اعتناء بهما، ثم بعده ابنه أبو تاشفين، ثم زادت حُظْوَتهما عند أمير المسلمين أبي الحسن، إلى أن توفي أبو زيد في العشر الأوسط من رمضان عام أحد وأربعين وسبعمائة بعد وقعة طريف بأشهر، فزادت مرتبة أبي موسى عند السلطان، إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان في أوّل عام تسعة وأربعين، وكان أبو موسى قد صَدَر عنه قبل الوقعة، فتوجّه صحبةَ ابنه أمير المسلمين أبي عِنان إلى فاس، ثم ردّه إلى تِلِمْسَان، وقد استولى عليها عثمانُ بن عبد الرحمن بن يحيىٰ بن يغمراسن بن زَيَّان، فكان عنده إلى أن مات الفقيه عقب الطاعون العام. قال لي خطيب الحضرة الفاسية أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن عبد الله الرندي: لما أزمع الفقيهُ ومَنْ أطلق معه على القُفُول إلى تِلِمْسَان بتُّ على تشييعهم، فرأيتني كأني نظمت هذا البيت في المنام: [الطويل]

وعند وَدَاع القوم وَدَّعْتُ سَلْوتي وقلتُ لها بِينِي فأنتِ المودَّعُ

فانتبهتُ وهو في فِيَّ، فحاولت قريحتي بالزيادة عليه فلم يتيسّر لي مثله. ولـمّا استحكم ملك أبي تاشفين واستوثق رَحَل الفقيهان إلى المشرق في حدود العشرين وسبعمائة فلقيا علاء الدين القونوي، وكان بحيث إني لـمّا رحلت فلقيت أبا علي حسين بن حسين ببجاية قال لي: إن قدرت أن لا يفوتك شيء من كلام القونوي حتى تكتب جميعه فافْعَل، فإنه لا نظير له، ولقيا أيضًا جلال الدين القزويني صاحب البيان، وسمعا صحيحَ البخاري على الحجار، وقد سمعته أنا عليهما، وناظرا تقي الدين بن تيمية، وظهرا عليه، وكان ذلك من أسباب مِحْنَته، وكانت له مقالات فيما يذكر[1] وكان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين، حدّثني شيخي العلاّمة أبو عبد اللّه الأبلي أنَّ عبد اللّه بن إبراهيم الزموري أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه: [البسيط]

---

(١) في نيل الابتهاج: «وكانت للتقي المذكور مقالات شنيعة من حمل حديث التزول على ظاهره. .».

مُحَصَّلٌ في أصول الدين حاصله — من بَعْدِ تَحْصِيلِه علمٌ بلا دِينِ
أَصْلُ الضلالةِ والإفك المُبِينِ، فما — فيه فأكثرُهُ وَحْيُ الشياطينِ

قال: وكان في يده قضيب، فقال: واللّه لو رأيته لضربته بهذا القضيب هكذا، ثم رفعه ووضعه. وبحسبك مِمّا طار لهذين الرجلين من الصيت بالمشرق أني لمّا حللت بيت المقدس وعرف به مكاني من الطلب، وذلك أني قصدت قاضيَه شمسَ الدين بن سالم ليضع لي يده على رسم أستوجب به هنالك حقًّا، فلمّا أَطْلَلْتُ عليه عرّفه بي بعضُ مَنْ معه، فقام إليّ حتى جلست، ثم سألني بعضُ الطلبة بحضرته فقال لي: إنكم معشر المالكية تبيحون للشاميّ يمرّ بالمدينة أن يتعدّى ميقاتها إلى الجُحْفَة، وقد قال رسول اللّه[1]، ﷺ، بعد أن عيّن المواقيت لأهل الآفاق «هُنَّ لهن، ولمن مَرَّ عليهن من غير أهلهن» وهذا قد مَرَّ على ذي الحُلَيفة وليس من أهله فيكون له، فقلت له: إنَّ النبيَّ، ﷺ، قال «من غير أهلهن» أي من غير أهل المواقيت، وهذا سلبٌ كلّي، وإنه غير صادق على هذا الفرد، ضرورة صدق نقيضه وهو الإيجاب الجزئي عليه؛ لأنه من بعض أهل المواقيت قطعًا، فلمّا لم يتناوله النصُّ رَجَعنا إلى القياس، ولا شكَّ أنه لا يلزم أحدًا أن يحرم قبل ميقاته وهو يمرُّ به، لكن مَنْ ليس من أهل الجحفة لا يمرُّ بميقاته إذا مرَّ بالمدينة، فوجب عليه الإحرام من ميقاتها، بخلاف أهل الجحفة، فإنها بين أيديهم، وهم يمرّون عليها، فوقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك، فلمّا عرفت أتاني آتٍ من أهل المغرب فقال لي: تعلم أنَّ مكانك في نفوس أهل هذا البلد مكين، وقدرك عندهم رفيع، وأنا أعلم انقباضك[2] عن ابني الإمام، فإن سُئِلت فانتسب لهما، فقد سمعتَ منهما، وأخذتَ عنهما، ولا تظهر العدول عنهما إلى غيرهما فَتضَعَ من قدرك، فإنما أنت عند هؤلاء الناس خليفتهما ووارث علمهما وأن لا أحد[3] فوقهما: [الطويل]

وليس لما تَبْنِي يدُ اللّه هادمُ

وشهدت مجلسًا بين يدي السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حَمّو[4] ذكر فيه أبو زيد بن الإمام أنَّ ابن القاسم مُقَلِّد مقيّد النظر بأصول مالك، ونازعه أبو موسى عمران

---

(١) كلمة «اللّه» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢١٧).
(٢) في نيل الابتهاج: «أخذك».
(٣) في نيل الابتهاج: «وإنَّ الأمر فوقهما».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٥ ص ٢١٧): «حم».

بن موسى المشدّالي، وادَّعى أنه مطلق الاجتهاد، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه ويبلغه عنه لما ليس من قوله، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة، قال: فلو تقيد بمذهبه لم يخالفه لغيره، فاستظهر أبو زيد بنصّ لشرف الدين التلمساني مثّل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك والمزني إلى الشافعي، فقال عمران: هذا مثال، والمثال لا تلزم صحته، فصاح به أبو موسى ابن الإمام وقال لأبي عبد اللّه بن أبي عمرو: تكلّم، فقال: لا أعرف ما قال هذا الفقيه، الذي أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد الممثّل، فقال أبو موسى للسلطان: هذا كلام أصولي محقق، فقلت لهما وأنا يومئذ حديث السنّ: ما أنصفتما الرجل، فإن المُثُلَ[1] كما تؤخذ على جهة التحقيق كذلك تؤخذ على جهة[2] التقريب، ومن ثَمَّ جاء ما قاله هذا الشيخ، أعني ابن أبي عمرو، وكيف لا وهذا سيبويه يقول: وهذا مثال ولا يتكلّم به، فإذا صحَّ أنَّ المثال قد يكون تقريبًا فلا يلزم صحة المثال ولا فساد الممثّل لفساده، فهذان القولان من أصل واحد.

وشهدت مجلسًا آخر عند هذا السلطان قرىء فيه على أبي زيد بن الإمام حديثُ «لقّنوا موتاكم لا إلٰه إلاَّ اللّه» في صحيح مسلم، فقال له الأستاذ أبو إسحاق بن حكم السلوي: هذا الملقَّن مُختَضَر حقيقةً ميتٌ مجازًا، فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم، والأصل الحقيقة؟ فأجابه أبو زيد بجواب لم يُقْنِعه، وكنت قد قرأت على الأستاذ بعضَ «التنقيح» فقلت: زعم القرافي أنَّ المشتقّ إنما يكون حقيقة في الحال، مجازًا في الاستقبال، مختلفًا فيه في الماضي، إذا كان محكومًا به، أمّا إذا كان مُتَعلَّق الحكمِ كما هنا فهو حقيقة مطلقًا إجماعًا، وعلى هذا التقرير لا مجاز، فلا سؤال، لا يقال: إنه احتجّ على ذلك بما فيه نظر؛ لأنّا نقول: إنه نقل الإجماع، وهو أحد الأربعة التي لا يُطَالب مدّعيها بالدليل، كما ذكر أيضًا، بل نقول: إنه أساء حيث احتجَّ في موضع الوفاق، كما أساء اللخمي وغيره في الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها، بل هذا أشنع، لكونه ممّا علم من الدين بالضرورة، ثم إنّا لو سلّمنا نَفْيَ الإجماع فلنا أن نقول: إنّ ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التي يَعقبها الموت عادة؛ لأنَّ تلقينه قبل ذلك إن لم يدهش فقد يوحش، فهو تنبيه على وقت التلقين: أي لقّنوا مَنْ تحكمون بأنه ميت، أو نقول: إنما عَدَل عن الاحتضار لما فيه

---

(١) المُثُل، بالضم: جمع مثال.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢١٨): «طريق».

من الإبهام، ألاَ ترى اختلافَهم فيه: هل أُخذ من حضور الملائكة، أو حضور الأجل، أو حضور الجلاّس، ولا شكَّ أنَّ هذه حالة خفيّة يحتاج في نصبها دليلاً على الحكم إلى وصف ظاهر يضبطها، وهو ما ذكرناه، أو من حضور الموت، وهو أيضًا ممّا لا يعرف بنفسه، بل بالعلامات، فلمّا وجب اعتبارُها وجب كون تلك التسمية إشارة إليها، واللّه تعالى أعلم.

كان أبو زيد يقول فيما جاء من الأحاديث من معنى قول ابن أبي زيد «وإذا سلَّم الإمامُ فلا يثبت بعد سلامه ولينصرف»: إن ذلك بعد أن ينتظر بقدر ما يسلّم مَنْ خلفه، لئلاً يمر بين يَدَيْ أحد، وقد ارتفع عنه حكمه، فيكون كالداخل مع المسبوق، جمعًا بين الأدلة، قلت: وهذا من مُلَح الفقيه.

اعترض عند أبي زيدِ قول ابن الحاجب «ولبن الآدمي والمباح طاهر» بأنه إنما يقال في الآدمي لِبَان، فأجاب بالمنع، واحتجَّ بقول النبي، ﷺ، «اللبن للفَحْل» وأُجيب بأنَّ قوله ذلك لتشريكه المباح معه في الحكم؛ لأنَّ اللبان خاصّ به، وليس موضع تغليب؛ لأنَّ اللبان ليس بعاقل، ولا حجة على تغليب ما يختصّ بالعاقل.

تكلّم أبو زيد يومًا في مجلس تدريسه في الجلوس على الحرير، فاحتجَّ إبراهيم السلوي للمنع بقول أنس: «فقمت إلى حصيرٍ لنا قد اسودَّ من طول ما لُبِسَ» فمنع أبو زيد أن يكون إنما أراد باللباس الافتراشَ فحَسْبُ؛ لاحتمال أن يكون إنما أراد التغطية معه أو وحدها، وذكر حديثًا فيه تغطية الحصير، فقلت: كلا الأمرين يسمَّى لباسًا، قال اللّه عزَّ وجلَّ ﴿هُنَّ لباسٌ لَكُمْ وأنتمْ لباسٌ لهنَّ﴾[1] وفيه بحث.

كان أبو زيد يصحف قول الخونجي في الجمل والمقارنات التي يمكن اجتماعه معها فيقول «والمفارقات» ولعلّه في هذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعي لمّا قرأ عليه: [مجزوء الكامل]

وغَرَرْتَنِي وزَعَمْتَ أنك لابنٌ بالصيف تامِرْ

فقال: [مجزوء الكامل]

وغَرَرْتَنِي وزعمت أنك لابن بالضيف تامر

---

(١) سورة البقرة ٢، الآية ١٨٧.

فقال: أنت في تصحيفك أشعر من الحطيئة، أو كما حكي عمَّن صلَّى بالخليفة في رمضان ولم يكن يومئذ يحفظ القرآن، فكان ينظر في المصحف، فصحف آيات: صنعة اللَّه، أصيب بها من أساء، إنما المشركون نَخس، وعدها أَبَاه، تقية اللَّه خيرٌ لكم، هذا أن دعوا للرحمن ولدًا، لكلِّ امرىء منهم يومئذ شأن يَعْنيه.

سمعت أبا زيد يقول: إنَّ أبا العباس الغماري التونسي أول من أدخل «معالم» الإمام فخر الدين للمغرب، وبسبب ما قفل به من الفوائد رحل أبو القاسم بن زيتون.

وسمعته يقول: إنَّ ابن الحاجب[1] ألَّف كتابه الفقهي من ستين ديوانًا وحفظت من وِجادة أنه ذكر عند أبي عبد اللَّه بن قطرال المراكشي أنَّ ابن الحاجب اختصر «الجواهر» فقال: ذكر هذا لأبي عمرو حين فرغ منه فقال: بل ابنُ شاس اختصر كتابي، قال ابن قطرال: وهو أعلم بصناعة التأليف من ابن شاس، والإنصاف أنه لا يخرج عنه وعن ابن بشير إلاَّ في الشيء اليسير، فهما أصلاه ومعتمداه، ولا شكَّ أنَّ له زياداتٍ وتصرفاتٍ تنبىء عن رسوخ قدمه وبُعْد مَدَاه.

وكان[2] أبو زيد من العلماء الذين يَخْشون اللَّه؛ حدّثني أميرُ المؤمنين المتوكل بن عِنان أنَّ والده أمير المسلمين أبا الحسن نَدَب الناسَ إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد، فقال له أبو زيد: لا يصحّ لك هذا حتى تكنس بيت المال، وتصلّي ركعتين كما فعل علي بن أبي طالب، وسأله أبو الفضل بن أبي مدين الكاتب ذات يوم عن حاله، وهو قاعد ينتظر خروج السلطان، فقال له: أما الآن فأنا مُشرِك، فقال: أُعيذك من ذلك، فقال: لم أُرد الشرك في التوحيد، لكن في التعظيم والمراقبة، وإلاَّ فأي شيء جلوسي ههنا؟

والشيء بالشيء يُذكر، قمتُ ذات يوم على باب السلطان بمراكش فيمن ينتظر خروجه، فقام إلى جانبي شيخ من الطلبة، وأنشدني لأبي بكر بن خطاب[3] رحمه اللَّه تعالى: [الكامل]

---

(١) هو جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، فقيه مالكي، من كبار العلماء بالعربية. توفي بالإسكندرية سنة ٦٤٦ هـ. من مؤلفاته «مختصر الفقه» استخرجه من ستين كتابًا وهو في فقه المالكية، و «منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل» في أصول الفقه. وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ٢٤٨) وبغية الوعاة (ص ٣٢٣).

(٢) النص في نيل الابتهاج (ص ١٤٠).

(٣) هو عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب المرسي؛ كان له تقدّم في العلوم، وتميز بالمشاركة في=

أبصرتُ أبوابَ الملوكِ تَغَصُّ بال ... راجين إدراكَ العُلا والجاهِ

مترقّبين لها فمهما فُتِّحَتْ ... خرّوا لأذقانٍ لهم وجِبَاهِ[1]

فأنفتُ من ذاك الزحام وأشفقتْ ... نفسي على إنضاء جسمي الواهي[2]

ورأيتُ بابَ اللَّهِ ليس عليه من ... متزاحمٍ، فقصدْتُ بابَ اللَّه

وجعلْتُهُ من دونهمْ لي عُدَّةً ... وأنِفْتُ من غيِّي وطول سفاهي

يقول جامع هذا المؤلّف: رأيت بخطّ عالم الدنيا ابن مرزوق على هذا الحلّ من كلام مولاي الجدّ مقابل قوله «ورأيت باب اللَّه» ما صورته: قلت ذلك: لسعته أو لقلّة أهله: [البسيط]

إنَّ الكرامَ كثيرٌ في البلاد، وإن ... قلّوا، كما غيرهم قُلٌّ[3] وإن كَثُرُوا

﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الخبيثُ والطَّيِّبُ. الآية﴾[4]. انتهى.

رجع إلى كلام مولاي الجدّ. قال رحمه اللَّه تعالى ورضي عنه: وحدّثني شيخ من أهل تلمسان أنه كان عند أبي زيد مرة، فذكر القيامة وأهوالها، فبكى، فقلت: لا بأس علينا وأنتم أمامنا، فصاح صيحةً، واسودَّ وجهه، وكاد يتفجّر دمًا، فلمّا سُرِّي عنه[5] رفع يديه وطَرْفه إلى السماء، وقال: اللهمّ لا تفضحنا مع هذا الرجل، وأخباره كثيرة.

وأمّا شقيقه أبو موسى فسمعت عليه كتاب مسلم، واستفدت منه كثيرًا، فممّا سألته عنه قول ابن الحاجب في الاستلحاق «وإذا استلحق مجهول النسب» إلى قوله «أو الشرع بشهرة نسبه» كيف يصحّ هذا القسم مع فرضه مجهول النسب؟ فقال: يمكن أن يكون مجهول النسب في حال الاستلحاق، ثم يشتهر بعد ذلك، فيبطل الاستلحاق، فكأنه يقول: ألحقه ابتداء ودوامًا، ما لم يكذبه أحد، هذه هي إحدى الحالتين، إلاَّ أنّ هذا إنما يتصوّر

= المنثور والمنظوم. قُتل بمرسية سنة ٦٣٦ هـ. الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ١٤٤) والحلة السيراء (جـ ٢ ص ٣٠٨) والمغرب (جـ ٢ ص ٢٥٢) واختصار القدح المعلى (ص ١٤٦) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧٤) والتكملة (رقم ١٩٥٢) وصلة الصلة (ص ١٦٥).

(١) أخذه من قول اللَّه تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ للأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾. سورة الإسراء ١٧، الآية ١٠٩.

(٢) أنضى جسمه: أهزله. الواهي: الضعيف. لسان العرب (نضا) و (وهى).

(٣) القُلُّ، بالضم: القليل. محيط المحيط (قلل).

(٤) سورة المائدة ٥، الآية ١٠٠.

(٥) سُرِّي عنه: ذهب عنه. لسان العرب (سرى).

في الدوام فقط. ومِمَّا سألته عنه أنّ الموثقين يكتبون الصحة والجواز والطوع على ما يوهم القطع، وكثيرًا ما ينكشف الأمر بخلافه، ولو كتبوا مثلاً ظاهر الصحة والجواز والطوع لبرئوا من ذلك، فقال لي: لما كان مبنى الشهادة وأصلها العلم لم يجمل ذكر الظنّ ولا ما في معناه احتمال، فإذا أمكن العلم بمضمونها لم يجز أن يحمل على غيره، فإذا تعذّر كما هنا[1] بنيَ باطن أمرها على غاية ما يسعه فيه الإمكان عادةً، وأجري ظاهره على ما ينافي أصلها، صيانة لرونقها، ورعاية لما كان ينبغي أن تكون عليه لولا الضرورة. قلت: ولذلك عقد ابن فتوح وغيره من عقود الجوائح على ما يوهم العلم بالتقدير، مع أنّ ذلك إنما يدرك بما غايته الظنُّ في الحَزْر[2] والتخمين، وكانا معًا يذهبان إلى الاختيار وترك التقليد.

ومِمَّن أخذت عنه أيضًا حافظُها ومدرِّسُها ومُفْتيها أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدّالي[3]؛ صهر شيخ المدرسين أبي علي ناصر الدين[4] على ابنته، وكان قد فَرَّ من حصار بجاية، فنزل الجزائر، فبعث فيه أبو تاشفين، وأنزله من التقريب والإحسان بالمحلِّ الْمَكِين، فدرَّس بتِلِمْسَان الحديثَ والفقه والأصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض، وكان كثير الاتّساع في الفقه والجدل، مديد الباع فيما سواها مِمَّا ذكر، سألته عن قول ابن الحاجب في السهو «فإن أخال الإعراض فمبطل عمده» فقال: معناه فإن أخال غيره أنه معرض، فحذف المفعول لجوازه، وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامه ما في معناه من أنَّ وأنْ، قال اللّه العظيم ﴿الم، أَحَسِبَ النَاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾[5] قلت: وأقوى من هذا أن يكون المصدر هو المفعول الثاني، وحذف الثالث اختصارًا لدلالة المعنى عليه: أي فإن أخال الإعراض كائنًا، كما قالوا: خلت ذلك، وقد أعربت الآية بالوجهين، وهذا عندي أقرب، ومن هذا الباب ما يكتب به القضاة من قولهم «أعلم باستقلاله فلان» أي أعلم فلان مَنْ يقف عليه بأن الرسم مستقلّ، فحذفوا الأول، وصاغوا ما بعده المصدر.

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٢٣): «ها هنا».

(٢) الحَزْرُ: مصدر حزره إذا قدّره. لسان العرب (حزر).

(٣) في الإحاطة (ج ٢ ص ٢٠١): «المشذالي» بالذال المعجمة، وترجمة المشدّالي في نيل الابتهاج (ص ٢٠٨).

(٤) هو منصور بن أحمد بن عبد الحق، المتوفّى سنة ٧٣١ هـ. وترجمته في نيل الابتهاج (ص ٣٧٧) وعنوان الدراية (ص ١٣٤).

(٥) سورة العنكبوت ٢٩، الآيتان ١، ٢.

سئل عمران وأنا عنده عمّا صُبغ من الثياب بالدم فكانت حمرته منه، فقال: يُغسل، فإن لم يخرج شيء من ذلك في الماء فهو طاهر؛ لأنّ المتعلّق به على هذا التقدير ليس إلاّ لون النجاسة، وإذا عسر قَلْعه بالماء فهو عَفْو، وإلاّ وجب غسله إلى أن لا يخرج منه شيء، قلت: في البخاري قال معمر: رأيت الزهري يصلّي فيما صُبغ بالبول من ثياب اليمن، وتفسيره على ما ذكره عمران. وكان قد صاهر لقاضي الجماعة أبي عبد اللّٰه بن هربة على ابنته فلم تزل عنده إلى أن توفي عنها.

ومنهم مشكاة الأنوار، الذي يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسْه نار، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حكم السّلوي[1]، رحمه اللّٰه تعالى!. ورد تلمسان بعد العشرين، ثم لم يزل بها إلى أن قُتِل يوم دُخِلَتْ على بني عبد الواد، وذلك في الثامن والعشرين من شهر رمضان عام سبعة وثلاثين وسبعمائة.

قال لي الشيخ ابن مرزوق: ابتدأ أمر بني عبد الواد بقتلهم لأبي الحسن السعيد، وكان أسمر لأمّ ولد تسمّى العنبر، وختم بقتل أبي الحسن بن عثمان إياهم، وهو بصفته المذكورة حَذْوَك النعل بالنعل، فسبحان من دَقَّتْ حِكْمَتُه في كل شيء!.

ولما وقف الرفيقان أبو عبد اللّٰه محمد بن عمر بن رشيد الفهري ومحمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندي في رحلتهما على قبر السعيد بعباد تلمسان تناول ابن الحكيم فحمة ثم كتب بها على جدار هناك: [البسيط]

إن كنت مِمَّنْ بعين الفكر قد لَحَظَا ... أنظرْ ففيَّ إليكَ اليومَ مُعْتَبَرٌ
واليوم يُدْعَى سعيدًا مَنْ بيَ اتَّعَظَا ... بالأمس أُدعى سعيدًا، والورى خَوَلي[2]

قال ابن حكم: كان أول اتصالي بالأستاذ أبي عبد اللّٰه بن آجروم أني دخلت عليه وقد حفظت بعض كتاب «المفصل» فوجدت الطلبة يعربون بين يديه هذا البيت[3]: [الكامل]

عَهْدِي به الحيَّ الجميعَ وفيهمُ ... قبلَ التفرُّق مَيْسِرٌ ونِدَامُ[4]

---

(١) في الإحاطة (ج ٢ ص ٢٠١): «بن حكيم الكناني السلوي».
(٢) الخَوَلُ، بالفتح: الخَدَم. لسان العرب (خول).
(٣) البيت للبيد بن ربيعة العامري، وبيته في ديوانه (ص ١٦٠).
(٤) في الديوان: «الإنس الجميع». والنّدام: جمع نديم.

وقد عُمِّي عليهم خبر «عهدي» فقلت له: قد سدت الحال. وهي الجملة بعده. مسدّه، فقال لي بعض الطلبة: وهل يكون هذا في الجملة كما كان في قولك «ضربي زيدًا قائمًا»؟ فقلت له: نعم، قال رسول اللّه، ﷺ «أقربُ ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد».

ذكر أبو زيد بن الإمام يومًا في مجلسه أنه سُئل بالمشرق عن هاتين الشرطيتين ﴿ولو عَلِمَ اللَّهُ فيهم خيرًا لأَسْمَعُهُمْ، ولو أَسْمَعُهُمْ لَتَوَلَّوْا وهُم مُعْرِضُونَ ﴾[1] فإنهما تستلزمان[2] بحكم الإنتاج لو علم اللّه فيهم خيرًا لتولّوا، وهو محال، ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين، فقال ابن حكم: قال الخونجي: والإهمال بإطلاق لفظ لو وإنْ في المتصلة، فهاتان القضيّتان على هذا مهملتان، والمهملة في قوة الجزئية، ولا قياس عن جزئيتين. فلمّا اجتمعت ببجاية بأبي علي حسين بن حسين وأخبرته بهذا، وبما أجاب به الزمخشري وغيره، ممّا يرجع إلى انتفاء تكرر الوسط، قال لي: الجوابان في المعنى سواء؛ لأنَّ القياس على الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرر الوسط، فأخبرت بذلك شيخنا الآبلي، فقال: إنما يقوم القياس على الوسط، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين، ولا سالبتين، إلى سائر ما يشترط، فقلت: ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلاً لمجمل ما ينبني عليه من الوسط وغيره، وإلاّ فلا مانع غير ما قاله ابن حسين، قال الآبلي: وقد أجبت بجواب السلوي، ثم رجعت إلى ما قاله الناس لوجوب كون مهملات القرآن كلية؛ لأنّ الشرطية لا تنتج جزئية، فقلت: هذا فيما يساق منها للحجة، مثل ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[3] أما في مثل هذا فلا.

ولما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فرحون نزيل طيبة على تربتها السلام سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين: [الوافر]

رأتْ قَمَرَ السماء فَأَذْكَرَتْني ... ليالِيَ وصلِها بالرقمتينِ
كلانا ناظرٌ قَمَرًا ولكنْ ... رأيتُ بعينها ورأتْ بعيني

ففكّر ثم قال: لعلّ هذا الرجل كان ينظر إليها، وهي تنظر إلى قمر السماء، فهي تنظر إلى القمر حقيقة، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة، فقد رأى بعينها لأنها ناظرة

---

(1) سورة الأنفال ٨، الآية ٢٣.

(2) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٢٥): «يستلزمان».

(3) سورة الأنبياء ٢١، الآية ٢٢.

الحقيقة، وأيضًا فهو ينظر إلى قمر مجازًا، وهو لإفراط الاستحسان لها يرى أنَّ قمر السماء هو المجاز، فقد رأت بعينه؛ لأنها ناظرة المجاز.

قلت: ومن ههنا تعلم وجه الفاء في قوله «فأذكرتْني» لأنه لـمَّا صارت رؤيتها رؤيته، وصار القمر حقيقة إياها، كان قوله «رأت قمر السماء فأذكرتني» بمثابة قولك أذكرتني، فتأمّله فإنّ بعض مَنْ لا يفهم كلام الأستاذ حَقَّ الفهم ينشده «وأذكرتني» فالفاء في البيت الأوّل مَبْنية على معنى البيت الثاني؛ لأنها مبنية عليه، وهذا النحو يسمَّى الإيذان في علم البيان.

ولـمَّا اجتمعنا بأبي الوليد بن هانىء مَقْدَمه علينا من غَرْناطة سأل ابن حكم عن تكرار مَنْ في قوله تعالى ﴿سواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ القولَ ومَنْ جَهَرَ به ﴾[1] دون ما بعدها، فقال: لولا تكرّرها أوّلاً لتوهم التضاد بتوهّم اتحاد الزمان، فارتفع بتكرار الموضوع، أمّا الآخر فقد تكرّر الزمان، فارتفع توهّم التضادّ، فلم يحتج إلى زائد على ذلك، فقلت: فهلاّ اكتفى بسواء عن تكرار الموضوع؛ لأنَّ التسوية لا تقع إلاَّ بين أمرين، وإنما الجواب عندي أنها تكرّرت أوّلاً على الأصل لأنهما صنفان يستدعيها كلُّ واحد منهما أن تقع عليه، ثم اختصرت ثانيًا لفهم المراد من التفصيل بالأوّل مَعَ أمْنِ اللبس، وقد أجاب الزمخشري بغير هذين فانظره.

سألني ابنُ حكم المذكور عن نسب المجيب في هذا البيت: [الكامل]

ومُهَفهفِ الأعطافِ قلتُ له انتسبْ فأجابَ ما قَتْلُ المحبِّ حرامُ

ففكّرتُ ثم قلتُ: أراه تميميًا؛ لإلغائه «ما» النافية، فاستحسنه مني لصغر سنّي يومئذ.

تذاكرت يومًا مع ابن حكم في تكملة البدر بن محمد بن مالك «شرح التسهيل» لأبيه، ففضلت عليه كلام أبيه، ونازعني الأستاذ، فقلت: [الطويل]

عهود من الآبا توارثها الأبنا

فما رأيت بأسرع من أن قال: [الطويل]

بَنَوْا مَجْدَها لكنْ بنوهمْ لها أبْنَى

---

(١) سورة الرعد ١٣، الآية ١٠.

فبهتُ من العجب.

وتوفي الشيخُ ابنُ مالك سنة اثنتين وسبعين وستمائة، وفيها ولد شيخنا عبد المهيمن الحضرمي، فقيل: مات فيها إمام نحو، وولد فيها إمام نحو.

سألت ابنَ حكم عن قول فخر الدين في أوّل المحصل «وعندي أنَّ شيئًا منها غير مكتسب» بمعنى لا شيء ولا واحد، هل له أصل في العربية أو هو كما قيل مِنْ بقايا عجمته؟ فقال لي: بل له أصل، وقد حكى ابنُ مالك مثلَه عن العرب، فلم يتّفق أن أستوقفه عليه، ثم لم أزل أستكشف عنه كلَّ من أظنّ أنّ لديه شيئًا منه، فلم أجد مَنْ عنده أثارة منه[1]، حتى مرَّ بي في باب الأفعال الداخلة على المبتدإ والخبر الداخل عليها «كان» من «شرح التسهيل» قوله «فإن تقدّم على الاستفهام أحد المفعولين نحو «علمت زيدًا أبو مَنْ هو» اختير نصبه؛ لأنَّ الفعل مُسَلّط عليه بلا[2] مانع، ويجوز رفعه؛ لأنه والذي بعد الاستفهام شيء واحد في المعنى فكأنه في حيز الاستفهام، والاستفهام مشتمل عليه، وهو نظير قوله: إن أحد إلاَّ يقول ذلك، وأحد هذا لا يقع إلاَّ بعد نفي، ولكن لـمّا كان هنا والضمير المرفوع بالقول شيئًا واحدًا في المعنى تنزل منزلة واقع بعد نفي»، فعلمت أنه نحا إلى هذا؛ لأنَّ شيئًا ههنا والضمير المرفوع بمكتسب المنفي في المعنى شيء واحد، فكان شيئًا كأنه وقع بعد غير: أي بعد النفي.

سأل ابنُ فرحون ابنَ حكم: هل تجد في التنزيل ست فاءات مرتبة ترتيبها في هذا البيت: [البسيط]

رأى فحبَّ فَرَام الوَصْلَ فامتنعتْ فسامَ صَبْرًا فأَعْيا نَيْلُه فَقَضَى

ففكر ثم قال: ﴿فطافَ عليها طائفٌ مِنْ رَبِّكَ وهُمْ نائمونَ. إلى آخره ﴾ فمنعت[3] له البناء في (فتنادوا) فقال لابن فرحون: فهل عندك غيره؟ فقال: نعم ﴿فقال لهم رسولُ اللّه﴾ إلى آخر السورة[4] فمنع له بناء الآخرة لقراءة الواو، فقلت له: امنع ولا تسند فيقال لك: إنَّ المعاني قد تختلف باختلاف الحروف، وإن كان السند لا يسمع الكلام عليه، وأكثر ما

(١) الأثارة: البقيّة من العلم؛ وقوله: أثارة منه: أي شيء منه. محيط المحيط (أثر).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٢٨): «فلا مانع».

(٣) سورة القلم ٦٨، الآية ١٩.

(٤) سورة الشمس ٩١، الآية ١٣.

وجدت الفاء تنتهي في كلامهم إلى هذا العدد، سواء بهذا الشرط وبدونه، كقول نوح عليه السلام: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ . الآية ﴾[1] وكقول امرىء القيس [الطويل]: غشيتُ دِيارَ الحيِّ بالبَكَراتِ * البيتين[2] . لا يقال: فالجُبّ[3] سابع؛ لأنّا نقول: إنه عطف على «عاقل» المجرّد منها، ولعلّ حكمة الستة أنها أوّل الأعداد التامة، كما قيل في حكمة خلق السموات والأرض فيها، وشأن اللسان عجيب.

وقوله في هذا البيت «فحبٌّ» لغة قليلة جرى عليها مَحْبُوب كثيرًا، حتى استغني به عن مُحَبّ، فلا تكاد تجده إلاّ في قول عنترة[4]: [الكامل]

وَلَقَدْ نزلتِ فلا تظنّي غَيْرَه   منّي بمنزلةِ المُحَبِّ المُكْرَمِ

ونظيره مَحْسُوس من حَسّ والأكثر أحَسَّ ولا تكاد تجد مُحَسًّا، وهذا التوجيه أحسن من قول القرَافي في «شرح التنقيح»: أجروا[5] محْسُوسات مجرى معلومات؛ لأنَّ الحسَّ أحدُ طرق العلم.

سمعت ابن حكم يقول: بعث بعض أدباء فاس إلى صاحب له: [المجتث]

إبْعَثْ إليَّ بشيء   مَدَارُ فاسٍ عليهِ
وليس عندك شيء   مِمّا أُشيرُ إليه

فبعث إليه ببطة من مرّي[6]، يشير بذلك إلى الرياء.

---

(١) سورة يونس ١٠، الآية ٧١.

(٢) بيتا امرىء القيس هما:

غَشِيتُ ديارَ الحيِّ بالبَكَراتِ   فعارِمَةٍ فَبُرْقَةِ العِيرَاتِ
فَغَولٍ فَحِلِّيتٍ فَنَفْءٍ فَمَنْعِجٍ   إلى عاقلٍ فالجُبِّ ذي الأَمَراتِ

ديوان امرىء القيس (ص ٧٨).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٢٨): «فالحب» بالحاء المهملة.

(٤) البيت من معلقة عنترة. انظر المعلقات العشر (ص ١٩٢) طبعة دار الفكر اللبناني.

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٢٩): «إنهم أجروا..».

(٦) البطّة: إناء كالقارورة. محيط المحيط (بطط). والمرّي، بتشديد الراء: نوع من مستحضرات تتخذ في صنع الأطعمة، ويقال إنه مركب يصنع من الدقيق والملح والعسل والتمر وأشياء أخرى، ويقال هو نوع يعمل من السمك المالح واللحوم المالحة. ملحق المعاجم العربية لدوزي (مادة مري) وكتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين (ص ٨٢).

وحُدِّثت أنّ قاضيها أبا محمد عبد اللّه أحمد بن الملجوم حضر وليمة، وكان كثير البلغم، فوضع بين يديه صهره أبو العباس بن الأشقر غضارًا من اللون المطبوخ بالمرّي لمناسبته لمزاجه، فخاف أن يكون قد عرض له بالرياء.

وكان ابن الأشقر يذكر بالوقوع في الناس، فناوله القاضي غضار المقروض، فاستحسن الحاضرون فطنته.

ومنهم عالم الصلحاء، وصالح العلماء، وجليس التنزيل، وحليف البكاء والعويل، أبو محمد عبد اللّه بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصي[1]؛ خطيب جامع القصر الجديد، وجامع خطتي التحديث والتجويد، ويسمّيه أهل مكة البكّاء، ولما قدم أبو الحسن علي بن موسى البحيري سأل عنه، فقيل له: لو علم بك أتاك، فقال: أنا آتي من سمعت سيدي أبا زيد الهزميري يقول له لأول ما رآه ولم يكن يعرفه قبل ذلك: مرحبًا بالفتى الخاشع، أسمعنا من قراءتك الحسنة.

دخلت عليه بالفقيه أبي عبد اللّه السطي في أيام عيد، فقدم لنا طعامًا، فقلت: لو أكلت معنا، فرجونا بذلك ما يرفع من حديثِ «مَنْ أكل مع مغفور له غُفِرَ له» فتبسّم وقال لي: دخلت على سيدي أبي عبد اللّه الفاسي بالإسكندرية، فقدم طعامًا، فسألته عن هذا الحديث، فقال: وقع في نفسي منه شيء، فرأيت النبيّ، ﷺ، في المنام، فسألته عنه، فقال لي: لم أقله، وأرجو أن يكون كذلك.

وصافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد اللّه زيان بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصعيدي بمصافحته أبا العباس أحمد الملثم بمصافحته المعمر بمصافحته رسول اللّه، ﷺ.

وسمعته يتحدّث عن شيخه أبي محمد الدلاصي أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد، فكان يخصّه لدينه وعقله بالنداء باسمه، وإنما كان ينعق[2] بمماليكه: يا ساقي، يا طباخ، يا مزين، فنادى به ذات يوم: يا فرّاش، فظنّ ذلك لموجِدَةٍ عليه[3]، فلمّا لم يَرَ أثر

---

(١) ترجمة أبي محمد المجاصي في نيل الابتهاج (ص ١٢١).
(٢) يقال: نعق الغراب إذا صوّت، ونعق الراعي الغنم: صاح بها؛ وينعق بمماليكه: ينادي. لسان العرب (نعق).
(٣) المَوْجدة: الغضب. لسان العرب (وجد).

ذلك، وتصورت له به خلوة، سأله عن مخالفته لعادته معه، فقال: لا عليك، كنت حينئذ جُنُبًا، فكرهت ذكر رسول اللَّه، ﷺ، في تلك الحالة.

ومِمَّا نقلته من خطِّ المجاصي ثم قرأته عليه فحدّثني به قال: حدّثني القاضي أبو زكريا يحيىٰ بن محمد بن يحيىٰ بن أبي بكر بن عصفور قال: حدّثني جدّي يحيىٰ المذكور، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن التجيبي المقرىء[1] بتلمسان، حدّثنا الحافظ أبو محمد - يعني واللَّه أعلم عبد الحق الإشبيلي - أخبرنا أبو غالب أحمد بن الحسن المستعمل، أخبرنا أبو الفتوح عبد الغافر بن الحسين بن أبي الحسن بن خلف الألمعي، أخبرنا أبو نصر أحمد بن إسحاق النيسابوري، أملى علينا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، أخبرنا محمد بن علي بن الحسين العلوي، أخبرنا عبد اللَّه بن إسحاق اللغوي وأنا سألته، أخبرنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، أخبرنا عبد اللَّه بن نافع بن عيسى بن يونس عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد اللَّه بن مسعود، قال: قال رسول اللَّه، ﷺ: قال لي جبريل: أَلاَ أُعلمك الكلمات التي قالهنّ موسى حين انفلق له البحر؟ قلت: بلى، قال قُلْ: اللهمّ لك الحمد، وإليك المشتكى، وبك المُسْتَغَاثُ، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلاَّ باللَّه، قال ابن مسعود: فما تركتهنّ منذ سمعتهنّ من رسول اللَّه، ﷺ، ثم تسلسل الحديث على ذلك، كل أحد من رجاله يقول: ما تركتهنّ منذ سمعتهنّ من فلان، لشيخه، وقد سمعت المجاصي يكرّرها كثيرًا، وما تركتهنّ منذ سمعتهنّ منه.

وأنشدني المجاصي قال: أنشدني نجم الدين الواسطي، أنشدني شرف الدين الدمياطي، أنشدني تاج الدين الأرموي مؤلف «الحاصل»، قال: أنشدني الإمام فخر الدين لنفسه[2]: [الطويل]

نهايةُ إقدام العُقُولِ عِقَالُ ... وأكثرُ سَعْيِ العالمين ضلالُ

وأرواحنا في وحشةٍ[3] من جسومنا ... وحاصلُ دنيانا أذًى ووَبَالُ

---

(1) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٣٠): «المقري».

(2) هو فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن البكري الطبرستاني الأصل الرازي المولد؛ إمام مفسّر، وطبيب، وأديب وشاعر. توفي سنة ٦٠٦ هـ. ترجمته في وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٢٤٨) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٦٢) والبداية والنهاية (جـ ١٣ ص ٥٥). وأبياته في وفيات الأعيان (ص ٢٥٠) وعيون الأنباء (ص ٤٦٨). وفي البداية والنهاية (ص ٥٦) فقط البيتان الثاني والثالث.

(3) في عيون الأنباء: «في عقلة».

ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من رجالٍ قد رأينا ودولة[1] فبادوا جميعًا مُسْرعين وزالوا
وكم من جبال قد عَلَتْ شُرُفَاتِها رجالٌ فماتوا[2] والجبالُ جبال

وتوفي المجاصي في العشر الأخير من شهر ربيع الأول، عام أحد وأربعين وستمائة.

ومنهم الشيخ الشريف القاضي الرحلة المعمر أبو علي حسن بن يوسف بن يحيىٰ الحسيني السبتي.

أدرك أبا الحسين بن أبي الربيع وأبا القاسم العزفي[3]، واختصّ بابن عبيدة وابن الشاط، ثم رحل إلى المشرق فلقي ابن دقيق العيد وحَلْبَته، ثم قفل فاستوطن تلمسان إلى أن مات بها سنة أربع وخمسين، أو ثلاث وخمسين وسبعمائة، قرأ علينا حديث الرحمة وهو أول حديث سمعته منه، حدّثنا الحسن بن علي بن عيسى بن الحسن اللخمي، وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا علي بن المظفر بن القاسم الدمشقي، وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو الفرج محمد بن عبد الرحمن بن أبي العز الواسطي، وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو العز عبد المغيث بن زهير، وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا زاهر بن طاهر بن محمد الشحامي، وهو أول حديث سمعته منه (ح). قال الحسن بن علي: وحدّثنا أيضًا عاليًا الحسنُ بن محمد البكري، وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو الفتوح محمد بن محمد بن محمد بن الجنيد الصوفي، وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا زاهر بن طاهر، وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي الفضائل عبد الوهاب بن صالح، عُرف بابن المغرم إمام جامع همذان بها، وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو منصور عبد الكريم بن محمد بن حامد المعروف بابن الخيام، وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك، وهو أول حديث سمعته منه، حفظًا، أخبرنا أبو الطاهر محمد بن محمد بن مخمش الزيادي، وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن يحيىٰ بن هلال البزار، وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم، وهو أول حديث سمعته

---

(١) في وفيات الأعيان وعيون الأنباء: «وكم قد رأينا من رجال ودولة».
(٢) في المصدرين السابقين: «فزالوا».
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٣٢): «الغرقي».

منه، أخبرنا سفيان بن عُيَيْنة، وهو أول حديث سمعته منه، عن عمرو بن دينار، عن أبي قابوس مَوْلَى لعبد اللَّه بن عمرو بن العاص، عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، أنَّ رسول اللَّه، ﷺ، قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء».

(ح) وحدثني الشريف أيضًا كذلك بطريقه عن السِّلفي بأحاديثه المشهورة فيه، وهذا الحديث أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. قال لي الشريف: قال لي القاضي أبو العباس الرندي: لمَّا قدم أبو العباس بن الغماز[1] من بلنسية نزل بجاية، فجلس بها في الشهود مع عبد الحق بن ربيع[2]، فجاء عبد الحق يومًا وعليه برنس أبيض، وقد حسنت شارته وكملت هيأته، فلمّا نظر إليه ابن الغماز أنشده: [الخفيف]

لَبِسَ البُرْنُسَ الفقيهُ فباهى ... ورأى أنه المليحُ فَتَاهَا[3]

لو زلَيْخا رأته حين تَبَدَّى ... لتمنَّتْهُ أن يكونَ فتاها

وبه أنَّ ابن الغماز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزيتونة، فنزل الشهود من المئذنة وأخبروا أنهم لم يُهِلُّوه[4]، وجاء حفيد له صغير، فأخبره أنه أهَلَّه، فردّهم معه، فأراهم إياه، فقال: ما أشبه الليلة بالبارحة.

وقع لنا مثل هذا مع أبي الربيع بن سالم، فأنشدنا فيه: [الطويل]

توارى هلال الأُفْق عن أعْيُن الورى ... وأرخى حجاب الغَيْم دون مُحَيَّاهُ

فلمَّا تصدّى لارتقاب شقيقِهِ ... تَبَدَّى له دون الأنامِ فحيَّاهُ

سمعت الشريف يقول: أول زجل عُمل في الدنيا:

بالله يا طيز مدلَّلْ ... مُرَبِّي وسطَ القِفارِ

إياك تجَدّدْ لعاده ... ترمي حجيرة في داري

---

(1) هو أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز الأنصاري؛ ولي قضاء بجاية، وتوفي بتونس سنة ٦٩٣ هـ. عنوان الدراية (ص ٧٠).

(2) لعبد الحق بن ربيع ترجمة ضافية في عنوان الدراية (ص ٣٢ ـ ٣٦).

(3) تاها: فعل ماض من التيه، والألف للإطلاق، وأصل القول: تاه.

(4) يهلُّوه: يروه. لسان العرب (هلل).

ومنهم قاضي جماعتها، وكاتب خلافتها، وخطيب جامعها، أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي[1]؛ من ولد عقبة بن نافع الفِهْرِي، نزلها سلفه قديمًا، وخَلَفُه بها إلى الآن، توفي في أواسط سنة خمس وثلاثين وسبعمائة[2]، وشهد جنازته سلطانها يومئذ أبو تاشفين، وولى ابنه أبا علي منصورًا مكانه يومئذ، ولمَّا ثقل لسانه دعا ابنه هذا فقال له: اكتب هذين البيتين فإني نظمتهما على هذه الحالة، فكتب: [الطويل]

إلٰهي مضتْ للعمرِ سبعون حجّةً ... جنيتُ لها لمَّا جنيتُ الدواهيا[3]

وعبدكَ قد أمسى عليك ذنوبه ... فجدْ لِي برُحْمَىٰ منك، نِعْمَ الدَّوَا هيا

ولـمَّا ورد الأديب أبو عبد اللَّه محمد بن محمد المَكُودي[4] من المغرب رفع إليه قصيدة أولها: [الطويل]

سَرَتْ والدجى لم يَبْقَ إلاّ يسيرها ... نسيمُ صَبًا يحيي القلوبَ مَسِيْرُها

وفيها الأبيات العجاب التي سارت سير الأمثال، وهي قوله:

وفي الكِلَّة الحمراء حَمْرَاءُ لو بَدَتْ ... لشَكْلَى لولَّى ثُكلُها وثُبُورُها

فما يستوي مَثْوًى لها مَنْ سوى القنا ... خيام، ومَنْ بيضُ الصفاح ستورها

وما بسوى صدقِ الغرامِ أرومها ... ولا بسوى زَوْرِ الخيال أزورها

فأحسن إليه، وكلّم السلطان حتى أرسل جِرَايته عليه، وقد شهدت المكودي وهذه القصيدة تُقرأ عليه.

ومنهم القاضي أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي؛ أدرك ابن زيتون، وأخذ عن أبي الطاهر بن سرور وحَلْبته، وعنه أخذت شرح المعالم له، وولي القضاء بتلمسان مرات، فلم تستفزّه الدنيا، ولا باع الفقر بالغنى.

ومنهم أبو عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه بن عبد النور[5]؛ قاضي الجماعة بعد ابن أبي

---

(١) ترجمة ابن هدية القرشي في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٣٤ ـ ١٣٥).

(٢) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٣٥): «وتوفي صدر سنة ٧٣٦».

(٣) الدواهي: جمع داهية.

(٤) ترجمة أبي عبد اللَّه المكودي في الإحاطة (ج ٣ ص ١٧ ـ ١٩).

(٥) ترجمة أبي عبد اللَّه بن عبد النور في التعريف بابن خلدون (ص ٤٦) وجذوة الاقتباس (ص ١٩٠) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٠).

عمرو، وكانت له رحلة إلى المشرق، لقي بها جلال الدين القَزْويني وحَلْبته، وتوفي بتونس في الوباء العام في حدود الخمسين وسبعمائة.

ومنهم الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن الحسين البرّوني[1]؛ قدم عليها من الأندلس، فأقام إلى أن مات. سمعته يقول: البقر العدوية[2] كالإبل المهملة في الصحراء، لا يجوز أن تباع بالنظر إليها، لكن بعد أن تمسك ويستولى عليها.

ومنهم أبو عمران موسى المصمودي، الشهير بالبخاري؛ سمعت البرّوني يقول: كان الشيخ أبو عمران يدرِّس[3] صحيح البخاري، ورفيق له يدرِّس صحيح مسلم، فكانا[4] يُعْرفان بالبخاري ومسلم، فشهدا عند قاضٍ، فطلب المشهودُ عليه الإعذار[5] فيهما، فقال له أبو عمران: أتمكّنه من الإعذار في الصحيحين[6]؟ فضحك القاضي، وأصلح بين الخصمين.

سألته عَمَّا ضربه ابن هدية عليه من إباحة الاستياك في رمضان بقشر الجوز، فقال لي: نعم، ويبلع ريقه، تأول رحمه اللّه تعالى، أنَّ الخصال المذكورة في السواك إنما تجتمع في الجوز، فكان يحمل كلّ ما روى فيه عليه، وهذا غلط فاحش؛ لأنَّ العرب لا تكاد تعرفه، ونظر إلى ما في البخاري من قوله بعد أن ذكر جواز السواك للصائم «ولا بأس أن يبتلع ريقه» يعني الصائم في الجملة، فحمله على المستاك بالجوز، وكان رحمه اللّه تعالى قليل الإصابة في الفتيا، كثير المصائب[7] عليها.

ومنهم نادرة الأعصار: أبو عبد اللّه محمد بن يحيى بن علي بن النجار[8]؛ قال لي العلامة الآبلي: ما قرأ أحد عليّ حتى قلت له: لم أُبْقِ عندي ما أقول لك غير ابن النجار.

---

(١) في الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٠١): «محمد بن الحسن البرّوني». وترجمة البروني في نيل الابتهاج (ص ٢٢٨).

(٢) لعله يريد البقر الوحشية.

(٣) في الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٠١): «يدرّس البخاري».

(٤) في الإحاطة: «وكانا».

(٥) في الإحاطة: «بالإعذار».

(٦) في الإحاطة: «الصحيحين؛ البخاري ومسلم، فضحك..».

(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٣٦): «المصيبات».

(٨) ترجمة ابن النجار في التعريف بابن خلدون (ص ٤٧) ونيل الابتهاج (ص ٢٣٩) وجذوة الاقتباس (ص ١٩٠).

سمعت ابن النجار يقول: مر عمل الموقِّتين على تساوي فضلتي ما بين المغرب والعشاء والفجر والشمس، فيؤذنون بالعشاء لذهاب ثماني عشرة درجة، وبالفجر لبقائها، والجاري على مذهب مالك أن الشفق الحمرة، وأن تكون فضلة ما بين العشاءين أقصر؛ لأنَّ الحمرة ثانية الغوارب والطوالع، فتزيد فضلة الفجر بمقدار ما بين ابتداء طلوع الحمرة والشمس، فعرضت كلامه هذا على المزوار أبي عبد الرحمن بن سليمان اللجائي، فصوَّبه[1].

وذكرت[2] يومًا حكاية ابن رشد الاتفاقَ في الخمر إذا تخلّلت بنفسها أنها تطهر، واعترضته بما في «الإكمال» عن ابن وضاح أنها لا تطهر، فقال لي: لا معتبر بقول ابن وضاح هذا؛ لأنه يلزم عليه تحريم الخلّ؛ لأن العنب لا يصير خلاً حتى يكون خمرًا، وفيه بحث.

وذكرت يومًا قول ابن الحاجب فيما يحرم من النساء بالقرابة «وهي أصول وفصول، وفصول أول أصوله، وأول فصل من كلّ أصل وإن علا» فقال: إن تركَّبَ لفظُ التسمية[3] العرفية من الطرفين حلّت، وإلاّ حرمت، فتأمّلته فوجدته كما قال؛ لأنّ أقسام هذا الضابط أربعة: التركب من الطرفين كابن العم وابنة العم مقابله كالأب والبنت، التركب من قِبَلِ الرجل كابنة الأخ والعمّ مقابله كابن الأخت[4] والخالة.

وأنشدت يومًا عنده على زيادة اللام[5]: [الرجز]

عَدَ أُمَّ العَمْرِ[6] من أسيرها

البيت[7]، فقال لي: وما يدريك أنه أراد العَمْرَ الذي أراده المعري بقوله[8]: [البسيط]

---

(١) صَوَّبه: قال إنه صواب.

(٢) نيل الابتهاج (ص ٢٣٩).

(٣) في نيل الابتهاج: «بقضيّة النسبة».

(٤) في نيل الابتهاج: «كابن الأخ».

(٥) صدر هذا البيت هو حرّاس أبواب على قصورها.

(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٣٦): «العمرو». وقوله: «أم العَمْر» بإدخال اللام، قد يعني: ذات القرط.

(٧) كلمة «البيت» ساقطة من طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٣٧).

(٨) البيت في شروح سقط الزند (ص ١٦٢٦).

وعَمْر هِنْدٍ كأنَّ اللّه صَوَّرَهُ   عَمْرُو بن هند يُعَنِّي الناسَ تعنيتا[1]

وأضاف اللام إليه كما قالوا: أم الحليس، قلت: ولا يندفع هذا بثبوت كون المغنية تكنى أم عمرو؛ لأنّ ذلك لا يمنع إرادة المعنى الآخر، فتكون: أم عمرو، وأم العمر.

قال ابن النجار: بعثت بهذه الأبيات من نظمي إلى القاضي أبي عبد اللّه بن هدية فأخرج لغزها: [المنسرح]

إنَّ حروف اسم مَنْ كلفتُ به   خَفَّتْ على كُلِّ ناطقٍ بِفَمِ
سائغةٌ سَهْلَةٌ مَخَارِجُها   من أجل هذا تَزْدَادُ في الكَلِمِ
صَحِّفْهُ ثم اقلبَنْ مُصَحَّفَهُ   فِعْلَ ذكيّ مُهَذَّبٍ فَهِمِ
واطلبْهُ في الشعر جدَّ مطلبه   تجدْه كالصبح لاحَ في الظُّلَمِ
فإنْ تأمَّلْتَ بِتَّ منه على   علمٍ، وإلاَّ فأنتَ عنه عَمِي

واللغز «سلمان» وموضعه تأمّلت بت، وتوفي رحمه اللّه تعالى بتونس أيام الوباء العام.

ومنهم الأستاذ المقرىء الراوية الرحلة أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سبع بن مزاحم المكناسي؛ ورد علينا من المشرق، فأقام معنا أعوامًا، ثم رحل إلى فاس، فتوفي بها في الوباء العام، جمعت عليه السبع، وقرأت عليه البخاري والشاطبيتين وغير ذلك، فأمّا البخاري فحدّثني به قراءةً منه على أحمد بن الشحنة الحجار سنة ثلاثين وسبعمائة، وكان الحجار قد سمعه على ابن الزبيدي سنة ثلاثين وستمائة، وهذا ما لا يُعرف له نظير في الإسلام، وقد قال عبد الغني الحافظ: لا نعرف في الإسلام مَنْ وازاه غير[2] عبد اللّه بن محمد البغوي في قدم السماع، فإنه توفي سنة سبع عشرة وثلثمائة، قال ابن خلاد: سمعناه يقول: أخبرنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني سنة خمس وعشرين ومائتين، وسمعه ابن الزبيدي على أبي الوقت بسنده، قال لي ابن مزاحم: هذا طريق كلّه سماع. وأمّا الشاطبيتان فحدّثني بهما قراءةً عليه لجميعهما عن بَدْر الدين بن جماعة، بقراءتهما عليه عن أبي الفضل هبة اللّه بن الأزرق، بقراءتهما عليه عن المؤلّف كذلك، وحدّثني بتسهيل الفوائد عن ابن جماعة عن المؤلف ابن مالك، وغير ذلك.

---

(١) عمر هند: يعني قرط هند. وعمرو بن هند: هو أحد ملوك الحيرة، وكان يعرف بالعنف.
(٢) كلمة «غير» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٣٧).

ومِمَّنْ ورد عليها لا يريد الإقامة بها شيخي وبركتي وقُدْوَتي أبو عبد اللّه محمد بن حسين القرشي الزبيدي التونسي[1].

حدّثني بالصحيحين قراءة لبعضهما ومُناولة[2] لجميعهما، عن أبي اليمن بن عساكر، لقيه بمكة سنة إحدى وثمانين وستمائة بسنده المشهور، وحدّثني أيضًا أنّ أبا منصور العجمي حدّثه بمحضر الشيخين والده حسين وعمّه حسن وأثنى عليه دينًا وفضلاً، أنه أُدخل ببعض بلاد المشرق على المُعَمَّر، أدخله عليه بعض ولد ولده، فألفاه ملفوفًا في قطن، وسمع له دويًا كدويّ النحل، فقيل له: أَلَقَيْتَ رسول اللّه، ﷺ، ورأيته؟ قال: نعم، قلت: ليس في هذا ما يُسْتَرَاب منه إلاّ الشيخ المعمَّر، فإنّا لا نعرف حاله، فإن صحّ فحديثنا عنه ثلاثي، وقد تركت سنة خمس وأربعين بمصر رجلاً يسمّى بعثمان معه تسعون حديثًا يزعم أنه سمعها من المعمَّر وقد أخذت عنه، وكتبت منه، فهذا ثُنَائي، وأمر المعمَّر غريب، والنفس أميل إلى نفيه.

ومنهم إمام الحديث والعربية، وكاتب الخلافة العثمانية والعلوية[3]، أبو محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي السبتي[4].

جمع فأوعى، واستوعب أكثر المشاهير وما سعى، فهو المقيم الظاعن، الضارب القاطن، سألني عن الفرق بين علم الجنس واسم الجنس، فقلت له: زعم الخسروشاهي أنه ليس بالديار المصرية مَنْ يعرفه غيره، وأنا أقول: ليس في الدنيا عالم إلاّ وهو يعلمه غيره؛ لأنه حكم لفظي أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعَدْل عُمَرَ ونحوه، فاستحسن ذلك.

وكان ينكر إضافة الحَوْل إلى اللّه عزّ وجلّ، فلا يجيز أن يقال «بحول اللّه وقوته»

---

(١) ترجمة أبي عبد اللّه محمد بن حسين الزبيدي في التعريف بابن خلدون (ص ١٤). وورد ذكره في رحلة ابن بطوطة (ص ١٦، ١٧).

(٢) المناولة: ضرب من ضروب الرواية، كأن يناول الشيخ كتاب سماعه إلى تلميذه ويأذن له بروايته عنه.

(٣) العثمانية: نسبة إلى عثمان بن يعقوب المريني، والعلوية: نسبة إلى أبي الحسن علي المريني.

(٤) ترجمة عبد المهيمن بن محمد الحضرمي في الإحاطة (جـ ٤ ص ١١) وجذوة الاقتباس (ص ٢٧٩) والتعريف بابن خلدون (ص ٢٠، ٣٨) ومستودع العلامة ومستبدع العلاّمة (ص ٥٠) والعبر (م ٧ ص ٥١٦). وسيترجم له المقري ترجمة ضافية في الجزء الثامن.

قال: لأنه لم يَرِدْ إطلاقه[1]، والمعنى يقتضي امتناعه؛ لأنَّ الحَوْل كالحيلة أو قريب منها.

وتوفي بتونس أيام الوباء العام[2].

ومنهم الفقيه المحقق الفَرَضي المدقق أبو عبد اللّه محمد بن سليمان بن علي السطي[3].

قرأت عليه كتاب الحوفي علمًا وعملاً، قال لي في قول ابن الحاجب «والثمن والثلث والسدس من أربعة وعشرين»: هذا لا يصحّ؛ إذ لا يجتمع الثلث والثمن في فريضة، وقد سبقه إلى هذا الوهم صاحبُ المقدمات، وسألت عنه ابن النجار[4] فقال لي: إنما أراد المقام؛ لأنه يجتمع مع الثلثين، والإنصاف أنه لا يَحْسُن التعبير بما لا تصحّ إرادة نفسه عن غيره، فكان الوجه أن يقول: والثلثان، أو ومقام الثلث، أو نحو[5] ذلك؛ لأنّ الثلث إنما يدخل هنا تقديرًا لا تحقيقًا كما في الجواهر، وانظر باب المدبر من كتاب الحوفي، فإنَّ فيه موافقة السبعة لعدد لا توافقه فهو من باب الفرض، وعليه ينبغي أن يحمل كلام ابن الحاجب.

ومنهم الأستاذ أبو عبد اللّه الرندي، والقاضي أبو عبد اللّه محمد بن علي بن عبد الرزاق الجزولي[6]، والقاضي أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي يحيى، في كثير من الخلق، فلنضرب عن هذا.

ومن شيوخي الصلحاء الذين لقيت بها خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط[7]، أدرك أبا إسحاق الطيار، وقد صافحْتُه وأنا صغير؛ لأنه توفي سنة تسع وعشرين، بمصافحته أباه، بمصافحته الشيخ أبا تميم، بمصافحته أبا مدين، بمصافحته أبا الحسن بن حرزهم، بمصافحته ابن العربي، بمصافحته الغزالي، بمصافحته أبا المعالي،

---

(١) إطلاق الأسماء على اللّه سبحانه وتعالى مختلف فيه بين العلماء.

(٢) في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٨) أنه توفي بتونس في الثاني عشر من عام ٧٤٩ هـ في وقيعة الطاعون العام.

(٣) ترجمة أبي عبد اللّه السطي في التعريف بابن خلدون (ص ٣١، ٣٨) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٢) وجذوة الاقتباس (ص ١٤٢). والسطي: نسبة إلى سطة وهي من بطون أوربة بنواحي فاس.

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٣٩): «ابن الأبار».

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٤١): «ونحو ذلك».

(٦) ترجمة ابن عبد الرزاق الجزولي في نيل الابتهاج (ص ٢٤٩) وسلوة الأنفاس (جـ ٣ ص ٢٧٦).

(٧) أنظر الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٠١).

بمصافحته أبا طالب المكي، بمصافحته أبا محمد الجريري، بمصافحته الجُنَيْد، بمصافحته سريًا، بمصافحته معروفًا، بمصافحته داود الطائي، بمصافحته حبيبًا العجمي، بمصافحته الحسن البصري، بمصافحته علي بن أبي طالب، بمصافحته رسول اللّه، ﷺ.

ومنهم خطيبها المصقع أبو عبد اللّه محمد بن علي بن الجمال، أدرك محمد بن رشيد البغدادي[١] صاحب الزهر والوتريات على حروف المعجم والمذهبة وغيرها، حدثني عنه أنه تاب بين يديه لأول مجلس جلسه بتلمسان[٢] سبعون رجلاً.

ومنهم الشقيقان الحاجّان الفاضلان أبو عبد اللّه محمد، وأبو العباس أحمد[٣]، ابنا ولي اللّه أبي عبد اللّه محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي.

كساني محمد خرقة التصوّف بيده، كما كساه إيّاها الشيخ بلال بن عبد اللّه الحبشي خادم الشيخ أبي مدين، كما كساه أبو مدين؛ قال محمد بن مرزوق: وكان مولد بلال سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وخدم أبا مدين نحوًا من خمسة عشر عامًا، إلى أن توفي في عام تسعين[٤] وخمسمائة، ثم عاش بعده أكثر من مائة سنة، ولبس أبو مدين من يد ابن حرزهم، ولبس ابن حرزهم من يد ابن العربي، واتصل اللباس اتصال المصافحة.

ومنهم أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن علي الصنهاجي المكتب، حدّثنا عن قاضيها أبي زيد عبد الرحمن بن علي الدكالي أنه اختصم عنده رجلان في شاة ادّعى أحدهما أنه أودعها الآخر، وادّعى الآخر أنها ضاعت منه، فأوجب اليمين على المودع عنده، أنها ضاعت من غير تضييع، فقال: كيف أضيع وقد شغلتني حراستها عن الصلاة حتى خرج وقتها؟ فحكم عليه بالغرم، فقيل له في ذلك، فقال: تأوّلت قول عمر «ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع».

---

(١) هو مجد الدين المعروف بالوتري؛ لأنه نظم الوتريات وهي قصائد على حروف المعجم، وكل قصيدة مؤلفة من ٢١ بيتًا في مدح النبي ﷺ. توفي سنة ٦٦٢ هـ.

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٤٠): «بتلمان».

(٣) أورد التنبكتي اسم أبي عبد اللّه محمد واسم أبي العباس أحمد في كتابه نيل الابتهاج (ص ٢٥١) وقال: أبو العباس أحمد بن مرزوق هو والد الخطيب ابن مرزوق الجدّ، وأبو عبد اللّه محمد بن مرزوق عمّه.

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٨ ص ٢٤٠): «تسعون».

ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن الغزموني[1]؛ مكتبي الأول، ووسيلتي إلى اللّه عزَّ وجلَّ، قرأ على الشيخين أبي عبد اللّه القصري وأبي حريث، وحجّ حجّات، وكان عقد بقلبه أنه كلّما ملك مائة دينار عيونًا سافر إلى الحجّ، وكان بصيرًا بتعبير[2] الرؤيا، فمن عجائب شأنه فيه[3] أنه كان في سجن أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فيمن كان فيه من أهل تِلِمْسَان أيامَ محاصرته لها، فرأى أبو جمعة بن علي التلالسي[4] الجرائحي منهم كأنه قائم على ساقية[5] دائرة وجميعُ قواديسها[6] يصب في نقير في وسطها، فجاء ليشرب، فلمّا اغترف الماء إذا فيه فَرْثٌ ودم فأرسله، ثم اغترف فإذا هو كذلك، ثلاثًا أو أكثر، فعدل عنه، فرأى خصة[7] ماء وشرب منها، ثم استيقظ وهو النهار، فأخبره، وقال: إن صدقت رؤياك فنحن عمّا قليل خارجون من هذا المكان، قال: كيف؟ قال: الساقية[8] الزمان، والنقير السلطان، وأنت جرائحي تدخل يدك في جوفه فينالها الفرثُ والدم، وهذا ما لا تحتاج معه، فلم يكن إلاّ ضحوة النهار[9]، وإذا النداء عليه، فأخرج فوجد السلطان مطعونًا بخنجر، فأدخل يده فنالها الفرث والدم، فخاط جراحته، ثم خرج، فرأى خصة[7] ماء، فغسل يديه وشرب، ثم لم يلبث السلطان أن توفي، وسُرِّحُوا.

وتعداد أهل هذه الصفة يكثر، فلنصفح عنهم، ولنختم فصل من لقيته بتلمسان بذكر رجلين هما بقيد الحياة أحدهما عالم الدنيا، والآخر نادرتها.

أمّا العالم فشيخنا ومعلّمنا العلامة أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري

---

(١) ترجمة محمد بن محمد الغزموني في نيل الابتهاج (ص ٢٥٣) وجاء فيه «القرموني» بدل «الغزموني».
(٢) تعبير الرؤيا: تفسيرها.
(٣) هذه الحكاية في نيل الابتهاج (ص ٢٥٣).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٤١): «التلائسي».
(٥) هكذا في نيل الابتهاج، وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٤٣): «سانية».
(٦) القواديس: جمع قادوس وهو وعاء للماء. محيط المحيط (قدس).
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٤١): «حصة» بالحاء المهملة. والخصة: الحوض أو الصهريج. ملحق المعاجم العربية لدوزي (خصص).
(٨) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٤٣): «السانية».
(٩) في طبعة دار صادر: «ضحوة الغد».

الآبلي، التلمساني[1]؛ سمع جدَّه لأمِّه أبا الحسين بن غَلْبُون[2] المُرْسي القاضي بتلمسان، وأخذ عن فُقَهائها أبي الحسين التنسي وابني الإمام، ورحل في آخر المائة السابعة فدخل مصر والشام والحجاز والعراق، ثم قفل إلى المغرب فأقام بتلمسان مدة، ثم فرَّ أيام أبي حمّو[3] موسى بن عثمان إلى المغرب.

حدّثني أنه لقي أبا العباس أحمد بن إبراهيم الخياط شقيق شيخنا أبي عثمان المتقدّم ذكره، فشكا له ما يتوقّعه من شرِّ أبي حمو[3]، فقال له: عليك بالجبل، فلم يَدْرِ ما قال، حتى تعرّض له رجل من غمارة، فعرض عليه الهروب به، قال: فخفت أن يكون أبو حمّو[3] قد دَسَّه عليَّ، فتنكّرت له، فقال لي: إنما أسير بك على الجبل، فتذكّرت قول أبي إسحاق، فواطأته، وكان خَلاَصي على يده، قال: ولقد وجدت العَطَشَ في بعض مسيري به، حتى غلظ لساني واضطربت ركبتاي، فقال لي: إن جلست قتلتك لئلاً أفتضح بك، فكنت أقوّي نفسي، فمرّ على بالي في تلك الحالة استسقاء عمر بالعباس، وتوسُّله به، فواللّه ما قلت شيئًا حتى رُفع لي غدير ماء، فأريته إياه، فشربنا ونهضنا.

ولما دخل المغرب أدرك أبا العباس بن البناء، فأخذ عنه، وشافَهَ[4] كثيرًا من علمائه، قال لي: قلت لأبي الحسن الصغير: ما قولك في المهدي؟ فقال: عالم سلطان، فقلت له: قد أبنت عن مرادي. ثم سكن جبال الموحِّدِين، ثم رجع إلى فاس، فلمّا افتتحت تِلِمْسَان لقيته بها، فأخذت عنه، فقال لي الآبلي: كنت يومًا مع القاسم بن محمد الصنهاجي، فوردت عليه طومارة مِنْ قِبَلِ القاضي أبي الحجاج الطرطوشي فيها: [السريع]

خيراتُ ما تَحْوِيه مبذولةٌ　　　ومَطْلَبي تصحيفُ مقلوبِها

فقال لي: ما مطلبه؟ فقلت: نارنج.

دخل على الآبلي وأنا عنده بتلمسان الشيخُ أبو عبد اللّه الدباغ المالقي المتطبّب

---

(١) ترجمة أحمد العبدري في التعريف بابن خلدون (ص ٢١، ٣٣) والدرر الكامنة (جـ ٣ ص ٢٨٨) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٤) وجذوة الاقتباس (ص ١٤٤، ١٩١).

(٢) هو محمد بن غلبون.

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٤٢): «حم».

(٤) في نيل الابتهاج: «وسأل».

ثم حبيب قلّما ينصف

فأخذته فكتبته، ثم قلبته وصحّفته، فإذا هو: قصبتا ملف شحمي.

ومرّ الدباغ علينا يومًا بفاس، فدعاه الشيخ، فلباه، فقال: حدّثنا بحديث اللظافة، فقال: نعم، حدّثني أبو زكريا بن السراج الكاتب بسجلماسة أنّ أبا إسحاق التلمساني وصهره مالك بن المرحل، وكان ابن السراج قد لقيهما، اصطحبا في مسير، فآواهما الليلُ إلى مجشر، فسألا عن صاحبه، فدُلاّ، فاستضافاه فأضافهما، فبسط قطيفة بيضاء، ثم عطف عليهما بخبز ولبن، وقال لهما: استعملا من هذه اللظافة حتى يحضر عشاؤكما، وانصرف، فتحاورا في اسم اللظافة لأي شيء هو منهما حتى ناما، فلم يَرُع أبا إسحاق إلاّ مالك يوقظه ويقول: قد وجدت اللظافة، قال: كيف؟ قال: أبعدت في طلبها حتى وقعت بما لم يمرّ قطُّ على مسمع هذا البدوي فضلاً عن أن يراه[1]، ثم رجعت القهقرى حتى وقعت على قول النابغة: [الكامل]

بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بنانَهُ عَنَمٌ يَكَادُ من اللطافةِ يُعْقَدُ[2]

فسنح لبالي أنه وجد اللطافة، وعليها مكتوب بالخطّ الرقيق اللّينِ، فجعل إحدى النقطتين للطاء فصارت اللطافَةُ اللظافةَ واللينُ اللبنَ وإن كان قد صحّف عنم بغنم، وظنَّ أن يعقد جبن، فقد قوي عنده الوهم، فقال أبو إسحاق: ما خرجت عن صوبه، فلمّا جاء سألاه، فأخبر أنها اللبن، واستشهد بالبيت كما قال مالك.

ولا تعجب من مالك فقد ورد فاسّا شَيْخُنا أبو عبد اللّه محمد بن يحيىٰ الباهلي، عُرف بابن المسفر، رسولاً عن صاحب بجاية، فزاره الطلبة، فكان فيما حدّثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين يستشكلون كلامًا وقع في تفسير سورة الفاتحة من كتاب فخر الدين، ويستشكله الشيخ معهم، وهذا نصُه[3]، ثبت في بعض العلوم العقلية أنَّ المركّب مثلُ

---

(١) أخذه من المثل: «تَسْمَعُ بالمُعَيْديّ خيرٌ من أن تراه»، يضرب لمن خبره خير من مرآه، مجمع الأمثال (جـ ١ ص ١٢٩).

(٢) البيت غير وارد في ديوان النابغة الذبياني، طبعة دار صعب ببيروت.

(٣) النص في نيل الابتهاج (ص ٢٤٥).

البسيط من الجنس، والبسيط مثل المركّب في الفصل، وأنّ الجنس أقوى من الفصل، فرجعوا به إلى الشيخ الآبلي، فتأمّله ثم قال: هذا كلام مصحَّفٌ، وأصله أنَّ المركب قبل البسيط في الحس، والبسيط قبل المركب في العقل، وأنَّ الحسّ أقوى من العقل، فاخبروا ابن مسفر، فلجّ، فقال لهم الشيخ: التمسوا النسخ، فوجدوه في بعضها كما قال الشيخ، والله يؤتي فضله من يشاء.

قال لي الآبلي: لما نزلت تازى بتُّ مع أبي الحسن بن برّي وأبي عبد الله الترجالي، فاحتجت إلى النوم، وكرهت قطعهما عن الكلام، فاستكشفتهما عن معنى هذا البيت للمعري: [الطويل]

أقولُ لعبد اللّه لمّا سقاؤنَا ... ونحن بوادي عبد شمس وَهَاشِمِ

فجعلا يفكّران فيه، فنمت حتى أصبحا، ولم يجداه، فسألاني عنه، فقلت: معناه أقول لعبد الله لمّا وَهَى سقاؤنا، ونحن بوادي عبد شمس: شِمْ لنا بَرْقًا. قلت: وفي جواز مثل هذا نظر.

سمعت الآبلي يقول: دخل قطبُ الدين الشيرازي والدبيران[1] على أفضل الدين الخونجي ببلده، وقد تزيَّا بزي القونوية، فسأله أحدهما عن مسألة، فأجابه، فتعايا عن الفهم، وقرب التقرير، فتعايا، فقال الخونجي متمثلا[2]: [البسيط]

عَلَيَّ نَحْتُ المعاني مِنْ مَعَادِنها ... وما عليَّ لكمْ أن تَفْهَمَ الْبَقَرُ

فقال له: ضمّ التاء يا مولانا، فعرفهما، فحملهما إلى بيته.

قلت: سمعت الشيخ شمس الدين الأصبهاني بخانِقاه قوصون بمصر يقول: إنّ شيخه القطب توفي عام أحد عشر وسبعمائة، وله سبع وسبعون سنة، وهذا يضعف هذه الحكاية عندي.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٤٥): «والدنبران». والدبيران: هو نجم الدين الكابتي، صاحب التواليف البديعة في المنطق.

(٢) البيت في ديوان البحتري (جـ ٢ ص ١٨٦) من قصيدة مديح من ٤١ بيتًا في علي بن مر الأرمني، وروايته في الديوان هي:

عليَّ نَحْتُ القوافي من مقاطعها ... وما عليَّ لهمْ أن تفهم البَقَرُ

وقد تقدّم هذا البيت في الجزء الثاني من نفح الطيب.

سمعت الآبلي يقول: إنَّ الخونجي ولي قضاء مصر بعد عزّ الدين بن عبد السلام، فقدم شاهدًا كان عز الدين أخَّره، فعذله في ذلك، فقال: إنّ مولانا لم يذكر السبب الذي رفع يَدَه من أجله، وهو الآن غير متمكّن من ذكره.

سمعت الشيخ الآبلي يحدّث عن قطب الدين القسطلاني أنه ظهر في المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث: مذهب ابن سبعين، وتملك الططر للعراق، واستعمال الحشيشة.

سمعت الآبلي يقول: قال أبو المطرف بن عميرة: [الكامل]

فَضَلَ الجمالُ على الكمالِ بوجهه — فالحقُّ لا يخفى على من وَسَّطَهْ
وبِطَرْفِه سَقَمٌ وسِحْرٌ قد أتى — مستظهرًا[1] بهما على ما استنبطهْ
عجبًا له بُرْهانُهُ بشروطه — مَعَهُ فما مقصودُهُ بالسفسطهْ[2]

قال: فأجابه أبو القاسم بن الشاط فقال: [الكامل]

عِلْمُ التباين في النفوس وأنها — منها مغلَّطة وغيرُ مُغَلَّطَهْ
فئةٌ رأتْ وجهَ الدليلِ وفرقةٌ — أصغتْ إلى الشبهات فهي مُوَرَّطَهْ
فأرادَ جمعها معًا في ملكه — هذي بمنتجةٍ وذي بمغلَّطَهْ

يعني قولهم في التام: هو ما تحمل فيه البرهان الفصل.

وأخبار الآبلي وأسْمِعَتِي منه تحتمل كتابًا، فلنقف على هذا القدر منها.

وأمّا النادرة فأبو عبد الله محمد[3] بن أحمد بن شاطر الجمحي المراكشي[4]؛ صحب أبا زيد الهزميري كثيرًا، وأبا عبد الله بن تجلاّت[5]، وأبا العباس بن البناء وأضرابه[6] من المراكشيين ومن جاورهم، ورزق بصحبة الصالحين حلاوة القبول، فلا تكاد تجد من يستثقله، وربما سُئل عن نفسه فيقول: وْليّ مفسود.

---

(١) مستظهرًا: متقويًا. لسان العرب (ظهر).
(٢) السفسطة: قياس وهمي باطل غايته إسكات الخصم. لسان العرب (سفسط).
(٣) كلمة «محمد» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٤٦).
(٤) ترجمة محمد بن أحمد بن شاطر الجمحي في الإحاطة (ج ٣ ص ٢٦٩) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٨).
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٤٦): «بن تيجان».
(٦) في الإحاطة (ج ٣ ص ٢٧٠): «وإخوانهم».

قلت له يومًا: كيف أنت؟ فقال: محبوس في الروح، وقال: الليل والنهار حرسيان[1]: أحدهما أسود، والآخر أبيض، وقد أخذا بمجامع الخلق يَجُرَّانهم إلى القيامة، وإنَّ مَرَدَّنا إلى اللَّه تعالى.

وسمعته يقول: المؤذنون يَدْعُون أولياء اللَّه إلى بيته لعبادته، فلا يصدّهم عن دعائهم ظُلْمة ولا شتاء ولا طين، ويصرفونهم عن الاشتغال بما لم يبين لهم، فيخرجونهم ويغلقون الأبواب دونهم.

ووجدته ذات يوم في المسجد ذاكرًا، فقلت له: كيف أنت؟ فقال ﴿فَهُمْ في روضةٍ يُحْبَرُونَ﴾[2] فهممت بالانصراف، فقال: أين تذهب من روضة من رياض الجنّة يقام بها على رأسك بهذا التاج؟ وأشار إلى المنار مملوءًا اللَّه أكبر.

مَرَّ ابن شاطر يومًا على أبي العباس أحمد بن شعيب الكاتب[3] وهو جالس في جامع الجزيرة، طهّره اللَّه تعالى! وقد ذهبت به الكفرة، فصاح به، فلمّا رفع رأسه إليه قال له: انظرْ إلى مَرْكَب عزرائيل هذا[4]، وأشار إلى نعش هنالك، قد رفع شراعه ونُودي عليه الطلوع يا غزي.

وأكل يومًا مع أبي القاسم عبد اللَّه بن رضوان الكاتب جُلْجُلانا[5]، فقال له أبو القاسم: إنَّ في هذا الجُلْجُلان لضربًا من طعم اللوز، فقال ابن شاطر: وهل الجُلْجُلان إلاّ لوزة دقة؟

وسئل عن العلّة في نَضَارة الحَدَاثة، فقال: قُرْبُ عهدِها باللَّه، فقيل له: فممّ تغير الشيوخ؟ فقال: من بُعْدِ العهد من اللَّه، وطول الصحبة مع الشياطين، فقيل له: فبَخَرُ[6] أفواههم؟ فقال: من كثرة ما تَفَل الشياطين فيها.

---

(١) الحرسي: الحارس. لسان العرب (حرس).

(٢) سورة الروم ٣٠، الآية ١٥.

(٣) هو أحمد بن شعيب الجزنائي، تازي الدار نزيل فاس، فقيه كاتب، توفي بتونس عام ٧٥٠ هـ. نثير فرائد الجمان (ص ٣٣٥) ونيل الابتهاج (ص ٦٨) والتعريف بابن خلدون (ص ٤٨) وجذوة الاقتباس (ص ٤٧) ودرة الحجال (ج ١ ص ٢١).

(٤) كلمة «هذا» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٤٧).

(٥) الجُلْجُلان: ثمر الكزبرة، وحبُّ السمسم. محيط المحيط (جلجل).

(٦) البَخَرُ، بالفتح: رائحة الفم. لسان العرب (بخر).

وكان يسمّى الصغيّر: فأر المصطكي، قال لي ابن شاطر: لقيت عمّي ميمونًا المعروف بدبير لقرب موته وقد أصفرَّ وجهه وتغيّرت حالته، فقلت له: ما بالك؟ وكان قد خدم الصالحين ورزق بذلك القبول، فقال: انسدَّتِ الزربطانَةُ فطلع، يعني العذرة، يشير إلى الاحتقان للطبيعة.

أنشدني ابن شاطر قال: أنشدني أبو العباس بن البنّاء لنفسه: [الوافر]

قصدتُ إلى الْوَجَازة[1] في كلامي

الأبيات.

وأخبار ابن شاطر عندي تحتمل كراسة، فلنقنع منها بهذا القدر.

فصل. ولما دخلت تلمسان على بني عبد الواد تهيّأ لي السفر منها، فرحلت إلى بجاية، فلقيت بها أعلامًا دَرَجوا[2] فأمست بعدهم خلاء بَلْقَعًا[3]. فمنهم الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن يحيىٰ الباهلي، عُرف بابن المسفر[4]، باحثته واستفدت منه، وسألني عن اسم كتاب الجوهري فقلت له: من الناس من يقول الصِّحاح بالكسر ومنهم من يفتح، فقال: إنما هو بالفتح بمعنى الصحيح، كما ذكره في باب صح، قلت: ويحتمل أن يكون مصدر صح كحَنان.

وكتب إلى بعض أصحابه بجواب رسالة صدّره بهذين البيتين: [الكامل]

وصلتْ صحيفتكُمُ فَهَزَّتْ مِعْطَفِي ... فكأنما أهدتْ كؤوسَ القَرْقَفِ[5]
وكأنها ليل[6] الأمانِ لخائِفٍ ... أو وَصْلُ محبوبٍ لصَبٍّ مُدْنَفِ

ومنهم قاضيها أبو عبد اللّه محمد ابن الشيخ أبي يوسف يعقوب الزواوي؛ فقيه ابنُ فقيه، كان يقول: مَنْ عرف ابن الحاجبِ اقرأ به المدوّنة قال: وأنا أقرأ به المدونة.

---

(١) الوَجازة، بفتح الواو: الإيجاز. لسان العرب (وجز).
(٢) دَرَجُوا: ماتوا. لسان العرب (درج).
(٣) البَلْقَعُ: الخالي، لا أحد فيه. لسان العرب (بلقع).
(٤) توفي ابن المسفر في عام ٧٤٣ هـ، وترجمته في نيل الابتهاج (ص ٢٣٧) والديباج المذهب (ص ٣٣٢).
(٥) القَرْقَفُ: الخمر. لسان العرب (قرقف).
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٥٠): «نَيلُ».

ومنهم أبو علي حسين بن حسين إمام المعقولات بعد ناصر الدين.

ومنهم خطيبها أبو العباس أحمد بن عمران، وكان قد ورد تلمسان، وأورد بها على قول ابن الحاجب في حدّ العلم «صفة توجب تمييزًا لا يحتمل النقيض» الخاصة إلاّ أن يزاد في الحدّ «لمن قامت به»؛ لأنها إنما توجب فيه تميزًا لا تمييزًا، وهذا حسن.

ومنهم الشيخان أبو عزيز وأبو موسى بن فرجان[1]، وغيرهم من أهل عصرهم.

ثم رحلت إلى تونس فلقيت بها قاضي الجماعة وفقيهَهَا أبا عبد اللّه بن عبد السلام[2]، فحضرت تدريسه، وأكثرت مباحثته، ولما نزلت بظاهر قسمطينة تلقاني رجل من الطلبة، فسألني عن هذه الآية ﴿وإنْ لم تَفْعَلْ فما بَلَّغْتَ رسالَتَهُ﴾[3] فإنَّ ظاهرها أنَّ الجزاء هو الشرط: أي وإن لم تبلِّغ فما بلغت، وذلك غير مفيد، فقلت: بل هو مفيد، أي: وإن لم تبلِّغ في المستقبل لم ينفعك تبلغيك في الماضي: لارتباط أول الرسالة بآخرها، كالصلاة ونحوها، بدليل قصة يونس، فعبر بانتفاء ماهية التبليغ عن انتفاء المقصود منه، إذ كان إنما يطلب ولا يعتبر بدونه، كقوله عليه الصلاة والسلام «لا صلاة إلاّ بطَهُور» ثم اجتمعت بابن عبد السلام بجامع بوقير بتونس، فسألته عن ذلك، فلم يزد على أن قال: هذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام «فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله» وقد علمتم ما قال الشيخ تقي الدين فيه. قلت: كلام تقي الدين لا يعطي الجواب عن الآية، فتأمله.

وقاضي المناكح أبا محمد الأجمي، وهو حافظ فقهائها في وقته، والفقيه أبا عبد اللّه بن هارون شارح ابن الحاجب في الفقه والأصول، والخطيب أبا عبد اللّه بن عبد الستار، وحضرت تدريسه بمدرسة المعرض، والعلاّمة أبا عبد اللّه بن الجياب الكاتب، والفقيه أبا عبد اللّه بن سلمة، والشيخ الصالح أبا الحسن المنتصر وارث طريقة الشيخ أبي محمد المرجاني آخر المذكورين بإفريقية، ورأيت الشيخ ابن الشيخ المرجاني، فحدّثني أبو موسى

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٤٨): «فرحان» بالحاء المهملة.

(٢) هو محمد بن عبد السلام المُنَسْتِيري، المتوفى سنة ٧٥٠ هـ. ترجمته في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٦١) والتعريف بابن خلدون (ص ١٩) والديباج المذهب (ص ٣٣٦) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٠).

(٣) سورة المائدة ٥، الآية ٦٧.

بن الإمام أنه أشبه من الغُراب بالغُرَاب، وسيدي أبا عبد الله الزبيدي المتقدّم ذكره، وأوقفني على خطإ في كتاب الصِّحاح، وذلك أنه زعم أنّ السالم جلدةٌ ما بين العين والأنف، قال: وفيه يقول ابن عمر في ابنه سالم[1]: [الطويل]

يُدِيرُونني عن سالمٍ وأُدِيرُهُمْ وجِلْدَةُ بين الأنف والعين سالمُ[2]

قال: وهذا أراد عبد الملك حيث كتب إلى الحجاج «أنت مني كسالم» وهو[3] خطأ فاحش، وكان يلزمه أن يسميها بالعمارة أيضًا؛ لقوله عليه السلام «عمارة جلدة ما بين عيني وأنفي». وإنما يُرَاد بمثل هذا القرب والتحمد.

ولقيت بتونس غير واحد من العلماء والصلحاء يطول ذكرهم، ثم قفلت إلى المغرب يُسَايرني رجل من أهل قسمطينة يُعْرف بمنصور الحلبي، فما رأيت[4] رجلاً أكثر أخبارًا ولا أظرف نوادر منه، فممّا حفظته من حديثه أنّ رجلاً من الأدباء مرَّ برجل من الغرباء، وقد قام بين ستة أطفال، جعل ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن شماله، وأخذ ينشد: [البسيط]

ما كنتُ أَحْسَبُ أنْ أبْقَى كذا أبدًا أعيشُ والدهرُ في أطرافه حتفُ

ساسٌ بستّة أطفالٍ توسّطهمْ شخصي كأحرفِ ساسٍ وسطها ألفُ

قال: فتقدّمت إليه وقلت: فأين تعريقة السين؟ فقال: طالب وربّ الكعبة، ثم قال للآخر من جهة يمينه: قُمْ، فقام يجرُّ رجله كأنه مبطول، فقال: هذا تمام تعريقة السين.

ثم رحلت من تلمسان إلى المغرب، فلقيت بفاس الشيخ الفقيه الحاج أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم اليزناسني[5]، والشيخ الفقيه أبا محمد عبد المؤمن الجاناتي[6]، والشيخ الفقيه الصالح أبا زرهون عبد العزيز بن محمد القيرواني، والفقيه أبا

---

(١) هو عبد الله بن عمر، والبيت في لسان العرب (مادة سلم).

(٢) في لسان العرب: «وأُريغُهُ، وجِلدةُ بين العين والأنف سالمُ».

(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٥٢): «وهذا».

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٥٢): «فما لقيت».

(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٥٠): «البرناسي». واليزناسني: هو أحد مفتي فاس، وأستاذ الرعيني صاحب «البرنامج»، كان حيًا بعد الأربعين وسبعمائة. نيل الابتهاج (ص ١٠) وسلوة الأنفاس (ج ٣ ص ٢٥٤).

(٦) هو عبد المؤمن بن محمد بن موسى الجاناتي، المتوفّى بفاس سنة ٧٤٦ هـ. ترجمته في نيل الابتهاج (ص ١٥٦) وفيه أنه عبد العزيز، وسلوة الأنفاس (ج ٣ ص ٣٠٥).

الضياءِ مصباح بن عبد اللَّه اليالصوتي[1]، وكان حافظ وقته، والفقيه أبا عبد اللَّه بن عبد الكريم، وشيخ الشيوخ أبا زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي، والأستاذ أبا العباس المكناسي، وكنت لقيت الأستاذ أبا العباس بن حزب اللَّه، والأستاذ أبا عبد اللَّه بن[2] القصار بتلمسان، ولقيت غير هؤلاء ممّن يكثر عددهم، وكنت قد لقيت بتازي الفقيهَ أبا عبد اللَّه بن عطية، والأستاذ أبا عبد اللَّه المجاصي، والشيخ أبا الحسين الجيار، وغيرهم.

ثم بلغت بالرحلة إلى أغمات، ثم وصلت إلى سبتة، فاستوعبت بلاد المغرب ولقيت بكلِّ بلد مَنْ لا بُدَّ من لقائه من علمائه وصلحائه، ثم قفلت إلى تلمسان فأقمت بها ما شاء اللَّه تعالى، ثم أعملت الرحلة إلى الحجاز، فلقيت بمصر الأستاذ أثير الدين أبا حيان الغَرْنَاطي، فرويت عنه، واستفدت منه، وشمس الدين الأصبهاني الآخر، وشمس الدين بن عدلان، وقرأ عليَّ بعض شروحه لكتب المزني، وناولني إياه، وشمس الدين بن اللبان آخر المذكورين بها، والشيخ الصالح أبا محمد المنوفي فقيه المالكية بها، وتاج الدين التبريزي الأصم، وغيرهم مِمَّن يطول ذكرهم.

ثم حججت فلقيت بمكة إمام الوقت أبا عبد اللَّه بن عبد الرحمن التوزري المعروف بخليل، وسألته يوم النحر حين وقف بالمشعر الحرام عن بطن مُحَسِّرٍ لأحرك فيه على الجمل، فقال لي: تمالأ الناس على ترك هذه السنّة، حتى نسي بتركها محلّها، والأقرب أنه هذا، وأشار إلى ما يلي الجابية التي على يسار المار من المشعر إلى منى من الطريق من أول ما يُحَاذيها إلى أن يأخذ صاعدًا إلى منى، وما رأيت أعلم بالمناسك منه، والإمام أبا العباس بن رضي الدين الشافعي، وغير واحد من الزائرين والمجاورين وأهل البلد.

وبالمدينة أعجوبة الدنيا أبا محمد عبد الوهاب الجبرتي وغيره.

ثم أخذت على الشام، فلقيت بدمشق شمس الدين بن قَيِّم الجوزية صاحب الفقيه ابن تيميّة، وصدر الدين الغماري المالكي، وأبا القاسم بن محمد اليماني الشافعي، وغيرهم، وببيتِ المقدس الأستاذ أبا عبد اللَّه بن مثبت، والقاضي شمس الدين بن سالم، والفقيه المذكر أبا عبد اللَّه بن عثمان، وغيرهم.

---

(١) في أصول النفح «اليالصوني» بالنون، وأثبتنا ما في سلوة الأنفاس (جـ ٣ ص ٣٧٧) وفيه يذكر أنه فقيه، من أكابر تلامذة أبي الحسن الصغير، توفي بفاس سنة ٧٥٠ هـ.

(٢) كلمة «ابن» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٥٠).

ثم رجعت إلى المغرب، فدخلت سجلماسة ودرعة، ثم قطعت إلى الأندلس، فدخلت الجبل وأصطبونة ومربلّة ومالقة وبلش والحامة، وانتهت بي الرحلة إلى غَرْنَاطة، وفي علم اللّه تعالى ما لا أعلم، وهو المسؤول أن يحملنا على الصراط الأقوم، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم؛ انتهى كلام جدي رحمه اللّه تعالى في الجزء الذي ألّفه في مشيخته، وقد لخّصه لسان الدين في الإحاطة.

ولنذكر هنا زيادات لا بأس بها، فنقول: ولما ألمّ ولي الدين بن خلدون بذكر مولاي الجدّ في تاريخه الكبير عند تعريفه بنفسه، وَصَفه بأنه كبير علماء المغرب ونصّ محل الحاجة من تاريخه[١]: لما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين أقمْنا في البحر نحوًا من أربعين ليلة، ثم وافينا مُرْسَى الإسكندرية يوم الفطر، ولعشر ليالٍ من جلوس الملك الظاهر[٢] على التخت واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون، وكنّا على ترقب ذلك لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك وتمهيده له، وأقمت بإسكندرية شهرًا لتهيئة أسباب الحجّ، ولم يقدر عامئذ، فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذرّ من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في أوْجِه[٣]، وتزهو الخوانق[٤] والمدارس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، وقد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيَحه[٥]، ويجبي إليهم الثمرات والخيرات ثَبَجُهُ[٦]، ومررت في سكك المدينة تَغَصُّ بزحام المارة وأسواقُها تَزْخَر بالنعم، وما زلنا نحدّث عن هذا البلد، وبُعد مداه في العمران، واتّساع الأحوال، ولقد اختلفت عبارات من لقينا من شيوخنا وأصحابنا

---

(١) النص في التعريف بابن خلدون (ص ٢٤٦).
(٢) الملك الظاهر: هو أبو سعيد برقوق بن أنص، المتوفّى سنة ٨٠١ هـ. وخبر جلوس برقوق على التخت واستبداده بالملك في العبر (م ٥ ص ١٠١٥ ـ ١٠١٦).
(٣) في التعريف بابن خلدون: «جوه».
(٤) في التعريف: «الخوانك».
(٥) النّهل: الشرب للمرة الأولى. العلل: الشرب للمرة الثانية. السَّيح: الماء الجاري على وجه الأرض. لسان العرب (نهل) و (علل) و (سيح).
(٦) الثَّبَجُ، بالفتح: أعالي الموج. لسان العرب (ثبج).

حاجّهم وتاجرهم بالحديث عنه، سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد اللّه المقَّري فقلت له: كيف هي القاهرة؟ فقال: مَنْ لم يَرَها لم يعرف عزَّ الإسلام، وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس[1] كبير العلماء ببجاية مثل ذلك، فقال: كأنما انطلق أهله من الحساب، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب، وحضرت صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبا القاسم البرجي[2] بمجلس السلطان أبي عنان منصرفَهُ من السِّفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة خمس وخمسين، وسأله عن القاهرة فقال: أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار: إنَّ الذي يتخيّله الإنسان فإنّ ما يراه دون الصورة التي تخيّلها لاتساع الخيال على كلِّ محسوس إلاّ القاهرة فإنها أوسع من كلّ ما يتخيّل فيها، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك؛ انتهى كلام ابن خلدون، ولا يخلو عن فائدة زائدة.

ولا بأس أن نورد من فوائد مولاي الجدّ ما حضرني الآن: فمن ذلك ما حكاه عن عبد الرزاق عن ابن قطرال قال[3]: سمع يهودي بالحديث المأثور «نعم الإدام الخَلُّ» فأنكر ذلك، حتى كاد يصرح بالقدح، فبلغ ذلك بعض العلماء، فأشار على الملك أن يقطع عن اليهود الخل وأسبابه سنة، قال: فما تمت حتى ظهر فيهم الْجُذَام.

ومنها أنه قال: أنشدني الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن عبد الواحد قال: أنشدني الشيخ التقي ابن دقيق العيد لنفسه في معنى لطيف حجازي[4]: [الطويل]

إذا كنتُ في نَجْدٍ وطِيْبِ نَعِيمِهِ ... تَذَكَّرْتُ أهلي باللِّوى فَمُحَسَّرِ

وإنْ كنتُ فيهمْ زِدْتُ شوقًا ولَوْعَةً ... إلى ساكني نجدٍ وعِيْلَ تَصَبُّري[5]

فقد طالَ مَا بين الفريقينِ مَوْقفي ... فَمَنْ لي بِنَجْدٍ بين أهلي ومَعْشَري

---

(١) هو أحمد بن إدريس البجائي، وترجمته في الديباج المذهب (ص ٨١) ونيل الابتهاج (ص ٥٠).

(٢) هو محمد بن يحيىٰ بن محمد بن يحيىٰ الغساني البرجي الغرناطي، كاتب السلطان أبي عنان، وترجمته في الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٩٣) والتعريف بابن خلدون (ص ٦٤) وجذوة الاقتباس (ص ١٩٧).

(٣) انظر نيل الابتهاج (ص ٢٥٢).

(٤) الأبيات في فوات الوفيات (جـ ٣ ص ٤٤٨)، وفي روايتها هناك بعض اختلاف، وقد تقدمت في الجزء الأول من نفح الطيب دون تغيير عمّا هنا.

(٥) عِيلَ صَبْري وتصبّري: غُلِبَ وضعف فهو مَعُولٌ. لسان العرب (صبر).

ومنها ما حكاه عن عبد الله بن عبد الحق عن ابن قطرال قال[1]: كنت بالمدينة على ساكنها الصلاة والسلام إذ أقبل رافضي بفحمة في يده، فكتب بها على جدار هناك: [البسيط]

من كان يعلمُ أنَّ اللَّهَ خالِقُهُ   فلا يحبُّ أبا بكرٍ ولا عمرا

وانصرف، فألقى عليّ من الفطنة وحسن البديهة ما لم أعهد مثله من نفسي قبل، فجعلت مكان يحب «يسب» ورجعت إلى مجلسي، فجاء فوجده كما أصلحته، فجعل يلتفت يمينًا وشمالاً، كأنه يطلب مَنْ صنع ذلك، ولم يتّهمني، فلمّا أعياه الأمر انصرف.

ومنها أنه قال: حُدّثت أنّ الزاهد أبا عمرة بن غالب المرسي نزيل تلمسان، وقد لقيت غير واحد من أصحابه، سأله بعضٌ أن يشهد عقد ابنته، فَتَعذَّر عليه، فلم يزل به حتى أجاب بعد جَهْد، فحضر العقد، وطعم الوليمة، ثم لما حضرت ليلة الزفاف استحضره في ركوبها إلى دار زوجها على عادة أهل تلمسان، فأجابه مسرعًا: فقيل له: أين هذا التيسير من ذاك التعسير؟ فقال: من أكل طعام الناس مشى في خدمتهم، أو كما قال.

ومنها أنه قال: حدثت أنّ الفقيه أبا عبد اللَّه بن العواد العدل بتونس الْتَقَى يومًا مع القاضي أبي علي بن قداح، وكان ابن العواد شيخًا، فقال له أبو علي: كبرت يا أبا عبد اللَّه فصرت تمشي كلّ شبر بدينار، يُوَرِّي بكثرة الفائدة في مشيه إلى الشهادة، فقال له: كنت إذ كنت في سنك أُخرج رزقي من الحجر، يعرّض لابن قداح بأنه جَيَّار، وكذلك كان هو وأبوه، رحمهم اللَّه تعالى جميعًا! وهذا من مزاح الأشراف، كما جرى بين معاوية والأحنف، انظر صدر «أدب الكتاب».

ومنها أنه قال: قال لي الحاجُ أبو عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه بن عبد الواحد الرباطي: كنّا عند الشيخ تقي الدين بن دقِيق العيد، ففقد أحدنا نعليه: فقال الشيخ: كنّا عند العلم التبريزي فدخل عليه رجل يُدْعى بشيرًا فكلّمه ثم خرج فلم يجد نعليه، فرجع إلى العَلم وأنشده: [الوافر]

دخلتُ إليك يا أملي بَشيرًا   فلمَّا أنْ خرجْتُ خرجْتُ بِشْرَا
أعِدْ يائي التي سَقَطَتْ من اسمي   فيائي في الحساب تُعَدُّ عشرا

---

(١) نيل الابتهاج (ص ٢٥٢).

وقال رحمه اللّٰه تعالى: لمّا سعى أولاد الشيخ أبي شعيب بالقاضي أبي الحجاج الطرطوشي إلى السلطان وأمر بإشخاصه وكثر إرجاف المتشيّعين فيهم من بعده وخرج الأمر على خلاف ما أملوا منه قال في ذلك: [الوافر]

حَمِدْتُ اللّٰه في قومٍ أثاروا   شرورًا فاستحالتْ لي سرورا
وقالوا النارُ قد شَبَّتْ فلمّا   دنوتُ لها وجدتُ النارَ نورا

ومنها[1]: أنه حكى أنَّ الشيخ أبا القاسم بن محمد اليمني مدرّس دمشق ومُفْتيها حكى له بدمشق أنه قال له شيخ صالح برباط الخليل عليه السلام: نزل بي مغربي فمرض حتى طال عليَّ أمره، فدعوت اللّٰه أن يفرج عني وعنه بموت أو صحة، فرأيت النبيَّ ﷺ، في المنام فقال: أطعمه الكسكسون، قال: يقوله هٰكذا بالنون، فصنعته له، فكأنما جعلت له فيه الشفاء، وكان أبو القاسم يقول فيه كذلك، ويخالف الناس في حذف النون من هذا الاسم، ويقول: لا أعدل عن لفظ رسول اللّٰه ﷺ، ثم قال: قلت: ووجْه هذا من الطب أنَّ هذا الطعام مِمّا يعتاده المغاربة ويشتهونه، على كثرة استعمالهم له، فربما نبّه منه شهوة أو ردّه إلى عادة.

وقال الجدّ رحمه اللّٰه تعالى: رأيت بجامع الفُسْطَاط من مصر فقيرًا عليه قميص إلى جانبه دفاسة قائمة وبين يديه قلنسوة، فذكر لي هنالك أنهما محشوّتان بالبرادة، وأنَّ زنة الدفاسة أربعمائة رطل مصرية، وهي ثلثمائة وخمسون مغربية، وزنة القلنسوة مائتا رطل مصرية، وهي مائة وخمسة وسبعون مغربية، فعمدت إلى الدفاسة فأخذتها من طَوْقها أنا ورجل آخر، فأملناها بالجهد، ثم أقمناها، ولم نصل بها إلى الأرض، وعدت إلى القلنسوة فأخذتها من إصبع كان في رأسها فلم أُطق حملها، فتركتها، وكان يوم جمعة، فلمّا قضيت الصلاة مررنا في جملة من أصحابنا بالفقير، فوجدْناه لابسًا تلك الدفاسة في عنقه، واضعًا تلك القلنسوة على رأسه، فقام إلينا وإلى غيرنا، ومشى بهما كما يمشي أحدنا بثيابه، فجعلنا نتعجّب، ويشهد بعضنا بعضًا على ما رأى من ذلك، ولم يكن بالعظيم الخلقة.

وقال رحمه اللّٰه تعالى: كان الأستاذ ابن حكم قد بعث إليَّ بمحرّر لأبعث به إلى من يعرضه للبيع، ثم بلغه أنّ أحمالاً من المتاع التونسي قد وصلت إلى البلد، فكتب إليَّ:

---

(١) انظر نيل الابتهاج (ص ٢٥٢).

الحمد للّه الذي أمر عند كلّ مسجد بأخذ الزينة، وصلواته الطيبة، وبركاته الصيّبة، على من ختم به شريعته وأكمل دينه، وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه والذين يتبعونه، وبعد فما تعلق به الإعلام، أن تعوّضوا المحرر بإحرام[1]، لا يخفى على مثلكم جنسه ومجانسه، ومن كلام العرب: كلّ ثوب ولابسه، وإن أرْبَى على ثمنِ الأول ثمنُ الثاني، فلست عن الزيادة، والحمد للّه بالواني[2].

ومن فوائده أنه قال: كتب في صدر رسالة إلى[3] صاحبنا الشيخ الناسك أبي علي منصور ابن شيخ عصره وفريد دهره ناصر الدين المشدّالي الشيخُ الخاشع صاحبنا أبو الحسن علي بن موسى البحيري يذكره شوقه إلى لقائه، لما كان يبلغه عنه، حتى قدر باجتماعهما بوَهْرَان أيام قضاء البحيري بها: [الكامل]

أَوْحَشْتَني ولوِ اطَّلَعْتَ على الذي ... لك في فؤادي لم تكن لي موحشا
يا محرقًا بالنارِ قلبَ مُحِبِّهِ ... أَنَسِيتَ أنك مستكنٌّ في الحشا

وقال رحمه اللّه تعالى: أنشدني محمد البلفيقي قال: أنشدني ابن رشيد قال: أنشدني أبو حفص بن الخِيَمي المصري لنفسه: [الرمل]

ولو رأى وَجْه حبيبي عاذلي ... لَتَفَاصَلْنَا على وَجْهٍ جميلِ

وقال رحمه اللّه تعالى: قال لي محمد بن داود بن المكتب قال لي بلال الحبشي[4] خادم الشيخ أبي مدين: كان الشيخ كثيرًا ما ينشد هذا البيت: [الكامل]

اللّه قُلْ وذَرِ الوجودَ وما حوى ... إن كنت مرتادًا بصدق مرادِ

وقال رحمه اللّه تعالى: دخلت على عبد الرحمن بن عفان الجزولي[5]، وهو يجود بنفسه، وكنت قد رأيته قبل ذلك مُعَافًى، فسألته عن السبب، فأخبرني أنه خرج إلى لقاء السلطان[6]، فسقط عن دابته، فتداعت أركانه، فقلت: ما حملك أن تتكلّف مثل هذا في

---

(١) الإحرام: ثوب يلبسه أهل المغرب والأندلس. محيط المحيط (حرم).
(٢) الواني: الفاتر العزم. لسان العرب (ونى).
(٣) كلمة «إلى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٥٦).
(٤) ترجمة بلال الحبشي في أنس الفقير (ص ٩٣).
(٥) توفي عبد الرحمن الجزولي سنة ٧٤١ هـ، وترجمته في نيل الابتهاج (ص ١٢٩).
(٦) هو السلطان أبو الحسن المريني، كما في نيل الابتهاج.

ارتفاع سنّك؟ فقال: حبّ الرياسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين.

وقال رحمه اللّه تعالى: قال لي محمد بن مرزوق: قال لي بعض أصحاب أبي إسحٰق الطيار دفين عباد تلمسان: إنّ أبا إسحاق أقام خمسًا وعشرين سنة لا ينام إلاّ قاعدًا، فسألت ابن مرزوق: لـمَ لُقِّبَ بالطيار؟ فحدّثني عن بعض أصحابه أنه نَشَرَ ذات يوم ثوبه في الشمس على بعض السطوح، ثم قعد هنالك، فمرّ به رجلٌ فقال له: طِرْ، فقال: أَعَن أمرك؟ قال: نعم، فطار حتى وقع على الأرض وما به من باس، فقال الجدّ، رحمه اللّه تعالى، بعد هذا ما نصُّه: قلت: إذا ما صار الحقّ للعبد سمعًا وبصرًا، فسمع به وأبصر أصاخ إلى الأحوال، واجتلى المعاني، فيرى من غير مبصر، ويسمع من غير ناطق، كما قال الشيخ أبو عبد اللّه الشوذي[1] الحلوى دفين تلمسان: [الوافر]

إذا نَطَقَ الوجودُ أصاخَ قومٌ ... بـآذانٍ إلـى نـطـقِ الـوجـودِ
وذاك النُّطقُ ليس به انعجامٌ ... ولكن دقَّ من فهم البليدِ[2]
فكن فَطِنًا تُنَادَى مِنْ قريبٍ ... ولا تَكُ من ينادى من بعيدِ

وقال رحمه اللّه تعالى: حُدِّثت بمصر أنّ الشيخ سيدي عمر بن الفارض ولع بجمل، فكان يستأجره من صاحبه ليتأنّس به، فقيل له: لو اشتريته، فقال: المحبوب لا يُمْلَك، فسألت: في[3] أي حال كان هذا منه؟ فقيل لي: في ابتداء أمره، فقلت: وَجَدَ اعتبار ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إلى الإِبِلِ ﴾[4] فوقفتْ به رؤية المعنى فيه عليه، فأحبّه مدلاً، وطلبه مجلاً.

وقال رضي اللّه عنه: حفظت من خطّ أبي زيد والد صاحبنا أبي الحسن: قيل للغزالي: ما تقول في الحلاج؟ فقال: وما عسى أن أقول فيمن شرب بكأس الصفاء، على بساط الوفاء، فسكر وعَرْبَدَ، فاستوجب من اللّه الحدّ، فكان حدّه شهادته؟ ثم قال بعد هذا: قلت عَرْبَدَ الحلاج في الحضرة لما نسي بسكره أوامره، فانتصر الظاهر لنفسه لصحة تعلّق اسمه، وسدل الباطن على عذره حجاب الغيرة من إفشاء سرّه: [الطويل]

على سِمَةِ الأسماء تجري أمورُهُمْ ... وحكمةُ وصفِ الذات للحكمِ أجْرَتِ

---

(١) نسبة إلى الشوذية وهي طريقة صوفية تشبه طريقة ابن عربي.
(٢) الانعجام: الإبهام والخفاء. دقَّ: خفي. لسان العرب (عجم) و (دقق).
(٣) كلمة «في» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٥٨).
(٤) سورة الغاشية ٨٨، الآية ١٧.

وقال رحمه اللّه تعالى: سمعت شيخنا ببيت المقدس يقول: تجلّى اللّه على المسجد الأقصى بالجَمال، وعلى المسجد الحرام بالجلال، وعلى مسجد الرسول ﷺ، بالكمال، قلت: فذلك يوقف النواظر، وذاك يملأ الخواطر، وهذا يفتح البصائر.

وقال رحمه اللّه تعالى: أخبرني أمير المؤمنين المتوكل على اللّه أبو عِنان فارس نصره اللّه أنّ جده أمير المسلمين أبا سعيد سأل كاتبه عبد المهيمن الحضرمي عن تهادي أهل الحب التفاح دون الخوخ، وكلاهما حسن المنظر، طيب المخبر، شديد شبهٍ[1] بأخيه، سديد تشبيه الوجنات به لمتوخّيه، فقال: من عند مولانا؟ فقال: أرى ذلك لاشتمال التفاح على الحب الذي يذكر بالحب والهوى، والخوخ على النوى الذي يذكر اسمه صُفْرَة الْجَوَى.

وقال رحمه اللّه تعالى: قال لي أبو حيان بالقاهرة: قال لي عمر بن الخيمي: تجاذبتُ أنا ونجمُ الدين بن إسرائيل هذا البيت[2]: [البسيط]

يا بارقًا بأعالي الرَّقْمَتَيْنِ بَدَا   لقد حَكَيْتَ، ولكنْ فاتَكَ الشَّنَبُ

فتحاكَمْنا إلى ابن الفارض، فأشار بأن ننظم قصيدة نضمّنها البيت، فنظم ونظمت[3]: [البسيط]

يا مَطْلَبًا ليس لي في غيره أرَبُ   إليكَ آلَ التقضّي وانتهى الطَلَبُ

فقضى به لي.

وقال رحمه اللّه تعالى: حُدثت أنّ أبا يزيد الهزميري بعث إلى ابن عمران الشولي[4]، وكان كثير الصلاة، أنه لم يبق بينك وبين اللّه حجاب إلاّ الركيعات، فرجع إليه، ما معناه: إنَّ الاتصال كان منها، فلا كان الانفصال عنها، يعني من رُزق من باب فيلزمه.

وقال رحمه اللّه تعالى: كنت بجامع تلمسان، وإلى جانبي رجل ينتمي إلى طريقة العرفان، فجعل سائل يشكو الجوع والألم، فتصدّق ذلك الرجل عليه بدرهم، وقال: إياك

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٥٨): «شبهه».
(٢) تقدم هذا البيت في الجزء الثالث.
(٣) تقدم هذا البيت في الجزء الثالث وجاء هناك: «التقصّي» بالصاد المهملة.
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٦٢): «التسولي».

أن تشكو الرحمن إلى مَنْ لا يرحم، فقلت: أمره أن يسأل عزيزًا بمولاه، ونهاه أن يشكو ذليلاً إلى سِوَاه.

وكان الفارابي كثيرًا ما يقول: يا ربّ إليك المشتكى، حتى إنه يوجد أثناء كلامه في غير موضعه، فيعجب منه من لا علم عنده بمنزعه.

وقال رحمه اللّه تعالى: حُدّثت أنّ الفخر مَرَّ ببعض شيوخ الصوفية، فقيل للشيخ: هذا يقيم على الصانع ألف دليل، فلو قمت إليه، فقال: وعزّتِهِ لو عرفه ما استدلّ عليه، فبلغ ذلك الإمام، فقال: نحن نعلم من وراء الحجاب، وهم ينظرون من غير حجاب.

وقال رحمه اللّه تعالى: حُدّثت أنَّ رجلاً كان يجلس إلى أبي الحسن الحرالي[1]، وكان يشرب الخمر، فسكر ذات يوم، فسقط على زجاجة، فَشُجَّ وجهه، فاختفى إلى أن برىء، ثم عاد إلى مجالسة الشيخ، فلمّا رآه أنشد: [الكامل]

أجريحَ كاساتٍ أرقْتَ نَجِيعَهَا   طَلَبُ التِّرَات يَعِزُّ منه خلاصُ[2]
لا تَسفكنَّ دَمَ الزجاجةِ بعدها   إنَّ الجروحَ كما علمتَ قِصَاصُ

ففهمها الشاب، فتاب.

وقال رحمه اللّه تعالى: كثيرًا ما كنت أسمع أبا محمد المجاصي ينشد هذا البيت: [البسيط]

همُ الرجالُ وعَيْبٌ أن يقالَ لمن   لم يتّصف بمعاني وَصْفِهِمْ رَجُلُ

ثم يبكي، وكان أهل البلد يسمّونه «البَكّاء» وبعضهم «الخاشع».

ووجدت بخطِّ مولاي الجدّ على ظهر كتابه «القواعد» ما نصُّه: الحمد للّه تعالى جدّه، قرأت صدر كتاب «زهرة البساتين» للقاسم ابن الطيلسان، ثم سمعت ثلاثة أحاديث من أوله، بل حديثًا وأثرًا وإنشادًا مِنْ في[3] الشيخ الخطيب الصالح أبي عبد اللّه محمد بن محمدِ بن محمد بن عياش الأنصاري، ثم تناولت منه جميع الكتاب المذكور، وأجازنيه

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٦٠): «الحراني».

(٢) أراق: صبَّ. النجيع: الدم، شبّه به الخمر في اللون. التِّرات: جمع تِرَة وهي الثأر. لسان العرب (راق) و (نجع) و (وتر).

(٣) من في الشيخ: من فمه.

بحقّ سماعه لبعضه، وتَناوله لجميعه من جدّه المذكور، بحقّ أخذه له عن مؤلّفه صهره القاسم المذكور، وذلك بالمسجد الجامع من مالَقَة المحروسة، قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن أحمد المقري في متم عشرين لشهر ربيع الآخر من عام سبعة وخمسين وسبعمائة.

وبخطّه، رحمه اللّه تعالى، حيث ذكر ما نصُه: الحمد للّه، مخالفة القواعد الشرعية، للعوائد العرفية، كإنكار الحشر وفتنة القبر، ونحوهما من الأمر بالمعروف، للركون إلى المشهور المألوف، أو كالتقليد مع الدليل، الذي ذمّه الشرع في محكم التنزيل.

وبخطُه أيضًا: الحمد للّه، قد تتابع[1] صفات العام حتى يصير كأنه أشير به إلى شخص بعينه فيختصّ، ومن ثم قيل في قول اللّه عزّ وجلّ ﴿ولا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ﴾[2]: إنه الأخنس بن شريق، وفي قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[3]: إنه أمية بن خلف، وفي قوله تعالى: ﴿ذَرْني ومَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[4]: إنه الوليد بن المغيرة؛ انتهى.

ووجدت بخطّه أيضًا، رحمه اللّه تعالى، ما نصُّه: الحمد للّه، قال لي المتوكل على اللّه أبو عنَان أمير المؤمنين فارس بن علي: كان جدّنا أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق يقول: الولايات ست: ثلاث وقفتها على اختياري: الحجابة، والقصبة، والشرطة، وثلاث موكولة إليكم: القضاء، والإمامة، والحِسْبَةُ. ثم قال رحمه اللّه تعالى: وهذا تدبير حسن.

ومن فوائده: حدّثني العَدْلُ أبو عبد اللّه محمد بن أبي زرع عن القاضي أبي عبد اللّه بن أبي الصبر أنه أمر الوالي بفاس أن يبني فندق الشماعين، وكان قد خرب، فتوقّف حتى يأذن السلطان، فقال له: أسلفني ما أبنيه به، فإن أجاز ذلك السلطان، وإلاّ رددته عليك، ففعل، فلمّا طُولب ذكر ما قال له القاضي، فغضب السلطان، وبعث فيه، فجعل المبعوثون يأتونه واحدًا بعد واحد وهو متمهّل في وضوئه وإصلاح بِزَّته ومركوبه، ثم جعل يمشي الهُوَيْنا، فلقيه ابنه، فقال له: أسرع فقد أكثر السلطان من التوجيه إليك، وهو وَاجِدٌ[5]

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٦١): «تتتابع».
(٢) سورة القلم ٦٨، الآية ١٠.
(٣) سورة الهمزة ١٠٤، الآية ١.
(٤) سورة المدثر ٧٤، الآية ١١.
(٥) واجدٌ عليك: غاضب عليك. لسان العرب (وجد).

عليك، فقال له: مسكين أبو يحيىٰ، خاف، وثبت على حاله، فلما كان في الطريق لقي بعض العلماء، فتعرّض إليه، فقال: قل بخفيّ لطفك، بلطيف صنعك، بجميل سترك، دخلت في كنفك، تشفّعت بنبيّك، فحفظه، ثم طلبه فلم يجدْه، فجعل يقول ذلك، فلمّا رآه السلطان سكن ما به، ثم سأله عن ذلك برفق، فقال له القاضي: كرهت الخراب بقرب القرويين وبالشماعين الذي هو عين فاس، فسألت الوالي ذلك على أني أغرم إن لم تُجِزْ، وقلت له: المرجو من السلطان أن يجعله حَبْسًا، فقال: قد فعلت، ثم بعث إلى الشهود وحبسه على الجامع، وشكر للقاضي صنيعه، وصرفه مغبوطًا.

وهذا السلطان هو أبو يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المَرِيني، وتوفي محاصرًا لتلمسان في ذي العقدة من عام ستة وسبعمائة، وكان ابتداء حصاره[1] إياها سنة ثمان وتسعين وستمائة، وكان جملة الحصار فيما حُدّثت ألف شهر[2]؛ انتهى.

ومن فوائد مولاي الجدّ، رحمه اللّٰه تعالى، ما حكاه تلميذه أبو إسحاق الشاطبي في كتاب «الإنشادات والإفادات» ونصُّه: إفادة ـ حضرت يومًا مجلسًا في المسجد الجامع بغَرْناطة مَقْدَمَ الأستاذ القاضي أبي عبد اللّٰه المَقَّري، في أواخر ربيع الأول عام سبعة وخمسين وسبعمائة، وقد جمع ذلك المجلس القاضي أبا عبد اللّٰه والقاضي أبا القاسم الشريف شيخنا والأستاذ أبا سعيد بن لب والأستاذ أبا عبد اللّٰه البَلَنْسي وذا الوزارتين أبا عبد اللّٰه بن الخطيب وجماعة من الطلبة، فكان من جملة ما جرى أن قال القاضي أبو عبد اللّٰه المقَّري: سئلت عن[3] مسألة في الأصول لم أجد لأحد فيها نصًّا، وهي تخصيص العام المؤكّد بمنفصل، فأجبت بالجواز محتجًا بقول اللّٰه عزَّ وجلَّ ﴿قُلْ إنّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ ﴾[4] فهذا عام مؤكد، وقد قال رسول اللّٰه ﷺ «لم يحل اللّٰه من الفواحش إلاّ مسألة الناسي». انتهى.

ومن الكتاب المذكور ما نصُّه: إفادة ـ حدّثني الشيخ الفقيه القاضي الجليل الشهير الخطير أبو عبد اللّٰه محمد بن محمد بن أحمد المقَّري، رحمه اللّٰه تعالى، وأملاه علينا،

---

(١) خبر هذا الحصار في الاستقصا (جـ ٣ ص ٧٩ ـ ٨٠).
(٢) قوله: «ألف شهر» لا يتفق والفترة التي يعيّنها.
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٦٦): «في».
(٤) سورة الأعراف ٧، الآية ٣٣.

عن العالم الكبير أبي حيان بن يوسف بن حيان أنه قال: ورد كتاب من الأستاذ أبي عبد الله بن مثبت الغَرْنَاطي إلى صاحب له يسمَّى حمزة، وفيه: سئل الشيخ، قال أبو حيان يعني وجدت على ظهر نسخة من المفصل بخطّ عتيق سئل ابن الأخضر بمحضر ابن الأبرش: عَلامَ انتصب قوله: [الطويل]

مَقَالَةَ أنْ قد قلتُ سوف أنالُهُ

فقال: [الطويل]

ولا تـصـحـبِ الأردى فـتـردى مـع الـرَّدِي

فقال: سألتك عن إعراب كلمة، فأجبتني بشطر بيت، فقال ابن الأبرش: قد أجابك لو كنت تفهم، قال أبو حيان: فوقعت عليه للحين: إنَّ هذا الشطر من قول النابغة[1]: [الطويل]

أتاني، أَبَيتَ اللَّعْنَ، أنك لُمْتَني ... وتلك التي تصطكُّ منها المسامعُ[2]
مقالَةَ أن قد قلتَ سوف أنالُهُ ... وذلك من تلقاءِ مثلكَ رائعُ

يروى «مقالة» بالرفع، على أنه بدل من «أنك لمتني» الفاعل، وبالفتح على ذلك إلاّ أنه بَنَاه لما أضافه إلى مبني.

ومنه: إفادة. حدّثني الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقَّري، رحمه الله تعالى، قال: سئل أبو العباس بن البنّاء، رحمه اللّه تعالى، وكان رجلاً صالحًا، في قوله تعالى: ﴿قالوا إنَّ هذانِ لَساحِرانِ﴾[3] لِمَ لم تعملْ «إنَّ» في «هذان»[4] فقال: لَمَّا لم يؤثر القولُ في المقول لم يؤثِّر العامل في المعمول، فقال له: يا سيدي، هذا لا ينهض جوابًا، فإنه لا يلزم من بطلان قولهم بطلان عمل إنَّ، فقال له: إنَّ هذا الجواب نوارة لا تحتمل أن تُحَكَّ بين الأكفّ؛ انتهى.

---

(١) البيتان في ديوان النابغة الذبياني (ص ٨١).
(٢) في الديوان: «وتلك التي تستكُّ». وقوله «تلك»: أي تلك الملامة.
(٣) سورة طه ٢٠، الآية ٦٣.
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٦٣): «هذا».

ومنه: إفادة ـ قال لنا الشيخ الأستاذ القاضي أبو عبد اللّه المقَّري، رحمه اللّه تعالى: إنَّ أهل المنطق وغيره يزعمون أنَّ الأسماء المعدولة لا تكاد توجد في كلام العرب، وهي موجودة في القرآن، وذلك قوله ﴿لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلكَ ﴾[1] فإن زعم زاعم أنَّ ذلك على حذف المبتدإ، ودخلت «لا» على الجملة، وتقديره لا هي فارض ولا هي بكر، قيل له: إن كان يسوغ لك ذلك في هذا الموضع فلا يسوغ في قوله تعالى ﴿لا شَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ ﴾[2] فصحّ أنّ الاسم المعدول موجودٌ فصيح في كلام العرب.

ومنه: إفادة ـ حدّثنا الأستاذ أبو عبد اللّه المقَّري، قال: سئل عن قوله تعالى ﴿وَهُوَ الذي خَلَقَ الليلَ والنهارَ والشَّمْسَ والقمرَ كلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[3] لِمَ عادَ ضمير مَنْ يعقل إلى ما لا يعقل؟ فقال بعضهم: لما اشترك مع من يعقل في السباحة وهي العوم عومل لذلك معاملته، قال: وهذا لا ينهض جوابًا، فإنَّ السباحة لما لا يعقل كالحوت، وإنما لمن يعقل العَوْم، لا السباحة، وأيضًا فإلحاقُه بما العوم له لازم كالحوت أولى من إلحاقه بما هو غير لازم له، قال: وأجاب الأستاذ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي بأنَّ الشيء المعظم عند العرب تعامله معامَلَةَ العاقل، وإن لم يكن عاقلاً؛ لعظمه عندهم، وأجبت أنا بأنه لما عوملت في غير هذا الموضع معاملة مَنْ يعقل في نحو قوله تعالى ﴿والشَّمْسَ والقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي ساجِدِينَ ﴾[4] لصدور أفعال العقلاء عنها أجْرَى عليها هنا ذلك الحكم للأنس به في موضعه.

ومنه: إفادة ـ لَقَّمني الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد اللّه المقَّري، رحمه اللّه تعالى، لقمة بيده المباركة، وقال: لقَّمني الشيخ أبو عبد اللّه المسفر قال: لقّمني أبو زكريا المحياوي قال: لقّمني أبو محمد صالح قال: لقّمني الشيخ أبو مدين قال: لقّمني أبو الحسن بن حرزهم قال: لقّمني ابن العربي قال: لقّمني الغزالي قال: لقّمني أبو المعالي قال: لقّمني أبو طالب المكي قال: لقّمني أبو محمد الجريري[5] قال: لقّمني الجنيد قال:

---

(1) سورة البقرة ٢، الآية ٦٨.
(2) سورة النور ٢٤، الآية ٣٥.
(3) سورة الأنبياء ٢١، الآية ٣٣.
(4) سورة يوسف ١٢، الآية ٤.
(5) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٦٥): «الحريري» بالحاء المهملة.

لقّمني السقطي قال: لقّمني معروف الكرخي قال: لقّمني داود الطائي قال: لقّمني حبيب العجمي قال: لقّمني الحسن البصري قال: لقّمني علي بن أبي طالب، رضي اللّه تعالى عنه، قال: لقّمني رسول اللّه ﷺ. قلت: وبهذا السند صافحته أيضًا رضي اللّه تعالى عنه؛ انتهى.

وللمحدثين في هذا السند كلام مشهور، وانتصر بعضهم للسادة الصوفية رضي اللّه تعالى عنهم!.

ومنه: إنشادة. أنشدني الشريشي الفقيه أبو عبد اللّه قال: أنشدني القاضي المقّري قال: أنشدني الرباطي قال: أنشدني ابن دقيق العيد لنفسه من صدر رسالة كتب بها لبعض إخوانه بالحجاز[1]: [السريع]

يهيمُ قلبي طَرَبًا عندما أستلمح البرق الحجازيّا
ويستميل الوجْدُ قلبي وقد أصبح لي ثوبُ الحِجَا زيّا
يا هَلْ أُقَضِّي مِنْ مِنًى حَاجَتِي فَأَنْحَرَ الْبُدْنَ الْمَهَارِيَّا[2]
وأرتوي من زمزم فَهْيَ لي ألذُّ من ريق المها ريّا

ومنه: إفادة. حدّثنا الأستاذ القاضي أبو عبد اللّه المقّري، رحمه اللّه تعالى قال: رأيت لبعض مَنْ أَلَّف على كتاب «الكشاف» للزمخشري فائدة لم أرَهَا لغيره في قوله تعالى ﴿والراسخونَ في العِلْمِ﴾[3] إذ الناسُ يختلفون في هذا الموضع اختلافًا كثيرًا، فقال قوم: الراسخون في العلم يعلمون تأويله، والوقوف عند قوله ﴿والراسخونَ في العلم﴾[3] وقال قوم: إنّ الراسخين لا يعلمون تأويله، وإنما يوقف عنده قوله ﴿وما يَعْلَمُ تأوِيلَهُ إلاَّ اللَّهُ﴾[4] فقال هذا القائل: إنَّ الآية من باب الجمع والتفريق والتقسيم، من أنواع البيان، وذلك لأنَّ قوله تعالى ﴿هُوَ الذي أَنْزَلَ عليكَ الكِتابَ﴾[5] هو جمع، وقوله ﴿منه آياتٌ مُحْكَماتٌ

---

(١) الأبيات في الطالع السعيد (ص ٣٣٢).

(٢) البُدْنُ: جمع بَدَنة وهي من الإبل والبقر كالأُضحية من الغنم تُهْدى إلى مكة فتُنْحر بها. والإبل المهاريّة: المنسوبة إلى مَهَرَة بن حَيْدان وهو حيّ من قضاعة من عرب اليمن، أو نسبة إلى مَهَرَة وهي بلدة من عُمان. محيط المحيط (بدن) و (مهر).

(٣) سورة آل عمران ٣، الآية ٧.

(٤) سورة آل عمران ٣، الآية ٧.

(٥) سورة آل عمران ٣، الآية ٧.

هُنَّ أُمُّ الكِتابِ، وأُخَرُ مُتَشابهاتٌ﴾[1] تفريق، وقوله تعالى ﴿فأمّا الذين في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وابْتغاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[2] أحدُ طرفي التقسيم، وقوله تعالى ﴿والراسخونَ في العلم﴾[3] الطرفُ الثاني، وتقديره: وأمّا الراسخون في العلم فيقولون آمنّا به، وجاء قوله تعالى ﴿وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلاّ اللَّهُ﴾[4] اعتراضًا بين طرفي التقسيم، قال: وهذا مثل قوله تعالى ﴿وأنّا مِنّا المُسْلِمونَ. الآية﴾[5] فقوله ﴿وأنّا﴾ جمع، وقوله ﴿مِنّا المسلمون ومِنّا القاسِطُونَ﴾[6] تفريق؛ وقوله ﴿فمنْ أَسْلَمَ﴾[7] ﴿وأمّا القاسطونَ﴾[6] تقسيم، وهو من بديع التفسير، قلت: ومثله أيضًا قوله تعالى ﴿يَوْمَ يأتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاّ بإذْنِهِ. الآيات﴾[8]؛ انتهى.

ومنه: إنشادة. أنشدنا الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد اللَّه المقَّري في القول بالموجب لبعض العلماء في وديعة: [الكامل]

إن قال قد ضاعت فصدِّقْ أنها ضاعت، ولكن منه يعني لو يَعِي[9]
أو قال قد وقعت فصدِّق أنها وقعتْ، ولكن منه أَحْسَنَ موقعِ

ومنه: إنشادة أيضًا من القول بالموجب لبعض الحنابلة: [الطويل]

يحجّون بالمال الذي يجمعونَهُ حَرَامًا إلى البيت العتيقِ المحرَّمِ
ويزعمُ كُلٌّ أنْ تُحَطَّ ذنوبُهُمْ تُحَطُّ ولكنْ فوقَهُمْ في جَهَنَّمِ

ومنه: إفادة. كتب لي بخطّه شيخُنا الفقيه القاضي الجليل أبو عبد اللَّه المقَّري، رحمه اللَّه تعالى، على ظهر «التسهيل» لابن مالك الذي كتبته بخطي بعدما كتب لي بخطّه روايته فيه عن أبي الحسن بن مزاحم عن بدر الدين بن جماعة عن المؤلف، فكتب بعد ذلك ما

(١) سورة آل عمران ٣، الآية ٧.
(٢) سورة آل عمران ٣، الآية ٧.
(٣) سورة آل عمران ٣، الآية ٧.
(٤) سورة آل عمران ٣، الآية ٧.
(٥) سورة الجن ٧٢، الآية ١٤.
(٦) سورة الجن ٧٢، الآية ١٤.
(٧) سورة الجن ٧٢، الآية ١٤.
(٨) سورة هود ١١، الآية ١٠٥.
(٩) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٦٩): «ولكن منك يعني لو تعي».

نصُّه: قال محمد بن محمد المقري: بدر الدين بن جماعة المذكور يدعى بقاضي القضاة، على ما جرت به عوائد أهل المشرق في تسمية مثله، وأنا أكره هذا الاسم محتجًّا بقول النبيّ ﷺ «إنّ أخنع اسم عند اللّه يوم القيامة رجل تسمّى بملك الملوك، لا ملك إلاّ اللّه»؛ انتهى ما انتقيته من كتاب «الإنشادات والإفادات» للشاطبي فيما يتعلّق بجدي رحمه اللّه تعالى.

ومن فوائد مولاي الجدّ، رحمه اللّه، مِمَّا لم يذكر فيما سبق، أنه حكي أنَّ ابن أمجوط المولّه، دخل في حلقة أبي عبد اللّه بن رشيد بجامع القرويين، وبين رجليه قصبة كأنها فرس، وبيده أخرى كأنها رمح، فانتهره رجل، فضربه برمحه على رأسه، وقال له: اسكت يا ميت، فأبهت الناس لكلامه، فقال له الشيخ: يا فقير، أنت في حال ونحن في مقال، وشأن أرباب الأحوال التسليم لأصحاب المقال فنظر إليه المولّه وانصرف، ثم لم ينشب المنتهر أن توفي بعد ذلك بأيام قلائل.

ومنها: قلت لابن شاطر يومًا[1]: كيف حالك؟ فقال: محبوس في الروح، وصدق؛ لأنَّ الدنيا سجن المؤمن، ولا مخلص له من حبسه إلاّ بمفارقة نفسه.

وقال: سألت ابن شاطر عن معنى قول ابن الفارض: [الطويل]

فلم ألْهُ باللاَّهوت عن حكم مَظْهَري ولم أَنْسَ بالناسوتِ موضعَ حكمتي

فقال: يقول ما أنا بالحلاّج ولا ببلعام، ثم قال مولاي الجدّ بعد هذا الكلام ما صورتُهُ: قلت: وهذا هو الإنسان على الكمال والتمام، ولقد سمعته يقول في الحلاّج: نصف إنسان، يشير إلى البيت.

وقال أيضًا رحمه اللّه تعالى: سمع ابن شاطر إنسانًا يقول: الجنّة رخيصة، فقال: كيف تكون رخيصة واللّه عزّ وجلّ يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ المؤمنينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ بأَنَّ لهُم الجَنَّةَ ﴾[2] انتهى. ثم قال مولاي الجدّ بأثر هذا الكلام: قلت: ما الأنفس والأموال في جنب ما فيها مِمّا لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟ لا سيما وفوق هذه الحسنى زيادة الإكرام بالنظر والرضاء.

---

(١) تقدم هذا الكلام في هذا الجزء (ص ٢٤٦).

(٢) سورة التوبة ٩، الآية ١١١.

وقال أيضًا: قيل لابن شاطر: صِفْ لنا الدنيا، فقال: ﴿كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ﴾[1] الآيتين، فبلغ ذلك أبا زيد بن الإمام، فأنكر عائبًا لاستحسان سامعه، تاليًا ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مواضِعِهِ﴾[2] ولقد أصيب المتعسّف بأدهى منها وأمرّ، فإنه أُفحم يومًا ببعض أهل النظر فتلاَ عليه ﴿فَبُهِتَ الذي كَفَرَ﴾[3] على أن له أن يقول: لم أُخرج الآية عن مرادها، فالبهت من انقطاع المعاند، والكفر من جحد الجاحد، ولنا أن نقول: التحريف المذموم هو التحويل للإبطال، وليس هذا من[4] قصد الممثل الأول بالمثال؛ انتهى.

وهذا كله على مذهب جمهور المالكية في منع الاقتباس، وللكلام على ذلك موضع غير هذا، فليراجع في كتب البيان وغيرها.

وقال رحمه اللّه تعالى: حُدِّثت أنّ المتوكل على اللّه أبا عنان، رحمه اللّه تعالى، أعطى ابن شاطر ألف دينار ليحجَّ بها، فمرّ بها إلى تلمسان، فصار يدفع منها شيئًا فشيئًا للمتفرجين بغدير الوريط شرقي عباد تلمسان العلوي، إلى أن نفدت، فلمّا ورد السلطان أبو عنان تلمسان لقيه بسوق العطارين من منشر الجلد، فقال له: يا سيدي أبا عبد اللّه، حجٌّ مبرور، فقال له: إذا جهلت أصل المال فانظر مصارفه، ويأبى اللّه إلاَّ أن ينفق الخبيث في مثله، فضحك السلطان وانصرف؛ انتهى.

وكان لابن شاطر هذا عجائب، ولم يكن مخلاً بشيء من الحقوق الشرعية، وكان مُعْتَقَدًا عند أهل وقته، وكان السلطان أبو عنان على فقهه يعظّمه ويصله، ويسلّم له، وبات عنده ليلة بقصره، وكان يدخل القصر، ولا تحتجب منه الجواري، فاحتاج إلى البول، فبال في قبة في القصر عظيمة، فانتهرته إحدى الجواري، وقالت له: أتبول في قبة مولانا؟ فقال لها: إنّ قبة مولانا الخضراء أعظم من هذه، وأنا أفعل تحتها ما هو أفظع من البول، وما انتهرني قط، فذكرت ذلك الجارية للسلطان، فضحك وعلم أنه يريد السماء. وكان يكتب القرآن والعمدة ولا يغلق حرفًا مجوفًا فإذا غُلب على ذلك أصلحه، حتى حكي أنه سافر

(1) سورة النور ٢٤، الآية ٣٩.
(2) سورة المائدة ٥، الآية ١٣.
(3) سورة البقرة ٢، الآية ٢٥٨.
(4) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٧١): «في قصد».

لإصلاح حرف مجوف أغلقه سهوًا من نسخة كان باعها، ولم يتذكّر ذلك حتى سافر مشتريها، فما رجع حتى جَدَّده.

وحكى الشيخ أبو القاسم بن داود الفخار السلوي أنّ الشيخ أبا عبد اللّه الشريف التلمساني صاحب «المفتاح في أصول الفقه» وشارح «الجمل الخونجية» المتوفى عام اثنين وسبعين وسبعمائة المدفون[1] بالمدرسة اليعقوبية من تلمسان المحروسة افتتح شرح العمدة بما نصّه: اللهمّ احْمَدْ نفسك عمّن أمرته أن يتّخذك وكيلاً، حمدًا عائدًا منك إليك، متحدًا بك، دائمًا بدوام ملكك، لا منقطعًا ولا مفصولاً، قال: فقال لي أبو عبد اللّه بن شاطر: ما هو انفصال عالم الملك؟ فقلت له: بالضرورة الوقتية فقال لي: ما أجهلك! وأجهل سيدك أبا عبد اللّه! وأجهل ابن سودكين[2] الذي أخذ من كتابه هذا الحمد! إذ قال «لا منقطعًا ولا مفصولاً» بعد قوله «بدوام ملكك» وهو بالضرورة الوقتية، وهي منقطعة، فهلاّ قال: «دائمًا بدوام قيوميتك، وعظيم قدرك، ومجدك الأعلى، وسَبُحَات وجهك الأكرم، لا منقطعًا ولا مفصولاً» فبلغ ذلك أبا عبد اللّه الشريف، فبدله؛ انتهى.

وأخبار ابن شاطر كثيرة، وقد مرَّ ذكره في كلام مولاي الجَدِّ رحمه اللّه تعالى، وسيأتي ما ذكره لسان الدين به في «الإحاطة».

ومن فوائد مولاي الجَدّ، رحمه اللّه تعالى، ما قاله إثرَ قولِ الرازي في التفسير «الحس أقوى من العقل» ونصُّه: هذا على ما حكاه في المحصل من أنّ المعقولات فرع المحسوسات، قال: ولذلك مَنْ فقد حسًّا فَقَدْ فَقَدَ علمًا كالأكمه والعِنِّين[3]، ومذهب جمهور الفلاسفة أنّ اليقينيات هي المعقوْلات لا المحسوسات، انظر المحصل؛ انتهى.

ومن فوائده، رحمه اللّه تعالى، أنه قال: أنشدت يومًا الآبلي قول ابن الرومي: [الكامل]

أفنى وأعمى ذا الطبيبُ بِطبِّهِ ... وبكحله الأحياء والبُصَرَاءَ

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٧٢): «دفين المدرسة».

(٢) هو شمس الدين أبو الطاهر إسماعيل بن سودكين بن عبد اللّه النوري التونسي؛ صوفي من تلاميذ محي الدين بن عربي. توفي في حدود سنة ٦٤٦ هـ. شذرات الذهب (ج ٥ ص ٢٣٣) وهدية العارفين (ج ١ ص ٢١٢).

(٣) الأكمه: المولود أعمى. العِنِّين: العاجز عن إتيان النساء. لسان العرب (كمه) و (عنن).

فإذا مررتَ رأيتَ من عميانِهِ أُمَمًا على أمواتِهِ قُرَّاءَ

فاستعادني حتى عجبت منه، مع ما أعرف من عدم ميله إلى الشعر، وانفعاله له[١]، وظننت أنه أُعجب بما تضمّنه البيت الأول من غريب اللفّ والنشر المكرّر الذي لا أعرف له ثانيًا فيه، فقال: أظننت أني استحسنت الشعر؟ فقلت: مثلك يستحسن مثل هذا الشعر، فقال: إنما تعرفت منه كون العميان كانوا في ذلك الزمان يقرأون على المقابر، فإنني كنت أرى ذلك حديثَ العهد، فاستفدت التاريخ.

وقال مولاي الجدّ، رحمه اللّٰه تعالى[٢]: حدثني الآبلي أنّ أبا عبد اللّٰه محمد بن عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الخطيب بتلمسان كان يقول في خطبته: من يطع اللّٰه ورسوله فقد رَشِدَ بالكسر، وكان الطلبة ينكرون عليه ذلك، فلمّا ورد عليهم الراوية الرحلة أبو عبد اللّٰه محمد بن عمر بن رشيد الفهري سمعه يقول ذلك، فأنكر عليه في جملتهم، وبلغ الخطيب ذلك، فلم يرجع، فلمّا قفل ابنُ رشيد من وجهته تلك دخل على الأستاذ أبي الحسن بن أبي الربيع بسبتة، فهنّأه بالقدوم، وقال له فيما قال: رَشِدْتَ. يا ابن رشيد. ورَشَدْتَ لغتان صحيحتان، حكاهما يعقوب في «الإصلاح»[٣]، ثم قال مولاي الجدّ: قلت: هذه كرامة للرجلين أو للثلاثة.

وقال رحمه اللّٰه تعالى[٤]: قال طالب لشيخنا الآبلي يومًا: مفهوم اللقب صحيح؟ فقال له الشيخ: قل زيد موجود، فقال: زيد موجود، فقال له الشيخ: أما أنا فلا أقول شيئًا، فعرف الطالب ما وقع فيه، فخجل.

وهذا الآبلي تقدّم في كلام مولاي الجدّ، رحمه اللّٰه تعالى، أنه عالم الدنيا، وهو تلمساني كما تقدّم، قال تلميذه أبو القاسم السلوي الفخار: دخل عليَّ شيخنا الآبلي يومًا، وأنا أعجن طين الفخارة، فقال لي: ما علامة قبول هذه المادة أكمل صورة تردُ عليها؟ فقلت: أن تدفع عن نفسها ما هو من غير جنسها من حجر أو زبل أو غيره، فأدركه وَجْدٌ

(١) كلمة «له» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٧٠).
(٢) هذه الحكاية في نيل الابتهاج (ص ٢٥٢).
(٣) هو كتاب «إصلاح المنطق» للشيخ الأديب يعقوب بن إسحاق، الشهير بابن السكيت اللغوي المتوفّى سنة ٢٤٤ هـ. كشف الظنون (جـ ١ ص ١٠٨).
(٤) النص في نيل الابتهاج (ص ٢٤٥).

عظيم، حتى إنه صاح وقام وقعد، وبقي هُنَيَّة[1] مطرقًا برأسه مفكرًا، ثم قال: هكذا هي النفوس البشرية.

قال: وقال لي يومًا، وقد وجد الصبيان يصوّتون بقُضُبٍ[2] رقاق على الذباب فإذا خرج قتلوه: الغلط الداخل عليه من أي أنواع المغلطات هو؟ فقلت له: من إيهام العكس، لما كان كلّ ذباب مصوّتًا ظنّ أنّ كل مصوّت ذباب، فاستحسن ذلك. قلت: وحدّثني مولاي العمّ الإمام شيخ الإسلام سيدي سعيد بن أحمد المقّري، رحمه الله تعالى، عن شيخه ابن جلال مفتي حضرتي فاس وتلمسان، أنه كان يحكي أنّ الغلط جاءه من عدم كلية الكبرى في الشكل الأوّل؛ لأنه ركبه هكذا: هذا مصوّت، وكلُّ مصوّت ذباب، وقد علمت أنها هنا إنما تصدق جزئية لا كلية، وإذا كانت جزئية بطل الإنتاج؛ لأن ذلك من الضروب العقيمة؛ انتهى.

ومن فوائد مولاي الجدّ، رحمه الله تعالى، أنه قال[3]: سمعت شيخنا الآبلي يقول: ما في الأمة المحمدية أشعر من ابن الفارض.

وقال أيضًا، رحمه الله تعالى[4]: سمعت شيخنا الآبلي يقول: إنما أفسد العلم كثرة التواليف، وإنما أذهبه بُنْيَان المدارس، وكان ينتصف له من المؤلفين والبانين، وإنه لَكَما قال، غير أنّ في شرح ذلك طولاً، وذلك أنّ التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير[5]، وقد لا يحصل له من العلم إلاّ النّزْر اليسير؛ لأنّ عنايته على قدر مشقّته في طلبه، ثم صار يشتري أكبر ديوان بأبخس ثمن، فلا يقع منه أكثر[6] من موقع ما عوّض عنه، فلم يزل الأمر كذلك حتى نسي الأول بالآخر، وأفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر، وأمّا البناء فلأنه يجذبُ الطلبة إلى ما يرتب فيه من الجرايات[7]، فيقبل بها على من يعيّنه أهل الرياسة للأجراء والإقراء منهم أو مِمّن يرضى

---

(١) هُنَيَّة: تصغير هَنَة وهي ساعةٌ يسيرة، ومثلها هُنَيهة. محيط المحيط (هنو).

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٧٥): «بقصب»، بالصاد المهملة.

(٣) نيل الابتهاج (ص ٢٤٥).

(٤) نيل الابتهاج (ص ٢٤٥ . ٢٤٦).

(٥) في نيل الابتهاج: «مالاً كثيرًا».

(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٧٢): «أكبر».

(٧) في نيل الابتهاج: «لما فيه من مرتب الجرايات».

لنفسه الدخول في حكمهم، ويصرفونها[1] عن أهل العلم حقيقةً الذين لا يُدْعَوْن إلى ذلك، وإن دُعُوا لم يجيبوا، وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم. ثم قال مولاي الجدّ، رحمه اللّٰه تعالى: ولقد استباح الناسُ النقلَ من المختصرات الغريبة أربابها، ونسبوا ظواهر ما فيها إلى أُمّهاتها، وقد نبّه عبدُ الحق في «تعقيب التهذيب» على ما يمنع من ذلك لو كان مَنْ يسمع. وذيلت كتابه بمثل عدد مسائله أجمع. ثم تركوا الرواية فكثر التصحيف، وانقطعت سلسلة الاتصال، فصارت الفَتَاوى تُنْقَل من كتب مَنْ لا يدري ما زيد فيها مِمّا نقص منها؛ لعدم تصحيحها، وقلّة الكشف عنها. ولقد كان أهل المائة السادسة وصدر السابعة لا يسوّغون الفتوى من «تَبْصِرة» الشيخ أبي الحسن اللخمي لكونه لم يُصَحَّح على مؤلّفه ولم يؤخذ[2] عنه، وأكثر ما يُعتمد اليوم ما كان من هذا النَّمَط. ثم انضاف إلى ذلك عدم الاعتبار بالناقلين، فصار يؤخذ من كتب المسخوطين كما يؤخذ من كتب المرضيين[3]، بل لا تكاد تجد من يفرق بين الفريقين، ولم يكن هذا فيمن قبلنا، فلقد تركوا كتب البراذعي على نبلها، ولم يُستعمل منها، على كره من كثير منهم، غير «التهذيب» الذي هو «المدوّنة» اليوم؛ لشهرة مسائله وموافقته في أكثر ما خالف فيه المدوّنة لأبي محمد. ثم كَلَّ أهلُ هذه المائة عن حال مَنْ قبلهم من حفظ المختصرات وشقّ الشروح والأصول الكبار، فاقتصروا على حفظ ما قلَّ لفظه، ونَزَر حَظُّه، وأفنوا أعمارهم في فهم رموزه، وحلِّ لغوزه، ولم يصلوا إلى ردِّ ما فيه إلى أصوله بالتصحيح، فضلاً عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح، بل هو حلُّ مُقْفَل، وفهم أمر مجمل، ومطالعة تقييدات زعموا أنها تستنهض النفوس. فبينا نحن نستكبر العدول عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ، أُتيحت لنا تقييدات للجهلة، بل مسوّدات المسوخ، فإنّا للّٰه وإنّا إليه راجعون، فهذه جملة تهديك إلى أصل العلم، وتريك ما غفل الناس عنه؛ انتهى.

ولنصلها بخاتمة تشير إلى حال العلماء أيضًا. اِعْلَمْ أنَّ شَرَّ العلماء علماء السلاطين، وللعلماء معهم أحوال؛ فكان الصدر الأول يفرون منهم، وهم يطلبونهم، فإذا حضر واحد منهم أفرغوا عليه الدنيا إفراغًا ليقتنصوا بذلك غيره، ثم جاء أهل العصر الثاني، فطمحت

---

(١) في نيل الابتهاج: «ويصرفهم».
(٢) في نيل الابتهاج: «لكونها لم تصحّح على مؤلفه ولم تؤخذ..».
(٣) في نيل الابتهاج: «كالأخذ من المرضيين».

أنفسهم إلى دنيا مَنْ حصل لهم، ومنعهم قربُ العهد بالخير عن إتيانهم، فكانوا لا يأتونهم، فإن دَعَوْهم أجابوهم إلاّ القليل، فانتقصوا مِمّا كان لغيرهم بقدر ما نقصوا من منابذتهم، ثم كان فيمن بعدهم من يأتيهم بلا دعوة، وأكثرهم إن دُعِي أجاب، فانتقصوا بقدر ذلك أيضًا، ثم تطارح جمهورُ مَنْ بعدهم عليهم، فاستغنوا بهم عن دعاء غيرهم، لا على جهة الفضل أو محبة المدحة منهم، فلم يبقوا عليهم من ذلك إلاّ النزر اليسير، وصرفوهم في أنواع السخر والخدم إلاّ القليل، وهم ينتظرون صرفهم، والتصريح بالاستغناء عنهم، وعدم الحاجة إليهم، ولا تستعظم هذا، فلعلّه سبب إعادة الحال جَذَعَة، عجب اللّه من قوم يُقَادون إلى الجنّة بالسلاسل، وهذا كلّه ليظهر لك سرّ قول النبيّ ﷺ «لتتبعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكمْ، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبّ لدخلتموه خلفهم» قيل: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» وقد قصّ علينا القرآن والأخبار من أمرهم ما شاهدنا أكثره أو أكثر منه فينا، سمعت العلاّمة الآبلي يقول[1]: لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مِمّا نزل فيهم؛ لأنّا أتينا أكثر مِمّا أتوا، يشير إلى افتراق هذه الأمة على أكثر مِمّا افترقت عليه بنو إسرائيل، واشتهار بأسهم بينهم إلى يوم القيامة، حتى ضعُفوا بذلك عن عدوّهم، وتعدّد ملوكهم لاتّساع أقطارهم واختلاف أنسابهم وعوائدهم، حتى غلبوا بذلك على الخلافة، فنزعت من أيديهم، وساروا في الملك بسير من قبلهم، مع غَلَبة الهوى واندراس معالم التقوى، لكنّا آخر الأمم، أطلعنا اللّه من غيرنا على أقلّ مِمّا ستر منّا، وهو المرجوّ أن يُتمّ نعمته علينا، ولا يرفع ستره الجميل عنّا. فمن أشدّ ذلك إتلافًا لغرضنا تحريف الكلم عن مواضعه الصحيح أنّ ذلك لم يكن بتبديل اللفظ، إذ لا يمكن ذلك في المشهورات من كتب العلماء المستعملة، فكيف في الكتب الإلٰهية، وإنما كان ذلك بالتأويل كما قال ابنُ عباس وغيره، وأنت تبصر ما اشتملت عليه كتبُ التفسير من الخلاف، وما حُمِّلت الآي والأخبار من التأويلات الضعاف، قيل لمالك: إذا اختلف الناس في تفسير القرآن؟ فقال: قالوا بآرائهم فاختلفوا، أين هذه من قول الصدّيق «أيُّ سماء تُظِلُّني؟ وأيُّ أرض تُقِلُّنِي، إذا قلت في كتاب اللّه عزّ وجلّ برأيي؟» كيف وبعض ذلك قد انحرف عن سبيل العدل إلى بعض الميل، وأقرب ما يحمل عليه جمهور اختلافهم أن يكون بعضهم قد علم بقصد إلى تحقيق نزول الآية من سبب أو حكم أو غيرهما، وآخرون لم يعلموا ذلك على التعيين، فلمّا طال

---

(١) النص في نيل الابتهاج (ص ٢٤٦).

بحثهم وظنّوا عجزهم أرادوا تصوير الآية بما يسكن النفوس إلى فَهْمها في الجملة؛ ليخرجوا عن حدِّ الإبهام المطلق، فذكروا ما ذكروه على جهة التمثيل، لا على سبيل القطع بالتعيين، بل منه ما لا يعلم أنه أريد لا عموماً ولا خصوصاً، لكنه يجوز أن يكون المراد، فإن لم يكن إياه فهو قريب من معناه، ومنه ما يعلم أنه مراد لكن بحسب الشركة والخصوصية، مع جواز أن يكون هو المراد بحسب الخصوصية، ثم اختلط الأمران. والحقّ أنّ تفسير القرآن من أصعب الأمور، فالإقدام عليه جراءة، وقد قال الحسن لابن سيرين: تعبر الرؤيا كأنك من آل يعقوب! فقال له: تفسّر القرآن كأنك شهدت التنزيل! وقد صحّ أنَّ رسول اللّه ﷺ، لم يكن يفسّر من القرآن إلاّ آيات معدودة، وكذلك أصحابه والتابعون بعدهم، وتكلّم أهل النقل في صحة التفسير المنسوب لابن عباس إليه إلى غير ذلك، ولا رخصة في تعيين الأسباب والناسخ والمنسوخ إلاّ بنقل صحيح أو برهان صريح، وإنما الرخصة في تفهيم ما تفهمه العرب بطباعها من لغة وإعراب وبلاغة لبيان إعجاز ونحوها؛ انتهى.

ولنرجع إلى بقية أنباء مولاي الجدّ، رحمه اللّه، فنقول: قال صاحب «نيل الابتهاج، بتطريز الديباج» ما صورته[1]: محمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني الشهير بالمَقَّري . بفتح الميم، وتشديد القاف المفتوحة . كذا ضبطه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في كتابه «العلوم الفاخرة» وضبطه ابنُ الأحمر في فهرسته وسيدي أحمد زروق، بفتح الميم وسكون القاف . الإمام، العلاّمة، النظّار، المحقق، القدوة الحجّة، الجليل، الرحلة[2]، أحد فحول أكابر علماء المذهب المتأخرين الأثبات، قاضي الجماعة بفاس، ذكره ابن فَرْحُون في الأصل، يعني «الديباج»، وأثنى عليه؛ انتهى.

وقال الخطيب ابن مرزوق[3]: كان صاحبنا المقري معلوم القدر، مشهور الذكر بالخير، تبعه بعد موته من حسن الثناء، وصالح الدعاء، ما يُرْجى له النفع به يوم اللقاء، وعوارفه معلومة عند الفقهاء، ومشهورة بين الدهماء[4]؛ انتهى.

---

(١) نيل الابتهاج (ص ٢٥٠).
(٢) كلمة «الرحلة» غير واردة في نيل الابتهاج.
(٣) هذا النص في نيل الابتهاج (ص ٢٥٠).
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٧٦): «الرعاء».

وقال أبو العباس الونشريسي[1] في بعض فوائده: ومَقَّرة - بفتح الميم، بعدها قاف مفتوحة مشدّدة - قرية من قرى بلاد الزاب من أعمال إفريقة، سكنها سَلَفُه، ثم تحوّلوا إلى تِلِمْسَان، وبها وُلد الفقيه المذكور، وبها نشأ، وقرأ وأقرأ، إلى أن خرج منها صحبة الركاب المتوكلي العناني أمير المؤمنين فارس عام تسعة وأربعين وسبعمائة إلى مدينة فاس المحروسة، فولاّه القضاء، فنهض بأعبائه علمًا وعملاً، وحُمدت سيرته، ولم تأخذه في اللّه لومة لائم، إلى أن توفي بها إثر قدومه من بلاد الأندلس في غرض الرسالة لأبي عنان عام تسعة وخمسين وسبعمائة، ثم نُقل إلى مسقط رأسه تلمسان.

وقال في موضع آخر: إنه توفي، رحمه اللّه تعالى، يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى عام تسعة وخمسين وسبعمائة، بمدينة فاس المحروسة، ثم نُقل إلى تلمسان محلّ ولادته ومقرّ أسلافه، ودفن بها في البستان الملاصق لقبلي داره الكائنة بباب الصرف من البلد المذكور، وهو الآن على ملك بعض ورثة الشيخ أبي يحيىٰ الشريف؛ انتهى.

ومن أخبار مولاي الجدّ، رحمه اللّه تعالى، أنه قال[2]: شهدت الوقفة سنة أربع وأربعين وسبعمائة، وكانت جمعة، وقام الخطيب في سابع ذي الحجة في الناس بالمسجد الحرام، وقال: إن جمعة وقفتكم هذه خاتمة مائة جمعة وقف بها من الجمعة التي وقف فيها رسول اللّه ﷺ، في حجّة الوداع آخر عشر من الهجرة، وشاع ذلك في الناس وذاع، وكان علم ذلك ممّا تواتر عندهم، واللّه أعلم، وهم يزعمون أنّ الجمعة تدور على خمس سنين، وهذا منافٍ لذلك، ولكن كثير منهم ينكر اطّراد هذا ويقول: إنها قد تكون على خلاف ذلك، فلا أدري.

ومنها أنه قال[3]: شهدت شمس الدين بن قيّم الجوزية مقيم[4] الحنابلة بدمشق، وقد سأله رجل عن قوله عليه الصلاة والسلام «من مات له ثلاثة من الولد كانوا له حجابًا من النار» كيف إن أتى بعد ذلك بكبيرة؟ فقال: موت الولد حجاب، والكبيرة خرق لذلك الحجاب، وإنما يكون الحجاب حجابًا ما لم يُخرق، فإذا خُرق فقد زال عن أن يكون

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «الوانشريسي».
(٢) النص في نيل الابتهاج (ص ٢٥٢).
(٣) نيل الابتهاج (ص ٢٥٢).
(٤) هكذا في نيل الابتهاج. وفي طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٨٣): «قيم».

حجابًا، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام «الصوم جُنَّة»[(١)] ما لم يخرقها، ثم قال: وهذا الرجل أكبر أصحاب تقي الدين ابن تيمية.

ومن أخبار مولاي الجدّ الدالّة على صرامته ما حكاه ابن الأزرق عنه[(٢)]: أنه كان يحضر مجلس السلطان أبي عنان لبثّ العلم، وكان نقيب[(٣)] الشرفاء بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميعُ مَنْ في المجلس إجلالاً له، إلاّ الشيخ المقّري فإنه كان لا يقوم في جملتهم، فأحسَّ النقيب من ذلك، وشكاه إلى السلطان، فقال له السلطان: هذا رجلٌ واردٌ علينا نتركه على حاله إلى أن ينصرف، فدخل النقيب في بعض الأيام على عادته، فقام له السلطان على العادة وأهل المجلس، فنظر إلى المقّري، وقال له: أيها الفقيه، ما لك لا تقوم كما يفعل السلطان نصره اللّٰه وأهلُ مجلسه إكراما لجدي ولشرفي؟ ومَنْ أنت حتى لا تقوم لي؟ فنظر إليه المقّري وقال له: أمّا شرفي فمحقّق بالعلم الذي أنا أبثّه ولا يرتاب فيه أحد، وأمّا شرفك فمظنون، ومن لنا بصحته منذ أزيد من سبعمائة سنة، ولو علمنا شرفك قطعًا لأقمنا هذا من هنا، وأشار إلى السلطان أبي عنان، وأجلسناك مجلسه، فسكت؛ انتهى.

قال ابن الأزرق[(٤)]: وعلى اعتذاره ذلك بأن الشرف الآن مظنون[(٥)]، فمن معنى ذلك أيضًا ما يحكى عنه أنه كان يقرأ بين يدي السلطان أبي عنان المذكور صحيح مسلم بحضرة أكابر فقهاء فاس وخاصتهم، فلمّا وصل إلى أحاديث «الأئمة من قريش» قال الناس: إن قال الشيخ «الأئمة من قريش» وأفصح بذلك استوغر[(٦)] قلب السلطان، وإن وَرَّى[(٧)] وقع في محظور، فجعلوا يتوقّعون له ذلك، فلمّا وصل إلى الأحاديث قال بحضرة السلطان: والجمهور أنّ الأئمّة من قريش، ثلاثًا، ويقول بعد كلّ كلمة: وغيرهم مُتَغَلِّبٌ، ثم نظر إلى السلطان وقال له: لا عليك، فإنّ القرشي اليوم مظنون، أنت أهل للخلافة، إذ بعض

---

(١) الجُنَّة، بضم الجيم: الوقاية. لسان العرب (جنن).

(٢) النص في نيل الابتهاج (ص ٢٥٤).

(٣) في نيل الابتهاج: «مزوار».

(٤) النص في نيل الابتهاج (ص ٢٥٤).

(٥) في نيل الابتهاج: «يكون الشرف الآن مظنونًا».

(٦) استوغر قلبَ السلطان: ملأه بالحقد والغضب. لسان العرب (وغر).

(٧) ورَّى: استعمل التورية.

الشروط قد توفّرت فيك والحمد للّه، فلمّا انصرف إلى منزله بعث له السلطان بألف دينار؛ انتهى.

قال أبو عبد اللّه بن الأزرق[1]: قلت: ويلزم أيضًا من اعتذاره أنّ قيام السلطان لذي الشرف المحقق بالعلم أولى بالمحافظة[2] على تعظيم حرمات اللّه، وقد رُوي عن بعض الأمراء أنه تكبّر على ذلك، واستخفّ بمنزلة من عظم به غيره، فسلبه اللّه ملكه وملكَ بنيه من بعده؛ انتهى.

ومن أجوبة مولاي الجدّ، رحمه اللّه تعالى، قوله[3]: سألني السلطان عمّن لزمته يمين[4] على نفي العلم فحلف جهلاً على البتّ، هل يعيد أم لا؟ فأجبته بإعادتها، وقد كان مَنْ حضر من الفقهاء أفتوا بأن لا تعاد؛ لأنه أتى بأكثر ممّا أمر به على وجه يتضمّنه، فقلت له: اليمين على وجه الشك غَمُوس، قال ابن يونس: والغموس: الحلف على تعمّد الكذب، أو على غير يقين، ولا شكّ أنّ الغموس محرّمة منهيّ عنها، والنهي يدلّ على الفساد، ومعناه في العقود عدم ترتب أثره؛ فلا أثر لهذه اليمين، ويجب أن تعاد، وقد يكون من هذا اختلافهم فيمن إذْنُهَا السكوت، فتكلّمت هل يُجتزأ[5] بذلك؟ والإجزاء هنا أقرب؛ لأنه الأصل، والصمات رخصة لعلبة الحياء، فإن قلت: البتّ أصل، ونَفْيُ العلم إنما يعتبر عند تعذّره، قلت: ليس رخصة كالصّمات.

ومنها أنه قال[6]: سألني بعضُ الفقهاء عن السبب في سوء بخت المسلمين في ملوكهم، إذ لم يَلِ أمْرَهم من يسلك بهم الجادّة ويحملهم على الواضحة، بل من يغتر في مصلحة[7] دنياه، غافلاً عن عاقبة أخراه، فلا يرقب في مؤمن إلاً ولا ذمّة، ولا يراعي عهدًا ولا حرمة، فأجبته بأنّ ذاك لأنَّ المُلْكَ ليس في شريعتنا وذلك[8] أنه كان فيمن قبلنا شرعًا،

---

(١) النص في نيل الابتهاج (ص ٢٥٤).
(٢) في نيل الابتهاج: «في المحافظة».
(٣) نيل الابتهاج (ص ٢٥٣).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٧٩): «ألزمته يمينًا».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «يجتزى».
(٦) نيل الابتهاج (ص ٢٥٣).
(٧) في نيل الابتهاج: «صلاح».
(٨) في طبعة عبد الحميد: «ذلك».

قال اللّه تعالى ممتنًا على بني إسرائيل ﴿وجَعَلَكُمْ ملوكًا ﴾[1] ولم يكن ذلك في هذه الأمة، بل جعل لهم خلافة، قال اللّه تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الذينَ آمَنُوا مِنكُمْ وعَمِلُوا الصالحاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض - الآية ﴾[2] وقال تعالى ﴿وقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إنَّ اللَّهَ قد بَعَثَ لكُمْ طالوتَ مَلِكًا ﴾[3] وقال سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لي وَهَبْ لي مُلْكًا ﴾[4] فجعلهم اللّه تعالى ملوكًا، ولم يجعل في شرعنا إلاَّ الخلفاء، فكان أبو بكر خليفة رسول اللّه ﷺ، وإن لم يستخلفه نصًا، لكن فهم الناس ذلك فهمًا، وأجمعوا على تسميته بذلك، ثم استخلف أبو بكر عُمَرَ، فخرج بها عن سبيل الملك الذي يرثه الولد عن الوالد، إلى سبيل الخلافة الذي هو النظر والاختيار، ونَصَّ في ذلك على عهده، ثم اتَّفق أهل الشُّورَى[5] على عثمان، فإخراج عمر لها عن بنيه إلى الشورى دليل على أنها ليست ملكًا، ثم تعين عليٌّ بعد ذلك، إذ لم يبق مثلُه، فبايعه مَنْ آثر الحقّ على الهوى، واصطفى الآخرة على الدنيا، ثم الحسن كذلك، ثم كان معاوية[6] أول مَنْ حوَّل الخلافة ملكًا، والخشونة لينًا، ثم إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم، فجعلها ميراثًا، فلمّا خرج بها عن وَضْعها[7] لم يستقم ملك فيها، ألا ترى أنّ عمر بن عبد العزيز، رضي اللّه عنه، كان خليفة لا ملكًا، لأنّ سليمان، رحمه اللّه تعالى، رغب عن بني أبيه إيثارًا لحقّ المسلمين، ولئلاّ يتقلّدها حيًّا وميتًا، وكان يعلم اجتماع الناس عليه، فلم يَسْلك طريق الاستقامة بالناس قَطُّ إلاّ خليفة، وأمّا الملوك فعلى ما ذكرت إلاّ من قل، وغالبُ أفعاله غير مرضية؛ انتهى.

وفوائد مولاي الجدّ وتُحَفُه وطُرَفُه ولطائفُه ودقائقُه يستدعي استقصاؤها مجلداتٍ، فلنَكْتَفِ بما قدّمناه: [البسيط]

وفي الإشـارة مـا يغـنـي عـن الكـلـمِ

---

(١) سورة المائدة ٥، الآية ٢٠.

(٢) سورة النور ٢٤، الآية ٥٥.

(٣) سورة البقرة ٢، الآية ٢٤٧.

(٤) سورة ص ٣٨، الآية ٣٥.

(٥) يريد الستة الذين عيّنهم عمر، رضي اللّه عنه، ليختاروا منهم واحدًا يكون خليفة المسلمين، وهم علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضي اللّه عنهم.

(٦) في طبعة عبدالحميد (جـ ٧ ص ٢٨٠): «معارية».

(٧) في نيل الابتهاج: «عن موضعها».

وأما تآليفه فكثيرة[١]: منها كتاب «القواعد» اشتمل على ألف قاعدة ومائتي قاعدة، قال العلاّمة الونشريسي[٢] في حقّه: إنه كتاب غزير العلم، كثير الفوائد، لم يُسبق إلى مثله، بَيْدَ أنه يفتقر إلى عالم فتاح؛ انتهى.

وقد أشار فيه إلى مأخذ الأربعة، وهو قليل بهذه الديار المشرقية، ولم أرَ منه بمصر إلاّ نسخة عند بعض الأصحاب، وذكر أنها من أوقاف رواق المغاربة بالأزهر المعمور، وأمّا قول لسان الدين في «الإحاطة» عند تعرّضه لذكر تآليف مولاي الجدّ ما صورته[٣]: «ألّف كتابًا يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية، ضمّنها كلّ أصل من الرأي والمباحثة» فهو غير القواعد بلا مِرْيَة[٤].

ومنها كتاب «الطُرَف والتُحف»[٥] غاية في الحسن والظرف، قاله الونشريسي[٢] وقد وقفت على بعضه فرأيت العجب العجاب.

ومنها «اختصار المحصل» ولم يكمله، وشرحه لجمل الخونجي، كذلك[٦]، ومنها كتاب «عمل من طَبَّ لمن حَبَّ» وهو بديع في بابه، مشتمل على أنواع: الأول فيه أحاديث حكمية كأحاديث «الشهاب» و «سراج المهتدين» لابن العربي، والنوع الثاني منه الكليات الفقهية على جملة أبواب الفقه في غاية الإفادة، والثالث في قواعد وأصول، والرابع في اصطلاحات وألفاظ، قال الونشريسي[٢]: وقد أطلعني الفقيه أبو محمد عبد اللّه بن عبد الخالق على نسخة من هذا الكتاب، فتلطّفت في استنساخها، فلم يسمح به؛ انتهى.

قلت: وقد رأيت هذا الكتاب بحضرة فاس عند بعض أولاد ملوك تلمسان وهو فوق ما يوصف، وفيه يقول مولاي الجدّ، رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

هذا كتابٌ بديعٌ في محاسنِهِ ضمّنته كل شيء خِلْتُهُ حسنا

---

(١) نيل الابتهاج (ص ٢٥٥).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «الوانشريسي».
(٣) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٠٣).
(٤) بلا مِرْية: بلا شكّ. محيط المحيط (مرى).
(٥) في نيل الابتهاج: «التُحف والطُرَف».
(٦) في نيل الابتهاج: «لم يتمّ».

فكلُّ ما فيه إن مَرَّ اللبيبُ به ولم يشمَّ عبيرًا شَامَ منه سَنَا
فخذه واشددْ به كفّ الضنين وذُدْ ، حتى تحصّله، عن جفنك الوَسَنَا

وهذه الأبيات كافية في وصف هذا الكتاب، إذ صاحب البيت يدري بالذي فيه.

ومنها كتاب «المحاضرات» وفيه من الفوائد والحكايات والإشارات كثير، وقد ملكتُ منه بالمغرب نسختين، فلنذكر منه بعض الفوائد، فنقول: قال رحمه اللّه تعالى: قيل لصوفي: لِمَ تقول اللّه اللّه ولا تقول لا إله إلاّ اللّه؟ فقال نَفْيُ العيب حيث يستحيل العيب عيب، وهذا إن لم يكن في هذه الكلمة؛ لأنها أفضلُ ما قالته الأنبياء فهو في كثير من التنزيه الذي يطلقه المتكلّمون وغيرهم، حتى قال الشاشي عنهم: إنهم يتمندلون[1] بأسماء اللّه عزَّ وجلَّ، ما عَرَفَه مَنْ كَيَّفه، ولا وَحَّده مَنْ مَثَّله، ولا عَبَده مَنْ شبهه، المشبِّه أعشى، والمعطِّل أعمى، المشبّه متلوّث بفرث التجسيم، والمعطّل نجس بدم الجحود، ونصيبُ المحقّ لبن خالص وهو التنزيه، اِنْزِلْ من علوّ التشبيه، ولا تَعْلُ قُلَلَ[2] أباطيل التعطيل، فالوادي المقدّس بين الجبلين.

أبو المعالي: من اطمأنّ إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مُشَبِّه، ومن سكن إلى النفي المحض فهو مُعَطِّل، وهو قطع بموجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو مُوَحِّد: [الوافر]

جلَّ ربّ الأعراض والأجسام عن صفاتِ الأعراض والأجسامِ
جَلَّ ربّي عن كلِّ ما اكتنفته لحظاتُ الأفكارِ والأوهامِ
بريء اللّه من هشامٍ[3] وممّن قال في اللّه مثل قول هشامِ

الدقاق: المريد صاحب وَلَه؛ لأنّ المراد بلا شَبَه، وقيل: مثله الأعلى ﴿ليسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ﴾[4].

الجنيد: أشرفُ كلمة في التوحيد قول الصّدّيق: الحمد للّه الذي لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلاّ بالعجز عن معرفته.

---

(١) يقال: تمندل بالمنديل إذا تمسّح به أو شدّه برأسه واعتمّ به. محيط المحيط (ندل).
(٢) القُلَلُ: جمع قُلّة وهي القِمّة. لسان العرب (قلل).
(٣) هشام: هو هشام بن عمرو الفوطي، وهو قدري، وله فرقة تنسب إليه.
(٤) سورة الشورى ٤٢، الآية ١١.

القُشَيْري: يعني أنّ العارف عاجز عن معرفته، والمعرفة موجودة فيه.

غيره: ما عرف اللّه سوى اللّه، لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك: [الخفيف]

كلّ ما ترتقي إليه بوهمٍ مِنْ جلالٍ وقدرةٍ وسناءٍ[1]
فالذي أبدع البريةَ أعْلىٰ منه، سبحان مبدع الأشياءِ!

سئل[2] المريسي الشافعي عن التوحيد بحضرة الرشيد، فقال: أن لا تتوهّمه ولا تتّهمه، فأبهت. بِشْرٌ[3].

الشبلي: من توهّم أنه واصل، فليس له حاصل، ومن رأى أنه قريب فهو بعيد، ومن تواجد فهو فاقد، ومن أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو غافل، ومن سكت عنه فهو جاهل. ما أرادت همّة سالكٍ أن تقف عندما كشف لها إلاّ نادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك، وما تبرّجت ظواهر المكونات إلاّ نادتك حقائقها: إنّما نحن فتنة فلا تكفر: [البسيط]

ما ينتهي نظري منهمْ إلى رُتَبٍ في الحسن إلاّ ولاَحَتْ فوقها رُتَبُ

الجريري: ليس لعلم التوحيد إلاّ لسان التوحيد.

الحسن: العجز عن درك الإدراك إدراك: [البسيط]

تبارك اللّه وارَتْ غَيْبَهُ حُجُبٌ فليس يعرفُ إلاّ اللّهُ ما اللّهُ

دعا نبي إلى اللّه، عزَّ وجلَّ، بحقيقة التوحيد، فلم يستجب له إلاّ الواحد بعد الواحد، فعجب من ذلك، فأوحى اللّه، عزَّ وجلَّ، إليه: تريد أن تستجيب لك العقول؟ قال: نعم، قال: احْجُبْنِي عنها، قال: كيف أحجبك وأنا أدعو إليك؟ قال: تكلّم في الأسباب، وفي أسباب الأسباب، فدعا الخلق من هذا الطريق، فاستجاب له الجمّ الغفير.

ومنه: سمع أعرابي اختلافَ المتكلّمين بمسجد البصرة في الإنسان وانتزاع كلّ واحد

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٨٣): «وثناء».
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٢٨٧): «سأل».
(٣) كلمة «بِشْر» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

منهم الحجّة على رأيه، فخرج وهو يقول: [الرجز]

إن كنتُ أدرى فعليَّ بَدَنَهْ مِنْ كثرة التخليط فيّ مَنْ أَنَهْ[1]

ومنْ عجز عن أقرب الأشياء نسبة منه، فكيف يقدر على أبعد الأمور حقيقة عنه؟ من عرف نفسه عرف ربّه.

ومنه: دَعْ ما يسبق إلى القلوب إنكارُهْ، وإن كان عندك اعتذارُهْ.

لمّا احْتُضِرَ الوليد بن أبان، قال لبنيه: هل تعلمون أحدًا هو أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا، قال: فإني أُوصيكم بما عليه أهل الحديث، فإنّي رأيت الحقَّ معهم. وعن أبي المعالي نحوه.

ومنه: هجر أحمدُ المحاسبيَّ لما صنّف في علم الكلام، فقال: إنما قصدت إلى نصر السّنّة، فقال: ألست تذكر البدعة والشبهة؟ قلت: من تحقّق كلام فخر الدين الرازي وجده في تقرير الشُّبَهة أشد منه في الانفصال عنها، وفي هذا ما لا يخفى.

ومنه: مَنْ آمن بالنظر إلى ظاهر الثعبان كفر بالاستماع إلى خُوَار العجل، ومن شاهد مجاوزة القدرة الإلٰهية لمنتهى وسع القوة البشرية لم يكترث بوعيد الدنيا ولم يؤثر الهوى على الهدى والتقوى.

ومنه: علي بن الحسن: مَنْ عرف اللّه بالأخبار، دون شواهد الاستبصار والاعتبار، اعتمد على ما تلحقه التهم.

ومنه: قيل لطبيب: بِمَ عرفت ربّك؟ قال: بالإهليلج[2]، يجفف الحلق، ويلين البطن. وقيل لأديب: بِمَ عرفت ربّك؟ قال: بنحلة في أحد طرفيها عسل، وفي الآخر لسع، والعسل مقلوب اللسع، وسأل الدهرية الشافعي عن دليل الصانع، فقال: وَرَقَة الفرصاد[3] تأكلها دودة القزّ فيخرج منها الإبريسم[4]، والنحل فيكون منها العسل، والظّباء

---

(١) أنه: لغة في «أنا» حيث ألحق بها الهاء.
(٢) الأهليلج: شجر له ثمر يشبه في شكله حبّ الصنوبر. لسان العرب (هلج).
(٣) الفرصاد: التوت. محيط المحيط (فرصد).
(٤) الإبْرِيسَم: الحرير قبل أن يخرقه الدود. محيط المحيط (إبريسم).

فينعقد في نوافجها[1] المسك، والشاء فيكون منها البعر، فآمنوا كلّهم، وكانوا سبعة عشر.

قيل لأعرابي: بمَ عرفت ربَّك؟ فقال: البعرة تدلّ على البعير، والروث يدلّ على الحمير، وآثار الأقدام تدلّ على المسير، فسماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج، أمَا يدلُّ ذلك على العليم القدير: [الكامل]

قد يستدلّ بظاهر عن باطن حيث الدخانُ يكونُ مَوْقِدُ نارِ

قيل لأعرابي: بمَ عرفت اللّه؟ قال: بنقص عزائم الصدور، وسوق الاختيار إلى حبائل المقدور.

ومنه: الدقاق: لو كان إبليس بالحقّ عارفًا، ما كان لنفسه بالإضلال والإغواء واصفًا.

ومنه: التوحيد محو آثار البشرية، وتجديد صفات الألوهية. الحقّ واحد في ذاته لا ينقسم، واحد في صفاته لا يُمَاثَل، واحد في أفعاله لا يشارك. لو كان موجودًا عن عدم، ما كان موصوفًا بالقدم. الحياة شرط القدرة، دلّت على ذلك الفطرة. لو لم يكن الصانع حيًا، لاستحال أن يوجد شيئًا. لو لم يكن باقيًا، لكان للألوهية منافيًا. لو كان الباري جسمًا، ما استحقّ الإلٰهية اسمًا. لو كان الباري جوهرًا، لكان للحيز مفتقرًا. العَرَضُ لا يبقى، والقديم لا يتغيّر ولا يفنى. لو لم يكن بصفة القدرة موصوفًا، لكان بِسمة العجز معروفًا. لو لم يكن عالمًا قادرًا، لاستحال كونه خالقًا فاطرًا. دلّت الفطرة والعبرة، أنّ الحوادث لا تحصل إلاّ من ذي قُدْرَة. لو لم يكن بالإرادة قاصدًا، ما كان العقل بذلك شاهدًا. مَنْ تنوع إيجاده، دلّ ذلك على أنّ الفعل مُرَاده. لو لم يكن بالسمع والبصر موصوفًا، لكان لضدّيهما مألوفًا. لو جاز سامع لا سَمْعَ له، لجاز صانع لا صنع له. لو كان سمعه بأذن، لافتقرت ذاته إلى ركن. مَنْ صدرت عنه الشرائع والأحكام، كان موصوفًا بالكلام. ليس في الصفات السبع ما لا يتعلّق إلاّ الحياة، ولا ما يؤثّر إلاّ القدرة والإرادة. كما جاز أن يأمر بما لا يريد جاز أن يريد ما لا يحبّ. لا يُسْأل عمّا يفعل. الواحد كافٍ، وما زاد عليه متكافٍ. ليس مع اللّه تعالى موجودات؛ لأنّ الموجودات كلّها كالظّلّ. من نور القدرة له نور التبعية، لا رتبة المعية: [مجزوء الرمل]

إنَّ مَـنْ أشـرك بـالـلّـ ـه جَـهُـولٌ بـالـمـعـانـي

---

(١) النوافج: جمع نافجة وهي وعاء المسك. محيط المحيط (نفج).

أحـول الـعـقـلِ؛ لـهـذا ظـنّ لـلـواحـد ثـانـي

قال جعفر بن محمد[1]: لو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان من شيء لكان مُحْدَثًا.

قيل لثمامة بن الأشرس: متى كان اللّه؟ فقال: ومتى لم يكن؟ فقيل: فلِمَ كفر الكافر؟ فقال: الجواب عليه.

قال خادم أبي عثمان: قال لي مولاي: يا محمد، لو قيل لك أين معبودك ما كنت تجيب؟ قال: أقول بحيث لم يزل، قال: فإن قيل لك فأين كان في الأزل؟ فقال: أقول بحيث هو الآن، فنزع قميصه وأعطانيه.

قيل لصوفي: أين هو؟ فقال: محقك اللّه! أَيُطْلَبُ مع العين أين؟.

ومنه، سمعت شيخنا يقول: نقصُنا صفة كمال له فينا، يعني إذا وجب له كلّ الكمال وجب لنا كلّ النقص، وهذا على أنه ليس في الإمكان أبدع مِمّا كان، وفيه كلام.

ومنه: بلغ أحمدَ أنّ أبا ثور قال في الحديث «خلق اللّه آدم على صورته»، إنّ الضمير لآدم، فهجره، فأتاه أبو ثور، فقال أحمد: أي صورة كانت لآدم يخلقه عليها؟ كيف تصنع بقوله «خلقَ اللّه آدم على صورة الرحمن»؟ فاعتذر إليه، وتاب بين يديه.

ومنه: أتى يهودي المسجد فقال: أيكم وَصِيُّ محمد ﷺ؟ فأشاروا إلى الصّدّيق، فقال: إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلاّ نبيّ أو وصي نبيّ، قال: سَلْ، قال: فأخبرني عمّا ليس اللّه، وعمّا ليس عند اللّه، وعمّا لا يعلمه اللّه، فقال: هذه مسائل الزنادقة، وهَمَّ بقتله، فقال ابن عباس: ما أنصفتموه، إمّا أن تجيبوه وإمّا أن تصرفوه إلى مَنْ يجيبه، فإني سمعت رسول اللّه ﷺ، يقول لعلي «اللهمّ اهْدِ قلبه، وثَبِّتْ لسانه» فقال أبو بكر: قُمْ معه إلى علي، فقال له: أمّا ما لا يعلمه فقولكم في عُزَير إنه ابن اللّه، واللّه، عزّ وجلّ، لا يعلم له ولدًا، قال في التنزيل ﴿ويقولونَ هؤلاءِ شُفَعاؤنا عِنْدَ اللّهِ. الآية ﴾[2] وأمّا ما ليس عند اللّه فالظلم، وأمّا ما ليس له فالشريك، فأسلم اليهودي، فقبّلَ أبو بكر رأسَ علي،

(١) هو جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي اللّه عنهم أجمعين؛ أحد الأئمة الاثني عشر، وله كلام في صناعة الكيمياء. توفي سنة ١٤٨ هـ بالمدينة. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٣٢٧).

(٢) سورة يونس ١٠، الآية ١٨.

وقال له: يا مفرج الكربات، وورد مثل هذه المسائل عن الصحابة، فاللّه تعالى أعلم.

وقال العتابي لأبي قرة النصراني عند المأمون: ما تقول في المسيح؟ قال: من اللّه، قال: البعض من الكلّ على سبيل التَّجْزيء[1]، والولد من الوالد على طريق التناسل، والخلّ من الخمر على وجه الاستحالة، والخلق من الخالق على جهة الصنعة، فهل من معنى خامس؟ قال: لا، ولكن لو قلت بواحد منها ما كنت تقول؟ قال: الباري لا يتجزّأ، ولو جاز عليه ولد لجاز له ثانٍ وثالثٌ وهلمّ جرًا، ولو استحال فسد، والرابع مذهبنا، وهو الحقّ.

ومنه: أول ما تكلّم به عيسى في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾[2] وهو حجّة على الغالِينَ[3] فيه، يقال لهم: إن صدق فقد كذبتم، وإلاّ فمن عبدتم؟ ولمن ادّعيتم؟

قال القاضي ابن الطيب للقسيس لما وجهه عضد الدولة إلى ملك الروم: لَم اتّحد اللاهوت بالناسوت؟ فقال: أراد أن يُنْجِيَ الناس من الهلاك، قال: فهل دَرَى أنه يُقتل ويُصلب أولاً؟ فإن لم يَدْرِ لم يجز أن يكون إلٰهًا ولا ابنًا، وإن درى فالحكمة تمنع من التعرّض لمثل ما قلتم إنه جرى.

سأل القاضي هذا البطرك عن أهله وولده، فأنكر ذلك النصارى، فقال: تُبَرئون هذا مِمّا تثبتونه لربّكم؟ سوأةً لهذا الرأي، فانكسروا.

ابن العربي: سمعت الفقراء ببغداد يقولون: إنّ عيسى، عليه السلام، كان إذا خلَقَ من الطين كهيئة الطير طار شيئًا ثم سقط ميتًا؛ لأنه كان يَخلق ولا يَرزق، ولو رَزَقَ لم يبق أحدٌ إلاّ قال «هو اللّه» إلاّ من أُوتي هداه.

سأل ابن شاهين الجنيد عن معنى «مع» فقال: مع الأنبياء بالنظر والكلاءة ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾[4] ومع العامة بالعلم والإحاطة ﴿إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ﴾[5] فقال: مثلُكَ يصلح دليلاً على اللّه.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٨٧): «التجزّي».
(٢) سورة مريم ١٩، الآية ٣٠.
(٣) الغالون: جمع غالٍ وهو المتشدّد. لسان العرب (غلا).
(٤) سورة طه ٢٠، الآية ٤٦.
(٥) سورة المجادلة ٥٨، الآية ٧.

ومنه: سأل قَدَريٌّ عليًّا، رضي اللّه عنه، عن القَدَر[1]، فأعرض عنه، فألحّ عليه، فقال: أخَلَقَكَ كيف شئت، أو كيف شاء؟ فأمسك، فقال: أترونه يقول كيف شئت؟ إذن واللّه أقتله، فقال: كيف شاء، قال: أيحييك كيف تشاء أو كيف يشاء؟ قال: كيف يشاء، قال: فيدخلك حيث تشاء أو حيث يشاء؟ قال: حيث يشاء، قال: اذهب فليس لك من الأمر شيء.

أبو سليمان: أدخلهم الجنّة قبل أن يطيعوه، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه، جلّ حكم الأزل، أن يضاف إلى العلل، سبق قضاؤه فعله ﴿إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً﴾[2] وأوقفت مشيئته أمره ﴿ولو شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأرضِ كلُّهُمْ جميعًا﴾[3].

قال الشاذلي: أهْبَطَ آدم إلى الأرض قبل أن يخلقه؛ لأنه قال ﴿في الأرض﴾ ولم يقل في السماء ولا في الجنة.

الأوزاعي: قضى بما نهى، وحال دون ما أمر، واضطرّ إلى ما حرم: [البسيط]

أَلْقَاه في اَلْيَمّ مكتوفًا وقال له إيّاكَ إيّاكَ أنْ تَبْتَلَّ بالماءِ

قال الأوزاعي لغَيْلاَن: مشيئتك مع مشيئة اللّه، عزّ وجلّ، أو دونها؟ فلم يجب، فقال هشام بن عبد الملك: فلو اختار واحدة، فقال: إن قال معها فقد زعم أنه شريك، وإن قال وحدها فقد تفرّد بالربوبية، قال: للّه درُّك أبا عمرو.

من بيان عظمته ﴿رفيعُ الدرجاتِ﴾[4] من آثار قدرته ﴿بديعُ السمواتِ﴾[5] توقيع أمره ﴿يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحسانِ﴾[6] واقع زجره ﴿ويَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْي﴾[7] تنفيذ حكمه ﴿فَعّالٌ لِمَا يُريدُ﴾[8] دستور ملكه ﴿لا يُسْأَلُ عَمّا يَفْعَلُ﴾[9].

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٨٨): «القدرة».
(٢) سورة البقرة ٢، الآية ٣٠.
(٣) سورة يونس ١٠، الآية ٩٩.
(٤) سورة غافر ٤٠، الآية ١٥.
(٥) سورة البقرة ٢، الآية ١١٧ وسورة الأنعام ٦، الآية ١٠١.
(٦) سورة النحل ١٦، الآية ٩٠.
(٧) سورة النحل ١٦، الآية ٩٠.
(٨) سورة البروج ٨٥، الآية ١٦.
(٩) سورة الأنبياء ٢١، الآية ٢٣.

إياس بن معاوية: ما خاصمت أحدًا بعقلي كلّه إلاّ القدرية، قلت لقدري: ما الظلم؟ فقال: أخذ ما ليس لك، قلت: فإنّ اللّه له كل شيء.

الواسطي: ادّعى فرعون الربوبية على الكشف، وادّعت المعتزلة الربوبية على الستر، تقول ما شئت فعلت.

ومنه: من أَقْصَتْهُ السوابقُ لم تُدْنِهِ الوسائل، إذا كان القدر حقًّا فالحرص باطل، إذا كان اللّه، عزَّ وجلَّ، عدلاً في قضائه فمصيبات الخلق بما كسبت أيديهم: [البسيط]

ما عذر معتزليّ موسِرٍ منعت ... كَفّاه معتزليًّا معسرًا صَفَدَا[1]
أَيَزْعُمُ القدَرَ المحتوم ثَبَّطه؟ ... إن قال ذاك فقد حَلَّ الذي عَقَدَا

ومنه: دخل محمد بن واسع على بلال بن فروة فقال: ما تقول في القدر؟ قال: تفكر في جيرانك أهل القبور فإن فيهم شغلاً عن القدر: [السريع]

وكل من أغرق[2] في نَعْتِهِ ... أصبحَ منسوبًا إلى العِيِّ

المقادير، تبطل التقدير، وتنقض التدبير.

قال معتزلي لسني: لو أراد ثبوت أحد على الكفر لم يقل ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النورِ[3]﴾ فقال السني: لو لم يكن الإيمان من فعله لم يقلْ ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمات إلى النورِ[3]﴾.

قال نقفور طاغية النصارى لأبي الحسن الشلباني: أنت تقول إنّ الخير والشرَّ من اللّه؟ وذلك لأنّ النصارى كلّهم على مذهب القدرية في الاستطاعة، قال: نعم، قال: كيف يعذب عليه؟ هل كان حقًّا عليه أن يخلق؟ فقال: لم يضطّره إلى ما خلق مضطرّ.

قيل: نزلت ﴿وما أَضَلَّنا إلاّ المُجْرِمُونَ[4]﴾ في القدرية؛ لأنهم أضافوا الحول والقوة في الشرّ إلى البشر فأشركوهم في الخلق، أما ترى قوله تعالى: ﴿إنَّ المُجْرِمِينَ في ضَلالٍ

---

(١) الصفَدُ، بالفتح: العطاء. لسان العرب (صفد).
(٢) أغرق في نعته: بالغ وغالى. لسان العرب (غرق).
(٣) سورة الأحزاب ٣٣، الآية ٤٣.
(٤) سورة الشعراء ٢٦، الآية ٩٩.

وسُعُرٍ ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿إنَّا كلَّ شيءٍ خَلَقْناه بِقَدَرٍ ﴾[2] [الخفيف]

كنتُ دهرًا أقولُ بالإستطاعه وأرى الجبر ضَلَّةً وشناعَهْ
ففقدت استطاعتي في هوى ظَبْـ يِ، فسمعًا لمن أحبّ وطاعَهْ

غيره: [الكامل]

ما لا يكون فلا يكون بحيلة أبدًا، وما هو كائن سيكونُ

غيره: [الوافر]

تُريدُ النفس أن تُعْطَى مُناها ويأبى اللّهُ إلاَّ ما يشاءُ

شفاء الصدور، في التسليم للمقدور: [الطويل]

إذا لم يكن إلاَّ الأسنّة مركب فلا رَأْيَ للمضطرّ إلاّ ارتكابُها

غيره: [الرمل]

أيّ يَوْمَيَّ من الموت أفرّ يوم لا يُقْدَر أم يود قُدِر[3]

إذا كان الداء من السماء، بطل الدواء.

قال الحائط للوتد: لِمَ تَشُقُّني؟ قال: سَلْ من يَدُقُّني: [الكامل]

الناسُ يَلْحَوْنَ الطبيبَ، وإنما غَلَطُ الطبيبِ إصابةُ المقدورِ[4]

قيل لحكيم: أخرج الهمَّ من قلبك، فقال: ليس بإذني دخل: [الكامل]

نفسي تنازعني فقلت لها قري موت يُريحك أو صعود المنبرِ
ما قد قُضي سيكون فاصطبري له ولك الأمان من الذي لم يُقْدَرِ
ولْتَعْلَمِي أنّ المقدَّر كائن لا بُدَّ منه صبرت أو لم تصبري

---

(١) سورة القمر ٥٤، الآية ٤٧.
(٢) سورة القمر ٥٤، الآية ٤٩.
(٣) ينسب هذا البيت إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام.
(٤) هذا البيت لابن الرومي، وهو في وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ٣٦١) هكذا: والناسُ... إصابة المقدارِ».

ومنه: الهارب من المقدور كالمتقلّب في كفّ الطالب. من كان السلطان يطلبه، ضاق عليه مذهبه ﴿وما أنتم بِمُعْجِزِينَ﴾[1]. أسلى آية في التنزيل ﴿ما أصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ في الأرض ولا في أنفسِكُمْ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿بما آتاكم﴾[2].

ومنه: أخلَّ رجل بخدمة صاحب الإسكندرية، فتغيّب، ثم ظفر به عرفاؤه، فقادوه، فانساب منهم، ورمى بنفسه في بئر، وتحت الإسكندرية أسرابٌ يسير فيها القائم من أول البلد إلى آخره، فلم يزل يمشي حتى وجد بئرًا صاعدة، فتعلّق بها، فإذا هي في دار السلطان، فأخذه فأدّبه، فانظر كيف فرَّ من قَوَدَة السلطان مكرهًا، وأتاه برجله طائعًا: [الكامل]

ذهب القضاء بحيلة العقلاء

ومنه: قال يزيد بن المهلب لموسى بن نُصَير[3]: أنت أدهى الناس وأعلمهم، فكيف طرحت نفسك في يد سليمان؟ فقال: إنّ الهُدْهُد يهتدي للماء في الأرض الفَيْفَاء[4]، وينصب له الصبيُّ الفخَّ بالدودة أو الحبة فيقع فيه: [الوافر]

ولو جَرَتِ الأمورُ على قياسٍ لَوُقِّيَ شرَّهَا الفَطِنُ اللبيبُ

الواسطي: اختيار ما جرى لك في الأزل، خير من معارضة الوقت.

ابن معاذ: عجبت من ثلاثة: رجل يريد تناول رزقه بتدبيره، ورجل شغله غَدُه، وعالمٌ مفتونٌ يعيب على زاهد مغبوط.

ومنه: شكي لبعض الأنبياء امرأة كانت تؤذي أهل زمانها، فأوحى اللّه إليه: أن فرّ من قدامها حتى تنقضي أيامها.

ومنه: ابن المعتز: كَرَمُ اللّه، عزَّ وجلَّ، لا ينقض حكمته، ولذلك لا تقع الإجابة في كلّ دعوة ﴿ولو اتَّبَعَ الحَقُّ أهواءَهُمْ﴾[5]: [الطويل]

---

(١) سورة الأنعام ٦، الآية ١٣٤؛ وسورة يونس ١٠، الآية ٥٣؛ وسورة هود ١١، الآية ٣٣.

(٢) سورة الحديد ٥٧، الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٣) تقدّم هذا في الجزء الأول.

(٤) الفيفاء: المفازة لا ماء فيها، جمعها فيافٍ. محيط المحيط (فيف).

(٥) سورة المؤمنون ٢٣، الآية ٧١.

أُريدُ فلا أُعطَى، وأُعطَى ولم أُرِدْ وقصَّرَ علمي أن أنالَ المغَيَّبَا[1]

ومنه: كان ابن مجاهد ينشد لبعضهم: [الخفيف]

أيها المغتدي[2] ليطلب علمًا كُلُّ علم عَبْدٌ لعلم الكلامِ
تطلبُ الفقه كي تُصَحِّح حكمًا ثم أغفلت مُنزِلَ الأحكامِ

ومنه: قال الأحدب البغدادي للقاضي الباقلاني: هل للّه، عزَّ وجلَّ، أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه؟ فقال: إن أردتم بالتكليف القول المجرد فقد وجد، ﴿قُلْ كونوا حِجارةً﴾[3] ﴿أَنبِؤني بأسماءِ هؤلاءِ﴾[4] ﴿ويُدْعَوْنَ إلى السُّجودِ فلا يَسْتَطِيعُونَ﴾[5] وإن أردتم به ما يصحّ فعله وتركه فالكلام متناقض، وهذا هو الذي نعرفه؛ لأنَّ التكليف اقتضاء فعل ما فيه مشقّة، وما لا يُطَاق لا يُفعل البتّة، فقال: سئلت عن كلام مفهوم فطرحته في الاحتمالات، فقال: إني بيّنت الوجوه المحتملة، فإن كان معك شيء فهاته، فقال عضد الدولة: قد صدق، وما جمعتكم إلاّ للفائدة، لا للمُهَاترة. ثم قال لقاضيه بشر بن الحسن المعتزلي: تكلّم، فقال: ما لا يطاق على ضربين: أحدهما ما لا يطاق للاشتغال بضدّه، وهذا سبيل الكافر، لا يطيق الإيمان للاشتغال بالكفر، وأمّا العاجز فما ورد في الشريعة تكليفه، ولو ورد لكان جائزًا، وقد أثنى اللّه، عزَّ وجلَّ، على مَنْ سأله أن لا يكلّفه ما لا يطيقه فقال ﴿رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لنا بِهِ﴾[6] لأنّ اللّه له أن يفعل في ملكه ما يريد.

ومنه: خرج عمر بن عبد العزيز في سفرٍ ليلاً، فقال له رجل: أنظرْ إلى القمر ما أحسنه، فنظر فقال: قد علمت أنك أردت نزوله بالدَّبَرَان[7]، ونحن لا نتطيّر بذلك ولا نعتقده: [الوافر]

إذا عقدَ القضاءُ عليك أمرًا فليس يحلُّه إلاّ القضاءُ

---

(1) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه (ص ٢٥) وجاء فيه: «ويَقْصُرُ علمي..».
(2) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٩٢): «المعتدي» بالعين المهملة.
(3) سورة الإسراء ١٧، الآية ٥٠.
(4) سورة البقرة ٢، الآية ٣١.
(5) سورة القلم ٦٨، الآية ٤٢.
(6) سورة البقرة ٢، الآية ٢٨٦.
(7) الدَّبَران، بالفتح: منزل للقمر وهو مشتمل على خمسة كواكب. محيط المحيط (دبر).

يدبِّرُ بالنجوم وليس يدري   وربُّ النجمِ يفعلُ ما يشاءُ

وقال[1]: [مجزوء الرمل]

ليس للنجم إلى ضـ   ـرّ ولا نفع سبيلُ
إنما النجمُ على الأو   قات والسَّمْتِ دليلُ

وقال[2]: [مجزوء الرجز]

من كان يخشى زُحَلاً   أو كان يرجو المُشتري
فإنني منه . وإن   كان أخي الأدنى . بَرِي

لمّا وَجّه عضد الدولة القاضي ابن الطيب إلى ملك الروم قال له الوزير[3]: أخذت الطالع لخروجك؟ فسأله القاضي عن ذلك، ففسّره له، فقال: السعد والنحس بيد اللّه، ليس للكواكب فيه تأثير، وإنما وُضعت كتب النجوم ليتمعش بها العامة، ولا حقيقة لها، فاستحضر الوزير ابن الصوفي ودعاه إلى مناظرة القاضي، فقال: لا أقدم[4] على المناظرة، وإنما أقول: إذا كان من النجوم كذا كان كذا، وأمّا التعليل فمن علم المنطق، والذي يتولّى المناظرة عليه أبو سليمان المنطقي[5]، فأُحضر وأُمر، فقال هذا القاضي يقول: إذا ركب عشرة أنفس في ذلك المركب الذي في دجلة فاللّه تعالى قادر على أن يزيد فيهم آخَرَ في ذلك الوقت، فإن قلت له لا يقدر قطعتم لساني، فأي معنى لمناظرتي؟ فقال القاضي للوزير: ليس كلامنا في القدرة، لكن في تأثير الكواكب، فانتقل هذا إلى ما ترى لعجزه، وأنا إن قلت إنّ اللّه تعالى قادر على ذلك فلا أقول إنه يخرق العادة الآن، ولا يجوز عندنا ذلك، فهو فرار من الزحف، فقال المنطقي: المناظرة دُرْبة، وأنا لا أعرف مناظرة هؤلاء القوم، وهم لا يعرفون مواضعاتنا، فقال الوزير: قد قبلنا اعتذارك، والحق أبلج.

رأس الدين، صحةُ اليقين. مَنْ سابَقَ القدر، عَثَر: [الكامل]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٩٧) «وقال آخر».
(٢) في طبعة دار صادر: «غيره».
(٣) الوزير: هو أبو القاسم المطهر بن عبد اللّه.
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٢٩٨): «لا أقوم».
(٥) هو محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني المنطقي الطبيب، نزيل بغداد، توفي في حدود سنة ٤١٠ هـ. هدية العارفين (جـ ٢ ص ٦٠).

وإذا خشيتَ من الأمور مُقَدَّرًا وفررتَ منه فَنَحْوَهُ تتوجّهُ

قيل: لمّا وقع الوباء بالكوفة فرَّ ابنُ أبي ليلى على حمار، فسمع منشدًا ينشده[1]: [الرجز]

لن يُسْبَقَ اللَّهُ على حمارِ ولا على ذي منسر طيّارِ[2]
أو يأتيَ الحَتْفَ على مقدارِ قد يُصْبِحُ اللَّهُ أمام الساري

فقال: إذا كان اللَّه أمام الساري فلا مهرب، ورجع.

ومنه: شكا بعض الصالحين إلى الخليفة ضرر الأتراك، فقال: أنتم تعتقدون أنّ هذا من قضاء اللَّه وقدره، فكيف أردُّه؟ فقال: إنّ صاحب القضاء قال: ﴿ولولا دَفْعُ اللَّهِ الناسَ بَعْضَهُم ببعضٍ لَفَسَدَتِ الأرضُ﴾[3] فردّهم عنهم.

القدر والطلب كالعِدْلَين[4] على ظهر الدابة كُلُّ واحد منهما معين لصاحبه، فالقدر بالطلب، والطلب بالقدر.

قيل لعارف: إن كنت متوكلاً فأَلْقِ بنفسك من هذا الحائط فلن يصيبك إلاّ ما كتب اللَّه[5] لك، فقال: إنما خلق اللَّه الخلق ليجرّبهم، لا ليجرّبوه.

الجوهري: كف اللَّه النار عن يد موسى لئلاّ تقول النار: طبعي، واحترق لسانه لئلاّ يقول الكليم: مكاني، وقال غيره: لو لم يقل لنار إبراهيم ﴿سلامًا﴾[6] لَهَلَكَ من برد النار.

قيل للجنيد: أنطلب الرزق؟ قال: إن علمتم أين هو فاطلبوه، قيل: فنسأل اللَّه؟ قال: إن خشيتم أن ينساكم فذكروه، قيل: فلنلزم البيوت؟ قال: التجربة منك شكّ، قيل: فما الحيلة؟ قال: تركُ الحيلة. يقول: ليكن تصرّفك بإذنه، لا بشهوتك، فقد قيل: تركُ الطلب يضعف الهمّة، ويذلّ النفس، ويورث سوء الظنّ.

---

(١) البيتان في عيون الأخبار (ج ١ ص ٢٣١).
(٢) في عيون الأخبار: «ولا على ذي مَيْعَةٍ مَطّارِ».
(٣) سورة البقرة ٢، الآية ٢٥١.
(٤) العِدْل: نصف الحِمْل على أحد جانبي الدابة. محيط المحيط (عدل).
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٢٩٥): «الله».
(٦) أراد الآية ٦٩ من سورة الأنبياء ٢١، وهي: ﴿قُلْنا يا نارُ كُوني بَرْدًا وسلامًا على إبراهيمَ﴾.

الطرطوشي: القدر والطلب كأعمى ومُقْعَد في قرية، يحمل الأعمى المقعد، ويَدُلُّ المقعدُ الأعمى.

قال رجل لبشر: إني أريد السفر إلى الشام، وليس عندي زاد، فقال: ٱخرجْ لما قصدت إليه، فإنه إن لم يعطك ما ليس لك، لم يمنعك ما لك.

الناس في هذا الباب ثلاثة: فرقة عاملت اللّه، عزَّ وجلَّ، على مقتضى شمول قدرته للشرّ والخير، وأعرضوا عن الأسباب، فأدركوا التوكل، وفاتهم الأدب، وهم بعض الصوفية، وقد قيل: اجعل أدبك دقيقًا، وعلمك ملحًا، وهذا إبليس لم تنفعه كثرة علمه لمّا دفعته قلّة أدبه. وفرقة عاملته على ذلك مع الْجَرْيان على عوائد مملكته، والتصرّف بإذنه على مقتضى حكمته، وهم الأنبياء وخواصّ العلماء، فأصابوا الأدب، وما أخطأوا التوكل. والفرقة الثالثة ـ وهم الجمهور ـ أقبلوا على الأسباب، ونَسُوا المسبب، ففاتهم الأمران، فهلكوا.

ومنه: جل الواحد المعروف، قبل الحدود والحروف: [البسيط]

لقد ظَهَرْتَ فما تخفى على أحد ... إلاَّ على أكْمَهٍ[1] لا يعرف الْقَمَرَا

كما بَطَنْتَ بما أَبْدَيْتَ من حُجُب ... وكيف يُبْصَرُ من بالعزّة استترا

سئل النصيبي عن الرؤية بمجلس عضد الدولة[2]، فأنكرها محتجًا بأنّ كلَّ شيء يُرى بالعين فهو في مقابلتها، فقال له القاضي ابنُ الطيب: لا يُرى بالعين، قال له الملك: فبماذا يُرى؟ قال: بالإدراك الذي يُحْدِثه اللّه في العين وهو البصر، ولو أُدرك المرئي بالعين لوجب أن يدرك بكلّ عين قائمة، وهذا الأجهر عينه قائمة ولا يرى بها شيئًا.

ومنه: ابن العربي: للصوفية في إطلاق لفظ العشق على الحقّ تجاوز عظيم، واعتداء كبير، ولولا إطلاقه للمحبة ما أطلقناها، فكيف أن نتعدّاها؟.

الدقاق: العشق مجاوزة الحدّ في الحب، ولما كان الحقّ لا يوصف بالحدّ لم يوصف بالمحدود، إذ لو جُمع محابّ الخلق كلّهم لشخص واحد لم يبلغ ما يستحقّه قَدْرُ الحقّ من الحبّ.

---

(١) الأَكْمَهُ: الأعمى منذ ولادته. محيط المحيط (كمه).

(٢) هذا الخبر في أزهار الرياض (ج ٣ ص ٨٢).

خمسة أبهمت، فلم تعين لعظم أمرها: الاسم الأعظم، وساعة الجمعة، وليلة القدر، والصلاة الوسطى، والكبائر؛ لأنَّ اجتنابها يكفر غيرها، يعنى على أحد الأقوال في المسألة.

ومنه: قيل في التسعة والتسعين اسمًا: إنها تابعة لاسم اللّه، وهو تمام المائة، فهي عدد[1] دَرَج الجنّة؛ لما في الصحيح من أنّ دَرَجَها مائة، بين كلّ درجتين مسيرة مائة عام، ولذلك قيل: مَنْ أحصاها دخل الجنّة، وهذه الأسماء مفضلة على غيرها مِمّا لا يحصى، ألا ترى قوله عليه السلام في الصحيح: بأسمائه الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم؟.

ذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعًا منه، فلم يُشِرْ في شيء منها إلى خَلْقِهِ، وذكر الإنسان في ثمانية عشر موضعًا ثلث ذلك العدد فصرّح في جميعها بخلقه، قال ابن عطية: وهذا يدلّ على أنه غير مخلوق.

أبو علي بن أبي اللحم: بتُّ ليلَةَ جمعةٍ بمصر في أيام أبي حريش، وكان يقول بخلق القرآن، وأبي خلف المعافري، وكان يقول: القرآن كلام اللّه ليس بمخلوق، أُفكر عن أيهما آخذ، فلمّا نمت أتاني آتٍ فقال لي: قُمْ، فقمت، قال: قُلْ، فقلت: ما أقول؟ فقال: [مجزوء الكامل]

لا والـذي رَفَـعَ الـسـمـا ... ءَ بـلا عِـمَـادٍ لـلـنـظـرْ
فَـتَـزَيَّـنَـتْ بـالـسـاطـعـا ... تِ الـلامـعـاتِ وبـالْـقَـمَـرْ
والـمـالـىء الـسَّـبْـعِ الـطِّـبَـا ... قِ بـكـلِّ مـخـتـلـف الـصـورْ
مـا قـال خـلـقٌ فـي الـقُـرَا ... نِ[2] بـخَـلْـقِـهِ إلاَّ كَـفَـرْ
لـكـن كـلامٌ مُـنـزَلٌ ... من عـنـد خَـلاَّقِ الـبَـشَـرْ

ثم قال: أكتبها، فأخذت كتابًا من كتبي وكتبتها فيه، فلمّا أصبحت وجدت ذلك بخطّي على كتاب من كتبي، فجلست في البيت إلى الزوال، ثم خرجت، فسألني إنسان عمّا رأيت البارحة، فقلت: ما أخبرت أحدًا، فقال: قد شاعت رؤياك في الناس.

الخواصُّ: انتهيت إلى رجل مصروع، فجعلت أؤذن في أذنه، فناداني الشيطان من جوفه: دعني أقتله، فإنه يقول بخلق القرآن.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٢٩٧): «عهد».
(٢) القُران: القرآن.

عمرو بن دينار: أدركت سبعة من الصحابة يقولون: مَنْ قال القرآن مخلوق فهو كافر، قلت: قال مالك: يستتاب.

ومنه[1]: كان عضد الدولة يحبُّ العلم والعلماء، فكان مجلسه يحتوي على عدد منهم أكثرهم الفقهاء والمتكلّمون، وكان يعقد لهم مجالس للمناظرة، فقال لقاضيه بشر بن الحسن: إنَّ مجلسنا خالٍ عن عاقل من أهل الإثبات ينصر مذهبه، فقال: إنما هم عامة يرون الخير وضدّه، ويعتقدونها جميعًا، وإنما أراد ذمَّ القوم، ثم أقبل يمدح المعتزلة، فقال عضد الدولة: مُحَالٌ أن يخلو مذهب طبَّق الأرض من ناصر فانظر، قال: بلغني أنّ بالبصرة شيخًا يعرف بأبي الحسن الباهلي، وفي رواية بأبي بكر بن مجاهد، وشابًا بابن الباقلاّني، فكتب إليهما، فلمّا وصل الكتاب قال الشيخ: قوم كفرة؛ لأنّ الديلم كانوا رَوَافض، لا يحلّ لنا أن نطأ بساطهم، فقال الشاب: كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومَنْ في عصْرهم: إنّ المأمون فاسق لا يحضر مجلسه، حتى ساق أحمد بن حنبل إلى طرسوس، وجرى عليه ما عُرف، ولو ناظروه لكفُّوه عن هذا الأمر، وتبيّن له ما هم عليه بالحجّة، وأنت أيضًا، أيها الشيخ، تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على أحمد، ويقولون بخلق القرآن ونفي الرؤية، وها أنا خارج إن لم تخرج، قال الشيخ: إن شرح اللّه صدرك لهذا فاخرج، فردّ اللّه به الكرة.

حُفظ من كلام النبيّ ﷺ، المنتقى والمرسل أمثال المنزل، ثم انتقى من ذلك صحةً وفصاحةً ما يبلغ حجم المصحف أو يُرْبي عليه، فهل وجدت فيه ما يشبهه أو ينزع إليه؟ أشهد أنه من عند اللّه، تنزيل من لدنه.

أول إعجاز القرآن الجهلُ بنوعه من جنس الكلام[2]، فإنه لا يدخل في مضمار الشعر، ولا ينخرط في سلك الخُطَب، ولا المواعظ والمقامات والكتب، ولا في شيء مِمّا يؤلف التخاطب به، وتعرف فيه طبقات أهل مذهبه، فإن لم يتبيّن ما رسمت لك فاعرض كلامك في كلّ صنف من هذه الأصناف تجد لنفسك مع فحوله حالةَ القصور أو المماثلة أو الزيادة، ولا تجد لكلامك نسبةً إلى القرآن، بل لا تدري ما تقول إن طُلب منك البيان، إلاَّ

---

(١) هذا الخبر في أزهار الرياض (جـ ٣ ص ٧٩).
(٢) أي إن القرآن يتميز عن كلام الناس؛ فليس هو بشعر ولا بنثر..

أن تُسلب العقل، كمسيلمة[1] وأمثاله ممن ابتلي بالهذيان، وقد تفطن للدلالة كافر غلبت عليه الجهالة، اُنظر السيرة.

الزمخشري: ما أعجب شأن الضُلاّل، لم يرضوا للنبوّة ببشر، وقد رضوا للإلهية بخجر.

سأل[2] القاضي أبا بكر ملكُ الروم ـ حين وجَّهه عضدُ الدولة إليه ـ عن انشقاق القمر، كيف لم يره جميعُ الناس؟ فقال: لأنهم لم يكونوا على أُهْبة ووعد، قال: فما النسبة التي بينكم وبين القمر حتى لم يره غيركم من الروم وغيرهم؟ قال: النسبة التي بينكم وبين المائدة حتى رأيتموها دون اليهود والمجوس، فدعا القسيس، فأقرّ للقاضي، فقال له القاضي: أتقول إنّ الكسوف يراه جميعُ أهل الأرض أم أهل الإقليم الذي في محاذاته؟ قال: لا يراه إلاّ مَنْ في محاذاته، قال: فما تنكر مَنْ لا يرى انشقاق القمر إلاّ في تلك الناحية مِمَّن تأهَّبَ لذلك؟ قال: هذا صحيح، إلاّ أنّ الشأن في مثله أن لا ينقل آحادًا، لكن تواترًا، بحيث يصل العلم الضروري به إلينا وإلى غيرنا، وانتفاءُ ذلك يدلّ على افتعال الخبر، فقال الملك للقاضي: الجواب، فقال: يلزمه في نزول المائدة ما لزمنا في انشقاق القمر، فَبُهِتَ الذي كفر.

قال ملك الروم للقاضي ابن الطيب في هذه الرسالة: ما تقول في المسيح؟ قال: روح اللّه وكلمته وعبده، قال: تقولون المسيح عبد؟ قال: بذلك نَدِينُ، قال: ولا تقولون إنه ابنُ اللّه؟ قال: ما اتّخذ اللّه من ولد، قال: العبد يخلق ويحيي ويبرىء؟ قال: ما فعل المسيح ذلك قطّ، قال: هذا مشهور في الخلق، قال: لا، قال: ما قال أحد من أهل المعرفة إنّ الأنبياء يفعلون المعجزات، لكن اللّه تعالى يفعلها على أيديهم تصديقًا لهم، قال: إنّ ذلك في كتابكم، قال: في كتابنا أنّ ذلك كلّه بإذن اللّه تعالى، ولو جاز أن يكون ذلك فعلَ المسيح لجاز أن يقال إن موسى قَلَبَ العصا، وأخرج يده بيضاء، وفلق البحر، قال: إنّ الأنبياء من لدن آدم كانوا يتضرّعون للمسيح حتى يفعل ما يطلبون، قال: أفي لسان اليهود عَظْمٌ لا يقولون معه إن المسيح كان يتضرّع لموسى، وكذلك أمّة كلِّ نبيّ، لا فرق بين الموضعين في الدعوى.

---

(١) هو مسيلمة الكذاب الذي ادّعى النبوة في زمن رسول اللّه، ﷺ، وقتل في حروب الردّة في زمن أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه.

(٢) هذا الخبر في أزهار الرياض (جـ ٣ ص ٧٩).

الجوزي في قوله عليه السلام «يوشك أن ينزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» إنما كان الإمام منّا لئلاّ يتدنّس بغُبَار الشبهة وَجْهُ «لا نَبِيَّ بعدي».

كان بالبصرة يهودي يقرّر المتكلمين على نبوّة موسى، فإذا أقرّوا جحد نبوّة محمد ﷺ، وقال: نحن على ما اتّفقنا عليه، إلى أن نتّفق على غيره، فسأل أبا الهذيل عن ذلك فقال: إن كان موسى هذا الذي أخبر بمحمد ﷺ، وأقرّ بشرفه وأمر باتباعه فأنا أُقِرُّ بنبوّته، وإن كان غيره فأنا لا أعرفه، فتحيّر اليهودي، ثم سأله عن التوراة، فقال: إن كانت التي نزلت على موسى المذكور فهي حقّ، وإلاّ فهي عندي باطل.

ومنه: قيل للحسن: الملائكة أفضل أم الأنبياء؟ فقال: أين أنت من هذه الآية ﴿ولا أقولُ إنّي مَلَكٌ﴾[1].

ومنه: وعن عُمَر وعلي ـ رضي اللّه عنهما! ـ أنّ الخضر لقيهما وعلّمهما هذا الدعاء، وذكر فيه خيرًا كثيرًا لمن قاله في إثر كلّ صلاة: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ويا من لا تغلطه المسائل، ومن لا يتبرّم على إلحاح الملحّينَ، أذقني بَرْدَ عفوك، وحلاوة مغفرتك.

ومنه: سمع إياس يهوديًا يقول: ما أحمق المسلمين! يزعمون أنّ أهل الجنّة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يَتَغَوَّطون، فقال: أَوَ كل ما تأكله تحدثه؟ قال: لا؛ لأنّ اللّه تعالى يجعل أكثرهُ غذاء، قال: فما تنكر أن يجعل جميع ما يأكل أهلُ الجنة غذاءً؟

الرزية كلّ الرزية، تضييع أمر المرأة الرُّندية، وذلك أنه وردت على تلمسان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رُنْدَةُ لا تأكل ولا تشرب ولا تبول ولا تتغوّط وتحيض، فلمّا اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى بن الإمام، وتلا ﴿كانا يأكلانِ الطعامَ﴾[2] فأخذ الناسُ يبثُّونَ ثقات نسائهم ودهاتهنّ إليها، فكشفن[3] عنها بكلّ وجه يمكنهنّ، فلم يقفْنَ على غير ما ذكر، وسئلت: هل تشتهين الطّعام؟ فقالت: هل تشتهون التبن بين يدي الدوابِّ؟ وسُئِلت: هل يأتيها شيء؟ فأخبرت أنها صامت ذات يوم فأدركها الجوع والعطش، فنامت فأتاها آتٍ في النوم بطعام وشراب، فأكلت وشربت، فلمّا أفاقت وجدت

---

(١) سورة هود ١١، الآية ٣١.

(٢) سورة المائدة ٥، الآية ٧٥.

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٠١): «فكشفوا».

نفسها قد استغنت، فهي على تلك الحال، تُؤتَى في المنام بالطعام والشراب إلى الآن، ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عمّا عسى تجيء أمها به إذا أتت إليها أربعين يومًا، فلم يوقف لها على أمر، بيد أني أردت أن يزاد في عدد العدول، ويجمع إليهم الأطباء، ومن يخوض في المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم، ويوكل من نساء الفرق مَنْ يبالغ في كشف من يدخل إليها، ولا يُترك أحد يخلو بها، وبالجملة يبالغ في ذلك، ويستدام رعيها عليه سنة؛ لاحتمال أن يغلب عليها طبع فتستغني في فصل دون فصل، ثم يكتب هذا في العقود، ويُشَاع أمره في العالم، وذلك لأنه يهدم حكم الطبيعة الذي هو أضرّ الأحكام على الشريعة، ويبين كيفية غذاءِ أهل الجنّة، وأنّ الحيض ليس من فضلات الغذاء، ويبطل التأثير والتولّد، ويوجب أنّ الاقترانات بالعادات، لا باللزوم، وعند الأسباب، لا بها، إلى غير ذلك، إلاّ أني لما أشرت بهذا انقسم مَنْ أشرتُ عليه بتبليغه إلى مَنْ لم يفهم ما قلت ومن لم يرفع به رأسًا؛ لإيثار الدنيا على الدين، فإنّا للَّه وإنّا إليه راجعون.

وقد ذكر أنّ امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة، وحدّثني غير واحد من الثقات مِمَّنْ أدرك عائشة الجزيرية أنها كانت كذلك، وأنّ عائشة بنت أبي يحيىٰ اختبرتها أربعين يومًا أيضًا، وكم من آية أُضيعت، وحجّة نُسيت، هذا مِمّا لم يُعرف مثلُه قبل المائة الثامنة، وكذلك الوباء العام القريب فروطه، يوشك أن يطول أمره، فينسى ذكره، ويكذب المحدّث به إذا انقضى عصره، وكم فيه أيضًا من أدلّة، على أصول الملّة.

ومنه. قال شيخ من صالحي الفقهاء في عصرنا بفاس: أبو زرهون عبد العزيز بن محمد القيرواني، رحمه اللَّه تعالى: مات فقير عندنا بالمئذنة، فوجدوا عنده ربطة من دراهم، فوضعوها عند المؤذن، فلمّا نزل ليلحده[1] سقطت من جيبه في القبر، ولم يشعر حتى واراه، فكشف عنه، فإذا الدراهم قد لصقت ببدنه درهمًا إلى درهم كالنجوم، فحاول قَلْعَ واحد منها فقامت معه قطعة من لحمه، وتبعها من ذلك المحلّ ريح منتنة، قال الشيخ: فاطلعت على ذلك وشاهدته ثم ردّوا التراب عليه وانصرفوا.

قال عبد اللَّه بن إدريس لغيلان الممرور: متى تقوم الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها

---

(١) ألحده: دفنه. لسان العرب (لحد).

بأعلم من السائل، غير أنه مَنْ مات فقد قامت قيامته، قال: فالمصلوب يعذب عذاب القبر؟ قال: إن حقّت عليه الكلمة، وما تدري لعلّ جسده في عذاب لا تدركه أبصارُنا ولا أسماعنا، فإنّ للّه لطفًا لا يدرك، وانظر الحديث «فلولا أن لا تدافنوا لدعوت اللّه أن يُسمعكم ما أَسْمَعُ من عذاب القبر».

ومنه ـ المازري: مسألة التكفير بالمال مشكلة، وقد اضطرب فيها قولُ مالك وهو إمام الفقهاء، والقاضي أبي بكر، وهو إمام المتكلّمين.

الغزالي: لا يقطع بتكفير الفلاسفة إلاّ في ثلاث مسائل: قدم العالم، ونفي العلم بالجزئيات، وإنكار المعاد البدني وتوابعه القطعية.

أصل الفلاسفة اعتقاد المحسوسات معقولات، والمعتزلة اعتقاد المشهورات قطعيات، ومن ثم قيل لهم: مخنثة الفلاسفة.

لا يكفي التقليد، في عقائد التوحيد، لا فرق بين إنسان ينقاد، وبهيمة تُقاد.

ومنه ـ كان أبو هاشم من أفسق الناس، فجلس ذات يوم يعيب الإرجاء[1] وكان في المجلس مرجىء، فأنشد: [الوافر]

يَعِيبُ القول بالإرجاء حتى ... يرى بعض الرجاء من الجرائرْ[2]
وأعظم من ذوي الإرجاء ذنبًا ... وَعِيدِيٌّ يُصِرُّ على الكبائرْ

كان مالك ينشد كثيرًا: [الطويل]

وخير أمور الدين ما كان سنّةً ... وشَرُّ الأمورِ المحدَثَاتُ البدائعُ[3]

ابن عقيل: يشبه أن يكون واضع الإرجاء زنديقًا، فإنّ صلاح العالم في إثبات الوعيد واعتقاد الجزاء، فلمّا لم يكن هذا المائن[4] جَحْدُ الصانع لمخالفة العقل، أسقط فائدة الإثبات، وهي الخشية والمراقبة، وهدم سياسة الشريعة، فهم شرّ طائفة على الإسلام.

---

(١) الإرجاء: مقالة جماعة من المتكلّمين يذهبون إلى أنه لا يضرّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ويرجئون أمر العباد إلى اللّه سبحانه وتعالى يوم القيامة.

(٢) الجرائر: جمع جريرة وهي الذنب. محيط المحيط (جرر).

(٣) أخذه من قول رسول اللّه ﷺ: «شرُّ الأمور محدثاتُها».

(٤) المائن: الكاذب: لسان العرب (مين).

سئل مالك عن أشرّ الطوائف، فقال: الروافض.

بينا ابنُ المعلّم شيخُ الرافضة في بعض مجالس المناظرة مع أصحابه أقبل ابن الطيب فقال: جاءكم الشيطان، فسمعه على بعد، فلمّا جلس إليهم تلا عليهم ﴿أَلَم تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطينَ على الكافرينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[1].

مالك: أهل السنّة مَنْ لا لقب له: لا خارجي، ولا قدري، ولا رافضي.

البديع[2]: [المتقارب]

يقولون لي: ما تحبُّ الوصيَّ فقلتُ: الثَّرَى بفم الكاذبِ
أُحبُّ النبيَّ وآلَ النبيِّ وأختصُّ آلَ أبي طالبِ
وأُعطي الصحابةَ حقَّ الولاء وأجْرِي على السَّنَنِ الواجب
فإن كان نَصْبًا ولاءُ الجميع فإنّي كما زعموا ناصبي[3]
وإن كان رَفْضًا ولاء الجميع فلا برحَ الرفضُ من جانبي[4]
أُحِبُّ النبيَّ وأصحابَهُ فما المرءُ إلاَّ مَعَ الصاحبِ
أيرجو الشفاعَةَ مَنْ سَبَّهم بل المثلُ السوءُ للضارب
يُوَقَّى المكارهَ قلبُ الجبان وفي الشُّبهات يَدُ الحاطب

أخذ البيت الخامس من قول الشافعي: [الكامل]

إن كان رَفْضًا حُبُّ آلِ محمدٍ فليشهد الثَّقلانِ[5] أني رافضي

ومنه ـ أبو حنيفة: لقيت عطاء فقال لي: مِمَّنْ أنت؟ فقلت: من أهل الكوفة، فقال: من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا؟ قلت: نعم، قال: فمن[6] أنت منهم؟

---

(١) سورة مريم ١٩، الآية ٨٣.
(٢) الأبيات في ديوان بديع الزمان الهمذاني (ص ٨).
(٣) الناصبي: المتديّن ببغضة عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، لأنه نصب له أي عاداه، والجمع النواصب. محيط المحيط (نصب).
(٤) في الديوان: «ولاءُ الوصيّ..». والرفض: مقالة الرافضة وهم فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن علي. محيط المحيط (رفض).
(٥) الثقلان: الإنس والجنّ. محيط المحيط (ثقل).
(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٠٥): «فمن».

قلت[1]: ممن يؤمن بالقدر، ولا يسبّ السلف، ولا يكفر بالذنب، قال: عرفت، فالزم.

ومنه: الإرادة تطلق على المحبّة، وعلى قصد أحد الجائزين بالتخصيص، وكلّ واحد من المعنيين يوجد بدون الآخر، أما الأول فكقوله: [الوافر]

تريد النفس أن تُعطَى مُنَاها

وهو ظاهر، وأمّا الثاني فكقصد المتوعّد بالإهلاك إلى أمر عبده الذي أمره بأمر لينظر امتثاله، ولدقّة الفرق بينهما ضلّ المعتزلة في أمرهما فقالوا: إن اللّه، عزَّ وجلَّ، لا يريد المعاصي؛ لأنه لا يحبُّ الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، قال عمار بن ياسر يوم صِفِّين: [الخفيف]

صَدَقَ اللَّهُ وَهوَ للصِّدْقِ أَهْلٌ ... وتعالى رَبِّي وكان جليلا
ربِّ عَجِّلْ شهادةً لي بقتلٍ ... في الذي قد أحبَّ قتلاً جميلا

ومنه: العبدري: قَتْلُ الحسين دعا إلى حرب، وأخذ بثأره كذابُ ثقيف، ونوّه باسمه أعداء ملّة جدّه بنو عُبَيْدٍ[2] ليقتصّ من قضية بمثلها، فيقرأ الفهم سورة تلك الصورة، ويتهجّى اللبيب حروف تلك الحروب، فيعلم أنَّ الكلّ آلات مُسْتَعْمَلات، حسبما اقتضاه العلم القديم.

ومنه: أبو العباس الأبياني: ثلاث لو كُتبت على ظفر لوسعهنّ، وفيهنّ خير الدنيا والآخرة: اتَّبع لا تبتدع، اتّضع لا ترتفع، اتّزع لا تتّسع.

ومنه: كانت سكينة بني إسرائيل في التابوت، فغلبوا عليها، وسكينة هذه الأمة في القلوب، فغلبوا بها، استحفظوا كتابهم فحرّفوا من أحكامه ووصفه، وحُفظ كتابنا فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومنه: في الصحيح: كان أبو ذرّ يُقسم قسمًا أن ﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا في رَبِّهِمْ﴾[3] نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة، وعتبة وشيبة والوليد[4]، قلت:

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «فقلت».

(٢) هم بنو عبيد الفاطميين الذين حكموا المغرب ومصر.

(٣) سورة الحج ٢٢، الآية ١٩.

(٤) حمزة وعلي وعبيدة مسلمون برزوا يوم بدر للكافرين عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة والوليد بن عتبة فقتلوهم.

ففي الآية شهادة من اللّه تعالى لعلي بالجنة والشهادة، أمّا الجنة فبنصّها، وأمّا الشهادة فلأنه وصاحبيه اسْتُشهدوا، وخصمهم قتلوا، فهي رادّةٌ على الخوارج قطعًا.

ومنه: جاز أبو بكر بن نافع بالكَرْخ أيام الديلم وقوة الرفض، فقالت له امرأة: سيدي أبا[1] بكر، فقال: لبيك يا عائشة، فقالت له: متى كان اسمي عائشة؟ فقال: أيقتلونني وتخلصين؟

وفي آخر هذا الكتاب ما صورته: فهذه جملة تراجم، وفيها مَقْنَع لمن أراد المحاضرة، أو تنميق مجالس المناظرة، وكان الفراغ من جمعها في آخر يوم من شعبان المكرّم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة؛ انتهى ما تعلّق به الغرض من بعض كلام مولاي الجدّ، رحمه اللّه تعالى، في كتابه «المحاضرات».

ولنرجع إلى سَرْد بقيّة تواليفه، رحمه اللّه تعالى، فنقول: ومنها «شرح لغة قصائد المغربي الخطيب»، و «مقالة في الطلعة المملكة»، و «شرح التسهيل»، و «النظائر»، و «كتاب المحرّك لدعاوى الشرّ من أبي عنان»، و «إقامة المريد»، و «رحلة المتبتل»، وحاشية بديعة جدًا على مختصر ابن الحاجب الفقهي، فيها أبحاث وتدقيقات لا توجد في غيرها، وقد وقفت عليها بالمغرب، ومن أشهر كتبه في التصوف كتاب «الحقائق والرقائق»، وهو من الحسن بمكان لا يُلْحَق، وقد شرحه الشيخ الصالح شيخ شيوخ شيوخنا سيدي أحمد زروق رضي اللّه عنه ونفعنا به!

وسنح[2] لي أن أسرد هنا شيئًا من هذا الكتاب الفذّ في بابه فنقول:

قال فيه مولاي الجدّ، رحمه اللّه تعالى: هذا كتاب شفعت[3] فيه الحقائق بالرقائق، ومزجت المعنى الفائق باللفظ الرائق، فهو زبدة التذكير، وخلاصة المعرفة، وصفوة العلم، ونقاوة العمل، فاحتفظ بما يوحيه إليك فهو الدّليل، وعلى اللّه قصد السبيل.

حقيقة. عمل قوم على السوابق، وقم على اللواحق، والصوفي مَنْ لا ماضيَ له ولا مستقبل، فإن كان زجاجيًا، فبخ بخ.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٠٦): «أبو».
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣١٠): «وقد سنح».
(٣) شفعت: أراد: ألحقت.

رقيقة . من لم يجد ألم البعد، لم يجد لذّة القرب، فإنّ اللّذّة هي التخلّص من الألم.

حقيقة . لما انطبعت الصور في مرآة الخيال قال العقل: أنا الملك المكوكب، فقالت الرياضة: الزمني وتعرف قدرك، فإذا العقل عِقَال.

رقيقة . من ضحك من نوم الغفلة بكى عند الانتباه، فإنّ الأضغاث أضداد.

حقيقة . أثر الزهد عَقَل دنَّ سقراط على سراج غوطة أبي نصر، فقيل: فأين اعتبار ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ ﴾[1]؟ فقال: ﴿وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾[2].

رقيقة . طالبُ الدنيا يخاف الفَوْت، وصاحبها يترقّب الزوال ولو بالموت، فإذا حمي الوطيس، وحجّ الرئيس، أنشأ الزاهد بينهما ينشد: [الوافر]

عزيزُ النفس لا وَلَدٌ يموتُ ولا أنسٌ يحاذرُهُ يفوتُ

حقيقة . العابد طالبُ رياسةٍ وحرمة، والزاهد صاحب نَفَاسة وهمّة، والمعنى للعارف يعادي في اللّه تعالى ويوالي، ويرضي اللّه ولا يبالي.

رقيقة مَنْ سابق سبق، ومن رافق ارتفق، ومن لاحق الْتَحَقَ، والعجز والكسل مقدمتا الخيبة، و [الطويل]

على قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأتي العزائمُ[3]

حقيقة . العمل دواء القلب، وإذا كان الدواء لا يصلح إلاّ إذا كان على حمية البدن، فكذلك العمل لا ينجح إلاّ بعد صوم النفس، فارق نفسك وتعال.

رقيقة . مثل دواعي الخير والشرّ في الإنسان كمثل الخلط الفاعل والقوة الدافعة في العليل، تغلب القوّة فيسكن الخلط فيجد الراحة، وعن قليل يتحرّك فيجد الألم.

حقيقة . العمل على السلامة مسالمة، وعلى الغنيمة تجارة، وعلى الأمر قرض، فيضاعف له أضعافًا كثيرة.

---

(١) سورة الغاشية ٨٨، الآية ١٧.

(٢) سورة الذاريات ٥١، الآية ٢١.

(٣) هو صدر بيت للمتنبي، وعجزه هو:

وتأتي على قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ

ديوان المتنبي (ص ٤٠١).

رقيقة. تطهَّرْ من أدناس هواك، وتزيَّنْ بلباس تقواك، وقُمْ لمسجد انقطاعك على قدم شكواك، وأحرم بتوجيه قلبك إلى قبلة نَجْواك، تجد الحقّ عندك وليس بسواك.

حقيقة. وجد العارف فجاد بنفسه، فوجد اللَّه عنده، وتواجد المريد فحاكى، ومن لم يبْك تَبَاكى.

رقيقة. زكِّ نفسك لقلبك، تَزْكُ عند ربِّك، بِعْها منه رخيصة، فهي على ثمنها لديه حريصة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى ﴾[1].

حقيقة. الزوال وقتُ المناجاة، فطهِّرْ قلبك قبله من الحاجات، وإياك والحظّ، فذهاب نقطته أسرع من اللحظ.

رقيقة. الزاد لك وهو مكتوب، والزائد عليك وهو مسلوب، فأجمل في طلب المضمون، ولا تلزم نفسك صَفْقَة المغبون.

حقيقة. أمر بالتوكّل لتقصر الطرف عليه، وأذن في التسبّب لتنصرف منه إليه، فذاك مخبر بحقيقة التفرّد، وهذا مظهر لحكمة التعبّد.

رقيقة. الملك أبو الدنيا، وهو مع ذلك محبوس فيها، تبهم عليه الأبواب، ويستدعي الحراس والحجاب، فإذا خرج حَدَّقَتْ إليه الألحاظ، وأحدقت بجهاته الحفّاظ، أي حَظّ حَظُّ من فقد نعمة ﴿فَامْشُوا في مَناكِبِها وكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾[2].

حقيقة. قال صاحب الزهر الأنيق: علامات المحبة أربع: الإفلاس، والاستئناس، والأنفاس، والوسواس. قلت: الإفلاس التجرّد إلاّ عنه كالخليل، والاستئناس التوحّش إلاّ منه كالكليم، والأنفاس والوسواس صلة الاسم وعائده.

رقيقة. ذكر مذكر بمالقَةَ، فقام الخطيب الشيخ الولي أبو عبد اللّه الساحلي بهذا البيت: [الخفيف]

ليت شعري أفي زمامِ رضاكُمْ كُتِبَ اسمي أم في زمام[3] الْهَوَانِ؟

---

(1) سورة التوبة ٩، الآية ١١١.
(2) سورة الملك ٦٧، الآية ١٥.
(3) الزمام: الديوان.

وكنت يومًا مع السلطان والجند يُعْرَضون عليه، وكان يسقط ويثبت، وأنا أتفكّر في البيت، حتى خلت[1] أن أفتضح، فقلت: واهمّاه من هذا الإبهام، ثم كدت أخْلِدُ بقبح العمل إلى الأرض فينشلني حسن الظنّ بالله، عزّ وجلّ، فأنهض: [السريع]

إنَّ المقاديرَ إذا ساعدت ألحقت العاجزَ بالقادرِ[2]

حقيقة ـ إذا قابل إبرة القلب مغناطيس الحسن صبا فانجذب، فإذا اتّصل عشق فانقطع، فإذا انجذَّ فني فبقي، حاشا الصوفي أن يموت.

رقيقة ـ افتخر الغراب بإقامة قرآن الفجر، فقيل: حتى تغسل بول الشيطان من أُذنك، فطرب الديك فرحًا بالفوز، وندب العصفور ترحًا على الفوت.

حقيقة ـ الخلوة بيت الاعتبار، وفي بيته يُؤْتَى الحَكم، وباب هذا البيت العلم ﴿وأْتُوا البيوتَ مِنْ أبوابِها﴾[3].

رقيقة ـ واقع فقير هَنَاة، ثم دخل خلوته، فبدتْ له نفسه بوجه مُومِسة، فقال: ما أنت؟ قالت: أُمّ الحياة، فقال: ما أجمل أن تبدل هاؤك همزة، فقالت: إذن لم تصنع ما شئت، فانتبه لِقَرْعِ العتاب، فتاب.

حقيقة ـ القلب إيوانُ الملك ويَسَعُني، وعزّ الملك يأنف عن ذلّ المزاحمة، أنا أغنى الشركاء عن الشرك.

رقيقة ـ لما وضع البسطامي أوزار حُوبه[4]، فَكَّ طابَعَ الصحيفة عن قلبه، فلم يجد بها غير الطفرى، فصاح بنفسه لك البشرى، أنزل طيفور عمّا تريد، ليس في الدار أبو يزيد.

حقيقة ـ قال شيخنا أبو هادي يومًا لأصحابه: بماذا يرتقي العبد عن مقامه إلى مقام أعلى منه؟ قالوا: بفضل الله ورحمته، فقال: إنما سألتكم عن السبب الخاصّ بهذا الأمر، قالوا: من عند الشيخ؟ قال: يخلق الله له همّة فيرتقي بها إلى رتبة أسْمَى من رتبته.

ومن هذا الكتاب:

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣١٣): «خفت».
(٢) في طبعة دار صادر: «بالحازمِ».
(٣) سورة البقرة ٢، الآية ١٨٩.
(٤) الحُوبُ: الإثم. محيط المحيط (حوب).

حقيقة. التفتْ إلى مواهب الملوك تجذهم إنما يوسعون فيما قد يسترجعون، فأمّا العلماء وكلّ من يعطي بحقّ فإنما يعطون بقصد ﴿ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَكَ إلى ما مَتَّعْنا به أزواجًا منهمْ ﴾[1] واصبرْ نفسك دونهم فعن قريب تنصرف عنهم.

رقيقة. قلت لقلبي: كيف تجدك؟ فقال: أمّا مِنْ أمّارتك[2] ففي عناء الجهاد، وأما مِن لَوّامتك[3] فعلى جمر الصبر، قلت: فمتى الراحة؟ قال: إذا اطمأنّت النفس، فاضمحلّ الوهم وغاب الحسّ.

حقيقة. قَطْعُ السِّوَى طهارةُ المنيب[4]، ولا يقبل اللّه صلاة بغير طَهور، وكتابه النحيب، والمكاتب عبدٌ ما بقي عليه، وبابه الدخول على الحبيب.

نظر رجل إلى امرأة عفيفة فقالت: يا هذا، غضَّ بصرك عمّا ليس لك، تنفتح بصيرتك فترى ما هو لك.

رقيقة. لما حنكت الطينة بتمر الجنّة، وغذيت بلبانها، فطرت على محبتها. انظروا إلى حبّ الأنصار التمر. فلم تطق الفطام عنها: [المتقارب]

وتأبى الطباعُ على الناقلِ[5]

فذاك ما تجد من الحنين إلى التلاق، والأنين على الفراق، والشغف بمدح العابر، وذمّ الغابر، وفي ذلك[6]: [الخفيف]

كم أردْنا ذاك الزمان بمدح　　　فشغلنا بذمّ هذا الزمانِ

وإن لم تعرف عصرًا خاليًا، ولا خلاً نائيًا، لم يمرَّ عليك مِمّا تشتهيه، أطيبُ مِمّا أنت فيه[7]: [الكامل]

---

(١) سورة طه ٢٠، الآية ١٣١.
(٢) الأمّارة: النّفسُ؛ يقول اللّه تعالى: ﴿إنّ النّفسَ لأمّارةٌ بالسُّوْءِ﴾. سورة يوسف ١٢، الآية ٥٣.
(٣) اللّوّامة: النّفسُ؛ قال اللّه تعالى: ﴿لا أُقسِمُ بيومِ القيامةِ، ولا أُقسِمُ بالنّفْسِ اللّوّامَةِ﴾. سورة القيامة ٧٥، الآيتان ١، ٢.
(٤) المنيب: الراجع إلى اللّه تعالى. لسان العرب (ناب).
(٥) هو عجز بيت للمتنبي، وصدره هو: يُرادُ من القلب نسيانُكُم. ديوان المتنبي (ص ٢٧٦).
(٦) البيت للمعري من قصيدته: «علّلاني فإنّ بيض الأماني...».
(٧) البيت لأبي تمام وهو في ديوانه (ص ٤٠٧).

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحـنـيـنُـه أبـدًا لأول مـنـزلِ

ومنه: حقيقة ـ قيل: عرّض الكليم بطلب القوت في رحلة الهجرة ﴿إنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خيرٍ فقيرٌ ﴾[1] فحمل على كاهل ﴿إنَّ أبي يَدْعُوكَ ﴾[2] وصرح في سفر التأديب ﴿لو شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عليه أَجْرًا ﴾[3] فحمل على كاهل ﴿هذا فِراقُ بيني وبَيْنِكَ ﴾[4] قلت: لما تمحض الطلب له اكتفى، فلمّا تعلّق حقّ الغير به وفى، ولذلك قضى أبا المرأتين، الأجلين.

رقيقة ـ كان خرق السفينة إراءة لكرامة ﴿فٱقْذِفِيهِ في اليَمِّ ﴾[5] في مرآة ﴿وكانَ وراءَهُمْ مَلِكٌ ﴾[6]: [البسيط]

وربما صَحَّتِ الأجسامُ بالعللِ[7]

وقتلُ الغلام إشارة إلى اشتمال قتله ﴿فَقَضَى عليهِ ﴾[8] على رحمة ﴿فَنَجَّيناكَ مِنَ الغَمِّ ﴾[9] برمز ﴿فَخَشينا أنْ يُرْهِقَهُمَا ﴾[10] والمحن الصم حبائل المنح، وإقامة الجدار إثارة لفتوّة ﴿فَسَقَى لَهُمَا ﴾[11] ليخفض له جناح ﴿إنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[12] فيستظل من حرّ ﴿لو شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عليهِ ﴾[13] في نيّة ﴿هذا فِراقُ بيني وبَيْنِكَ ﴾[14].

---

(١) سورة القصص ٢٨، الآية ٢٤.
(٢) سورة القصص ٢٨، الآية ٢٥.
(٣) سورة الكهف ١٨، الآية ٧٧.
(٤) سورة الكهف ١٨، الآية ٧٨.
(٥) سورة طه ٢٠، الآية ٣٩.
(٦) سورة الكهف ١٨، الآية ٧٩.
(٧) هو عجز بيت للمتنبي، وصدره هو: لعلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقبُهُ. ديوان المتنبي (ص ٣٥٣)، وفيه: «فربما» بدل «وربما».
(٨) سورة القصص ٢٨، الآية ١٥.
(٩) سورة طه ٢٠، الآية ٤٠.
(١٠) سورة الكهف ١٨، الآية ٨٠.
(١١) سورة القصص ٢٨، الآية ٢٤.
(١٢) سورة القصص ٢٨، الآية ٢٤.
(١٣) سورة الكهف ١٨، الآية ٧٧.
(١٤) سورة الكهف ١٨، الآية ٧٨.

حقيقة. قيل لمحمد بن الحسن الزبيدي التونسي وأنا عنده بها: كيف لم يصبر الكليم وقد ناط الصبر بالمشيئة ﴿سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللَّهُ صابِرًا ﴾[1] ، وقد جاء في الصحيح في قصة سليمان عليه السلام «لو قال إن شاء اللّه لكان كما قال» والمقام الموسوي أجلّ ﴿واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾[2] وطلابه أفضل؟ ما جميع أعمال الصبر[3] والجهاد في طلب العلم إلاّ كبصقة في بحر، فقال: كان موسى على علم من علم اللّه، وهو علم المعاملة، لا يعلمه الخضر، وكان الخضر على علم من علم اللّه لا يعلمه موسى، فلم يظنَّ أنّ ما لم يحطّ به خُبرًا يأباه حكم الظاهر، وإلاّ كيف يلتزم البر عليه، وقد أمر بصرف الإنكار إليه؟ ﴿ما مَنَعَكَ إذ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾[4] بل لم يعتد مثله من ملاقاة المشاق، فيما كان عليه الخضر من اختراق الآفاق، وركوب الطباق، فما علقه بقوله، فقد صدقه بفعله، وما لم يستطع عليه صبرًا، فلم يدخل في التزامه اعتقادًا، ولا ذكرًا».

رقيقة. قال لي عبد الرحمن بن يعقوب المكتِّب: كان عندنا بالساحل سائح هِجِّيرَاه: إلٰهي بسطت لي أملي، وأحصيت عليَّ عملي، وغيّبت عني أجلي، ولا أدري إلى أيِّ الدارين يُذهب بي، لقد أوقفتني موقف المحزونين ما أبقيتني.

حقيقة. تَنَازَعَ القلبُ والنفسُ الخُلقَ، فقسّمها بينهما قاضي العقل، فمن باع منهما حظّه فلا شُفْعَة لصاحبه عليه.

ومنه: حقيقة. الحجب ثلاثة: فحجاب الغيرة منع، وحجاب الحيرة دفع، وحجاب الغفلة قطع ﴿أُولَئِكَ كالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[5].

رقيقة: اللحم أيام التشريق مكروه، وكل لذّة عند أرباب الدنيا كاللحم عندك أيام الأضحى، فلا تريئّك الغفلة عن سرّك زيادة النعمة عندك.

حقيقة. الفقر إلى اللّه الاستغناء به عمّا سواه، وهوية الرضا باللّه أن لا يخطر بالبال إلاّه.

---

(١) سورة الكهف ١٨، الآية ٦٩.
(٢) سورة طه ٢٠، الآية ٤١.
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣١٦): «أعمال البرّ..».
(٤) سورة طه ٢٠، الآية ٩٢.
(٥) سورة الأعراف ٧، الآية ١٧٩.

ومنه: حقيقة ـ التلوّن مجون، تارة طربًا وطورًا شجون، والتمكّن معرفة، وأين الحال من الصفة؟

رقيقة ـ قال لي محمد بن عبد الواحد الرباطي: قال لي محمد بن عبد السيد الطرابلسي: دخلت على أبي الحسن الحراالي[1] فقلت له: كيف أصبحت؟ فأنشد: [البسيط]

أصبحت ألطف من مرّ النسيم سَرَى على الرياض يكادُ الوهمُ يؤلمُني
من كلِّ مَعْنًى لطيفٍ أحتسي قَدَحًا وكلُّ ناطقةٍ في الكون تُطْربني

حقيقة ـ قال الطالب: الوقت سيف، وقال الواصل: بل مقت، فتلا العارف ﴿قُلِ اللَّهُ، ثُمَّ ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[2]

رقيقة ـ لصاحب الوقت يومان: [الكامل]

يوم بأرواح يُبَاعُ ويُشْتَرى وأخوه ليس يُسَام فيه بدرهمِ

وفصل الفضل بينهما: [الطويل]

وما تفضل الأيام أخرى بذاتها ولكنّ أيامَ الملاح ملاحُ

ومنه: حقيقة ـ قال لي الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن مرزوق العجيسي بعباد تلمسان: قال لي أبو عبد اللّه بن حيون: إنه وجد على ظهر كتاب بخطّ عتيق: قال أبو يزيد البسطامي: يظهر في آخر الزمان رجل يُسمَّى شعيبًا، لا تدرك له نهاية، قالا: وهو أبو مَدْيَن، قلت: وقف بظاهره مع الشريعة، وذهب بباطنه مع الحقيقة، فما انقطع لصحّة البداية، ولا رجع لعدم الغاية.

رقيقة ـ قمت ببعض الأسحار، على قدم الاستغفار، وقد استشعرت الصبابة، واستدثرت الكآبة، فأملى الجنان على اللسان، بما نفث في روعه روح الإحسان: [مخلع البسيط]

منكسر القلب بالْجَنَايَا[3] يدعوكَ يا مانحَ العطايا

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣١٣): «الحراني».
(٢) سورة الأنعام ٦، الآية ٩١.
(٣) الجَنايا: جمع جَنِيّة وهي الذنب. محيط المحيط (جنى).

أقعَدَهُ الذنبُ عن رفيق   حَثُّوا لرضوانك المطايا

ومنه: إثر حقيقة في شأن الحلاج ما نصُّه، ثم قلت: [الكامل]

ولربّ داعٍ للجمالِ أطغته   وأبى الجلال عليَّ أن أتقدّما
فأطعت بالعصيان أمرهما معًا   وجنحت للتسليم كيما أسلما

ومنه: حقيقة. قلت للسرّ: مالك تحسّ من خلف الموانع؟ فقال: خرق شعاعي سور العوائق، ثم انعكس إليّ بصور الحقائق، فأصبحت كما قيل: [البسيط]

كأنَّ مرآةَ عينِ الدهرِ في يَدِهِ   يرى بها غائب الأشيا فلم يغبِ

رقيقة. الليل رداء الرهبة، تهاب الجبان فيه[1] الأبطال، وتتقي الحواسّ دونه الخيال ﴿إنَّ ناشئةَ الليلِ هيَ أَشَدُّ وَطْأً وأَقْوَمُ قِيلاً ﴾[2].

حقيقة. النهار معاش النفس، فهو استعداد ﴿إنَّ لكَ في النهارِ سَبْحًا طويلاً ﴾[3] والليل رياش الأنس، فهو معاد ﴿واذْكُر اسمَ رَبِّكَ وتَبَتَّلْ إليه تَبْتِيلاً ﴾[4] فهذا جمع وذاك فرق، والحال أسرع ذهابًا من البرق.

ومنه: حقيقة. إن أكبرت النفس حالها، فذكِّرها أصلها ومآلها، فإنها تصغر عند ذلك، وتستقيم بك على أرض المسالك «احثوا التراب في وجوه المدّاحين» ﴿منها خَلَقْناكُمْ وفيها نُعيدُكُمْ ﴾[5].

رقيقة. إنما يتعاظم من يجد الحقارة من نفسه، ويتوهّم المهانة عند أبناء جنسه، فلذلك تراه مغمزًا للعيون، مهمزًا للظنون، من أسرَّ سريرة حسنة كساه اللّه رداءها.

رقيقة. رأيت الملوك لا يُشمّتُون[6]، ولا يُدْعَى لهم إلاَّ بما يتعلّق بأغراض الدنيا، وأكثر ذلك مِمَّا تحيل عقوده العوائد، فعلمت أنَّ الدنيا ضدُّ الآخرة.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣١٤): «الجبان أسد الأبطال».
(٢) سورة المزمل ٧٣، الآية ٦.
(٣) سورة المزمل ٧٣، الآية ٧.
(٤) سورة المزمل ٧٣، الآية ٨.
(٥) سورة طه ٢٠، الآية ٥٥.
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣١٥): «لا يشتمون».

حقيقة . من لم يفرَّ خور وذلك الجبن، من خاف أدلج ورجا، من لم يكرَّ تمنَّ وتلك الزمانة ﴿يا ليتني كُنتُ مَعَهُمْ فأفوزَ فوزًا عَظِيمًا ﴾[1].

رقيقة . سمعت أبا محمد المجاصي يقول: رويت بالسند الصحيح أنّ عابدًا رابَطَ ببعض الثغور مدّةً فكان كلّما طلع الفجرُ يسمع من ينشد دون أن يرى شيئًا[2]: [البسيط]

لولا رجال لهم سرد يصومونا | وآخرون لهم ورد يقومونا
لزلزلت أرضُكُم من تحتكم غضبًا | فإنّكمْ قومُ سوءٍ لا تبالونا

حقيقة . ما حمد اللّه حقّ حمده، إلاّ من عرفه حقّ معرفته، وذلك ممّا لا ينبغي لغيره «لا أُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

رقيقة . قلت: [الوافر]

أشيم[3] البرقَ من بين الثنايا | وأشْتَمُّ العبيرَ من الثناءِ
فأبدو تارةً وأغيبُ أخرى | مُثارَ الشوقِ مثنيَّ الحياءِ[4]

حقيقة . تحقق الحامد بكمال الذات فغاب عن حسّه في بحار العظمة، وتعلق الشاكر بجمال الفعل فوقف مع نفسه بسوق النعمة، فهذا تاجر ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيْدَنَّكُمْ ﴾[5] وذاك ذاكر ﴿وما بِكُمْ مِنْ ﴾[6].

ومنه: حقيقة . الصبر مطيّة المريد، والرضا سجيّة المراد، فهذا يقوم للأمر، وذاك يسعى للأجر.

رقيقة . الحسنة بعشرة[7] أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والصبر بغير حساب، والرضا بالرضا، وذلك سِدْرَةُ المنتهى.

---

(١) سورة النساء ٤، الآية ٧٣.
(٢) انظر التكلمة (ص ٨٤٢).
(٣) أشيمُ البرقَ: أنظر إليه لأعرف أين يسقط المطر. لسان العرب (شام).
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣١٥): «الحشاء».
(٥) سورة إبراهيم ١٤، الآية ٧.
(٦) سورة النحل ١٦، الآية ٥٣.
(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣١٧): «بعشر».

حقيقة ـ النفس الأمّارة آبدة[1] لا تملَكُ إلاّ بلطائف الحيل، والمطمئنة ذَلُول لا تنفلت إلاّ مِمَّن غفل ﴿وأخافُ أن يَأْكُلَهُ الذِّئبُ﴾[2].

رقيقة ـ الدنيا معشوق الطالب، عاشق الهارب. هذا يستخدمها، وذاك يخدمها، يبني الخادم المسجدَ ليقال، ويعمره المخدوم لينال، فعل[3] الخادم السعي من غير جَدْوَى: [الطويل]

وليس لرحل حطَّه اللّه حامل

وللمخدوم الْجَدْوى بغير سعي: [الطويل]

وليس لما تَبْنِي يدُ اللّه هادمُ

إن السعادة أصلها التخصيص.

حقيقة ـ الجمال رياش، والحسن صورة، والملاحة روح، فذلك ستره عليك، وهذا سرّه فيك ﴿فإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيه مِنْ رُوحي﴾[4].

رقيقة ـ أُعطي يوسف شطر الحسن، يعني حسن آدم؛ لأنه إن لم يكن في الإمكان أبدع مِمّا كان فقد خلقه الحقّ بيده في أحسن تقويم، ثم نفخ فيه من روحه لتتمَّ علّة الأمر بسجود التحيّة والتكريم، فكان كما قال من أُنزل عليه الفرقان «خلق اللّه آدم على صورة الرحمن» فآدم إذًا كمال الحسن، وإلاّ فهو المراد؛ لأنّ الشطر، يقتضي الحصر، والنصف، ينزع عن الوصف، وأُعطي محمد ﷺ، كمال الجمال، فما أبصره أحد إلاّ هابه، وتمام الملاحة فما عرفه شخص إلاّ أحبّه، مع أنباء نوره في الآباء، بأنّ أُبوّة المعنى لسيد نجباء الأبناء، كما قال العارف عمر: [الطويل]

وإنّي وإن كنتُ ابنَ آدَمَ صورةً ... فلي فيه مَعْنًى شاهدٌ بأبوّتي

حقيقة ـ لا يثنينَّك الخوف عن قَرْعِ الباب فتيأس، فإنه لا ييأس من روح اللّه إلاّ القوم الكافرون، ولا يدنينَّك الرجاء من الفترة فتأمن، فإنه لا يأمن مكر اللّه إلاّ القوم الخاسرون،

---

(١) الآبدة: النافرة. لسان العرب (أبد).

(٢) سورة يوسف ١٢، الآية ١٣.

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣١٧): «فعل».

(٤) سورة الحجر ١٥، الآية ٢٩.

فإن لم تستطع بعد الحرص أن تعدل، فلا تَمِلْ كلَّ الميل مع النفس ﴿إنَّ النفسَ لأَمّارَةٌ بالسُّوءِ ﴾[1].

رقيقة. ارفع قصتك في رقعة الإقبال على كفّ الرجاء، خافضًا من طرف الحياء وصوت الإدلال، عاكفًا في زاوية الانكماش من وراء ستر الخوف، يخرج عليك حاجب القدر من باب الكرم بتوقيع ﴿فاسْتَجَبْنا له ﴾[2].

ومنه: حقيقة. صدْقُ مجاهدَةِ الفاروق أيقظ الوسنان، وَطَرَدَ الشيطان، وأرضى الرحمن، ففاز بسلامة «ما سلكت فَجًّا إلاّ سلك الشيطان فجًا غير فجِّك»؛ وحقق مشاهدة الصدّيق أسْمَعَ من ناجى، فحاز غنيمة «لو كشف الغطاء ما ازداد يقينًا».

رقيقة. ذهب أبو بكر في السابقين، ولحق عمر بأهل اليقين، فما أدرك الصدّيق أداء التصلية، حتى استدرك الفاروق قضاء التقفية: [الطويل]

ولو كنت في أهل اليمين مُنَعَّمًا   بكيتُ على ما فات مِنْ زَمَنِ الصِّبا

حقيقة. النصّ سلاح، والنظر مطيّة، والاتّباع جُنَّة[3]، والوَرَع نجاة، والخلاف فتنة، والبدع مهالك، وخير الأمور أوساطها.

ومنه: حقيقة. تخيَّر المساعد، واختبر المصاعد، وليكن همّك في سفرك منك معرفتك كيف ترجع إليك، فلن يحقّق صفة الربوبية، مَنْ لم يحقّق نعت العبودية.

رقيقة. حُدّثت أنّ سيدي أبا الحسن الشاذلي لمّا أزمع على التحوّل من طَيْبَةَ على مَنْ بها الصلاةُ والسلام، أوقف فعله على إذن رسول الله ﷺ، له فرآه في منامه فقال تَوحشنا يا علي؟ فأخذ يعتلُّ، فأذن له، وقال: إذا جئت مصر فاقرأْ عز الدين بن عبد السلام مني السلام، قال: فلمّا التقينا بلَّغته المألَكَة[4] سرًّا، فلم تظهر نفسه لذلك، فلمّا قام المزمزم قال: [الكامل]

صَدَق المحدِّثُ والحديثُ كما جرى   وحديثُ أهلِ الحبِّ ما لا يُفْترى

---

(١) سورة يوسف ١٢، الآية ٥٣.

(٢) سورة الأنبياء ٢١، الآيات ٨٤، ٨٨، ٩٠.

(٣) الجُنَّةُ، بضمِّ الجيم: الدرع، والواقي. لسان العرب (جنن).

(٤) المَأْلَكَةُ: الرسالة. محيط المحيط (ألك).

فاستغفر الشيخ، ثم كذب نفسه، ثم حطّ للتسليم رأسه.

حقيقة. الوهم شيطان القلب يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وسائر الجهات لمراقبة ﴿قُلْ هُوَ القادِرُ﴾[1] فمن ثم كان أشدّ تقلّبًا من المِرْجَل على النار، فإذا ذكر اللّه سكن ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾[2].

رقيقة. فرق القلب من ذكر اللّه خَوْفَ ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[3] ثم سكن لذكره رجاءَ ﴿وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾[4] فعاد داء تقشعرّ منه دواء ﴿ثم تَلِينُ﴾[5] فنعق بلائمة: [البسيط]

دَعْ عنكَ لومي فإنَّ اللومَ إغراءُ[6]

ثم هتف بمنادمة:

وداوني بالتي كانت هي الداءُ

حقيقة. العبودية صفة نفسك؛ لأنها حال أحد العبيد، والعبودة صفة قلبك؛ لأنها ملكة واحد العباد، والعبادة قصد وجهك؛ لأنها نعت الفردوس من العباد.

ومنه: حقيقة. إنما تزيد في الدنيا بقدر ما تنقص من الآخرة، فإنّ تشييد الجدار على قدر انتقاص الجبل.

رقيقة. مَنْ جرّ لنفسه جار على قلبه، فلا تجوز شهادته عند ربّه؛ لأنَّ العدل من[7] تَرْكُ العدول والميل.

رقيقة. لا تقدمنَّ إلاً بدليل وإذن، واحذر ما لا ينفع ما استطعت فقد تم، انظر فلا حرج إن جهلت ما لم تكلف علمه، وأخاف عليك سوء عاقبة الهجوم.

رقيقة. إذا اهتزّ العرش بالسَّحَر لدعاء أهل ﴿تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ﴾[8] انبعث من نسيمه ما

---

(١) سورة الأنعام ٦، الآية ٦٥.
(٢) سورة الرعد ١٣، الآية ٢٨.
(٣) سورة الحج ٢٢، الآية ٣٥.
(٤) سورة الرعد ١٣، الآية ٢٨.
(٥) سورة الزمر ٣٩، الآية ٢٣.
(٦) هو صدر بيت لأبي نواس، وتاليه هو عجز البيت نفسه. ديوان أبي نواس (ص ٦).
(٧) كلمة «من» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣١٩).
(٨) سورة السجدة ٣٢، الآية ١٦.

أغشاهم طيبة الراحة ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾[1] وأهبَّ المستغفر من نومه لإدراك فضل ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[2].

حقيقة. دع الغريب وما يريب، واركب الجادَّة، ولا تسلك بُنَيَّات الطريق[3] ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[4].

ومنه: حقيقة. سفر المريد تجارة، وسفر العارف عمارة، فهذا يرحل للإقامة عند الحقيقة، وذاك يطلب الاستقامة على الطريقة.

رقيقة. إياك أيها المصلّي لنا، أن تلتفت إلى غيرنا، وأقبل علينا بصدق نيّتك، وناجِنا بخلوص سريرتك، فقد قُمْنا بينك وبين قبلتك، وناجيناك بلسان تلاوتك فإن غبت عنَّا، فلست منّا.

حقيقة. الشطح كناية، والكرامة عناية، والاعتراض جناية، فإياك ولِمَ؟ فإن عرفت فاتَّبعْ، وإن جهلت فسلِّمْ.

رقيقة. الليل معاد الأنس ﴿إنَّ ناشئةَ الليلِ هي أَشَدُّ وَطْأً وأَقْوَمُ قِيلاً﴾[5] والنهار معاش النفس ﴿إنَّ لكَ في النهارِ سَبْحًا طويلاً﴾[6] فهذا نشاط رغبة يتّسع في مناكبه المجال، وتعتور على مراكبه الأحوال، وذلك حجاب رهبة تهوي إليه الأوجال، وتجتمع فيه هموم الرجال، ألاَ ترى كيف تهاب الجبان دونه الأبطال، وتتقي الحواس خلفه الخيال؟ كما قال: [الطويل]

نهاري نهارُ الناسِ حتى إذا دَجَا ... لي الليلُ هزَّتني إليك المضاجعُ
أُقَضِّي نهاري بالحديث وبالمُنَى ... ويجمعني والهمَّ بالليلِ جامعُ

حقيقة. حُجُبُ الطالبِ أربعة: فحجاب الغيرة قاذع؛ قيل لبعضهم: أتحب أن تراه؟ فقال: لا، قيل: ولم؟ قال: أجلُّ ذلك عن نظر مثلي، وحجاب التيه قامع، نزل فقير على

---

(1) سورة الأنفال ٨، الآية ١١.
(2) سورة المائدة ٥، الآية ١١٩؛ وسورة المجادلة ٥٨، الآية ٢٢؛ وسورة البينة ٩٨، الآية ٨.
(3) بُنَيّات الطريق: الطرق الصغار التي تتفرّع من الجادّة. محيط المحيط (بني).
(4) سورة الأنعام ٦، الآية ١٥٣.
(5) سورة المزمل ٧٣، الآية ٦.
(6) سورة المزمل ٧٣، الآية ٧.

ابن عجوز، فبينما هي تصلح له الطعام غشي على الفتى، فسألها الفقير فقالت له: إنه يَهْوَى ابنة عمّ له بتلك الخيمة، فخطرت، فاشتمّ غبار ذيلها، فذهب الفقير ليخطبها عليه، فقالت: إذا لم يُطِقْ غبار ذيلي فكيف يستطيع أن يشاهدني؟ وحجاب الحيرة دافع، ومن ثم حلا لأرباب الغيبة، قال بعضهم: يا دليل الحائرين، زدني تحيرًا، ومر على أصحاب الرغبة والرهبة كما قال: [الخفيف]

قد تَحَيَّرْتُ فيك خُذْ بيدي يا دليلاً لمن تحيَّرَ فيكا

وحجاب الغَفلة قاطع، كان بعضهم يقول: إن عذبتني بشيء فلا تعذبني بذلِّ الحجاب. ونظر آخر إلى امرأة فوقع عليه سَهْم، فعوّره وعليه مكتوب: نظرت بعين العَوْرَة فرميناك بسهم الأدب، ولو نظرت بعين الشهوة لرميناك بسهم القطيعة.

رقيقة. حُدِّثت أنّ ابن الفارض دخل على الشيخ عز الدين وقد ذهب به التفكّر فيما له عند اللّه عزَّ وجلَّ، فكاشَفَه بأن أنشده من قصيدة له: [البسيط]

لك البشارة فاخْلَعْ ما عليك فقد ذكرت ثَمّ عَلَى ما فيك من عِوَجِ

فبدرته البشاشة، وأظنّ أن قد خلع قُمَاشه.

حقيقة. وقفتُ ذات يوم بالجنابة، واستفهمت اسمي هل عرف منها مكانه، فأملى بعد هنيأة من نظمه، ما وقفت منه على حقيقة مبلغ علمه: [الخفيف]

كلُّ مَيْتٍ رأتْهُ عَيْنِي فإني ذلك الميت إن نظرت بقلبي
وجميعُ القبور قبريَ لولا جهل نفسي بما لها عند ربِّي

رقيقة. أهم ما على السالك مراعاة قلبه، أن يتلف في تقلّبه، فذلك فساد حاله، وذهاب رأس ماله، تزوّج فقير فلبس ثياب العرس، فطلب قلبه فلم يجده، فصاح: خُلْقَاني[1]، فأعطوه، فأخذها وخرج.

حقيقة. حُجُبُ المطلوب ثلاثة: فحجاب التيه جمال، كما قال العارف عمر: [الخفيف]

تِهْ دلالاً فأنتَ أهلٌ لذاكا وتحكَّمْ فالحسنُ قد وَلاَّكَا[2]

(١) الخُلْقان: الثياب البالية، مفردها خَلَق. محيط المحيط (خلق).
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٢٥): «قد أعطاك».

وحجاب العزة جلال: [البسيط]

هَمَّت بإتياننا حتى إذا نظرتْ إلى المِرَاةِ[1] نهاها وَجْهُها الحَسَنُ

وحجاب الكبرياء كمال، أُنشدت لرابعة: [المتقارب]

أُحِبُّكَ حُبَّيـنِ حُبَّ الهوى وحبًّا لأنكَ أهلٌ لذاكا
فأمّا الذي هو حُبُّ الهوى فشغلي بذكرك عَمَّنْ سواكا
وأمّا الذي أنتَ أهلٌ له فأن ترفع الحُجْبَ حتى أراكا
وما الحمدُ في ذا ولا ذاك لي ولكنْ لك الحمدُ في ذا وذاكا

وهذا معنى ما في الصحيح «وما بين أهل الجنّة وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عدن».

ومنه: حقيقة - الآثار منصة التجلّي، فمن لم يزر مهلب ﴿ويَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] زار عميرَ ﴿يَمُرُّونَ ﴾[3] وبطل رصد الحجاج.

رقيقة - من تفكّر تذكّر، ومن تذكّر تبصّر، فإن أكمل وقف، وإن قصر انصرف ﴿إنَّا هَدَيْناه السَّبيلَ ﴾[4].

حقيقة - الوحدة فهم، والتوحيد علم، والاتّحاد حكم، والاثنينية وهم: [الطويل]

أَلاَ كلُّ شيءٍ ما خلا اللَّهَ باطلُ[5]

ومنه: حقيقة - أهمّ ما على السالك مراعاة قلبه، أن يتلف في تقلّبه، فإن ذلك فساد حاله، وذهاب رأس ماله، رئي فقير ينادي في السوق: ارحموا صوفيًّا ذهب رأس ماله، فقيل له: وهل للصوفي رأس مال؟ فقال: نعم، كان لي قلب ففقدته.

---

(١) المراة: المرآة.
(٢) سورة آل عمران ٣، الآية ١٩١.
(٣) سورة يوسف ١٢، الآية ١٠٥.
(٤) سورة الإنسان ٧٦، الآية ٣.
(٥) هو صدر بيت للبيد بن ربيعة العامري، وعجزه هو:

وكلُّ نعيم، لا مَحالَةَ، زائلُ

ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص ١٣٢).

ومنه: حقيقة[1] تنازع القلبُ والنفسُ الخلقَ، فترافعا إلى العقل، فقسمه بينهما، فانفردت النفس بالهوى، والقلب بالتقوى، فصُرِفت طرقهما إلى الجهتين، وقطعت الشفعة فيهما بين الفئتين.

ومنه، عند ختم الكتاب ما نصُّه: حقيقة ـ لا يودع السرّ إلاّ عند أهله، ولا يذيعه إلاّ من ضاق ذَرْعًا بحمله، فإن عَدَا موعده الرمز فقد زلّ، وإن تعدّى مذيعه الغمز فقد ضلّ.

رقيقة ـ الحسن خلق، والجمال خلق، وحسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن، وحيث هو الجمال هو الجميل.

حقيقة ـ تحقّق العلماء بالتوحيد فاستشعروا ﴿واللَّهُ خَلَقَكُمْ وما تَعْمَلُونَ ﴾[2] لكنهم اعتبروا خلق السبب والابتلاء به، فتصرّفوا بدلالة الإذن في مذهبه، فاستقاموا على طريقة الأدب، ولم يَفُتْهُم فضل التوكل، ولم تتّسع معارف الزهاد لما عرفوا المسبّب بكيفية الانصراف إلى السبب منه، لدقّة الفرق بينه وبين الانصراف عنه، فوقفوا مع التوكل للعذر، ولم يستعملوا أدب الجريان مع ابتلاء الأمر، وعكف الغافلون على ظاهر السبب، ففاتهم التوكل والأدب ﴿أولئك كالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[3].

رقيقة ـ ألفيت لعبد الحق الإشبيلي بيتًا هو عندي أفضل من قصيدة، وهو: [الخفيف]

قد يُسَاق المرادُ وَهْوَ بعيدٌ ... ويريدُ المريد وهو قريبُ

ومن أراد معرفة قدر هذا البيت فَلْيَتْلُ ﴿اللَّهُ يَجْتَبي إليه مَنْ يَشاءُ ويَهْدي إليه مَنْ يُنِيبُ ﴾[4].

حقيقة أشرف أسمائك ما أضافك إليه، وأكرم صفاتك ما دلّ فيك عليه: [السريع]

لا تَدْعُنِي إلاّ بِيَا عَبْدَهَا ... فإنه أشرفُ أسمائي[5]

ولا تصفْني بالهوى عندها ... فعندها تحقيقُ أنبائي

---

(١) تقدم هذا قبل قليل.
(٢) سورة الصافات ٣٧، الآية ٩٦.
(٣) سورة الأعراف ٧، الآية ١٧٩.
(٤) سورة الشورى ٤٢، الآية ١٣.
(٥) تقدم هذا البيت في الجزء الثاني.

رقيقة: [الكامل]

أعززْ بمن سَوْدَاءُ قلبي مَغْرِبٌ لخياله، وَسَوَادُ عيني مَشْرِقُ
إنْ غابَ عن سِرِّي فعنه لم يغبْ أو عن عِياني فهو فيه محقَّقُ
والعينُ تعجزُ أن ترى إنسانَها والقلبُ بالروح اللطيف مصدِّقُ

صُنْ عينك عن قلبك لربّك، وقلبك عن نفسك لحبّك، ونفسك عن طبعك لوليّك، وطبعك عن هواك لعدوّك، وهواك عمّن سواك، وقد كنت من نسل الجنّة، وكان بينك وبين البلاء أوقى جُنَّة[1]، لطف اللّه تعالى بي وبكم في مجاري أحكامه، ويَسَّرَنا أجمعين للعمل بموجبات إكرامه، وصلّى اللّه على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم لقائه؛ انتهى ما تعلّق به الغرض من كتاب «الحقائق والرقائق» لمولاي الجَدّ الإمام، سقى اللّه عهده صَوْبَ الغَمام! وما ذكرته من كلامه غَيْض من فيض، وقُلٌّ من كُثر[2]، ويكفي من الحلي ما قلّ وستر العنق.

ولنذكر بعض نظمه، رحمه اللّه تعالى، وقد تقدّم بعضه أثناء ما سبق من كلامه رضي اللّه عنه، فراجعه إن شئت.

ومن بديع نظمه، رحمه اللّه تعالى، ما في الإحاطة ونصُّه[3]: نقلتُ من ذلك قوله: «هذه لمحة العارض، لتكملة ألفية ابن الفارض، سَلَبَ الدهر من فرائدها مائة وسبعة وسبعين، فاستعنت على ردِّها بحول اللّه المعين».

من فصل الإقبال[4]: [الطويل]

رفضتُ السِّوَى وهو الطَّهارةُ عندما تَلَفَّعْتُ في مِرْطِ الهوى وَهْوَ زينتي
وجئتُ الحِمَى وهو المُصَلَّى مُيَمّمًا بوجهةِ قلبي وجهها وهو قِبْلتي
وقمتُ وما استفتحتُ إلاَّ بذكرِها وأَحْرَمْتُ إحرامًا لغير تحلَّةِ
فديني إن لاحَتْ ركوعٌ، وإنْ دَنَتْ سجودٌ، وإن لاهَتْ[5] قيامٌ بحسرةِ

---

(١) الجُنّة، بضمّ الجيم: الورع والوقاية. محيط المحيط (جنن).
(٢) قُلٌّ من كُثر: قليل من كثير.
(٣) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤).
(٤) القصيدة في الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥).
(٥) لاهت: تستّرت. محيط المحيط (لاه).

على أننا في القُرْب والبُعْد واحدٌ ... تُؤَلِّفُنا[1] بالوصل عينُ التَّشتُّت
وكم من هَجيرٍ خُضْتُ ظمآنَ طاويًا ... إليها ودَيْجُورٍ طويتُ برحلةٍ[2]
وفيها لقيتُ الموتَ أَحْمَرَ والعِدا ... بزرقة[3] أسنانِ الرِّماحِ وحِدَّةِ
وبيني وبين العَذْلِ فيها منازل ... تُنَسِّيك أيامَ الفِجار ومُؤْتة
ولمَّا اقتسمْنا خُطَّتَينا فحاملٌ ... فَجَارٍ بلا أجرٍ وحاملُ بَرَّةِ
خلا مَسْمعي من ذكرها فاستعدته ... فعاد ختامُ الأمرِ أَصْلَ القضيَّةِ
وكم لي على حُكْم الهوى من تجلُّدٍ ... دليلٌ على أنَّ الهوى من سجيّتي
يقول سميري والأسى سالم الأسى ... ولا تُوضَعُ الأوزارُ إلاَّ لِمِحْنَةِ
لو أنَّ مجوسًا بَتَّ موقِدَ نارِها ... لما ظلَّ إلاّ مَنْهلاً ذا شريعةِ
ولو كنتُ بحرًا لم يكن فيه نَضْحةٌ ... لعينٍ إذا نارُ الغرامِ اسْتَحَرَّتِ[4]
فلا رَدْمُ مِنْ نَقْبٍ[5] المعاول آمنٌ ... ولا هَدْمَ إلاّ منكَ شِيدَ بقوةِ
فممَّ تقولُ الأَسْطقسّات[6] منك أو ... علامَ مزاجٌ ركِّبت أو طبيعةِ
فإنْ قام لم يَثْبُت له منكَ قاعدٌ ... وإلاَّ فأنتَ الدَّهْرَ صاحبُ قِعْدةِ
فما أنتَ يا هذا الهوى؟ ماء أَوْ هوا ... أم النارُ أم دسّاسُ عِرْقِ الأمومة
وإني على صبري كما أنا واصفٌ ... وحاليَ أقوى القائمين بحُجَّةِ
أقلُّ الضَّنى أن عجَّ من جسميَ الضَّنى ... وما شاكَهُ مِغْشارُ بعضِ شَكِيَّتي
وأيسرُ شوقي أنني ما ذكرْتُها ... ولم أَنسَها إلاَّ احترقتُ بِلَوْعَةِ
وأخفى الجوى قرعُ الصواعق منكَ في ... جواي وأخفي الوجد صبرُ المودّة
وأسهلُ ما ألقى من العَذْلِ أنني ... أُحِبُّ أَقَلّيْ[7] ذكرها وفضيحتي
وأوجُ حظوظي اليوم منها حضيضُها ... بالأمس، وَسَلْ حَرَّ الجفونِ الغزيرةِ
وأوجزُ أمري أنّ دهريَ كلّه ... كما شاءتِ الحسناءُ يومَ الهزيمةِ

---

(١) في الإحاطة: «تألفنا».

(٢) طاويًا: أي طاويًا بطني من الجوع. طويت: قطعت واجتزت. لسان العرب (طوى).

(٣) في الإحاطة: «مُزَرَّقَةٍ».

(٤) استحرّت: اشتدّت. محيط المحيط (حرر).

(٥) في الإحاطة (ص ٢٠٥): «نقيب».

(٦) في الإحاطة: الأَسْفِطْسات».

(٧) في الإحاطة: «أقلى».

أروحُ وما يلقى التأسُّفُ راحتي ... وأغدو وما يعدو التفجُّعَ خِطّتي
وكالبِيْض بِيْضُ الدهر والسُّمْرِ سودُه ... مساءتُها في طيِّ طِيْبِ المَسَرَّة
وشأنُ الهوى ما قد عَرَفْتُ ولا تَسَلْ ... وحسبُك أنْ لم يخبرِ الحبَّ رؤيتي
سقامٌ بلا بُرْءٍ، ضلالٌ بلا هدًى ... أُوامٌ بلا ريّ، دَمٌ لا بقيمةِ
ولا عَتْبَ فالأيامُ ليس لها رِضًا ... وإنْ تَرْضَ منها الصَّبْر فَهْوَ تَعَنُّتي[١]
ألاَ أيها اللُّوّامُ عنِّيَ، قَوِّضُوا ... رِكابَ ملامي فهو أولُ محنتي
ولا تَعْذُلُوني في البكاء ولا البُكَى ... وخلُّوا سبيلي ما استطعتم ولَوعَتي
فما سلسلت بالدمع عينيَ إنْ جَنَتْ ... ولكن رأتْ ذاك الجمالَ فَجُنَّتِ
تجلّى وأرجاء الرجاء حوالِكٌ ... ورُشْديَ غاوٍ والعماياتُ عَمَّتِ
فلم يستبنْ حتى كأنيَ كاسفٌ ... وراجعتُ إبصاري[٢] له وبصيرتي

وفي فصل الاتصال[٣]: [الطويل]

وكم موقفٍ لي في الهوى خُضتُ دونه ... عُبابَ الردى بين الظُّبَا والأَسِنَّةِ
فجاوزتُ في حدِّي مُجاهدتي له ... مشاهدتي لمّا سَمَتْ بيَ هِمَّتي
وحلَّ جمالي في الجلال، فلا أرى ... سوى صورةِ التَّنْزيهِ في كلِّ صورةِ
وغِبْتُ عن الأغيار في تيه حالتي[٤] ... فلم أنتبهْ حتى امْتحى اسمي وكنيتي
وكاتبتُ ناسوتي بأمّارةِ الهوى ... وعدتُ إلى اللاهوتِ بالمطمئنةِ
وعلمُ يقيني صار عينًا حقيقةً ... ولم يَبْقَ دوني حاجبٌ غير هَيْبتي
وبدّلتُ بالتلوين تمكينَ عزّةٍ ... ومن كلِّ أحوالي مقاماتِ رِفْعَةِ
وقد غبتُ بعد الفرق والجمع موقفي ... مع المحو والإثباتِ عند تثبّتي
وكم جُلْتُ في سَمِّ الخياطِ[٥] وضاق بي ... لِبَسْطي وقَبْضي بسطُ وجه البسيطة
وما اخترتُ إلاّ دنّ بقراط[٦] زاهدًا ... وفي مَلَكوتِ النفسِ أكبرُ عبرة

---

(١) في الإحاطة: «بُغْيتي».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٢٦): «أبصاري».
(٣) القصيدة في الإحاطة (ج ٢ ص ٢٠٦).
(٤) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٣٠): «حيرتي».
(٥) سَمُّ الخِياط: ثقب الإبرة. محيط المحيط (سمم) و (خيط).
(٦) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٣١): «سقراط».

وفقري مع الصبرِ اصطفيتُ على الغنى ... مع الشكرِ إذ لم يحظ فيه مَثُوبتي
وأكتمُ حبّي ما كنى عنه أهلُه ... وأكني إذا هُمْ صرَّحوا بالخَبِيَّةِ
وإنّيَ في جنسي ومنه لواحِدٌ ... كنوعٍ، فَفَصْلُ النوعِ علَّةُ حِصّتي
تَسَبَّبْتُ في دعوى التوكّلِ ذاهبًا ... إلى أنَّ أجْدَىَ حيلتي تركُ حيلتي
وآخرُ حَرْفٍ صار مِنّيَ أولاً ... مريدًا وحَرْفٌ في مقام العُبودة
تعرَّفْتُ يومَ الوقفِ منزلَ قومها ... فبتُّ بجمع سدَّ خَرْقَ التشتُّت
فأصبحتُ أقضي النفسَ منها مُنى الهوى ... وأقضي على قلبي برعي الرعيَّةِ
فبايعْتُها بالنفسِ دارًا سكنتُها ... وبالقلبِ منه منزلاً فيه حَلَّتِ
فخلّص الاستحقاقُ نفسي من الهوى ... وأوجب الاسترقاقُ تسليمَ شُفْعَةِ
فيا نَفَسُ، لا ترجعْ تقطّع بيننا ... ويا قلبُ لا تجزع ظَفِرْتَ بوَحْدَةِ

ومن فصل الإدلال[1]: [الطويل]

تَبَدَّتْ لعيني من جمالك لمحةٌ ... أبادتْ فؤادي من سَناها بِلَفْحةِ
ومَرَّتْ بسمعي من حديثك مُلحةٌ ... تبدَّتْ لها فيك القِران وقَرَّتِ
ملامي أَبِنْ[2]، عذري استبِنْ، وَجْديَ استعنْ ... سماعي أَعِنْ، حالي أَبِنْ، قائلي اصمتِ
فمن شاهِدَيْ سُخطٌ، ومن قائلي[3] رضا ... وتلوينُ أحوالي وتَمكينُ رُتْبتي
مرامي إشاراتٍ، مَراعي تفكّرٍ[4] ... مَراقي نهاياتٍ، مَراسي تَثَبُّتِ
وفي موقفي والدارُ أقْوَتْ رسومُها ... تَقَرُّبُ أشواقي تَبَعُّدُ حسرتي
معاني أماراتٍ[5]، مغاني تذكّرٍ ... مباني بداياتٍ، مثاني تلفُّت
وبثُّ غرامٍ، والحبيبُ بحضرةٍ ... ورَدُّ سلامٍ، والرقيبُ بغفلةِ
ومطلعُ بَدْرٍ في قضيبٍ على نَقًا ... فُوَيْقَ محلّ عاطلٍ دون دُجْيَةِ
ومَكْمَنُ سِحْرٍ بابليّ له بما ... حَوَتْ أضلعي فعلُ القَنا السَّمْهريةِ

---

(١) القصيدة في الإحاطة (جـ ٢ ص ٢٠٧ - ٢٠٨).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٣١): «ملاميَ بِنْ».
(٣) في الإحاطة: «قاتلي».
(٤) في الإحاطة: «تعكر».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٢٧): «إمارات».

ومنبتُ مِسْكٍ من شقيقِ ابنِ منذرٍ على سَوْسَنٍ غضّ بجنّةِ وجَنَّةِ
ورصفُ اللآلي في اليواقيتِ كلّما تُعَلُّ بصرفِ الراحِ في كلِّ سُحْرَةِ
سَلِ السلسبيلَ العَذْبَ عن طعم ريقه ونكْهته يخبرْكَ عن عِلْمِ خِبْرةِ
ورمّانُ كافورٍ عليه طوابعٌ من الندِّ لم تحمل به بنتُ مُزْنةِ[1]
ولُطْفُ هواء بين خَفْقِ[2] وبانةٍ ورقّةُ ماءٍ في قواريرِ فِضَّةِ
لقد عَزَّ عنك الصبرُ حتى كأنه سُراقةُ لحظٍ منك للمتلفِّتِ
وأنت وإن لم تُبْقِ منّي صبابةً مُنَى النفسِ لم تقصدْ سواك بِوُجْهة
وكلُّ فصيح منك يَسْرِي لمسمعي وكلُّ مليح منك يبدو لمقلتي
تهونُ عليَّ النفسُ فيك، وإنها لتكرمُ أن تغشى سواك بنظرة
فإنْ تنظريني بالرضا تُشْفَ علّتي وإن تُظْفريني باللقا تُطْفَ غلَّتي
وإن تذكريني والحياة بقَيْدها عدلتُ لأُمني مُنْيتي بمنيّتي
وإن تذكريني بعدما أسكنُ الثرى تجلَّتْ دُجاهُ عند ذاك وولَّتِ
صِلِيني وإلاّ جَدِّدي الوعدَ تُذْركي صُبابةَ نفسٍ أيقنتْ بِتَفَلُّتِ
فما أمُّ بوّ هالكٍ بتَنُوفةٍ[3] أُقِيمَ لها خلفَ الحِلابِ فَدَرَّتِ
فلمّا رأته لا ينازعُ خِلْفَها إذا هي لم تَرْسِلْ عليه وضَنَّتِ
بَكَتْ كلّما راحتْ عليه وإنها إذا ذكرته آخرَ الليلِ حَنَّتِ
بأكثرَ منّي لوعةً غير أنني رأيتُ وقار الصبر أحسنَ حِلْيةِ
فرحتُ كما أغدو إذا ما ذكرتها أُطامنُ أحشائي على ما أجَنَّتِ
أُهَوِّن ما ألقاهُ إلاّ من القِلى هوًى ونوًى نَيلُ الرِّضا منك بغيتي
أخوضُ الصِّلاَ، أطفي العُلا والعلوّ لا أصلّ السلا، أرعى الخَلَى بين عَبْرتي
ألاَ قاتلَ اللّهُ الحمامةَ غُدوةً لقد أَصْلَتِ الأحشاءَ نيرانَ لَوْعَةِ
وقاتل مَغْناها وموقفَ شَجْوِها على الغُصن ماذا هَيَّجَتْ حين غَنَّت
فَغَنَّتْ غِناءً أعجميًا فهيَّجَتْ غرامِيَ من ذِكْرَى عهود تولَّتِ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٣٢): «عَلَتْهُ طوابعٌ». والنَّدُّ: عود يتبخّر به. لسان العرب (ندد).
(٢) في طبعة دار صادر «حقف».
(٣) البَوُّ: ولد الناقة. التَّنوفة: الأرض الواسعة التي لا ماء فيها ولا إنسان. محيط المحيط (بوو) (تنف).

فأرسلتِ الأجفانُ سُحْبًا وأوقدتْ جواي الذي كانت ضُلوعي أَكَنَّتِ[1]
نظرتُ بصحراء البريقين نظرةً وصلتُ بها قلبي فَصَلَّ وَصَلَّتِ
فيا لهما قلبًا شجيًّا ونظرةً حجازيّةً لو جُنَّ طرفٌ لَجُنَّتِ
وواعجبًا للقلبِ كيف اعترافُه وكيف بَدَتْ أسرارُهُ خَلْفَ سِتْرة
وللعين لمّا سُوئلت كيف أخبرت وللنفس لمّا وُطِّنَتْ كيف دَلَّتِ[2]
وكُنَّا سَلَكْنا في صَعودٍ من الهوى يُسَامي بأعلام العُلا كلَّ رُتْبَةِ
إلى مستوًى ما فوقه فيه[3] مستوى فلمّا توافَيْنا ثبتُّ وزلَّتِ
وكُنَّا عقدْنا عُقْدَةَ الوصلِ بيننا على نَحْر قُرْبانٍ لدى قَبْر شَيْبة
مؤكدةً بالنُّذر أيامَ عهده فلمّا تواثَقْنا اشتَدَدْتُ[4] وحَلَّتِ

ومن فصل الاحتفال[5]: [الطويل]

أزورُ اعتمارًا أَرْضَهَا بِتَنَسُّكٍ وأقصدُ حَجًّا بيتها بتحلَّةِ
وفي نشأتي الأخرى ظهرتُ بما عَلَتْ له نشأتي الأولى على كلِّ فطْرَةِ
ولولا خفاء الرَّمْز من لا ولن ولم تجدْها لشملي مَسْلَكًا بتشتُّتِ
ولو لم يجدِّدْ عَهْدَنا عقدُ خِلَّةٍ قضيتُ ولم يَقْضِ المنى صِدْقُ توبة
بعثتُ إلى قلبي بشيرًا بما رأتْ على قدمٍ عَيْناي منه فَكَفَّتِ
فلم يَعْدُ أن شام البشارةَ شامٌ ما جفا الشام من نُور الصفات الكريمةِ
فيا لك من نورٍ لو آنَّ التفاتةً تُعارضُ منه بالنفوس النفيسةِ
تحدِّثُ أنفاسُ الصَّبا أن طيبها بما حملته من خَراقةِ خُزْقَةِ
وتنبىء آصالُ الربيع عن الرُّبا وأشجاره أنْ قد تجلَّتْ فجلَّتِ
وتخبر أصواتُ البلابل أنها تَغَنَّتْ بترجيعي[6] على كلِّ أَيْكَةِ

---

(١) أَكَنَّتْ: سترتْ. محيط المحيط (كنن).
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٣٣): «ذلّت» بالذال المعجمة.
(٣) كلمة «فيه» غير واردة في الإحاطة (ص ٢٠٨).
(٤) في طبعة دار صادر: «شددتُ».
(٥) القصيدة في الإحاطة (ج ٢ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠).
(٦) الترجيع: ترديد الصوت، وأراد هنا الغناء. لسان العرب (رجع).

فهذا جمالي منك في بُعْد حَسْرتي فكيف به إن قَرَّبتني بخلَّةِ
تَبَدَّى وما زال الحجابُ ولا دَنا وغاب ولم يُفقِدْه شاهدُ حضرتي
له كلُّ غيرٍ في تجلّيه[1] مظهرٌ ولا غير إلاّ ما مَحَتْ كفُّ غيرةِ
تجلّي دليل، واحتجابُ تنزهٍ وإثباتُ عرفانٍ، ومحوُ تثبُّتِ
فما شِئْتَ من شيء وآليتُ أنه هو الشيء لم تحمدْ فجارِ أليتي
وفي كلِّ خَلْقٍ منه كلُّ عجيبةٍ وفي كلِّ خُلْق منه كلّ لطيفة
وفي كلِّ خافٍ منه مكمنُ حكمةٍ وفي كلِّ بادٍ منه مظهرُ جَلْوة
أراه بقلب[2] القَلْبِ واللُّغزِ كامنًا وفي الزّجر والفال الصحيح الأدلّة
وفي طيّ أوفاقِ الحسابِ وسرّ ما يتمّ من الأعداد فابدأ بستّةِ
وفي نَفَثَاتِ السحر في العُقَد التي تَطُوعُ لها كلُّ الطِّباع الأَبِيَّةِ
يصور شكلاً مِثْلَ شكلٍ ويَغْتلي عليه بأوهام النفوسِ الخبيثةِ
وفي كلِّ تصحيفٍ وعضوٍ بذاته اختلاجٌ، وفي التقويم مَجْلى لرؤيةِ
وفي خُضْرة الكمّون تُزْجي شرابَهُ مواعيدُ عَرْقوبٍ على إثر صُفْرة
وفي شَجَرٍ قد خُوِّفت قَطْع أصلها فبان بها حِمْلٌ لأَقْرَبِ مدَّةِ
وفي النخل في تلقيحه واعتبر بما أتى فيه عن خير البريّة واسكتِ
وفي الطابع السبتيّ في الأحرف[3] التي يُبيِّنُ منها النَّظْم كلَّ خِفْية
وفي صنعة الطِّلَّسم والكيمياء والـ كنوز وتغوير المياه المَعِينةِ
وفي حِرْز أقسام المؤدّبِ مُحْرزٍ وحزبِ أصيلِ الشاذليّ[4] وبكرة
وفي سِيمياء الحاتميّ ومذهب ابـ نِ سبعينَ إذ يُعْزى إلى شرِّ بدعةِ
وفي المُثُل[5] الأولى وفي النِّحَلِ الأُلى بها أوهموا لَمَّا تساموا بسنَّةِ
وفي كلِّ ما في الكون من عجبٍ وما حوى الكونُ إلاّ ناطقًا بعجيبة
فلا سِرَّ إلاّ وهو فيه سريرةٌ ولا جَهْرَ إلاّ وهو فيه كَجِلْيَةِ

---

(١) في الإحاطة: «تجليّة».
(٢) في الإحاطة: «يُقَلِّبُ».
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٣٥): «والأحرف».
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٣٠): «الشادليّ»، بالدال المهملة.
(٥) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٣١): «وفي المِلل».

سَلِ الذكرعن أنصاف أصناف ما ابتنى[١] عليه الكلامُ من حروف سليمةِ
وعن وضعها في بعضها وبلوغِ ما أتتْ فيه أمضى عَدّها وتَثَبُّتِ
فلا بُدَّ من رَمْزِ الكنوز لذي الحِجا ولا ظُلْمَ إلاّ ظلمُ صاحبِ حِكْمَةِ
ولولا سلامٌ ساقَ للأمنِ خِيفتي لعاجل مَسُّ البرد خوفي لِمَيْتَتي
ولو لم تداركني ولكن بِعَطْفها درجتْ رجائي أن نَعَتْني خَيْبَتي
ولو لم تؤانسني عنّا قبل لم ولم قضى العَتْبُ منّي بغيةً بَعْدَ وَحْشَتي
ونعمٌ أقامتْ أمرَ مِلْكي بشكرها كما هوَّنَتْ بالصبرِ كلَّ بَلِيَّةِ

ومن فصل الاعتقال[٢]: [الطويل]

سَرَتْ بفؤادي إذ سَرَتْ فيه نظرتي وسارتْ ولم تُثْنِ العِنانَ بعطفةِ
وذلك لمَّا أطْلع الشمسَ في الدجى مُحَيًّا ابنةِ الحيين في خير ليلة
يمانيّةٌ لو أنجدتْ حين أنجدتْ[٣] لما أبصرتْ عيناكَ حَيًّا كَمَيّتِ
لأصْحَمَةٍ[٤] في نُصْحها قدمٌ بنى لكلِّ نجاشيّ بها حِصْنَ ذمّةِ
ألمّتْ فحطّتْ رَحْلها ثم لم يكن سوى وقفة التوديع حتى استقلَّتِ
فلو سَمَحتْ لي بالتفاتٍ وحُلَّ من مهاوي الهوى والهُون جدَّ تَفَلُّتي
ولكنها هَمَّتْ بنا فتذكَّرَتْ قضاءَ قُضاةِ الحُسْن قِدَمًا فصدَّتِ
أَجَلْتُ خيالاً إنني لا أُجِلُّهُ ولم أنتسبْ منه لغير تَعِلَّةِ
على أنني كلِّي وبعضي حقيقةٌ وباطلُ أوصافي وحقُّ حقيقتي
وجِنْسي وفَصْلي والعوارضُ كلّها ونوعي وشخصي والهواءُ وصورتي[٥]
وجسمي ونفسي والْحَشا وغرامُهُ وعَقْلي وروحانيتي القُدُسيّة
وفي كلِّ لفظٍ عنه مَيْلٌ لمسمعي وفي كلِّ معنًى منه معنًى لِلَوْعتي
ودهري به عيدٌ ليومِ عَرُوبة وأمريَ أمري والورى تحت قَبْضتي

---

(١) في طبعة دار صادر: «ما انبنى».
(٢) القصيدة في الإحاطة (ج ٢ ص ٢١٠ ـ ٢١٢).
(٣) أنجدت الأولى: من النجدة. وأنجدت الثانية: دخلت نجدًا. لسان العرب (نجد).
(٤) أصحمة: هو نجاشي الحبشة، الذي استقبل بالحبشة مهاجري المسلمين وأحسن معاملاتهم، ولمّا توفّي صلّى عليه النبيّ، ﷺ، صلاة الغائب.
(٥) يستعمل الشاعر في هذا البيت اصطلاحات علم المنطق.

ووقتي شهودٌ في فِناء شَهِدْتُهُ ولا وقتَ لي إلاَّ مَشاهدُ غَيْبَةِ
أراهُ معي حِسًّا ووهْمًا وإنه مَنَاطُ الثريًا من مدارك رؤيتي
وأسمعُهُ من غير نُطْقٍ كأنه يُلَقِّنُ سمعي ما تُوَسْوِسُ مهجتي
ملأتَ بأنوارِ المحبَّةِ باطني كأنكَ نورٌ في سِرارِ سريرتي
وجَلَّيتَ بالإجلال أرجاء ظاهري كأنك في أُفقي كواكبُ زينةِ
فأنت الذي أُخْفيه عند تَسَتُّرِي وأنت الذي أُبديه في حين شُهْرتي
فَتِهْ أحتمل، واقطعْ أصِلْ، واغلُ أستفلْ ومُرْ أمتثلْ، وأملل أمِلْ، وازم أَثْبُتِ
فقلبيَ إن عاتَبْتُه فيك لم أجدْ لعتبيَ فيه الدهرَ موقعَ نُكْتة
ونفسيَ تنبو عن سواكَ نَفاسةً فلا تنتمي إلاَّ إليك بِمنَّةِ
تعلّقتِ الآمالُ منك بفوق ما أرى دونه ما لا يُنالُ بِحِيْلَةِ
وحامتْ حواليها وما وافقتْ حِمًى سحائبُ يأسٍ أمطرتْ ماء عَبْرتي
فلو فاتني منك الرِّضا ولحقتني بعفوٍ بكيتُ الدهرَ فَوْتَ فضيلة
ولو كنتُ في أهلِ اليمين مُنَعَّمًا بكيتُ على ما كان من سَبْقِيَّةِ[1]
وكم من مقامٍ قمتُ عنك مسائلاً أرى كلَّ حيّ كلَّ حَيّ ومَيِّتِ
أتيتُ بفارابٍ أبا نَصْرها فلم أجِدْ عنده عِلْمًا يُبَرِّدُ غُلَّتي
ولم يَدْرِ ما قولي ابنُ سيناء سائلاً فَقُلْ كيف أرجو عنده بُرْءَ عِلّتي
فهل في ابن رُشْد بعد هذين مُرْتَجَى وفي ابنِ طُفَيلٍ لاحتثاثِ مَطِيَّتي
لقد ضاع، لولا أن تداركني حِمًى من اللّه، سعيٌ بينهم طول مُدّتي
فَقَيَّضَ لي نَهْجًا إلى الحقِّ سالكًا وأيقظني من نومِ جهلي وغَفْلتي
فَحَصَّنْتُ أنظار الجنيد[2] جُنَيْدِها بتركِ فلي من رغبةٍ ريحُ رهبةِ
وكَسَّرتُ عن رَجْل ابن أدْهَمَ أدْهَمًا وأنقذْتُهُ من أَسْرِ حُبِّ الأسرّة
وعدتُ على حَلاَّجِ شُكْري بِصَلْبه وألقيتُ بلعامَ التفاتِي[3] بهوّة
فَقَوْليَ مشكورٌ، ورأييَ ناجح وفِعْليَ محمودٌ، بكلِّ مَحَلَّةِ
رضيتُ بِعِرفاني فأعليْتُ للعُلا وأجلسني بعد الرِّضا فيه جُلَّتي

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٣٧): «أسبقيه».
(٢) في الإحاطة (ص ٢١٢): «الجند».
(٣) في الإحاطة: «التفاني».

فعشتُ ولا ضيرًا أخافُ ولا قِلَى　　وصرتُ حبيبًا في ديار أحبّتي
فها أنا ذا أُمْسي وأُصبحُ بينهم　　مُبَلَّغَ نفسي منهمُ ما تَمَنَّتِ

ومن نظمه أيضًا ما حكي عنه في «الإحاطة» إذ قال: وأنشدني قوله في حال قبض، وقيّدْتُها عنه[1]: [الطويل]

إليكَ بَسَطْتُ الكَفَّ أستنزلُ الفَضْلا　　ومنك قبضتُ الطَّرفَ أستشعرُ الذُّلاً
وها أنا ذا قد قُمْتُ يقدمني الرَّجا　　ويحجمُ بي الخوفُ الذي خامر العَقْلا[2]
أُقَدِّمُ رِجْلاً إن يُضِيء برقُ مطمعٍ　　وتُظْلِمُ أرجائي فلا أنقلُ الرِّجْلاَ
ولي عَثَراتٌ لست آملُ إن هَوَتْ　　بنفسيَ أن لا أستقيلَ وأن أصْلَى
فإن تدركْني رحمةٌ أنتعشْ بها　　وإن تكنِ الأخرى فأولى بيَ الأَوْلى

وقوله رحمه اللَّه تعالى[3]: [مجزوء الكامل]

وَجْدٌ تُسَعِّره الضلو　　عُ وما تُبَرِّدُهُ المدامِعْ
هَمٌّ تحرّكه الصَّبا　　بةُ والمهابةُ لا تُطاوِعْ
أمل[4] إذا وصل الرَّجا　　أسبابَهُ فالموتُ قاطِعْ
باللَّه يا هذا الهوى　　ما أنتَ بالْعُشَّاقِ صانِعْ

وقال رحمه اللَّه تعالى كما في «الإحاطة»: ومِمّا كتبت به لمن بلغني عنه بعضُ الشيء[5]: [الرمل]

نحن، إن تسأل بناسٍ[6]، معشرٌ　　أهلُ ماءٍ فَجَّرَتْهُ الهِممُ
عَرَب من بِيضِهم أرزاقُهم　　ومن السُّمْر الطوال الخيم
عَرَّضت أحسابهم أرواحهم　　دون نَيْلِ العرض وهي الكرم
أورثونا المجد حتى إننا　　نرتضي الموتَ ولا نزدحم

---

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢١٢ ـ ٢١٣).
(٢) في الإحاطة: «قد قدمتُ يقدمني... ويحجمني الخوف..».
(٣) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢١٣).
(٤) في الإحاطة: «أملي».
(٥) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢١٣).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٣٤): «بنا».

ما لنا في الناس من ذنبٍ سوى أننا نَلْوي إذا ما اقتحموا

وقال: مِمّا قلته مذيِّلاً به قول القاضي أبي بكر بن العربي[1]: [مجزوء الوافر]

أَمَا والمسجدِ الأقصى وما يتلى به نَصَّا
لقد رَقَصَتْ بنات الشو قِ بين جوانحي رقصا

قولي: [مجزوء الوافر]

فأقلع بي إليه هوًى جَناحا عَزْمُهُ قُصّا[2]
أَقَلَّ القلبَ واستعدى على الجُثْمانِ فاسْتَعْصَى
فقمتُ أجول بينهما فلا أدنى ولا أقصى

قال رحمه اللّه تعالى: ومِمّا قلته في التورية بشأن راوي المدوّنة[3]: [البسيط]

لا تَعْجَبَنَّ لظبيٍ قد دَها أسدًا فقد دها أسدًا من قبلُ سحنونُ

ومن نظم مولاي الجدّ مِمّا لم يذكره في «الإحاطة» قوله حسبما ألفيَ بخطّه على ظهر نسخة من تأليفه «القواعد»: [البسيط]

ناديت والقلب بالأشواقِ محترقٌ والنفس من حيرةِ الأبعادِ في دَهَشِ
يا معطشي من وصالٍ كنتُ آمُلُهُ هل فيك لي فَرَجٌ إن صحتُ واعَطَشِي

ومن نظمه ما أسنده الونشريسي[4] إليه: [الكامل]

خَالِفْ هَوَاكَ وكُنْ لعقلك طائعًا تَجِدِ[5] الحقيقةَ عند طرفِ الناظرِ

ومنه مِمّا نسبه له المذكور، ورأيت من ينسبهما لغيره: [البسيط]

لَمّا رأيناكَ بَعْدَ الشَّيْبِ يا رَجُلُ لا تستقيمُ وأمرَ النفسِ تمتثلُ
زدنا يقينًا بما كُنّا نصدقُهُ بعد المشيب يشبُّ الحرصُ والأملُ

---

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢١٤).
(٢) أقلع: نشر شراع السفينة؛ وهنا يشبّه الهوى بالملاّح.
(٣) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢١٤).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٣٥): «الوانشريسي».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «فخذ».

وفي «الإحاطة» في ترجمة شعره ما صورته قال: ومِمّا قلته من الشعر، وبه نختم الكلام[1]: [البسيط]

أنبتُّ عودًا لنعماءٍ[2] بدأتَ بها فضلاً وأَلْبَسْتُها بعد اللِّحى الورقا
فظلَّ مُسْتَشْعِرًا مُسْتدثرًا أرِجًا[3] ريّانَ ذا بهجة يستوقفُ الحَدَقا
فلا تشِنْه بمكروهِ الْجَنَى فلكَمْ عَوَّدته من جميلٍ من لَدُن خُلقا
وأَنْفِ القَذَى عنه وأثرِ الدهر منبته وغَـذِّهِ بـرجـاءٍ واسْـقِـهِ غَـدِقًـا[4]
واحْفَظْهُ من حادثاتِ الدهرِ أجمعها ما جاء منها على ضوءٍ وما طَرَقا

انتهى ما قصدته من ترجمة مولاي الجدّ على ما اقتضاه الوقت، ولو أرسلت عِنان القلم في شأنه لضاق هذا الديوان عن ذلك، ويرحم اللّه شيخ شيوخنا عالم المغرب سيدي أبا العباس الونشريسي[5] ثم التلمساني نزيل فاس صاحب «المعيار» وغيره إذ قال في تأليفه الذي عَرَّفَ فيه بمولاي الجدّ لمّا سأله بعضهم في ذلك، وذكر ما حضره، ما نصُّه: ولقد استوفى شيخ شيوخنا المحقّق النظار أبو عبد اللّه بن مرزوق الحفيد ترجمة المقري في كتاب سمّاه «النور البدري، في التعريف بالفقيه المقري» وقد تقدّمت الإشارة إلى أن اسم هذا التأليف مبني على أنّ المقري بفتح الميم وسكون القاف، وقد علمت ما في ذلك مِمّا مضى.

قلت: وقد ملكت بفاس مجلّدًا ضخمًا بخطِّ مؤلفه، وهو أحد علماء مدينة فاس، ألّفه برسم مولاي الجدّ، وسمّاه بـ «الزهر الباسم» وأطال فيه في مدح مولاي الجدّ، والثناء عليه، والتنويه بقدره، وذكر محاسنه، ولم يحضرني الآن لكوني تركته مع جملة كتبي بالمغرب، وقد تعلّق بحفظي ما قاله في أوله من جملة أبيات: [الوافر]

إذا ذُكِرَتْ مفاخرُ أهلِ فاسٍ ذكرنا مَنْ أتى مِنْ تِلِمْسانِ
وقلْنا هل رأيتمْ في قُضَاةٍ شبيهًا للفقيه العَدْلِ ثاني

---

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ٢١٤).
(٢) في الإحاطة: «بنعماء».
(٣) مستشعرًا: لابسًا الشعار، وهو اللباس الذي يلامس البدن. مستدثرًا: لابسًا الدثار. لسان العرب (شعر) و (دثر).
(٤) الغَدَقُ، بالفتح: الماء الكثير. لسان العرب (غدق).

إلى أن قال:

ونفسُ العلم إن شانتْ لشخصٍ ... فما للمقَّرِي في العلم شاني[1]

وقد أخذ عنه، رحمه اللَّه تعالى، جماعة أعلام مشهورون، منهم لسان الدين بن الخطيب ذو الوزارتين، والوزير أبو عبد اللَّه بن زَمْرَك، والأستاذ العلاّمة أبو عبد اللَّه الفيجاطي الآية في علم القراءات، والشيخ الفقيه القاضي الرحَّال الحاج أبو عبد اللَّه محمد بن سعيد بن عثمان بن سعد الصنهاجي الزموري الدار المعروف بنقشابو، والولي ابن خلدون صاحب التاريخ، وفي بعض المواضع يعبر عنه بصاحبنا، وفي بعضها بشيخنا، والنظّار أبو إسحاق الشاطبي، والعلاّمة أبو محمد عبد اللَّه بن جُزَي، والحافظ ابن علاق[2]، وغيرهم مِمّن يطول تعداده، ولا كالشيخ الولي الشهير الكبير العارف باللَّه سيدي محمد بن عباد الرندي[3] شارح حكم ابن عطاء اللَّه فإنه ممّن يفتخر مولاي الجدّ، رحمه اللَّه تعالى، بكون مثله تلميذًا له، ولا بأس أن نورد ترجمته تبرّكًا به في هذا الكتاب، ولو لم تقتضه المناسبة التي راعيناها في هذا التأليف، فكيف وقد اقتضته؟ فنقول:

قال في حقّه صاحبه الشيخ أبو زكريا السراج، ما صورته[4]: هو شيخنا الفقيه الخطيب البليغ الخاشع الخاشي، الإمام العالم المصنّف السالك العارف المحقّق الرباني ذو العلوم الباهرة، والمحاسن المتظاهرة، سليلُ الخطباء، ونتيجة العلماء، أبو عبد اللَّه محمد ابن الشيخ الفقيه الواعظ الخطيب البليغ العلَم الحظي الوجيه الحسيب الأصيل أبي إسحٰق إبراهيم بن أبي بكر بن عباد، كان حسن السّمْت، طويل الصمت، كثير الوقار والحياء، جميل اللقاء، حسن الخَلْق والخُلُق، عالي الهمّة، متواضعًا، معظّمًا عند الخاصة والعامة، نشأ ببلده رُنْدَة على أكمل طهارة، وعفاف وصيانة، وحفظ القرآن ابنَ سبع سنين، ثم تشاغل بَعْدُ بطلب العلوم النحوية والأدبية والأصولية والفروعية، حتى رأس فيها، وحصل معانيها، ثم أخذ في طريق الصوفية والمباحثة على الأسرار الإلٰهية حتى أُشير إليه، وتكلّم في علوم

---

(١) شاني: أصل القول: «شانىء» وقد سهلت الهمزة وقلبت ياء.

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٣٧): «ابن علان».

(٣) ترجمة محمد بن عباد الرندي في نيل الابتهاج (ص ٢٨٧).

(٤) نيل الابتهاج (ص ٢٨٧).

الأحوال والمقامات، والعلل والآفات، وألّف فيه تواليف عجيبة، وتصانيف بديعة غريبة[1]، وله أجوبة كثيرة في مسائل العلوم نحو مجلّدين، ودرس كتبًا وحفظها أو جُلّها كشهاب القضاعي والرسالة ومختصري ابن الحاجب وتسهيل ابن مالك ومقامات الحريري وفصيح ثعلب وغيرها، وقوت القلوب[2]، أخذ ببلده رُنْدَة عن أبيه القرآن وغيره، وعن خاله الشيخ الفقيه القاضي عبد اللّٰه الفريسي العربية وغيرها، وعن الشيخ الفقيه الخطيب أبي الحسن علي بن أبي الحسن الرُّنْدِي حرف نافع[3]، وعرض عليه الرسالة، وبتلمسان وفاس عن السيد الشريف الإمام العالم العلامة المحقق أبي عبد اللّٰه التلمساني الحسني جُمَلَ الخونجي تفهمًا وغيره، وعن الشيخ الفقيه القاضي العالم أبي عبد المقَّري كثيرًا من المختصر الفرعي لابن الحاجب وفصيح ثعلب وبعض صحيح مسلم كلّها تفقهًا، وعن الشيخ الفقيه العالم أبي محمد عبد النور العمراني الموطأ والعربية، وعن الإمام أبي عبد اللّٰه الآبلي «الإرشاد» لأبي المعالي وجميع كتاب ابن الحاجب الأصلي وعقيدة ابن الحاجب تفقهًا، وعن الشيخ الفقيه الحافظ أبي الحسن الصرصري بعض «التهذيب» تفقهًا، وعن الشيخ الأستاذ المقَّري الصالح أحمد بن عبد الرحمن المجاصي. شُهر بالمكناسي. كثيرًا من جُمَل الزجاج وتسهيل ابن مالك، وعن الشيخ الفقيه الصالح أبي مهدي عيسى المصمودي جميع كتاب ابن الحاجب والحاجبية له أيضًا تفقهًا، وتفقّه على الفقيه العالم أبي محمد الوانغيلي[4] في كتاب ابن الحاجب الفقهي وأخذ عنه حرف نافع، وعن الشيخ الفقيه الصالح المدرس بالحلفاويين أبي محمد عبد اللّٰه الفشتالي[5] كثيرًا من «التهذيب»، وعن قاضي الجماعة وخطيب الحضرة أبي عبد اللّٰه محمد بن أحمد الفشتالي كثيرًا من «التهذيب» تفقهًا، وكذا عن غيرهم، ولقي بسَلاَ الشيخ الحاج الصالح السني الزاهد الورع أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر، وأقام معه ومع أصحابه سنين عدة، قال: قصدتهم لوُجْدَان السلامة معهم، ثم رحل لطَنْجة فلقي بها الشيخ الصوفي أبا مروان عبد الملك، لازمته كثيرًا، وقرأت عليه، وسمعت منه،

---

(١) كلمة «غريبة» غير واردة في نيل الابتهاج.

(٢) هو «قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد» في التصوف، وهو لأبي طالب محمد بن علي بن عطية المتوفّى سنة ٣٨٦ هـ. كشف الظنون (جـ ٢ ص ١٣٦١).

(٣) أي القراءة المنسوبة إلى نافع.

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٣٨): «الواتعيلي».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «القشتالي» بالقاف.

وأنشدني من شعره وشعر غيره، وتردّدت بيني وبينه مسائل في إقامته بسَلاَ، وانتفعت به عظيمًا في التصوّف وغيره، وأجازني إجازة عامة. مولده برُنْدَة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، وتوفي بعد العصر يوم الجمعة ثالث رجب عام اثنين وتسعين وسبعمائة، وحضر جنازته الأمير فمن بَعْدَه، وهَمَّتِ العامَّة بكسر نعشه تبركًا به، ولم أَرَ جنازةً أحفل ولا أكثر خلقًا منها، ورثاه الناس بقصائد؛ انتهى كلام السراج.

وقال غيره في حقِّه: محمد بن إبراهيم بن عبد اللّٰه بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيىٰ بن عبّاد، النفزي نسبًا، الرُّنْدِي بلدًا، الشهير بابن عبّاد، الفقيه الصوفي الزاهد الولي العارف باللّٰه تعالى.

وقال في حقّه الشيخ ابن الخطيب القسمطيني في كتابه «أنس الفقير، وعز الحقير»[1]: هو الخطيب الشهير، الصالح الكبير، وكان والده من الخطباء، الفصحاء النجباء، ولأبي عبد اللّٰه هذا عقل وسكون، وزهد بالصلاح مقرون، وكان يحضر معنا مجلس شيخنا الفقيه أبي عمران موسى[2] العبدوسي، رحمه اللّٰه تعالى، وهو من أكابر أصحاب ابن عاشر، ومن خيار تلامذته، وأخذ عنه. وله كلام عجيب في التصوّف، وصنّف فيه، كما هو الآن يقرأ على الناس مع كتب التذكير، وله في ذلك قلم انفرد به، وسلم له فيه بسببه، ومن تصانيفه «شرح كتاب الحكم» لابن عطاء اللّٰه في سفر، رأيته وعلى ظهر نسخة منه مكتوب: [البسيط]

لا يبلغُ المرء في أوطانه شَرَفًا ... حتى يَكِيلَ ترابَ الأرضِ بالقدمِ[3]

ومن كلامه فيه: الاستئناس بالناس، من علامات الإفلاس، وفتح باب الأنس باللّٰه تعالى الاستيحاش من الناس. ومن كلامه فيه: من لازم الكون وبقي معه وقصر همّته عليه ولم تنفتح له طريقُ الغيوب الملكوتية، ولا خلص له بسرّه إلى فضاء شهادة الوحدانية، فهو مسجون بمحطاته[4]، ومحصور في هيكل ذاته. إلى غير ذلك من كلامه. وكان يحضر

---

(١) أنس الفقير (ص ٧٩).
(٢) كلمة «موسى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٣٩).
(٣) يكيل ترابَ الأرضِ بالقَدَم: كناية عن الجِدّ والتعب.
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٤٤): «بمحيطاته».

السماع ليلة المولد عند السلطان، وهو لا يريد ذلك، وما رأيته قطّ في غير مجلس جالسًا مع أحد، وإنما حظّ من يراه الوقوف معه خاصة[1]، وكنت إذا طلبته في الدعاء أحمرّ وجهه واستحيا كثيرًا، ثم يدعو لي، وأكثر تمتّعه من الدنيا بالطيب والبخور الكثير، ويتولّى أمر خدمته بنفسه، ولم يتزوّج، ولم يملك أَمَة، ولباسُه في داره مُرَقَّعة، فإذا خرج سترها بثوب أخضر أو أبيض، وله تلامذة كلّهم أخيار مبارَكُون، وبلغني عن بعضهم أنه تصدّق حين تاب على يده بعشرة آلاف دينار ذهبًا، وهو الآن إمام جامع القرويين بفاس وخطيبه، وأكثر قراءته في صلاة الجمعة ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللّهِ ﴾[2] وأكثر خطبته وعظ، ومثله من يَعِظُ الناس؛ لأنه اتّعظ في نفسه، وقد أوحى اللّه تعالى إلى عيسى، عليه الصلاة والسلام: يا عيسى، عِظْ نفسك فإن اتّعظت فعظِ الناس، وإلاّ فاستَحْي مني، ذكره الغزالي؛ وعهدي به أنه على صفة البُدَلاء، الصادقين النبلاء، كثر اللّه مثله في الإسلام؛ انتهى.

قلت: وقد زرت قبره مرارًا بفاس، ودعوت اللّه تعالى عنده، وهو عند أهل فاس بمثابة الشافعي عند أهل مصر، ومن منن اللّه سبحانه عليّ أني سكنت محلّه لمّا توليت الخطابة والإمامة بجامع القرويين من فاس المحروسة مُضَافين إلى الفتوى، والدار المعلومة للخطيب بالجامع المذكور إلى الآن تُعرف بدار الشيخ ابن عباد، وأقمت على ذلك خمس سنين وأشهرًا، ثم قوّضت الرحال[3] للمشرق، وها أنا إلى الآن فيها، واللّه ييسّر الخير حيث كان.

وقال الشيخ سيدي أحمد زروق في شأن الشيخ ابن عباد: إنه ولد برُنْدَة، وبها نشأ في عَفَاف وصَوْن، ثم رحل لفاس وتلمسان فقرأ بهما الفقه والأصول والعربية، ثم عاد فصحب بمدينة سَلاَ أفضلَ أهل زمانه علمًا وعملاً سيدي أحمد بن عاشر، نفعنا اللّه به! فأظهر اللّه تعالى عليه من بركاته ما لا يخفى على متأمّل، ثم نُقل بعد وفاة الشيخ فَجُعل خطيبًا بجامع القرويين من مدينة فاس، وبقي بها خمس عشرة سنة خطيبًا، فتوفّاه اللّه تعالى بها بعد صلاة العصر من يوم الجمعة رابع رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، ودفن بكدية

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «خاصًا».

(٢) سورة النصر ١١٠، الآية ١.

(٣) قوّض: هدم. الرحال: جمع رحل وهو ما يوضع على الناقة للركوب عليه؛ وقوله: قَوّضتُ الرحال: أي جهزتها للسفر، ومن عادة العرب استعمال عبارة «شددت الرحال».

البراطل من داخل باب الفتوح. وكان، رضي الله عنه، ذا صمت وسمت، وتحمل وزهد، معظمًا عند الكافة، مُعَوّلاً في حلّ المشكلات على فتح الفتاح العليم: [الطويل]

ومِنْ عِلْمِهِ أنْ ليس يُدْعَى بعالمٍ   ومِنْ فقره أن لا يُرَى يشتَكي الفَقْرَا
ومن حاله أن غاب شاهدُ حاله   فلا يَدَّعِي وَصْلاً ولا يشتكي هَجْرا

كذا رأيت بخطّ مَنْ أثق به في تعريفه مختصرًا مع زيادة ما تحققت، وكتبُه شاهدة بكماله علمًا وعملاً، فهي كافية في تعريفه، وكان الذي طلبه في وضع الشرح على الحكم سيدي أبو زكريا السراج الذي أكثر رسائله له وسيدي أبو الربيع سليمان بن عمر؛ انتهى.

وقال في موضع آخر: سيدنا العارف المحقّق الخطيب البليغ نسيجُ وَحْدِه، ومقدم من أتى من بعده، أبو عبد الله، قرأ بفاس وتلمسان العربية والأصول والفقه ككتاب الإرشاد ومختصر ابن الحاجب الفقهي والأصلي وتسهيل ابن مالك، وتوفي بفاس، وقبره بها مشهور، ومزيته معروفة شرقًا وغربًا، وقد كتب مسائل معروفة أكثرها لسيدي يحيىٰ السراج، وله كتب الشرح مع سيدي سليمان بن عمر الذي قال في حقّه: إنه ولي بلا شكّ، بطلبهما لذلك، ورأيت كتابًا في الإمامة سمّاه[1] «تحقيق العلامة، في أحكام الإمامة» فذكرته لشيخنا القوري، رحمه الله تعالى، وكان معتنيًا بكتبه معوّلاً عليها في حاله، فقال: أظنّه لوالده سيدي إبراهيم، وقد كان خطيبًا بالقصبة إذ كانت عامرة، وله خطب عظيمة الفصاحة، حسنة الموقع؛ انتهى.

وقال الشيخ أبو يحيى بن السكاك: أمّا شيخي وبركتي أبو عبد الله بن عَبَّاد، رضي الله عنه، فإنه شرح الحكم وعقد درر منثورها في نظم بديع، وجمعت من إنشائه مسائل مدارُهَا على الإرشاد إلى البراءة من الحول والقوّة، فيها نبذ كأنفاس الأكابر، مع حُسْن التصرّف في طريق الشاذلي، وجَوْدَة تنزيل على الصور الجزئية، وبسط التعبير، مع إنهاء البيان إلى أقصى غاياته، والتفنّن في تقريب الغامض إلى الأذهان بالأمثلة الوضعية، فقرَّب بها حقائق الشاذلية تقريبًا لم يُسْبَق إليه، كما قرَّب الإمامُ ابنُ رُشْد مذهبَ مالك تقريبًا لم يُسْبق إليه، وكان مع ذلك آية في التحقّق بالعبودية والبراءة من الحول والقوّة وعدم المبالاة بالمدح والذمّ، بل له مقاصد نفيسة في الإعراض عن الخلق، وعدم المبالاة بهم، وأعظم أخلاقه التي لا يصبر عنها ويضطرب لها غاية الاضطراب أن يحضر حيث ينسى الحقّ، لا

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٤١): «وسمّاه».

سيما إن كان نسيان الحقّ بالنسبة إليه، فهو الذي يُقْلِقه، ويضيق صدره على اتّساعه ووفور انشراحه عن ذلك، ولقد ذكر بعض من كان من أخصّ الناس به ومنقطعًا إليه أحوالَ رجال الرسالة القُشَيْرية والحِلْيَة وما منحوا من المواهب، قال: فلمّا مات الشيخ واستبصرت ما أشاهده منه من أفعال تدلُّ على القطع بصديقيته لاح لي أنّ تلك الصفات التي يذكر مشخّصة فيه نشاهدها عيانًا، ولو لم أَرَ الشيخ لقلت: إنني لم أَرَ كمالاً، وعلى الجملة فهو واحد عصره بالمغرب. ذكر لي عن قطب المعقول بالمغرب والمشرق الآبلي أنه كان يشير إليه في حال قراءته عليه، أعني الشيخ ابن عباد، ويقول: إنّ هناك علمًا جمًّا لا يوجد عند مشاهير أهل ذلك الوقت، إلاّ أنه كان لا يتكلّم، رضي اللّه عنه، وشهد له المقطوع بولايتهم بالتقدّم، وأقرّوا له بالشيخوخة، وتبرّكوا به، كسيدي سليمان اليازغي وسيدي محمد المصمودي وسيدي سليمان بن يوسف بن عمر الأنفاسي[1] وأمثالهم، وكان شيخه الحجّة الورع أحمد بن عاشر يُشيدُ بذكره، ويقدمه على سائر أصحابه، ويأمرهم بالأخذ عنه، والانتفاع به، والتسليم له، ويقول: ابن عباد أُمّة وحده[2]،. ولا شكّ أنه كذلك كان، أعني غريبًا فإنّ العارف غريب الهمّة بعيد القصد، لا يجد مساعدًا على قصده. وكان الغالب عليه الحياء من اللّه تعالى، والتنزّل بين يدي عظمته، وتنزيله نفسه منزلة أقلّ الحشرات، لا يرى لنفسه مزية على مخلوق، لما غلب عليه من هيبة الجلال وعظمة المالك وشهود المنّة، نظّارًا إلى جميع عباد اللّه تعالى بعين الرحمة والشفقة والنصيحة العامة، مع توفية المراتب حقّها، والوقوف مع الحدود الشرعية، واعتبارهم من حيث مُرَاد اللّه تعالى بهم، هذا دأبه مع الطائع والعاصي ما لم يظهر له من أحد مَخَايِلُ[3] حبّ التعظيم والمدح والتجبّر على المساكين ورؤية الحقّ إذ هي دعوى لا تليق بالعبد، ومن كانت هذه صفته فقد وصل حدّ الخذلان، بل هي علامة تقارب القطع على أنه شقي مُسْلَم إلى غضب اللّه تعالى ومقته، أعاذنا اللّه تعالى منه. وكان من حال هذا السيد تألف قلوب الأولاد الصغار، فهم يحبّونه محبّة تفوق محبّتهم لآبائهم وأمهاتهم، فينتظرون خروجه للصلاة وهم عدد كثير، يأتون من كلِّ أوْب ومن المكاتب البعيدة، فإذا رأوه ازدحموا على تقبيل يده. وكذا كان ملوك زمانه

---

(١) ترجمة سليمان بن يوسف الأنفاسي في سلوة الأنفاس (جـ ٣ ص ١٥٦).

(٢) ابن عباد أُمّةٌ وحده: كناية عن كونه جامعًا لصفات الكمال التي توجد في أمّة من الأمم؛ يقول اللّه تعالى: ﴿إنّ إبراهيمَ كان أُمّةً﴾. سورة النحل ١٦، الآية ١٢٠.

(٣) المخايل: جمع مخيلة وهي المظنّة والأمارة والعلامة. لسان العرب (خيل).

يزدحمون عليه، ويتذلّلون بين يديه، فلا يَحفِل بذلك، وذكر لي بعض تلامذته أنّ أقواله تشبه أفعاله، لما منحه اللّه تعالى من فنون الاستقامة، مع ما في كلامه من النور والحلاوة التي استفزّت ألباب المشارقة، بحيث صار لهم بحث عريض على تواليفه؛ انتهى كلام ابن السكاك.

وله من التواليف: الرسائل الكبرى، والصغرى[1]، وشرح الحكم، ونظمها في ثمانمائة بيت من الرجز.

وحدّث الشيخ أبو مسعود الهراس قال: كنت أقرأ في صحن جامع القرويين والمؤذنون يؤذنون بالليل، فإذا أبو عبد اللّه بن عَبَّاد قد خرج من باب داره، وجاء يطير في الصحن كأنه جالس متربّع حتى دخل في البلاط الذي حول الصَّوْمعة، ثم مشيت فوجدته يصلّي حول المحراب، وسأله السراج عن أبي حامد الغزالي، فقال: هو فوق الفقهاء، وأقلّ من الصوفية. وممّا نقل من خطّه، رحمه اللّه تعالى، ولا يدري هل هي له أم لا: [الكامل]

الحزمُ قبل العزمِ فاحْزمْ واعْزمِ ... وإذا استبانَ لك الصوابُ فَصَمِّمِ
واستعملِ الرفقَ الذي هو مكسبٌ ... ذكر القلوبِ وجُدْ وأَجْمِلْ واحلم
واحرسْ وسِرْ وأَشجعْ وصُلْ وامننْ وصِلْ ... واعدلْ وأنصفْ وازعَ واحفظْ وارحمِ
وإذا وعدتَ فعدْ بما تقوى على ... إنجازه وإذا اصطنعتَ فتمِّمِ

وذكر الشيخ الفقيه الخطيب القاضي الحاج أبو سعيد بن أبي سعيد السلوي أنه رأى في حائط جامع القرويين أبياتًا مكتوبة بفحم بخطّ الشيخ أبي عبد اللّه بن عباد وهي[2]: [السريع]

أيتها النفس إليه اذهبي ... فحبّه المشهور من مذهبي
مفضض الثغر له نقطة ... من عنبري خده المذهب
أيأسني التوبة من حبه ... طلوعه شمسًا من المغرب

قال الشيخ أبو سعيد: فاستشكلت هذه الأبيات لما اشتملت عليه من التغزل، وذكر الخال والخدّ والثغر، ومقام الشيخ ابن عباد يجلّ عن الاشتغال بمثل هذا، فلقيت يومًا أبا

---

(١) هذان الكتابان مطبوعان.

(٢) تقدمت هذه الأبيات في الجزء الخامس منسوبة إلى ابن خروف، وسيأتي البيتان الأول والثالث في الجزء الثامن.

القاسم الصيرفي، فذاكرته بالقصة ووجه الإشكال فيها، فقال لي: مقامك عندي أعلى من أن تستشكل مثل هذا، هذه أوصاف ولي الله القائم بأمر الله المهدي، فشكرته على ذلك؛ انتهى.

قلت: رأيت بخطّ الونشريسي[1] إثر هذه الحكاية ما نصُّه: قلت في صحة هذه الحكاية عن الشيخ نظر؛ لما احتوت عليه من تعبير الحسن، وقدر الشيخ وورعه أعلى من هذا، فهذان إشكالان، والله أعلم.

وحكي أنَّ الشيخ ابن عباد، رحمه الله تعالى، لما ٱحتضر جعل رأسه في حجر أبي القاسم هذا، وأخذ في قراءة آية الكرسي إلى قوله ﴿الحَيُّ القَيُّومُ ﴾[2] ثم يقول: يا اللَّهُ، يا حيُّ، يَا قَيُّومُ، فيلقنه من حضر ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَومٌ ﴾[3] فيمتنع الشيخ من قراءتها ويقول: يا اللّه، يا حيّ، يا قيّوم، فلمّا قربت وفاته سُمع منه هذا البيت وكان آخر ما تكلّم به: [البسيط]

ما عَوَّدُونيَ[4] أحبائي مقاطعةً   بل عوّدوني إذا قاطعتهمْ وصلوا

ولـمّا توفي الشيخ ابن عَبّاد، رضي الله عنه، في التاريخ المتقدّم حضر جنازته السلطان أمير المسلمين أبو العباس أحمد بن السلطان أبي سالم وأهل البلدتين. يعني فاسًا الجديد التي هي مسكن السلطان وخواصّ أتباعه، وفاسًا العتيق التي هي محلّ الأعلام والخاص والعام من الناس في ذلك القطر، إذ هي إذ ذاك حضرة الخلافة وقبة الإسلام في المغرب. وتقدّم بعده للإمامة والخطبة بجامع القرويين نائبه أيام مرضه الشيخ الصالح الورع أبو زيد عبد الرحمن الزرهوني حسبما قاله الجاديري رحمه الله تعالى!.

وحكى الونشريسي[5]، رحمه الله تعالى، أنَّ الشيخ ابن عَبّاد كلّم ابن دريدة الوالي في مَظْلَمة، فلم يقبل، فلمّا كان يوم الجمعة ونزل السلطان أبو العباس للصلاة بجامع

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٤٤): «الوانشريسي».
(٢) سورة البقرة ٢، الآية ٢٥٥.
(٣) سورة البقرة ٢، الآية ٢٥٥.
(٤) هذه لغة «أكلوني البراغيث»، والصواب القول: «ما عوّدني».
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٤٥): «الوانشريسي».

القرويين وراء الشيخ ابن عباد، قال الشيخ في خطبته: من الأمور المستحسنة، أن لا يبقى الوالي سنة؛ انتهى.

وللشيخ ابن عباد خطب مدونة بالمغرب مشهورة بأيدي الناس، ويقرأون منها ما يتعلّق بالمولد النبوي الشريف بين يدي السلطان تبرّكًا بها، وكذا يقرأونها في المجتمعات في المواسم، كأول رجب وشعبان ونصفهما والسابع والعشرين منهما، كرمضان، وقد حضرت بمراكش المحروسة سنة عشر وألف قراءة كراسة الشيخ في المولد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام بين يدي مولانا السلطان المرحوم أحمد المنصور بالله الشريف الحسني، رحمه الله تعالى، وقد احتفل لذلك المولد بأمور يستغرب وقوعها، جازاه الله تعالى عن نيّته خيرًا، وقد أشرت إلى ذلك في كتابي الموسوم[١] بـ «روضة الآس، العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس» وسردت جملة من القصائد والموشحات في وصف ذلك الصنيع، ورحمة الله وراء الجميع.

ولنرجع[٢] إلى مشايخ لسان الدين بن الخطيب، رحمه الله تعالى، فنقول:

ومنهم: الشيخ الفقيه القاضي بمكناسة الزيتون أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد[٣]، ذكره في «نفاضة الجراب» وقال[٤]: إنه لقيه بمكناسة الزيتون سنة إحدى وستين وسبعمائة، وكان من أهل المعرفة والحَصَافة[٥]، قائمًا على كتاب أبي عمرو بن الحاجب[٦] في مذهب مالك، وكان ممتازًا به فيما دون تلمسان، قرأه على الشيخين عَلَمي الأفق المغربي أبي موسى وأبي زيد ابني الإمام عالمي تلمسان والمغرب جميعًا. قال لسان الدين في «النفاضة»: وتصدّر المذكور لإقرائه الآن، فما شئت من اضطلاع، ومعرفة واطلاع، وقيّد جزءًا نبيلاً على فتوى الإمام القاضي أبي بكر بن العربي المسمّاة بـ «الحاكمة»، وسمّاه

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٤٦): «المرسوم».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٥٠): «رجع».
(٣) ترجمة عبد الحق بن سعيد بن محمد في نيل الابتهاج (ص ١٦٤).
(٤) لم يرد هذا النص في «نفاضة الجراب» المطبوع.
(٥) في نيل الابتهاج: «والفصاحة».
(٦) هو عثمان بن عمر بن يونس المصري، المتوفّى سنة ٦٤٦ هـ. له مختصر في الفقه المالكي يسمّى المختصر الفقهي، والفرعي، والجامع بين الأمهات، أدخله إلى المغرب عبد الرحمن بن سليمان اللجائي المتوفّى سنة ٧٧١ هـ. درة الحجال (جـ ٢ ص ٣٥٦) وحسن المحاضرة (جـ ١ ص ٢١٥).

بـ «الجازمة[1]»، على الرسالة الحاكمة» أجاد فيه وأحسن، وقرأت عليه بعضه وأذن لي في تحمّله؛ انتهى.

ومن أشياخ لسان الدين الذين لقيهم بمكناسة الزيتون الفقيه الفاضل الخير يونس بن عطية الونشريسي[2]، له عناية بفروع الفقه، وولي القضاء بقصر كتامة.

منهم الفقيه الفاضل الخير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي عفيف[3]، المتصدّر لقراءة كتاب الشفاء النبوي، لديه جملة حسنة من أصول الفقه أشف بها على كثير من نظرائه قراءة منه إياها على أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل الصباغ، وشاركه في قراءتها على الإمام أبي عبد الله الآبلي.

ومنهم الفقيه المدرك الأستاذ في فن العربية: أبو علي عمر بن عثمان الونشريسي[4]؛ قال لسان الدين: حضرت مذاكرته في مسألة أعوزت عليه، وطال عنها سؤاله، وهي قول الشاعر: [البسيط]

الناسُ أكْيَسُ من أن يمدحوا رجلاً ... ما لم يَرَوْا عنده آثارَ إحسانِ

وصورة السؤال: كيف[5] وقوع أفعل بين شيئين لا اشتراك بينهما في الوصف؛ إذ أوقع الشاعر «أكيس» بين الناس وبين أن يمدحوا، وهو مؤوّل بالمصدر وهو المدح، ولا يوصف بذلك؛ انتهى.

قلت: الإشكال مشهور، والجواب عنه بضرب من المجاز ظاهر، وقد أشار إليه أبو حَيّان في «الارتشاف» وجماعة آخرون في قول بعض المؤلفين كصاحب التلخيص «أكثر من أن تُحصَى» ولولا السآمة لذكرت ما قيل في ذلك، وخلاصة ما قالوه أنّ في الكلام تقديرًا، والله أعلم.

وممّن لقيه لسان الدين بمكناسة الزيتون الفقيه العدل الأخباري الأديب المشارك أبو

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٥١): «الخادمة». وفي نيل الابتهاج: «الخارجة».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٤٦): «الوانشريسي».

(٣) ترجمة ابن أبي عفيف في نيل الابتهاج (ص ٢٤٨).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٤٧): «الوانشريسي». وترجمة عمر بن عثمان في نيل الابتهاج (ص ١٧٨).

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٥١): «كيف صحّ وقوع».

جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي الجنّان[1]، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة، وهو كاتب عاقد للشروط، ناظم ناثر مشارك في فنون من العلم، مؤلّف، وقد ذكرنا في غير هذا المحلّ ما دار بينه وبين لسان الدين من المحاورة والمراجعة، فليراجع، قال لسان الدين رحمه الله تعالى: ناولني المذكور تأليفه الحسن الذي سمّاه «المنهل المورود، في شرح المقصد المحمود» شرح فيه وثائق الجزيري[2] فأربى[3] بيانًا وإفادة وإجادة، وأذن لي في حمله عنه، وهو في ثلاث مجلّدات، وأنشدني كثيرًا من شعره.

ومنهم القاضي بها أبو عبد الله بن أبي رمانة[4]؛ قال لسان الدين: لقيته بمكناسة، وكان من أهل الحياء والحشمة، وذوي السذاجة والعفّة، ثم ذكر ما داعَبَه به حين تأخّر عن لقائه، وقد ذكرنا ذلك في غير هذا الموضع.

وممّن لقيه لسان الدين بمكناسة الفقيه العدل أبو علي الحسن بن عثمان بن عطية الونشريسي[5]، قال: وكان فقيهًا عَدْلاً من أهل الحساب، والقيام على الفرائض، والعناية بفروع الفقه، ومن ذوي السذاجة والفضل، ويقرض الشعر، وله أرجوزة في الفرائض مبسوطة العبارة مستوفية المعنى؛ انتهى.

وقال ابن الأحمر في حقّه: هو شيخنا الفقيه المفتي المدرس القاضي الفرضي[6] الأديب، الحاج أبو علي ابن الفقيه الصالح أبي سعيد عثمان التجاني المنعوت بالونشريسي[5]، أجازني عامة، أخذ عن الفقيه المفتي الأديب الخطيب المعمر القاضي المحدّث الراوية خاتمة المحدّثين بالمغرب أبي البركات ابن الحاج البلفيقي؛ انتهى.

ومولده في حدود أربع وعشرين وسبعمائة.

وذكر صاحب «المعيار المعرب، والجامع المغرب، عن فتاوي إفريقية والأندلس

(١) في طبعة دار صادر: «الخباز».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٤٧): «الجزري».
(٣) أربى: زاد. لسان العرب (ربا).
(٤) هو محمد بن علي بن أبي رمانة المكناسي، قاضي مكناس، كما تقدم في هذا الجزء، وترجمته في الديباج المذهب (ص ٢٤٩).
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٤٨): «الوانشريسي». وترجمة ابن عطية في نيل الابتهاج (ص ٨٩).
(٦) الفرضي: العالم بأحكام المواريث. لسان العرب (فرض).

والمغرب» جملةً من فتاويه وقال في وثائقه، وقد أجرى ذكره، ما صورته: إنّ بلديّنا[1] الشيخ القاضي العلامة أبا علي الحسن وقعت له قضية مع عدول مكناسة، وذلك أنّ السلطان أبا عنان فارسًا كان أمر بالاقتصار على عشرة من الشهود بمدينة مكناسة وكتب اسمَ الشيخ أبي علي هذا في العشرة، فشقّ ذلك على بعض شيوخ العدول المؤخّرين لحَداثة سنّ أبي علي، فلمّا علم تشغيبهم صنع رجزًا ورفعه إلى مقام المتوكل على الله أبي عنان نَصُّه:

[الرجز]

نبدأُ أولاً بحمدِ اللَّهِ ... ونستعينُه على الدواهي
ثم نُوَالي بالصلاة والسلامْ ... على نبيّ[2] دونه كلُّ الأنامْ
وبعد ذا نسألُ ربَّ العالمينْ ... أن يَهَبَ النصرَ أميرَ المؤمنينْ
خليفةَ اللَّه أبا عنانِ ... لا زالَ في خيرٍ وفي أمانِ
مَلَّكه اللَّه من البلادِ ... من سوسِ الأقصى إلى بغدادِ
ويسَّرَ الحجازَ والجهادا ... وجعل الكلَّ له مهادا
يا أيها الخليفةُ المُظَفَّرُ ... دونك أمري إنه مُفَسَّرُ
عبدكُمُ نجلُ عطيةَ الحسنْ ... قد قيل لا يشهدُ إلاَّ إن أَسَنّ[3]
وهوَ في أمركُم المعهودِ ... من جملةِ العَشَرةِ الشهودِ
نصَّ عليه أمركم تعيينا ... وسنُّه قاربَ أربعينا
مع الذي ينتسب العبد إليه ... من طلبِ العلم وبحثه عليه
على الفرائضِ له أرجوزَهْ ... أبرزَ في نظامها إبريزهْ
ومجلسٌ له على الرسالَهْ ... فكيف يرجو حاسدٌ زوالَهْ
حاشا أميرَ المؤمنين ذاكا ... وعَدْلُهُ قد بلغ السِّماكا
وعلمه قد طبق الآفاقا ... وحلمه قد جاوزَ العراقا
وجودُهُ مشتهرٌ في كلِّ حيّ ... قَصَّرَ عن إدراكه حاتمُ طيّ

وحكى بعضُ الحفّاظ أنه لما بلغت الأبيات السلطانَ أمر بإقراره على ذلك، وقد

---

(١) بلديّنا: ابن بلدنا.

(٢) في نيل الابتهاج: «على النبيّ».

(٣) أسنّ: طعن في السّنّ وكبر. لسان العرب (سنن).

وقفتُ على رَجَزه المذكور، وله شرح عليه لم أَرَهُ، والظاهر أنه ممّن تدبّج معه لسان الدين، رحم اللّه الجميع! وهو معدود في جملة من لقيه.

ومن مشايخ لسان الدين، رحمه اللّه، ذو الكرامات الكثيرة والمقامات الكبيرة، سيدي الحاج أبو العباس أحمد بن عاشر[1] الصالح المشهور، كان لسان الدين ـ رحمه اللّه تعالى! ـ حريصًا على لقائه بسَلاَ أيام كان بها، وقد لقيه، ولم يتملَّ[2] منه لشدة نفوره من الناس، خصوصًا أصحابَ الرياسة، ولذا قال لسان الدين، لما ذكر أنه لقيه في «نُفَاضة الجراب» ما صورته: يَسَّرَ اللّهُ لقاءه على تعسّره[3]، انتهى.

وسنترجم الولي المذكور في نظم لسان الدين حيث وصفه بقوله: [الرمل]

بـولـيِّ الـلّـه فـابـدأْ وابـتـدرْ

وقبره الآن بسَلاَ محطُّ رجاء الطالبين، وكعبة قصد الراغبين، تلوح عليه أنوار العناية، وتستمدّ منه أنواء الهداية، وهو على ساحل البحر المحيط بخارج مدينة سَلاَ المحروسة، وقد زرته وللّه الحمد عند توجّهي إلى حضرة مراكش سنة ألف وتسعة، والناسُ يشدّون الرحال إليه من أقطار المغرب، نفعنا اللّه تعالى به، وأعاد علينا من بركاته! بجاه نبيّنا محمد ﷺ.

رجع إلى مشايخ لسان الدين الوزير ابن الخطيب رحمه اللّه تعالى:

ومنهم الأستاذ المحقّق العلامة الكبير النحوي الشهير أبو عبد اللّه محمد بن علي الفخار البيري[4]، رحمه اللّه تعالى!.

كان شيخ النحاة بالأندلس غير مدافع، وأخذ عنه خلق كثيرون كالشاطبي أبي إسحاق صاحب شرح الألفية والوزير ابن زَمْرَك وغيرهما، وقد حكى عنه مسائل غريبة تلميذه الشاطبي، وقال لسان الدين في «الإحاطة» في ترجمة مشيخته ما صورته[5]: ولازمتُ قراءةَ

---

(١) توفي أحمد بن عاشر سنة ٧٦٥ هـ، وترجمته في نيل الابتهاج (ص ٤٨) وأنس الفقير (ص ٧).

(٢) لم يَتَمَلَّ منه: لم يتمّتع بطول عشرته. محيط المحيط (ملى).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٥٤): «تعذّره».

(٤) هو شيخ ابن الخطيب، وتوفي بغرناطة سنة ٧٥٤ هـ. الإحاطة (جـ ٣ ص ٣٥).

(٥) لم يرد هذا النص في الإحاطة، وكل ما جاء فيه (جـ ٣ ص ٣٦) أنّ ابن الفخار أستاذ للسان الدين، وأنّ لسان الدين قرأ عليه القرآن وكتابي «الجمل» و «الإيضاح»، ولازمه مدة وعاشره.

العربية والفقه والتفسير والمعتمد عليه العربية على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد اللّه بن الفخار البيري، الإمام المجمع على إمامته في فنّ العربية، المفتوح عليه من اللّه تعالى فيها حفظًا واَطّلاعًا واضطلاعًا ونقلاً وتوجيهًا بما لا مطمع فيه لسواه؛ انتهى.

ولنورد بعض فوائد ابن الفخار فنقول:

ومن فوائد ابن الفخار المذكور التي حكاها عنه الشاطبي قوله: حدّثني أنّ بعض الشيوخ كان إذا أُتي بإجازة يشهد فيها سأل الطالب المجاز عن لفظ إجازة ما وَزْنُه وما تَصْرِيفه؟ ثم قال الشاطبي: ولَمَّا حدّثنا بذلك سألناه عنها فأملى علينا ما نصُّه: وزن إجازة في الأصل إفعالة، وأصلها إجوازة فأُعِلَّتْ بنقل حركة الواو إلى الجيم حملاً على الفعل الماضي استثقالاً، فتحرّكت الواو في الأصل وانفتح ما قبلها في اللفظ، فانقلبت ألفًا، فصارت إجازة . بألفين . فحُذفت الألف الثانية عند سيبويه؛ لأنها زائدة والزائد أولى بالحذف من الأصلي، وحُذفت الأولى عند الأخفش؛ لأنها لا تدلّ على معنى وهو المدّ، وقول سيبويه أولى؛ لأنه قد ثبت عوض التاء من المحذوف في نحو «زنادقة» والتاء زائدة، وتعويض الزائد من الزائد أولى من تعويض الزائد من الأصلي، للتناسب، ووزنُها في اللفظ عند سيبويه إفَعْلَة وعند الأخفش إفَالَة؛ لأنَّ العين عنده محذوفة؛ انتهى.

وقال الشاطبي رحمه اللّه تعالى: لَمّا توفي شيخنا الأستاذ الكبير، العَلَمُ الخطير، أبو عبد اللّه بن الفخار سألت اللّه، عزّ وجلّ، أن يرينيه في المنام فيوصيني بوصيّة أنتفع بها في الحالة التي أنا عليها من طلب العلم، فلمّا نمتُ في تلك الليلة رأيتُ كأني أدخل عليه في داره التي كان يَسْكن بها، فقلت له: يا سيدي، أَوْصِني فقال لي: لا تعترض على أحد، ثم سألني بعد ذلك في مسألة من مسائل العربية كالمؤنس لي، فأجبته عنها، ولا أذكرها الآن؛ انتهى.

وقال الشاطبي أيضًا ما صورته: حدّثنا الأستاذ الكبير الشهير أبو عبد اللّه محمد بن الفخار شيخنا . رحمه اللّه تعالى! . قال[1]: حدّثني بسَبْتَةَ بعض المذاكرين أنّ ابن خميس لمّا ورد عليها بقصد الإقراء بها اجتمع إليه عُيُونُ طلبتها، فألقوا عليه مسائل من غوامض الاشتغال، فحاد عن الجواب عنها بأن قال لهم: أنتم عندي كرجل واحد، يعني أنّ ما ألقوا

---

(١) انظر أزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٩٧ . ٣٠١).

عليه من المسائل إنما تلقوها من رجل واحد، وهو ابن أبي الربيع، فكأنه إنما يخاطب رجلاً واحدًا ازدراءً بهم، فاستقبله أصغر القوم سنًّا وعلمًا بأن قال له: إن كنت بالمكان الذي تزعم فأجبني عن هذه المسائل من باب معرفة علامات الإعراب التي أذكرها لك، فإن أجبت فيها بالصواب لم تَحْظَ بذلك في نفوسنا لصغرها بالنظر إلى تعاميك[1] عن الإدراك والتحصيل، وإن أخطأت فيها لم يَسَعْك هذا البلد، وهي عشر[2]: الأولى: أنتم يا زيدون تَغْزُونَ، والثانية أنتنّ يا هندات تَغْزُونَ، والثالثة أنتم يا زيدون ويا هندات تَغْزُونَ، والرابعة أنتنّ يا هندات تَخْشَينَ، والخامسة أنتِ يا هند تَخْشَيْنَ، والسادسة أنت يا هند تَرْمِين، والسابعة أنتنّ يا هندات تَرْمِين، والثامنة أنتنّ يا هندات تمْحُونَ أو تمحين، كيف تقول؟ والتاسعة أنت يا هند تمْحِينَ أو تمحون، كيف تقول؟ والعاشرة أنتما تَمْحُوَان أو تمحيان، كيف تقول؟ وهل هذه الأفعال كلّها مبنية أو معربة أو بعضها مبني وبعضها معرب؟ وهل هي كلُّها على وزن واحد أو على أوزان مختلفة؟ علينا السؤال وعليك التمييز لنعلم الجواب، فبُهِتَ الشيخ، وشغل المحلّ بأن قال: إنما يُسْأل عن هذا صغار الولدان، قال له الفتى: فأنت دونهم إن لم تجب، فانزعج الشيخ، وقال: هذا سوء أدب، ونهض منصرفًا، ولم يصبح إلاّ بمالَقَة متوجّهًا إلى غَرْنَاطة حرسها اللّه تعالى! ولم يزل بها مع الوزير ابن الحكيم إلى أن مات رحمه اللّه تعالى عليه! انتهى.

ثم قال الشاطبي: والجواب عن هذه المسائل ما يُذكر: أمّا الجواب عن «تغزون» الأولى فأنه معرب، ووزنه أصلاً تَفْعُلُونَ، ولفظًا تَفْعُونَ، وعن الثانية فمبنيّ للَحَاق نون الإناث ووزنه تَفْعُلْنَ، وعن الثالثة على التغليب فعلى ردّه للأول يلحق بالأول، وللثاني كالثاني، وأما «تَخْشَيْن» من الرابعة فمبنيّ للنون ووزنه تَفْعَلْنَ، وعن الخامسة فمعرب، ووزنه أصلاً تَفْعِلِينَ، ولفظًا تَفْعِينَ، وأمّا «تَرْمِينَ» من السادسة فمعرب، ووزنه أصلاً تَفْعِلِينَ، ولفظًا تَفْعِينَ، ومن السابعة مْبنيّ للنون، ووزنه تَفْعِلْنَ، وأمّا «تمحون وتمحين» من الثامنة فهما لغتان، وهما مبنيان للنون، والتاسعة لا يقال إلاّ «تمحين» بالياء خاصة لتتّفق اللغتان، ووزنها تفعين كتخشين، وأمّا تمحيان من العاشرة فعلى لغة الياء لا إشكال وعلى الواو فيظهر من كلام النحويين أنه لا يجوز إلاّ بالواو؛ انتهى.

وقد أورد هذه الحكاية عالم الدنيا سيدي أبو عبد اللّه محمد بن مرزوق. رحمه اللّه

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٥٦): «إلى تعاطيك من الإدراك».

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٥٢): «عشرة».

تعالى! . في شرحه الواسع العجيب المسمّى بـ «تمهيد المسالك، إلى شرح ألفية ابن مالك» ونصّ محلّ الحاجة منه: وقد حكي أنّ بعض طلبة سبْتَةَ أورد على أبي عبد اللّه بن خميس عشر مسائل من هذا النوع، وهي: أنتم يا زيدون تَغْزُونَ، وأنتنّ يا هندات تَغْزُونَ، وأنتم يا زيدون ويا هندات تَغْزُونَ، وأنتنّ يا هندات تَخْشَيْنَ، وأنت يا هند تَخْشَيْنَ، وأنت يا هند تَرْمِينَ، وأنتنّ يا هندات تَرْمِينَ، وأنتنّ يا هندات تمْحُونَ أو تَمْحِينَ كيف تقول؟ وأنت يا هند تَمْحُونَ أو تمْحِينَ، كيف تقول؟ وأنتما تمحوان أو تمحيان، على لغة من قال مَحَوْتُ، كيف تقول؟ وهل هذه الأمثلة كلّها مبنية أو معربة أو مختلفة؟ وهل وزنها واحد أو مختلف؟ قالوا: ولم يُجِبْ بشيء، قلت: فلعلّه[1] استسهل أمْرَهَا، فأمّا المثالُ الأول فمعرب، ووزنه تَفْعُلُونَ كتَنْظُرُونَ، إذا أصله تَغْزُوُونَ، فاستثقلت ضمة الواو التي هي لام فحذفت، ثم حذفت الواو أيضًا لالتقائها ساكنة مع واو الضمير، وكانت أولى بالحذف؛ لأنّ واو الضمير فاعل، ولغير ذلك ممّا تقدّم بعضُه، وأمّا الثاني فمبني ووزنه تَفْعُلْنَ كتَخْرُجْنَ، وأمّا الثالث فكالأول إعرابًا ووزنًا؛ لأنّ فيه تغليب المذكّر على المؤنّث، وأمّا الرابع فمبنيّ ووزنه تَفْعَلْنَ مثل تَفْرَحْنَ؛ لأنه لما احتيج إلى تسكين آخر الفعل لإسناده إلى نون جماعة النسوة رُدَّت الياء إلى أصلها؛ لأنها إنما قلبت ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها، والآن ذهبت حركتها لاستحقاقها السكون، وأمّا الخامس فمعرب ووزنه تَفْعَلِينَ كتَفْرَحِينَ، وأصله تَخْشَيِينَ، فقلبت الياء ألفًا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع ياء الضمير، وترك فتحة الشين دالّة على الألف، وأمّا السادس فمعرب ووزنه تَفْعِلِينَ كتَضْرِبِينَ، وأصله تَرْمِيِينَ، حذفت كسرة الياء لاستثقالها، ثم حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع ياء الضمير، وأمّا السابع فمبنيّ ووزنه تَفْعِلْنَ كتَضْرِبْنَ، وأمّا الثامن والتاسع فمضارع مَحى ورد بالأوزان الثلاثة، فمن يَمْحُو قال في المضارع من جماعة النسوة تَمْحُونَ مثله غزا بناءً ووزنًا، ومن قال يَمْحِي قال فيه تَمْحِينَ كَترْمِينَ بناءً ووزنًا، ومن قال يَمْحَى قال فيه تَمْحَيْنَ كتَخْشَيْنَ بناءً ووزنًا، ويقال في المضارع للواحدة على اللغة الأولى تَمْحِينَ كتَدْعِينَ إعرابًا ووزنًا وتصرّيفًا، وقد تقدّم في كلام المصنّف، وعلى الثانية كما يقال لها من رَمَى إعرابًا ووزنًا وتصريفًا، وعلى الثالثة كما يقال لها من تَخْشَى أيضًا، وقد تقدّما، وليس ما وقع في السؤال

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٥٨): «ولعلّه».

كما نقل من خطّ بعض الشارحين أنه يقال فيها تَمْحَوْن كتَفْرَحْنَ بشيء، وأمر التثنية ظاهر؛ انتهى بحروفه.

وما قاله، رحمه اللّه تعالى، في الاعتذار عن ابن خميس وهو اللائق بمقامه، فإنَّ مكان ابن خميس من العلوم غير منكر، وقد مدحه ابن خطاب بقوله: [الكامل]

رَقَّتْ حواشي طبعك ابنَ خميسِ ... فَهَفَا قريضُك لي وهاجَ رسيسي[1]

ولمثله يصبو الحليم ويَمْتَرِي ... ماء الشؤون به وسير العيسِ[2]

لك في البلاغة، والبلاغَةُ بعضُ ما ... تحويهِ من أثر، مَحَل رئيسِ

نظم ونثر لا تُبَارِي فيهما ... عزّزت ذاك وذا بعلم الطوسي

يعني أبا حامد الغزالي.

وقال لسان الدين بن الخطيب في «عائد الصلة» في حقّ أبي عبد اللّه محمد بن خميس التلمساني المذكور ما صورته[3]: كان رحمه اللّه تعالى نسيجَ وَحْدِه زهدًا وانقباضًا وأدبًا[4] وهمّةً، حَسَنَ الشَّيبة، جميل الهيئة، سليم الصّدر، قليل التَّصَنُّع، بعيدًا عن الرِّياء[5]، عاملاً على السياحة والعُزْلة، عارفًا بالمعارف القديمة، مضطلعًا بتفاريق النّحل، قائمًا على[6] العربية والأصْلَين، طبقةُ الوقت في الشعر، وفحلُ الأوان في المطول[7]، أقدر الناس على اجتلاب الغريب. ثم ذكر من أحواله جملة، إلى أن قال: وبلغ الوزير أبا عبد اللّه بن الحكيم[8] أنه يروم السفر، فشقّ ذلك عليه، وكلّفه[9] تحريك الحديث بحضرته، وجرى ذلك، فقال الشيخ: أنا كالدم بطبعي[10] أتحرك في كل ربيع؛ انتهى.

---

(١) الرسيس: الأصل، والشيء الثابت، والمراد قوله: وهاج حبّي الثابت. لسان العرب (رسس).

(٢) العيس: النوق، واحدها عيساء. لسان العرب (عيس).

(٣) مرّ التعريف بابن خميس الرعيني التلمساني والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثالث. والنص في الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٢٨ـ٥٢٩) وأزهار الرياض (جـ ٢ ص ٣٠١ـ٣٠٢).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٥٩): «وبأوًا».

(٥) في الإحاطة (ص ٥٢٩): «الريّا والهوادة».

(٦) في الإحاطة: «على صناعة العربية».

(٧) في الإحاطة: «في النظم المطول».

(٨) في الإحاطة: «أبا عبد اللّه الحكيم».

(٩) في الإحاطة: «وكلفنا».

(١٠) كلمة «بطبعي» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٥٥).

وقال ابن خاتمة في «مزية ألمرية، على غيرها من البلاد الأندلسية»: إنه نظم في الوزير ابن الحكيم القصائد التي حليت بها لَبّات الآفاق، وتنفّست عنها صدور الرفاق، وكان من فحول الشعراء، وأعلام البلغاء[1]، يرتكب مُسْتَصْعبات القَوَافي، ويطير في القريض مَطَار ذي القوادم الباسقة والخَوَافي، حافظًا لأشعار العرب وأخبارها، وله مشاركة في العقليات، واستشراف على الطلب، وقعد لإقراء العربية بحضرة غَرْنَاطة، ومال بأَخَرَة إلى التصوّف والتجوال، والتحلّي بحسن السَّمْت وعدم الاسترسال، بعد طَيِّ بساط ما فرط له من بلده من الأحوال. وكان صَنَعَ اليدين، حدّثني بعضُ من لقيت من الشيوخ أنه صنع قدحًا من الشمع على أبدع ما يكون في شكله ولطافة جوهره وإتقان صنعته، وكتب بدائرة[2] شفته: [الطويل]

وما كنتُ إلاّ زهرةً في حديقةٍ تَبَسَّمُ عَنِّي ضاحكاتُ الكمائمِ
فقلِّبتُ من طورٍ لطورٍ فها أنا أُقَبِّلُ أفواهَ الملوكِ الأعاظمِ

وأهداه خدمةً للوزير أبي عبد[3] اللّه بن الحكيم.

وأنشدنا شيخُنَا القاضي أبو البركات ابن الحاج وحكى لنا قال: أنشدني أبو عبد اللّه بن خميس، وحكى لي، قال: لما وقفت على الجزء الذي ألّفه ابن سبعين وسمّاه بـ «الفقيرية» كتبت[4] على ظهره: [البسيط]

الفَقْرُ عنديَ لفظٌ دَقَّ معناه مَنْ رامه من ذوي الغايات عَنَّاهُ[5]
كم من غبيّ بعيدٍ عن تصوّره أراد كشف مُعَمّاه[6] فعمّاه

وأنشدنا شيخنا الأستاذ أبو عثمان بن ليون[7] غير مرة قال: سمعت أبا عبد اللّه بن خميس ينشد، وكان يُحسَب أنهما له، ويقال: إنهما لابن الرومي: [المديد]

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٦٠): «البلغاء يصرف العويص ويرتكب..».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٥٦): «بدائر».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «أبي عبد بن الحكيم».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «كتب».
(٥) عنّاه: أورثه العناء. لسان العرب (عنى).
(٦) الكلام المُعَمَّى: الذي غمض معناه. لسان العرب (عمى).
(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٥٦): «لبون» بالباء الموحدة.

رُبَّ قـومٍ فـي مـنـازلـهـمْ   غُـرَرٍ[1] صـاروا بـهـا غُـرَرَا
سـتـر الإحـسـان مـا بـهـمُ   سـتـرى لـو زال مـا سـتـرا

ثم قال ابنُ خاتمة: وقد جمع شعره ودوّنه صاحبُنَا القاضي أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم الحضرمي في جزء سمّاه «الدرّ النفيس، في شعر ابن خميس» وعرّف به صدره، وقَدِم ابنُ خميس ألمرية سنة ست وسبعمائة فنزل بها في كنف القائد أبي الحسن بن كماشة من خدّام الوزير ابن الحكيم، فوسَّع له في الإيثار والمبرة، وبَسَط له وَجْهَ الكرامة طلق الأسِرَّة، وبها قال في مدح الوزير المذكور قصيدته التي أولها: [مجزوء الكامل]

الـعُـشْـيُ[2] تَـعْـيَـا والـنـوابـغ   عن شُكْرِ أَنْعُمِكَ السوابغ

ووجّه بها إليه [من ألمرية[3]، وهي طويلة، ومنها:

ودسـائـعُ ابـن كـمـاشـةٍ   مـع كـل بـازغـةٍ وبـازغْ
تـأتـي بـمـا تـهـوى الـنـغـا   نغُ من شهيّات اللغالغْ

ومنها:

مـا ذاق طَـعْـمَ بـلاغـةٍ   من ليس للحُوشِيِّ ماضغْ

ويقال: إنّ الوزير اقترح عليه أن ينظم قصيدة هائية، فابتدأ منها مطلعها، وهو قوله: [الكامل]

لمن المنازل لا يجيبُ صَدَاهَا   مُحِيَت مَعَالِمُها وصَمَّ صَدَاها

وذلك آخر شهر رمضان من سنة ثمان وسبعمائة، ثم لم يزد على ذلك إلى أن توفي، رحمه اللّه تعالى، فكان آخر ما صدر عنه من الشعر وقد أشار معناه إلى معناه، وآذن أولاه بحضور أُخراه، وكانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلاً ضَحْوَةَ يوم الفطر مُسْتَهَلَّ شوّال سنة ثمان وسبعمائة، وهو ابن نيّف وستين سنة، وذلك يوم مقتل مخدومه الوزير ابن الحكيم، أصابه قاتله بحقده على مخدومه، وكان آخر ما سمع منه ﴿أَتَقْتُلُونَ رجلاً أنْ يقولَ ربّيَ اللّهُ﴾[4]

---

(١) الغُرَرُ: جمع عرة وهي الجرب، وأراد هنا القوم غير المشهورين. لسان العرب (عرر).
(٢) العُشْيُ: جمع أعشى.
(٣) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٥٧).
(٤) سورة غافر ٤٠، الآية ٢٨.

واستفاض من حال القاتل أنه هلك قبل أن يكمل سنة من حين قتله من فالج شديد أصابه، فكان يصيح ويستغيث: ابن خميس يطلبني، ابن خميس يضربني، ابن خميس يقتلني، وما زال الأمر يشتدّ به حتى قضى نَحْبه على تلك الحال، نعوذ باللّه من الورطات، ومواقعات العثرات؛ انتهى ملخصًا.

وحكى غيره أنَّ بعضهم كتب بعد قوله «لمن المنازل لا يجيب صداها» ما نصُّه: لابن الحكيم، ومن بديع نظم ابن خميس قولُه[1]: [الطويل]

تراجعُ مِنْ دنياك ما أنتَ تاركُ ... وتسألُها العُتْبَى وها هي فاركُ[2]

تؤمل بعد التَّرْك رَجْعَ ودادها ... وشرّ وداد ما تودُّ الترائك

حلا لكَ منها ما حلا[3] لك في الصِّبا ... فأنتَ على حَلْوائه متهالكُ

تَظاهرُ بالسلوانِ عنها تجمُّلاً ... فقلبُكَ محزونٌ وثغرُك ضاحك

تنزّهْتُ عنها نَخْوَةً لا زَهَادةً ... وشَعْرُ عذاري أسودُ اللون حالك

وهي طويلة طنانة[4]، وفي آخرها يقول:

فلا تَدْعُوَن غيري لدفع مُلِمَّةٍ ... إذا ما دهى من حادثِ الدهرِ داهك[5]

فما إنْ لذاك الصوت غيري سامعٌ ... وما إنْ لبيت المجد بعديَ سامِكُ[6]

يَغَصُّ ويَشْجَى نَهْشَلٌ ومُجاشعٌ ... بما أَوْرَثَتْني حِمْيَرٌ والسكاسك[7]

تفارقني الروحُ التي لستُ غيرها ... وطيبُ ثنائي لاصقٌ بيَ صائك[8]

وماذا عسى ترجو لِدَاتي وأرتجي ... وقد شمطت مني اللّحى والأفائك[9]

---

(١) في الإحاطة (ج ٢ ص ٥٣١، ٥٣٤ . ٥٣٥) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٥ وما بعدها).
(٢) الفارك: المرأة التي تكره زوجها. العُتْبَى: الاسترضاء. لسان العرب (فرك) و (عتب).
(٣) في الإحاطة: «ما خلا» بالخاء المعجمة.
(٤) عدد أبياتها ٧٠ بيتًا.
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٥٨): «داعك». والداهك: الطاحن الكاسر. لسان العرب (دهك).
(٦) السامك: الرافع للقواعد المعلي للبناء. لسان العرب (سمك).
(٧) نهشل ومجاشع وحمير والسكاسك: قبائل عربية.
(٨) في الإحاطة: «تفارقني روحي.. وطيب ثناي..». والصائك: اللاصق. محيط المحيط (صوك).
(٩) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٥٨): «والأفائك». وفي الإحاطة: «منّا اللحى..». والأفانك: جمع إفنيك وهو مجمع اللحيين. لسان العرب (فنك).

يعود لنا شَرْخُ الشباب الذي مضى إذا عاد للدنيا عَقيلٌ ومالكُ

ومما اشتهر من نظمه قوله[1] : [السريع]

أَرَّقَ عَيْني بارقٌ مِنْ أثالْ كأنه في جُنْحِ ليلي ذُبالْ
أثار شوقًا في[2] ضميرِ الحشا وعَبْرتي في صحن خدِّي أَسَالْ
حكى فؤادي قَلَقًا واشتعالْ وجَفْنَ عيني أرَقًا وانهمالْ
جوانحٌ تلفح نيرانُها وأدمعٌ تنهلُّ مثلَ العَزال[3]
قولوا وُشَاةَ الحُبِّ ما شئتمُ ما لذّة الحبِّ سوى أن يُقالْ
عُذْرًا لِلُوّامي[4] ولا عذرَ لي فزلَّةُ العالِم ما إن تُقَالْ
قُم نَطْرِدِ الهَمَّ بمشمولةٍ تُقَصِّرُ الليلَ إذا الليلُ طالْ
وعاطِها صفراءَ ذمِّيَّةً تمنعُها الذمَّةُ من أن تُنَالْ
كالمِسْكِ ريحًا واللَّمَى مَطْعما والتِّبْرِ لونًا والهوى في اعتدالْ
عَتَّقها في الدَّنِّ خَمَّارُها والبِكْرُ لا تعرف غيرَ الحِجالْ
لا تُثْقِبِ المصباحَ[5] لا واسقني على سَنَا البَرْق وضوء الهلالْ
فالعيشُ نومٌ والرَّدَى يَقظةٌ والمرءُ ما بينهما كالخيالْ
خُذْها على تَنْغيم مِسْطارِها[6] بين خَوابيها وبين الدَّوالْ
في روضةٍ باكِرُ وَسْمِيِّها أخملَ دَارِينَ وأَنْسَى أوالْ[7]
كأنَّ فأرَ المِسْكِ مفتوتةٌ[8] فيها إذا هَبَّتْ صَبًا أو شمال
مِن كفِّ[9] ساجي الطرف ألحاظُه مُفَوَّقاتٌ أبدًا للنضال

---

(١) القصيدة في الإحاطة (ج ٢ ص ٥٥٢ ـ ٥٥٤) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨).

(٢) في أزهار الرياض: «من صميم الحشا».

(٣) أراد: العزالي وهي جمع عزلاء، والعزلاء هو مصب الماء من الراوية. محيط المحيط (عزل).

(٤) في أزهار الرياض: «أعذر لوامي».

(٥) أثقب المصباح: جعل ضوءه ساطعًا. لسان العرب (ثقب).

(٦) المُسْطار، بضم الميم وكسرها وسكون السين: الخمرة الصارعة لشاربها. محيط المحيط (سطر).

(٧) الوسميُّ: مطر الربيع الأول. أوال: الاسم القديم للبحرين.

(٨) في الإحاطة (ص ٥٥٣): «مَغْبُوقَةً».

(٩) في الإحاطة: «من كلِّ ساجي..».

مَنْ عاذري والكلُّ لي عاذرٌ[1] … من حَسَنِ الوجه قبيحِ الفِعال

من خُلَّبِيِّ الوَعْد كذّابِهِ … لَيَّانَ لا يعرفُ غيرَ المِطالْ

كأنه الدهرُ وأيُّ امرئٍ … يبقى على الدهر[2] إذا الدهرُ حالْ

أما تراني آخذا ناقضًا … عليه ما سوّغني[3] من محالْ

ولم أكن قطُّ له عائبًا … كمثلِ ما عابَتْهُ قَبلي رجالْ

يأبى ثراء المال عِلْمي، وهل … يجتمع الضِّدّان: علمٌ ومالْ

وتأنفُ الأرضُ مقامِي بها … حتى تَهاداني ظهورُ الرحال[4]

لولا بنو زَيَّانَ ما لذَّ ليَ الـ … عيشُ ولا هانتْ عليَّ اللَّيالْ

همْ خوّفوا الدهرَ وهم خفّفوا … على بني الدنيا[5] خُطاه الثِّقالْ

لقيت من عامرهم سيِّدًا … غَمْرَ رداء الحَمْدِ جمَّ النوالْ[6]

وكعبةً للجودِ منصوبةً … يسعى إليها الناسُ من كلِّ بالْ[7]

خُذْها أبا زيانَ من شاعرٍ … مُسْتَمْلَحِ النزعةِ عَذْبِ المقالْ

يلتفظُ الألفاظ لَفْظَ النوى[8] … ويَنْظِمُ الآلاءَ نَظْمَ اللآلْ

مُجارِيًا مهيار في قوله … (ما كنتُ لولا طمعي في الخيالْ)

وقصيدة مهيار مطلعها[9]: [السريع]

ما كنت لولا طمعي في الخيالْ … أنشد ليلى بين طول الليالْ

ومن نظم ابن خميس قوله[10]: [الكامل]

---

(١) في الإحاطة: «عاذل».

(٢) في الإحاطة: «يبقى على حالٍ..».

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٥٩): «سوفني».

(٤) في الإحاطة: «الرجال» بالجيم المعجمة.

(٥) في الإحاطة: «بني الدهر».

(٦) في أزهار الرياض: «ألقيت من عامرهم..». وفي الإحاطة: «ورثت من عامرهم.. غَمْر النوال».

(٧) في الإحاطة: «حال».

(٨) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٦٤): «يلتقط الألفاظ لقط النوى».

(٩) ديوان مهيار الديلمي (ج ٣ ص ١٦٦).

(١٠) أزهار الرياض (ج ٢ ص ٣١٤).

نَظَرَتْ إليكَ بمثل عَيْنَيْ جؤذرِ وتبسَّمَتْ عن مثلِ سِمْطَيْ جوهرِ
عن ناصعٍ كالدرِّ أو كالبرق أو كالطّلْع أو كالأقحوان مؤشرِ
تجري عليه من لَماهَا نطفةٌ بل خمرةٌ لكنها لم تُعْصَرِ
لو لم يكنْ خمرًا سُلافًا ريقُها تُزْرِي وتلعبُ بالنُّهى لم تخطر
وكذاك ساجي جفنها لو لم يكنْ فيه مُهَنَّدُ لحظِها لم يُحْذَرِ
لو عُجْتَ طرفك في حديقة خدِّها وأمنتَ سطوةَ صُدْغِها المتنمّرِ
لَرَتَعْتَ من ذاك الحمى في جنةٍ وكَرَعْتَ عن ذاك اللَّمْى في كوثر
طَرَقَتْكَ وَهْنًا[1] والنجومُ كأنها حصباءُ درٍّ في بساطٍ أخضر
والركبُ بين مُصَعِّدٍ ومُصَوِّبٍ والنومُ بين مسكِّن ومنفِّر
بيضًا إذا اعتكرتْ ذوائبُ شعرها سَفَرَتْ فأزرتْ بالصباح المسفر
سرحتْ غلائلُها فقلتُ سبيكةٌ من فِضَةٍ أو دُمْيَةٌ من مرمرِ
منحتك ما منعتك يقظانًا فلم تخلفْ مواعدَها ولم تتغيّرِ
وكأنما خافتْ بُغاةَ وشاتها فأتتْكَ من أردافها في عسكر
وبجزع ذاك المنحنى أُدمانةٌ تعطو فتسطو بالهزبرِ القَسْوَرِ[2]
وتحيةٌ جاءتك في طيّ الصَّبا أذكى وأعطرَ من شميم العنبر
جَرَّتْ على واديك فضلَ ردائها فَعَرَفْتَ فيها عَرْفَ ذاك الإِذْخِرِ
هاجتْ بلابلَ نازحٍ عن إلْفه متشوّقٍ ذاكي الحشا متسعّر
وإذا نسيتِ لياليَ العهد التي سلفتْ لنا فتذكّريها تذكري
رحنا تغنّينا ونرشفُ ثغرها والشمسُ تنظرُ مثل عين الأخزر
والروضُ بين مفضّضٍ ومعسجَدٍ والجوُّ بين مُمَسَّكٍ ومُعَصْفَرِ

وكان السلطان أمير المؤمنين أبو عنان المريني ـ رحمه اللّه تعالى! ـ كثير العناية بنظم ابن خميس وروايته، قال رحمه اللّه تعالى: أنشدنا القاضي خطيب حضرتنا العليّة أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرزاق بقصر المصارة يمنه اللّه قال: أنشدنا بلفظه شيخُ الأدباء وفحل[3]

---

(١) الوَهْنُ: الهزيع من الليل. لسان العرب (وهن).

(٢) الأُدْمانة: الظبية ذات اللون الأسمر. تعطو: تتناول ورق الشجر فترفع جِيْدَها. القَسْوَرُ: الأسد الشجاع الغلاّب.

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٦١): «فحل».

الشعراء، أبو عبد الله بن خميس لنفسه[1]: [الطويل]

أَنَبْتُ ولكنْ بعد طول عتابِ ... وفرطِ لجاجٍ ضاعَ فيه شبابي
وما زلتُ والعلياءُ تُغني غريمها ... أُعَلِّلُ نفسي دائمًا بمَتَابِ
وهيهاتِ من بعدِ الشبابِ وشَرْخِهِ ... يلذُّ طعامي أو يَسُوغُ شرابي
خُدِعتُ بهذا العيش قبلَ بلائه ... كما يُخْدَعُ الصادي بلمعِ سرابِ
تقولُ هو الشهدُ المَشُور جهالةً ... وما هو إلاَّ السمّ شِيبَ بِصَابِ[2]
وما صحب الدنيا كبَكْرٍ وتغلبٍ ... ولا ككليبِ رِيءٍ[3] فحلَ ضراب
إذا كَعَّتِ[4] الأبطالُ عنها تقدّموا ... أعاريبَ غرًّا في متون عِراب
وإن نابَ خطبٌ أو تفاقم مُعْضِلٌ ... تلقّاه منهمْ كلُّ أَصْيَدِ[5] ناب
تراءتْ لجسّاس مَخيلةُ فرصةٍ ... تأتَّتْ له في جيئةٍ[6] وذهاب
فجاء بها شوهاءَ تنذُر قومها ... بتشييد أرجامٍ وهدمِ قباب[7]
وكان رغاءُ السّقب[8] في قومِ صالحٍ ... حديثًا فأنساه رُغاءَ سراب
فما تسمعُ الآذانُ في عَرَصاتهم ... سوى نوحِ ثَكْلَى أو نعيبِ غراب
وسَلْ عُرْوةَ الرَّحَّالَ عن صدقِ بأسِهِ ... وعن بيته في جعفر بن كلاب
وكانت على الأملاك منه وفادةٌ ... إذا آبَ منها آبَ خير مآب
يجيرُ على الحيين قيسٍ وخندفٍ ... بفضلِ يسارٍ أو بفصلِ خطاب
زعامةُ مرجوِّ النوالِ مؤمَّلٍ ... وعزمةُ مسموعِ الدعاء مجاب
فمرَّ يُزَجِّيها حواسر ضُلَّعًا[9] ... بما حملوها من مُنَى ورِغاب

(١) القصيدة في أزهار الرياض (جـ ٢ ص ٣١٦ وما بعدها).
(٢) الصاب: عصارة شجر مرّ. محيط المحيط (صوب).
(٣) رِيء: رُئي.
(٤) كَعَّتِ الأبطالُ: أحجمت. لسان العرب (كعع).
(٥) الأصيد: المائل العنق زهوًا وكبرًا. لسان العرب (صيد).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٦٢): «جيأة».
(٧) الشوهاء: صفة للطعنة. والأرجام: الحجارة فوق القبور. لسان العرب (رجم).
(٨) في طبعة عبد الحميد: «الصقب» بالصاد.
(٩) في طبعة عبد الحميد: «ظُلَّعها».

إلى فَدَكٍ والموتُ أغربُ غايةٍ ... وهذا المنى يأتي بكلِّ عجاب
تَبَرَّضَ صفوَ العيشِ حتى استشفه ... فَدَافَ له البرّاضُ قشب حُباب[1]
فأصبح في تلك المعاطف نُهْزة ... لنهب ضباعٍ أو لنهس[2] ذئاب
وما سَهْمه عند النضال بأهزعٍ ... ولا سيفه عند الصراع[3] بنابي
ولكنها الدنيا تكرُّ على الفتى ... وإن كان منها في أعزّ نصاب
وعادتها أن لا توسُّطَ عندها ... فإمّا سماءٌ أو تخومُ تراب
فلا تَرْجُ من دنياكَ ودًّا وإن يكنْ ... فما هو إلاَّ مثل ظلِّ سحابِ
وما الحزمُ كلُّ الحزم إلاَّ اجتنابُها ... فأشقى الورى مَنْ تصطفي وتَحابي
أبيتُ لها، ما دام شخصيَ، أن تُرى ... تمرُّ ببابي أو تَطُور[4] جنابي
فكم عطلت من أَرْبُعٍ وملاعبٍ ... وكم فرقتْ من أُسرة وصِحاب
وكم عَفَّرَتْ من حاسرٍ ومدجّجٍ ... وكم أثكلتْ من مُعْصِر وكِعَابِ[5]
إليكم بني الدنيا نصيحةَ مُشْفقٍ ... عليكم بصير بالأمورِ نِقابِ[6]
طويل مِرَاسِ الدهر جذلٍ مماحكٍ ... عريضِ مجالِ الهمِّ حِلْسِ ركاب
تأتّت له الأهوالُ أدهمَ سابقًا ... وغَصَّتْ به الأيام أشهبَ كابي
ولا تحسبوا أني على الدهر عاتبٌ ... فأعظم ما بي منه أيسرُ ما بي
وما أسفي إلاَّ شبابٌ خلعته ... وشَيْبٌ أبىٰ إلاَّ نصولَ خضاب
وعمرٌ مضى لم أخلَ منه بطائلٍ ... سوى ما خلا من لوعة وتصابي
لياليَ شيطاني على الغيِّ قادرٌ ... وأعذبُ ما عندي أليمُ عذاب
عكسنا قضايانا على حكم عادنا ... وما عكسها عند النُّهى بصواب

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «قشف حُباب». وقشب الحباب: سمّ الحيّة. وهنا يشير إلى قصة عروة الرحال الذي أجار لطيمة النعمان وقتله البرّاض الكناني فجرّ ذلك إلى حروب الفجار، وهو خبر مشهور في كتب الأيام والأمثال. طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٦٧، حاشية ١).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٦٢): «النهش».

(٣) في أزهار الرياض: «المصاع».

(٤) تطور جنابه: تحوم حوله؛ والجناب: الجانب. محيط المحيط (طور) و (جنب).

(٥) عَفَّرَته بالتراب: مرغته به. الحاسر: الذي لم يضع على رأسه الخوذة. المعصر: المرأة التي أدركت سنَّ الشباب. لسان العرب (عفر) و (حسر) و (عصر).

(٦) النقاب: الرجل العلاّمة. محيط المحيط (نقب).

على المصطفى المختارِ أزكى تحيّةٍ فتلك التي أعتدُّ يومَ حساب
فتلك عَتّادي أو ثناءٌ أصوغُهُ كَدَرٍّ سحابٍ أو كَدُرِّ سِخابِ[1]

ومن مشهور نظم ابن خميس قولُه[2]: [الكامل]

عجبًا لها أيذوقُ طعم وِصالها مَنْ ليس يأملُ[3] أنْ يَمُرَّ ببالِها
وأنا الفقيرُ إلى تَعِلَّةِ ساعةٍ منها، وتمنعني زكاةَ جَمَالها
كم ذاد عن عيني الكَرَى متألقٌ[4] يبدو ويَخْفَى في خفيِّ مِطالها
يسمو لها بَدْرُ الدّجى مُتضائلاً كتضاؤلِ الحَسْناءِ في أسمالها[5]
وابنُ السبيل يجيءُ يَقْبِسُ نارها ليلاً فتمنحُهُ عَقيلةَ مالِها[6]
يعتادُني في النوم طيفُ خيالها فتصيبُني ألحاظُها بِنِبالِها
كم ليلةٍ جادتْ به فكأنما زُفَّتْ عليَّ ذُكاءُ[7] وقت زوالها
أسرى فَعَطّلَها[8] وعَطَّلَ شُهْبَها بأبي شَذَا المِعْطار من مِعْطالها
وسوادُ طُرّته كَجَنْحِ ظلامها وبياضُ غُرّته كضوء هلالها
دَعْني أشِمْ بالوهم أدنى لمعةٍ[9] من ثغرها وأشَمَّ مِسْكةَ خالها
ما رَادَ طرفي في حديقةِ خدِّها إلاَّ لفتنته بِحُسْنِ دلالها
أنسيبَ شِعْري رَقَّ مثل نَسيمها فشمولُ راحِك مثلُ ريح شمالها
وانقلْ أحاديثَ الهوى واشرحْ غريـ ـبَ لغاتها واذكرْ ثقاتِ رجالها
وإذا مررتَ برامةٍ فَتَوَقَّ من أطلائها[10] وتمشَّ في أطلالها

(١) السِّخاب: القلادة. محيط المحيط (سخب).
(٢) القصيدة في الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥) وأزهار الرياض (جـ ٢ ص ٣١٩).
(٣) في الإحاطة: «يطمع».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٦٣): «كم ذا وعن.. متأنف».
(٥) أخذه من قول أبي تمام: [الكامل]

كُسيتْ سبائبَ لؤمِهِ فتضاءلتْ كتضاؤل الحسناءِ في الأطمارِ

ديوان أبي تمام (ص ١٣٤).
(٦) عقيلة المال: أكرمه. محيط المحيط (عقل).
(٧) ذُكاء: اسم للشمس. محيط المحيط (ذكو).
(٨) في الإحاطة: «فعطَّرها».
(٩) في الإحاطة: «لمحة».
(١٠) الأطلاء: جمع طلا وهو ولد الظبية. لسان العرب (طلا).

وانصبْ لِمَغْزِلِها حِبَالَةَ قانصٍ	ودَعِ الكرى شَرَكًا لصيد غزالها
وأسِلْ جداولَهَا بِفَيْضِ دموعها	وانْضَحْ جوانحها بفضل سجالها
أنا من بقيّة معشرٍ عَرَكَتْهُمُ	هذي النوى عَرْكَ الرَّحى بثفالها[1]
أكْرِمْ بها فئةً أُريقَ نجيعُها	بَغْيًا فراق العينَ حُسْنُ مآلها[2]
حَلَّتْ مُدامةُ وَصْلِها وحَلَتْ لهم	فإنِ انتشوا فَبِحُلْوِها وحَلالها
بلغتْ بِهِرْمِسَ غايةً ما نالها	أحدٌ وناء لها لبعدِ منالها
وعَدَتْ على سُقراطَ سَوْرة[3] كأسها	فهريقَ ما في الدنِّ من جِرْيالها
وَسَرتْ إلى فارابَ منها نفحةٌ	قُدْسيّةٌ جاءت بنخبة آلها[4]
ليصوغَ من ألحانه في حانها	ما سَوَّغ القسيسُ من أزمالها
وتغلغلت في سُهْرُوَرْدَ فأسهرت	عينًا يُؤَرِّقُها طروقُ خيالها[5]
فَخَبَا شهابُ الدين لمّا أشرقتْ	وخَوَى[6] فلم يثبتْ لنور جلالها
ما جُنَّ مثلَ جُنونه أحدٌ، ولا	سَمَحَتْ يَدٌ بيضا بمثلِ نوالِها
وبَدَتْ على الشُّوذيِّ منها نشوة[7]	ما لاح منها غيرُ لمعة آلها
بَطُلَتْ حقيقتُه وحالتْ حالُه	فيما يُعَبِّرُ عن حقيقةِ حالها
هذي صُبَابتهم تَرِقُّ صَبَابةً	فيروقُ شاربَها صفاءُ زُلالِها

وهي طويلة.

قال السلطان أبو عنان رحمه اللّه تعالى[8]: أخبرني شيخنا الإمام العالم العلامة وحيدُ

---

(١) في الإحاطة (ص ٥٥٥): «بثقالها». وهنا يعتمد الشاعر على قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

فتعرُكُكمْ عركَ الرَّحى بثفالها وتَلْقَح كِشافًا ثم تُنتج فتتئمِ

المعلقات العشر (ص ١٢٢).

(٢) في الإحاطة: «حسن جمالها».

(٣) في الإحاطة: أصورة».

(٤) إشارة إلى الفارابي الفيلسوف وقدرته في الموسيقى.

(٥) في الإحاطة: «وتعلّقت» بدل «وتغلغلت». وهنا إشارة إلى السهروردي المتصوف.

(٦) في الإحاطة: «وخبا».

(٧) في الإحاطة: «نفحة» بدل «نشوة». والشوذي: هو الشيخ أبو عبد اللّه الحلوي، أحد فقهاء مرسية، والشوذية طريقة صوفية تشبه طريقة بن عربي إلاّ أنها أكثر إيجابية. راجع ما تقدّم.

(٨) أزهار الرياض (جـ ٢ ص ٣٢٢).

زمانه أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم الآبلي، رحمه اللّه تعالى، قال: لمّا توجّه الشيخ الصالح الشهير أبو إسحاق التنسي[1] من تلمسان إلى بلاد المشرق اجتمع هنالك بقاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد، فكان من قوله له: كيف حال الشيخ العالم أبي عبد اللّه بن خميس؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف، ويُطْنب في ذكر فضله، فبقي الشيخ أبو إسحاق متعجّبًا، وقال: من يكون هذا الذي حَلَّيتموه بهذا الحلي ولا أعرفه ببلده؟ فقال له هو القائل:

عَجَبًا لها أيذوق طعم وصالها

قال: فقلت له: إنّ هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التي وصفتم، إنما هو عندنا شاعر فقط، فقال له: إنكم لم تنصفوه، وإنه لحقيق بما وصفْناه به.

قال السلطان: وأخبرنا شيخنا الآبلي المذكور أنّ قاضي القضاة ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت له تعلو موضع جلوسه للمطالعة، وكان يخرجها من تلك الخزانة، ويكثر تأمّلها والنظر فيها، ولقد تعرّفت أنه لما وصلت هذه القصيدة إلى قاضي القضاة تقي الدين المذكور لم يقرأها حتى قام إجلالاً لها؛ انتهى[2].

وكان ابن خميس، رحمه اللّه تعالى. بعد مفارقة بلده تلمسان، سقى اللّه أرجاءها أنواء نيسان! . كثيرًا ما يتشوّق لمشاهدتها، ويتأوّه عند[3] تذكّره لمعاهدها، وينشد القصائد الطنّانة في ذلك، سالكًا من الحنين إليها المسالك، فمن ذلك قوله[4]: [الطويل]

تِلِمْسَانُ لو أنَّ الزمان بها يَسْخُو ... مُنَى النفس لا دارُ السلام ولا الكَرْخُ[5]
وداري بها الأولى التي حيل دونها ... مثارُ الأسى لو أمكنَ الحنقَ اللبخُ[6]
وعهدي بها والعمرُ في عنفوانه ... وماءُ شبابي لا أَجِينٌ ولا مَطْخُ[7]

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٦٥): «التنيسي».
(٢) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٦٥).
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٧٠): «من تذكره».
(٤) أزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٢٣).
(٥) دار السلام: بغداد. الكرخ: محلة ببغداد.
(٦) اللبخ: الاحتيال والضرب والقتل. لسان العرب (لبخ).
(٧) الأجين: المتغيّر طعمه. المَطْخ: الغِرْين يبقى في الحوض ولا يُقدر على شربه. محيط المحيط (أجن) و (مطخ).

قرارةُ تهيامٍ، ومغنى صبابةٍ ... ومعهدُ أُنسٍ لا يلذّ به لطخُ

إذ الدهرُ مثنيُّ العِنانِ مُنَهْنَهٌ ... ولا رَدْغَ يثني من عناني ولا ردخ[1]

لياليَ لا أُصغي إلى عذلِ عاذلٍ ... كأنَّ وقوعَ العذلِ في أُذني صمخ

معاهدُ أُنسٍ عُطِّلتْ فكأنها ... ظواهرُ ألفاظٍ تعمَّدها النسخ

وأَرْبُعُ آلافٍ عفا بعضُ آيها ... كما كان يعرو بعضَ ألواحنا اللطخ

فمن يَكُ سكرانًا من الوجد مرةً ... فإنيَ منه طولَ دهري لملتَخُّ[2]

ومن يقتدحْ زندًا لموقد جَذْوة ... فزندُ اشتياقي لا عَفَارٌ ولا مَرَخُ

أأنسى وقوفي لاهيًا في عِراصها ... ولا شاغلٌ إلاَّ التودُّع والسَّبْخ[3]

وإلاَّ اختيالي ماشيًا في سماطها ... رخيًّا كما يمشي بِطُرّتِهِ الرُّخُّ[4]

وإلاَّ فعدوي مثل ما ينفر الطَّلاَ ... وليدًا وحَجْلي مثل ما ينهضُ الفرخ

كأنيَ فيها أردشيرُ بن بابكٍ ... ولا مُلْكَ لي إلاَّ الشبيبةُ والشرخ

وإخوان صدق من لِداتي كأنهم ... جآذرُ رملٍ لا عجافٌ ولا بُزْخُ[5]

وُعَاةٌ لما يلقى إليهم من الهدى ... وعن كل فحشاءٍ ومنكرةٍ صُلْخُ[6]

هم القومُ كلُّ القومِ سيّان في العلا ... شبابهم الفُرعان والشيخة السُّلخُ[7]

مَضَوْا ومضى ذاك الزمانُ وأُنسُهُ ... ومَرُّ الصِّبا والمالُ والأهلُ والبذخُ

كأن لم يكنْ يومًا لأقلامهم بها ... صريرٌ، ولم يُسْمَعْ لأكعبهمْ جبخُ[8]

ولم يَكُ في أرواحها من ثنائهم ... شَميمٌ ولا في القُضْبِ من لينهم مَلْخُ[9]

---

(١) الرَّدَخُ، بالفتح: الردغ؛ والرَّدِغُ من الأماكن: الكثير الرَّدَغَة، والرَّدَغَة هي الماء والطين والوحل الشديد. محيط المحيط (ردخ) و (ردغ).

(٢) الملتخُّ: الذي اشتدَّ سكره. لسان العرب (لخخ).

(٣) السَّبْخ: الفراغ. محيط المحيط (سبخ).

(٤) الرُّخُّ، بضم الراء: قطعة من قطع الشطرنج. محيط المحيط (رخخ).

(٥) يقال: بزخ الرجلُ: خرج صدره ودخل ظهره فهو أبزخ. محيط المحيط (بزخ).

(٦) الصُّلْخ: جمع أصلخ وهو التامّ الصمم. لسان العرب (صلخ).

(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٦٦): «الفرغان» بالغين المعجمة. والفُرْعان: طويلو الشعر. السُّلخ: الصلع. لسان العرب (فرع) و (سلخ).

(٨) الأكعب: جمع كعب وهو قدح الميسر. جبخها: إحالتها وتحريكها وصوت قعقعتها. لسان العرب (كعب) و (جبخ).

(٩) المَلْخُ: اللِّين والتثني. لسان العرب (ملخ).

ولا في محيًا الشمسِ من هديهم سَنًا ... ولا في جبينِ البدرِ في طيبهم ضَمْخُ
سعيتم بني عَمّورَ في شَتِّ شملنا ... فما تَجْرُكم ربحٌ ولا عيشنا ربخ[١]
دُعيتم إلى ما يرتجى من صلاحكمْ ... فردَّكُمُ عنه التعجرفُ والجمخ[٢]
تعاليتمُ عُجبًا فطمَّ عليكمُ ... عُبابٌ له في رأس عليائكم جَلْخُ[٣]
وأوغلتمُ في العُجبِ حتى هلكتُمُ ... جماحَ غُواةٍ ما ينهنههم قَفْخُ[٤]
كفاكم بها سجنًا طويلاً وإن يكن ... هلاكٌ لكم فيها فَهِيَ لكُم فخُ
فكم فئةٍ منّا ظفرتمْ بنيلها ... بأبشارها من حُجْنِ أظفاركم برخُ[٥]
كأنكُم من خلفها وأمامها ... أُسودُ غياضٍ وهي ما بينكم أرْخُ[٦]
فللسُّوق منها القيدُ إن هي أغربتْ ... وللهام إن لم تعطِ ما رَعَتِ النقخ[٧]
كأنْ تحتها من شدّة القَلَق القَطَا ... ومن فوقها من شدّة الحذر الفُتْخُ[٨]
وأقرب ما تهذي به الهُلْكُ والتوى ... وأيسر ما تشكو به الذلُّ والفنخ[٩]
فماذا عسى نرجوه من لَمِّ شَعْثِها ... وقد حُزَّ منها الفرعُ واقْتُلع الشَّلْخ[١٠]
وما يطمع الراجون من حفظ آيها ... وقد عصفتْ فيها رياحهمُ الثبخ[١١]
زعانفُ أنكادٌ لئامٌ عَنَاكِلٌ ... متى قبضوا كفًّا على إثره طخّوا[١٢]
ولمّا استقلُّوا من مهاوي ضلالهم ... وأومَوْا إلى أعلامِ رشدهُم زخّوا[١٣]

---

(١) الربخ: الوقوع في الشدّة. لسان العرب (ربخ).
(٢) الجمخ: العجرفة. لسان العرب (جمخ).
(٣) الجلخ: اكتساح السيل للوادي. لسان العرب (جلخ).
(٤) القَفْخُ: الضرب على الرأس. لسان العرب (قفخ).
(٥) البرخ: قطع اللحم، وهنا يشبّه أظفارهم بالسيوف. لسان العرب (برخ).
(٦) الأَرْخُ: الفتيّ من البقر. لسان العرب (أرخ).
(٧) النقخ: الضرب على الهام. لسان العرب (نقخ).
(٨) الفُتْخ: جمع فتخاء وهي صفة العقاب. لسان العرب (فتخ).
(٩) الفنخ: ضرب الرأس بالعصا. لسان العرب (فنخ).
(١٠) الشلخ: الأصل والعرق. لسان العرب (شلخ).
(١١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٦٧): «الشبخ». والنبخ: جمع أنبخ وهو الجافي الغليظ. لسان العرب (نبخ).
(١٢) العناكل: جمع عنكل وهو الصلب. طخَّ الشيء: ألقاه من يده فأبعده. لسان العرب (عنكل) و (طخخ).
(١٣) زَخُّوا: اندفعوا في الوهدة. لسان العرب (زخخ).

دعاهم أبو يعقوبَ للشرف الذي | يذلُّ له رضوى ويعنو له دمخُ [1]
فلم يستجيبوه فذاقوا وبالهمْ | وما لامرئٍ عن أمرِ خالقه نخُّ [2]
وما زلت أدعو للخروج عليهمُ | وقد يسمعُ الصمُّ الدعاء إذا أصْخَوا [3]
وأبذُلُ في استئصالهم جهدَ طاقتي | وما لظنانيب ابن سابحةٍ قَفْخُ [4]
تركتُ لمينا سبتةٍ كلَّ نُجْعة | كما تركتُ للعزِّ [5] أهضامها شمخ
وآليتُ أن لا أرتوي غيرَ مائها | ولو حلَّ لي في غيره المنُّ والمَذخُ [6]
وأن لا أحطَّ الدهرَ إلاَّ بِعُقرها | ولو بوّأتني دارَ إمرتها بَلْخُ
فكم نقعتْ من غُلَّةٍ تلكم الأضَىٰ | وكم أبرأتْ من علّةٍ تلكمُ اللبخُ [7]
وحسبيَ منها عدلها واعتدالها | وأبحرُها العظمى وأريافُها النفخ
وأملاكها الصِّيدُ المَقَاولة الألى | لعزّهمُ تعنو الطراخمةُ البلْخُ [8]
كواكبُ هَذْي في سماء رياسةٍ | تضيءُ فما يدجو ضلالٌ ولا يَطْخُو [9]
ثواقبُ أنوارٍ تري كلّ غامض | إذا الناس في طخياءِ غيّهمُ التخّوا [10]
وروضاتُ آداب إذا ما تأرّجتْ | تضاءلَ في أفياء أفنانها الرمخ [11]
مجامرُ نَدٍّ في حدائق نرجسٍ | تنمُّ ولا لفحٌ يصيبُ ولا دَخُّ [12]

---

(١) دمخ: اسم جبل.
(٢) النَّخُّ: السير العنيف. لسان العرب (نخخ).
(٣) أَصْخُوا: أصاخوا، أي استمعوا وأصغوا. محيط المحيط (صوخ).
(٤) الظنابيب: جمع ظُنبوب وهو عظم الساق. القفخ: الكسر. لسان العرب (ظنبب) و (قفخ).
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٦٨): «للمعز».
(٦) المَذْخ، بالفتح: نوع من العسل، لسان العرب (مذخ).
(٧) الأَضَى: جمع أضاة وهي الغدير والمستنقع. اللبخ: جمع لبخة وهي شجرة عظيمة ثمرها كالتمر. محيط المحيط (أضى) و (لبخ).
(٨) الطراخمة: المتكبّرون. البلخ: جمع بِلْخ وهو المتكبّر. محيط المحيط (طرخم) و (بلخ).
(٩) يطخو: يشتدُّ ظلامه. لسان العرب (طخا).
(١٠) الطخياء: الظلمة الشديدة. التخّوا: اضطربوا. لسان العرب (طخا) و (لخخ).
(١١) الرمخ: الشجر المجتمع. لسان العرب (رمخ).
(١٢) الدَّخّ: الدخان. محيط المحيط (دخخ).

وأبحر علم لا حياضُ روايةٍ فيكبر منها النضحُ أو يعظم النضخ

بنو الغرفيين الألى من صدورهمْ وأيديهمُ تُملأ القراطيسُ والطرخ[1]

إذا ما فتًى منهم تصدًى لغايةٍ تأخر من ينحو وأقصر من ينخو

رياسةُ أخيارٍ وملكُ أفاضلٍ كرامٍ لهم في كلِّ صالحة رَضْخُ[2]

إذا ما بدا منّا جفاءٌ تعطّفوا علينا، وإن حلَّتْ بنا شدّة رخّوا

نَزُورُهُمُ حُذًّا نحافًا فننثني وأجمالنا دُلَّحٌ وأبدانا دُلْخُ[3]

يربّوننا بالعلم والحلم والنُّهى فما خرجُنَا بزٌّ ولا حذُنا برخ[4]

وما الزهدُ في أملاك لخمٍ ولا التُّقى ببدعٍ، وللدنيا لزوقٌ بمن يرخو

وإلاّ ففي ربِّ الخَوَرْنَقِ غنيةٌ فما يومُهُ سرٌّ ولا صيتُهُ رَضْخُ[5]

تطلَّعَ يومًا والسديرُ أمامه وقد نال منه العُجْبُ ما شاء والجفخ[6]

وعَنَّ له من شيعةِ الحقِّ قائمٌ بحجّةِ صدقٍ لا عَبَامٌ ولا وَشْخُ[7]

فأصبح يجتابُ المسوحَ زهادةً وقد كان يؤذي بطنَ أخمصه النخُّ[8]

وفي واحد الدنيا أبي حاتم لنا دواءٌ، ولكنْ ما لأدوائنا نتخ[9]

تخلَّى عن الدنيا تخلِّيَ عارفٍ يرى أنها في ثوب نخوته لتخ[10]

وأعرض عنها مستهينًا لقدرها فلم يَثْنِهِ عِنها اجتذابٌ ولا مَصْخُ[11]

---

(١) الطرخ: جمع طرخة وهي الحوض. لسان العرب (طرخ).

(٢) الرَّضْخُ: النوال. لسان العرب (رضخ).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٦٨): «وأبدادنا دُلَّخُ». الحُذُّ: جمع أحذ وهو الضامر. دُلَّحٌ: جمع دلوح وهو المتثاقل لنقل حمله. الدُّلُخُ: جمع دلوخ وهو السمين. لسان العرب (حذذ) و (دلح) و (دلخ).

(٤) البَزّ: الابتزاز. البرخ: القهر. لسان العرب (بزز) و (برخ).

(٥) الرَّضْخُ: الخبر تسمعه ولا تستيقنه. لسان العرب (رضخ).

(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٦٩): «والسرير أمامه». والجَفْخُ: التكبر. لسان العرب (جفخ).

(٧) العَبام: العييّ الثقيل. الوَشْخ: الرديء الضعيف. محيط المحيط (عبم) و (وشخ).

(٨) النَّخ: بساط طويل. محيط المحيط (نخخ).

(٩) النّتخ: الانتزاع. لسان العرب (نتخ).

(١٠) اللتخ: البقعة في الثوب. لسان العرب (لتخ).

(١١) المصخ: الاجتذاب. لسان العرب (مصخ).

فكان له من قلبها الحبُّ والهوى وكان لها من كفِّه الطرحُ والطخُّ[1]
وما مُغرضٌ عنها وهي في طلابه كمن في يديه من مُعاناتها نبخُ[2]
ولا مدركٌ ما شاء من شهواتها كمن حظُّه منها التمجُّعُ والنجخ[3]
ولكننا نعمَى مرارًا عن الهدى ونصلجُ حتى ما لآذاننا صمخ[4]
وما لامرىءٍ عمّا قضى اللّه مَزْحَلٌ ولا لقضاء اللّه نقضٌ ولا فسخُ
أبا طالبٍ لم تبقَ شيمةُ سؤددٍ يُسادُ بها إلاّ وأنت لها سِنْخُ
لَسوَّغتَ أبناءَ الزمانِ أياديًا لِدِرَّتها في كلِّ سامعةٍ شَخُّ[5]
وأجريتها فيهم عوائدَ سؤددٍ فما لهمُ كسبٌ سواها ولا نخُّ
غَذَتْهُمْ غواديها فهي في عروقهم دماءٌ، وفي أعماقِ أعظُمِهم مخُّ
وعَمَّتْهُمُ حَزْنًا وسهلاً فأصبحوا ومرعاهُمُ وَزخٌ ومرعيهمُ ولخ[6]
بني الغرفيين أبلغوا ما أردتُمُ فما دون ما تبغون وحلٌ ولا زلخ[7]
ولا تقعدوا عمّن أراد سِجالكم فما غربكم جُفٌّ ولا غرفكم وضخ[8]
وخلُّوا وراءَ كلَّ طالبِ غايةٍ وتيهوا على من رام شأوكُم وانخوا
ولا تَذَرُوا الجوزاءَ تعلو عليكُمُ ففي رأسها من وطءِ أسلافكم شَدْخُ
لأفواهِ أعدائي وأعينِ حُسَّدي إذا جليت خائيتي الغضُّ والفضخُ
دَعُوها تَهادى في مُلاءة حسنها ففي نفسها من مدحِ أملاكها مدخ[9]

---

(١) الطَّخُّ: القذف بعيدًا. لسان العرب (طخخ).

(٢) النبخ: قروح في اليد. لسان العرب (نبخ).

(٣) التمجّع: الاكتفاء بقليل من لبن أو تمر. النجخ: الزهد. لسان العرب (مجع) و (نجخ).

(٤) نصلج: نصاب بالصمم. الصمخ: صمَاخ الأذن. لسان العرب (صلج) و (صمخ).

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٦٩): «تسوّغت». والشُّخُّ: صوت الشَّخَب؛ يقال: شَخَب اللبنَ إذا حلبه. محيط المحيط (شخخ) و (شخب).

(٦) في طبعة عبد الحميد: «وَزْخ» بدل «وزخ». والوزخ: نوع من الشجر. والولخ: العشب الطويل. لسان العرب (وزخ) و (ولخ).

(٧) الزلخ: المزلق. لسان العرب (زلخ).

(٨) الغرب: الدلو. الجُفُّ: الشَّنُّ البالي يُقطع من نصفه فيجعل كالدلو. الغرف: انتشال الماء. الوضخ: القليل. لسان العرب (غرب) و (جفف) و (غرف و (وضخ).

(٩) المدخ: العظمة. لسان العرب (مدخ).

يمانيّةٌ زارتْ يمانينَ فانثنتْ وقد جَدَّ فيها الزهوُ واستحكم الزمخُ[1]

وقد بسط في «الإحاطة» ترجمةَ ابن خميس المذكور، ومِمَّا أنشد له قولُه[2]:

[الطويل]

سَلِ الريحَ إن لم تُسْعِدِ السفْنَ أنواءُ فعند صَباها من تِلِمْسان أنباءُ
وفي خَفقانِ البرقِ منها إشارةٌ إليكَ بما تَنْمي إليها وإيماء
تمرُّ الليالي ليلةٌ بعد ليلةٍ ولِلأُذْنِ إصغاءٌ وللعينِ إكلاء[3]
وإني لأصبو للصَّبا كلّما سَرَتْ وللنجم مهما كان للنجم إضْباء[4]
وأُهْدي إليها كلَّ يومٍ تحيّةً وفي رَدِّ إهداء التحيّةِ إهداء
وأستجلبُ النومَ الغِرارَ ومضجعي قَتَادٌ كما شاءتْ نواها وسُلاَّء[5]
لعلَّ خيالاً من لَدُنْها يمرُّ بي ففي مُرِّه بي من جوى الشوق إبراء
وكيف خُلُوصُ الطَّيْفِ منها ودونها[6] عيونٌ لها في كلِّ طالعةٍ رَاءُ
وإنّي لمشتاقٌ إليها ومُنْبِىءٌ ببعض اشتياقي لو تمكَّنَ إنباء
وكم قائلٍ تَفْنَى غَرامًا بحبِّها وقد أخلقتْ منها مِلاء وأملاء[7]
لعشرةِ أعوامٍ عليها تجرَّمَتْ إذا ما مضى قيظٌ بها جاء إهْراء[8]
يُطَنِّبُ فيها عائشون وخُرَّبٌ ويرحلُ عنها قاطنون وأحياءُ[9]

---

(١) الزمخ: الكبر. لسان العرب (زمخ).

(٢) القصيدة في الإحاطة (جـ ٢ ص ٥٣٨ ـ ٥٤١) وأزهار الرياض (جـ ٢ ص ٣٣٦) قالها في مدح ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم ويذكر فيها ما حلَّ ببلده تلمسان لدى حصار يعقوب بن عبد الحق لها. وهي من مشاهير أمداحه.

(٣) الإكلاء: ترديد البصر. محيط المحيط (كلأ).

(٤) في أزهار الرياض: «إسراء».

(٥) القتاد والسُّلاّء: شوك. لسان العرب (قتد) و (سلأ).

(٦) في الإحاطة (ص ٥٣٩): «وحولها».

(٧) أخلقت: بليت. المِلاء: جمع ملاءة. الأملاء: جمع مَلا وهو الأرض الواسعة. لسان العرب (خلق) و (ملأ).

(٨) الإهراء: شدة البرد التي تهرأ الأجسام. لسان العرب (هرأ).

(٩) في طبعة عبد الحميد: «وحزب» بدل «وخُرَّب». وفي الإحاطة: «عابثون» بدل «عائشون». وفي أزهار الرياض: «وثناء» بدل «وأحياء».

كـأنَّ رمـاحَ الـنـاهـبـيـن لِـمُـلْـكِـهـا قِدَاحٌ، وأمـوالَ الـمـنـازل أبـداء[1]
فلا تبغينْ فيها مناخًا لراكبٍ فقد قَلَّصَتْ منها ظِلالٌ وأفياء
ومن عجبٍ أنْ طال سُقْمي ونَزْعُها وقُسِّمَ إضناءٌ علينا وإطناء[2]
وكم أرْجَفُوا غيظًا بها ثم أرجأوا فيكذبُ إرجاف ويصدق إرجاء
يردّدها عُيَّابُها[3] الدهْرَ مثل ما يُرَدِّدُ حرفَ الفاء في النطق فأفاء
فيا منزلاً نال الردى منه ما اشتهى ترى هل لعُمْرِ الأنس بعدك إنساء[4]
وهل لِلَظَى الحرب التي فيك تَلْتَظي إذا ما انقضتْ أيامُ بؤسك إطفاء
وهل لي زمانٌ أرتجي فيه عودةً إليك ووجهُ البِشْرِ أزهرُ وضّاء

ومنها:

أحنُّ لها ما أَطَّتِ النِّيبُ حولها وما عاقها عن مورد الماء أظماءُ[5]
فما فاتها منّي نزاعٌ على النَّوى ولا فاتني منها على القرب إجشاء[6]
كذلك جَدِّي في صِحابي وأسرتي ومن لي به في أهل ودِّيَ إن فاءوا[7]
ولولا جِوارُ ابنِ الحكيم محمدٍ لما فات نَفْسي من بني الدهر إقماء[8]
حماني فلم تنتَبْ محلِّي نوائبُ بسوءٍ ولم تَرزأْ فؤاديَ أرزاء
وأَكْفأ[9] بيتي في كَفالة جاهه فصاروا عبيدًا لي وهم ليَ أكفاء
يؤمُّون قصدي طاعةً ومحبّةً فما عُفْتُه عافُوا وما شِئْتُه شاءوا[10]

---

(١) في الإحاطة: «الذاهبين لملكها». والأبداء: جمع بَدْء وهو النصيب من الجَزُور. محيط المحيط (بدأ).

(٢) في الإحاطة: «ومن عجبي أن طال..». والإطناء: الداء. لسان العرب (طنأ).

(٣) في الإحاطة: «عَيّا بها».

(٤) الإنساء: التأخير. لسان العرب (نسأ).

(٥) أطَّتْ: صوّتت. النِّيبُ: الإبل، واحدها ناب. الأظماء: جمع ظِمء وهو المدة التي تنقطع فيها عن ورود الماء. لسان العرب (أطط) و (ناب) و (ظمأ).

(٦) الإجشاء: تحرّك النفس بالشوق. لسان العرب (جشأ).

(٧) في الإحاطة (ص ٥٤٠): «من أهل ودّي..». وفاءوا: عادوا. لسان العرب (فاء).

(٨) الإقماء: الإذلال. لسان العرب (قمأ).

(٩) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٧١): «وأكفاء». وأكفأ البيت: ستره. لسان العرب (كفأ).

(١٠) في الإحاطة (ص ٥٤١): «شاءُ».

دعاني إلى المجد الذي كنتُ آملا فلم يكُ لي عن دعوة المجدِ إبطاء
وبوّأني من هَضبةِ العِزِّ تَلْعَةً يناجي السُّها منها صَعودٌ وطأطاء[1]
يشيّعني منها إذا سِرْتُ حافظٌ ويكلأني منها إذا نمتُ كَلأَّء [2]
ولا مثلُ نومي في كفالةِ غيره وللذئب إلمامٌ وللصِّلِّ إلْماء [3]
بغَيْضَةِ ليثٍ أو بمرقبِ خالب تُبَزُّ[4] كُسًا فيه وتُقطع أكساء
إذا كان لي من نائب الملك كافلٌ ففي حيثما هَوَّمْتُ كِنٌّ وإدفاء
وإخوانُ صدقٍ من صنائع جاهه يُبادرني منهم قيامٌ وإيلاء
سراعٌ لما يُرْجَى من الخير عندهم ومنْ كلِّ ما يُخْشَى من الشَّرِّ أبراء[5]
إليكَ أبا[6] عبد الإله صنعتُها لزوميّةً فيها لوجديَ إفشاء
مُبَرّأةٌ مِمَّا يعيبُ لزومَها إذا عاب إكفاءٌ سواها وإيطاء[7]
أذَعْتُ بها السِّرَّ الذي كان قبلها عليه لأحناءِ الجوانح إضناء
وإن لم يكن كلُّ الذي كنتُ آملاً وأعوزَ إكلاءٌ فما عاز إكماءُ[8]
ومن يتكلَّفْ مُفْحَمًا شكرَ مِنَّةٍ فما لي إلى ذاك التكلّف إلجاء
إذا مُنْشِدٌ لم يَكْنِ عنك ومُنْشِئٌ فلا كان إنشادٌ ولا كان إنشاء

رجع إلى ترجمة ابن الفخار وفوائده:

قال الشاطبي: حدّثنا الأستاذ الكبير أبو عبد اللّه بن الفخار قال: جلس بعضُ الطلبة إلى بعض الشيوخ المقرئين، فأتى المقرىء بمسألة الزوائد الأربع في أوّل الفعل المضارع، وقال: يجمعها قولك «نأيت» فقال له ذلك الطالب: لو جمعتها بقولك «أنيت» لكان أملح، ليكون كلّ حرف تضعيف ما قبله، فالهمزة لواحد وهو المتكلّم، والنون لاثنين وهما:

---

(١) الطأطاء: المنخفض من الأرض. لسان العرب (طأطأ).
(٢) في الإحاطة: «يشايعني فيها إذا سرتُ..». والكلأّء: الحافظ. لسان العرب (كلأ).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٧٨): «إيماء».
(٤) في الإحاطة: «تَبِذُ».
(٥) الأبراء: جمع بريء وهو الذي لا ذنب له. لسان العرب (برأ).
(٦) في الإحاطة: «أيا».
(٧) الإكفاء والإيطاء: عيبان من عيوب القافية. راجع: كتاب القوافي للأخفش (ص ٤٣، ٥٥).
(٨) الإكماء: كثرة الكمأة. لسان العرب (كمأ).

الواحد ومعه غيره، والواحد المعظم نفسه، والياء لأربعة: للواحد الغائب، وللغائِبَين، وللغائِبِين، وللغائبات، والتاء لثمانية: للمخاطَب، وللمخاطَبَين، وللمخاطبين، والمخاطبة، والمخاطبتين، والمخاطبات، وللغائبة، وللغائبتين، فاستحسن الشيخُ ذلك منه.

وحكى الشاطبي أيضًا أنّ شيخه ابن الفخار أورد عليهم سؤالاً، وهو: كيف يجمع بين مسألة رجل أوقع الصلاة بثوب حرير اختيارًا وبين قوله: [الوافر]

جَرَى الدَّمَيَانِ بالخبرِ اليقينِ

فلم ينقدح لنا شيء، فقال: الجواب أنّ الأوّل ممنوعٌ عند الفقهاء شرعًا، ورد اللام في دم في التثنية ممنوع عند النحاة قياسًا، وكلاهما في حكم المعدوم حسًّا، وإذا كان كذلك كان الأوّل بمنزلة مَنْ صلى باديَ العورة اختيارًا، فتلزمه الإعادة، وكان الثاني بمنزلة ما باشَرَ فيه عين دم علم التثنية، فتلزمه الفتحة، وإن كان أصلها السكون، قال: وهذه المسألة تشبه مسألة ابن جني في الخصائص، قال[1]: ألقيتُ يومًا على بعض من كان يعتادني مسألة فقلت له: كيف تجمع بين قوله[2]: [الكامل]

لَدْنٌ بِهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُه فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثَّعْلَبُ

وبين قوله «اختصم زيد وعمرو»؟ فلم ينقدح له فيها شيء، وعاد مستفهمًا، فقال له[3]: اجتماعُهما أنّ الواو اقتصر به على بعض ما وضع له من الصلاحية الملازمة مطلقًا، والطريق اقتصر به على بعض ما كان يصلح له.

قال الشاطبي: وحدّثني أيضًا قال: كان لقاضي القضاة علمًا وجزالة أبي جعفر ولد يقرأ عليَّ بمالقَةَ، وكان ابنًا نبيهًا فهمًا ونبلاً، فسأل مني يومًا مسألة يذكرها لأقرانه، وكان معجبًا بالغرائب، فجرى على لساني أن قلت له: بِيَنَّ عَلَى زَيْدٍ فعلُ أمر وفاعل، والأصل اْبْأَيَنَّ على زيد، ثم سهل بالنقل والحذف، على قياس التسهيل، فصار بِيَنَّ كما ترى، فأُعجب بالمسألة حتى ناظر فيها ليلة أباه، وكان أنحى نحاة أهل عصره، فأُعجب ممّا يرى

---

(١) الخصائص (جـ ٣ ص ٣١٩).

(٢) البيت لساعدة بن جؤية الهذلي في وصف الرمح، وهو في الخصائص (جـ ٣ ص ٣١٩). وهذا البيت ينشده النحاة شاهدًا لحذف حرف الجر ونصب ما كان مجرورًا.

(٣) في الخصائص: «فقلت اجتماعهما من حيث وضع كل منهما في غير الموضع الذي بدىء له، وذلك الطريق خاص وضع موضع العام».

من ابنه من النبل والتحصيل، فبلغت المسألة الشيخ الأستاذ أبا بكر بن الفخار، رحمه اللّه تعالى، فاعتنى بها، وحاول في استخراج وجه من وجوه الاعتراض على عادة المصلحين من طلبة العلم، فوجد في «مختصر العين» أنّ الكلمة من ذوات الواو، ولم يذكر صاحب المختصر غير ذلك، ولم يكن، رحمه اللّه تعالى، رأى قول أبي الحسن اللحياني في نوادره: إنه ممّا يتعاقب على لامه الواو والياء فيقال: بَأى يَبْأَى بأوًا وبَأيًا، كما يقال شأى يشأى شأوًا وشأيًا[1]، فلم يقدم شيئًا على أن اجتمع بالقاضي المذكور فقال له: ألم تسمع ما قال فلانٌ بِيَنٌ على زيد وإنما هو بِوَنٌ على زيدٍ؛ لأنه من ذوات الواو، ونصّ على ذلك صاحبُ المختصر، وحمله على أن يرسل إلي ويردني عن ذلك الذي قلته في المسألة، واجتمعت أنا معه، وحدّثني بما جرى له مع الأستاذ ابن الفخار، فذكرتُ له ما حكاه أبو الحسن اللِّحْيَاني في نوادره، وما قاله ابن جني في «سرّ الصناعة»، فسُرَّ بذلك، وأرسل بعد إلى الأستاذ ابن الفخار، وذكر له نصّ اللحياني وقول ابن جني وجمع القاضي بيننا، وعقد في قلوبنا مودّة، فكان الأستاذ ابنُ الفخار يومئذ يقصدني في منزلي، وفي المواسم، ويستشيرني في أموره على سبيل التأنيس، رحمة اللّه عليه، فأوّاه على فقد الناس[2] أمثاله.

وقال الشاطبي أيضًا: أنشدني الفقيه الأستاذ الكبير أبو عبد اللّه بن الفخار، رحمه اللّه تعالى، وقال: أُلقي في سري بيت لم أسمعه قطّ في السادس عشر من شهر رجب عام ستة وخمسين وسبعمائة: [الخفيف]

لتكنْ راجيًا كما أنت ترجو ولأَرْبىٰ من الذي أنتَ راجي

قال الشاطبي: وقرّر لنا الأستاذ ابن الفخار المذكور يومًا توجيه قول أبي الحسن الأخفش في كسرة الذال من نحو يومئذٍ إنها إعرابية لا بنائية، إذ لم يذكر أحد وَجْهَ هذا المذهب قبل، قال ابن جني: إنّ الفارسي اعتذر له بما يكاد يكون عذرًا، فلمّا تمّ التوجيه قلت له وأنا حينئذ صغير السنّ: هَبْ أنّ الأمرَ على ما قاله الأخفش من أنّ الكسرة إعرابية، فما يصنع ببناء الزمان المضاف إلى «إذ» في أحد الوجهين والإضافة إلى المفرد المعرب تقتضي الإعراب دون البناء؟ فتعجّب من صدورَ هذا السؤال مني لصغر سنّي، وأجاب عنه بأنه قد يذهب السبب ويبقى حكمه، كما قاله ابن جني في اسم الإشارة في ترجمة سيبويه

---

(١) شأى يشأى شأيًا وشأوًا: فاق. لسان العرب (شأى).

(٢) كلمة «الناس» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٧٤).

«هذا عِلْمُ ما الكلم من العربية» على أن يكون سيبويه وضعه غير مشير به وتركه مبنيًا، وأزال سبب البناء، ونَظَّرَ ذلك بباب التسوية على ما هو مقرّرٌ في موضعه، قال: ونظير ذلك ما قرّره من إضافة حيث إلى المفرد مع بقاء البناء فيما ذكره الزمخشري، وذلك قوله: [الرجز]

أما ترى حيثُ سهيل طالعًا

وقوله أنشدنا ابن الأعرابي لبعض المحدّثين: [الطويل]

ونحن سَعَيْنَا بالبلايا لمعقل ... وقد كان منكم حيثُ لَيّ العمائمِ

وقد كان حقّها أن تعرب لزوال سبب البناء، وهو الإضافة إلى جملة، وحصول سبب الإعراب وهو الإضافة إلى المفرد، ولكنه لم يعتبر النادر، وأبقى الحكم الشائع.

وقال الشاطبي أيضًا: كان شيخنا ابن الفخار يأمرنا بالوقف على قوله تعالى في سورة البقرة ﴿قالوا الآن ﴾[1] ونبتديء ﴿جِئْتَ بالحَقّ ﴾[2] وكان يفسّر لنا معنى ذلك قولهم الآن أي فهمنا وحصل البيان، ثم قيل: جئت بالحقّ، يعني في كلّ مرة، وعلى كل حال، وكان ـ رحمه اللّه تعالى! ـ يرى هذا الوجه أولى من تفسير ابن عصفور له من أنه على حذف الصفة، أي: بالحقّ البيِّن، وكان يحافظ عليه.

وقال الشاطبي: أنشدني صاحبنا الفقيه الأجلُ الأديب البارع أبو محمد بن حذلم[3] لنفسه أبياتًا، أنشدنيها يوم عيد على قبر سيّدنا الإمام الأستاذ الكبير الشهير أبي عبد اللّه بن الفخار يرثيه بها: [الطويل]

أيا جَدَثًا قد أحرز الشرفَ المحضا ... بأنْ صار مَثْوَى السَّيِّدِ العالمِ الأرْضَىٰ
عجبتُ لما أحرزْتَهُ من معارفٍ ... وشتى معالٍ لم تزلْ تعمرُ الأرضا
طُويتَ عليه وهو عينُ زمانه ... فيا جفنَ عينِ الدهرِ كم تؤثر الغمضا
فحيّاكَ من صَوْب الحيا كلُّ ديمةٍ ... تُديمُ له في الجنّة الرفعَ والخفضا
فها نحن في عيدِ الأسى حول قبره ... وقوفًا لنقضي من عيادته الفرضا

---

(١) سورة البقرة ٢، الآية ٧١.

(٢) سورة البقرة ٢، الآية ٧١.

(٣) ترجمة ابن حذلم في مستودع العلامة ومستبدع العلاّمة (ص ٧٤).

كمثل الذي كنّا وقوفًا ببابه بُعيدَ الأماني زائرين له أيضًا
ومنّا سلامٌ لا يزالُ يخصُّه يذكّره من بعض أشواقنا البعضا

قلت: وابن حذلم المذكور له باع مديد في العلم والأدب، وهو أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن حذلم، ومن نظمه قوله: [الكامل]

أبتِ المعارفُ أن تُنالَ براحةٍ إلاّ براحةِ ساعدِ الجِدِّ
فإذا ظفرتَ بها فلستَ بمدرك أربًا بغير مُساعدِ الجَدِّ

وقوله رحمه الله: [السريع]

كم من صديقٍ حَالَ[1] في ودِّه ولم أزلْ أرويه عن مَحْضِهِ
حضورُهُ عَيْنٌ على ودِّه وغيبه عينٌ على بغضه
ولم أكن أجهلُ هذا ولا عجزتُ أن أجري على قرضه
لكنَّ من قد سرّني بعضُهُ أُحِبُّ أن أصفحَ عن بعضه

وقوله، رحمه الله، يوم عيد، وهو ممّا ألهج به أنا كثيرًا: [المتقارب]

يقولونَ لي خَلِّ عنك الأسى ولُذْ بالسرورِ فذا يومُ عِيدْ
فقلتُ لهم والأسى غالبٌ ووجديَ يحيىٰ وشوقي يزيدْ
توعَّدني مالكي بالفراقِ فكيف أُسرُّ وعيدي وعيدْ

وقوله رحمه الله: [الوافر]

حبيبٌ زارني في الليل سِرًّا فأَحْيَا نَفْسَ مُشتاقٍ إليهِ
وعلّلني بنشرِ المسكِ منه وحيّاني بصفحةِ وَجْنتيهِ
وعانقني عناقَ الودِّ صفحًا وفارقني فيا لهفي عليهِ

رجع. وتوفي الأستاذ سيبويه زمانه أبو عبد الله محمد بن علي بن الفخار أستاذ الجماعة بغرناطة ليلة الاثنين ثاني عشر رجب عام أربعة وخمسين وسبعمائة، رحمه الله تعالى!.

رجع. إلى مشايخ لسان الدين رحمه الله تعالى.

---

(١) حال: تحوّل وتغيّر. لسان العرب (حال).

ومنهم الأستاذ ابن العوّاد ـ قال في «الإحاطة»[1]: قرأت كتاب اللّه، عزَّ وجلَّ، على المُكَتِّب نسيج وَحْدِهِ، في تَحَمُّلِ المنزَّل حَقَّ حمْله، تقوّى، وصلاحًا وخصوصِيَّةً، وإتقانًا ونغمةً وعنايةً وحفظًا وتبحّرًا في هذا الفن، واضطلاعًا بغرائبه[2]، واستيعابا لِسَقَطات الأعلام، الأستاذ الصالح أبي عبد اللّه بن عبد الولي العَوّاد تكتيبًا[3] ثم حفظًا، ثم تجويدًا، على[4] مَقْرَإ أبي عَمْرو، ثم نقلني إلى أستاذ الجماعة، ومطيّة الفنون، ومُفيد الطلبة، الشيخ الخطيب المتفنن أبي الحسن علي القيجاطي، فقرأت عليه القرآن والعربية، وهو أوّل من انتفعْتُ به؛ انتهى.

ومن أشياخه، رحمه اللّه، الشيخ العلامة أبو عبد اللّه بن بيبش[5]، وله، رحمه اللّه تعالى، نظم جيد، فمنه قوله ملغزًا في مسطرة الكتابة: [الطويل]

ومقصورةٍ خَلْفَ الحجابِ وسِرُّها ... مُضاعٌ، فيما يلقاكَ من دونها سِتْرُ
لها جثةٌ بيضاءُ أسبلَ فوقها ... ذوائبُ زانتها، وليس لها شَعْرُ
إذا أُلبستْ مثلَ الصباحِ وبُرْقِعَتْ ... رأيتَ سوادَ الليلِ لم يَمْحُهُ الفجر
عقيلةُ صَوْنٍ لا يفرِّقُ شملَها ... سوى من أهمته الخَطَابةُ والشِّعْرُ

وقوله في ترتيب حروف الصحاح[6]: [الطويل]

أساجعةً بالواديين تَبَوَّئي ... ثمارًا جَنَتْها حالياتٌ خواضبُ
دعي ذكرَ روضٍ زاره سقي شربه ... صباحَ ضُحَى طيرٌ ظماءٌ عواصبُ[7]
غرامُ فؤادي قاذفٌ كلَّ ليلةٍ ... متى ما نأى وَهْنًا هداهُ يُراقبُ

وله جواب عن البيتين المشهورين[8]: [مخلع البسيط]

---

(1) الإحاطة (ج ٤ ص ٤٥٧ ـ ٤٥٨). وسيرد هذا النص في الجزء الثامن.
(2) في الإحاطة: «بضرايبه».
(3) في الإحاطة (ص ٤٥٨): «كَتبًا».
(4) في الإحاطة: «إلى مَقرى».
(5) هو محمد بن محمد بن محمد بن بيبش العبدري؛ ولد بغرناطة سنة ٦٨٠ هـ وتوفي بها سنة ٧٥٣ هـ. الإحاطة (ج ٣ ص ٢٧).
(6) الأبيات في الإحاطة (ج ٣ ص ٢٩)، وسترد في الجزء الثامن.
(7) في الإحاطة: «طير طما عصايب».
(8) البيتان في الإحاطة (ج ٣ ص ٢٨).

يا ساكنًا قلبيَ المعَنَّى وليس فيه سواكَ ثاني
لأيِّ مَعْنًى كَسَرْتَ قلبي وما التقى فيه ساكنانِ

فقال[1]: [مخلع البسيط]

نَحَلْتَني طائعًا فؤادًا فصار إذ حُزْتَهُ مكاني
لا غَرْوَ إذ كان لي مضافًا أنّي على الكَسْر فيه باني

وقد ذكرت ذلك في غير هذا الموضع مع زيادة بلفظ لسان الدين، فليراجَع في الباب الخامس من هذا الكتاب.

ومن أشياخ لسان الدين، رحمه اللّٰه تعالى، قاضي الجماعة الصدر المتفنّن أبو عبد اللّٰه بن بكر[2]؛ قال في «الإحاطة» وقرأت على قاضي الجماعة أبي عبد اللّٰه بن بكر[2]، رحمه اللّٰه تعالى؛ انتهى.

وقاضي الجماعة عند المغاربة هو بمعنى قاضي القضاة عند المشارقة، فَلْيُعْلم ذلك.

وابن[2] بكر المذكور هو محمد بن يحيىٰ بن محمد بن أحمد بن[2] بكر بن سعد[3] الأشعري المالقي، من ذرية[4] أبي موسى الأشعري، كان من صدور العلماء، وأعلام الفضلاء، سَذَاجةً ونزاهةً ومعرفةً وتفنّنًا، فسيح الدرس، أصيل النظر، واضح المذهب، مؤثرًا للإنصاف، عارفًا بالأحكام والقراءة[5]، مبرّزًا في الحديث تاريخًا وإسنادًا وتعديلاً وجَرْحًا[6]، حافظًا للأنساب والأسماء والكُنى، قائمًا على العربية، مشاركًا في الأصول

---

(١) البيتان في الإحاطة (جـ ٣ ص ٢٩)، وسيردان في الجزء الثامن.
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٧٨) وفي الإحاطة (جـ ٢ ص ١٧٦): «أبو عبد اللّٰه بن أبي بكر». وهو محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن بكر بن سعد الأشعري المالقي، ويعرف بابن بكر. توفي شهيدًا بظاهر طريف سنة ٧٤١ هـ. تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٤١) والإحاطة (جـ ٢ ص ١٧٦) ونيل الابتهاج (ص ٢٣٤).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٧٨) وطبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٨٥): «سعيد»، وأثبتنا ما في الإحاطة وتاريخ قضاة الأندلس.
(٤) في الإحاطة وتاريخ قضاة الأندلس: «من ذرية بلج بن يحيىٰ بن خالد بن أبي بردة بن أبي موسى».
(٥) في الإحاطة: «والقراءات».
(٦) في الإحاطة: «وتجريحا».

والفروع، واللغة والعروض والفرائض والحساب، محفوض الجناح، حسن الخلق[١]، عَطُوفا على الطلبة، مُحِبًا في العلم والعلماء، مُطَّرِحًا[٢] للتصنّع، عديم المُبَالاة بالملبس، باديَ الظاهر، عزيز النفس، نافذ الحكم، تقدّم[٣] ببلده مالَقَةَ، ناظرًا في أمور العَقْد والحلّ ومصالح الكافة. ثم وُلّي القضاء بها، فأعزَّ الخُطّة، وترك الشوائب[٤]، وأنفذ الحق ملازمًا للقراءة والإقراء، محافظًا للأوقات، حريصًا على الإفادة. ثم وُلّي القضاء بغَرْنَاطة المحروسة، سنة ٧٣٧[٥]، فقام بالوظائف وصدع بالحق[٦]، وبَهْرَج الشهود[٧]، فزيّف منهم ما ينيف على سبعين[٨]، واستهدف بذلك إلى مُعَاداةٍ ومناضلة خاض ثَبَجَها، وصادم تيّارها، غيرَ مُبَالٍ بالمغبّة، ولا حافلٍ بالتَّبِعة، فناله لذلك من المشقّة والكيد العظيم ما نال مثله، حتى كان لا يمشي إلى الصلاة ليلاً، ولا يطمئنّ على حاله[٩] . وجرت له في ذلك حكايات، إلى أن عزم عليه الأمير أن يردّ للعدالة بعض من أخّره، فلم يجد في قَنَاته مَغْمَزًا، ولا في عُودِهِ مَعْجَمًا، وتصدّر لبثّ العلم بالحضرة، يقرىء فنونًا جمّة، فنفع، وخرّج، وأقرأ القرآن، ودرَّس الفقه والأصول والعربية والفرائض والحساب، وعقد مجالس الحديث شرحًا وسماعًا على انشراح صدر، وحفظ تجمّل، وخفض جناح[١٠]. قال القاضي ابن الحسن[١١]: إنه كان صاحب عزم ومضاء، وحُكْم صادع، وقضاء، أحرق قلوب الحسدة، وأعز الخطّة بإزالة الشوائب، وذَهَّب وفَضَّض الحقّ بمعارفه، ونَفَذَ في المشكلات، وثبت في المعضلات[١٢]، واحتج وبكّت، وتفقّه ونكّت.

---

(١) في الإحاطة: «التخلق».

(٢) في الإحاطة: «مطّرح التصنّع».

(٣) في الإحاطة: «تقدم للشياخة ببلده».

(٤) في الإحاطة (ص ١٧٧): «وترك الهوادة وإنفاذ الحق».

(٥) في الإحاطة: «في العشر الأول لمحرم سبعة وثلاثين وسبعمائة».

(٦) صدع بالحقّ: جهر به. لسان العرب (صدع).

(٧) في الإحاطة: «وجرّح الشهود». ويهرج الشهود: أظهر زيفهم. لسان العرب (بهرج).

(٨) في الإحاطة: «على السبعين عددًا». وفي تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٤٢): «على الثلاثين عددًا».

(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٧٩): «حالة».

(١٠) في طبعة عبد الحميد: «وحفظ تحمل». وفي الإحاطة: «وسماعًا على سبيل من انشراح الصدر، وحسن التجمّل، وخفض الجناح».

(١١) لم يرد هذا القول حرفيًا في تاريخ قضاة الأندلس، وجاء فيه ما في معناه.

(١٢) في الإحاطة (ص ١٧٨): «في المذهلات».

وحدّثنا صاحبنا أبو جعفر الشَّقُوري قال[١] : كنت جالسًا[٢] بمجلس حُكْمِهِ، فَرَفَعَتْ إليه امرأة رقعة مُضَمَّنُها[٣] أنها مُحَبَّة في مُطَلِّقها، وتبتغي[٤] الشفاعة لها في رَدِّها، فتناول الرقعة، ووقَّع على ظهرها بلا مُهْلة: الحمد للّه، من وقف على ما بالقلوب[٥] فليُصِخ لسماعه إصاخة مغيث، وليشفع للمرأة عند زوجها[٦] تأسِّيًا بشفاعة الرسول ﷺ، لبَرِيرة في مُغِيث[٧]. واللّه يُسْلم لنا العقل والدين، ويسلُك بنا سبيل المُهْتدين، والسلام من كاتبه.

قال الشقوري: قال لي بعض الأصحاب: هلاّ كان هو الشفيع لها، فقلت: الصحيح أنّ الحاكم لا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه على المنصوص[٨].

قرأ ابن[٩] بكر المذكور على الأستاذ ابن أبي السداد الباهلي[١٠] القرآن جمعًا وإفرادًا والعربية والحديث، ولازمه، وتأدّب به، وعلى الشيخ الصالح أبي عبد اللّه بن عياش[١١] كثيرًا من كتب الحديث، وسمع عليه جميع صحيح مسلم إلاّ دولة واحدة. وأخذ عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير والخطيب ابن رشيد[١٢] والولي الصالح أبي الحسين[١٣] بن فضيلة، والأستاذ أبي عبد اللّه بن الكماد[١٤]، وأجازه العدل الراوية أبو فارس عبد العزيز ابن الهوّاري وأبو إسحاق التلمساني.

---

(١) النص أيضًا في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٤٥).
(٢) في الإحاطة وتاريخ قضاة الأندلس: «قاعدًا».
(٣) في الإحاطة: «مضمونها». وفي تاريخ قضاة الأندلس: «بطاقة مضمّنها».
(٤) في الإحاطة: «وتبتغي من يستشفع».
(٥) في الإحاطة: «بالمقلوب».
(٦) في تاريخ قضاة الأندلس: «عند مفارقها».
(٧) في الإحاطة: «لبريرة». وبريره: جارية عائشة رضي اللّه عنها. ومغيث: زوج بريرة، ولمّا أعتقت عائشةُ، رضي اللّه عنها، بريرة، اختارت بريرةُ مفارقة زوجها الذي ظل رقيقًا، فجاء مغيث إلى النبيّ، ﷺ، يبكي ويسأله أن يشفع له عندها.
(٨) في الإحاطة: «النصوص».
(٩) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٨٠): «ابن أبي بكر».
(١٠) في الإحاطة (ص ١٧٩): «أبي محمد بن أبي السداد الباهلي».
(١١) في الإحاطة: «أبي عبد اللّه محمد بن عياش الخزرجي القرطبي».
(١٢) في الإحاطة: «أبو عبد اللّه بن رُشَيد».
(١٣) في الإحاطة: «أبو الحسن».
(١٤) في الإحاطة: «الكماد السَّطّي اللبليسي».

ومن أهل إفريقية المعمر أبو محمد بن هارون[1] ومحمد بن سيد الناس[2] .

ومن أهل مصر الشرف الدمياطي[3] ، وجماعة من أهل الشام والحجاز، فُقِدَ رحمه اللّه تعالى في المصافِّ يوم المناجزة بطريف[4] ، زعموا أنه وقع عن بغلة ركبها، وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب، فلم يقدر، وقال له: انصرفْ، هذا يوم الفرح[5] ، إشارة لقوله تعالى ﴿فَرِحِينَ بما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[6] وذلك ضحى يوم الاثنين ٧ جمادى الأولى سنة ٧٤١ رحمه اللّه تعالى!.

ومن أشياخ لسان الدين ابن الخطيب، رحمه اللّه تعالى، الشيخ أبو إسحاق بن أبي يحيىٰ الشهير الذكر في المغرب، وقد عرّف به في «الإحاطة» في اسم إبراهيم من ترجمة الغرباء بما نصُّه[7]: إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي، من أهل تازي، يكنى أبا سالم، ويعرف بابن أبي يحيىٰ.

حاله من الكتاب المؤتمن[8] . كان[9] هذا الرجل قَيِّمًا على «التهذيب» و «رسالة ابن أبي زيد»، حسن الإقراء لهما، وله عليهما تقييدان نبيلان قيّدهما أيام قراءته إياهما على أبي الحسن الصُّغَيّر، حضرت مجالسه بمدرسة عُدْوَة الأندلس من فاس، ولم أر في متصدِّري بلده أحسن تدريسًا[10] منه. كان فصيح اللسان، سهل الألفاظ، موفيًا حقوقها، وذلك

---

(١) في الإحاطة: «أبو عبد اللّه محمد بن هارون».

(٢) في الإحاطة (ص ١٨٠): «ومحمد بن محمد بن سيد الناس».

(٣) في الإحاطة: «شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي».

(٤) موقعة طريف هي الموقعة العظيمة التي نشبت بين الجيوش الإسبانية المتحدة بقيادة ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة، وبين الجيوش المغربية بقيادة السلطان أبي الحسن المريني ومعها قوات الأندلس بقيادة السلطان يوسف أبي الحجاج النصري، وكانت على مقربة من ثغر طريف على ضفاف نهر سالادو الصغير، في جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ، وقد هُزم فيها المسلمون شرَّ هزيمة. الإحاطة (جـ ٣ ص ٢٣).

(٥) في الإحاطة: «الفرج» بالجيم المعجمة.

(٦) سورة آل عمران ٣، الآية ١٧٠.

(٧) الإحاطة (جـ ١ ص ٣٧٢ . ٣٧٧) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٣٦).

(٨) عنوان هذا الكتاب الكامل هو: «الكتاب المؤتمن في أنباء أبناء الزمن» وهو من تأليف ابن الحاج البلفيقي، شيخ لسان الدين ابن الخطيب.

(٩) ينقل المقري هنا عن الإحاطة (جـ ١ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣).

(١٠) في الإحاطة: «تدريبًا منه».

لمشاركته الحضر فيما بأيديهم[1] من الأدوات، وكان مجلسه وقفًا على «التهذيب» و «الرسالة»، وكان ـ مع ذلك ـ سَمْحًا[2] فاضلاً، حسن اللقاء، على خلق بائنة على أخلاق أهل مصره. امتُحن بصحبة السلطان، فصار يستعمله في الرسائل، فمرّ في ذلك حظٌّ كبير من عمره ضائعًا لا في راحة دنيا ولا في نَصَب[3] آخرة. ثم قال: وهذه سنَّة اللَّه فيمن خدم الملوك، ملتفتًا إلى ما يُعطونه، لا إلى ما يأخذون من عمره، وراحته أن يبوء[4] بالصَّفْقَة الخاسرة، لَطَفَ اللَّهُ بمن ابتُلي بذلك وخلَّصنا خلاصًا جميلاً!.

ومن كتاب «عائد الصلة»[5]: الشيخ الفقيه الحافظ القاضي، من صدور المغرب [6]، مشاركة[7] في العلم، وتبحرًا[8] في الفقه، كان وَجِيهًا عند الملوك، صَحِبهم وحضر مجالسهم واستعمل في السِّفارة، فلقيناه بغَرْنَاطة، وأخذنا بها عنه، تام السَّرَاوة[9]، حسن العهد، مليح المجالس، أنيق المحاضرة، كريم الطبع، صحيح المذهب.

تصانيفه[10]. قيّد على «المدوّنة» بمجلس شيخه[11] أبي الحسن كتابًا مفيدًا، وضمَّ أجوبته على المسائل في سِفْر، وشرح كتاب «الرسالة» شرحًا عظيم الإفادة.

مشيخته. لازم أبا الحسن الصّغيّر، وهو كان قارىء كتب الفقه عليه، وجُلُّ انتفاعه في التفقّه به، ورَوَى عن أبي زكريا بن يس[12]، قرأ عليه كتاب «الموطأ» إلاّ كتاب «المكاتب» وكتاب «المدبّر» فإنه سمعه بقراءة الغير، وعن أبي عبد اللَّه بن رشيد[13]، قرأ عليه «الموطأ»

---

(١) في الإحاطة: «فيما في أيديهم».
(٢) في الإحاطة: «شيخًا فاضلاً».
(٣) في الإحاطة: «نصيب».
(٤) في الإحاطة: «يبوؤا».
(٥) ما يزال النقل مستمرًا عن الإحاطة.
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٨١): «من صدور العلم، له مشاركة».
(٧) في الإحاطة: «مشاركًا في العلم، متبحرًا في الفقه».
(٨) في طبعة عبد الحميد: «وتبحرٌ».
(٩) السراوة: السخاء في مروءة. لسان العرب (سرا).
(١٠) ما يزال النقل مستمرًا عن الإحاطة (جـ ١ ص ٣٧٣).
(١١) في الإحاطة: «شيخه القاضي أبي الحسن».
(١٢) في الإحاطة: «بن أبي ياسين».
(١٣) في الإحاطة: «رشد».

و «شفاء» عياض، وعن أبي الحسن بن عبد الجليل السدراتي[1]، قرأ عليه «الأحكام الصغرى» لعبد الحق، وأبي الحسن بن سليمان، قرأ عليه «رسالة ابن أبي زيد»، وعن غيرهم.

وفاته. فُلج بأخَرَة فالتزم منزله بفاس يزوره السلطان ومَنْ[2] دونه، وتوفي بعد عام ثمانية وأربعين وسبعمائة[3]؛ انتهى.

وقال ابن الخطيب القسمطيني: إن ابن أبي يحيىٰ المذكور توفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة؛ انتهى.

ومن أشياخ لسان الدين الطنجالي الهاشمي[4]، وهو محمد بن أحمد. قال في «عائد الصلة»: كان على سنَنِ سلفه كثرة حياء، وسِمَةَ صلاح، وشدة انقباض، وإفراط وقار وحشمة، بَذَّ الكهولة على حَدَاثة سنّه في باب الورع والدين والإغراق في الصلاح والخير، وتقدّم خطيبًا ثم قاضيًا ببلده، فأظهر من النزاهة والعدالة ما يناسب منصبه، ففزع الناس إليه في كائنة الوباء العظيم بأموالهم، وقلّدوه عهود صدقاتهم، فاستقرّ في يده من المال الصامت والحلي والذخيرة والعدّة ما تضيق بيوت أموال الملك عنه وصرف ذلك مصارفه، ووضعه وَفْقَ عهوده، فلم يتلبّس منه بنَقِير ولا قِطْمِير[5]، وكان مُدْرِكًا أصيل الرأي، قائمًا على الفرائض والحساب، ثم تحرج وطلب الإعفاء فأُسعف به على حال ضنانة، وفي ذلك يقول قريبه صاحبنا الفقيه القاضي أبو الحسن بن الحسن يخاطبه[6]: [الطويل]

لك اللّهُ يا بَدْرَ السَّمَاحةِ والبِشْرِ ... رفعتَ[7] بأعلى رتبةٍ رايةَ الفخرِ
ولا سيما لـمَّا وَلِيتَ أمورَها ... فروَّيتها من عَذْبِ نائلك الغَمْرِ[8]

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٨٢): «السدواتي». وفي الإحاطة: «السدّاري».
(٢) في الإحاطة: «فمن دونه».
(٣) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٣٦) أنه توفي ببلده تازة في حدود ٧٤٩ هـ.
(٤) ترجمة الطنجالي في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٥٥).
(٥) النقير: النكتة في ظهر النواة. القطمير: شقّ النواة. محيط المحيط (نقر) و (قطمر).
(٦) هو أبو الحسن بن الحسن النباهي، وقصيدته هذه في كتابه تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٥٨ ـ ١٥٩).
(٧) في تاريخ قضاة الأندلس: «نشرت».
(٨) النائل: العطاء. الغمر: الكثير. لسان العرب (نول) و (غمر).

وَدارَتْ قضاياها عليكَ بأَسْرِها ... على حينَ لا بَرٌّ يعينُ على بِرِّ[1]
فَقُمْتَ بها خيرَ القيام مُصَمِّمًا ... على الحقِّ تصميمَ المُهَنَّدة البُترِ[2]
فَسُرَّ بكَ الإسلامُ يا ابن حمامةٍ ... وأَمْسَتْ بك الأيامُ باسِمَةَ الثغر[3]
تُعيدُ عليك الحمدَ أَلْسُنُ حالها ... وتتلو لما يُرضيك من سُوَرِ الشكر[4]
لذاك أميرُ المسلمين بعدله ... أقامك تقضي في الزمان على جبر
فأحييتَ رَسْمَ العلمِ بعد مَمَاتِهِ ... وغادرتَ وجه الحكم أسنى من البدر
ولكنك استعفيتَ عنه تورُّعًا ... وتلك سبيلُ الصالحين كما تدري
فكم من وليّ فَرَّ عنه لعلمه ... به كأبي الحجاج جدِّك من ذخر
فزاد اتّصالاً عزُّه باجتنابه ... له وسَمَا قدرًا على قُنَّةِ النسر
جريتَ على نهج السلامة في الذي ... تبعتَ له فابشرْ بأمنك في الحشْر[5]
وأرضاكَ مولاك الإمامُ بفضله ... وأعفاك إعفاءَ الكرامةِ والبِرِّ
فأنت على الحالين أفضلُ مَنْ قضى ... وأشرفُ مَنْ يُعْفَى إلى آخر الدهر
لما حُزتَ مِنْ شتى المعالي التي بها ... تحليتَ عن أسلافك السادة الغُرِّ
صدورِ مقاماتِ المعارفِ كلِّها ... بحورِ النوالِ الجمِّ في اليسر والعسر
هم النفرُ الأعلون من آلِ هاشمٍ ... وناهيك من مجدٍ أثِيلٍ ومن فخر

وهي طويلة: انتهى.

ومن أشياخ لسان الدين، رحمه اللّه تعالى، الشيخ الإمام الخطيب الرئيس سيدي أبو عبد اللّه بن مرزوق[6]، ولنلخّص ترجمته من «الإحاطة» وغيرها، فنقول: هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق، العجيسي، التلمساني، يكنى أبا عبد

---

(١) في تاريخ قضاة الأندلس: «على حين لا بدّ يمين على بشر».
(٢) في تاريخ قضاة الأندلس: «على مثل تصميم المهنّدة السمر». والمهندة: السيوف. والبتر: جمع باتر وهو القاطع. لسان العرب (هند) و (بتر).
(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «يا ابن حماية.. الأحكام باسمة الثغر..».
(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «وتحفظ ما يرضيك..».
(٥) في تاريخ قضاة الأندلس: «تخيّرته فابشرْ..».
(٦) ترجمة ابن مرزوق في الإحاطة (ج ٣ ص ١٠٣) والتعريف بابن خلدون (ص ٤٩) ونيل الابتهاج (ص ٢٧٢) والديباج المذهب (ص ٣٠٥) والدرر الكامنة (ج ٣ ص ٤٥٠).

اللّه، ويلقّب من الألقاب المشرقية بشمس الدين. قال أبو الحسن علي بن لسان الدين بن الخطيب في حقّه: سيدي، وسند أبي، فخر المغرب، وبركة الدول، وعَلم الأعلام، ومستخْدم السيوف والأقلام، ومولى أهل المغرب على الإطلاق، أبقاه اللّه تعالى وأمتع بحياته وأعانني على ما يجب في حقّه! قاله تربيته وولده علي ابن المؤلف؛ انتهى، يعني ابن الخطيب.

وقال لسان الدين[1]: هذا الرجل من طُرَف دهره ظَرْفًا وخصوصيّةً ولطافةً، مليحُ التوسّل، حسنُ اللقاء، مبذولُ البِشر، كثيرُ التودُّد، نظيفُ البِزَّة، لطيفُ التأنّي، خَيِّرُ البيت، طَلْقُ الوَجْهِ، خَلُوبُ اللسان، طَيِّبُ الحديث، مُقْدر الألفاظ، عارف بالأبواب، دَرِبٌ على صحبة الملوك والأشراف، مُتَقَاضٍ لإيثار السلاطين والأمراء، يَسْحَرُهُم بخلابة لفظه، ويَفْتِلهم[2] في الذِّرْوَة والغارب بِتَنَزُّله، ويهتدي إلى أغراضهم الكمينة بِحِذْقه، ويصطنع[3] غاشيتهم بتلطُّفه، ممزوجُ الدُّعابة بالوقار والفكاهة بالنُّسك والحِشْمة بالبَسْط، عظيمُ المشاركة لأهل وُدّه، والتعصّب لإخوانه، آلفٌ مألوف، كثير الأتباع والعُلَقِ[4]، مُسَخَّرُ الرقاع في سبيل الوساطة، مُجْدي الجاه، غاصُّ المنزل بالطلبة، مُنْقاد للدعوة، بارعُ الخطِّ أنيقُهُ، عذبُ التّلاوة، متّسع الرواية، مشاركٌ في فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيّد ويؤلّف، فلا يَعْدُو السَّداد في ذلك، فارسُ منبرٍ، غير جَزوع ولا هياب[5]. رحل إلى المشرق في كَنَف حِشْمة من جناب والده، رحمه اللّه تعالى، فحجَّ وجاور ولقي الجِلّة، ثم فارقه وقد عُرِف بالمشرق حقُّهُ، وصَرَفَ وجهه إلى المغرب، فاشتمل عليه السلطان أبو الحسن أميرُه اشتمالاً خَلَطَه بنفسه، وجعله مَفْضَى سِرِّه، وإمام جُمْعته[6]، وخطيب مِنْبره، وأمين رسالته، فَقَدِمَ في غرضها على الأندلس أواخر[7] عام ثمانية[8] وأربعين وسبعمائة، [ولما حالت بالأمير المذكور الحال استقرّ بالأندلس مفلتًا من النكبة،

---

(١) الإحاطة (جـ ٣ ص ١٠٤ ـ ١٠٥).
(٢) يَفْتلهم: يداورهم. لسان العرب (فتل).
(٣) في الإحاطة: «ويصنع».
(٤) العُلَقُ: الذين يتعلقون به ويتبعونه. لسان العرب (علق).
(٥) في الإحاطة: «هيابة».
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٩١): «جُمَعِهِ».
(٧) في الإحاطة: «في أواخر».
(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٨٥): «ثماني» وهو خطأ.

في وسط عام اثنين وخمسين وسبعمائة][1]، [فاجتذبه[2] سلطانها، رحمه الله، وأجراه على تلك الوتيرة فقلّده الخطبة بمسجده في السادس لصفر عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة][3] وأقعده[4] للإقراء بالمدرسة من حضرته، وفي أُخْرَيَات عام أربعة وخمسين[5] صَرَف عنه جفن[6] بِرِّه في أسلوبِ طِماحٍ، ودالّةٍ وسبيل هَوًى وقِحَةٍ، فاغتنم الفترة[7]، وانتهز الفرصة، وأنفذ في الرحيل العَزْمة، وانصرف عزيز الرِّحلة، مغبوط المُنْقلب[8]، فاستقرَّ بباب ملك المغرب، أمير المؤمنين أبي عنان فارس في محلٍّ تجلَّةٍ وبساطِ قُرْب، مُشْترك[9] الجاه، مجدي التوسّط، ناجعُ الشفاعة، والله يتولاّه ويزيده من فضله!

مشيخته . من كتابه المسمى «عُجالة المستوفز المستجاز، في ذكر من سُمع[10] من المشايخ دون من أَجاز، من أئمة المغرب والشام والحجاز»[11]: فممن لقيه بالمدينة المشرّفة على ساكنها الصلاة والسلام الإمام العالم العلاّمة عزّ الدين محمد أبو الحسن بن علي بن إسماعيل الواسطي، صاحب خُطَّتي الإمامة والخطابة بالمسجد الكريم[12] النبوي، وأفرد جزءًا في مناقبه.

ومنهم[13] الشيخ الإمام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجي السعدي العبّادي، تحمّل عن عفيف الدين أبي محمد عبد السلام بن مزروع وأبي اليمن وغيره. والشيخ الإمام خادم الوقت بالمسجد الكريم، ونائب الإمامة والخطابة به، ومُنْشِد الأمداح النبوية هنالك. والشيخ الصالح الثُّقة المعمَّر محيي الدين أبو زكريا يحيىٰ بن

---

(١) ما بين قوسين غير وارد في الإحاطة.
(٢) في الإحاطة: «وأجذبه».
(٣) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٨٥).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «وكان قد أقعده. .».
(٥) في الإحاطة (ص ١٠٥): «وخمسين بعده أطرف عنه جفن برّه. .».
(٦) في طبعة عبد الحميد: «وجه برّه».
(٧) في الإحاطة: «العبرة».
(٨) في الإحاطة: «المنقلب في أوائل شعبان عام أربعة وخمسين وسبعمائة».
(٩) في طبعة عبد الحميد: «مشرك».
(١٠) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٩٢): «من استجازني من. .».
(١١) الإحاطة (ج ٣ ص ١٠٥ ـ ١٠٦).
(١٢) في الإحاطة: «بالمسجد النبوي الكريم».
(١٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٩٢): «والشيخ» بدل «ومنهم الشيخ».

محمد المغراوي التونسي سمع ابن حامل والتوزري. والشيخ نور الدين أبو الحسن علي بن محمد الحجار الفراش بحرم رسول اللّٰه والوقاد به، وكان مقصودًا من كل قُطر. والشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الصنعاني نائب القضاء بالمدينة. والشيخ الإمام قاضي القضاة بالمدينة شرف الدين ابن محرز الإخميمي بن الأسيوطي. والشيخ الصالح عز الدين خالد بن عبد الله الطواشي. والشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد اللّٰه المعيشي، سمع ابن مزروع البصري وغيره. والشيخ بهاء الدين موسى بن سلامة الشافعي المصري، الخطيب بالمسجد الكريم بها. والشيخ الخطيب أبو طلحة الزبير بن أبي صعصعة الأسواني. والشيخ عفيف الدين المطري. والشيخ الأديب أبو البركات أيمن بن محمد بن محمد، إلى أربعة عشر، ابن أيمن، التونسي، المجاور. والشيخ أبو محمد عبد اللّٰه بن محمد بن فرحون، اليعمري، التونسي، المجاور. والشيخ أبو فارس عبد العزيز بن عبد الواحد بن أبي ركبون التونسي، وقرأ بها على أبيه القرآن العظيم، قال: وكانت قراءتي عليه بالمدينة عند قبره عليه الصلاة والسلام.

وبمكة شرّفها اللّٰه تعالى الشيخ المعمّر الثقة شرف الدين أبو عبد اللّٰه عيسى بن عبد اللّٰه، الحجبي[1]، المكي، المتوفَّى وقد قارب المائة. والشيخ زين الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد اللّٰه بن محمد بن أبي بكر، الطبري، المكي. والشيخ الصالح شرف الدين خضر بن عبد الرحمن، العجمي. وشيخ شيوخ رباط الأعاجم حيدر بن عبد اللّٰه، المقرىء[2]. والشيخ مقرىء الحرم برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الأيلي[3] المصري. والشيخ مصلح الدين الحسن بن عبد اللّٰه العجمي. والإمام الصالح أبو الصفاء خليل بن عبد اللّٰه، القسطلاني، التوزري. والشيخ الإمام الصالح أبو محمد عبد اللّٰه بن أسعد، الشافعي، الحجّة، انتهت إليه الرياسة العلمية والخُطط الشرعية بالحرم. والشيخ فخر الدين عثمان بن أبي بكر، النويري، المالكي. والشيخ الإمام المدرس بالحرم شهاب الدين أحمد بن الحرازي، اليمني. والشيخ قاضي القضاة نجم الدين محمد بن جمال الدين بن عبد اللّٰه بن المحب الطبري. والشيخ جلال الدين أبو عبد اللّٰه محمد بن أحمد بن براجين، القُشَيري، التلمساني، وقرأ بها على أبيه وألبسه بها الخرقة. والشيخ الملك شرف

---

(١) في الإحاطة: «الحجي».

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٨٦): «المقري».

(٣) في الإحاطة (ص ١٠٦): «الآبلي».

الدين عيسى بن محمد بن أبي بكر بن أيوب. والشيخة فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن أيوب. والشيخة فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري، المكية. والشيخ أبو الربيع سليمان بن يحيىٰ بن سلمان، المراكشي، السفاح. والشيخ قاضي القضاة وخطيب الخطباء عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة، الكِناني، قاضي القضاة بالديار المصرية[1].

وبمصر الشيخ علاء الدين القُونَوي. والتّقي السعدي. وقاضي القضاة القَزْويني، وهو شهير الذكر، رفيع القدر. وقاضي القضاة البرهان الحنفي. والشرف أقضى القضاة الإخميمي. والشيخ المحدّث المسند البدر محمد بن محمد الفارقي. والقطب الحافظ أبو محمد بن منير. والشهاب أحمد الجوهري الحلبي. والمعمر الشرف يحيىٰ المقدسي بن المصري. والشيخ محسن القرشي. والشهاب الحنبلي. وفتح الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن يحيىٰ بن سيد الناس، اليعمري. والشيخ المسند شمس الدين أبو بكر بن سيد الناس أخوه. والإمام أبو حيان. والمؤرخ[2] النسابة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن علي[3] بن حاتم بن خليش، الزبيري، المصري، يبلغ شيوخه نحوًا من ألفي شيخ. والشيخ الشمس بن عدلان. والشهاب البوشي المالكي. والشيخ المتصوّف تاج الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن ثعلب، المصري، مدرس المالكية. والشمس ابن كنشفري[4]، الخطابي، الصيرفي. والعماد ابن المنجم الدمياطي. والتاج الأشعري. والتقي الثعلبي. والفتح بن عبد القوي. والشمس الورجمي. والتقي الأشموني. والعلامة التقي السبكي. والمعروف ابن بنت الشاذلي. وأبو الحسن التميمي. والبرهان الخيمي. والشمس الأسواني. والبرهان الحكري. والشمس ابن جابر الوادي آشي. وأبو محمد عبد الكريم الطوسي. وأبو فارس الزروالي التونسي. وصالح بن عبد العظيم بن يونس. وأبو عبد اللّه بن القماح. والتاج التبريزي. والشيخ محمود الأصبهاني والشرف المقيلي[5]. والبرهان السفاقسي.

---

(١) في الإحاطة: «قاضي القضاة بمصر».
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٣٩٤): «والحافظ النسابة».
(٣) في طبعة دار صادر: «طي ابن حاتم بن خيش الزبيري..».
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٨٧): «كتشفري».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «المقيلي».

ومن النساء الشيخة المسندة ست الفقهاء فاطمة بنت محمد الفيومي البكري.

وبيلبيس أسد الدين يوسف بن داود الأيوبي، من أبناء الملوك.

ومن الشاميين بالمقدس علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب، وخطيب القدس النور ابن الصائغ المقدسي، ومحمد بن علي بن مثبت الأندلسي، والبرهان الجعبري إمام الخليل.

ومن أهل دمشق البرهان بن الفركاح، والشمس بن مسلم قاضي الحنابلة.

وبالإسكندرية أحمد المرادي بن العشاب، وأبو القاسم بن علي بن البراء، والناصر بن المنير.

وبطرابلس الخطيب أبو محمد جابر بن عبد الغفار.

وبتونس الزبيدي، والقاضي ابن عبد الرفيع، والقاضي ابن عبد السلام، وابن راشد، وأبو موسى هارون[١]، والمحدّث أبو عبد اللّه التلمساني، والحافظ أبو زكريا يحيىٰ بن عصفور التلمساني نزيل تونس، وأبو محمد بن سعد اللّه بن أبي القاسم بن البراء.

وببلاد الجريد الشيخ الخطيب أبو عبد الملك بن حيون.

وبالزاب ابن أبي، والشيخ أبو محمد بن راشد.

وببجاية الإمام النظار المجتهد أبو علي ناصر الدين المشدّالي[٢]، والحافظ فقيه زمانه أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن يللبخت[٣] الزواوي، والشيخ الفقيه أبو عبد اللّه الخطيب المسفر، وغيرهم[٤].

وبتلمسان الشيخان الإمامان ابنا الإمام، وقاضي القضاة بها أبو عبد اللّه بن هدية، والخطيب[٥] أبو محمد المجاصي، والشريف أبو علي حسن بن يوسف بن يحيىٰ الحسني، والشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي، المعروف بابن إسحاق، الخياط وغيرهم.

---

(١) كلمة «هارون» سقطت من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٨٨).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «المشذالي».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «بالبخت».

(٤) كلمة «وغيرهم» سقطت من طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٩٥).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «والخيب».

محنته[1]. اقتضى الخوض الواقع بين يدي تأميل الأمير أبي الحسن رحمه اللّه تعالى عودَةَ[2] الأمر إليه وقد ألقاه اليمُّ إلى الساحل بمدينة الجزائر أن قبض عليه بتلمسان أمراؤها المتوثبون عليها في هذه الفترة من بني زَيَّان، إرضاءً لقبيلهم المتّهم بمداخلته، وقد رحل عنهم دسيسًا من أميرهم عثمان بن يحيىٰ[3]، فصرف مأخوذًا عليه طريقه، مُنْتَهبًا رَحْلُه، مُنْتَهكة حُرْمَتُه، وأُسكن قرارة مُطْبق عميق القعر، مُقْفل المَسْلَك، حريز القفل، ثاني اثنين؛ انتهى ملخصًا.

ورأيت بخطِّ ابن مرزوق على قوله «وقد رحل عنهم دسيسًا ـ إلى آخره» ما نصُّه: لم أرحل عنهم إلاّ بإذنهم، واقتراحهم عليّ في الإصلاح بينهم، لكنهم غدروا تقية على أنفسهم، قاله ابن مرزوق، انتهى. وكتب تحته ولدُ ابنِ الخطيب ما صورته: نعم ما ترى[4]: [الوافر] وعند اللّه تجتمع الخصومُ.

انتهى.

رجع إلى كلام لسان الدين في حقِّه. قال بعد الكلام السابق ما ملخصه[5]: ولأيامٍ قُتل ثانيهِ ذبحًا[6] بمقربة من شفا تلك الرّكيّة، وانقطع أثره[7]، وأيقن الناس بفوات الأمر فيه، ولزمان من محنته ظهرت عليه بركة سَلَفِهِ في خبر ينظر بطرفه إلى الكرامة فنجا ولا تَسَلْ كيف، وخلَّصه اللّه خلاصًا جميلاً، وقَدِمَ على الأندلس، واللّه ينفعه بنيّته[8]؛ انتهى.

وكتب ابنُ مرزوق على هذا المحلّ ما نصُّه: لم يكن المقتولُ ـ حين قُتل ـ معي، ولا قُتل ذبحًا، قاله ابن مرزوق؛ انتهى. وكتب بعضُ علماء مصر تحته ما نصُّه: هذه دعوى، والمؤرخ أعرف، انتهى، فكتب آخر بعد هذا ما نصّه: أتخبرني عني؟ انتهى.

---

(١) الإحاطة (جـ ٣ ص ١٠٦).
(٢) في الإحاطة: «وتوقّع عودة... اليمُّ بالساحل..».
(٣) في الإحاطة: «عثمان بن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن يَغْمَراسن».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٨٩): «نعم ماتوا».
(٥) الإحاطة (جـ ٣ ص ١٠٦).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٨٩): «ذبحًا، كان بمقربة».
(٧) في الإحاطة: «وانقطع لشدّة الثّقاف أثره».
(٨) في الإحاطة: «بمحنته».

رجع . ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره ما صورته[1]: ركب مع السلطان بخارج[2] الحمراء أيام ضربت اللوز قبابَها البيض، وزيّنت الفَحْص العريض، والروض الأريض[3]، فارتجل في ذلك: [الكامل]

اُنْظُرْ إلى النُّوّار في أغصانه	يحكي النجومَ إذا تَبَدَّتْ في الحَلَكْ
حيًّا أميرَ المسلمينَ وقال: قد	عَمِيَتْ بصيرةُ من بغيرك مَثَّلَكْ[4]
يا يوسفًا حُزتَ الجمالَ بأسره	فمحاسنُ الأيام تُومِي هَيْتَ لَكْ[5]
أنت الذي صَعِدَتْ به أوصافُه	فيقالُ فيه: ذا مليكٌ أو مَلَكْ[6]

إلى أن قال[7]: ومن الشعر المنسوب إلى محاسنه ما أُنشد عنه وبين يديه ليلة[8] الميلاد المعظم من[9] عام ثلاثة وستين وسبعمائة: [مجزوء الرجز]

قُلْ[10] لنسيم السَّحَرِ	لِلّه بَلِّغ خَبَري
إن أنتَ يومًا بالحِمى	جررتَ فضلَ المئزر
ثم حثثتَ الخطو من	فوقِ الكثيب الأعفَر
مُسْتقرِيًا في عُشْبِهِ	مخفيَّ[11] وَطْءِ المَطَر
تروي عن الضحاك في الـ	ـروض حديثَ الزَّهَر
مُخَلَّقَ الأذيال بالـ	ـعبيرِ أو بالعنبر

---

(١) الإحاطة (جـ ٣ ص ١٠٧).

(٢) في الإحاطة: «خارج».

(٣) الأريض: الكثير العشب. لسان العرب (أرض).

(٤) مَثَّلَك: زعم أنّ لك مثيلاً. لسان العرب (مثل).

(٥) هيت لك: اسم فعل أمر بمعنى هلمّ وتعال؛ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وقالتْ هَيْتَ لكَ﴾. سورة يوسف ١٢، الآية ٢٣.

(٦) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿فلمّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أيديَهُنَّ وقُلْنَ حاشا للّه ما هذا بَشَرًا إنَّ هذا إلاّ مَلَكٌ كريمٌ﴾. سورة يوسف ١٢، الآية ٣١.

(٧) الإحاطة (جـ ٣ ص ١١١ ـ ١١٦).

(٨) في الإحاطة: «في ليلة».

(٩) كلمة «من» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٩٠).

(١٠) في الإحاطة: «أيا نسيم».

(١١) في الإحاطة: «خفيّ».

وصِفْ لجيرانِ الحِمَى وجْدي بهم وسَهَري

وحَقِّهم ما غيّرتْ وُدّي صروفُ الغِيَرِ

للّه عهدٌ فيه قضَّيتُ حميدَ الأثر

أيامُهُ هي التي أَحْسُبُها من عُمُري

ويا لليلٍ فيه ما عِيبَ بغيرِ القِصَرِ

الـ سرُّ فَيْنانٌ ووجـ ـهُ الدهرِ طَلْقُ الغُرَرِ

والشَّملُ بالأحباب منـ ـظومٌ كنظم الدُّرَرِ

صفوٌ من العيش بلا شائبةٍ من كَدَرِ

ما بينَ أهلٍ تَقْطِف الـ أنسَ جنيَّ الثمر

وبين آمالٍ تُبيـ ـحُ القُرْب صافي الغُدُرِ[1]

يا شجراتِ الحيّ حَيّـ ـاك الْحَيا من شجر

إذا أجال الشوقُ في تلك المغاني فِكَري

خَرَّجتِ من خدِّي حديـ ـثَ الدمع فوق الطُّرر

وقلتِ يا خدُّ أرْوِ مِنْ دَمْعي صحاحَ الجوهري[2]

عهدي بحادي[3] الرَّكب كالـ ـورقاءِ عند السَّحَرِ

والعِيسُ تجتاب الفلا واليَعْمَلاتُ[4] تَنْبَري

تخبطُ بالأخفافِ مظـ ـلومَ البَرَى وهو بَري[5]

قد عطفت عن مَيَدٍ والتفتتْ[6] عن حَوَرِ

قِسيُّ سَيْرٍ[7] ما سوى الـ ـعزم لها مِنْ وَتَر

---

(١) الغُدُرُ: جمع غدير. لسان العرب (غدر).

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٣٩١): «الجوهر».

(٣) حادي الركب: الذي يحدو للإبل لتنشط في سَيْرها. لسان العرب (حدا).

(٤) اليَعْمَلاتُ: جمع يَعْلَمَة وهي الناقة النجيبة المعتملة المطبوعة على العمل. تنبري: تعترض، أي إنها تباري الإبل في سرعة سيرها. محيط المحيط (عمل) و (برى).

(٥) البَرَى، بالفتح: التراب. بري: أي بريء، فسهّل الهمزة. لسان العرب (برى) و (برأ).

(٦) في الإحاطة (ص ١١٢): «والتفَّت».

(٧) يشبه الإبل الهزيلة السريعة بالقسيّ.

حتى إذا الأعلامُ حَلَّتْ[1] لحفيِّ البشر

واستبشرَ النازحُ بالـ	قرب ونَيْلِ الوَطَرِ
وعيّنَ الميقاتُ للسَّـ	فرِ[2] نجاحَ السَّفَرِ
فالناسُ بين مُحْرِمٍ	بالحجِّ أو مُعْتَمِر
لَبَّيْكَ لبيك إلـ	ـه الخلقِ بَارِي الصُّور
ولاحتِ الكعبةُ بيـ	ـتُ اللَّه ذاتُ الأَثَر
مقامُ إبراهيم والـ	ـمأمنُ عند الذُّعُرِ
واغتنمَ القومُ طَوا	فَ القادم المُبْتَدر[3]
وأعقبوا ركعتَي السَّـ	ـعي استلامَ الحَجَرِ
وعرّفوا في عَرَفا	تِ كلَّ عَرْفٍ أذْفَرِ[4]
ثم أفاضَ الناسُ سعـ	ـيًا في غدٍ لِلمَشْعَرِ[5]
فوقَفُوا وكبّروا	قبل الصباحِ المُسْفر
وفي مِنًى نالوا المُنَى	وأيقنوا بالظَّفَرِ
وبعد رَمْي الجَمَرا	تِ كان حَلْقُ الشَّعَرِ
أكرمْ بذاك السَّفْرِ والـ	لَّه وذاك السَّفَرِ[6]
يا فَوْزَهُ من مَوْقفٍ	يا رُبْحَهُ مِنْ مَتْجَرِ
حتى إذا كان الودا	عُ وطَوافُ الصَّدَرِ[7]
فأيّ صبرٍ لم يَخُنْ	أو جَلَدٍ لم يَغْدُرِ[8]

---

(١) في الإحاطة: «خلِسَتْ».

(٢) السَّفْرُ: المسافرون. لسان العرب (سفر).

(٣) المبتدر: المسرع إلى عمل شيء، وأراد: طواف القدوم. لسان العرب (بدر).

(٤) الأذفر: الطيب الرائحة. لسان العرب (ذفر).

(٥) المَشْعَرُ: موضع مناسك الحجّ. محيط المحيط (شعر).

(٦) في الإحاطة (ص ١١٣): «أكرمْ بذاك الصحب.. النفر».

(٧) الصَّدَرُ: الرجوع، وطواف الصدر هو الطواف الذي يكون آخر أعمال الحجّ، سمّي بذلك لأنهم يعودون بعده إلى بلادهم.

(٨) يقول: إنهم جزعوا لمفارقة مكة.

وأيُّ وَجْدٍ لم يَصُل[1] وسَلْوةٍ لم تُهْجَرِ
ما أفجعَ البينَ لقلْـ ـبِ الواله المُسْتَعبر[2]
ثم ثَنَوا نحو رسو لِ اللّهِ سَيْرَ الضُمَّرِ
فعاينوا في طَيبَةٍ لألاءَ نورٍ نَيِّرِ
زاروا[3] رسول اللّه واسْـ ـتَشْفَوا بلثم الجُدُرِ
نالوا به ما أمَّلُوا وعَرَّجُوا في الأثر
على الضَّجيعين أبي بكر الرِّضا وعُمَرِ
زيارةُ الهادي الشّفيـ ـع جُنَّةٌ[4] في المَحْشَر
فأحْسَنَ اللّه عزا ءَ قاصدٍ لم يَزُرِ
رَبْعٌ ترى مُسْتنزلَ[5] الـ آي به والسُّوَرِ
وملتقى جبريل بالـ ـهادي الزّكيِّ العُنْصرِ[6]
وروضة الجنّة بـ ـينَ روضةٍ ومِنْبرِ
مُنْتَخَب اللّه ومُخْـ ـتارُ الوَرَى مِنْ مُضَرِ
والمُنْتَقَى والكونُ من ملابسِ الخلق عَرِي
إذ لم يكنْ في أُفُقٍ من زُحلٍ ومُشْتري[7]
ذو المعجزات الغُرِّ أمـ ـثالِ النجوم الزُّهُرِ
يَشْهَدُ بالصِّدق له منها انشقاقُ القمرِ[8]
والضَّبُّ والظَّبْي إلى نُطْقِ الحَصَى والشَّجر
من أطعم الألفَ بصا عٍ في صحيح الخبر

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٣٩٩): «لم يَطِز».
(٢) في الإحاطة: «المستغفر».
(٣) في طبعة دار صادر: «رأوا».
(٤) الجُنَّة، بضم الجيم: الوقاية. لسان العرب (جنن).
(٥) مستنزل الآي: الموضع الذي نزل فيه القرآن الكريم على النبي ﷺ.
(٦) أراد بالزكي العنصر: النبي ﷺ.
(٧) في الإحاطة: «أو مشترٍ».
(٨) انشقاق القمر من معجزات النبي، ﷺ؛ قال اللّه تعالى: ﴿اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ﴾. سورة القمر ٥٤، الآية ١.

والجيشَ روّاه بما ... ءِ الراحةِ المُنهمر
يا نكتةَ الكون التي ... فاتتْ مَنالَ الفِكَرِ[1]
يا حجّةَ اللّه على الـ ... ـرائحِ والمبتكر
يا أكرمَ الرُّسُل على الـ ... ـلّه وخيرَ البَشَرِ
يا من له التقدُّمُ الـ ... ـحقُّ على[2] التأخُّر
يا من لدى مولده ... المُقَدّسِ المطَهَّرِ
إيوانُ كسرى ارتجَّ إذ ... ضاءتْ[3] قصورُ قيصر
ومَوْقدُ النار طفي ... كأنه لم يُسْعرِ[4]
يا عمدتي يا ملجئي ... يا مَفْزعي يا وَزَري
يا من له اللواء والـ ... ـحوْضُ ووِرْدُ الكَوثرِ
يا منقذَ الغَرْقى وهم ... رَهْنُ العذابِ الأكبر
إن لم تحقِّقْ أملي ... بُؤْتُ بسَعْي المُخْسِرِ
صلّى عليك اللّه يا ... ثِمالَ[5] كلِّ مُعْسر
صلّى عليك اللّه يا ... نورَ الدُّجى المُعْتَكر[6]
يا ويحَ نفسي كم أرى ... في غَفْلَةٍ من عُمْري[7]
واحسرتي[8] مِن قلة الـ ... ـزاد وبُعْد السفر
يحجّني واللّه بالـ ... ـبرهان وعظُ المنبر
يا حسنها من خُطبٍ ... لو حرّكتْ من نظري[9]
يا حُسْنها من شَجر ... لو أورقتْ من ثمر

---

(١) الفِكَر، جمع فكرة، وأراد العقول. وقوله: فاتت منال الفكر: أي عجز المفكرون عن إدراك حقيقته.

(٢) على: بمعنى «مع»؛ يقول: إنه، مع تأخره الزمني، متقدمٌ القدر.

(٣) في الإحاطة (ص ١١٤): «ضاقت».

(٤) في الإحاطة: «لم تُسْعر».

(٥) الثِّمال، بكسر الثاء: الملجأ والموئل. لسان العرب (ثمل).

(٦) الدجى المعتكر: المُظْلم. لسان العرب (عكر).

(٧) في الإحاطة: «من غفلتي في عُمُر».

(٨) في الإحاطة: «واحسروا».

(٩) في الإحاطة (ص ١١٥): «نظرِ».

أؤمّـلُ الأوبـةَ والـ أمـرُ بـكـفْ الـقَـدَر
أُسـوِّفُ الـعـزمَ بـه مـن شَـهَـرٍ لـشـهـر
مِـنْ صَـفَـرٍ لـرجـبٍ، مـن رجـبٍ لـصـفـر
ضَيَّعْتُ في الكَبْرَة ما أعدَدْتُه في صغري[1]
ولـيس مـا مَرَّ من الـ أيـام بـالـمـنـتـظـر
وقـلّـمـا أن حُـمِـدَتْ سـلامـةٌ فـي غَـرَرِ
ولـي غـريـمٌ لا يَـنـي فـي طَـلَـبِ الـمُـنْـكَـسِرِ
يـا نـفـسُ جِدِّي قـد بـدا الـصبـحُ ألاَ فـاعـتـبـري
واتّـعـظـي بـمـن مـضـى وارتـدعـي وازدجـري
ما بعد شَيْبِ الفَوْد مِنْ مُـرْتَـقَـبٍ فـشـمِّـري
أنتِ وإن طال المدى فـي قُـلْـعَـةٍ وسَـفَـرِ[2]
ولـيـس مـن عُـذر يُـقـيـ ـم حُـجَّـةَ الـمُـعْـتَـذِر
يا ليت شعري والمُنى تَـسْـرِقُ طيـبَ الـعُـمُـر
هـل أرتـجـي مـن عـودةٍ أو رجـعـةٍ أو صَـدَرِ
فـأُبْـرِّدَ الـغُـلَّـةَ مـن ذاك الزُّلاَلِ الْـخَـصِرِ[3]
مـقـتـديًـا بـمـن مَـضَـى مـن سَـلَـفٍ ومَـعْـشـر
نـالـوا جـوارَ الـلّـه وهـ ـو الـفَـخْـرُ لـلـمُـفْـتـخر
أرجـو بـإبـراهـيـم مـو لانـا بـلـوغَ الـوَطَـر
فـوعـده لا يَـمْـتَـرِي في الصدق منه مُمْتَرِي[4]
وهو[5] الإمام المرتضى والـخـيِّـر ابـن الـخـيِّـر
أكـرمُ مـن نـال الـعُـلا[6] بـالـمُـزْهـفـاتِ الـبُـتُّـر

(١) في الإحاطة: «صغر».
(٢) في الإحاطة: «أو سفر». والقُلْعة: الانتقال. لسان العرب (قلع).
(٣) الخَصِرُ: العذب البارد. لسان العرب (خصر).
(٤) في الإحاطة (ص ١١٦): «المُمْتَرِ». وامترى في الشيء: شكّ فيه. محيط المحيط (مرى).
(٥) في الإحاطة: «فهو».
(٦) في الإحاطة: «العلا».

مُمَهِّدُ المـلـك وسيـ ... فُ الحقِّ والليثُ الجري

خـلـيـفـةُ الـلّـه الـذي ... فـاقَ بـحـسـنِ الـسِّـيَـر

وكان منه الخُبْرُ في الـ ... عـلـيـاءِ وَفْـقَ الـخَـبَـرِ

فـصدَّق الـتـصـديـقُ من ... مـرآه لـلـتَّـصـور

ومـسـتـعـيـنُ الـلّـه فـي ... وِرْدِ لـه وصَـدَرِ

فاقَ الملوكَ الصِّيدَا بالـ ... مجدِ الـرفـيـع الـخـطـر

فـأصـبـحـتْ ألـقـابُـهـم ... مَـنْـسِـيَّـةً لـم تُـذْكـر

وحـاز مـنـه[1] أوحـدٌ ... وَصْـفَ الـعـديـد الأكـثـر

بـرأيـه الـمـأمـون أو ... عـسـكـره الـمـظـفَّـر

بـسـيـفـه الـسـفّـاح أو ... بـعـزمـه الـمُـقْـتَـدِرِ[2]

بـالـعَـلَـم الـمـنـصـور أو ... بـالـذابـل الـمـنـتـصـر[3]

يا ابنَ الإمام الطاهر البَـ ... ـرِّ الـزكـيِّ الـسِّـيَـر

مَـدْحُـكَ قد عَـلَّـمَ نَـظْـ ... ـم الشِّعْر من لم يَشْعر

جَهْدُ المُقِلِّ اليومَ من ... مثلي كَوُسْعِ المُكْثر

فـإنْ يُـقَـصِّـرْ ظـاهـري ... فلم يقصِّرْ مُضْمري[4]

قلت: قول لسان الدين في حقّ هذه القصيدة[5] «إنها من الشعر المنسوب إلى محاسنه» تعويضٌ خفي بأنّ هذه القصيدة يحتمل أن تكون قيلت على لسانه حسبما جرت بذلك عادة الأكابر والرؤساء أن يُنْسب إليهم ما ليس من كلامهم في نفس الأمر، وليس الواقع عندي كذلك؛ لأنَّ باعَ ابن مرزوق في النظم والنثر مديد، فأنّى يقصر عن هذا القصيد؟ ومن يصدر منه على البديهة قوله: [الكامل]

أُنظرْ إلى النوّار في أغصانِهِ

---

(١) في الإحاطة: «منهم».
(٢) في هذا البيت والبيت التالي تورية بأسماء بعض الخلفاء.
(٣) في الإحاطة: «المستنصر».
(٤) في الإحاطة: «مضمرِ».
(٥) الإحاطة (ج ٣ ص ١١١).

الأبيات السابقة في اللوز. لا يُستَغرب منه مثل هذا، ولذا كتب ابن لسان الدين على قول والده «من الشعر المنسوب إلى محاسنه» ما صورتُه: حضرت إنشاءها وإنشادها ليلة الميلاد الشريف في التاريخ المذكور، واستحسنها شعراء العُدْوَتين، وهي مِمَّا لا ينكر[1] على مدارك سيدي أبي عبد اللّه ورسوخه في علم النظم والنثر، قاله علي بن الخطيب؛ انتهى.

وكتب بعضهم على قوله في هذه القصيدة: [مجزوء الرجز]

أيـامـه هـي الـتـي أعُـدُّهـا مـن عُـمُـري

ما نصُّه: ولَّت واللّه، انتهى، فكتب ابن مرزوق بعده ما نصّه: لكنها بدلت بخير منها والحمد للّه، وحصلت الخاتمة ببركة رسول اللّه، ﷺ، تسليمًا؛ انتهى.

وكتب ابن لسان الدي على قوله:

وقـلّـمـا أن حُـمِـدَتْ سَـلاَمَـةٌ فـي غَـرَرِ[2]

ما نصُّه: كذلك كان، وليت والدي رحمه اللّه تعالى كذلك؛ انتهى.

وكتب على قوله «برأيه المأمون ـ إلخ» ما نصُّه: لو كان له رأي مأمون ما نزل على قلعة الملك لسكنى القصبة بدخيلة طَلَب الراحة، فَضُربت عنقه، وكانت الراحة منه؛ انتهى.

وكتب بعضٌ إثر هذا ما صورتُه: القدر لا يغالَبُ، الحذَرُ ينفع ما لم يأتك القدر، فإذا أتى قدر، لم ينفع حذر؛ انتهى.

وكتب ابن لسان الدين على قوله «فلم يقصر مضمري» ما صورته: صدق واللّه؛ انتهى.

ثم قال لسان الدين[3]: ووردتُ باب[4] السلطان الكبير أبي عنان، فَبَلَوْتُ من مشاركته وحميد سعيه ما يليق بمثله، ولمّا نَكَبَه لم أُقصِّرْ عن ممكن حيلة في أمره. فلما[5]

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ص ٣٩٧): «تنكر».

(٢) الغَرَرُ؛ بالفتح: التعريض للهلاك. لسان العرب (غرر).

(٣) الإحاطة (جـ ٣ ص ١١٧ ـ ١١٨).

(٤) في الإحاطة: «على باب».

(٥) في الإحاطة: «ولمّا».

هلك السلطان أبو عنان وصار الأمر لأخيه المتلاحق من الأندلس أبي سالم بعد الولد المسمّى بالسعيد كان ممّن دانت[1] له الطاعة، وأناخ راحلة المُلْك، وحَلَب ضَرْع الدولة[2]، وخطب عروس الموهبة، فأنْشَبَ ظُفره في متاتٍ معقود من لَدُن الأب، مشدود من لدن التقرب[3]، فاستحكم عن قُرْب، واستغلظ عن كَثَب، فاستولى على أمره، وخَلَطَه بنفسه، ولم يستأثر عنه ببثّه، ولا انفرد بما سوى بضع أهله، بحيث لا يَقْطَعُ في شيء إلاّ عن رأيه[4]، ولا يَمْحو ويُثْبِت إلاّ واقفًا عند حدِّه، فغشيت بابَهُ الوفود، وصُرفت إليه الوُجُوه ووُقِفَتْ عليه الآمال، وخدمته الأشراف، وجُلبت إلى سُدَّته بضائع العقول والأموال، وهادته الملوك، فلا تحدو[5] الحُداة إلاّ إليه، ولا تحطُّ الرِّحال إلاّ لديه، إن حَضَرَ أجرى الرسم، وأنْفذ الأمر والنَّهي، لحظًا أو سِرارًا أو مكاتبةً، وإن غاب ترددت الرِّقاع، واختلفت الرُّسل، ثم انفرد أخيرًا ببيت الخَلْوة ومُنْتَبَذ المناجاة من دونه مُصْطَفُّ[6] الوزراء، وغايات الحُجّاب، فإذا انصرف تَبِعَتْهُ الدنيا، وسارت بين يديه الوزراء، ووقفت ببابه الأمراء، قد وَسِعَ الكلَّ لحظُه، وشَمِلَهُم بحسب الرُّتب والأحوال رَعْيُه، ووسم أفذاذهم تسويدُه، وعُقدت ببنان عِلْيتهم بَنانُه. لكن رضا الناس الغايَةُ[7] التي لا تُدْرك، والحسد[8] بين بني آدم قديم، وقَبيلُ الملك مبايِنٌ لمثله، فطُويت الجوانح[9] على سُل، وحُنيت الضلوع على بَثّ، وأُغمضت[10] الجفون على قَذّى، إلى أن كان من نكبته الثالثة ما هو معروف، جعلها اللّه له طهورًا. ولَمَّا جرتِ الحادثةُ على الدولة[11] بالأندلس، وكان لحاقُ جميعنا بالمغرب، جنيتُ ثمرة ما أسلفْتُه من وُدِّه، فوفّى الكيل[12]، وأشركَ في الجاه، وأدرَّ الرِّزْق، ورفع المجلس، بعد

---

(١) في الإحاطة: «ممن دَمُثَ».
(٢) في الإحاطة: «الدعوة».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٠٤): «القرابة». وفي الإحاطة: «القربة».
(٤) في طبعة دار صادر: «شيء إلاّ به وعن رأيه».
(٥) لا تحدو الحداة إلاّ إليه: لا تشدُّ الرحال إلاّ إليه.
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٠٤): «معصّب».
(٧) في الإحاطة: «غاية لا تُدرك».
(٨) في الإحاطة (ص ١١٨): «والحقد».
(٩) في الإحاطة: «الجوانح منه على..».
(١٠) في طبعة دار صادر: «وأُغضِيَتْ».
(١١) في الإحاطة: «على السلطان بالأندلس».
(١٢) في الإحاطة: «كيل الوفاء..».

التسبّب[1] في الخلاص والسّعي في الجبر، جَبَرَهُ اللَّهُ تعالى، وكان له أحوج ما يكون إلى ذلك ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ إلاَّ مَنْ أتى اللَّهَ بِقَلْبٍ سليم ﴾[2] انتهى.

وكتب ابن لسان الدين على هذا المحلّ ما صورتُه: هذا لسان أبي عليه في الغيبة والحضور؛ انتهى.

ومِمّا خاطبه به لسان الدين مهنّئًا من طريق القدوم على الأبواب المرينية، مفلتًا من البلية بشفاعته، ما نصُّه: سيدي الذي إليه انقطاعي وانحياشي، وملاذي[3] ومَلْجئي الذي يَسَّر خلاصي وسَنَّى انتياشي [4]، ومُنْعمي الذي جبر جناحي وأنبت رياشي، ومولى هذا الصنف العلمي ولا أُحاشي، كتبه صنيعُ نعمتكم الخالصة الحرة، ومستَرَقّ فضلكم الذي تألّقت منه في ليل الخطوب الغرة، ابن الخطيب لطف اللّه به من كذا، وقد شدَّ إلى إبلاغ النفس عذرها في مباشرة تقبيل اليد التي لها اليد العظمى، والسجيّة الرُّحْمَى، فلكم طوقت من نعمي، وجبال النعم قد أثقلت الظهر، واستغرقت السِّرَّ والجهر، فبأي لسان أو بأي بنان، ولا أثر بعد عيان، تقابل نعمة[5] تداركت الرمق وقد أشفى[6]، وأبقت الذَّماء[7] والشروع في استئصالها لا يخفى، فيا لك من فَرْد هزم ألفًا، ووعد نصر لم يعرف خُلْفا، ونيّة خلصت تبتغي إلى اللّه زُلْفى، لقد صدع بها مولاي غريبة في الزمن، بالغًا حسن صنيعها صنعاء اليمن، مترفّعة عن الثمن، وإن لم يقم بها مثله وإلاَّ[8] فَمَنْ، فليهن سيدي ما ذاع لمجده بها من فخر، وما قدم يوم تزلُّ الأقدامُ من ذُخر، وما جلب للمقام المولوي الإبراهيمي من طيب ذكر، واستفاضة حمد وشكر، لقد أُرتهن دعاء الحافي والناعل، والدالُّ على الخير شريك الفاعل، والذي أحيا النفس جدير برد جِدَّتها[9]، وإنجاز عِدَتها، وأنا قد قويت بجاهكم وإن كنت ضعيفًا، واستشعرت سعدًا جديدًا وقدرًا منيفًا، وأيقنت أنّ اللّه،

---

(١) في الإحاطة: «التسبيب».

(٢) سورة الشعراء ٢٦، الآيتان ٨٨، ٨٩.

(٣) كلمة «وملاذي» سقطت من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٣٩٩).

(٤) انتياشي: إنقاذي. لسان العرب (نشا).

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٠٠): «نعم».

(٦) أشفى: أشرف، وأراد أشرف على الهلاك. لسان العرب (شفا).

(٧) الذَّماء، بفتح الذال: بقية الروح في البدن. لسان العرب (ذمى).

(٨) كلمة «وإلاّ» سقطت من طبعة عبد الحميد.

(٩) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٠٦): «عدّتها». والجِدَةُ: الغنى، والقدرة. محيط المحيط (وجد).

عزَّ وجلَّ، كان بي لطيفًا، إذ هيأ لي من رحمة ذلك المقام المولوي على يدكم نصرًا عزيزًا، وبوّأني من جاهه حرزًا حريزًا، وقد استأسدت الأعداء، وأعضل الداء، وأعمل الاعتداء، وعزّ الفداء، فانفرج الضيق، وتيسّرت للخير الطريق، وساغ الريق، ونجا الغريق، غريبة لا تمثل إلاّ في الحلم، ولطيفة فيها اعتبار لأولي العلم، اللهمّ جاز سيدي في نفسه وولده، وحاله[1] وبلده، ومَعَاده بعد طول عمره وانفساح أمَدِه، وكن له نصيرًا أحوج ما يكون إلى نصر، واجعل له سعة من كلّ حضر، واقْصُر عليه جاه كلّ قصر، كما جعلت ذاته فوق كلّ ذات وعصره فوق كل عصر. وليعلم سيدي أنّ من أراد بي منافسة وحسدًا، وزأر عليّ أسدًا، لما استقلّ على الكرسي جسدًا، من غير ذنب تبين، ولا حدّ تعين، أصابه من خلاصي المقيم المقعد، ووعد النفس بأمل أخلف منه الموعد، لما استنقذني اللّه برحمته من بين ظفره ونابه، وغطاني بستر جنانه، وكثرني في العيون على قلّة، وأعزني بعزّ نصره على حال ذلّة، لم يدع حيلة إلاّ نصبها أمامي، ليحبط ذلك المقام الكريم ذمامي[2]، ويكدر جِمامي[3]، ويستدرك حِمامي، وزعم أنّ بيده على البعد زمامي، ويأبى ذلك رأي يفرق بين الحقّ وضدّه، وعدل لا يخرج الشيء عن حدّه، فنبهت سيدي خوفًا أن تتّجه حيلة، أو تفسد وسيلة، وأنا قادم بالأهل والولد ليعمل في ربّ الصنيعة على شاكلة المجد الذي هو له أهل، فما بابتدائه جهل، ولا يختلف في عظم ما أسداه غرّ ولا كهل، ولا يُنَبَّه مثله على تتميم، وإجزال فضل عميم، ومؤانسة غريب، وصلة نصر عزيز وفتح قريب، بحول اللّه تعالى.

وقال لسان الدين بعدما سبق نقله عنه في حقّ ابن مرزوق: ولَمّا انقضى أمرُ سلطانه، رحمه اللّه تعالى، متجنّى عليه بسببه، محمولاً عليه من أجله، تقبَّض عليه وأجمع الملأ على قتله، وشدّ اعتقاله، وطُلِبَ بالمال العريض وانتهبت أمواله واعتقلت رباعه، وجُنِبَتْ مَرَاكبه، واصطفيت أمهات أولاده، وتمادى به الاعتقال والشدّة، إلى أن عادته عوائد اللّه في الخلاص من الشدّة، والانتياش عن الورطة ظاهرةً عليه بركةُ سلفه، قائمة له حجّة الكرامة في أمره.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٠٠): «وجاله» بالجيم المعجمة.
(٢) الذِّمام، بكسر الذال: الذمّة والعهد. لسان العرب (ذمم).
(٣) الجمام، بكسر الجيم: ملء القدح ماء، وبفتح الجيم: الراحة. لسان العرب (جمم).

حكى أمير المسلمين سلطاننا أعزّه اللّه قال: عرض لي والدي، رحمه اللّه تعالى، في لنوم فقال: يا ولدي، اشفع في الفقيه ابن مرزوق، فقبَّلْتُ يده، واقتضيتُ حظه، وحكيت داعيته، وعينت للوجهة في ذلك قاضي الحضرة، فكان[1] ذلك ابتداء الفرج.

وحدّثني الثقة من خدام السلطان أبي عنان عنه مخبرًا عن نفسه لما نفس عنه من نكبته، وأجاره من سخطته، قال: رأيت رسول اللّه، ﷺ، فأمرني بذلك، وكفى بها جاهًا وحُرْمة، قلت: فترك سبيله، وأتيح له ركوب البحر إلى بلاد المشرقية بأهله وولده، فسار في كنف الستر، وتحت جناح الرقابة، في وسط رجب من عام أربعة وستين وسبعمائة من ساحل باديس، صحب اللّه وجهته، وختم عصمته! انتهى ما لخصته من كلام لسان الدين بلفظه.

ورأيت على هامش هذا المحل من «الإحاطة» بخطِّ المذكور ما صورتُه: أقول وأنا ابن مرزوق المسمّى فيه: إني وقد وصلْتُ إلى تونس المحروسة في شهر رمضان من سنة خمس وستين، فلقيت بها من المبرّة والكرامة والوجاهة فوق ما يعهدهُ أمثالي، ووَلِيتُ خطابة جامع ملكها، وتدريس أم[2] المدارس فيها، وهي المعروفة بمدرسة الشماعين، كلّ ذلك تحت رعاية وعناية وملازمة لمجلس ملكها، إلى أن توفي سنة إحدى وسبعين، ثم مع ولده وابن أخيه، إلى أن رحلت في البحر في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين، فحللت في الديار المصرية، ولقيت من ملكها الذي لم أر في الملوك مثله حلمًا وفضلاً وحياءً وجُودًا وتلطّفًا ورحمًا، السلطان المالك الملك الأشرف ناصر الدين والدنيا شعبان بن حسين، فأحسن لي وأجرى عليّ وعلى أولادي ما قام به الحال، وقلّدني دروسًا ومدارس، وأَهَّلَني للمثول بين يديه، والحالُ مستمرٌ على ذلك حتى الآن، وذلك من فضل اللّه ومعهود إحسانه، والمرجو من اللّه حسن العاقبة، وكتب في رمضان سنة خمس وسبعين؛ انتهى.

وكتب بعده أبو الحسن علي بن لسان الدين، رحمهما اللّه تعالى، ما صورته: صدق، وهو فوق ذلك كلّه، فقدره معروف، ولطالما كان ملك المغرب يفتخر به، فصار يفتخر بتقليد الدورس: [السريع]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٠٧): «فكان في ذلك».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٠٢): «أما».

انتهى.

قال في «الإحاطة»[1]: ولَمّا شرح كتاب «الشفاء»[2] للقاضي عياض[3]، رحمه اللّه تعالى، واستبحر فيه، [وأكثر النقل، وبذل الجهد][4]، طلب أهل العُدْوتين نظم[5] مقطوعات تتضمَّن الثناء على الكِتاب المذكور، وإطراء مؤلِّفه، فانثال عليه من ذلك الطَّمّ والرِّم، بما تعدّدت منه الأوراق، واختلفت في الإجادة وغيرها الأرزاق، إيثارًا لِغرضه، ومبادرةً من كلّ[6] الجهات لإسعاف أربه، وطُلب مني أن ألمّ في ذلك بشيء، فكتبت له في ذلك: [الطويل]

شفاءُ[7] عياضٍ للصدور شِفاءُ	فليس بفضلٍ قد حواه خفاءُ
هديّةُ بَرّ لم يكنْ لمديلها[8]	سوى الأَجْرِ والذكرِ الجميل كِفاءُ
وَفَى لنبيّ اللّه حقّ وفائه	وأكرمُ أوصافِ الكرامِ وفاءُ
وجاء به بحرًا يقولُ بفضله	على البحر طَعْمٌ طَيِّبٌ وصفاء
وحقُّ رسول اللّهِ بعد وفاته	رعاه، وأغفالُ الحقوق جَفَاء
هو الذُّخرُ يُغْني في الحياة عَتَاده	ويُترك منه للبنينَ[9] رفاءُ
هو الأثرُ المحمودُ ليس ينالُه	دُثُورٌ، ولا يُخْشَى عليه عَفَاء[10]
حَرِصْتُ على الإطناب في نشر فضله	وتمجيده لو ساعدتنيَ فاءُ

(١) الإحاطة (جـ ٩ ص ١٢٦ـ ١٣٠).

(٢) في الإحاطة: «الشفا». واسم الكتاب: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، وهو أعظم كتب القاضي الإمام عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المتوفّى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ. الإحاطة (جـ ٤ ص ٢٢٨) في ترجمة القاضي عياض.

(٣) في الإحاطة: «عياض بن موسى بن عياض رحمه اللّه».

(٤) ما بين قوسين غير وارد في الإحاطة.

(٥) في الإحاطة: «بنظم».

(٦) في الإحاطة: «من أهل الجهات».

(٧) في الإحاطة (ص ١٢٧): «شفا»، وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) في الإحاطة: «الجزيلها». والمديل: اسم فاعل من أدال الشيء إذا جعله متداولاً. لسان العرب (دال).

(٩) في الإحاطة: «اليقين».

(١٠) العفاء: الزوال. لسان العرب (عفا).

واستزاد من هذا الغرض الذي لم يقنع فيه[1] بالقليل، فبعثتُ إليه من محلّ انتقالي من مدينة سَلاَ حرسها اللّه تعالى: [مجزوء الرمل]

أأزاهـيـر ريـاضٍ ... أم شـفـاءٌ لـعـيـاضِ
جـدَّلَ الـبـاطـلَ لـلـحـ ... ـقِّ بـأسـيـافِ مـواضِ
وجـلا الأنـوار[2] بُـرْهـا ... نًـا بـحـقٍّ وافـتـراض
وشـفـى مـن يـشـتـكـي الـغُـلَّـة فـي زرقِ الحـيـاض
أيُّ بُـنـيـانِ مـقـالٍ ... آمنٌ خـوفَ انـقـضـاض[3]
أيّ عـهـدٍ لـيـس يُـرْمَـى ... بـانـتـكـاثٍ[4] وانـتـقـاض
ومـعـانٍ فـي سـطـورٍ ... كـأُسُـودٍ فـي غِـيـاض
وشـفـاءٌ لـصـدورٍ ... مِنْ ضَنى الجهلِ مراض
حَـرِّرِ الـقـصـدَ فـمـا شِـينَ بـنـقـدٍ[5] واعـتـراض
يـا أبـا الـفـضـل أدْرِ أنّ[6] الـلّـه عـن سـعـيـك راضِ
فـازَ عـبـدٌ أقـرض الـلّـ ... ـه بـرُجْـحـانِ الـقِـرَاضِ[7]
وجـبـتْ غـرُّ الـمـزايـا ... مـن طِـوال أو عِـراض[8]
لـك يـا أصـدقَ راوٍ ... لـك يـا أعـدلَ قـاضِ
لـرسـولِ الـلّـه وفّـيـ ... ـت بـجـدّ[9] وانـتـهـاض
خيرُ خَلْق اللّه في حا ... لٍ وفـي آتٍ ومـاض
سَدّد/ الـلّـه ابـن مـروز ... قٍ إلـى تـلـك الـمـراضـي

---

(١) في الإحاطة: «منه».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ص ٤٠٤): «الأنواء».
(٣) في الإحاطة: «معار آمن فوق انقضاض».
(٤) الانتكاث: الانتقاض. لسان العرب (نكث).
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٠٤): «بنقض».
(٦) في الإحاطة (ص ١٢٨): «بأنّ اللّه».
(٧) إشارة إلى قول اللّه تعالى: ﴿مَنْ ذا الذي يُقرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفُهُ لهُ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ٢٤٥.
(٨) في الإحاطة: «عزّ المزايا.. وعراضِ».
(٩) في طبعة عبد الحميد: «بجهد».

ربده الرِفان، معمى كل مسكٍ وارتياض
فتولَّى بَسْطَ ما أجـ ـملتَ من غير انقباض
ساهرًا[1] لم يدرِ في استخ ـلاصه طَعْمَ اغتماض
إن يكن دَيْنًا على الأيام قد حانَ التقاضي
دام في عُلُوّ ومن عا داه يَهْوِي في انخفاض
ما وَشَى الصبحُ الدياجي بسوادٍ في بياض[2]

ثم نظمت له أيضًا في الغرض المذكور، والإكثار من هذا النمط، في هذا الموضع، ليس على سبيل التبجّح بإجادته وغرابته[3]، ولكن على سبيل الإشادة بالشَّرح المشار إليه، فهو بالغ غاية الاستبحار: [السريع]

حُيِّيتَ يا مُخْتَطَّ سَبْتِ ابنِ نوحْ بكلِّ مُزْنٍ يَغْتَدي أو يَرُوحْ
وحمل الرّيحانُ ريحَ الصَّبا أمانةً فيك[4] إلى كلِّ روحْ
دارُ أبي الفضل عياض الذي أضحتْ بِرَيّاهُ رياضًا تَفُوحْ
يا ناقلَ الآثارِ يُغْنَى بها وواصلاً في العلم جَرْيَ الجَمُوحْ
طِرْفُكَ في الفضلِ بعيدُ المدى طَرْفُكَ للمجد شديدُ الطموحْ
كفاكَ إعجازًا كتابُ الشِّفا والصبحُ لا يُنْكَرُ عند الوضوح
للّه ما أجزلتَ فينا به من مِنْحةٍ تَقْصُر عنها المُنُوحْ
روضٌ من العلم هَمَى فوقه مِنْ صَيِّب الفكر الغمامُ السفوح
فمن بيانِ الحقِّ زَهْرٌ نَدٍ[5] ومن لسانِ الصدقِ طيرٌ صَدُوح
تأرّج العَرْفُ وطاب الجَنَى وكيف لا يُثمر أو لا يفوح
وحُلَّةٌ من طيبِ خيرِ الورى في الجَيب والأعطافِ منها نُضُوح
ومَعْلَم للدين شيّدته فهذه الأعلام منها[6] تلوح
فَقُلْ لهامانَ كذا أو فلا يا من أضلَّ الرُّشْد تبني الصُّروح

(١) في الإحاطة: «ساهرٌ».
(٢) في الإحاطة: «في سوادٍ ببياض».
(٣) في الإحاطة: «بغرابته وإجادته».
(٤) في الإحاطة: «أمانة في كلّ إلى..».
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٠٥): «زهر بدا».
(٦) في الإحاطة (ص ١٢٩): «منه».

فـي أحـسـنِ الـتـقـويـم أنـشـأتـهُ	خَلْقًا جديدًا بين جسم وروح
فعمرُه المكتوبُ لا يَنقضي	إذا تَقَضَّى عُمْرُ سام ونوحْ
كأنه في الحَفْل ريحُ الصَّبا	وكلُّ عِطْفٍ فهو غصن[١] مَرُوحْ
ما عُذْرُ مشغوفٍ بخيرِ الورى	إن هاج منه الذِّكرُ أنْ لا يَبُوح
عجبتُ من أكبادِ أهلِ الهوى	وقد سطا البُعْدُ وطال النُّزُوح
إنْ ذُكر المحبوبُ سالتْ دِمًا	ما هنَّ أكبادٌ ولكنْ جُروح
يا سَيِّدَ الأوضاع يا من له	بِسَيِّدِ الإرسالِ فضلُ الرجوح
يا مَنْ له الفضل على غيره	والشمسُ تخفى عند إشراق يوح[٢]
يا خيرَ مشروحٍ وَفَى واكتفى	ومن ابن مرزوقٍ بخيرِ الشُّروح
فَتْحٌ من اللّه حَبَاه به	ومن جَنابِ اللّه تأتي الفتوحْ

ثم قال: وعلى الجملة والتفصيل، فهذا الرجل نسيجُ وحْده شهرة وجلالة وخصالاً وأبوّة صالحة، تولاّه اللّه! وكان له! وانصرف بجملته إلى بلاد المشرق عام أربعة وستين وسبعمائة، تولاّه اللّه تعالى، وأسعد مُنْقَلبه! ومولده بتلمسان عام أحد عشر وسبعمائة؛ انتهى كلام لسان الدين.

ولنزد في هذه الترجمة على ما ذكره فنقول: قال ابن خلدون[٣]: صاحبُنا الخطيبُ أبو عبد اللّه بن مرزوق، من أهل تلمسان، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مَدْيَن بالعُبّاد، ومتوارثين تربته من لدن جدّهم خادمِه في حياته، وكان جدّه الخامس أو السادس أبو بكر بن مرزوق معروفًا بالولاية فيهم، ونشأ محمد هذا بتلمسان، ومولده فيما أخبرني عام عشرة وسبعمائة؛ انتهى.

وهو[٤] مخالف لما ذكره لسان الدين فيما مَرَّ عنه.

---

(١) في الإحاطة: «غَضّ».

(٢) في الإحاطة: «الفخر على غيره، والشهب تخفى..»، وهو أدقّ وأقرب للمعنى. ويوح: من أسماء الشمس. محيط المحيط (يوح).

(٣) التعريف بابن خلدون (ص ٤٩ وما بعدها).

(٤) «هو» الضمير يعود إلى «مولده».

ثم قال ابن خلدون[1]: وارتحل مع والده إلى المشرق[2] سنة ثلاث عشرة، [وسمع ببجاية على الشيخ ناصر الدين][3]، ولما جاور أبوه بالحرمين رجع إلى القاهرة، فأقام وبرع في الطلب والرواية، وكان يجيد الخطّين، ورجع سنة ثلاث وثلاثين[4] إلى المغرب، ولقي السلطان أبا الحسن محاصرًا لتلمسان، وقد شيّد بالعُبّاد مسجدًا عظيمًا وكان عمُّه محمد بن مرزوق خطيبًا به على عادتهم في العبّاد، وتوفي، فولاّه السلطان خطابةَ ذلك المسجد مكان عمّه، وسمعه يخطب على المنبر، ويشيد بذكره، ويثني عليه، فحلي بعينه، فقرّبه، وهو مع ذلك يلازم ابني الإمام، ويأخذ نفسه بلقاء الأفاضل والأكابر والأخذ عنهم، وحضر مع السلطان وقعة طريف، ثم استعمله في الرسالة إلى الأندلس، ثم إلى ملك قَشتالة في تقرير الصلح، واستنقاذ ولده المأسور يوم طريف، ورجع بعد وقعة القيروان مع زعماء النصارى، فرجع إلى المغرب. ووفد على السلطان أبي عنان بفاس مع أمِّه حَظيّة أبي الحسن. ثم رجع إلى تلمسان، وأقام بالعبّاد، وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن وأخوه أبو ثابت، والسلطان أبو الحسن بالجزائر، وقد حشد هناك، فأرسل أبو سعيد بن مرزوق المذكور إليه سرًّا في الصلح، فلمّا اطّلع أخوه أبو ثابت على الخبر أنكره على أخيه، فبعثوا مَنْ حبس ابن مرزوق، ثم أجازوه البحر إلى الأندلس، فنزل على أبي الحجاج سلطانها بغَرْناطة، فقرّبه، واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء، فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه أبو عنان سنة أربع وخمسين بعد مهلك أبيه واستيلائه على تلمسان وأعمالها، فقدم عليه، ورعى له وسائله، ونَظَمه في أكابر أهل مجلسه، ثم بعثه لتونس عام[5] ملكها سنة ثمان وخمسين ليخطب له ابنَةَ السلطان أبي يحيىٰ، فردّت الخطبة، واختفت بتونس، ووشي إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعًا على مكانها، فسخطه لذلك، وأمر بسجنه، فسجن مدة، ثم أطلقه قبل موته.

ولمّا استولى أبو سالم علىٰ السلطنة آثره، وجعل زمام الأمور بيده، فوطىء الناس عتبته، وغشي أشراف الدولة بابه، وصرفوا إليه الوجوه، فلما وثب عمر بن عبد اللّه

---

(١) ينقل المقري عن ابن خلدون باختصار.

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤١٢): «الشرق».

(٣) ما بين قوسين غير وارد في التعريف بابن خلدون.

(٤) في التعريف بابن خلدون: «سنة خمس وثلاثين».

(٥) هكذا في التعريف بابن خلدون. وفي طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤١٣): «على ملكها».

بالسلطان آخر عام اثنين وستين حبس ابن مرزوق، ثم أطلقه بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله، فمنعه منهم، ثم لحق بتونس سنة أربع وستين، ونزل على السلطان أبي إسحاق وصاحب دولته أبي محمد بن تافراكين، فأكرموه وولّوه الخطابة بجامع الموحدين، وأقام بها إلى أن هلك السلطان أبو يحيىٰ سنة سبعين وولي ابنه خالد، ثم لـمّا قتل السلطان أبو العباس خالدًا واستولى على السلطنة، وكان بينه وبين ابن مرزوق شيء لميله مع ابن عمّه محمد صاحب بجاية، عزله عن الخطبة، فوجم لها، فأجمع الرحلة إلى المشرق، وسرحه السلطان، فركب السفينة، ونزل بالإسكندرية، ثم ارتحل إلى القاهرة، ولقي أهل العلم وأمراء الدولة، ونفقت بضائعه عندهم، وأوصلوه إلى السلطان الأشرف، فولاّه الوظائف العلمية، فلم يزل بها مُوَفَّر الرتبة، معروف الفضيلة، مرشحًا لقضاء المالكية، ملازمًا للتدريس، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين؛ انتهى ملخصًا.

وقال الحافظ بن حجر: إنه لـمّا وصل تونس أُكرم إكرامًا عظيمًا، وفوّضت إليه الخطابة بجامع السلطان وتدريس أكبر المدارس، ثم قدم القاهرة، فأكرمه الأشرف شعبان، ودرّس بالشيخونية والصرغتمشية والنجمية، وكان حسن الشكل، جليل القدر، مات في ربيع الأول سنة إحدى وثمانين؛ انتهى.

وقال ابن الخطيب القسمطيني: هو شيخنا الفقيه الجليل الخطيب، توفي بالقاهرة، ودفن بها[1] بين ابن القاسم وأشهب، وله طريق واضح في الحديث، ولقي أعلامًا، وسمعنا منه البخاري وغيره في مجالس، ولمجلسه لباقة وجمال، وله شرح جليل على «العمدة» في الحديث؛ انتهى.

وكتب بخطّه بلديُّنا أبو عبد اللّه بن العباس التلمساني ما نصُّه: نقلت من خطّ بعض السادات كتبه للإمام زعيم العلماء الحفيد ابن مرزوق أنه وجد بخطّ جدّه الخطيب ابن مرزوق لما ثقفه عمر بن عبد اللّه على يد الشيخ أبي يعقوب كتب ما نصُّه: الحمد للّه على كلّ حال، خَرَّجَ الطبري في منسكه وأبو حفص الملاي في سيرته عن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب وعبد اللّه بن عمرو بن العاص، رضي اللّه تعالى عنهم، قالا: وقف رسول اللّه، ﷺ، على الثَّنِية[2] التي بأعلى مكة، وليس بها يومئذ مقبور، فقال: يبعث اللّه من ههنا

---

(١) كلمة «بها» سقطت من طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤١٤).

(٢) الثنيّة: الطريق في الجبل. محيط المحيط (ثنى).

سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كلُّ واحد منهم في سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب، وجوهُهم كالقمر ليلة البدر، فقال أبو بكر: مَنْ هم يا رسول اللّٰه؟ قال: هم الغرباء من أمتي الذين يُدفنون ههنا، ففي هذا الموضع دُفِن والدي، رحمه اللّٰه تعالى، وبعد سماعه لهذا الحديث بسبعة أيام دفن فيه، أفتَراه لا يشفع فيمن أقال[1] عَثْرة ولده؟ أفما يشترى هذا بأموال الأرض؟ أفلا يرعى لي ثمانية وأربعين منبرًا في الإسلام شرقًا وغربًا وأندلسًا؟ أفلا يرعى لي أنه ليس اليوم يوجد من يُسْنِد أحاديث الصحاح سماعًا من باب إسكندرية إلى البرين[2] والأندلس غيري ونحو من مائتين وخمسين شيخًا؟ واللّٰه تعالى أعلم[3]، لكن حرمني اللّٰه تعالى نبذة[4] الاشتغال به، وآثرت اتباع الهوى والدنيا، فهويت، اللهمّ غفرانك! أفلا يرعى لي مجاورة نحو اثني عشر عامًا وختم القرآن في داخل الكعبة، والإحياء في محراب النبي، ﷺ، والإقراء بمكة، ولا أعلم مَنْ له هذه الوسيلة غيري؟ أفلا يرعى لي الصلاة بمكة سنين[5]، وغربتي بينكم، ومحنتي في بلدي، على محبتكم وخدمتكم، مَنْ ذا الذي خَدَمَكم من الناس يخرج على هذا الوجه؟ أستغفر اللّٰه، أستغفر اللّٰه، أستغفر اللّٰه من ذنوبي، وذنوبي أعظم، وربّي أعلم، وربّي أرحم[6]، والسلام؛ انتهى.

ففي هذا دليل على عظم قدره ومكانته في الدين والدنيا.

قلت: ولقد رأيت مصحفه بتلمسان عند أحفاده وعليه خطه الرائق الذي أعرفه، وهو يقول: قرأت في هذا المصحف تُجاه الكعبة المشرفة اثني عشر ألف ختمة؛ انتهى.

ومع هذا فقد نسي في المصحف المذكور لفظة إليك من قوله تعالى ﴿يَنقَلِبْ إليكَ البَصَرُ﴾[7] حتى كتبه بخطّه فوق السطر حفيدُه العلامة سيدي أبو عبد اللّٰه محمد بن مرزوق، رحمة اللّٰه على الجميع[8]!

---

(١) أقال عثرته: أنهضه من سقوطه. محيط المحيط (قيل).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٠٩): «إلى البرّ وإلى الأندلس».
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤١٥): «واللّٰه ما أعلمه».
(٤) في طبعة دار صادر: «نبذت».
(٥) كلمة «سنين» سقطت من طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤١٥).
(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤١٠): «أعلم، رب ارحم».
(٧) سورة الملك ٦٧، الآية ٤.
(٨) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤١٦): «رحم اللّٰه الجميع».

وقال[1] الخطيب المذكور، رحمه اللّه تعالى، في بعض تعاليقه ما صورته: ومن أشياخ والدي سيدي محمد المرشدي، لقيه في ارتحالنا إلى الشرق، وحين حملني إليه وأنا ابن تسع عشرة سنة نزلنا عنده، ووافقنا صلاة الجمعة، ومِنْ عادته أن لا يتّخذ للمسجد إمامًا، وحضر يومئذ من أعلام الفقهاء مَنْ لا يمكن اجتماع مثلهم في غير ذلك المشهد، قال: فقرب وقت الصلاة، فتشوّف[2] مَنْ حضر من الفقهاء والخطباء إلى التقديم، فإذا الشيخ قد خرج فنظر يمينًا وشمالاً وأنا خلف والدي، فوقع بصره عليّ، فقال لي: يا محمد، تعالَ، قال: فقمت معه حتى دخلت معه في موضع خلوة، فباحثني في الفروض والشروط والسنن، قال: فتوضّأت وأخلصت النيّة، فأعجبه وضوئي، ودخل معي المسجد، وقادني إلى المنبر، وقال لي: يا محمد، ازقَ المنبر[3]، فقلت له: يا سيدي، واللّه لا أدري ما أقول، فقال لي: ارقَ، وناوَلَني السيفَ الذي يتوكّأ عليه الخطيبُ عندهم، وأنا جالس مفكر فيما أقول إذا فرغ المؤذنون، فلمّا فرغوا ناداني بصوته، وقال لي: يا محمد، قُمْ، وقُلْ بسم اللّه، قال: فقمت، وانطلق لساني بما لا أدري ما هو، إلاّ أني كنت أنظر إلى الناس ينظرون إليّ ويخشعون مِنْ موعظتي، فأكملت الخطبة، فلمّا نزلت قال لي: أحسنت يا محمد، قِرَاك[4] عندنا أن نولّيك الخطابة، وأن لا تخطب بخطبة غيرك ما وليت وحييت، ثم سافرنا فحججنا، وأراد والدي الجوار، وأمرني بالرجوع لأونس عمي وقرابتي بتلمسان، وأمرني بالوقوف على سيدي المرشدي هنالك، فوقفت عليه، وسألني عن والدي، فقلت له: يُقَبِّل أيديكم، ويسلّم عليكم، فقال لي: تقدّم يا محمد، واستند إلى هذه النخلة، فإن شعيبًا - يعني أبا مدين - عَبَدَ اللّه عندها ثلاث سنين، ثم دخل خلوته زمانًا، ثم خرج فأمرني بالجلوس بين يديه، ثم قال لي: يا محمد، أبوك من أحبابنا وإخواننا، إلاّ أنك يا محمد، إلاّ أنك يا محمد، فكانت هذه إشارة إلى ما امتحنت به من مخالطتي أهلَ الدنيا والتخليط، ثم قال لي: يا محمد، أنت مشوش[5] من جهة أبيك، تتوهّم أنه مريض، ومن بلدك، أمّا أبوك فبخير وعافية، وهو الآن عن يمين منبر رسول اللّه، ﷺ، وعن يمينه خليل المالكي،

---

(١) في طبعة دار صادر: «قال».

(٢) تشوّف للشيء: تطلّع للشيء. لسان العرب (شوف).

(٣) ارق المنبر: اِصْعَدْهُ. لسان العرب (رقى).

(٤) القِرى، بكسر القاف: ما يقدّم للضيف. لسان العرب (قرى).

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤١٧): «متشوش».

وعن يساره أحمد قاضي مكة، وأمّا بلدك، فسمّ[1] اللّه، فخط دائرة في الأرض، ثم قام فقبض إحدى يديه على الأخرى وجعلهما خلف ظهره يطوف بتلك الدائرة، ويقول: تلمسان، تلمسان، حتى طاف بتلك الدائرة مرات، ثم قال لي: يا محمد، قد قضى اللّه الحاجة فيها، فقلت له: كيف يا سيدي؟ فقال: ستر اللّه إن شاء اللّه على من فيها من الذراري[2] والحريم، ويملكها هذا الذي حصرها، يعني السلطان أبا الحسن، وهو[3] خير لهم، ثم جلس وجلست بين يديه، فقال لي: يا خطيب، فقلت: يا سيدي، عبدك ومملوكك، فقال لي: كن خطيبًا، أنت الخطيب، وأخبرني بأمور، وقال لي: لا بدّ أن تخطب بالجامع الغربي، وهو الجامع الأعظم بالإسكندرية، ثم أعطاني شيئًا من كعيكات صغار، وزوّدني بها وأمرني بالرحيل.

وأمّا خبر تلمسان فدخلها المريني كما ذكر، وستر اللّه من فيها من الذراري والحريم، وكان هذا المرشدي يتصرّف في الولاية كتصرّف سيدي أبي العباس السبتي، نفعنا اللّه بهما!.

وللخطيب ابن مرزوق المذكور تآليف: منها شرحه الجليل على العمدة في خمسة أسفار، جمع فيه بين ابن دقيق العيد والفاكهاني مع زوائد، وشرحه النفيس على الشفاء، ولم يكمل، وشرحه على الأحكام الصغرى لعبد الحق، وشرحه على ابن الحاجب الفرعي، سمّاه «إزالة الحاجب، لفروع[4] ابن الحاجب» وله غيرها، وديوان خطب بالغرب مشهور كقصيدته التي قالها في نكبته بتلمسان، وأولها: [المتقارب]

رفعتُ أموري لباري النَّسَمْ[5] ومُوجِدِنَا بعد سَبْقِ العَدَمْ

ومن نظمه عند وداعه أهل تونس: [الوافر]

أودّعكم وأُثني ثم أُثني على مَلِكٍ تطاول بالجميلِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤١١): «فسمي».
(٢) الذراريّ: جمع ذرّيّة وهي نسل الإنسان. لسان العرب (ذرى).
(٣) في طبعة دار صادر: «فهو».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤١٢): «عن فروع».
(٥) النَّسَمُ: جمع نسمة وهي كل دابة فيها روح. لسان العرب (نسم).

وأسألُ رغبةً منكم لربي   بتيسير المقاصدِ والسبيلِ
سلامُ اللَّه يشملنا جميعًا   فقد عزم الغريبُ على الرحيلِ

ومن نظم أبي المكارم ابن آجروم يُسْلي المذكور عندما سجن بعد مقتل السلطان أبي سالم: [السريع]

يا شمسَ علمٍ أَفَلَتْ بعدما   أضاءت المشرق والمغربا
حُجِبْتِ قَسْرًا عن عيون   الورى والشمسُ لا يُنْكَرُ أن تحجبا

وبيتهم[١] بيت علم وولاية وصلاح كعمّه[٢] وجدّه وأبيه وجدّ أبيه، وكولديه[٣] محمد وأحمد وحفيده عالم الدنيا البحر أبي عبد اللَّه محمد بن أحمد بن مرزوق، وولد حفيده المعروف بالكفيف، وحفيد حفيده المعروف بالخطيب، وهو آخر المذكورين منهم فيما نعلم.

قلت: كان مرادي أن أعرّف بجميعهم، ولكني خشيت الطول، فلنلمَّ بذكر الحفيد عالم الدنيا، وابنه العلامة المشهور بالكفيف؛ لأنه - أعني الكفيف - والد أمّ جدي أحمد؛ لأني أحمد بن محمد بن أحمد، فوالدة الجدّ أحمد بنت الكفيف المذكور، وهو - أعني الكفيف - محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب الرئيس أبي عبد اللَّه بن مرزوق[٤] المتقدم الذكر، وكان الكفيف إمامًا عالمًا علامة، ووصفه ابن داود البلوي بأنه الشيخ الإمام، عَلَم الأعلام، فخر خطباء الإسلام، سلالة الأولياء، وخلف الأتقياء الأرضياء، المسنِد الرواية المحدّث العلامة المتفنّن القدوة الحافل الكامل، وأخذ العلم عن جماعة: منهم عالم الدنيا أبوه، قرأ عليه الصحيحين والموطأ وغير ما كتابٍ من تآليفه وغيرها، وتفقّه عليه[٥] وأجازه عمومًا، وعن عالمي تلمسان أبوي الفضل ابن الإمام والعقباني، وغيرهما واللجائي[٦]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤١٨): «وهو بيت».
(٢) في طبعة دار صادر: «العمّه».
(٣) في طبعة دار صادر: «ولولديه».
(٤) ترجمة ابن مرزوق الكفيف في نيل الابتهاج (ص ٣٥٤) والضوء اللامع (جـ ٩ ص ٤٦) والمقري ينقل عن نيل الابتهاج.
(٥) كلمة «عليه» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤١٣).
(٦) في طبعة عبد الحميد: «كالبجائي». وهو أحمد بن محمد بن عيسى اللجائي، وترجمته في نيل الابتهاج (ص ٦٢).

والثعالبي، والنظار أبي عبد اللّٰه محمد بن أبي القاسم المشدالي[1]، وقاضي الجماعة ابن عقاب وحافظ الإسلام ابن حجر العسقلاني، وكلّ هؤلاء أجازوه، وقرأ عليهم مشافهة، إلاّ ابن حجر فمكاتبة. ومولده غرة ذي القعدة عام أربعة وعشرين وثمانمائة نصف ليلة الثلاثاء، ومن شيوخه العلامة ابن العباس التلمساني وغيره.

وقال السخاوي: قدم الكفيف مكة سنة إحدى وستين وثمانمائة، وسمعت سنة إحدى وسبعين وثمانمائة أنه في الأحياء؛ انتهى.

وأخذ عنه جماعة أئمة كالسنوسي صاحب العقائد الشهيرة وغيرها، والونشريسي[2] صاحب «المعيار»، والعلامة أبي عبد اللّٰه بن العباس، وحلاه مشيخنا ومفيدنا علم الأعلام وحجّة الإسلام آخر حفّاظ المغرب، وقال: قرأت عليه الصحيحين وبعض مختصري ابن الحاجب الفرعي والأصلي، وحضرت عليه جملة من التهذيب وبعض الخونجي وغيرها، وأخذ عنه بالإجازة عالم فاس ابن غازي حسبما ذكره في كتابه المسمى بـ «التعلل برسوم الإسناد، بعد انتقال الساكن والناد».

وقال بعض الحفّاظ: إنّ وفاته عام أحد وتسعمائة بتلمسان. وزرت قبره مرارًا، رحمه اللّٰه تعالى! ونقل عنه المازونيّ في نوازله المسماة[3] بـ «الدرة المكنونة، في نوازل مازونة».

وأمّا والده عالم الدنيا أبو عبد اللّٰه محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد[4] فهو البحر الإمام المشهور الحجّة الحافظ العلاّمة المحقق الكبير النظار المطلع المصنف المنصف التقي الصالح الناصح الزاهد العابد الورع البركة الخاشع الخاشي النبيه القدوة المجتهد الأبرع الفقيه الأصولي المفسّر المحدّث الحافظ المسند الراوية الأستاذ المقرىء[5] المجوّد النحوي اللغوي البياني العروضي الصوفي الأوّاب[6] الولي الصالح العارف باللّٰه، الآخذ من كلّ فنّ بأوفر نصيب، الراعي في كلّ علم مَرْعَاهُ الخصيب، حجّة اللّٰه على خلقه، المفتي الشهير،

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «المشذالي».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤١٤): «الوانشريسي».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «بالمسماة».

(٤) ترجمة ابن مرزوق الحفيد في نيل الابتهاج (ص ٣٠٤) والضوء اللامع (جـ ٧ ص ٥٠).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «المقرى».

(٦) الأوّاب: صيغة مبالغة لآئب، وهو الذي يرجع في أموره إلى اللّٰه تعالى. لسان العرب (آب).

الرحلة، الحاج، فارس الكراسي والمنابر، سليل الأكابر، سيد العلماء الأخيار، وإمام الأئمة، وآخر الشيوخ، ذوي الرسوخ، بدر التمام، الجامع بين المعقول والمنقول، والحقيقة والشريعة بأجلّ محصول، وآخر[1] النظار الفحول، شيخ المشايخ، صاحب التحقيقات البديعة، والاختراعات الأنيقة، والأبحاث الغريبة، والفوائد الغزيرة، المتّفق على علمه وصلاحه وهديه، الذكي الفهامة القدوة الذي لا يسمح الزمان بمثله أبدًا، أوحد الأفراد في جميع الفنون الشرعية، ذو المناقب العديدة، والأحوال السَّديدة، شيخ الإسلام، وإمام المسلمين ومفتي الأنام، الذي له القدم الراسخ في كلّ مقام[2] ضيق، والرحب الواسع في حلِّ كلِّ مشكل مقفل، صاحب الكرامات والاستقامات، السَّني السُّنى، الحريص على تحصيل السنَّة، ومجانبة البدعة، السيف المسلول على أهل البدع والأهواء الزائغة، الذي أفاض اللَّه تعالى على خلقه به بركته، ورفع بين البرية محلّه ودرجته، ووسع على خليقته به نحلته، معدن العلم، وشُغْلة الفهم، وكيمياء السعادة، وكنز الإفادة، ابن الشيخ الفقيه العالم أبي العباس أحمد، ابن الإمام العلامة الرئيس الكبير الخطيب الحافظ الرحلة الفقيه المحدّث الشهير شمس الدين محمد، ابن الشيخ العالم الصالح الولي المجاور أبي العباس أحمد، ابن الفقيه الولي الصالح الخاشع محمد، ابن الولي الكبير ذي الكرامات والأحوال الصالحة محمد بن أبي بكر بن مرزوق، العجيسي، التلمساني. كان رحمه اللَّه تعالى آية اللَّه في تحقيق العلوم، والاطّلاع المفرط على النقول، والقيام التام على الفنون بأسرها، أمّا الفقه فهو فيه مالك، ولأزمّة فروعه حائز ومالك، فلو رآه الإمام لقال[3] له: تقدّم، فلك العهد والولاية فتكلّم، فمنك يُسْمَع فقهي وفُرُوعِي، ومثلك مَنْ راعى ما ينبغي فَرُوعي[4]، أو ابن القاسم لقرّبه عينًا، وقال له: طالما دفعت عن المذهب عَيْنًا[5] وشَيْنًا، أو المازري، لعلم أنه بمناظرته حَري، أو الحافظ بن رشد، لقال: هلمّ يا حافظ الرشد، أو اللخمي لأبصر منه محاسن «التبصرة»، أو القرطبي لنال منه «التذكرة»، أو القرافي لاستفاد منه قواعده المقررة، أو ابن الحاجب لاستند إلى بابه في كشف الإشكالات المحرّرة، إلى ما انضمّ إلى ذلك من

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «آخر».
(٢) في نيل الابتهاج: «مزلق».
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٢١): «قال له».
(٤) فروعي: الفاء حرف عطف، روعي: فعل أمر، من المراعاة.
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤١٥): «عيبًا».

معرفة التفسير ودرره، والاضطلاع بحقائق التأويل وغُرره، فلو رآهُ مجاهد، لعلم أنه في التحقيق خير جاهد[١]، أو مقاتل، لقال: مثلك طَبَّق من الفهوم الكلى وأصاب المقاتل، أو الزمخشري لعلم أنه كشاف الخفيات على الحقيقة، وقال لكتابه: تنحَّ لهذا الحبر عن سلوك الطريقة، أو ابن عطية، لركب في الرحلة إلى الاستفادة منه المطيّة، أو أبو حيان لغرق في نهره، ولم تَسِلْ له نقطة من بحره، إلى الإحاطة بالحديث وفنونه، والاطّلاع على أسانيده ومتونه، ومعرفة منكره ومعروفه، ونظم أنواعه ورصف صنوفه، إذ إليه[٢] الرحلة انتهت في رواياته ودراياته، وعليه المعوّل في حلّ مشكلاته وفتح مقفلاته. وأمّا الأصول فالعَضُد ينقطع عند مناظرته ساعدُه، والسيف يكلُّ عند بحثه حدّه حتى يترك ما عنده ويساعده، والبرهان لا يهتدي معه لحجّة، والمقترح لا يركب في بحره لجّة. وأمّا النحو فلو رآه محمود[٣] لتلجلج في قراءة «المفصل»، واستقل ما عنده من القدر المحصّل، أو الرماني لاشتاق إلى مفاكهته وارتاح، واستجدى من ثمار فوائده وامتاح[٤]، أو الزجاج لعلم أنَّ زجاجه لا يقوم بجواهره، وأنه لا يجري معه في هذا العلم إلاَّ في ظواهره، بل لو رآه الخليل، لقال: هذا هو المقصد الجليل، وأثنى عليه بكلِّ جميل، وقال لفرسان النحو: ما لكم إلى لحوق عربيته من سبيل، وأمّا البيان فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصبح، وصاحب المفتاح لا يهتدي معه إلى الفتح، والقَزْويني يلقي علومه لإيضاح المعاني، والسعد يرقى بفهومه في مطالع المَثَاني، وكم له من مناقب، تنحطّ عن منالها الثواقب، ومواهب، تجلو بأنوارها الغياهب[٥]، وأمّا زهده وصلاحه فقد سارت به الركبان، واتّفق عليه الثقلان، فمن وصفه بالبحر، فقلْ له: دون علمه البحر، أو البدر، فما يصل خلقه البدر، أو الدرّ، فأنى يشبه منطقه الدرّ، وبالجملة فالوصف يتقاصر عن صِفاتِهِ وفضلاء عصره لا يرتقون إلى صَفَاته، فهو شيخ العلماء في أوانه، وإمام الأئمة في عصره وزمانه، شهد بنَشْر علومه العاكفُ والبادي، وارتوى من بحار تحقيقاته الظمآن والصادي: [الكامل]

---

(١) في نيل الابتهاج: «العلم أنه في علوم القرآن العزيز مجاهد».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤١٦): «له».
(٣) محمود: هو الزمشخري صاحب كتاب المفصل في النحو.
(٤) امتاح: غرف. لسان العرب (متح).
(٥) الغياهب: جمع غيهب وهو الظلام. لسان العرب (غهب).

حَلَفَ الزمانُ ليأتينَّ بمثلِهِ حَنِثَتْ يمينك يا زمانُ فكفِّرِ[1]

هكذا وصفه بعضِ العلماء، وهو فوق ذلك كلّه.

وقال في حقّه بلديُّنا الشيخ أبو الفرج بن أبي يحيىٰ الشريف التلمساني، رحمه اللّه تعالى: هو شيخنا الإمام العالم العَلم، جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية حفظًا وفهمًا وتحقيقًا راسخ القدم، رافع لواء الإمامة بين الأمم، ناصر الدين بيده ولسانه وبنانِه وبالقلم، محيي السنّة بالفعال والمقال والشيم، قطب الوقت في الحال والمقام، والنهج الواضح والسبيل الأمم[2]، مستمرّ على الإرشاد والهداية، والتبليغ والإفادة، والرواية[3] والدراية والعناية، ملازم الكتاب والسنَّة على نهج الأئمة المحفوظين من البدع في زمن لا عاصم فيه من أمر اللّه إلاّ من رحم، ذو[4] همّة عليّة، ورتبة سنيّة، وأخلاق مرضيّة، وفضل وكرم، إمام الأئمة، وعالم[5] الأمة، الناطق بالحِكَم، ومنير الظُّلَم، سليل الصالحين، وخلاصة مجد التُّقى والدين، نتيجة مقدمات المهتدين، حجّة اللّه على العلم والعالم، جامع بين الشريعة والحقيقة، على أصحّ طريقة، متمسّك بالكتاب لا يفارق فَرِيقه، الشيخ الإمام أبو عبد اللّه محمد، اتّصلتُ به فأويتُ منه إلى ربوة ذات قرار ومَعين، وقصرتُ توجهي عليه، ومثلتُ بين يديه، فأنزلني - أعلى اللّه قدره - منزلة ولده رعاية للذِّمَم، وحفظًا على الودّ الموروث من القِدم، فأفادني من بحار علمه ما تَقْصُر عنه العبارة ويكلُّ دونه القلم، فقرأت عليه جملة من تفسير القرآن ومن الحديث صحيح البخاري بقراءتي وقراءة غيري مرارًا وصحيح مسلم كذلك وسنن الترمذي وأبي داود بقراءتي، و «الموطأ» سماعًا وتفقهًا و «العمدة»، ومن علم الحديث أرجوزة «الحديقة» وبعض الكبرى وهي «الروضة» تفقهًا، ومن العربية نصف «المقرّب»[6] تفقهًا وجميع كتاب[7] سيبويه كذلك، وألفية ابن مالك، وأوائل

---

(١) حنثت يمينك: لم تستطع الوفاء بها. كفِّر: دفع كفارة اليمين. لسان العرب (حنث) و (كفر).

(٢) في نيل الابتهاج: «الأقوم». والأَمَمُ: القريب والواضح. لسان العرب (أمم).

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤١٧): «ذو الرواية».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «وهمّة».

(٥) هكذا في نيل الابتهاج. وفي طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٢٣): «وعَلَم».

(٦) المقرّب: كتاب في النحو لعلي بن مؤمن ابن عصفور الحضرمي المتوفّى سنة ٦٦٣ هـ، وهو أيضًا كتاب في النحو للمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ. كشف الظنون (ص ١٨٠٥).

(٧) كلمة «كتاب» سقطت من طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٢٤).

«شرح الإيضاح» لابن أبي الربيع، وبعض «المغني» لابن هشام، ومن[1] الفقيه «التهذيب» كلّه تفقّهًا، وابن الحاجب الفرعي، وبعض مختصر الشيخ[2] خليل، و «التلقين»، وثلثي الجلاب، وجملة من «المتيطية»، و «البيان» لابن رشد، وبعض الرسالة، وكلّ ذلك قراءة تفقه، وتفقّهت عليه من كتب الشافعية في «تنبيه» الشيرازي و «وجيز» الغزالي من أوله إلى كتاب الإقرار، ومن كتب الحنفية «مختصر القدروري» تفقّهًا، ومن كتب الحنابلة «مختصر الخرقي» تفقّهًا، ومن أصول الفقه «المحصول»، و «مختصر» ابن الحاجب، و «التنقيح»، وكتاب «المفتاح» لجدّي، وقواعد عز الدين، وكتاب «المصالح والمفاسد» له، و «قواعد» القرافي، وجملة من «النظائر والأشباه» للعلائي، و «إرشاد» العميدي، ومن أصول الدين «المحصل» و «الإرشاد» تفقّهًا، وفي القراءات قصيدة الشاطبي تفقّهًا، وابن بري[3]، ومن البيان[4] «التلخيص»، و «الإيضاح»، و «المصابيح»، وكلّها تفقّهًا، ومن التصوف[5] «الإحياء» للغزالي سوى الربع الأخير منه، وألبسني خرقة التصوف كما ألبسه أبوه وعمّه، وهما ألبسهما أبوهما جدّه؛ انتهى ملخصًا.

وكتب المذكور تحت هذا ما نصُّه: صدق السيد بن السيد [بن السيد][6] أبو الفرج المذكور فيما ذكر من القراءة والسماع والتفقّه وبَرَّ، وقد أجزته في ذلك كلّه، فهو حقيق بها مع الإنصاف وصدق النظر، جعلني اللّه وإياه ممّن علم وعمل لآخرته واعتبر، قاله محمد بن مرزوق؛ انتهى.

وقال تلميذه الولي أبو زيد سيدي عبد الرحمن الثعالبي[7]: قدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد اللّه بن مرزوق فأقام بها، فأخذت عنه كثيرًا، وسمعت عليه جميعَ الموطإ بقراءة صاحبنا أبي حفص عمر ابن شيخنا محمد القلشاني[8]، وختمت عليه أربعينيات النووي،

(١) في طبعة دار صادر: «وفي الفقه».
(٢) كلمة «الشيخ» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤١٨).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «وابن البري».
(٤) في طبعة دار صادر: «وفي البيان».
(٥) في طبعة دار صادر: «وفي التفقه». وفي نيل الابتهاج: «وفي التصوف».
(٦) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.
(٧) ترجمة عبد الرحمن الثعالبي في نيل الابتهاج (ص ١٤٨).
(٨) ترجمة محمد القلشاني في نيل الابتهاج (ص ١٨٠).

قرأتها عليه في منزله قراءة تفهم، فكان كلّما قرأت عليه حديثًا يعلوه خشوع وخضوع، ثم يأخذ في البكاء، فلم أزَلْ أقرأ وهو يبكي إلى أن ختمت الكتاب، وكان من أولياء اللَّه الذين رُؤوا ذُكِر اللَّه، وأجمع الناس على فضله من المغرب إلى الديار المصرية. واشتهر ذكره في البلاد، فكان بذكره تطرز المجالس، وجعل اللَّه تعالى حبه في قلوب العامة والخاصة فلا يُذكر في مجلس إلاّ والنفوس متشوقة[1] إلى ما يحكى عنه، وكان في التواضع والإنصاف والاعتراف بالحقّ في الغاية وفوق النهاية، لا أعلم له نظيرًا في ذلك في وقته، ثم ذكر كثيرًا جدًّا من الكتب ممّا سمعه عليه، وأطال في ذلك.

وقال في موضع آخر: هو سيدي الشيخ الإمام، والحبر الهمام، حجّة أهل الفضل في وقتنا وخاتمتهم، ورحلة النقاد وخلاصتهم، ورئيس المحققين وقادَتُهم، السيد الكبير، والذهب الإبريز، والعَلَم الذي نصبه التمييز، ابن البيت الكبير، والفلك الأثير، ومعدن الفضل الكثير، سيدي أبو عبد اللَّه محمد بن الإمام الجليل الأوحد الأصيل، جمال الفضلاء، سليل الأولياء، أبي العباس أحمد، ابن العالم الكبير، العلم الشهير، تاج المحدّثين، وقدوة المحقّقين، أبي عبد اللَّه محمد بن مرزوق.

وقال أيضًا في موضع آخر: هو شيخي الإمام العَلَم الصدر الكبير، المحدّث الثقة المحقّق بقيّة المحدِّثين، وإمام الحَفَظَة الأقدمين والمحدَثين، سيد وقته، وإمام عصره ووَرِع زمانه، وفاضل أقرانه، أعجوبة أوانه، وفاروق زمانه، ذو الأخلاق المرضية، والأحوال الصالحة السنيّة، والأعمال الفاضلة الزكية، أبو عبد اللَّه.

وقال في حقّه المازوني في أول نوازله: شيخنا الإمام الحافظ بقية النظار والمجتهدين، ذو التواليف العجيبة، والفوائد الغريبة، مستوفي المطالب والحقوق، أبو عبد اللَّه بن مرزوق.

وقال تلميذه الحافظ العلامة أبو عبد اللَّه التنيسي عند ذكره: إنَّ إمامنا مالكًا سُئل عن أربعين مسألة فقال في ست وثلاثين «لا أدري، وجُنَّة[2] العالم لا أدري» ما نصُّه: ولم نر فيمن أدركنا من شيوخنا من تَمَرَّن على هذه الخصلة الشريفة ويُكثر استعمالها غير شيخنا

---

(١) هكذا في نيل الابتهاج. وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٢٥): «مشوقة».
(٢) الجُنَّة: الوقاية. لسان العرب (جنن).

العالم العلامة رئيس علماء المغرب على الإطلاق أبي عبد اللّه محمد بن أحمد بن مرزوق[1].

وقال الشيخ أبو الحسن القلصادي في رحلته: أدركت بتلمسان[2] كثيرًا من العلماء والعبّاد والزهّاد والصلحاء، أولاهم في الذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخُنا وبركتُنا أبو عبد اللّه بن مرزوق، حَلَّ كَنَفَ العلم والعلا، وجلّ قدره في الجِلَّة والفُضَلا، قطع الليالي ساهرًا، وقطف من العلم أزاهرًا، فأثمر وأورق، وغرَّب وشرّق، حتى توغّل في فنون العلم واستغرق، إلى أن أطلع للأبصار هلالاً لأنَّ الغرب مطلعه، وسما في النفوس موضعه وموقعه، فلا ترى أحسن من لقائه، ولا أسهل من إلقائه، لقي الشيوخ الأكابر، وبقي حَمْده مغترفًا[3] من بطون الكتب وألسنة الأقلام وأفواه المحابر، وكان رضي اللّه عنه من رجال الدنيا والآخرة، وكانت أوقاته كلّها معمورة بالطاعات ليلاً ونهارًا من صلاة وقراءة قرآن وتدريس علم وفتيا وتصنيف، وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشهودة[4]، وكانت له بالعلم عناية، تكشف بها العَمَاية[5]، ودراية[6]، تعضدها الرواية، ونباهة، تكسب النزاهة، قرأت عليه ـ رضي اللّه عنه! ـ بعضَ كتابه في الفرائض وأواخر إيضاح الفارسي وشيئًا من شرح التسهيل، وعرضت عليه إعراب القرآن وصحيح البخاري والشاطبيتين وأكثر ابن الحاجب الفرعي والتلقين وتسهيل ابن مالك والألفية والكافية وابن الصلاح في علم الحديث ومنهاج الغزالي وبعض الرسالة وغيرها، ثم توفي يوم الخميس بمصر رابع عشر شعبان عام اثنين وأربعين وثمانمائة، وصُلي عليه بالجامع الأزهر بعد صلاة الجمعة، وحضر جنازته السلطان فمن دونه، ولم أر مثلها قبل، وأسف الناس لفقده، وآخر بيت سمع منه قبل موته: [البسيط]

إن كان سَفْك دمي أقْصَى مرادكُم ... فما غَلَتْ نَظْرَةٌ منكمْ بسفكِ دمي

انتهى ملخصًا.

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٢٦): «أبي عبد اللّه محمد بن مرزوق».

(٢) كلمة «بتلمسان» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٣) هكذا في نيل الابتهاج. وفي طبعة دار صادر: «متعرّفًا».

(٤) هكذا في نيل الابتهاج. وفي طبعة دار صادر: «مشهورة».

(٥) العماية، بالفتح: الضلالة. لسان العرب (عمى).

(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٢٠): «ودارية».

وفي فهرست ابن غازي في ترجمة شيخه أبي محمد الورياجلي ما صورتُه: ومِمَّن لقي من شيوخ تلمسان المحروسة الإمام العَلم العلامة الصدر الأجلّ[١] الأوحد المحقق النّظار الحجّة العالم الرباني أبو عبد اللّه محمد[٢] بن مرزوق، وقد حدّثني بكثير من مناقبه وصفة إقرائه، وقوة اجتهاده، وتواضعه لطلبة العلم، وشدّته على أهل البدع، وما اتّفق له مع بعضهم، إلى غيرها من شيمه الكريمة، ومحاسنه العظيمة؛ انتهى.

وقال بعضهم في حقّه: إنه كان يسير سيرة سلفه في العلم والتخلق والحلم والشفقة وحبّ المساكين، آية اللّه في الفهم والذكاء والصدق والعدالة والنزاهة واتّباع السنّة في الأقوال والأفعال، ومحبّة أهلها في جميع الأحوال، مبغضًا لأهل البدع ومحبًّا سَدَّ الذرائع[٣]، له كرامات؛ انتهى.

وأما[٤] شيوخه فمنهم العلامة السيد عبد اللّه الشريف التلمساني، وعالم المغرب القاضي سيدي سعيد العقباني التلمساني، والولي العابد الصالح أبو إسحاق سيدي إبراهيم المصمودي، وأفرد ترجمته بتأليف، وعن أبيه وعمّه[٥]، ويروي عن جدّه بالإجازة وابن عرفة وأبي العباس القصار التونسي، وبفاس عن النحوي أبي حيان وأبي زيد المكودي، وجماعة غيرهما، وبمصر عن السراج البلقيني، والزين الحافظ العراقي، والشمس الغماري، والسراج ابن الملقن، وصاحب القاموس، والمحب ابن هشام ابن[٦] صاحب «المغني»، والنور النويري، والولي ابن خلدون، والقاضي التنسي[٧]، وغيرهم.

وأخذ عنه جماعة كالثعالبي، والقاضي عمر القلشاني، وابن العباس والعلامة[٨] نصر الزواوي، والولي سيدي الحسن أبركان[٩]، وابنه، وأبي البركات الغماري، وأبي الفضل

---

(١) كلمة «الأجل» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٢١).
(٢) كلمة «محمد» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٣) سدُّ الذرائع: باب واسع في الفقه الإسلامي، وهنا يريد أن يقول: إنه ترك ما يظن أنه يؤدي إلى المحرم.
(٤) فيّ طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٢٨): «أخذ العلم عن جماعة أجلاء، فمنهم..».
(٥) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٢٨): «وعن عمّه وأبيه».
(٦) كلمة «ابن» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٢٢).
(٧) في طبعة عبد الحميد: التنيسي».
(٨) كلمة «والعلامة» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٩) في طبعة عبد الحميد: «الحسن بن كان».

المشدالي[1]، وقاضي غَرْنَاطة أبي العباس بن أبي يحيىٰ الشريف، وإبراهيم بن فائد[2]، وأبي العباس الندرومي[3]، وابنه الكفيف، وسيدي علي بن ثابت، والشهاب ين كحيل التجاني، والعلامة أحمد بن يونس القسمطيني، والعلامة يحيىٰ بن يدير[4]، وأبي الحسن القلصادي، والشيخ عيسى بن سلامة البِسْكَري[5]، وغيرهم، كالحافظ التنسي[6] التلمساني.

قلت: وسندي إليه عن عمّي الإمام سيدي سعيد المقَّري، عن الشيخ أبي عبد اللّه التنسي[6]، عن والده الحافظ أبي عبد اللّه محمد التنسي[6] المذكور، عن ابن مرزوق المذكور بكل مروياته وتآليفه.

وقال السخاوي في حقِّه: هو أبو عبد اللّه، يُعرف بحفيد ابن مرزوق، وقد يختصّ بابن مرزوق، وقد تلا لنافع على عثمان[7] الزروالي، وانتفع في الفقه بأبي عبد اللّه بن عرفة، وأجازه أبو القاسم محمد بن الخشاب ومحمد بن علي الحفار الأنصاري ومحمد القيجاطي، وحجّ قديمًا سنة تسعين وسبعمائة رفيقًا لابن عرفة، وسمع من البهاء[8] الدماميني والنور العقيلي بمكة، وفيها قرأ البخاري على ابن صديق، ولازم المحب ابن هشام في العربية، وكذا حجّ سنة تسع عشرة وثمانمائة، ولقيه الزيني رضوان بمكة، وكذا لقيه ابن حجر؛ انتهى.

وأمّا تواليفه فكثيرة منها شروحه الثلاثة على البردة، وسمّي الأكبر «إظهار صدق المودّة، في شرح البردة» واستوفى فيه غاية الاستيفاء، وضمّنه سبعة فنون في كلّ بيت، والأوسط، والأصغر المسمى بـ «الاستيعاب، لما فيها من البيان والإعراب» ومنها «المفاتيح القراطيسية[9]، في شرح الشقراطيسية» و «المفاتيح المرزوقية، في استخراج رجز الخزرجية»

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «المشذالي» بالذال المعجمة.
(٢) في طبعة عبد الحميد: «قائد».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «التدرومي».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «بيدير».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «البكري».
(٦) في طبعة عبد الحميد: التيسي.
(٧) في طبعة عبد الحميد: «على أبي عثمان».
(٨) هكذا في نيل الابتهاج. وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٢٩): «من ابن البهاء».
(٩) هكذا في نيل الابتهاج. وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٢٩): «الغاية القراطيسية».

ورجز في علوم الحديث سمّاه «الروضة» ومختصره في رجز سمّاه «الحديقة» ورجز في الميقات سمّاه «المقنع الشافي» مشتمل على ألف وسبعمائة بيت، و «نهاية الأمل، في شرح الجمل» أي جمل الخونجي، و «اغتنام الفرصة، في محادثة عالم قفصة» وهو أجوبة عن مسائل في فنون العلم وردت عليه من علامة قفصة أبي يحيىٰ بن عقبة فأجابه عنها، و «المعراج، إلى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج» في كراسة ونصف، أجاب به أبا القاسم بن سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية، و «أنوار[1] اليقين، في شرح حديث أولياء اللّه المتقين» وهو حديث أول حلية أبي نُعَيم [2] في شأن البدلاء وغيرهم، و «الدليل المومي، في ترجيح طهارة الكاغد الرومي» و «النصح الخالص، في الردّ على مدعي رتبة الكامل الناقص» في سبعة كراريس، رَدَّ به على عصريّه الإمام أبي الفضل قاسم العقباني في فتواه في مسألة الفقراء الصوفية لما صوب العقباني صنيعهم، وخالفه هو، و «مختصر الحاوي في الفتاوي» لابن عبد النور، و «الروض البهيج، في مسائل الخليج»[3] و «أنوار الدراري، في مكررات البخاري» [وأرجوزة نظم تلخيص ابن البناء][4]، ورجز تلخيص المفتاح، نظمه في حال صغره، ورجز «حرز الأماني» ورجز جمل الخونجي، ورجز اختصار ألفية ابن مالك، وتأليفه في مناقب شيخه المصمودي، وتفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء، وهذه كلُّها تامة.

وأمّا ما لم يكمل من تآليفه فالمتجر الربيح والسعي الرجيح والمرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح، وروضة الأريب في شرح التهذيب، والمنزع النبيل في شرح مختصر الخليل[5]، شرح منه كتاب الطهارة في مجلدين، ومن الأقضية إلى آخره في سفرين، وإيضاح السالك، على ألفية ابن مالك، إلى اسم الإشارة أو الموصول مجلّد كبير في قدر شرح المرادي، وشرح شواهد شراح الألفية إلى باب «كان» مجلّد، وله خطب عجيبة.

وأمّا أجوبته وفتاويه على المسائل المنوعة فقد سارت بها الركبان شرقًا وغربًا بدوًا

---

(١) في نيل الابتهاج: «ونور اليقين».
(٢) أراد كتاب «حلية الأولياء» للحافظ أبي نعيم الأصفهاني.
(٣) في نيل الابتهاج: «الخليج في أوراق نصف كراس».
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٢٣): «ورجز تلخيص ابن البناء».
(٥) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٣٠): «خليل».

وحضرًا، وقد نقل المازوني والونشريسي[1] منها جملة وافرة.

ومن تآليفه أيضًا عقيدته المسمّاة «عقيدة أهل التوحيد، المخرجة من ظلمة التقليد» و «الآيات الواضحات، في وجه دلالة المعجزات» و «الدليل الواضح المعلوم، في طهارة كاغد الروم» و «إسماع الصم، في إثبات الشرف من قبل الأم» وذكر السخاوي أنّ من تواليفه شرح ابن الحاجب الفرعي، وشرح التسهيل؛ انتهى.

ومولده كما ذكره[2] في شرحه على البردة ليلة الاثنين رابع عشري ربيع الأول عام ستة وستين وسبعمائة قال: حدّثتني أمي عائشة بنت الفقيه الصالح القاضي أحمد بن الحسن المديوني، وكانت من الصالحات ألفت مجموعًا على[3] أدعية اختارتها، وكانت لها قوة على[3] تعبير الرؤيا اكتسبتها من كثرة مطالعتها لكتب الفن، أنه أصابني مرض شديد أشرفت[4] منه على الموت، ومن شأنها وأبيها أنهما لا يعيش لهما ولد إلاَّ نادرًا، وكانوا أسموني أبا الفضل أول الأمر، فدخل عليها أبوها أحمد المذكور، فلمَّا رأى مرضي وما بلغ بي غضب وقال: ألم أقلْ لكم لا تسموه أبا الفضل، ما الذي رأيتم له من الفضل حتى تسموه أبا الفضل؟ سمّوه محمدًا، لا أسمع أحدًا يناديه بغيره إلاَّ فعلت به وفعلت، يتوعّد بالأدب، قالت: فسمّيناك محمدًا، ففرج اللّه عنك؛ انتهى.

ومن فوائده ما حكى في بعض فتاويه قال: حضرت مجلس شيخنا العلامة نخبة الزمان ابن عَرَفة، رحمه اللّه تعالى، أول مجلس حضرته فقرأ ﴿ومنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرحمنِ﴾[5] فجرى بيننا مذاكرات رائقة، وأبحاث حسنة فائقة، منها أنه قال: قرىء (يعشو) بالرفع و (نُقَيِّضْ) بالجزم، ووجهها أبو حيان بكلام ما فهمته، وذكر أنّ في النسخة خللاً، وذكر بعضَ ذلك الكلام، فاهتديت إلى تمامه فقلت: يا سيدي، معنى ما ذكره أنّ جزم ﴿نُقَيض﴾ بمن الموصولة لشبهها بالشرطية لما تضمنت من معنى الشرط، وإذا كانوا يعاملون الموصول الذي لا يشبه لَفْظُهُ لفظَ الشرط بذلك فما يشبه لفظ الشرط أولى بتلك المعاملة،

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٢٤): «والوانشريسي».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «ذكرنا».
(٣) في طبعة دار صادر: «في».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «أشفيت».
(٥) سورة الزخرف ٤٣، الآية ٣٦

فوافق رحمه اللّه تعالى وفرح ـ لما أن الإنصاف كان طبعه ـ وعند ذلك أنكر عليّ جماعة من أهل المجلس وطالبوني بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط، فقلت: نصهم على دخول الفاء في خبر الموصول في نحو «الذي يأتيني فله درهم» من ذلك، فنازعوني في ذلك، وكنت حديثَ عهدٍ بحفظ التسهيل، فقلت: قال ابن مالك فيما يشبه المسألة: وقد يجزم متسبب عن صلة الذي تشبيهًا بجواب الشرط، وأنشدت من شواهد المسألة قولَ الشاعر: [الطويل]

كذاك الذي يبغي على الناس ظالمًا ... تُصِبْهُ على رَغْمٍ عواقبُ ما صَنَعْ

فجاء الشاهد موافقًا للحال؛ انتهى بنقل تلميذه المازوني.

وقد ذكر الشيخ ابن غازي الحكاية في فهرسته في ترجمة شيخه الأستاذ الصُّغَيّر، وفيها بعض مخالفة لما تقدم، فَلْنَسُقْه، قال: حدّثني أنه بلغه عن ابن عرفة أنه كان يدرِّسُ من صلاة الغَدَاة إلى الزوال، يُقْرِىء[١] فنونًا، ويبتدىء بالتفسير، وأن الإمام ابن مرزوق أوّل ما دخل عليه وَجَده يفسّر هذه الآية ﴿ومَنْ يَعْشُ عن ذكر الرحمن ﴾[٢] فكان أوّل ما فاتحه أن قال له: هل يصحّ كون ﴿من ﴾ هنا موصولة؟ فقال ابن عرفة: كيف وقد جزمت؟ فقال له: تشبيهًا لها بالشرط، فقال ابن عرفة: إنما يقدم على هذا بنصّ من إمام أو شاهد من كلام العرب، فقال: أمّا النصّ فقول التسهيل كذا، وأما الشاهد فقول الشاعر: [الطويل]

فلا تَحْفِرَنْ بئرًا تريدُ أخًا بها ... فإنك فيها أنتَ مِنْ دُونِهِ تَقَعْ[٣]

كذاك الذي يبغي على الناس ظالمًا ... تُصِبْهُ على رغمٍ عواقبُ ما صنعْ

فقال ابن عرفة: فأنت إذًا ابنُ مرزوق، قال: نعم، فرحب به؛ انتهى. وهو خلاف ما تقدّم، والأوّل أصوب لنقل غير واحد أنّ جزم الموصولات إنما يكون في الجواب، لا في الشرط، واللّه تعالى أعلم.

وفي بعض المجاميع أنَّ ابن عرفة اشتغل بضيافته لما انفصل[٤] المجلس.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٢٦): «يقرأ».
(٢) سورة الزخرف ٤٣، الآية ٣٦.
(٣) أخذ معنى البيت من قولهم: «من حفر بئرًا لأخيه وقع فيها».
(٤) هكذا في نيل الابتهاج. وفي طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٣٢): «انقضى».

ومن فوائده أنه كان يصرف لفظ [«هريرة» من][1] «أبي هريرة» بناء على أنّ جزء العَلَم غيرُ علم، وخالفه أهل فاس في ذلك لما بلغهم، ومال الأستاذ الصغير والحافظ القوري إلى منع الصرف لوجوه ليس هذا موضعها، ومنها قول ابن مالك: [الرجز]

ولاضطرار كَبَنَاتِ الأوبرِ

فإنه مؤذن بأنّ جزء العَلَم عَلَمٌ، وقد ألف في المسألة أبو عباس التلمساني[2] تأليفًا سماه «الاعتراف، في ذكر ما في لفظ أبي هريرة من الانصراف»؛ انتهى.

ومن نظمه: [الكامل]

بلدُ الجِدارِ ما أَمَرَّ نَوَاها ... كلفَ الفؤادُ بحبِّها وهواها
يا عاذلي كنْ عاذري في حبِّها ... يكفيك منها ماؤها وهواها

ويعني ببلد الجدار تلمسان، ولذلك قال في رجز في علم الحديث ما صورته: [الرجز]

ومَنْ بها[3] أهلُ ذكاءٍ وفِطَنْ ... في رابعٍ من الأقاليم قُطِنْ
يكفيك أنْ الداودي بها دُفِنْ ... مع ضجيعه ابن غزلونَ الفَطِنْ

قلت: وحدّثني عمي الإمام سيدي سعيد المقَّري ـ رحمه اللّه تعالى! ـ أنّ العلامة ابن مرزوق لما قدم تونس في بعض الرسائل السلطانية طلب منه أهل تونس أن يقرأ لهم في التفسير بحضرة السلطان؛ فأجابهم إلى ذلك، وعيّنوا له محلّ البدء، فطالع فيه، فلمّا حضروا قرأ القارىء غير ذلك، وهو قوله تعالى ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ ـ الآية ﴾[4] وأرادوا بذلك إفحام الشيخ، والتعريض به، فوجم هنيهة، ثم تفجّر بينابيع العلم، إلى أن أجرى ذكر ما في الكلب من الخصال المحمودة، وساقها أحسن مساق، وأنشد عليها الشواهد، وجلب الحكايات، حتى عَدَّ من ذلك جملة، ثم قال في آخرها: فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله، غير أنّ فيه خصلة ذميمة[5]، وهي إنكاره للضيف، ثم افترق المجلس،

---

(١) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.
(٢) كلمة «التلمساني» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٢٧): «وأهلها أهل..».
(٤) سورة الأعراف ٧، الآية ١٧٦.
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٣٣): «أنّ فيه واحدة ذميمة».

وأخبرني أنه أطال في ذلك المجلس من الصبح إلى قرب الظهر، وقد طال عهدي بالحكاية، وإنما نقلتها بمعناها من حفظي، وهي من الغرائب، ولولا الإطالة لذكرت ما وقع له مع بعض علماء برصّه في الحجاز حسبما ذكره في مناقب شيخه المصمودي، رحم اللّه الجميع!.

رجع إلى ذكر مشايخ لسان الدين، فنقول:

ومن مشايخ لسان الدين الرئيس أبو الحسن علي ابن الجياب[1]، وهو كما في «الإحاطة»[2] علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن الحسن[3]، الأنصاري، الغرناطي، أبو الحسن، قال: وهو شيخنا ورئيسنا العلاّمة البليغ. ومن مشايخه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، وخلق، قال: وقد دوّنت شعره، فمن مُعَشّراته قوله في حرف الجيم[4]: [الطويل]

جريئًا على الزلأت غير مفكِّرِ	جبانًا على الطاعاتِ غير مُعَرِّجِ
جَمَعْتَ لما يفنى اغترارًا بجمعه	وضَيَّعْتَ ما يبقى سجيَّةَ أَهْوَجِ
جنونًا بدارٍ لا يدومُ سرورُها	فدعها سُدًى ليست بِعُشِّكَ فاذرُجي[5]
جيادُك في شأو الضلالِ سوابقٌ	تفوتُ مدى سِنٍّ[6] الوجيه وأعوج
جهلتَ سبيلَ الرشدِ فاقصدْ دليلَهُ	تجدْ دارَ سَعْدٍ بابُها غيرُ مُرْتَجِ
جنابُ رسولٍ ساد أولادَ آدمٍ	وقُرِّبَ في السبع الطباقِ بمَعْرَجِ
جمالٌ أنارَ الأرضَ شرقًا ومغربًا	فكلُّ سَنًا من نوره المتبلّجِ
جلا صدأَ المرتابِ أنْ سبَّحَ الحصى	لديه بنطقٍ ليس بالمتلجلجِ

(١) ترجمة ابن الجياب في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٢٥) والكتيبة الكامنة (ص ١٨٣) ونثير فرائد الجمان (ص ٢٣٩) ونيل الابتهاج (ص ١٩٣) والديباج المذهب (ص ٢٠٧) ودرة الحجال في أسماء الرجال (جـ ٢ ص ٤٣٥).

(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٢٥).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٣٤): «حسن».

(٤) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٢٨).

(٥) في الإحاطة: «فادرجِ». وقوله: «ليس بعشّك فادرُجي» أخذه من المثل: «ليس هذا بِعُشّكِ فادْرُجي». أي ليس هذا من الأمر الذي لك فيه حقّ فدعيه؛ يضرب لمن يرفع نفسه فوق قدره مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ١٨١).

(٦) في الإحاطة «بين». والوجيه وأعوج: فرسان من جياد خيل العرب. لسان العرب (وجه) و (عوج).

جعلتُ امتداحي والصلاةَ عليه لي وسائلَ تُخطِيني بما أنا مرتَجِ[1]

وقال من الأغراض الصوفية السلطانية[2]: [الكامل]

هاتِ اسقني صِرْفًا بغير مزاجِ راحي[3] التي هي راحتي وعلاجي
إنْ صبَّ منها في الزجاجة قطرةً شَفَّ الزجاجُ عن السَّنا الوهّاج
وإذا[4] الخليعُ أصاب منها شَربةً حاجاه بالسِّرِّ المصون مُحَاجِي
وإذا المريدُ أصاب منها جُرْعَةً ناجاه بالحقِّ المُبين مُناجي
تاهَتْ به في مَهْمَهٍ لا يهتدي فيه لتأويبٍ[5] ولا إدلاج
يرتاحُ من طَرَبٍ بها فكأنما[6] غَنَّتْه بالأرمالِ والأَهْزاج
هَبَّتْ عليه نفحةٌ قُدْسية في فَيْءِ بابٍ دائمِ الإرتاجِ[7]
فإذا انتشى[8] يومًا وفيه بقيّةٌ سارتْ به قصدًا على المنهاج
وإذا تمكّن منه سُكْرٌ مُعَرْبِدٍ فليصبرنَّ[9] لمصرع الحلاّج
قصرتْ عبارةُ فيه عن وجدانه فغدا يفيضُ بمنطقٍ لَجْلاَجِ
أعشاهُ نورٌ للحقيقةِ باهرٌ فتراهُ يخبط[10] في الظلام الداجي
رام الصعودَ بها لمركز أصله فَرَمَتْ به في بحرها الموّاج
فلئن أُمِدَّ برحمةٍ وسعادةٍ فليخلصنْ من بعدِ طول هِياج
وليرجعنَّ بغنيمةٍ موفورةٍ ما شِيبَ عَذْبُ شرابها بأُجاج[11]
ولئن تخطّاه[12] القبولُ لما جنى فليرجعنْ نِكْسًا على الأدراج

(١) في الإحاطة: «أرتج».
(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٢٨ ـ ١٣٠).
(٣) في الإحاطة: «واخي».
(٤) في الإحاطة: «فإذا».
(٥) في الإحاطة (ص ١٢٩): «التأديب».
(٦) في الإحاطة: «فكأنها».
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٣٥): «نسمةٌ قُدْسيّةٌ». وفي الإحاطة: «في فتح بابٍ..».
(٨) هكذا في الإحاطة. وفي طبعة دار صادر: «انثنى».
(٩) في الإحاطة: «فليبصرنَّ».
(١٠) في الإحاطة: «يهبط».
(١١) الأُجاج: الملح. محيط المحيط (أجج).
(١٢) في الإحاطة: «تخطاه».

مـا أنـتَ إلاّ دُرَّةٌ مـكـنـونـةٌ ... قد أُودعتْ في نُطْفةٍ أمْشَاجِ[1]
فاجهدْ على تخليصها من طبعها ... تـعرُجْ بـهـا فـي أرفـع الـمِـعْـراج
وٱشْدُدْ يديك معًا على حبلِ التُّقى ... فإن اعتصمْتَ به فأنتَ الناجي
ولدى العزيز ٱبسط بِساطَ تذلُّلٍ ... وإلى الغنيِّ ٱمدُدْ يَدَ المحتاج
هـذا الـطـريـقُ لـه مقدّمتانِ صا ... دقـتـانِ أنـتـجـتـا أَصَحَّ نـتـاج
فاجمعْ إلى تَرْك الهوى حمل الأذَى ... واقْـنَـعْ مـن الإسـهـاب بـالإدمـاج
حَرْفان قد جمعا الذي قد سطروا ... من بَسْطِ أقوالٍ وطولِ حِجَاج
والمشربُ الأصفى الذي مَنْ ذاقه ... فـقـد اهـتـدى مـنـه بـنـورِ سِـراج
أن لا ترى إلاّ الحقيقةَ وحدها ... والـكـلُّ مـضـطـرٌّ إلـيـهـا لاجـي
هـذي بـدائـعُ حـكـمـةٍ أنـشـأْتُـهـا ... بـإشـارةِ الـمـولـى أبـي الـحـجّـاج
وَسِـعَ الأنـامَ بـفـضـلِـهِ وبـعـدْلِـهِ ... وبـحـلـمـه[2] وبـجـوده الـثَّـجَّـاجِ
من آل نصرٍ نخبة الملكِ الرِّضا ... أَمْنُ المروَّع هُمْ وغيثُ الراجي[3]
من آل قيلة ناصري خيرِ الورى ... والـخـلـقُ بـيـن تـخـاذُلٍ ولـجـاج[4]
مـاذا أقـولُ وكـلُّ قـولٍ قـاصـرٌ ... في وصفِ بحرٍ زاخرِ الأمواج
مـنـه لـبـاغـي الـعُـرْفِ دُرٌّ فـاخـرٌ ... ولمن يعادي الدينَ هَوْلٌ فاجي[5]
دامتْ سعودُك في مزيدٍ، والمُنَى ... تـأتـيـك أفـواجًـا عـلـى أفـواج

وقال من المطولات[6]: [الكامل]

لمن المَطايا في السّرابِ سوابحًا ... تَفْلي الفلاة غواديًا وروائحا
عُوجٌ كأمثال القسيِّ ضوامرٌ ... يرمين في الآفاق مَرْمًى نازحا[7]

---

(1) أمشاج: مختلطة؛ قال الله تعالى: ﴿إنّا خَلَقْنا الإنسانَ مِن نُطفةٍ أَمْشاجٍ﴾. سورة الإنسان ٧٦، الآية ٢.
(2) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٢٩): «وبحمله».
(3) في الإحاطة (ص ١٣٠): «اللاّج».
(4) في الإحاطة: «من آل قبله..». واللجاج: العناد في الخصومة، والجدل. لسان العرب (لجج).
(5) فاجي: أصل القول: «فاجىء» وقد سهّل الهمزة فقلبها ياء.
(6) البيتان في الإحاطة (ج ٤ ص ١٣٠) ضمن قصيدة من ٥٦ بيتًا.
(7) في الإحاطة: «كأمثال اللقي». والعوج: النوق، واحدها أعوج. لسان العرب (عوج).

وقال يمدح، ويصف مصنعًا سلطانيًا[1]: [الكامل]

زارت تجرُّ لنحوه أذيالها ... هيفاءُ تخلطُ بالنِّفار دَلالَها[2]

فالشمسُ[3] من حسدٍ لها مُصْفَرَّةٌ ... إذ قَصَّرَتْ عن أن تكونَ مِثالها

وافَتْكَ تمزجُ لينَها بقساوةٍ ... قد أدرجَتْ طيَّ العِتاب نوالَها

كم رُمْتَ كتم مزارها لكنه ... صَحَّتْ دلائلُ لم تُطِقْ إعلالها

تركتْ على الأرجاء عند مسيرها ... أرَجًا كأنَّ المِسْكَ فُتَّ خِلالها

ما واصلتك محبَّةً وتفضُّلاً ... لو كان ذاك لواصلتْ إفضالها

لكن توقَّعتِ السُّلُوَّ فجدَّدَتْ ... لك لوعةً لا تتقي ترحالها

فوحُبُّها قَسَمًا يحقُّ برورُهُ ... لتُجَشِّمَنَّكَ في الهوى أهوالها

حَسَّنْتَ نظمَ الشِّعرِ في أوصافها ... إذ قَبَّحَتْ لك في الهوى أفعالها

يا حُسْنَ ليلةِ وصلها، ما ضرَّها ... لو أَتْبَعَتْ من بعدها أمثالها

لمَّا سَكِرْتَ بريقها وجفونها ... أهملتَ كأسكَ لم تُرِدْ إعمالها

هذا الربيعُ أتاك ينشرُ حُسْنَهُ ... فافسحْ لنفسك في مَدَاه مجالها

واخلعْ عِذارك في البطالة جامحًا ... واْقرِنْ بأسحارِ الهنا[4] آصالها

في جنَّةٍ تجلو محاسنها كما ... تجلو العروسُ لدى الزفاف جمالها

شكرتْ أيادي للحيا شُكْرَ الورى ... شرفَ الملوك همامَها مفضالها

وصميمها أصلاً وفرعًا، خيرَها ... ذاتًا وخُلُقًا، سمحَها بَذَّالها[5]

الطاهرَ الأعلى الأمين[6] المرتضى ... بحرَ المكارم غَيْثَها سِلْسالها

حازَ المعالي كابرًا عن كابرٍ ... وجَرَى لغايات الكرام فنالها

---

(١) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٣٣ ـ ١٣٥) ونثير فرائد الجمان (ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٣٦): «تجرُّ بنخوةٍ أذيالها..». وفي الإحاطة: «تجرّر نحوه أذيالها..». وفي نثير فرائد الجمان: «تجرّر نخوة... هيهات تخلط..».

(٣) في الإحاطة ونثير فرائد الجمان: «والشمس».

(٤) في الإحاطة: «المنى».

(٥) في الإحاطة: «وصميمها أصلاً وفرعًا..». وفي نثير فرائد الجمان (ص ٢٤١): «ذاتًا خلقًا وسمحها..». والبذّال: الكثير البذل والعطاء. لسان العرب (بذل).

(٦) في الإحاطة: «الإمام المرتضى».

إن تَلْقَهُ في يومِ بَذْلِ هِبَاتِهِ ... تَلْقَ الغمائمَ أرسلت هطّالها[1]
أو تَلْقَهُ في يوم حرب[2] عُداتِه ... تَلْقَ الضَّراغمَ فارقت أشبالها
ملك إذا ما صال يومًا صَوْلةً ... خِلْتَ البسيطةَ زُلزلت زلزالها
فَبِسَيْبِهِ وبسيفه نلتَ[3] المُنى ... واستعجلت أعداؤه آجالها
الواهبُ الآلافِ قبل سؤالها ... فكفى العُفاةَ سؤالها ومِطالها
القاتلُ[4] الآلافِ قبل قِراعها ... فكفى العُداةَ قِراعها ونِزالها
إنْ قلتَ بحرٌ كفُّه قَصَّرْتَ إذ ... شَبَّهْتَ بالملح الأُجاجِ نوالها
ملأَ البسيطةَ عدلُهُ وأمانه[5] ... فالوحشُ لا تعدو على مَنْ غالها
وسقى البريَّةَ فيضُ كَفَّيه فقد ... عمَّ البلادَ سهولها وجبالها
جمعَ العلومَ عنايةً بعيونها[6] ... آدابَها وحسابَها وجِدَالَها
منقولها، معقولها، وأصولها ... وفروعَها، تَفصيلَها إجمالها
فإذا عُفاتك عاينوكَ تهللوا ... لمّا رأروا من كَفِّك استهلالها
وإذا عُداتك أبصروك تيقَّنوا ... أنَّ المنيَّةَ سلَّطَتْ رئبالها[7]
بدّدتَ شملهمُ ببيضٍ صوارمٍ ... روَّيْتَ من عَلَقٍ[8] الكماة نِصالها
وأبحتَ أَرْضَهُمُ فأصبح أهلها ... خَوَرًا[9] تُغادر نهبةً أموالها
فَتَحَتْ إمارتُكَ السعيدةُ للورى ... أبوابَ بُشْرى واصلتْ إقبالها
وبَنَتْ مصانعَ رائقاتٍ ذَكَّرَتْ ... دارَ النعيم جنانَها وظلالَها
وأجلُّها قدرًا وأرفعُها مدًى ... هذا الذي سامَى النجومَ وطَالَها[10]
هو جنّةٌ فيها الأميرُ مخلَّدٌ ... بلغتْ إمارتُهُ بها آمالها

---

(١) في نثر فرائد الجمان: «وإن تلقه..». والهطّال: المتابع الهطول. لسان العرب (هطل).
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٣٧): «جرب» بالجيم المعجمة.
(٣) في الإحاطة: «نال». وفي نثير فرائد الجمان: «نيل».
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٣١): «والقاتل».
(٥) في الإحاطة: «ونواله».
(٦) في الإحاطة ونثير فرائد الجمان: «بفنونها».
(٧) الرئبال: الأسد. محيط المحيط (رأبل).
(٨) العَلَقُ: الدم. لسان العرب (علق).
(٩) في الإحاطة ونثير فرائد الجمان (ص ٢٤٢): «جُزُرًا».
(١٠) في الإحاطة: «فطالها».

ولأرضِ أندلسٍ مفاخرُ، أنتمُ أربابها، أضفيتُمُ سِرْبالَها[1]
فحميتُمُ أرجاءها، وكفيتُمُ أعداءها، وهديتُمُ ضُلاّلَها
فبآل نصرٍ فاخرتْ لا غيرهم لم تعتمدْ من قبلهم أقيالها[2]
بمحمدٍ ومحمدٍ ومحمد قَصَرتْ على الخصم الألدّ نِضَالَها
فهم الأُلى ركبوا لكلِّ عظيمةٍ جُرْدًا كَسَيْنَ من النجيع جِلالَها
وهم الأُلى فتحوا لكلِّ مُلِمَّةٍ بابًا أزاحَ بفتحه إشكالها
متقلِّدون من السيوف عضابها[3] متأبِّطون من الرماح طوالها
الراكبون من الجِياد عِرابها والضاربون من العدا أبطالها
أوليّ عهد المسلمين ونخبة الأملاك صفوةَ مَخْضها وزلالها
إنَّ العبادَ مع البلادِ مُقِرَّةٌ بفضائلٍ لك مهَّدت أحوالها
فتفكُّ عانيها، وتحمي سِرْبَها وتُفيدُ حلمًا دائمًا جُهَّالها

وقال يرثي ولده أبا القاسم رحمهما اللّه تعالى[4]: [الطويل]

هو البَيْنُ حتمًا، لا لعلَّ ولا عسى فما بالُ نفسي لم تَفِضْ عنده أسى
وما لِفُؤَادي لم يذبْ منه حسرةً فَتَبًّا لهذا القلبِ سَرْعَانَ ما قسا
وما لجفوني لا تفيضُ مُوَرَّدًا من الدمع يَهْمي تارةً ومُوَرَّسا[5]
وما للساني مُفْصِحًا بخطابه وما كان لو أوفى بعهدٍ ليَنْبِسا
أَمِنْ بعدما أودعتُ روحيَ في الثرى ووسَّدْتُ مني فَلْذَةَ القلب مَرْمسا[6]
وبعد فراقِ ابنيْ أبي القاسم الذي كسانيَ ثوبَ الثُّكل لا كان مُلْبسا
أؤمِّلُ في الدنيا حياةً وأرتضي مَقيلاً لدى أبنائها ومُعَرَّسَا[7]

(١) أضفيتم سربالها: جعلتم السربال ضافيًا، والسربال: الثوب. لسان العرب (ضفى) و (سربل).
(٢) الأقيال: جمع قيل وهو الذي يقول فلا يجسر أحدٌ أن يردَّ قوله. لسان العرب (قال).
(٣) العضاب: جمع عضب وهو السيف الصارم. لسان العرب (عضب).
(٤) الإحاطة (ج ٤ ص ١٣٥ . ١٣٧).
(٥) في الإحاطة: «ويا لجفوني». والمورّس: الأصفر بلون الزعفران. لسان العرب (ورس).
(٦) المرمس: الموضوع في الرمس، والرمس هو القبر. لسان العرب (رمس).
(٧) المقيل: المكان تقيل فيه وقت القيلولة. والمعرَّس: المكان تنزل فيه ليلاً لسان العرب (قال) و (عرس).

فآهًا وللمفجوع فيها استراحةٌ ... ولا بُدَّ للمصدورِ أن يتنفّسا
على عُمُرٍ أَفنَيْتُ فيه بضاعتي ... فأَسلمني للقبر حيرانَ مُفْلسا
ظللتُ به في غفلةٍ وجهالةٍ ... إلى أن رمى سهمَ الفراقِ فَقَرْطَسا[1]
إلى اللّه أشكو بَرْحَ حزني فإنه ... تَلَبَّسَ منه القلبُ ما قد تلبَّسا
وهَدَّةَ[2] خطبٍ نازلتني عشيةً ... فما أغنتِ الشكوى ولا نَفَعَ الأَسا
فقد صَدَّعَتْ شملي وأصمَتْ مقاتلي ... وقد هدَّمتْ ركني الوثيقَ المؤسَّسا
ثبتُّ لها صبرًا لشدّة وقعها ... فما زلزلتْ صبري الجميلَ وقد رسا
وأطمعُ[3] أن يلقى برحمته الرضا ... وأجزعُ أن يشقى بذنب فينكسا
أبا القاسم اسمع شَكْوَ[4] والدك الذي ... حَسا من كؤوس البين أفظعَ ما حسا
وقفتُ فؤادي مذ رحلتَ على الأسى ... فأشهدُ[5] لا ينفكُّ وَقْفًا مُحبَّسا
وقطَّعْتُ آمالي من الناس كلِّهم ... فلستُ أُبالي أَحْسَنَ المرءُ أم أسا
تواريتَ يا شمسي وبدري[6] وناظري ... فصار وجودي مذ تواريْتَ حِنْدِسَا
وخلَّفْتَ لي عِبْئًا من الثّكل فادحًا ... فما أتعبَ الثّكلان نفسًا وأَتْعَسا
أحقًّا ثوى[7] ذاك الشبابُ فلا أرى ... له بعد هذا اليوم حوليَ مجلسا
فيا غُصُنًا نضرًا ثوى عندما استوى ... فأوحشني أضعافَ ما كان آنسا[8]
ويا نعمةً لمَّا تبلَّغتُها انقضتْ ... فأنعَمُ أحوالي بها صار أبؤسا[9]
لَوَدَّعْتُه والدمعُ تهمي سحابُه ... كما أسلم السلكُ الفريدَ المخمّسا[10]
وقَبَّلْتُ في ذاك الجبين مودعًا ... لأكرم من نفسي عليَّ وأَنْفَسا

---

(١) قرطس: أصاب الهدف. لسان العرب (قرطس).
(٢) في الإحاطة (ص ١٣٦): «وصدمة».
(٣) في الإحاطة: «وطمع في أن..»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الإحاطة: «شَجْوَ».
(٥) في الإحاطة: «وأشهد».
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٣٩): «يا بدري وشمسي..».
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٣٣): «توى» بالتاء.
(٨) في طبعة دار صادر: «وأوحشني... أنسا».
(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٣٤): «أبأسا».
(١٠) في الإحاطة: «فودّعته والدمع يهمي.. المجنسا».

وحققتُ من وجدي به قربَ رحلتي | وماذا عسى أن يُنظِرَ الدهرُ مَنْ عسا[1]
فيا رحمةً للشيبِ يبكي شيبةً | قياسٌ لعمري عَكْسُه كان أقيسا
فلو أنَّ هذا الموتَ يقبلُ فِدْيةً | حَبَوْنَاه أموالاً كِرامًا وأنفُسا
ولكنه حكمٌ من اللّه واجبٌ | يُسَلِّم فيه من بخير الورى ائتسى[2]
تغمدك الرحمنُ بالعفو والرضا | وكرَّمَ مَثْوَاكَ الجديدَ وقدَّسا
وألَّف منّا الشمل في جنّة العُلا | فنشرب تسنيما[3] ونلبسُ سندسا

وكتب إلى القاضي الشريف وهو بوادي آش[4]: [الطويل]

أهزلاً وقد جَدَّتْ بك اللِّمَّةُ الشمطا | وأَمْنًا وقد ساورتِ يا حَيَّةً رَقْطَا[5]
أغرَّكَ طولُ العمر في غيرِ طائلٍ | وسَرَّكَ أنَّ الموتَ في سيره أبطا
رويدًا فإنَّ الموتَ أسرعُ وافدٍ | على عمركَ الفاني ركائبه حَطَّا
فإذ ذاك لا تسطيعُ إدراكَ ما مضى | بحالٍ، ولا قَبْضًا تطيقُ ولا بَسْطَا
تأهَّبْ فقد وافى مَشِيبُكَ منذرًا | وها هو في فَوْدَيْكَ أحْرُفَه خَطَّا
فرافقتَ منه كاتبَ السِّرِّ واشيًا | له القلمُ الأعلى يخطّ به وخطا
مُعَمَّى كتابٍ فكُّه «احذرْ» فهذه | سفينةُ هذا العمرِ قاربتِ الشَّطَّا
وإنْ طالما خاضتْ به[6] اللجَجَ التي | خبطتَ بها في كلِّ مهلكةٍ خبطا
وما زلتَ في أمواجها متقلّبًا | فآونة رفعًا وآونة حَطَّا
فقد أوشكتْ تلقيك في قعرِ حفرةٍ | تشدُّ عليكَ الجانبين بها ضغطا
ولستَ على علم بما أنت بعدها | مُلاقٍ، أَرِضْوَانًا من اللّه أم سخطا
وأعجبُ شيء منك دعواك في النُّهى | وهذا الهوى المُرْدي على العقل قد غَطَّى

(١) في الإحاطة: «وخفّف من وجدي..». وعسا: كبر وشاخ. لسان العرب (عسا).
(٢) ائتسى: اقتدى. لسان العرب (أسا).
(٣) التسنيم: عينٌ في الجنة. لسان العرب (سنم).
(٤) الإحاطة (ج ٤ ص ١٤٠ - ١٤٢).
(٥) في الإحاطة: «الشمطاء، وأمنًا وقد ساورتها حيّة..». واللّمّة الشمطا: التي وخطها الشيب. الحية الرقطاء: المرقشة وهي من أخبث الحيّات. لسان العرب (شمط) و (رقط).
(٦) في الإحاطة: «خاضت بك».

قسطتَ عن الحقِّ المبينِ جهالةً وقد خالفتك النفسُ فأدَّعت القَسْطا[1]
وطاوعتَ شيطانًا تجيبُ إذا دعا وتَقْبَلُ إن أَغْوَى وتأخذُ إن أعطى
تناءَى عن الأخرى وقد قَرُبَتْ مدًى تدانى من الدنيا وقد أَزمعت شَحْطا[2]
وتمنحها حبًّا وفرطَ صَبابةٍ وما منحتْ إلاَّ القَتادةَ والخَرْطا[3]
فها أنت تهوى وَصْلَهَا وهي فارِكٌ وتأمل قُرْبًا من حِماها وقد شَطًّا
صراطُ هدًى نَكَّبتَ عنه عِمايةً ودار رَدًى أوعيت في سجنها سَرْطا[4]
فما لك إلاَّ السيدُ الشافعُ الذي له فضلُ جاهٍ كلّ ما يَرْتَجِي يُعْطَى
دليلٌ إلى الرحمن، فانهجْ سبيلَهُ فمن حاد عن نهج الدليلِ فقد أَخْطا
محبّته شرطُ القَبول، فمن خلتْ صحيفتُهُ منها فَقَدْ فَقَدَ الشَّرْطا
وما قُبِلَتْ منه لدى اللّه قربةٌ ولا[5] زكت الأعمال، بل حَبَطَتْ حَبْطا
به الحقّ وضاحٌ، به الإفكُ زاهقٌ به الفوزُ مَرْجُوٌّ، به الذنبُ قد حُطّا
هو الملجأُ الأحمى، هو الموئلُ الذي به في غدٍ يستشفعُ المذنِبُ الخطّا[6]
لقد مازَجَتْ روحي محبتُه التي بقلبيَ خُطَّتْ قبل أن أعرفَ الخطًّا[7]
إليك ابنَ خيرِ الخلقِ بنتَ بديهةٍ تُقَبِّلُ تَبجيلاً أناملَكَ السُّبْطَا
وحيدةَ هذا العصرِ وافتْ وحيدة لتبسطَ من شَتَّى بدائعها بَسْطَا
وتتلوَ آياتِ التشيُّع إنها لموثقةٌ عهدًا ومحكمةٌ ربطا
لكَ الشرفُ المأثور يا ابنَ محمدٍ وحسبك أن تُنْمَى إلى سِبْطه سبطا
إلى شرفَيْ دينٍ وعِلْمٍ تظاهرًا تبارك من أعطى وبُورك في المعطى

---

(١) في الإحاطة (ص ١٤١): «وقد غالطتك النفس..». وقسطت عن الحق: انحرفت. لسان العرب (قسط).

(٢) الشَّحط: البعد. لسان العرب (شحط).

(٣) القتادة: ضرب من الشجر الصلب له شوك كالإبر. وخَرْطُ القتادة: انتزاعها باليد. لسان العرب (قتد) و (خرط).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٣٥): «أودعت في سجنها..». وفي طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٤١): «في سُحتها سرطا».

(٥) في طبعة دار صادر: «وما زكت».

(٦) الخطا: أصل القول: الخطاء، وقد حذف الهمزة.

(٧) لم يرد هذا البيت في الإحاطة.

ورهطُكَ أهلُ البيتِ، بيتِ محمدٍ فأعظِمْ به بيتًا وأكرِمْ به رهطا
بَعَثْتُ به عِقْدًا من الدُّرِّ فاخرًا وذكرُ رسول اللّه دُرَّتُهُ الوُسْطَى[1]
وأهديتُ منها للسيادة غادةً نَظَمْتُ من الدُّرِّ الثمين بها سِمْطَا
وحاشيتها من كل ما شانها[2]، فإن تجعَّدَ حُوشِيٌّ تجدْ لفظها سَبْطا
وفي الطيبين الطاهرين نَظَمْتُها فساعَدَها من أجلِ ذلك حرفُ الطا
عليك سلامُ اللّه ما ذَرَّ شارقٌ وما ردَّدتْ ورقاءُ في غصنها لَغطا[3]

وقال[4]: [مخلع البسيط]

للّه عصرُ الشبابِ عصرًا فَتَّحَ للخير كلَّ بابِ
حَفِظْتُ ما شئتُ فيه حفظًا كنتُ أراهُ بلا ذهابِ
حتى إذا ما المشيبُ وافى نَدَّ[5] ولكنْ بلا إيابِ
لا تعتنوا بعدها بحفظٍ وقيِّدوا العلمَ بالكتابِ

وقال[6]: [مخلع البسيط]

يا أيها المُمْسِكُ البخيلُ إلٰهُكَ المنفقُ الكفيلُ
أَنفِقْ وثِقْ بالإلٰه تَرْبَحْ فإنَّ إحسانَهُ جزيلُ
وقدِّم الأقربين واذكرْ ما رُوِيَ ابْدَأْ بمن تَعُولُ

وقال[7]: [المتقارب]

وقائلةٍ لِمْ عراكَ المشيبُ وما إن بعهد الصِّبا مِنْ قِدَمْ
فقلتُ لها لم أشِبْ كَبْرَةً ولكنه الهمُّ نصفُ الهَرَمْ

---

(١) الدُّرّة الوسطى: التي تكون في وسط العقد وهي أكبر حبات العقد وأحسنها.
(٢) في الإحاطة (ص ١٤٢): «شأنها».
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٤٢: «في غُصْنٍ لغطا». وفي الإحاطة: «ما دَرَّ شارق».
(٤) الإحاطة (ج ٤ ص ١٤٣).
(٥) نَدَّ: نفر. محيط المحيط (ندد).
(٦) الإحاطة (ج ٤ ص ١٤٣).
(٧) الإحاطة (ج ٤ ص ١٤٣).

وقال[1]: [الطويل]

أيعتادني سقمٌ وأنتَ طبيبُ ... وتبعدُ آمالي وأنتَ قريبُ
يقينيَ أنّ اللّه جَلَّ جلاله ... يقيني[2] فراجي اللّه ليس يخيبُ

وقال[3]: [المتقارب]

هي النفسُ إنْ أنتَ سامَحْتَها ... رَمَتْ بكَ أقصى مَهاوي الخديعهْ
وإن أنتَ جَشَّمتها خُطَّةً ... تنافي رضاها تجدْها مطيعهْ
فإن شئتَ فوزًا فناقضْ هواها ... وإن واصلتْكَ أجزها بالقطيعهْ[4]
ولا تعبأنَّ بميعادها ... فميعادُها كسَرَابٍ بِقِيعَهْ

وقال[5]: [الكامل]

من أنت يا مولى الورى مقصودُهُ[6] ... طوبَى له قد ساعَدَتْهُ سعودُهُ
فليشهدنْك له فؤادٌ صادقٌ ... وشهودُهُ قامتْ عليه شهودُهُ
وليفنينْ عن نفسه ورسومه ... طُرًّا، وفي ذاك الفناءِ وجودُهُ
وليحفظنْه[7] بارقٌ يَرْقى به ... في أشرفِ المعراجِ ثم يعيده
حتى يظلَّ وليس يدري دهشةً ... تقريبُهُ المقصودُ أم تبعيده
لكنه ألقى السلاحَ مسلِّمًا ... فمراده ما أنت منه تريده
فلقد تساوى عنده إكرامُهُ ... وهَوَانُه ومفيدُهُ ومُبيدُهُ

وقال ملغزًا في حجل[8]: [الرجز]

حاجيتُ كل فَطِنٍ لبيبِ ... ما اسمٌ لأنثى من بني يعقوبِ[9]

---

(١) البيت الثاني فقط في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٤٤).

(٢) يقيني: يحفظني. لسان العرب (وقى).

(٣) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٤٣).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٣٧): «أجزها القطيعة».

(٥) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٦) في الإحاطة: «مقصود».

(٧) في الإحاطة: «وليخطفنه».

(٨) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٤٤) والكتيبة الكامنة (ص ١٨٩).

(٩) في الكتيبة الكامنة: «خاطبت كل فطنٍ...». وفي الإحاطة: «ما اسم الأنثى..». واليعقوب: ذكر =

ذاتُ كـرامـاتٍ فـرزهـا قـربـةً	فَـزَوْرُهـا أحـقُّ بـالـتـقـريـب
تشركها في الاسم أنثى لم تزلْ	حـافـظـةً لـسـرِّهـا الـمـحـجـوب
وقد جرى في خاتم الوحي الرضا	لـهـا حـديـثٌ لـيـس بـالـمـكـذوب
وهو إذا ما الفاء[1] منه صُحِّفَتْ	صبغُ الحياءِ لا الحيا المسكوب
فـهـاكـهـا واضـحـةً أسـرارُهـا	فـأَمْـرُهـا أقـربُ مـن قـريـبِ

وقال أيضًا في آب[2]: [مجزوء الرجز]

حاجيتكُمْ ما اسْمٌ عَلَمْ	ذو نـسـبـةٍ إلـى الـعَـجَـمْ
يـخـبـرُ بـالـرجـعـة وهـ	ـو راجـعٌ كـمـا زَعَـمْ
وصـفُ الحـبـيـب[3] هـو بـالـتـصـحـيـف أو بـدءُ قَـسَـمْ
دونــكــه أوضــحُ مــن	نــارٍ عــلــى رأسِ عَـلَـمْ

وقال في كانون[4] : [الهزج]

ومـا اسـمٌ لـسـمـيّـيـن[5]	ولـم يـجـمـعـهـمـا جـنسُ
فـهـذا كـلّـمـا يـأتـي	فـبـالآخـرِ لـي أُنـسُ
وهـذا مـا لـه شـخـصٌ	وهـذا مـا لـه حِـسُّ
وهـذا مـا لـه سَـوْمٌ	وذا قـيـمـتُـهُ فِـلْـسُ[6]
وهـذا أصـلـه الأرضُ	وهـذا أصـلُـهُ الـشـمـس
وهـذا واحـدٌ مـن سـبـ	ـعة تـحـيـا بـهـا الـنـفـس
فـمـن مـحـمـولِـهِ الـجِنُّ	ومـن مـوضـوعـه الإنـس
فـقـد بـانَ الـذي ألـغـز	تُ مـا فـي أمـره لَـبْـسُ

= الحجل. محيط المحيط (عقب).

(١) في الكتيبة الكامنة: «الحاء». والفاء: فاء كلمة «الحجل» وهو حرف الحاء.

(٢) الإحاطة (ج ٤ ص ١٤٤) والكتيبة الكامنة (ص ١٨٩ - ١٩٠).

(٣) في الإحاطة: «الحميم». وفي الكتيبة الكامنة: «الحميم معربًا تصحيفٌ..».

(٤) الإحاطة (ج ٤ ص ١٤٥) والكتيبة الكامنة (ص ١٩٠).

(٥) أي إنّ كانون هو موقد النار، وشهر من شهور السنة الرومية.

(٦) في الكتيبة الكامنة: «وهذا سومُهُ فلس».

وقال في سُلّم[1]: [الرجز]

ما اسمٌ مركّبٌ مفيدُ الوضع	مستعملٌ في الوصل لا في القطعِ
يُنْصَبُ لكن أكثرُ استعمالِ من[2]	يُغنى به في الخفض أو في الرفعِ
هو إذا خففته مغيرا[3]	تراه شملاً لم يزلْ ذا صدع
فالاسمُ إن طلبته تجده في	خامسةٍ من الطوالِ السَّبْعِ
وهو إذا صَحَّفْتَهُ يُغربُ عن	مُكَسَّرٍ في غيرِ بابِ الجمعِ[4]
له أخٌ أفضلُ منه لم تزلْ	آثارُهُ محمودةً في الشَّرْعِ[5]
هما جميعًا من بني النجار[6] والأفـ	ـضلُ أصلٌ في حنين الجذع
فهاكه قد سَطَعَتْ أنوارُهُ	لا سيما لكلِّ ذاكي[7] الطبع

وقال في مائدة[8]: [الرجز]

حاجيتُ كلَّ فَطِنٍ نظّارِ	ما اسمٌ لأنثى من بني النجارِ
وفي كتابِ اللّهِ جاءَ ذكرُها	فقلّما يَغْفَلُ عنها القاري
في خَبَرِ المهديِّ فاطلبْها تجدْ	إن كنتَ من مطالعي الأخبار
ما هي إلاّ العيدُ عيدُ رحمةٍ	ونعمةٍ ساطعةِ الأنوار
يشركها في الاسم وصفٌ حَسَنٌ	ومن وصفِ قُضُبِ الروضةِ المعطار[9]
فهاكه كالشمس في وقت الضُّحى	قد شقّ[10] عنها حُجُب الأستار

---

(١) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٤٥) والكتيبة الكامنة (ص ١٩٠ـ ١٩١).

(٢) في الكتيبة الكامنة: «أكثر استعماله».

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٤٤): «هو إذا خَفَّفْتَهُ مغيرًا». وفي الكتيبة الكامنة: «هو إذا صغّرْتَهُ مخفّفًا».

(٤) إذا صَحّفْتَ «سلّم» أصبح «يثلم» أي يتكسّر.

(٥) الأخ الأفضل: هو المنبر. وآثاره: هي المواعظ المحمودة في الشرع.

(٦) من بني النجار: أي من صنع النجار.

(٧) في الإحاطة والكتيبة الكامنة: «زاكي».

(٨) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٤٦) والكتيبة الكامنة (ص ١٩٢).

(٩) يريد أن يقول: إنّ قضب الروضة تميد فهي مائدة.

(١٠) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٣٩): «شقّ».

ثم قال لسان الدين[1]: وأمّا نثره فمطوّلات[2] عرفت بما تخلّلها من الأحوال متونها، وقلّت لمكان البديهة والاستعجال عيونها، وقد اقتنصت جزءًا منها سميته «تافه من جَمْ، ونقطة من يَمْ». وولد بغَرْنَاطة في جمادى الأولى[3] عام ثلاثة وسبعين وستمائة. وتوفي ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من شوّال عام تسعة وأربعين وسبعمائة. وأنشدت من نظمي في رثائه خامس يوم دفنه على قبره هذه القصيدة[4] : [الكامل]

ما لليراع خواضِعَ الأعناقِ ... طَرَقَ النعيُ فهنَّ في إطراقِ

وكأنما صَبَغَ الشحوبُ وجوهها ... والسَّقَمُ من جَزَعٍ ومن إشفاقِ

ما للصحائفِ صَوَّحَتْ[5] روضاتها ... أسفًا وكنَّ نضيرةَ الأوراق

ما للبيان كؤوسُهُ مهجورةٌ ... غفل المديرُ لها ونام الساقي

مالي عدمتُ تجلُّدي وتصبّري ... والصبرُ في الأزماتِ من أخلاقي

خطبٌ أصابَ بني البلاغةِ والحجا ... شَبَّ الزفير به عن الأطواق[6]

أمّا وقد أَوْدى أبو الحسن الرضا ... فالفضلُ قد أودى على الإطلاق

كنزُ المعارف لا تبيدُ نقودُهُ ... يومًا ولا تفنى على الإنفاق

مَنْ للبدائع أصْبحتْ سمر السُّرى ... ما بين شامٍ للورى وعراق

مَنْ لليراع يجيلُ من خَطِّيّها[7] ... سمَّ العدا ومفاتح الأرزاق

قُضُبٌ ذوابلُ مثمراتٌ بالمنى ... وأراقمٌ ينفثْنَ بالتِّرياق

مَنْ للرقاع الحمرِ يجمعُ حسنُها ... خجلَ الخدود وصَبْغةَ الأحداق

تغتال أحشاءَ العدوِّ كأنها ... صفحاتُ داميةِ الغِرارِ رِقاق

وتهزُّ أعطافَ الوليِّ كأنها ... راحٌ مشعشعةٌ براحةِ ساقي

مَنْ للفنون يجيلُ في ميدانها ... خَيْلَ البيانِ كريمةَ الأعراق

---

(١) الإحاطة (ج ٤ ص ١٤٧).

(٢) في الإحاطة «فسلطانيات مطولات عرضت..».

(٣) في الإحاطة: «الآخرة».

(٤) الإحاطة (ج ٤ ص ١٤٧ ـ ١٤٩).

(٥) صَوَّحَتِ الرياضُ: يبس نباتها. لسان العرب (صوح).

(٦) شبَّ عن الأطواق: عظم وكبر، وقد أخذ ذلك من المثل: «شبَّ عمرو عن الطوق».

(٧) في الإحاطة (ص ١٤٨): «خطبها».

مَنْ لِلحقائق أُبهمتْ أبوابُها ... للناس يفتحها على استغلاق
مَنْ للمساعي الغرِّ تقصدُ جاهه ... حُرُمًا فينصرُها على الإخفاق
كم شدَّ من عقْدٍ وثيقٍ حكمه ... في اللَّه أو أفتى بحلِّ وثاق
رَحْبُ الذراع بكلِّ خَطْبٍ فادحٍ ... أعيتْ رياضتُهُ على الحُذّاق
صعبُ المقادة في الهوادة والهوى ... سهلٌ على العافين[1] والطُّرَّاق
ركب الطريقَ إلى الجنان وحُورها ... يلقينه بتصافحٍ وعناق
فاْعجبْ لأنسٍ في مظنَّةِ وحشةٍ ... ومقامِ وصلٍ في مَقام فراق
أمُطَيَّبًا بمحامد العمل الرضا ... ومُكَفَّنًا بمكارم الأخلاق
ما كنتُ أحسبُ قبل نعشك أن أرى ... رَضوى[2] تسيرُ به على الأعناق
ما كنت أحسبُ قبل دفنك في الثرى ... أنَّ اللحودَ خزائنُ الأعلاقِ[3]
يا كوكبَ الهدي الذي من بعده ... ركدَ الظلامُ بهذه الآفاق
يا واحدًا مهما جرى في حَلْبةٍ ... جَلَّى بغرَّةِ سابقِ السُّبَّاقِ
يا ثاويًا بطنَ الضريح وذكْرُهُ ... أبدًا رفيقُ ركائبٍ ورفاق
يا غَوْثَ من وصل الصريخَ فلم يجدْ ... في الأرض مِنْ وَزَرٍ ولا من واقِ
ما كنتَ إلاَّ ديمةً منشورةً ... من غير إرعادٍ ولا إبراق
ما كنتَ إلاَّ روضةً ممطورةً ... ما شئتَ من ثمرٍ ومن أوراق
يا مزمِعًا عنَّا العشيَّ ركابُهُ ... هلاَّ ثَوَيْتَ ولو بقدر فُواق[4]
رفقًا أَبانا جلَّ ما حَمَّلتنا ... لا تَنْسَ فينا عادةَ الإشفاق
واسمحْ ولو بمزارٍ لقيا في الكرى ... تُبْقِي بها منَّا على الأرماق
وإذا اللقاءُ تصرَّمتْ أسبابُهُ ... كان الخيالُ تَعِلَّةَ المشتاق
عجبًا لنفسٍ ودّعتك وأيقنتْ ... أن ليس بعد نَواكَ[5] يوم تلاقي

---

(١) العافون: جمع عافٍ وهو طالب المعروف. لسان العرب (عفا).

(٢) رضوى: اسم جبل.

(٣) الأعلاق: جمع عِلْق وهو النفيس من كل شيء. محيط المحيط (علق).

(٤) في الإحاطة (ص ١٤٩): «هلاَّ لبثت». والفُواق، بضم الفاء: ما بين الحلبتين من الوقت، ومنه قولهم: «امهلني قدر فُواق». وهو مثل يضرب في قصر المدة. لسان العرب ومحيط المحيط (فوق).

(٥) في الإحاطة: «ثواك».

ما عذرها إن لم تقاسمك الردى — في فضلِ كأسٍ قد شربتَ دِهَاقِ
إن قصَّرتْ أجفاننا عن أن تُرى — تبكي النجيعَ عليك باستحقاق
واستوقفتْ دهشًا فإنَّ قلوبنا — نهضتْ بكلِّ وظيفةِ الآماق
ثِقْ بالوفاء على المَدَى من فِتْيَةٍ — بك تقتدي في العهدِ والميثاق
سَجَعَتْ بما طوقتها من مِنَّةٍ — حتى زَرَتْ[1] بحمائمِ الأطواق
تبكي فراقَكَ خلوةٌ عمَّرتها — بالذكر في طَفَلٍ وفي إشراق
أمّا الثناءُ على عُلاكَ فذائعٌ — قد صحَّ بالإجماع والإصفاق
واللّهُ قد قَرَنَ الثناءَ بأرضه — بثنائه من فوق سَبْعِ طِبَاقِ
جادتْ ضريحَكَ ديمةٌ هطّالةٌ — تبكي عليه بواكفٍ رَقْرَاقِ
وتغمّدتكَ من الإلٰه سعادةٌ — تسمو بروحك للمحلِّ الراقي
صبرًا بَنِي الجيّاب[2] إنّ فقيدكم — سَيُسرُّ مَقْدَمَهُ بما هو لاقِ
وإذا الأسى لفحَ القلوبَ أُوارُهُ — فالصبرُ والتسليمُ أيُّ رواق

وأنشد في هذا الغرض الفقيه أبو عبد اللّه بن جُزَي[3]: [الطويل]

ألم تَرَ أنَّ المجدَ أقوتْ معالمُهْ — فأطنابُهُ قد قُوِّضَتْ ودعائمُهْ
هوى من سماءِ المعلواتِ شهابها[4] — وخانَتْ جوادَ المكرمات قوائمهْ
وثُلّتْ من الفخرِ المشيدِ عروشُهُ — وفُلّتْ من العزِّ المنيع صَوَارمهْ
وعُطِّل من حَلْيِ البلاغةِ قُسُّها — وعُرِّيَ من جُودِ الأنامل حاتمهْ[5]
أجلْ إنه الخطبُ الذي جَلَّ وقعُهُ — وثَلَّمَ غربَ الدين والعلم هاجمُهْ[6]
وإلاّ فما للنوم طار مَطاره — وما لِلَزِيمِ الحزنِ قُصَّتْ قوادمهْ

(١) زرى به: ازدراه. لسان العرب (زرا).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٤٢): «الجيان».
(٣) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٤٩ ـ ١٥٢).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٤٨): «هلالها».
(٥) قس: هو قسّ بن ساعدة الإيادي، الخطيب الجاهلي المشهور، وهو مضرب المثل في الفصاحة. وحاتم: هو حاتم الطائي مضرب المثل في الجود والكرم. جمهرة أنساب العرب (ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨، ٤٠٢).
(٦) في طبعة عبد الحميد: «داهمه».

وما لصباح الأُنس أظلم نورُهُ ... وما لمحيّا الدهرِ قَطَّبَ باسمهْ

وما لدموع العينِ فُضَّتْ كأنها ... فواقعُ زهرٍ والجفونُ كمائمهْ[1]

قضى اللّه في قطب الرياسة أن قضى ... فشتَّتَ ذاك الشملَ مَنْ هو ناظمهْ

ومن قارعَ الأيامَ سبعينَ حجّةً ... ستنبو غراراه[2] ويَنْدَقُّ قائمهْ

وفي مثلها أَعْيا النطاسيَّ[3] طبُّهُ ... وضلَّ طريقَ الحزم في الرأي حازمهْ

تساوى جوادٌ في رداهُ وباخل ... فلا الجودُ واقيه ولا البخلُ عاصمهْ

وما نفعتْ ربَّ الجياد كِرامُهُ ... ولا منعتْ منه الغنيَّ كرائمُهْ

وكلُّ تلاقٍ فالفراقُ أمامه ... وكلُّ طلوعٍ فالغروبُ ملازمه

وكيف مجالُ العقلِ في غيرِ مَنْفَذٍ ... إذا كان باني مَصْنعٍ هو هادمه

ليَبْكِ[4] عليًّا مستجيرٌ بعدله ... يُصاخُ لشكواه ويُمْنَعُ ظالمهْ

ليبكِ عليًّا مائحٌ[5] بحرَ علمه ... يُرَوَّى بأنواعِ المعارفِ هائمهْ

ليَبْكِ عليًّا مُظْهر فضلَ نُصْحِهِ ... يُحَلَّأُ[6] عن وِرْدِ المآثمِ حائمُهْ

ليبكِ عليًّا معتفٍ[7] جودَ كفِّه ... يواسيه في أمواله ويقاسمه

ليبكِ عليًّا ليلُهُ وهو قائمٌ ... يُكابده أو يومُهُ وهو صائمهْ

ليبكِ عليًّا فضلُ كلِّ بلاغةٍ ... يخلِّده في صفحةِ الطِّرْس راقمهْ

وشخصٌ ضئيلُ الجسم يرهبُ نفثَهُ ... ليوثُ الشَّرى في خيسها وضراغمهْ[8]

تكفَّل بالرزق المقدَّر للورى ... إذا اللّه أعطى فهو في الناس[9] قاسمهْ

يسدّدهُ سَهْمًا وينضوه صارمًا ... ويَشْرَعه رمحًا فكلٌّ يلائمهْ

---

(١) الكمائم: جمع كمامة وهي غلاف الزهر. لسان العرب (كمم).

(٢) في الإحاطة: «عراره». والغرار: حدُّ السيف والرمح وغيرهما. لسان العرب (غرر).

(٣) النطاسيُّ: الطبيب الحاذق. لسان العرب (نطس).

(٤) في الإحاطة: «لَيَبْكَ عليًا»، وهكذا في الأبيات الخمسة التالية.

(٥) في الإحاطة: «ماتحٌ». ومائح بحر العلم: مغترفه. لسان العرب (ماح).

(٦) يُحَلأُ: يمنع ويذاد. لسان العرب (حلأ).

(٧) المعتفي: طالب المعروف. لسان العرب (عفا).

(٨) الشَّرى: مكان تسكنه الأسود. الخِيْسُ: مأوى الأسود. لسان العرب (شرا) و (خاس). وهنا كناية عن القلم.

(٩) في الإحاطة (ص ١٥١): «للناس».

إذا سال من شِقَّيه سائلُ حبْره[١] بما شاء منه سائلٌ فهو عالمهْ
ليبكِ عليه اليوم[٢] مَنْ كان باكيًا فتلك مغانيه خَلَتْ ومعالمهْ
تقلّد منه الملكُ عَضْبَ بلاغةٍ يقدُّ السلوقيَّ المضاعَفَ صارمه
وقلّده مَثْنى الوزارةِ فاكتفى بها ألْمَعيٌّ حازمُ الرأي عازِمُهْ
ففي يده وهو الزعيمُ بحقِّها براعته[٣] والمشرفيُّ وخاتمهْ
سخيٌّ على العافين سهلٌ قيادُهُ أبيٌّ على العادين صعبٌ شكائمهْ
إذا ضلّت الآراء في ليلِ حادثٍ رآها برأي يصدعُ الخطبَ[٤] ناجمهْ
وقام بأمر الدين[٥] والملك حاميًا فذلّ معاديه وضلّ مراغمه
وقد كان نِيطَ العلم والحلم والتُّقى به وهو ما نيطتْ عليه تمائمهْ
ودوّخ أعناقَ الليالي بهمَّةٍ يبيتُ ونجمُ الأُفق فيها يزاحمه
وزاد على بعد المَنال تواضعًا أبى اللّه إلاّ أن تتمَّ مكارمه
سَقَيْتَ الغوادي! أيُّ علمٍ وحكمةٍ ودينٍ متينٍ ذلك القبرُ كاتمه
وما زال[٦] يُسْتَسْقَى بدعوتك الحيا وها هو يستسقى لقبرك ساجمهْ
بكت فَقْدَكَ الكُتّابُ إذ كان شملهم يؤلّفه من دوحٍ[٧] فضلك ناعمهْ
وطَوَّقْتَهُمْ بالبِرّ ثم سقيتهم نداك فكنتَ الروضَ ناحتْ حمائمه
ويبكيك مني ذاهبُ الصبرِ موجَعٌ توقَّدَ في جنبيه للحزن جاحِمُهْ[٨]
فَتًى نال منه الدهرُ إلاّ وفاءه فما وَهَنَتْ في حفظ عهدٍ عزائمهْ
عَليلُ الذي زُرّتْ عليه جيوبُهُ قريحُ الذي شُدَّتْ عليه حزائمه
فقد كنتُ ألقى الخطبَ منه بجُنَّةٍ تعارضُ دوني بأسَهُ وتصادمه
سأصبرُ مضطرًا وإن عَظُمَ الأسى أُحاربُ حزني مَرَّةً وأُسالمه

(١) في الإحاطة: «حبرة».
(٢) في الإحاطة: «الآن».
(٣) في الإحاطة: «يراعته».
(٤) في الإحاطة: «الحقّ».
(٥) في الإحاطة: «وقام الملك للدين».
(٦) في الإحاطة: «وما زلت».
(٧) في الإحاطة: «روح».
(٨) في الإحاطة: «فوقّد» بدل «توقّد».

وأهديك إذ عزَّ اللقاءُ تحيةً وطيبَ ثناءٍ كالعبير نواسمهْ

وأنشد الفقيه القاضي أبو جعفر[1] بن جزي قصيدة أولها: [الطويل]

أبثّكما والصبرُ للعهدِ ناكثٌ حديثًا أملّتْهُ عليَّ الحوادثُ

وأنشد القاضي أبو بكر بن علي القرشي قصيدة أولها: [الوافر]

هي الآمال[2] غايتها نفادُ وفي الغايات تمتازُ الجيادُ

وأنشد الفقيه الكاتب القاضي أبو القاسم[3] بن الحكم قصيدة أولها: [الطويل]

ليَنْع الحِجَا والحلمَ مَنْ كان ناعيا ويرعَ العُلاَ والعلمَ من كان راعيا

[وهذه ثلاث][4] قصائد مطولات يخرج استقصاؤها عنْ الغرض، فكان هذا التأبين غريبًا لم يتقدّم به عهد بالحضرة لكونها دار ملك، والتجلّة في مثل هذا مقصورة على أُولي الأمر؛ انتهى ما لخّصتُه من ترجمته في «الإحاطة».

ولنزد فنقول: ومن ألغازه في الدرهم: [الخفيف]

ما بغيضٌ إلى الكرام خصوصًا وحبيبٌ إلى الأنام عموما

فاعجبوا منه كيف يحمي ويُحْمَى ويكفُّ العدا ويغني العديما

إن تغيرْ شطريه فالأولُ آسمٌ يألفُ الضّرْعَ والغمامَ السُّجُومَا[5]

ويكونُ الثاني كبيرَ أناسٍ حطمته حياته تحطيما

فإذا مآ قلبتَ أول شطرٍ ردَّ منطوقَ لغزه مفهوما

فإذا ما قلبت ثاني شطرٍ كان كفًّا وليس كفًّا رقيما

قَلْبُه بعد حذفك الفاء منه هو شيء يحلِّل التحريما

أو صغيرٌ مستحسنٌ لم يؤدَّبْ إن تعلِّمه يقبل التعليما

---

(١) في الإحاطة (ج ٤ ص ١٥٢): «أبو بكر بن جزي».

(٢) في الإحاطة (ج ٤ ص ١٥٢): «هي الآجال».

(٣) في الإحاطة (ج ٤ ص ١٥٢): «أبو بكر القاسم بن الحكيم».

(٤) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر (ج ٥ ص ٤٥٠) ومن الإحاطة (ج ٤ ص ١٥٢).

(٥) أول شطريه هو كلمة «درّ»؛ فلو غيّرتها بفتح أولها صارت بمعنى اللبن أو المطر. وثانيهما هو كلمة «هم»؛ فلو غيّرتها بكسر الهاء صارت وصفًا للمسنّ الذي حطّمته الأيام.

فلتبيّنْ ما قُلْتُهُ ولتعيّنْ   وبه فلنقمْ مقامًا كريما

وقال في المسك: [مخلع البسيط]

ما طاهرٌ طيبٌ ولكنْ   ما أصله من ذوي الطهارَهْ
من الظِّباءِ الحسانِ لكنْ   إذا تأمَّلته ففارَهْ
نصَّ حديثُ الرسول فيه   شهادةً تقتضي بشارَهْ
تصحيفُهُ بعد حذفِ حرفٍ   منزلك الآهلُ العمارَهْ

يعني مبنى.

وقال في فلك: [مجزوء الرجز]

ما اسمٌ لشيءٍ مُرْتَقِي   في مغرب ومشرقِ
إذا حذفتَ فاءه   كان لكَ الذي بقي

وقال أيضًا في الفنار[1]: [مجزوء الرجز]

ما اسمٌ إذا حذفت منـ   ـه فاءه الممنوَعَهْ
فإنه ابنةُ الزنا   مضافةً لأربعهْ[2]

يعني ابنة الزناد، وهي النار.

وقال في النوم: [مجزوء الرجز]

ما اسمٌ مسمّاهُ به   يُسْقِطُ حُكْمَ التكليفْ
وإن دخلتَ البيتَ بالتصـ   ـحيف حقَّ التعنيفْ
وإن أردتَ شبهَهُ   فقلْبُهُ بالتصحيفْ
بَيِّنه فهو في كِتا   بِ اللّه بادي التعريفْ

وقال في غزال: [المجتث]

حاجيتكم ما اسم شيءٍ   يروقُ في الوصفِ حُسْنا
له محاسنُ شتّى   منها فرادى ومثنى

---

(١) الكتيبة الكامنة (ص ١٩١).

(٢) في الكتيبة الكامنة: «فإنه بنت الزنا». وبنت الزنا: يريد بنت الزناد وهي النار.

..............[1] له بل الشعرُ أثنى

مهما تَنَلْهُ بحذفٍ أتاك حرفًا لمعنى

إن زالَ أولُ حرفٍ زال الذي منه يعنى

أو زالَ ثانيه منه فالقتلُ أدهى وأفنى

أو زال ثالثه فهو لَغْوٌ صَبّ معنى

أو زال رابعه فالجهادُ فيه تَسَنَّى

فأوضحِ القصدَ يا مَنْ قد فاق عقلاً وذهنا

وقال في النمل: [مجزوء الرجز]

ما حيوانٌ اسمُهُ قد جاء في الذكر الحكيمْ

وهو إذا قلبته لمن به أنتَ عليمْ

وإن تصحِّفِ اسمه فبعضُ أوصافِ اللئيم

وقال في دواة: [الوافر]

وما أُنثى بها رَغْيُ الرعايا وإمضاءُ المنايا والقضايا

وتقصدها بنوها من رضاعٍ إذا انبعثوا لإبرام القضايا

لها اسمٌ إن أزلت النقطَ منه فعذْ باللّه من شرِّ البلايا

وإن أبدلتَ آخره بهمزٍ فقد أبرأتَ نازلةَ الشكايا

وإن بَدَّلْتَ أوّله بنونٍ أتيتَ ببعضِ أرزاقِ المطايا

فأوضحْ ما رمزناه بفكرٍ سديدِ القصدِ مُبْدٍ للخفايا

وقال في سفينة: [السريع]

ما ذاتُ نفعٍ وغَناء عظيمْ لها حديثٌ في الزمانِ القديمْ

أوحى بها اللّه إلى عبده فحبَّذا فعلُ الرسولِ الكريمْ

دعا بها فيما مضى صالحٌ حسبك ما نصَّ الكتابُ الحكيم[2]

---

(١) صدر هذا البيت بياض.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٥ ص ٤٤٧): «وعابها فيما مضى..». وهنا يشير إلى ما جاء في سورة الكهف من أن الرجل الصالح عاب السفينة التي كانت لغلامين يتيمين.

وفي كتابِ اللهِ تردادها فاقرأ تجده في قضايا الكليمْ
إن أنتَ صَحَّفْتَ اسمها تَلْقَهُ مَحَلَّ أُنسٍ أو بلاءٍ مقيمْ
أو هو فعلٌ لكَ فيما مضى لكن إذا أبرأتَ داء السقيمْ
فهاكه قد لاحَ برهانه مُبَيَّنًا لكلِّ فكرٍ سليمْ

وقال في المسك أيضًا: [المتقارب]

كتبتمْ كثيرًا ولم تكتبوا كهذا الذي سُبْلُهُ واضحَهْ
فما اسْمٌ جرى ذكره في الكتابِ فإن شئته فاقرإ الفاتحهْ(١)
ففيها مُصَحَّفُ مقلوبِهِ يعبِّر عن حالة صالحهْ
وليست بغاديةٍ فاعلموا ولكنها أبدًا رائحهْ

ويعني بقوله في الفاتحة قول أول الأبيات «كتبتم» فافهم.

وقال في صقر: [السريع]

حاجيتكمْ ما اسمٌ لبعضِ السباغ تصحيفُهُ ما لكَ فيه انتفاغ
وعكسه إن شئتَ عكسًا له يوجد لكن عند دورِ السماغ
وإن تصحِّفْ بعد قلبٍ له فمذهبٌ يعزى لأهل النزاغ(٢)
فَبَيِّنِ الألغازَ وارفعْ لنا بنورِ فكرٍ منكَ عنه القناغ

وقال في الحوت(٣): [مجزوء الرجز]

ما حيوانٌ في اسمه إن اعتبرته فنونْ
أحرفُهُ ثلاثةٌ والكلُّ منها هو نون(٤)
إن أنت صَحَّفْتَ اسمه فما جَناه المذنبون(٥)

---

(١) الفاتحة: أي فاتحة هذه الأبيات وهي كلمة «كتبتم».
(٢) إذا قلبنا كلمة «صقر» تصبح «رقص»، وإذا صحَّفنا كلمة «رقص» أصبحت «رفض» أي مذهب الرافضة.
(٣) الكتيبة الكامنة (ص ١٩١ ـ ١٩٢).
(٤) في الكتيبة الكامنة: «حروفه ثلاثة..». والنون: الحوت. لسان العرب (نون).
(٥) رواية البيت في الكتيبة الكامنة هي:
تصحيفه قطعُ الفلا أو ما جناه المذنبون
وتصحيف «حوت» هو «حوب» بالباء، والحوب هو الذنب والإثم.

أو أبـــيـــضٌ أو أســـود   أو صفةُ النفس الخؤون[1]
قَـلْـبُ اسـمِـهِ مُـصَـحَّـفًـا   عـلـيـه دارتِ الـسـنـون[2]
كـانـت بـه فـيـمـا مضى   عـبـرةُ قـوم يـعـقـلـونْ
أودع فـــيـــه زمـــنًـــا[3]   سـرٌّ مـن الـسـرِّ الـمـصـونْ
فـــهـــاكـــه كـــالـــنـــار فـــي الـــزَّنـــد لـــه فـــيـــهـــا كـــمـــونْ

وقال في لبن: [المجتث]

أفـديـك مـا اسـمٌ إذا مـا   صَـحَّـفْـتَـهُ فـهـو سَـبْـعُ
وإن تـصـحِّـفْ بـعـكـسٍ   فـفـيـه لـلـقـبـط شَـزْعُ
والاســمُ يـعـربُ عـمّـا   لـــديـــه ريٌّ وشـــبـــع
في النحل يلفى ولكنْ   لا يـتّـقـى فـيـه لـسـعُ
فـلـيـس لـلـنـحـل أصـلٌ[4]   ولا لـــهـــا فـــيـــه فـــرعُ
فـــهـــاكـــه قـــد تـــبـــدَّى   لـــحـــجـــبـــه عـــنـــه رَفْـــعُ

وقال في القلم: [الوافر]

ومـأمـومٍ بـه عُـرِفَ الإمـامُ   كما باهتْ بصحبته الكرامُ
لـه إذ يـرتـوي طَـيْـشانُ صادٍ   ويـسـكـنُ حـيـن يـعـروه الأوامُ
ويذري حين يستسقي دموعًا   يـرقْـنَ كـمـا يـروقُ الإبـتـسـام

وله ـ رحمه اللّه تعالى! ـ كثير من هذا، ولم أر أحدًا أحكم الإلغاز مثل ما أحكمه ابن الجياب المذكور، ولولا الإطالة لذكرت منها ما يُستدلّ به على صحة الدعوى، وفيما ذكرنا كفاية.

---

(١) إذا صحّفت «حوت» وأردت به الأبيض والأسود كان «الجون». وإذا أردت صفة النفس الخؤون كان «الحوب».

(٢) صدر البيت في الكتيبة الكامنة هو: وقلبه مصحّفًا.
ومقلوب «حوت» هو «توح»، وتصحيفه هو «يوح» وهو اسم الشمس.

(٣) في الكتيبة الكامنة: «فيه عنده».

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٤٨): «أصلاً».

ومن نظم الرئيس ابن الجياب المذكور في رثاء عمر بن علي بن عتيق القرشي الهاشمي الغَرْنَاطي قولُه: [الرمل]

قُضيَ الأمرُ فيا نفسُ اصبري ... صَبْرَ تسليم لحكمِ القدرِ
وعــزاءً يــا فــؤادي إنــه ... حُكْمُ مَلْكٍ قاهرٍ مقتدر
حكمةٌ أحكمها تدبيرُهُ ... نحن منها في سبيل السفر
أجلٌ مقدرٌ ليس بمسـ ... ـتقدم يومًا ولا مستأخرِ[1]
أحسنَ اللّه عزاء كلِّ ذي ... خشيةٍ لربِّه في عمر
في إمامنا التقيِّ الخاشع الطاهر الذاتِ الزكيِّ النيِّر
قرشيٌّ هاشميٌّ منتقًى ... من صميمِ الشرفِ المطهَّرِ
يشهدُ الليلُ عليه أنه ... دائمُ الذكرِ طويلُ السهر
في صلاةٍ بعثت وفودها ... زمرًا للمصطفى من مضر
قائمًا وراكعًا وساجدًا ... لطلوعِ فجره المنفجر
جمع الرحمن شملنا غدًا ... بحبيبِ اللّه خيرِ البشر
وتلقته وفودُ رحمةِ اللّـ ... ـه تأتي بالرضا والبُشَرِ

قلت: هذا النظم. وإن برد بما فيه من الزحاف. فله من الوعظ وذكر اللّه ورسوله، ﷺ، خير لحاف.

قال لسان الدين: ولما نظم القاضي أبو بكر بن شبرين[2] ببيت الكتابة ومألف الجملة هذين البيتين: [الطويل]

ألا يا محبَّ المصطفى زدْ صبابةً ... وضمِّخْ لسانَ الذكرِ منك بطيبِهِ
ولا تعبأنْ بالمبطلين فإنما ... علامةُ حبِّ اللّه حبُّ حبيبِهِ

وأخذ الأصحاب في تذييل ذلك، قال الشيخ الرئيس أبو الحسن بن الجياب، رحمه اللّه تعالى ورضي عنه: [الطويل]

---

(١) أخذ معنى البيت من قول اللّه تعالى: ﴿فإذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتأخِرُونَ ساعةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. سورة الأعراف ٧، الآية ٣٤، وسورة النحل ١٦، الآية ٦١.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٧ ص ٤٥٠): «شيرين».

فَمَنْ يعمر الأوقات طرًّا بذكره فليس نصيبٌ في الهدى كنصيبِهِ
ومن كان عنه معرضًا طولَ عمرهِ فكيف يرجّيه شفيعَ ذنوبِهِ

وقال أبو القاسم بن أبي العافية: [الطويل]

أليس الذي جلَّى دُجى الجهلِ هديُهُ بنورٍ أقمْنا بعده نهتدي بِهِ
ومن لم يكن من ذاته شكرَ منعم فمشهده[1] في الناس مثل مغيبه

وقال أبو بكر بن أرقم: [الطويل]

نبيٌّ هدانا من ضلالٍ وحيرةٍ إلى مرتقى سامي المحلِّ خصيبِهِ
فهل ينكر الملهوفُ فضلَ مجيره ويغمطُ شاكي الداء شُكْرَ طبيبه

فانتهى القول إلى الخطيب أبي محمد بن أبي المجد فقال: [الطويل]

ومن قال مغرورًا حجابك ذكره فذلك مغمورٌ طريدُ عيوبِهِ
وذكرُ رسولِ اللَّهِ فرضٌ مؤكدٌ وكلُّ محقٍّ قائلٌ بوجوبِهِ

وقال يومًا الشيخ أبو الحسن بن الجياب تجربة للخاطر على العادة: [الخفيف]

جاهد النفسَ جاهدًا فإذا ما فنيتْ منكَ فهو عينُ الوجودِ
وليكنْ حُكْمُها المسدَّد فيها حُكْمَ سَعْدٍ في قتله لليهودِ[2]

فأجابه أبو محمد بن أبي المجد بقوله: [الخفيف]

أيها العارفُ المعبِّر ذوقًا عن معانٍ عزيزةٍ في الوجودِ
إنَّ حالَ الفناء عن كلِّ غيرٍ كمقامِ المراد غيرِ المريدِ
كيف لي بالجهادِ غيرَ مُعَانٍ وعدوِّي مظاهَرٌ بجنود
ولو أنّي حكمتُ فيمن ذكرتم حكمَ سعدٍ لكنتُ جدَّ سعيدِ
فلُراها حبابةَ[3] بي فتونًا وأراني في حبِّها كيزيد
كيف أسلو بنصحكم عن هواها ولو أبدتْ فعلَ المحبِّ الودود

---

(١) المراد بـ «مشهده» شهوده، أي حضوره.
(٢) سعد: هو سعد بن معاذ، سيّد الأنصار؛ حكّمه النبي، ﷺ، في يهود بني قريظة.
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٧ ص ٤٥١): «حياته».

ليس شيء سوى إلٰهكَ يبقى　　واعتبر صدقَ ذا بقولِ لبيدِ[1]

وابن أبي المجد[2] المذكور هو عبد الله بن عبد البر بن علي بن سليمان بن محمد بن أشعب الرعيني، من أرجدونة من كورة رية، يكنى أبا محمد، ويعرف بابن أبي المجد، كان من أعلام الكورة سلفًا وصلاحًا ونية في الصالحين، كثير الإيثار بما تيسّر، مليح التخلّق، حسن السَّمْت، طيّب النفس، حسن الظنّ، له حظّ من الأدب والفقه والقراءات والفرائض، وخوض في التصوّف، قطع عمره خطيبًا وقاضيًا ببلده ووزيرًا، قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير وابن أبي فضيلة المعافري وابن رشيد، وأجازه طائفة كبيرة. توفي ليلة النصف من شعبان عام تسعة وثلاثين وسبعمائة، رحمه الله تعالى!.

ثم الجزء السابع ويليه الجزء الثامن مبتدئًا بقول المؤلف:

من نظم ابن الجياب.

---

(١) يشير إلى قول لبيد بن ربيعة العامري: [الطويل]
أَلاَ كلُّ شيءٍ ما خلا اللَّهَ باطلُ　　وكلُّ نعيمٍ، لا مَحالَةَ، زائلُ
ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص ١٣٢).

(٢) ترجمة ابن أبي المجد الرعيني في الكتيبة الكامنة (ص ٥٢).

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

١ . الإحاطة في أخبار غرناطة (١ . ٤). تحقيق الأستاذ محمد عبد اللّه عنان. مكتبة الخانجي بالقاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٣ . ١٩٧٧.

٢ . اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى لابن سعيد. دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠.

٣ . أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري (١ . ٣). تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠.

٤ . الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للشيخ أحمد بن خالد الناصري (١ . ٩). طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤.

٥ . إعتاب الكتّاب لابن الأبار. تحقيق الدكتور صالح الأشتر. طبعة دمشق، ١٩٦١.

٦ . الأعلام للزِّرِكْلي (١ . ٨). دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.

٧ . إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية لابن الخطيب. القسم الثاني، تحقيق الأستاذ إ. ليڤي بروڤنسال. دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

٨ . الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. شرحه وكتب هوامشه الدكتور يوسف طويل والأستاذان عبد علي مهنا وسمير جابر. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

٩ - أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني. تحقيق الأستاذين محمد الفاسي وأدولف فور. طبعة الرباط، ١٩٦٥.

١٠ - البداية والنهاية في التاريخ (١ - ١٤). مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٩ - ١٩٨٠.

١١ - بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي. دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

١٢ - بغية الوُعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي. دار المعرفة، بيروت.

١٣ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١ - ١٤). دار الكتاب العربي، بيروت.

١٤ - تأريخ قضاة الأندلس أو المَرْقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا للنباهي. تحقيق الأستاذ إ. ليڤي بروڤنسال. دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٤٨.

١٥ - التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا لابن خلدون. تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي. طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١.

١٦ - التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (١ - ٢). طبعة مصر، ويشار إليها بأرقام الصفحات، وإذا أشير إلى رقم الترجمة كان الاعتماد على طبعة مجريط من المكتبة الأندلسية.

١٧ - جذوة الاقتباس لابن القاضي. طبعة فاس، ١٣٠٩ هـ.

١٨ - جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي. الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

١٩ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم. تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر، ١٩٦٢.

٢٠ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي (١ - ٢). تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، ١٩٦٧ - ١٩٦٨.

٢١ - الحلة السِّيَراء لابن الأبار (١ - ٢). تحقيق الدكتور حسين مؤنس. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

٢٢ . الخصائص لابن جنّي (١ ـ ٣). تحقيق الأستاذ محمد علي النجار. طبعة دار الكتب، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦.

٢٣ . الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (١ ـ ٤). طبعة حيدر أباد الدكن.

٢٤ . درّة الحجال في أسماء الرجال لابن القاضي (١ ـ ٢). طبعة الرباط.

٢٥ . الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي. الطبعة الأولى، مصر، ١٣٥١ هـ.

٢٦ . ديوان ابن دراج القسطلي. تحقيق الدكتور محمود علي مكي. منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦١.

٢٧ . ديوان أبي تمام. شرح وتعليق الدكتور شاهين عطية. دار صعب، بيروت.

٢٨ . ديوان أبي الحسن التهامي. الإسكندرية، ١٨٩٣.

٢٩ . ديوان أبي نواس. تحقيق الأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٥٣.

٣٠ . ديوان امرىء القيس. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر، ١٩٦٩.

٣١ . ديوان البحتري (١ ـ ٢). دار صعب، بيروت.

٣٢ . ديوان بشار بن برد. جمعه وحققه السيد بدر الدين العلوي. دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.

٣٣ . ديوان بديع الزمان الهمذاني. طبعة مصر، ١٩٠٣.

٣٤ . ديوان الحطيئة. دار صادر، بيروت، ١٩٦٧.

٣٥ . ديوان ذي الرمة. تحقيق كارليل مكارتني. طبعة كمبردج، ١٩١٩.

٣٦ . ديوان الرصافي البلنسي. جمعه وقدّم له الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩.

٣٧ . ديوان الشريف الرضي (١ ـ ٢). دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦١.

٣٨ . ديوان الشماخ. شرح الشنقيطي.

٣٩ . ديوان لبيد بن ربيعة العامري. دار صادر، بيروت.

٤٠ . ديوان المتنبي (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب). شرحه الشيخ ناصيف اليازجي. دار القلم، بيروت.

٤١ . ديوان مهيار الديلمي (١ ـ ٤). طبعة دار الكتب المصرية.

٤٢ . ديوان النابغة الذبياني. حققه وقدّم له الأستاذ فوزي عطوي. دار صعب، بيروت، ١٩٨٠.

٤٣ . ديوان الهذليين. تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج. طبعة القاهرة، ١٩٦٥.

٤٤ . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (أربعة أقسام في ثمانية مجلدات). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩.

٤٥ . ذيل الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) لأبي شامة، القاهرة، ١٩٤٧.

٤٦ . الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (١ ـ ٦). تحقيق الأستاذين محمد بن شريفة وإحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.

٤٧ . رحلة ابن بطوطة، وتسمّى أيضًا تُحفة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٤٨ . الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي) للحميري. تحقيق الدكتور إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠.

٤٩ . روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس للمقري. طبعة المطبعة الملكية بالرباط، ١٩٦٤.

٥٠ . سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس لمحمد بن جعفر الكتاني (١ ـ ٣). طبعة فاس، ١٣١٦ هـ.

٥١ . شذرات الذهب في أخبار من ذهب للعماد الحنبلي (١ ـ ٨). نشر القدسي، القاهرة، ١٣٥٠ ـ ١٣٥١ هـ.

٥٢ . شرح الحماسة للمرزوقي (١ ـ ٤). نشر الأستاذين أحمد أمين وعبد السلام هارون. الطبعة الأولى، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١ ـ ١٩٥٣.

٥٣ . شروح سقط الزند (١ ـ ٥). طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨.

٥٤ . شعر الخوارج. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٥٥ . الشعر والشعراء لابن قتيبة (١ ـ ٢). دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.

٥٦ . صلة الصلة لأبي جعفر ابن الزبير. تحقيق الأستاذ ليڤي بروڤنسال. طبعة الرباط، ١٩٣٧.

٥٧ . صيد الخاطر لابن الجوزي. تحقيق الأستاذ محمد الغزالي. طبعة مطبعة السعادة، القاهرة.

٥٨ . الضوء اللامع للسخاوي (١ ـ ١٢). طبعة مصر، ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥ هـ.

٥٩ . الطالع السعيد لكمال الدين أبي الفضل الأدفوي. الطبعة الأولى، ١٩١٤.

٦٠ . طبقات الشعراء لابن سلام. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.

٦١ . العبر وديوان المبتدإ والخبر (المعروف بتاريخ ابن خلدون) لابن خلدون. سبعة مجلدات في أربعة عشر جزءًا. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.

٦٢ . عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس الغبريني. الطبعة الأولى، الجزائر، ١٩١٠.

٦٣ . عيون الأخبار لابن قتيبة (١ ـ ٢). شرح وضبط الدكتور يوسف طويل؛ (٣ ـ ٤) شرح وضبط الدكتور مفيد قميحة. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

٦٤ . عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة. تحقيق الدكتور نزار رضا. دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.

٦٥ . الفهرست لابن النديم. تحقيق الأستاذ رضا تجدد. طهران، سنة ١٩٧١.

٦٦ . فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١ ـ ٥). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤.

٦٧ . القاموس المحيط للفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦.

٦٨ ـ قرآن كريم. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٦٩ ـ كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين لمؤلف مجهول (ضمن صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلدان التاسع والعاشر، مدريد، ١٩٦١ ـ ١٩٦٢، ص ١٥ ـ ٢٥٦).

٧٠ ـ كتاب القوافي للأخفش. تحقيق الدكتور عزة حسن. دمشق، ١٩٧٠.

٧١ ـ الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة لابن الخطيب. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٧٢ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (١ ـ ٢). دار الكتب العلمية. بيروت، ١٩٩٢.

٧٣ ـ لسان العرب لابن منظور (١ ـ ١٥). دار صادر، بيروت.

٧٤ ـ اللمحة البدرية في الدولة النصرية لابن الخطيب. نشره الأستاذ محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية بالقاهرة، سنة ١٣٤٧ هـ.

٧٥ ـ مجمع الأمثال للميداني (١ ـ ٢). تحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية، سنة ١٩٥٥.

٧٦ ـ محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني. مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.

٧٧ ـ مختار الصحاح للرازي. مؤسسة الرسالة، دار البصائر، بيروت، ١٩٨٥.

٧٨ ـ مدخل إلى الأدب الأندلسي للدكتور يوسف طويل. دار الفكر اللبناني، سنة ١٩٩١.

٧٩ ـ مستودع العلامة ومستبدع العلاّمة لأبي الوليد ابن الأحمر. طبعة تطوان، المغرب، ١٩٦٤.

٨٠ ـ المعلقات العشر. شرح ودراسة وتحليل الدكتور مفيد قميحة. دار الفكر اللبناني، ١٩٩١.

٨١ ـ معجم البلدان لياقوت الرومي (١ ـ ٥). دار صادر، بيروت، سنة ١٩٨٤.

٨٢ ـ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.

٨٣ . المقتبس من أنباء أهل الأندلس لابن حيان القرطبي (تتمة السفر الثاني ويؤرخ من سنة ٢٣٢ حتى سنة ٢٦٧ هـ). تحقيق الدكتور محمود علي مكي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣.

٨٤ . ملحق المعاجم العربية للمستشرق رينهارت دوزي (١ . ٢). طبعة، ١٩٢٧.

٨٥ . نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر. تحقيق الأستاذ محمد رضوان الداية. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧.

٨٦ . نظم الجمان لابن القطان. تحقيق الدكتور محمود مكي. من منشورات جامعة محمد الخامس بالرباط. طبعة المطبعة المهدية بتطوان.

٨٧ . نفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب لابن الخطيب. تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

٨٨ . نور القبس المختصر من المقتبس للمرزباني. تحقيق الأستاذ رودلف زلهايم. طبعة فيسبادن، ١٩٦٤.

٨٩ . نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي. طبعة فاس.

٩٠ . هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادي (١ . ٢). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.

٩١ . وفيات الأعيان لابن خلكان (١ . ٨). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ . ١٩٧٨.

٩٢ . يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي (١ . ٤). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩.

فهرس الجزء السابع
من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

القسم الثاني من الكتاب ٣

في التعريف بلسان الدين بن الخطيب، وذكر أنبائه التي يروق سماعها ويتأرج نفحها ويطيب، وفيه ثمانية أبواب:

الباب الأول: في أولية لسان الدين وذكر أسلافه ٥

منزلته في الكتابة ٥

للأمير إسماعيل بن يوسف بن الأحمر في شأن لسان الدين، من كتاب له يسمى «فرائد الجمان، فيمن نظمني وإياه الزمان» ٥

لابن خلدون في شأن لسان الدين ٦

لغير هذين في سلف لسان الدين ٦

تعقيب للمؤلف ٦

تعريف لسان الدين بنفسه في آخر كتابه «الإحاطة» ٦

نسب لسان الدين ٧

سعيد جد لسان الدين الأعلى ٨

عبد الله بن سعيد ٩

سعيد بن عبد الله الجد الأقرب للسان الدين ٩

والد لسان الدين بن الخطيب ١٠

بعض ما رثي به والد لسان الدين وقد استشهد في موقعة طريف، لأبي محمد عبد الله الأزدي ١٠

قصيدة للسان الدين يجيب بها أبا محمد الأزدي الذي رثى والده ١١

ذكر موقعة طريف التي استشهد فيها والد لسان الدين ١٢

ترجمة لسان الدين لوالده عبد الله بن سعيد، وذكر نماذج من شعره ١٤

رثاء لسان الدين لوالده ١٥
رثاء أبي زكريا بن هذيل لوالد لسان الدين عبد الله بن سعيد ١٦
ترجمة أبي بكر بن عاصم، بقلم ابنه الوزير أبي يحيىٰ بن عاصم القيسي ١٧
عود إلى ترجمة لسان الدين وذكر سلفه ١٩
ذكر نسبتهم «السلماني» وأنهم من حي من مراد من عرب اليمن القحطانيين ٢٠
بين لسان الدين وشيخه أبي الحسن بن الجياب ٢١
نونية للوزير أبي فارس عبد العزيز الفشتالي ٢١
نونية أخرى لأبي الفتح محمد بن عبد السلام المغربي التونسي نزيل دمشق ٢٧
نونية لسان الدين بن الخطيب في فتح تلمسان ٢٩
كتاب من لسان الدين يخاطب به السلطان أبا سالم بعد فتح تلمسان، وقد جعله مقدمة لنونيته السابقة ٢٩
نونية الفقيه الزجّال عمر التي سماها «تسريح النصال، إلى مقاتل الفصال» ٣٧
نونية للوزير أبي عبد الله بن زمرك أنشدها سلطان الأندلس يوم عيد ٤٣
كلمة عن ابن زمرك الوزير ٤٦
«لوشة» التي ينسب إليها لسان الدين بن الخطيب ٤٧
ترجمة أبي عبد الله محمد بن إدريس المعروف بابن مرج الكحل ٤٧
نماذج من شعر ابن مرج الكحل ٤٨
وفاة ابن مرج الكحل ٥١
رائية لشمس الدين الكوفي الواعظ ٥١
من نظم ابن مرج الكحل ٥٢
بين ابن مرج الكحل والأديب أبي بحر صفوان بن إدريس ٥٣
خطبة نكاح من إنشاء أبي بحر صفوان بن إدريس ٥٤
رسالة عتاب من إنشاء صفوان بن إدريس ٥٦
ترجمة صفوان بن إدريس عن «الإحاطة» للسان الدين بن الخطيب ٥٧
قصيدة لصفوان بن إدريس في تقديم مرسية على غيرها من البلدان ٥٨
قصيدة لصفوان يراجع فيها أبا الربيع بن سالم عن أبيات مثلها ٥٨
من رسالة لصفوان بن إدريس يهنىء فيها قاضي الجماعة أبا القاسم بن بقي ٦٣
رحلة صفوان إلى مراكش ٦٤
ترجمة صفوان بن إدريس، عن ابن سعيد وابن الأبار ٦٤
من رثاء الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لناهض بن محمد الوادي آشي ٦٥
من شعر صفوان بن إدريس أيضًا ٦٦

بين صفوان بن إدريس والوزير الكاتب أبي محمد بن حامد (إجازة) ٦٦
بين صفوان والوزير أبي إسحٰق وقد رآه يقيد أشعارًا من ظهر دفتر (إجازة) ٦٧
بين صفوان والوزير أبي محمد بن حامد أيضًا ٦٧
من شعر صفوان ٦٨
الباب الثاني من القسم الثاني من الكتاب، في نشأة لسان الدين ابن الخطيب ٦٩
مولد لسان الدين، نقلاً عن «الإحاطة» ونشأته نقلاً عن ابن الأحمر ٦٩
لبعضهم في ذكر منزلة لسان الدين ٧٠
من ترجمة لسان الدين بقلمه في كتابه «الإحاطة، في أخبار غرناطة» ٧٠
تعريف لسان الدين بالسلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج، أحد ملوك بني نصر ٧٤
قصيدة للسان الدين في رثاء السلطان أبي الحجاج ٧٥
ذكر خلع سلطان لسان الدين وقيام أخيه مقامه، عن لسان الدين في «اللمحة البدرية» . ٧٨
لسان الدين ينشد بين يدي سلطان فاس وقد التجأ هو وسلطانه إليه ٨٠
من خطاب من إنشاء لسان الدين عن سلطانه إلى سلطان مصر المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون ٨٥
رواية ابن خلدون في خلع ابن الأحمر سلطان لسان الدين ٨٩
رواية أخرى لابن خلدون في خلع ابن الأحمر تتضمن نشأة لسان الدين ونهايته ٩٢
ابن خلدون يتحدث عن مقتل لسان الدين ١٠٤
أبيات للسان الدين قالها وهو سجين ١٠٦
حديث للحافظ ابن حجر عن مقتل لسان الدين ١٠٧
تخميس بعض بني الصباغ لأبيات لسان الدين التي قالها وهو في السجن ١٠٨
أبيات لبعض الشاميين في معنى بعض أبيات لسان الدين ١١٠
كلام لأبي الخطاب بن دحية في التسلي عن كوارث الزمان ١١٠
أبيات في هذا المعنى ١١١
تُهم ألصقها أعداء لسان الدين به ١١٣
من أعداء لسان الدين القاضي أبو الحسن النباهي، وما يتصل بذلك ١١٤
حكاية للسان الدين مع رسول ملك النصارى تدل على علو همته ١١٥
مدح لسان الدين للقاضي النباهي ١١٦
ذم لسان الدين للقاضي النباهي بعد أن أظهر له العداوة ١١٦
خطاب تقريع من القاضي النباهي إلى لسان الدين ١٢٤
صورة مرسوم من إنشاء لسان الدين بتولي القاضي أبي الحسن النباهي القضاء، وفيه

من الثناء على القاضي ما يدل على أنه لم يشكر النعمة ١٢٥
مرسوم من إنشاء لسان الدين أيضًا بتولي ابن زمرك كتابة السر ١٢٧
موازنة من المؤلف بين خلق لسان الدين وخلق القاضي النباهي والكاتب ابن زمرك ١٢٨
مرسوم من إنشاء لسان الدين أيضًا بتولي القاضي النباهي الخطابة مع القضاء ١٢٩
من هجو لسان الدين في الوزير إبراهيم بن أبي الفتح الأصلع الغوي وفي ابن عمه محمد بن إبراهيم العقرب الردي ١٣١
من هجوه في قاض من قضاة دولة السلطان إسماعيل بن الأحمر ١٣١
من هجوه في وزير المغرب محمد بن علي بن مسعود ١٣٥
كتاب عتاب من لسان الدين بعث به إلى قاضي مكناسة الزيتون وقد تأخر عن لقائه يوم قدومه عليهم ١٣٦
رسالة للسان الدين في أحوال خدمة الدولة، ومصايرهم، وما يجب عليهم، وكتب بها إلى ابن مرزوق ١٣٧
تعليق لابن مرزوق على بعض ما جاء في رسالة لسان الدين ١٣٧
تعليق لابن لسان الدين على تعليق ابن مرزوق ١٣٨
تعليق للمؤلف على كلام ابن مرزوق ١٤٤
مرثية من شعر ابن صابر المنجنيقي ١٤٥
إشارة ونماذج من مراثٍ أخرى ١٤٦
زيارة المؤلف لقبر لسان الدين ١٤٨
لبعض أهل المغرب في العزاء والتسلي بمن قد مضى ١٤٨
من شعر ابن الجوزي في المعنى ١٥٢
كلمة عن أبي الفرج بن الجوزي ومجالسِ وعظه، عن الذهبي وغيره ١٥٣
رجع إلى أخبار لسان الدين ١٥٧
من شعر لسان الدين وأخباره ١٥٧
تحقيق في شأن بيتين يقال إنهما قيلا في لسان الدين ١٥٩
عود إلى أخبار لسان الدين ١٦٠
من قصيدة لابن زمرك يعرض فيها بلسان الدين ١٦٠
قصيدة أخرى لابن زمرك يهنىء فيها سلطانه الغني بالله بفتح بلاد المغرب وظفره بابن كاس مجير لسان الدين ١٦٣
قصيدة ثالثة لابن زمرك يهنىء بها سلطانه، قالها بعد مقتل لسان الدين ١٦٨
رجع إلى أخبار لسان الدين ١٧١
تصنيفه كتابًا يحتج فيه لجواز المبايعة بالملك لمن لم يبلغ الحلم وقد سماه «إعلام

الأعلام، بمن بويع من ملوك الإسلام، قبل الاحتلام» ١٧١
تصنيفه كتابًا يذكر فيه نباهة سلفه وقد سماه «المباخر الطيبية، في المفاخر الخطيبية»
وقدمه للسلطان عبد العزيز حين انحيازه إليه ١٧١
استعطاف الوزير أبي بكر بن عمار إلى المعتمد بن عباد حين قبض عليه ١٧٢
نكبة عبد المؤمن بن علي للوزير أبي جعفر بن عطية ١٧٤
من اعتذارات ابن عطية لعبد المؤمن بن علي ١٧٥
ذكر بعض الأدباء من آل عطية ١٧٨
إجازة بين عبد المؤمن بن علي ووزيره أبي جعفر بن عطية ١٧٨
من رسالة لأبي جعفر بن عطية كانت السبب في ظهور تفوقه ١٧٨
الباب الثالث من القسم الثاني من الكتاب، في ذكر شيوخ لسان الدين بن الخطيب ١٨٢
محمد بن أحمد، الحسني، السبتي، قاضي الجماعة ١٨٢
مرثية الوزير ابن زمرك لشيخه قاضي الجماعة الحسني، المذكور ١٩٠
أبناء القاضي الحسني المذكور ١٩٠
من شيوخ لسان الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي ١٩٢
بعض ما أنشده لسان الدين من شعر شيوخه، ولم يسمهم ١٩٤
من شيوخ لسان الدين قاضي قضاة فاس أبو عبد الله المقري جد المؤلف (ترجمة مستفيضة) ١٩٥
ترجمة أبي موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدالي (من شيوخ المقري الكبير) .. ٢٠٨
ترجمة أبي إسحٰق إبراهيم بن حكم السلوي ٢٠٩
ترجمة أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر، المجاصي ٢١٩
ترجمة الشريف القاضي أبي علي حسن بن يوسف بن يحيىٰ، الحسيني، السبتي ٢٢١
ترجمة قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية، القرشي ٢٢٣
ترجمة لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي التميمي ٢٢٣
ترجمة لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور ٢٢٣
ترجمة لأبي عبد الله محمد بن الحسين البروني ٢٢٤
ترجمة لأبي عمران موسى المصمودي الشهير بالبخاري ٢٢٤
ترجمة لأبي عبد الله محمد بن يحيىٰ بن علي بن النجار ٢٢٤
ترجمة لأبي الحسن علي بن أبي بكر بن سبع بن مزاحم، المكناسي ٢٢٦
ترجمة لأبي عبد الله محمد بن حسين، القرشي، الزبيدي، التونسي ٢٢٧
ترجمة لإمام أهل الحديث في عصره أبي محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي ... ٢٢٧
ترجمة أبي عبد الله محمد بن سليمان السطي ٢٢٨

سرد جماعة من شيوخ المقري الكبير ٢٢٨
ترجمة أبي عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط ٢٢٨
ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن الجمال ٢٢٩
ابنا أبي عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي، وهما أبو عبد الله محمد، وأبو العباس أحمد ٢٢٩
أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب الصنهاجي ٢٢٩
أبو عبد الله محمد بن محمد الغزموني ٢٣٠
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم العبدري ٢٣٠
أبو عبد الله بن أحمد بن شاطر الجمحي ٢٣٤
ذكر جماعة من شيوخ المقري الكبير بتلمسان ٢٣٦
ذكر شيوخه في تونس ٢٣٧
شيوخه في فاس، وفي أغمات ٢٣٨
شيوخه في مكة، وفي المدينة، وفي الشام ٢٣٩
رواية ابن خلدون عن شيخه أبي عبد الله المقري الكبير ٢٤٠
من فوائد المقري الكبير في مواضع مختلفة ٢٤١
من فوائده التي ذكرها تلميذه النظار أبو إسحٰق الشاطبي في كتابه «الإنشاءات والإفادات» ٢٤٩
من فوائد المقري الكبير مما لم يذكر سابقاً ٢٤٩
ترجمات قصار للمقري الكبير عن صاحب كتاب «نيل الابتهاج» وعن المرزوقي، وعن الونشريسي ٢٦١
مؤلفات المقري الكبير ٢٦٥
بعض فوائد المقري الكبير التي أودعها كتابه «المحاضرات» ٢٦٧
رجع إلى سرد مؤلفات المقري الكبير ٢٨٩
من فوائد المقري الكبير التي أودعها في كتابه «الحقائق والرقائق» ٢٨٩
من نظم المقري الكبير ٣٠٦
لمحة العارض لتكملة تائية ابن الفارض ٣٠٦
من شعره الذي رواه لسان الدين في الإحاطة ٣١٥
ومن شعره الذي لم يذكره في الإحاطة ٣١٦
تلامذة المقري الكبير ٣١٧
ترجمة ابن عباد الرندي شارح حكم بن عطاء الله الإسكندري ٣٢١
عود إلى شيوخ لسان الدين ٣٢٥
ترجمة أبي محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد ٣٢٦

ترجمة الفقيه يونس بن عطية (ابن أبي عفيف) الونشريسي ٣٢٧
أبو علي عمر بن عثمان الونشريسي ٣٢٧
أبو جعفر أحمد بن محمد، الجنان، الأوسي ٣٢٧
أبو عبد الله بن أبي رمانة ٣٢٨
أبو علي الحسن بن عثمان بن عطية الونشريسي ٣٢٨
أبو العباس أحمد بن عاشر ٣٣٠
أبو عبد الله محمد بن علي الفخار البيري ٣٣٠
أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني ٣٣٤
عود إلى ترجمة ابن الفخار، وذكر فوائده ٣٥٣
أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن حذلم، وذكر نموذج من شعره ٣٥٦
وفاة ابن الفخار ٣٥٧
من مشايخ لسان الدين أبو عبد الله بن عبد الوالي العواد ٣٥٨
ومنهم أبو عبد الله بن بييش ٣٥٨
ومنهم قاضي الجماعة أبو عبد الله بن أبي بكر، الأشعري، المالقي ٣٥٩
ومنهم ابن أبي يحيىٰ، واسمه إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر، التسولي ٣٦١
ومنهم محمد بن أحمد الطنجالي الهاشمي ٣٦٤
ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق (ترجمته باستفاضة عن لسان الدين) ٣٦٥
نماذج من شعر ابن مرزوق ٣٧٢
خطاب من لسان الدين إلى ابن مرزوق حين قدم على بني مرين مفلتًا من الأندلس ٣٨٨
نكبة ابن مرزوق وخلاصه منها ٣٨٣
تقريظ لسان الدين لشرح شفاء القاضي عياض لابن مرزوق ٣٨٦
ترجمة أبي عبد الله بن مرزوق عن المؤرخ ابن خلدون ٣٨٧
ترجمة ابن مرزوق عن الحافظ ابن حجر ٣٨٩
ترجمته عن الخطيب القسمطيني ٣٨٩
ترجمة محمد بن محمد بن أحمد بن أبي عبد الله بن مرزوق (ويعرف بابن مرزوق الكفيف، وهو والد أم جد المؤلف) ٣٩٣
ترجمة عالم الدنيا أبي عبد الله محمد بن مرزوق (المعروف بابن مرزوق الحفيد) ٣٩٤
ومن شيوخ لسان الدين أبو الحسن علي بن الجياب، الأنصاري، الغرناطي ٤٠٧
رثاء لسان الدين لشيخه ابن الجياب ٤١٩
رثاء الفقيه أبي عبد الله بن جزي لأبي الحسن بن الجياب ٤٢١
مطالع ثلاث مراث في ابن الجياب ٤٢٥

من شعر ابن الجياب في الألغاز ٤٢٦
من نظم ابن الجياب في رثاء عمر بن علي بن عتيق القرشي الغرناطي ٤٢٩
بين ابن الجياب وابن أبي العافية وغيرهما ٤٣١
بين ابن الجياب وأبي محمد بن أبي المجد ٤٣١
ترجمة عبد الله بن عبد البر بن علي بن سليمان الرعيني (المعروف بابن أبي المجد) . ٤٣١

